

ألفرد دوبلن

برلين، ميدان الإسكندر

ترجمة: محمد جديد

رواية

المؤلف: ألفرِد دوبْلِن
عنوان الكتاب: برلين، ميدان الإسكندر
ترجمة: محمد جديد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣

Author: Alfred Döblin
Title: Berlin Alexander platz
Translator: Mohammed Jadid
P.C.: Al-Mada
First Edition: 2013

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧

www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2843061318

ألفْرِد دوبْلِن

برلين، ميدان الإسكندر

ترجمة

محمد جديد

حديث عن الرواية والكاتب

تُعَدّ قصة عامل النقل، فرانتس بيبركوبف، الذي تمّ إطلاق سراحه من سجن برلين في تيفِل، ويودّ أن يستعيد موقعه في الحياة رجلاً شريفاً، أوّل رواية ألمانية مستمدة من الحياة في المدن الكبرى، تتمتع بمكانة في الأدب. وتمثل برلين العشرينات من القرن الماضي مسرح الأحداث. وفي هذه الأثناء تتحوّل المدينة الكبرى إلى لاعب يتبارى مع فرانتس بيبركويف، العنيد، ذي النفس الطيبة، الذي يحاول أن يرغم أنف هذا العالم المُغْوي، والذي لا هوادة عنده ولا رحمة، أيضاً. وبرواية: "برلين، ميدان الإسكندر" وَلّى دوبلن ظهره للرواية التي تتناول حياة الطبقة الوسطى. فهنا لم يجرِ تحليل مصير فرد واحد مستقل. لقد عرف الحدث الجماعي العام، في موقف إنساني وصياغة أدبيّة تصلح لأن تكون نموذجاً يحتذى به. وهذا العمل يُعدُّ من الملاحم الكبرى في عصرنا.

ألفرد دوبلن: ولد في العاشر من آب ١٨٧٨ في شتيتِن، وكان طبيب أعصاب في برلين، وهناك شارك في تأسيس مجلة «العاصفة» ذات النزعة التعبيرية (expressionistisch)، وفي العام ١٩٣٣ كانت الهجرة إلى باريس، وفي العام ١٩٤٠، كانت الهجرة إلى أميركا، والتحوُّل إلى الكاثوليكية. وبعد الحرب العالميّة الثانية كانت العودة بصفة ضابط فرنسي، إلى ألمانيا، محرّراً للمجلّة الأدبيّة «البوّابة الذهبية»، «١٩٤٦–١٩٥١»، ومشاركاً في تأسيس أكاديمية ماينتس «١٩٤٩». وبدافع خيبة الأمل في ألمانيا ما بعد الحرب عاد في العام ١٩٥٣، إلى باريس. ومات في ٢٦ حزيران ١٩٥٧ في إيّميندِ نْغِن.

هذا الكتاب يتحدث عن عامل سابق في الإسمنت والنقل، هو فرانتس بيبر كوبف في برلين، أُطْلِق سراحه من السجن، حيث كان يقبع، بسبب أحداث قديمة، وعاد إلى برلين وأراد أن يكون فاضلاً، مستقيماً.

وهو يصيب في هذا نجاحاً في البداية، غير أنه يتورَّط بعد ذلك، على الرغم من أن أحواله المادية تسير على نحو باعث للرثاء، في صراع، بكل معنى الكلمة، مع شيء يأتيه من الخارج، ولا يمكن تقديره، ويبدو كأنه قَدَر.

ويسير هذا، ثلاث مرات، معاكساً للرجل، ويكدِّر صفوه ويفسِد عليه مخطط حياته. فهو يندفع نحوه بالدُّوار والخِداع. على أن الرجل يستطيع أن يُفيق، ويستجمع طاقاته، من جديد، فهو مازال ثابت القدم.

وهذا يَصدِمه ويضربه بنذالة، لقد بات يصعب عليه أن ينهض، إنه يوشك أن يُصْرَف بعد دفع أجوره المستحقة.

وفي نهاية الأمر يحبطه، بغلظة وخشونة هائلتين، تصلان إلى الحد الأقصى.

بهذا أُرْدِيَ قتيلاً صاحبنا، الرجل الطيب الذي ظل، حتى اللحظة الأخيرة، مشدود القامة، متماسكاً، وهو يسلِّم بخسارة اللعبة، على أنه ما عاد يعرف مزيداً على ذلك، ويبدو أنه فُرِغ منه، ولكن قبل أن يفرغ من نفسه بطريقة متطرفة، سوف يتنبَّه بطريقة لا أُسَمِّيها هنا، ويتوقف عليها كل شيء، والحق أن كل شيء يتوقف عليه هو، ولقد بات الناس يرَوْن هذا، من خلال مخطط حياته، الذي كان يبدو كأنه اللاشيء، غير أنه يبدو الآن، فجأة مختلفاً كل الاختلاف، فهو ليس بالبسيط، ويكاد يكون بَدَهيّاً، بل هو ذو كبرياء وصلف، لا يدري شيئاً، كما أنه وقح، وهو، إلى ذلك جبان، مفعَم بالوَهْن.

لقد كان الشيء الرهيب، الذي كان حياتَه، يكتسب معنى، إنه استشفاء بالعنف، قد أُجْري مع فرانتس بيبر كوبف، ونحن نرى، من جديد، في النهاية، الرجلَ واقفاً في ميدان الإسكندر، وقد تغيَّر كثيراً، وعَدَت عليه عوادي الزمن، غير أن تقوُّس الظهر اعتراه في إبّانه.

سوف يكون من المجدي النظر في هذا وسماعُه، بالنسبة إلى الكثيرين الذين يستكينون، مثل فرانتس بيبركوبف، في إهاب البشر والذين جرى لهم مثل الذي جرى لهذا المدعو فرانتس بيبركوبف، وهو أن يبتغوا من الحياة أكثر من الخبز المطليّ بالزبدة.

الكتاب الأول

هنا، في البداية، يغادر فرانتس بيبركوبف سجن تيفيل الذي كان عاش فيه حياة غير ذات معنى. ويعود إلى تثبيت قدميه في برلين، من جديد، بصعوبة، غير أنه يصيب آخر الأمر نجاحاً يَقرُّ به عيناً، ويُقْسِم أن يكون مهذَّباً مستقيماً.

كان يقف أمام باب سجن تيفيل، وقد بات حُراً، وقد كان ما يزال، بالأمس في الخلف، في الحقول، ينكت الأرض ويستخرج منها البطاطا مع الآخرين، في ثياب المساجين، أمّا الآن فكان يسير في معطف صيفي أصفر، وكانوا ينكتون الأرض في الخلف، أما هو فقد بات حراً، وكان يدع حافلة كهربائية تمر به وراء الأخرى، ويضغط بظهره على الجدار الأحمر، ولا يذهب، ومرّ به المشرف لدى الباب في نزهة، بضع مرات، وأراه المسار الذي يفترض أن يسلكه، فلم يذهب.

وكان قد آن أوان اللحظة الرهيبة «أهي رهيبة، يا فرانتس، ولماذا تُعَدُّ رهيبة؟» لقد انصرمت السنوات الأربعة، وكانت مصاريع الباب الحديدية السوداء التي لبث يتأمّلها منذ عام بكراهية وهي تزداد وتتنامى قد أوصِدَت من ورائه. لقد أخرجوه إلى الخلاء من جديد. وما زال الآخرون يقبعون فيه، يمارسون النجارة والدّهان، والفرز والتصنيف واللَّصْق، أمامهم عامان أو خمسة أعوام. ووقف عند محطّة الحافلات.

وتبدأ العقوبة.

هزّ جسده، وابتلع ريقه، وداس بقدمه على القدم الأخرى. ثم بدأ يتحفَّز للصعود وقعد في الحافلة الكهربائية، في وَسط الناس. وإذ بها تنطلق، وأحسّ في البداية

كما لو أنّ المرء يقعد لدى طبيب أسنان يمسك بجَذْرٍ من جذور الأسنان بكمّاشته، وهو يجرُّه والألم يستفحل فيلتفت برأسه عائداً به إلى الوراء، نحو البحر الأحمر، والحافلة الكهربائية تنطلق به بسرعة الريح على قضبانها. ثم ما عاد ينتصب في اتجاه السجن سوى رأسه. وانعطفت العربة، وبدأت تظهر الأشجار والمنازل، وشوارع مفعمة بالحياة، وكان الشارع والناس، يصعدون داخلين ويخرجون نازلين، وصرخ صوت يقول وقد أخذه الفزع: انتبهوا، انتبهوا، فالحافلة تنطلق. أما أرنبة أنفه فكانت مسافِرة، وكان يُسْمَع أزيزُ فوق وجنته.

«جريدة منتصف النهار، الساعة الثانية عشرة»، جريدة «B.Z»، «أحدث الصحف المصوّرة». «الفونك شتونده نويْ»، هل يوجد بعدُ أحد يريد الصعود؟». الشرطة يرتدون الآن حُلَلاً زرقاً، ونزل من العربة، من دون أن يلاحظه أحد، وبات بين ظهرانَيْ الناس. ما الذي حدث، يا تُرى؟ لا شيء. توقُّف. خنزيرٌ أَضَرَّ به الجوع. هيّا فلتستجمع قوّتك ولتنهض، فسوف تشم قبضتي. إنه ازدحام، فيا له من ازدحام! كيف كان يتحرَّك؟! إنّ دماغي ما عاد فيه، بلا ريب، دهن أو شحم. ولا ريب في أنه اعتراه الجفاف الكامل. فأيَّ شيء كانَه هذا كلّه؟! مَحالٌ للأحذية ومحال للقبعات ومصابيح كهربائية ومقاصف، لا بد أن تكون للناس أحذية ما داموا يَعْدون كل هذا العَدْوِ هنا وهناك، ولدينا صناعة أحذية، ونريد أن نتشبَّث بهذا. مائة من الأقراص البيض، فلندع هذه تومض وتَبرُق، ولن تظل تبعث في نفسك الخوف، بل أنت تستطيع أن تكسرها بلا ريب، وذلك أن ما أصاب هذه إنما امَّحى بالمسح حتى بات مكانه خالياً من أي أثر. وكان القوم يقتلعون قطع البلاط في ميدان روزِنتال وأخذ يمضي بين البلاطات الأخرى على ألواح سميكة من الخشب. وكان الواحد من الناس يختلط بالآخرين، وهنالك يتبدَّد كل شيء، وعندها لا تلاحظ شيئاً، أيها الفتى. هاهي ذي الشخوص تنتصب في نوافذ العرض في حُلَلِها، وفي معاطفها، وفي أثوابها وتنانيرها، وفي جواربها وأحذيتها، وفي الخارج كان يتحرك الناس جميعاً– ولكن لم يكن ثمة شيء وراء ذلك! ولم يكن – يعيش– شيء! وكانت للناس وجوه قد بان فيها البِشْر والسرور، ويتضاحكون، وينتظرون قبالة الجزيرة الواقية، جزيرة آشِنْغر،

مثنى وثُلاث، يدخنون اللفافات، ويتصفّحون الجرائد. وكذلك كان ينتصب هذا هنا مثلما تنتصب المصابيح– ويزداد جموداً على نحوٍ مطَّرِد، وكلٌّ منهم ينتمي إلى الآخرين، إلى المنازل، وكان كل شيء أبيضَ وكل شيء خشب.

وسرى فيه الفزع، حين سار منحدِراً في شارع روزِنتال، وجلس، في مقصف صغير وأمامه رجل وامرأة، لِصْقَ النافذة، يصبّان لنفسَيْهما البيرة، من آنية من فئة نصف الليتر، في حلقومَيْهما، بل كانا يشربان كلَّ ما كان فيها على أية حال. معهما شوكتان يطعنان بهما قطعاً من اللحم يدّسانهما في الفم ثم يسحبان الشوكتين من جديد، ولم يكونا ينزفان. آه! لقد كان جسده يتشنَّج، ولا يتخلَّص من هذا، فإلامَ له أن يؤتي وجهه؟ أن ينبغي لي أن أُوَلِّي وجهي؟ وجاءه الجواب: إنها العقوبة.

ولم يكن في وسعه أن يعود أدراجه، إذ كان قد انطلق بالحافلة الكهربائية موغِلاً في الابتعاد، وقد أطلق سراحه من السجن ولا بدّ أن يبتعد أكثر بعد.

وقال في نفسه وهو يتنّهد: هذا ما أعلمه، لا بدَّ من الدخول إلى هنا وقد سُرِّحت من السجن– إذ عليهم أن يسرِّحوني، إذ انقضت العقوبة، فللعقوبة نظامها، والبيروقراطيّ يؤدي واجبه، وسأدخل هذا المكان، وأنا لا أودُّ ذلك، يا إلهي فأنا لا أستطيع.

وكان يتجوَّل في شارع روزِنتال مارّاً بمتجر فيرتهايم وانعطف يميناً داخلاً شارع سوفين الضيق. وقال في نفسه: هذا الشارع أكثر ظلمة، وحيثما تكون الظلمة سيكون ذلك أفضل والمساجين يودَعون فُرادى، في زنزاناتٍ وجماعات. ففي السجن الإفراديّ يظل السجين معزولاً في الليل والنهار بغير انقطاع، عن السجناء الآخرين، وفي حالة السجن في الزنزانات يتم إيواء السجين في زنزانة، ومع ذلك فهو يظل حُراً في حركته، وفي حالة التعليم، والعبادة، يُجْمَع بينه وبين الآخرين. وكانت السيارات تنطلق بسرعة جنونية، وتتواصل رنّات أجراسها، وكانت جبهة من المنازل تنطلق مسرعة إلى جانب جبهة أخرى، من دون توقُّف، وكانت أسطح المنازل تسبح، فوق المنازل، عائمة في الهواء، وتاهت عيناه وهي تتوجّه نحو الأعلى: لو

أَنَّ الأسطح لا تنزلِق هابطة فحسب. غير أن المنازل كانت تنتصب مستقيمة فإلى أين كان ينبغي أن أُوَلّي وجهي، أنا الشيطان المسكين. وكان يجرِّر قدميه محاذياً جدار المنازل على طوله، ولم ينتهِ بذلك إلى نهاية. إنني لمغفَّل كبير للغاية، فسوف يستطيع المرء هنا، بلا ريب، أن يشق طريقه في مِشية المتلوّي كالأفعى، وما هي إلاّ خمس دقائق، أو عشر، ثم يشرب المرء قدحاً من الكونياك ويقعد. ويترتَّب الشروع في العمل على الفور بمجرد صدور إشارة مناسبة من الجرس. ولا يجوز التوقُّف عنه إلاّ خلال الفترة المحَّددة للطعام أو للنزهة أو التعليم. وفي حالة النزهة يترتَّب على المساجين أن يدعوا أذرعهم ممدودة باتجاه الخارج وأن يحركوها نحو الأمام وإلى الخلف.

وهنا كان منزل، وحوَّل بصره عن بلاط الشارع، وفتح باباً للمنزل بصدمة من يده، وجاء من صدره صرخة «آه، آه» حزينة على شكل غمغمة، وصَفقَ ذراعيه إحداهما فوق الأخرى، هكذا، يا بنيّ، لا ترتجف من البرد. وانفتح باب الفِناء، وكان رجل يرتشف شراباً ما وهو يمرُّ به، ثم جعل نفسه وراءه، ولم يصدر عنه أنين ولا تَأَوُّه وكان التأوُّه والأنين يبعثان في نفسه الارتياح وكان في السجن الانفرادي الأول يئن ويتأوّه هكذا وكان يسرُّه أن يسمع صوته، هنالك يكون لدى المرء شيء، ولا يكون كل شيء قد مضى وولّى بعد. وقد كان الكثيرون يفعلون هذا في الزنزانات، فكان فريق منهم يفعله في البداية الآخرون يفعلونه بعد حين عندما يشعرون بالوحدة. ثم شرعوا في ذلك، وكأنّ هذا ما زال شيئاً من طبيعة البشر، إلاّ إذا كان يواسيهم. وكذلك كان الرجل يقف في دهليز المنزل، ولا يسمع الجلبة الباعثة للفزع، من الشارع، ولم تكن توجد هنا المنازل المجنونة، وكان يَنْعَر بفم مدبَّب الشفتين، وقد استجمع شجاعته وكوَّر يديه في جيبيه، وكانت كتفاه في المعطف الصيفيّ الأصفر، متقلِّصَّتيْن في تأهُّب للدفاع.

وكان امرؤٌ غريب قد جعل نفسه وراء المحكوم عليه بالعقوبة، الذي سُرِّح، ويرمقه بنظراته، ويسائله: «هل أصابك شيء، أليست حالك على ما يرام، وهل تُحِس بآلام؟»، ولم يكد يلاحظه حتى أمسك عن النعير «هل ألمّ بك مكروه، وهل

تسكن هنا، في المنزل؟»، وكان هذا يهودياً ذا لحية حمراء كاملة، وهو رجل قصير القامة يرتدي معطفاً ويعتمر قبعة سوداء من المخمل، وفي يده عصا «كلاّ، أنا لا أقطن هذا المنزل» ولا بُدَّ له أن يخرج من الدهليز، وقد كان الدهليز جيّداً. والآن هو في الشارع من جديد، وها هي واجهات المنازل، ونوافذ العرض والشخوص المستعجلة ذوات السراويل، وأزواج الجوارب الفاتحة اللون، وكلهُّم في عجلة من أمرهم، منهوكي القوى، وفي كل لحظة شخص جديد، ولما كان قد عقد العزم فقد دخل من جديد وما من شك في أنه خليق أن يفعلها، وكان يعرف من قبل أين كان يكمن المخرج، وبصوت خافت شرع في موسيقاه من جديد، النعير والهَمْهَمة، ولن أخرج من جديد إلى الشارع، ودخل اليهودي الأحمر من جديد إلى المنزل، ولم يكتشف الآخر عند الدرابزين أوَّل الأمر، وسمعه يدندن. «والآن فلتَقُلْ لي ماذا تصنع هنا؟ أَلَسْتَ على ما يرام؟» وتحرّر من عمود الدرابزين وانطلق نحو الفناء، وحين لامس مصراع الباب رأى أن هذا كان يهوديَّ المنزلِ الآخر. «هلاّ انصرفت بربِّك! وما عساك تريد منّا؟» «لا شيء، لا شيء» سوف يكون في وسع المرء أن يتساءل، وأنت تتنهَّد وتتأوّه، قائلاً: «كيف حالك» ومن خلال شِقّ الباب قُبالتنا، ها هي، مرة أخرى، منازل الأزواج والزوجات، والبشر المتزاحمين، والأسقف المنزلقة، وفتح المُسرَّح من العقوبة باب الفناء ومن ورائه اليهودي: «والآن، الآن، مهما يكن ما يحدث فلن يكون بالغ السوء إلى هذا الحد، ولن ينحّط الإنسان، ولن ينتهي إلى الفساد. وبرلين كبيرة، وحيثما يعيش الألوف فسوف يعيش معهم واحد آخر.

وكان هناك فِناء عال، مظلم، وكان هو يقف إلى جانب صندوق القمامة، وفجأة انطلق بالغناء والصياح، وكان يغني كأنما يخاطب بغنائه الجدران، أما قبعته فقد نزعها عن رأسه مثلما يفعل عازف الأرغن المُتوسِّل، وكان اللحن يرتدُّ إليه من الجدران، وكان هذا مستحَسناً، صوته يملأ أذنيه، وهو يغني بصوتٍ يبلغ من الارتفاع ما لم يكن من الجائز أبداً أن يغني به في السجن، وما الذي كان يغنيه بحيث ترتد إليه ألحانه من الجدران؟ «كان نداء يهدر عاصفاً كدَوِيّ الرعد» ثابتاً كالنداء الحربيّ، يبلغ من السامع لُبابه وصميمه، ثم صيحة الجَذَل والابتهاج «Juvivallera»

تنطلق من قلب أُغْنيَّة، ولم يكن أحد يلاحظه أو يَحْفِل به. وتلقّاه اليهودي لدى الباب الخارجي، يستقبله: «لقد غَنَّيْتَ فأحسنت الغناء، لقد كان في وسعك أن تكسب الذهب بمالَك من صوت». وتبعه اليهوديّ في الشارع، وأمسك به من ذراعه، وتابعا السير معاً وهما منهمِكان في حديث لا ينتهي إلى أن انعطف داخلَيْن في شارع في شارع غورْمَن، اليهوديّ. والفتى الطويل، ذو العظام الصلبة، في المعطف الصيفيّ، يضغط شفتيه، إحداهما على الأخرى، كأنه مُرغم أن يبصق مرارته.

وقاده إلى حجرة تتَّقد فيها نار مدفأة حديدية، فأقعده على الأريكة: «ها أنت هنا، فاجْلِسْ بهدوء، وفي وسعك أن تدع قبعتك على رأسك، أو تطرحها، كما تشاء. ولا أريد إلاّ أن آتي بامرِئٍ سوف يروق لك، وذلك أنني لا أسكن هنا، أنا نفسي. فلست هنا سوى ضيف مثلك، المسألة الآن هي أن الضيف الواحد يجرُّ وراءه الآخر، حين تكون الحجرة دافئة فحسب.

وكان المُسرَّح من السجن يقعد وحيداً، وكان نداء يَهْدِر عاصفاً كدَوِيّ الرعد، أو كصليل السيوف وتلاطم الأمواج واصطخابها، وكان ينطلق بالحافلة الكهربائية، ويرسل بصره نحو الخارج في نظرة جانبية، والأسوار الحُمْر تُرى من بين الأشجار، وخضرة الأشجار تتساقط، ملوَّنة كالمطر، وكانت الأسوار تنتصب قبالة عينيه، وكان يتأملها، وهو على الأريكة، من دون كلل إنها لسعادة كبرى أن يسكن المرء في هذه الأسوار، إذ يعرف المرء كيف يبدأ النهار وكيف تتواصل مسيرته «أيْ فرانتس، أنت لا تود أن تختفي عن الأعين، بلا ريب، فلقد لبثت طوال الأعوام الأربعة مستكيناً، فلتكن جريئاً ولتنظر حواليك، إذ لا بُدَّ أن ينتهي التواري إلى غايته ذات مرة» إذ أنّ كل غناء، وصفير، وصخب، لمحظور. ولا بُدَّ للسجناء أن ينهضوا في الصباح على أثر إشارة النهوض فوراً، وأن يرتبوا أثاث المهجع، ويغتسلوا، ويسرِّحوا شعورهم، وينظفوا ثيابهم ويرتدوها. ولا بُدَّ من تسليم الصابون بكمية كافية. بُمْ، إنها ضربة جرس، ثم النهوض قياماً. بُمْ، إنها الخامسة والثلاثون، إنه فتح قفل الباب. بُمْ، بُمْ، إنهم يخرجون، وإنه تَلَقّي طعام الصباح، ووقت العمل، والساعة الحرة. بُمْ، بُمْ، إنه منتصف النهار، ياغلام، لا تَلْوِيَنَّ شفتيك، فأنت لا

تُعطى عَلَفاً للتسمين هنا، أما المُغَنّون فلا بد لهم من الإبلاغ عن أنفسهم. وأما تقليد المغنين الوظائف والمهام فيكون في الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين، وأنا أبلغ عن قدومي بصوت أَجَش. وفي الساعة السادسة يكون إغلاق الباب. عِمْتم مساءً، لقد حققنا ذلك. إنها لسعادة كبرى أن يسكن المرء في هذه الأسوار أَمَّا أنا فقد انطلقوا بي في السيارة إلى الوحل والأقذار، لقد كنت أوشكت أن أقتل، غير أنها كانت مجرد جريمة قتل عَمْد، بل إصابة الجسد إصابة أفضت إلى الموت، ولم تكن على هذا الجانب من السوء، لقد كنت قد أصبحت وغداً لئيماً، بل منحطاً سافلاً، ولا ينقصني الكثير لأكون من المتشرِّدين.

وكان يقعد قبالته، منذ زمن طويل، يهوديّ طويل، شيخ، طويل الشعر ذو قبعة صغيرة سوداء على مؤخَّر رأسه. كان يعيش في مدينة سوزان، ذات مرة، رجل يقال له مردخاي، رَبىّ إستير، ابنة عمه، غير أن الفتاة كانت جميلة القوام، جميلة المظهر، وحَوَّل الشيخ عينيه عن الرجل، وأدار رأسه عائداً به نحو الأحمر: «من أين أتاك هذا الرجل؟» «لقد لبث يعدو من منزل إلى منزل، ثم استقر به المقام في فناء، وبدأ يغني» «يغنّي؟» «أغانيٍّ حربية» سوف يرتجف من البرد» «ربما» وكان الشيخ يتأمله. لا ينبغي لليهود أن يشتغلوا بجثة في اليوم الأول من العيد، أما في اليوم الثاني فلا ينبغي ذلك للإسرائيليين كذلك، بل يصح هذا حتى على يَوْمَيْ عيد رأس السنة ومن عساه يكون واضع التعليم التالي للأحبار: «عندما يأكل امرؤ من جثة طائر طاهر لا يكون نَجساً، ولكن حين يأكل من أمعائه أو حوصلته يكون نَجساً؟ ومدَّ الشيخ يده الطويلة الصفراء إلى يد المسرَّح من السجن، التي كانت ترقد على معطفه، يختبرها: «أنتَ، ألا تريد أن تخلع معطفك؟

الجوّ حارّ هنا، ونحن طاعنون في السن، نرتجف من البرد في العام كله. أما أنت فسيكون هذا أكثر مما ينبغي بالنسبة إليك».

وكان يقعد على الأريكة، ناظراً بطرف من عينه إلى يده، وهو يسير من فناء إلى آخر بين الشوارع، ولم يكن للمرء بُدٌّ أن يرى أين يوجد في العالم شيء ما، وهَمَّ ان ينهض قائماً، وأن يخرج إلى الباب، وكانت عيناه تتلمّسان، في الحيِّز المظلم،

الطريق إلى الباب، وهنا ردَّه الشيخ، ضاغطاً بيده عليه، إلى الأريكة: «والآن فلتمكث بربك، فما عساك تريد». وكان يريد الخروج، غير أن الشيخ أمسك به من معصمه، يشدّ عليه: «إننا نريد أن نرى حقاً، من تُراه الأقوى، أأنتَ أم أنا، فهلاّ ظللت قاعداً حين أقول هذا» وصاح الشيخ: «والآن، سوف تظل قاعداً، فسوف تسمع عما قريب ما أقول، أيْ صاحب الدم الفتيّ. ولتتماسك، أيها اللئيم»، وقال للأحمر، الذي كان يمسك بالرجل من كتفيه: «فلتنصرف، انصرِفْ من هنا، لقد ناديتك، وسأتخلَّص منه عمّا قريب».

ماذا يبتغي منه هؤلاء القوم، لقد كان يريد الخروج، وهَمَّ أن ينهض باذلاً كل جهده، غير أن الشيخ كان يضغط عليه بثقله إلى أسفل. هنالك صرخ قائلاً: «ماذا تصنع بي؟» «فلتشتم فحسب، ولسوف تزداد شتيمة» وينبغي لك أن تَدَعني، فلا بُدَّ لي من الخروج» «ربما إلى الشارع، ربما إلى الفناء؟»

هنالك نهض الشيخ عن كرسيه قائماً، وجعل يروح ويجيء في الحجرة محدثاً جلبة وصَخَباً: «فلتدعه يصرخ قَدْرَ ما يشاء، ولتدعه يتصرف، ولكن ليس عندي، فلتفتح له الباب» «فما يكون، ينجم عنه، فيما عدا هذا، صراخ لديك» «ألا لا تأتيني بأناس إلى المنزل، يحدثون جلبة وصخباً، فأبناء الأخت مرضى، يرقدون في الخلف، ولَدَيَّ من الصخب ما يكفي» «والآن، أي حظ تعيس هذا، أنا لم أكن أعرف، ولا بد لك أن تصفح عني» وكان الأحمر يمسك بالرجل من يديه: «تعال معي، فإن منزل الحَبْر مملوء بسكانه، وأحفاده مرضى، وسوف نواصل مسيرتنا»، غير أن هذا أبى أن ينهض، «تعالَ» فلا بدّ له أن ينهض، هنالك همس قائلاً: لا تَجُرَّني: هلاّ تركتني هنا» «منزل هذا ملآن بسكانه، لقد سمعت» «فلتدَعني هنا بربك».

وكان الشيخ يتأمّل الرجل الغريب بعينين متوهّجتَيْن، إذ كان يقول راجياً: «لقد قال برميا، إننا نريد أن نشفي بابل، ولكنها استعصت على الشفاء. فلتغادروها، فإنّنا نريد أن نسحب كل امرئ إلى بلده. وقال إنه سيأتي السيف على الكلدانيين على سكان بابل «حين يكون هادئاً، يمكنه أن يظل معك، وحين لا يكون ساكناً ينبغي له أن يذهب» «حسناً، حسناً، لن نحدث جلبة، وسأقعد معه، وتستطيع أن تعتمد عليّ» وخرج الشيخ بشيء من الجلبة، من دون أن ينطق بكلمة.

هنالك قعد المُسرَّح من العقوبة في المعطف الصيفي الأصفر من جديد، على الأريكة، وكان الأحمر يروح ويجيء في الحجرة متنهّداً يهزُّ برأسه. والآن لا تحمل غِلاًّ عليّ لأن الشيخ كان جامحاً إلى هذا المدى. هل أنتم ممن تعوَّدوا الأسفار؟» «أجل، إني لكذلك– بل كنته–» الأسوار الحمر، الأسوار الجميلة، والزنزانات، فلا بُدّ له أن يتأمَّلها مَشوقاً. والتصق بظهره بالسور الأحمر. إنّ الذي بناه لَرَجُلُ ذكي. ولم ينصرف، وانزلق الرجل، نازلاً عن الأريكة كأنه دمية، إلى البساط، فأزاح المنضدة أثناء هبوطه، جانباً، وصاح الأحمر «ما الذي جرى؟»، وانحنى المُسَرَّح مُكِبّاً على البساط، وقد خرجت القبعة إلى جانب يديه منكّساً رأسه فوقه كأنه يغرسه في الأرض، ثم تنهَّد قائلاً: «داخلاً في الأرض، في التراب، حيث تسود الظلمة» وكان الأحمر يجرُّه، قائلاً: «بحق الإله، أنت في دار قوم غرباء، وحين يأتي الشيخ.

«هلا نهضت قائماً»، غير أن هذا لم يمكّنه من رفعه، وتشبَّث بالبساط، ومضى قائلاً وهو يتنهَّد: «عليك بالهدوء، بحق الإله، ولو سمع الشيخ، لا نلبث أن يفرَغَ كلٌّ منا من صاحبه» «لن يُخْرِجني أحد من هنا»، وكان يتحدث مثل خُلْد.

وحين لم يستطع الأحمر أن يرفعه، جعل يعبث بخصلات شعره على صدغَيْه، وأقفل الباب، وقعد، بحَزْم وعزم، إلى جانب الرجل، في الأسفل، على أرض الحجرة، ورفع ركبته ونظرَ، أمامه، إلى قوائم المنضدة: «والآن، هذا جميل، فلتبق هنا بلا حرج، وسأقعد معك أيضاً والحق أن هذا ليس بالمريح، ولكن لم لا، فأنت لن تتحدث عمّا دهاك، وسوف أقصُّ عليك شيئاً ما، وتأوَّه المُطْلَق السَّراح، وتنهَّد، ورأسه على البساط «ولكن لماذا تتأوّه وتتنهَّد؟ ينبغي لك أن تحزِم أمرك وتعقد العزم، ولا بد من سلوك طريق ما، وأنت لا تعرف طريقاً، يا فرانتس، أمّا القمامة القديمة فأنت لا تريدها، وأما الزنزانة فلم تكن تفعل فيها شيئاً سوى التأوّه والتنهُّد، والاختفاء ولم تكن تفكر، لم تكن تفكر، يا فرانتس. وتكلم الأحمر بلهجة لاذعة: «لا ينبغي للمرء أن يكثر من الحديث عن نفسه، بل ينبغي له أن يصغي إلى الآخرين،

ومن قال لك إنه جرى لك الكثير الكثير. إن الله لا يدع أحداً يسقط من يده، ولكن هناك أناس آخرون كذلك. ألم تقرأ عما فعل نوح في الفلك؟ في سفينته حين أقبل الطوفان الكبير؟ من كل شيء زوجَيْن، ولم ينسَ الله هؤلاء جميعاً، إذ كانوا جميعاً أعزة عنده، جديرين بالتقدير»، بدأ ذاك يبكي من الأسف مستعطفاً.

وتركه الأحمر يبكي بكاء المتوسِّل، وقال وهو يحك وجنتيه حكة يسيرة: «هناك الكثير من الأمور على وجه الأرض، ويستطيع المرء أن يَقُصَّ الكثير، وهو فتى حديث السن، أو طاعناً في السن.

وسوف أَقُصّ عليك، واعجباً، قصة زانوفيتش، ستيفان زانوفيتش، ولمّا تسمعْها بعد، وحين تتحسَّن حالتك انهض واجلس قليلاً. إن الدم ليرتفع لدى الإنسان إلى أن يبلغ رأسه، وليس هذا بالموافق للصحة. لقد حدثنا أبي الراحل بالكثير، ولقد طَوَّف في آفاق الأرض أيَّما تطواف، شأن الخلق من شعبنا، وبلغ السبعين، ومات بعد أمي، عليه الرحمة، ولقد عرف الكثير، وكان رجلاً ذكيّاً. وكنا سبعة أفواه جائعة، وكان يسرد علينا الأقاصيص حين لا يتوافر شيء يؤكل. ولا يشبع المرء من هذه الأقاصيص، غير أن المرء ينسى» وكان التنهُّد المكتوم في الأسفل يتواصل. «والتنهُّد شيء يستطيعه جمل مريض كذلك» «والآن، الآن، نحن نعلم أن ما يوجد في الدنيا ليس الذهب والجمال والمسرات فحسب. ومَنْ كان إذاً زانوفيتش، ومَنْ كان أبوه، ومَنْ كان والداه؟ متسوِّلين مثل معظمنا، وأصحاب دكاكين صغيرة، وتجاراً، ورجال أعمال، لقد جاء الشيخ زانوفيتش من ألبانيا، ومضى إلى البندقية، وكان يعرف من قبل لماذا ذهب إلى البندقية. وذلك أن فريقاً من الناس يذهبون من المدينة إلى الريف في حين يذهب فريق منهم من الريف إلى المدينة. والريف أكثر هدوءاً، والناس يقلبون كل شيء ويحوِّرونه. ففي وسعك أن تتحدث على مدى ساعات، وحين يواتيك الحظ تكون قد كسبت بضعة قروش. ولكن في المدينة يصعب ذلك، ولكن الناس يكونون أكثر تلاصُقاً، ولا يتوافر لديهم وقت. فإذا لم يكن هذا ذلك الفرد المعنيّ كان الآخر، والمرء لا يكون لديه ثيران، بل لديه خيول سريعة مع عربة حنتور، والمرء يكسب ويخسر. وهذا ما عرفه الشيخ زانوفيتش،

وكان قد باع في البداية ما كان لديه ثم أخذ ورقاً ولعب به مع الناس، ولم يَكُ رجلاً شريفاً، ولقد اتخذ تجارة معتقداً أن الناس في المدينة لا يتوافر لديهم الوقت، ويريدون التسلية، ولقد سلاّهم، على أن هذا كلّفهم القَدْر الكثير، الفادح من المال. إنه غشاش مخادع، ولاعب مخادع هذا المدعو زانوفيتش، ولكنه كان يتمتع بدماغ وأيِّ دماغ، وكان الفلاحون قد جعلوا الحياة صعبة عليه. أمّا في المدينة فكان يعيش حياة أسهل، ولقد سارت الأمور لديه سيراً حسناً، إلى أن قال أحدهم إنه قد أصابه ظلم. فواعجباً، هذا هو، على وجه الخصوص، ما لم يفكر فيه الشيخ زانوفيتش، وقال إن هناك ضربات، وهناك الشرطة، وأخيراً لم يكن للشيخ زانوفيتش بُدٌّ أن يبذل أقصى ما في وسعه، مع أبنائه. وكانت محكمة البندقية من ورائهم وقال الشيخ في نفسه إنه لا يريد أن يتسلّى بالمحكمة، بل كان يؤثر عدم التسلّي، إنهم لا يفهمونني، ثم إنهم لم يستطيعوا فهمه، لقد كانت لديه خيول وكان لديه المال، وكان قد ألقى عصا التسيار في ألبانيا واشترى عقاراً، بل قرية بأسرها، وبعث بأبنائه إلى المدارس ذات المستوى العالي. وحين بلغ من العمر عِتيّاً مات بهدوء، ميتة المحترمين. كانت هذه حياة الشيخ زانوفيتش. ولقد بكى عليه الفلاحون، غير أنه لم يكن في وسعه أن يحتملهم، لأنه كان يظل على الدوام يفكر في الوقت الذي كان يقف فيه أمامهم، بلُعَبه البراقة الزائفة، من الخواتم والأساور وسلاسل المرجان، وكانوا يقلّبونها ذات اليمين وذات اليسار، ويتحسَّسونها، وفي النهاية كانوا ينصرفون ويدعونه واقفاً، حيث كان.

هل تعلم، حين يكون الأب نبته صغيرة يود لو يكون ابنه شجرة، ولو كان الوالد حجراً لكان من الواجب أن يكون الولد جبلاً. لقد قال الشيخ زانوفيتش لأولاده: أنا لم أكن شيئاً هنا، في ألبانيا، مادمت أعمل بائعاً متجوّلاً، وظلت على هذه الحال طوال عشرين عاماً، ولم لا؟ لأنني لم أكن أحمل رأسي إلى حيث ينبغي له أن يكون، وسوف أبعث بكم إلى المدرسة الكبرى، إلى «بادوا»، فلتأخذوا خيلاً وعربات، وحين تَفْرغون من الدراسة، فلتذكروني. لقد كان الهمُّ والغم ينام مع أمكم، ومعكم، وفي الليل كان ينام معكم في الغابة، مثل ذكر الخنزير:

وكنت أنا المذنب في هذا. لقد امتصَّ الفلاحون مني كل عصارة وجفَّفوني مثلما تفعل بالمرء سِني القحط، ولقد كنت خليقاً أن يعتريني الفساد، ومشيت بين الناس، وهنا لم تَعْدُ عليَّ عادية الهلاك».

وضحك الأحمر وحده، وجعل يروح برأسه ويجيء، ويؤرجح جذعه. وكانا يقعدان فوق أرض الحجرة، على البساط: «حين يدخل الآن داخل قد يحسبنا، كلينا، مجنونين. لدينا أريكة ونقعد تلقاءها على الأرض. رباه، كما يشاء المرء، ولم لان إذا كان هذا يروق لنا. لقد كان زانوفيتش الحديث السن خطيباً مصقعاً وهو بعد فتىً في العشرين، وكان يستطيع الالتفات، وأن يجعل نفسه محبوباً، وكان يعرف كيف يكون رقيقاً مع النساء وكيف يتصرف مع الرجال تصرُّف النبلاء. وفي «بادُوا» يتعلّم النبلاء من الأساتذة، وكان ستيفان يتعلم من النبلاء، وكانوا جميعاً طيِّبين معه. وحين أتى بيته، في ألبانيا، مسروراً وكان أبوه مازال حيّاً يرزق، قَرَّ عيناً به، وكان يحبه، وقال: ألا فانظروا إلى هذا، هذا رجل للعالم. ولم يكن يبلغ العشرين حين كنت أتعامل مع الفلاحين، وهو يستبق أباه بمقدار عشرين عاماً... وكان الغلام يمسح على كُمَّيْه الحريرَّيَن، ويرفع الخصلات الجميلة عن جبينه، ويقبِّل أباه الشيخ السعيد: «ولكن أنت، يا أبي، وفَّرت عليّ أسوأ عشرين سنة» «ينبغي أن تكون هذه السنوات الأفضل في حياتك» كذلك قال الشيخ وهو يداعب فتاه الصغير ويلاطفه.

هنالك حدث للفتى زانوفيتش ما يشبه الأعجوبة، ولم تكن أعجوبة بلا ريب. لقد طار الناس إليه من كل حدب وصوب، وكان يملك مفاتيح القلوب كلها. وارتحل إلى الجبل الأسود، في نزهته فارساً، بالعربات والخيول ومع الخدم، وقرَّ والده عيناً برؤية ولده وقد بلغ أَشُدَّه، —الوالد نبتة صغيرة، والولد شجرة،— وفي الجبل الأسود تحدثوا إليه حديثَهم إلى كونت أو أمير، وما كان القوم ليصدِّقوا لو أنه قال: أبي يدعى زانوفيتش، ونحن نقيم في باستروفيتش، في قرية يُزْهى بها أبي! وما كان القوم ليصدقوه، فخرج على الملأ خروج النبيل من «بادوا»، وكان يبدو في مثل مظهره، ويعرف الناس جميعاً، وقال ستيفان ضاحكاً: «ينبغي لكم أن تكون لكم

إرادتكم، وكان يظهر للناس في صورة بولونيّ ثريّ، ومن أجل ذلك حسبوه ذلك الثري ذاته، حَسِبوه باروناً يقال له «فارتا»، وهنا قرّوا بذلك عيناً».

وكان المُسَرَّح من العقوبة قد اعتدل في جلسته بحركة مفاجئة، وكان يقعد القرفصاء على ركبتيه وجعل ينظر إلى الآخرين من عَلٍ. وقال: «قرد»، وردّ الأحمر بازدراء: «عند ذلك أغدو قرداً. وعندئذ يعرف القرد، بلا ريب، أكثر مما يعرف بعض الناس» وإذا الآخر يُرْغَم من جديد على الانكفاء إلى أرض الحجرة «ينبغي لك أن تندم، وأن تعرف ما حدث، أن تعرف ما تمسُّ الحاجة إليه!».

«وعلى هذا النحو يستطيع المرء أن يواصل الكلام. وما زال هناك الكثير مما ينبغي تعلّمه من البشر الآخرين لقد كان الفتى زانوفيتش على هذا الطريق، وهكذا تواصل سير الأمور. أنا لم أَشْهَدْه، كما أنّ أبي لم يشهده، ولكن في وسع المرء أن يتصوَّره. وعندما أسألك، أنت الذي تسميني قرداً –لا ينبغي للمرء أن يُحقِّر بهيمةً على أرضٍ الله، فهي تعطينا لحمها، وتولينا فيما عدا ذلك كثيراً من الصنائع والمكرُمات، ولتفكر في الحصان، أو في الكلب، أو في طائر غِرِّيد. والقرود لا أستطيع الحصول عليها إلاّ من السوق السنوية، ولا بُدَّ لها أن تمارس صنوف الألاعيب والعَفْرَتة، وهي ترسُف في الأغلال، إنه لحظ عاثر، وما من إنسان يلقى مثل هذا الحظ العاثر–، والآن أريد أن أسألك، أنا لا أستطيع أن أسميك باسمك، لأن اسمك لا يوحي إليَّ بشيء، بأي شيء واصل زانوفيتش مسيرته، زانوفيتش الشيخ، وزانوفيتش الفتى على حد سواء. ستقول إنهما كانا يتمتعان بمخ، وإنهما كان لهما ذكاء. هناك آخرون بعدُ أذكياء، ولم يكونوا بلغوا، في الثمانين مثل هذا المدى الذي وصل إليه ستيفان في العشرينِ، غير أن المسألة الرئيسة في الإنسان تتمثل في عينيه وفي قدميه، إذ لا بد للمرء أن يتمكن من رؤية العالم والتوجُّه إليه.

إسمع ما جعل ستيفان زانوفيتش الذي رأى الناس وكان يعرف مقدار قلة ما يترتَّب على المرء أن يخشاه منهم. ولتنظر كيف يمهّدوّن للمرء الطريق، وكيف يوشكون أن يكشفوا عن الطريق حتى للأعمى. لقد أرادوا منه ما يفيد قولهم: أنت البارون فارتا، فقال: هذا جميل، أنا البارون فارتا. وفيما بعد ما عاد يكفيه هذا، أو ما عاد

يكفيهم. إذا كان باروناً فلماذا لا يكون أكثر من ذلك. إذ يوجد في ألبانيا مشهور، كان ميتاً منذ عهد بعيد، غير أنهم يحتفلون به مثلما يحتفل الشعب بالأبطال، وكان اسمه «اسكندر بيك». ولو استطاع زانوفيتش لقال إنه هو ذاته «اسكندر بيك» ولمّا كان «اسكندر بيك» قد طواه الردى، فقد قال: أنا سليل «اسكندر بيك»، وألقى بنفسه منكفئاً على صدره، وكان اسمه الأمير كاستريوتا، أمير ألبانيا، وسوف يجعل ألبانيا عظيمة من جديد، كان أنصاره في انتظاره، وأعطوه المال ليستطيع أن يعيش مثلما يعيش سليل لاسكندر بيك. ولقد بعث في نفوس الناس الارتياح، فهم يذهبون إلى المسرح ويستمعون إلى أشياء مبتدعة، يستعذِبونها. ويدفعون فيها الأجور. هل تستطيع أن تدفع في ذلك المال أيضاً حين تحدثَ لك الأشياء المستعذَبة بعد الظهر أو قبل الظهر، عندما تستطيع في هذه الأثناء أن تشاركه بنفسك في التمثيل».

ومن جديد نهض الرجل ذو المعطف الصيفي الأصفر، قائماً، ووجهه متكدِّر، متغضِّن، وكان ينظر من عَلٍ، إلى الأحمر، وتنحنح، وكان صوته قد تغيَّر: «ألا فلتقل لي، أنت، أنت أيها الرجل الضئيل، لا شك في أنك هُزِمْتَ هزيمة ساحقة، أليس كذلك؟ لا شك في أنك رُشِّحت إلى حد الإفراط؟»

وربما هُزِمْت هزيمة ساحقة إذ كنت ذات مرة قرداً، وفي المرة الأخرى كنت مجنوناً». ألا فَقُلْ لي، أنت، لماذا تقعد هنا في الحقيقة، وتثرثر أمامي بكلام فارغ؟» «من يقعد على الأرض ولا يريد أن ينهض قائماً؟ أنا؟ حيث توجد أريكة قبالتي؟ الآن إذا كان هذا يكدِّر صفوك فلتمسك عن الكلام».

هنالك سحب الآخر الذي كان في الوقت ذاته، ينظر حواليه في الحجرة، ساقيه، وقعد، وقد أسند ظهره إلى الأريكة، واعتمد بيديه على البساط. «هكذا أصبحت تقعد قعدة أكثر راحة» «فأنت تستطيع الآن، أن تمسك عن الكلام الفارغ بروّية وحذر» «إذا شئت. لقد سردت القصة مراراً، ولا يهمني شيء من ذلك، إذا كان ذلك لا يهمّك» ولكن بعد هنيهة أدار الآخر رأسه نحوه من جديد: «ألا فحدثني، يا رجل، من دون حرج، متابعاً قصتك» والآن أنت ترى، لقد سردت، وتبادلت الحديث معك، والوقت ينقضي على نحو أسهل بالنسبة إلينا. على أنني لم

أقصد إلاّ أن أفتح عينيك. لقد حصل ستيفان زانوفيتش الذي سمعت عنه الآن، على المال، بل لقد حصل منه على ما يبلغ من كثرته أنه استطاع أن يرتحل به إلى ألمانيا. ولم يكتشفوه في الجبل الأسود.

وإنما يمكن أن يتعلم المرء من ستيفان زانوفيتش أنه كان يعرف نفسه ويعرف الآخرين، بريئاً مثل طائر صغير يُسَقْسِق، وإذا هو لا ينطوي إلاّ على القليل من الخوف من العالم: وذلك أن أعظم من وجد من البشر وأكثرهم جبروتاً وأكثرهم إثارة للفزع، كانوا أصدقاءه، فمنهم أمير سكسونيا الناخب، وولي عهد بروسيا، الذي أصبح فيما بعد بطلاً كبيراً من أبطال الحرب، ترتعد منه فرائص النمساوية، الإمبراطورة ماريا تيريزا، على عرشها، هذا الرجل لم يكن زانوفيتش يرتعد فَرَقاً منه، وحين أقبل ستيفان ذات مرة إلى فيينا، واحتك بأناس، كانوا يتجسسون عليه، هنالك رفعت الإمبراطورة ذاتها يدها وقالت: «أطلقوا سراح هذا القوميّ الغجري.

استكمال القصة بطريقة غير متوقَّعة
وكيف يتحقق بذلك شَدُّ أَزْرِ المطلق السراح

وضحك الآخر، وكان يصهل كالحصان عند الأريكة: «أَمّا إنك لعلامة تجارية مطلوبة مرغوبة، وفي وسعك أن تذهب إلى السيرك لتعمل فيه مهرّجاً» وقهقه الأحمر معه: «والآن ترى. ولكن عليك بالهدوء، ولتذكر أحفاد الشيخ. وربما قعدنا على الأريكة كذلك، ما رأيك» وضحك الآخر، وزحف ينهض، وقعد في ركن الأريكة، وقعد الأحمر في الركن الآخر. «إن الواحد ليجلس هنا على مقعد وثير بدرجة أكبر، ولا يفسد معطفه بالضغط عليه». على أن صاحب المعطف الصيفي أثبت، من ركنه، الأحمر، بنظرة منه: «لم أصادف، منذ عهد بعيد أحمق مجنوناً مثلك» وقال الأحمر غير مبالٍ: «ربما كان كل ما في الأمر أنك لم تكن تنظر كما ينبغي، فهناك مجانين كُثر كذلك. لقد لوَّثت معطفك. هنا لا يمسح المرء نعليه».

وكان المطلق السراح، وهو رجل في مستهل الثلاثينات يتميز بعينين يلوح فيهما البشر، وكان وجهه أكثر نضارة: «أنت، قل لي، بماذا تتاجر في الحقيقة؟ أتراك تعيش في القمر؟» «والآن، لا بأس في هذا، فسوف نتحدث عن القمر».

وكان يقف بالباب، منذ نحو خمس دقائق رجل ذو لحية جَعْداء بنيّة، مضى إلى المنضدة وقعد على كرسي، وهو فتى حديث السن، يعتمر قبعة سوداء من المخمل، شأن الآخر، يحرك يده على شكل قوس في الهواء، وأطلق عقيرته التي تصك المسامع، قائلاً: «من يكون ذاك؟ وماذا تفعل معه؟» «وماذا تفعل هنا يا إليزَر؟ أنا لا

أعرفه، وهو لا يذكر اسمه» «وهل سردت عليه قصصاً» «والآن، ما شأنك وهذا». وقال الأسمر للسجين السابق «وهل سرد عليك قصصاً، هذا؟» «إنه لا ينطق، بل يروح ويغدو هنا وهناك ويغني في الأفنية» «إذاً فدعه يذهب» «لا يعنيك ما أفعل» «هل سمعت بربك، لدى الباب ما كان. وحدثته عن زانوفيتش. وماذا ستصنع سوى سرد القصص ثم سرد القصص؟» وهمهم الغريب الذي كان أثبت الأسمر بنظرته: «ومَنْ تكون أنت يا ترى، في الحقيقة، ومن أين أقبلت إلى هنا في الحقيقة؟ ولماذا تتدخّل في شؤونه؟» «أتراه حدّثك عن زانوفيتش أم لا؟» لقد حدَّثك، فإن صهري ناحوم يذهب إلى كل مكان ويحكي ويحكي، ولا يستطيع أن يسعف نفسه بنفسه» «أنا لم أَدْعُكَ بعدُ للدفاع عني، ألا ترى أن هذا ليس حاله على ما يرام، أنت يا أخا السوء» وإذا كانت حاله سيئة فإن الله لم يكلفك بذلك، فلينظر المرء لقد انتظر الرب إلى أن يأتي، ولكن الله لم يستطع أن يساعد وحده». . إنه امرؤ سوء» «هلاّ ابتعدت عنه، سيكون قد قال لك كيف كان حال زانوفيتش ومن أتاح له حظ فيما عداه في هذا العالم» «ألا تريد أن تتصرف عما قريب؟» «فليسمع المرء هذا النصّاب، المتظاهر بالفضل والخير، يريد أن يتحدث إليّ. أهذا مسكنه؟ وماذا رويت الآن مرة أخرى عن صاحبك زانوفيتش وكيف يستطيع المرء أن يتعلّم بها منه. لقد كان في وسعك أن تصبح حاخاماً لدينا، وكنّا خليقين أن نُغْذِّيك فنحسن تغذيتك» «أنا لست في حاجة إلى صنائعك وأياديك، وصرخ الأسمر من جديد قائلاً: «ونحن لا نحتاج إلى طفيليين يتعلقون بأذيال الواحد منا. هل حدّثك أيضاً، كيف سارت الأمور أخيراً بالنسبة لصاحبه زانوفيتش، في الختام؟» «أيها الوغد، يا أخا السوء» «هل حدّثك بهذا؟» وكان السجين السالف يغمز بعينيه متعَباً للأحمر، الذي يهز قبضته، بينما كان يتّجه نحو الباب، ويزمجر وراء الأحمر: «أنتَ، لا تخرُجَنّ من هنا، بربِّك، ولا يستحوذَنَّ عليك الانفعال، ودَعْ هذا يهذي بسخافاته».

هنالك اعترض عليه الأسمر بعنف، وبيدين مضطربتين، ومع انزلاق في الذهاب وفي الإياب وطقطقة بالأصابع وهزٍّ بالرأس، وكان يتخذ في كل لحظة سيماء مختلفة، متوجهاً إلى الغريب تارة وإلى الأحمر تارة أخرى: «إنه يجعل الناس مجانين، ويقول

إنه يسرد عليك النهاية التي انتهى إليها صاحبه زانوفيتش ستيفان، على أنه لا يحدثنا لماذا لا يمتنع عن سردها، لماذا، أنا أسأل» «لأنك امرؤُ سوء، يا إليزر» «أنا خير منك. لقد لحق القوم بصاحبهم زانوفيتش فجاؤوا به من فلورنسا مثلما يُؤتى بلص «ورفع الأسمر كلتا يديه باشمئزاز، ورسم بعينيه حملقات مفزعة» ولماذا؟، لأن القوم عرفوا حقيقته» وتصدى له الأحمر تصدّيَ من ينطوي على الخطر، ولَوَّح الأسمر بيده، يثني عزمه: «الآن أتكلَّم. لقد كتب رسائل إلى الأمراء. والأمير يتلقى الكثير من الرسائل، ولا يستطيع المرء أن يرى، من خلال خط اليد مَنْ كتبها، ثم إنه نفخ نفسه، ثم ذهب إلى بروكسل، أميراً على ألبانيا، وجعل يتدخّل في السياسة العليا. لقد كان ملاك السوء عنده، هو الذي قال له هذا: خذ الرسالة، واقترض لنفسك المال عليها. هل تلقيت رسالة من الوزير وعليها العنوان: إلى السيد أمير ألبانيا، ذي النسب الرفيع، والمقام الشريف. لقد أقرضوه المال، ثم انتهى أمر الغشاش المخادع. كم بلغ من العمر؟ ثلاثين حَوْلاً، ولم ينل أكثر من ذلك عقاباً على ما اقترف من السيئات، ولم يستطع أن يَرُدَّ ما اقترض.

وقد أبلغوا الشرطة عنه في بروكسِل، وفي هذه الأثناء كان قد تبيَّن كل شيء. إنه بطلك، ياناحوم! هل تحدثت عن نهايته السوداء في السجن حيث فتح شرايينه بنفسه؟ وكيف انتهى إلى الموت – إنها لحياة جميلة، وإنها لنهاية جميلة ينبغي للمرء أن يتحدث عنها– وبعد ذلك أقبل الجلاد، المعذَّب، بعربة الكلاب والخيل والقطط النافقة، وحَمَلَه على العربة، وحمل ستيفان زانوفيتش على العربة، وطرحه في الخارج، عند المشنقة، ودَلَق عليه القمامة القادمة من المدينة».

وكان الرجل في المعطف الصيفي فاغِراً فاه: «أهذا صحيح؟» «فالتنهُّد تستطيعه الفأرة المريضة». وكان الأحمر قد سرد كل كلمة صرخ بها صهره. وهو ينتظر بسبابته المرفوعة تلقاء وجه الأسمر مثلما ينتظر المرء نقطة أساسية، وجعل ينقِّط الآن على صدره، ويبصق أمامه، على أرض الحجرة، تفو، تفو: «هذا لك، على أنك امرؤ من هذا الطِراز، ياصهري» وكان الأسمر يتقلّب متخبِّطاً وهو يتجه نحو النافذة: «والآن فلتتحدث أنت، ولتقل إنه ليس بصحيح».

وكانت الأسوار ما عاد لها وجود بعد، وإنما هي حجرة صغيرة فيها مصباح يتدلى، وكان يهوديان يجريان هنا وهناك، أسمر وأحمر، يعتمران قبعة من المخمل الأسود، في نزاع وجدل، وكان هو يتابع الصديق، الأحمر: «إسمع، أنت، هذا صحيح، ما رُوِيَ هذا عن الرجل، كيف قضى مَوْؤوداً مطموراً وكيف قتلوه؟» وصرخ الأسمر قائلاً: «قتلوه، أَوَ قلتُ إنهم قتلوه؟ لقد قتل نفسه بنفسه وحيداً» وقال الأحمر: «سيكون قد قتل نفسه وقُضِي الأمر»، وقال المُسَرَّح من السجن: «وماذا فعل الآخرون عندئذ، هنا؟» وقال الأحمر: «من، من؟» «مالك، سيكون هناك الآن آخرون مثل هذا، مثل ستيفان، وسيكون كل الوزراء قد حضروا، والمُعَذِّب وأصحاب المصارف» وتبادل الأحمر والأسمر النظرات، وقال الأحمر: «والآن ماذا ينبغي لهم أن يصنعوا؟ هم يتفرَّجون».

وبرز المُسَرَّح من السجن، في المعطف الصيفيّ الأصفر، وهو الفتى الطويل، من وراء الأريكة ورفع قبعته، فمسحها ووضعها على المنضدة، ثم ردَّ معطفه إلى الوراء، وكان الحاضرون صامتين جميعاً، وفَتَّق أزرار صديريه: «هنا فانظروا، سروالي. إلى هذا الحد كنت بديناً، وهكذا، وهكذا بات أوسع مما ينبغي، كثيراً، قبضتان قويتان، إحداهما فوق الأخرى، من الجوع. لقد أدبر كل شيء. البطن كلها ذهبت إلى الشيطان. وهكذا يحل بالمرء الدمار والخراب، لأنه لم يكن دائماً كما ينبغي أن يكون، وأنا لا أعتقد أنَّ الآخرين أفضل كثيراً، كلاّ، لا أعتقد هذا انهم يريدون أن يجعلوا من المرء مجنوناً» وقال الأسمر للأحمر يناجيه: «هذا ما عندك فما الذي عندي» «كلاّ إنما أنا نزيل سجن» «وإن كنتُ كذلك» وقال المسرَّح من السجن: إذاً المسألة تعني: إنك سُرِّحتَ من السجن، ثم عُدْتَ من جديد، مزيج في الأوحال والأقذار.

وهذا بعدُ هو القَذر ذاته الذي كان من قبل. هنالك لا يوجد شيء يبعث على الضحك»، وعاد إلى عقد أزرار صديريّه: «عند ذلك ترى من خلال هذا ما صنع هؤلاء. إنهم يخرجون الميت عندئذ من المبنى، ويأتي الخنزير بن الخنزير بعربة الكلاب، ويطرح فوقها إنساناً ميتاً قتل نفسه، مثل هذه البهائم القذرة الملعونة،

إلى حدٍّ أنهم لم يقتلوها على الفور، وارتكبوا الآثام بحق إنسان، ولْيَكُن هذا مَنْ يكون». وقال الأحمر متكدِّراً: «ماذا ينبغي للمرء أن يقول» «أجل، فنحن عندئذ لاشيء، لأننا صنعنا شيئاً ذات مرة؟ إن من الممكن أن يعود إلى الوقوف على أقدام مَنْ كانوا قاعدين، ومن الممكن أن يكون هؤلاء فعلوا ما يشاؤون». وعلامَ نندم أو نتوب! فلا بُدَّ للمرء أن يؤمِّن لنفسه الهواء! وتأتي فوق ذلك إضافة ما! ثم يخلِّف المرء كل شيء وراءه، وعندئذ يكون قد مضى كل شيء وانقضى، الخوف وكل شيء» «لقد أردت أن أبيِّن لك فحسب: أنه لا ينبغي لك أن تصغي إلى كل ما يقوله صهري. والمرء لا يستطيع في بعض الأحيان أن يظفر بكل ما يريد، إذ تسير الأمور في بعض الأحيان سيراً مختلفاً» «ليس من العدالة أن يطرح المرء في كومة من الأقذار وكأنه كلب، وأن تطرح فوقه النفايات، وهذه هي العدالة التي ينالها آدميّ ميت. أليس من بُعد لك أيها الشيطان. إني أريد الآن أن أودعك. أبْسُط يدك، إنهم يقصدون بذلك إلى الخير، وأنتَ كذلك» يصافح يد الأحمر. إسمي بيبر كوبف، فرانتس، لقد كان جميلاً منك إنك تقبَّلتني. لقد غنىّ طائري في الفناء فأحسن الغناء. ألا بارك الله فيك يا نويمَن، هذه المسألة انقضت» وصافحه كلا اليهوديَّين، وابتسما، ولبث الأحمر يمسك بيديه وقتاً أطول، وقال وقد أشرق وجهه: «كلا، فأنت في حال حسنة حقاً، ولسوف يسرني أن تمرَّ عليَّ حين يتيح لك الوقت ذلك».

«شكراً، سأهتم بذلك أحسن اهتمام، أما الوقت فسوف يتوافر، ولكن لا يتوافر المال، وبلِّغ تحياتي السيد الشيخ مسبَقاً، لقد أودع في يدك القوة، أكان هذا فيما سلف جزّاراً. ويلاه، هل تتفضَّل بإعادة البساط إلى نظامه، فقد انزلَق أيّما انزلاق، ولكن كلاّ، فلنؤدّ كل شيء بأنفسنا، والمنضدة، هكذا» وجعل يعالج الأرضية، وضحك الأحمر من الخلف: «لقد قعدنا في الأسفل وروى كل منا لصاحبه ما روى، لقد كانت فرصة قعود جميلة، أرجو صفحك يا رجل».

وصَحِباه إلى الباب، وظل الأحمر قلقاً مهموماً: «أتراك ستستطيع أن تذهب وحدك؟» فلكزه الأسمرِ في جنبه: «لا تتحدثَنَّ إليه من خلفه، بربك» وهز المُسرَّح من السجن برأسه وهو يتسكَّع منتصب القامة، وبدأ يدفع الهواء عنه بذراعيه، بعيداً «لا بُدَّ

للمرء أن يؤمِّن لنفسه الهواء، الهواء، ولا شيء بعد ذلك»: لا تُحَمِّل نفسك هموماً، ففي وسعك أن تَدَعَني دونما حرج. لقد تحدثت، بلا ريب، عن الأقدام والعيون، ومازالت هذه لديّ، إذ لم يبترها لي أحد إلى الصباح، معشر السادة».

وكان يسير في الفناء الضيّق، المعدَّل، وكان كلا الرجلين ينظران إليه من ورائه، على السُّلَم وكانت القبعة المُقَوّاة في وجهه، وغمغم وهو يطأ نقرةً في الأرض تجمَّع فيها البنزين: «أما إنه لسُمٌّ خبيث، حبَّذا لو أتيح لي قدح من الكونياك، من وصل فقد حصل على لطمة، فَلْنَرَ هل يوجد الكونياك».

الميل من دون متعة، وفيما بعد حالات هبوط حاد في الأسعار، هامبورغ متكدِّرة، ولندن أكثر ضعفاً

كانت السماء تمطر، وإلى اليسار كانت اللافتات تلتمع في شارع منتس، وكانت هذه لافتات لدور السينما. وعند الناصية لم يتمكن من شق طريقه، إذ كان الناس يقفون عند سياج، حيث تنحدر الأرض انحداراً شديداً، وكانت قضبان الحافلة الكهربائية تمتد حرة في الهواء على ألواح سميكة، وكانت تجري للتوّ حافلة كهربائية فوقها. ألا فانظر إليهم، إنهم ينشئون خطاً للمترو تحت الأرض لا بد أن يكون هناك عمل في برلين. وهنا كانت توجد أيضاً دار للسينما، والدخول محظور على الفتيان دون السابعة عشرة. وكان يقف على لوحة الإعلان الحائطية العملاقة سيد على سلّم أحمرُ قانٍ وكانت فتاة حديثة السن، فوّاحة بالعطر، تحيط بساقيه، وكانت ترقد على السلم، وكان هو يرسم على وجهه ملامح تنمُّ عن الجسارة: يتيم الأبوين، مصير طفل يتيم، في ستة فصول. أجل، سوف أرى هذا. وكان جهاز الموسيقى الآلي «الأوكستريون» يُصْدِر صوت قرع على الطبل، وكان الدخول يكلّف ستين قرشاً.

وكان رجل يسأل أمينة الصندوق: «أيتها الآنسة، ألا يكون ذلك أرخص لرجلٍ من الحرس الوطني طاعِنٍ في السن، من دون بطن؟» «كلاّ، لا يكون ذلك إلاّ

للأطفال دون خمسة أشهر ، مِمَّن تُسَدُّ أفواههم بمصّاصة للرضَّع» «اتفقنا ، فنحن في مثل هذه السن» ، مواليد جُدُد ، يتلعثمون ببعض الحروف» «خمسون قرشاً ، ولندخل» وكان يتلوّى ، وراء هذا ، فتى حديث السن ، ناحلٌ على عنقه منديل: «أيتها الآنسة ، أودُّ الدخول ، ولكن لا أريد أن أدفع» «وما شأني ، عليك أن تدع أمك تضعك على مَبْوَلة» «لا عليكِ ، هل يمكنني الدخول؟» «إلى أين؟» «إلى السينما» هنا لا يوجد سينما» «ما هذا ، ألا يوجد هنا سينما» ونادت الحارس على الباب ، من خلال نافذة شباك التذاكر ، يا ماكس ، تعال ، فهنا واحد يودّ أن يعرف هل يوجد هنا سينما وليس في جيبه نقود ، فلتبيِّن له ذات مرة ، ماذا يوجد هنا» «ماذا يوجد هنا ، أيها الفتى؟ ألم تلاحظ هذا بعدُ؟ هنا صندوق المساكين ، قسم شارع منتس» ، ودفع بالفتى الناحل بعيداً عن الصندوق ، ووجَّه قبضته إليه: «إذا شئت ، فسأطردك من هنا على الفور» .

واندفع فرانتس إلى الداخل ، وكان هناك فترة توقُّف ، في ذلك الوقت خاصة ، وكانت القاعة الطويلة غاصة بجمهورها إلى حد ليس فوقه من مزيد ، وكان تسعون بالمائة من الرجال يعتمرون القبعات ، ولا يرفعونها عن رؤوسهم ، وهناك ثلاثة مصابيح حُمْر معلقة بالسقف ، وفي المقدمة بيانو أصفر عليه رُزَم . وكان جهاز التوزيع الموسيقي «الأوكستريون» يحدث جلبة بغير انقطاع ، ثم يسود الظلام ، ويجري الفيلم ، ويفترض أن تُلَقَّن فتاة تعمل في تربية الإوز ، ثقافةً ما ، أمّا لماذا فذلك ما لا يتضح هكذا في غمرة أحداث الفيلم ، وكانت تمسح أنفها بيدها ، وتحكُّ مؤخرتها على درجات السلم ، وكل الحاضرين في دار السينما يضحكون . على أنَّ ما أثّر في فرانتس تأثيراً رائعاً انطلاق الحاضرين بالقهقهات من حوله . إنهم نفر من الخلق ، فارغون ، يمتِّعون أنفسهم ، وليس لدى أحد ما يقوله لهم . وللبارون اللطيف الرقيق خليلة كانت ترقد على حصير من تلك الحصر التي تُعَلَّق على الجدران ، وتمدُّ أثناء ذلك ساقيها مدّاً عمودياً نحو الأعلى ، وكان لها سروال ، وهذه مسألة من المسائل كانت تخرج الناس من نطاق تربية الإوز القذرة ، بحيث كانوا يلعقون الأطباق حتى آخر قطرة ، والفتاة ذات الساقين الناحلتين تعود إلى التألُّق من جديد ، البارون قد تركها وحدها ، وقد انقلبت خارجة من حصير التعليق وطارت داخلة في المرج ، ولبثت

راقدة فيه وقتاً طويلاً. والآن أخذ يحملق في الجدار، وقد ظهرت صورة أخرى، كان يراها ما تزال تنقلب خارجة، وترقد هناك وقتاً طويلاً. وجعل يلوك لسانه، يا للعجب! ما الذي كانَهُ هذا. وحين عانق بعد ذلك، فتى كان عشيق الفتاة مربية الإوز، سرى ذلك ساخناً في بشرة صدره، وكأنما كان هو نفسه الذي عانقها، وانتقل هذا إليه، وأَوْهَنَه.

أَما إنها لامْرأةٌ، وأيُّ امرأه «وكان في المسألة بعدُ ما هو أكثر من الغيظ والخوف. ما الذي يفترض أن يعنيه كل هذا الكلام الفارغ؟ الهواء، والإنسان، وامرأة! إنّه لم يكن فكر بهذا، ويقف المرء عند نافذة الزنزانة، ينظر من خلال السياج إلى الفِناء. وفي بعض الأحيان تمرّ به نساء، من زوّار أو أطفال، أو لتنظيف البيت عند الشيخ، وكيف يقفون في كل مكان لدى النوافذ، هؤلاء السجناء، وينظرون، وكل النوافذ مشغولة، يلتهمون كل امرأة بعيونهم، وذات مرة مكثت لدى كبير الحراس زوجتهُ القادمة من إيبرز فالد، في زيارة دامت أربعة عشر يوماً، وكان فيما مضى ينطلق راحلاً إليها كل أربعة عشر يوماً. والآن استغلّت الوقت أيّما استغلال، فبات يدع رأسه يسقط متدلّياً أثناء العمل من فرط التعب، وبات لا يكاد يقدر على المسير.

وكان فرانتس قد أصبح، في الخارج، في الشارع. ماذا أصنع؟ فأنا حرّ، ولا بُدَّ لي من امرأة، لابدَّ أن تكون لي امرأة، متعة جميلة!، إنّ الحياة في الخارج لجميلة، وما هي إلاّ أن يقف المرء ذات مرة على قدم راسخة، ويتمكن من المشي، وكان يشعر بما يشبه مرونة النوابض في ساقيه، ولم يكن ثمة أرضية تحته. ثم كانت، على ناصية شارع الإمبراطور فيلهلم، وراء عربة السوق، واحدة، وضع نفسه على الفور إلى جانبها، ولْتكُن مَنْ تكون، ألاَ تَبّاً لهذا، من أين نظفر، مرة واحدة، بالحافلة، وانطلق معها، وأخذ يعض على شفته السفلى، ورجفة شديدة تسري في أوصاله، إذا كنت تسكنين في مسكن بعيد فلن آتي معك. وكان ذلك عبر ميدان بيلوف، مروراً بالأَسْيِجة، ومن خلال دهليز منزل، فإلى الفِناء، فنزولاً بمقدار سبع درجات، والتفتت عائدة، وضحكت، أيها الآدمي، لم يبق هناك الكثير، فلا تُلْحِف عليّ كثيراً»، ولم تكد توصد الباب وراءها حتى أمسك بها. «أيها الآدميّ،

هلاّ تركتني أضع المظلة»، وكان يضغط، ويضغط، متشبثاً بها، ماسحاً يديه على معطفها، ومازالت قبعته على رأسه، أما المظلة فقد تركها تسقط وقد تولاّها الغيظ: «هلاّ أطلقتني، أيها الآدميّ»، وكان يئن ويتأوّه، ويبتسم ابتسامة زائفة، كمن يشعر بالدُّوار: «وما الذي حدث يا تُرى؟» «أنت تمزّق ثيابي. أتُراك تزمع أن تُخَرِّشها كلاّ، فما من أحد يهدي إلينا شيئاً، وحين لم يُرْسِلْها، قالت: «أنا لا أجد مُتَنَفَّساً، وربّك، أيها المغفَّل، لا شك أنك مصاب بلَوْثة» وكانت بدينة، بطيئة، قصيرة القامة ولم يكن له بُدٌّ، أول الأمر، أن يعطيها الماركات الثلاثة، فوضعتها على الكومودينة، ودست المفتاح في حقيبتها، وقال ومازال وراءها يتابعها بعينيه: «وذلك لأنني لبثت بضع سنين منقطعاً عن الناس أيتها البدينة، في الخارج، في تيغِل، ، هذا ما تستطيعين أن تتصوّريه» «أين؟»، كما تستطيعين أن تتصوري».

وضحكت المرأة المترهّلة من أعماق قلبها، وفتقت من الأعلى أزرار سترتها النسائية. لقد كان هناك ولدان للملك، يحب كلٌّ منهما أخاه حبّاً جماً، وكان الكلب إذا وثب، بقطعة القديد من فوق حافة الطوار، أمسكت به وضغطته على صدرها. تعال، تعال، تعال، يافَرْخي، تعالَ، تعالَ، تعالَ، ياديكي.

وسرعان ما باتت قطرات العرق تعلو وجهه، وجعل يزفر ويئنّ. «مالك تئن» «أي فتى يمشي هنا إلى جانبي؟» «ما هذا بفتىً، بل هي مضيفتي» «وما تصنع هذه يا تُرى؟» «وماذا ينبغي لها أن تصنع، فإن لها مطبخها هنا» «ما علينا، إنما كان ينبغي لها أن تكفّ عن المسير، وما الذي يدفعها إلى المسير الآن، أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا» «هلاّ أمسكت، بربّك، وإلاّ انصرفت، وقلت لها ذلك» لو كان هذا فتى ينضح بالكثير من العرق لسُرِرنا أيَّما سرور بالتخلُّص منه، هذا المفضَّل النَّؤوم، الشيخ، ولبادرت إلى إخراجه. وقرعت الباب المجاور: أيتها السيدة بريزه، لقد لبثتِ ساكنة بضع دقائق، أيتها المرأة، وعليَّ هنا أن أتحدث إلى سيد، في أمر هام» هكذا، لقد فرغنا من هذا الآن، ياوطني العزيز، وفي وسعك أن تُخْلِد إلى الهدوء، تعال إلى قلبي، ولكن سرعان ما تخرج طائراً.

وقالت في نفسها، ورأسها على الوسادة: النعلان القصيران يمكن أن يُخْصَفا

بعَقب جيد، وعريس كيتي الجديد ينجز هذا لقاء مار كيْن، إذا لم يكن لديها اعتراض على هذا، فأنا لا أزمع أن أخطفه منها. وهو يستطيع أن يلوّنهما لي باللون البنيّ الملائم للسترة النسائية البنية، فإنه خِرْقة خَلِقة، عتيقة، لا يكاد يصلح إلاّ لكي يكون غطاءً لوعاء القهوة يحفظ حرارتها، وهنا لا يكون بُدٌّ من كيّ الأشرطة، وسأقول ذلك للسيدة بريزه على الفور، وستتوافر لها بعدُ نارٌ، ماذا تطبخ هذه اليوم، في الحقيقة، وأخذت تتشمَّم، شأنَ من يتجسَّس، إنه سمك الهيرينغ الأخضر.

وعبرت في رأسه أشعار، لا سبيل إلى فهمها في هذا المحيط. هل تطبخين حساءً، أيتها الآنسة شتاين، هل أحصل على ملعقة، أيتها الآنسة شتاين، أتراك تطبخين المعكرونة، أيتها الآنسة شتاين، أعطني معكرونة، أيتها الآنسة شتاين، هل أسقط إلى أسفل، أم أسقط إلى أعلى، وقال يئن، بصوت عال: «أتُراكِ لا تحبينني؟» «ولم لا تحبينني، تعالَيْ إلى الحب بخمسة قروش، دائماً.

وارتمى على الفراش، وغمغم، وتوجَّع، وكانت تحكّ رقبتها: «أما إني لأضحك كثيراً حقاً فلتبق يا رجلُ، فلستَ بضائِري» وضحكت، ورفعت ذراعيها البدينتين، وأبرزت قدميها وهما في الجورب، من السرير: «لا حيلة لي في ذلك، ولا حَوْل».

أخرج إلى الشارع! إلى الهواء! مازالت السماء تمطر. فما الذي حدث، ؟

لابُدَّ لي أن أتناول واحدة أخرى. ولكن فلتفرَغ من نومك أوّلاً، يا فرانتس، فماذا دَهاك يا تُرى؟

القدرة الجنسية تتحقّق أولاً، عن طريق تضافرٍ في عمل نظام الإفراز الداخلي، وثانياً: عن طريق الجهاز العصبي، وثالثاً: عن طريق الجهاز الجنسي. أما الغدد المشاركة في القدرة الجنسية فهي: الغدة التابعة للدماغ، والغدة الدرقية، والكظر، والبروستات، والحويصلة المنوية، والبربخ. وفي هذا النظام يكون الرجحان لكفة الغدَّة التناسلية. فعن طريق المادة التي يتمُّ تحضيرها من قِبَلها يتم شحن مجمل الجهاز الجنسي، من الغدة التابعة للدماغ إلى الجهاز الجنسي. ثم إن الانطباع الشهواني ينتهي بالتوتُر الشهواني في قشرة الدماغ إلى الانبعاث أو الثَّوَران، وينتقل التيار في صورة

استثارة شهوانية، من قشرة الدماغ إلى مركز الربط بالدائرة في الدماغ المتوسط، ثم تسري الاستثارة منحدرةً إلى النخاع الشوكي، ولا بُدَّ للاستثارة أن تمرَّ مروراً لا يخلو من المعوِّقات، لأنها تضطر، قبل أن تغادر الدماغ، إلى أن تمرَّ بأجنحة الكابح الخاص بالعوائق قبل أن تغادر الدماغ، وتلك العوائق تمثل العوائق النفسية على الأرجح، وهي التي تلعب دوراً كبيراً بصفتها هواجس أخلاقية، أو بصفتها افتقاراً إلى الثقة بالنفس، أو خوفاً من اللوم والافتضاح، أو خوفاً من العدوى أو الحمل، وما هو أكثر من ذلك مما يماثله.

وفي المساء انحدر نازلاً على طول شارع الألزاس، ولم يكن يسير متردِّداً، إلى غير وجهة، ذلك الفتى العزيز، ولم يكن يتظاهر بالتعب. «كم يكلِّف الاستمتاع يا آنسة؟» السوداء لا بأس بها، وهي ذات أرداف. عندما يكون للفتاة رجل تحبه، وتهواه. «أنت مضحك للغاية، أتُراك ورثت شيئاً؟» «وماذا لو ورثت. ستحصل على تالَر آخر» «لِمَ لا» ولكن ما من شك في أنه كان يتولاّه الخوف.

وبعد ذلك، في الحجرة، والأزهار وراء الستار، حجرة صغيرة نظيفة ضئيلة. بل كان لدى الفتاة جهاز الحاكي، فهي تغني له، في جوربين من الحرير الصناعي، من بِمْبِرْغ، من دون سترة نسائية، وهي ذات عينين سوداوين كالإسفلت: «أنا مغنية على المزاج، كما تعلم. أتُراك تعرف أين، حيث يناسبني ذلك على وجه الخصوص والآن، ليس لديّ التزام تجاه أحد، كما تعلم. وأنا اختار من محالّ اللهو ما يكون جميلاً، ثمّ: تكون أغنيتي، فأنا ذات أغنية، أنت، أيها الفتى، إياك والدغدغة «هلاّ تركتني بربك، أيها الآدمي» «كلاّ، أبعد يَديْك عني، فإنّ هذا يفسد عملي، أغنيتي، ولتكن محبَّباً إلى النفوس، أيها الحلو. أنا أقيم مزاداً في الملهى، لا جمعاً للنقود في الطبق، فمن كان لديه شيء يسهم به في هذا ففي وسعه أن يقبِّلني. مجنونة، . في الملهى المفتوح، ما من أحد يدفع أقلَّ من خمسين قرشاً، فهل أحصل، أيها الفتى، على ما ليس بشيء. هنا على الكتف، وهنا تستطيع مرة أخرى» أن تضع على رأسها قبعة أسطوانية رجالية، وتصرخ في وجهه صرخة الغربان وتحرك رِدْفَيْها يميناً ويساراً وقد أثبتت فيهما ذراعيها: «تيودور، ما الذي خطر ببالك في هذه الأثناء حين

ضحكت بالأمس وأنت تتجه نحوي؟ تيودور، ما الذي كنت تقصد، حين دعوتني إلى تناول لحم الخنزير مع الشمبانيا؟».

وحين تقعد في حضنه، تشعل لنفسها لفافة تدسُّها في فمها، وقد كانت سحبتها من صديريه بخفة وبراعة، وتنظر في عينيه بإخلاص، وتلامس برقة صيوان أذنها بصيوان أذنه، وتدندن بما يشبه نغمة النايْ: «أتدري ما اسم هذا، إنه الحنين إلى الوطن؟ ألا كم يقطِّع نياط القلوب الحنين إلى الوطن وكل شيء حوالينا بارد، خاوٍ، إلى حد بعيد. وتدندن بالألحان، وتضحك.

إنه العرق على جبينه! والخوف، مرة أخرى! وفجأة ينزلق رأسه بعيداً، بُمْ، إشارات جرس، ونهوض، الساعة الخامسة والنصف، الساعة السادسة، ثم فتح قفل باب الزنزانة. بُمْ، بُمْ، ولتمسح، على عجل، سترتك بالفرشاة، حين يقوم الشيخ بالمراجعة، فاليوم لا يأتي وأنا الذي سيطلق سراحه عمّا قريب، صَهْ، أنت، ففي ليلة هذا اليوم فرَّ أحد السجناء، كلوزه، والحبل مازال يتدلّى في الخارج فوق السور، إنهم يذهبون بالكلاب البوليسيّة، وهو يئن ويتوجَّع، ويرتفع رأسه، ويرى الفتاة، يرى ذقنها، وعنقها. كيف أخرج من السجن، فإنهم لا يسرِّحونني، ومازلت لم أخرج بعد. وهي تجرِّب عليه، من جانبه، خواتم زُرْقاً، وتقهقه: «أما إنك لحلو، فَهلُمَّ أهدي إليك قدحاً من الشراب، بثلاثين قرشاً». ويدع هذا حيث هو، وقتاً طويلاً: «وماذا يفترض أن يجديني هذا القدح؟ لقد أهدروا عمري وبدَّدوه. وهناك كنت أقبع في الزنزانة في تيغِل، وفيمَ هذا يا تُرى. أوَّلاً عند البروسيين، في الخندق، ثم في الصلصال. أنا ما عدت إنساناً»، واعجباً لك، لا أحسب أنك تزمع أن تبكي عندي، أيها الجندي البسيط، إفتح فمك الصغير، يجب على الرجل الذي يحاكي الطائر الغرِّيد أن يشرب، ولدينا مرح وفكاهة، هنا يستمتع المرء، ويتعالى الضحك من المساء إلى الليل» وفي مقابل ذلك القَذَر. هنا كان في وسعهم أن يضربوا على الفور عنق الرجل، الكلاب، وقد كان في وسعهم أن يقذفوا بي إلى كومة القمامة» «أيها الجندي البسيط والطائر الغرِّيد، يامارتن، إنما هو قدح آخر من الشراب، إذهب وصبّ لنفسك قدحاً على المصباح».

أما إن الفتيات يجرين وراء الرجل مثل الخراف ، ولا يبادر المرء حتى إلى البَصْق في وجوههن ، ثم يرقد المرء ، وقد بوغِت ، على أنفه» وترفع لفافة أخرى لنفسها من اللفافات التي تتساقط منه على الأرض: «أجل ، يجب عليك أن تذهب إلى الشرطيّ وتحدثه بهذا الحديث» «سأذهب لتوّي ، ويبحث عن حمّالة بنطاله ، ولا يعود ينبس ببنت شفة ، ولا يعود ينظر من بعدُ إلى الفتاة ذات الفم الذي يحاكي خطم البهائم المترع باللعاب ، والتي تدخّن وتبتسم ناظرة إليه ، ثم يدفع ، على عجل ، بقدمه ، بعض اللفافات ، إلى ما تحت الأريكة ، ويتناول قبعته ، وينزل على السلم ، بالحافلة الكهربائية رقم ٦٨– إلى ميدان الإسكندر ، ويجثم بثقله في الملهى مُكِّباً على قدح من شراب هيلليس . تيستيفورتان ، علامة تجارية مسجلة برقم ٣٦٥٦٩٥ ، أدوية جنسية موصوفة وفقاً لمشورة المستشار الصحي الدكتور ماغنوس هيرشفيلد ، والدكتور برنهارد شابيرو ، معهد علم الجنس ، برلين ، الأسباب الرئيسية للعجز الجنسي: أ– الشحن غير الكافي من جراء الخلل الوظيفي ، ب– المقاومة المفرطة في مركز الانتصاب . أمّا متى ينبغي للعنين أن يستأنف المحاولات ، فذلك ما لا يمكن تحديده إلاّ على نحوٍ فردي ، بالاستناد إلى تطوُّر الحالة ، وفي كثير من الأحيان يُعَدُّ التوقف حيناً من الزمن أمراً مفيداً .

ثم يلتهم منِ الطعام ما يشبعه ، وينام حتى يفرغ من النوم ، وفي اليوم التالي يفكر قائلاً في نفسه: أَوَدُّ هذه وأودُّ تلك ، ولكن لا تُهْرَعَن إلى واحدة متعجِّلاً ، ثم يقعد القرفصاء من جديد في المقصف ولا ينظر إلى أحد في وجهه ، ويلتهم من الطعام ما يشبعه ويشرب الخمر . الآن لن يكون لديَّ في كل يوم سوى التهام الطعام وشرب الخمور والنوم . أما الحياة فقد وَلَّت بالنسبة ليّ ، وَلَّت وأدبرت .

انتصار على طول الخط

فرانتس بيبركوبف يشتري لحم ظهر عجل

وحين يحلُّ يوم الأربعاء، اليوم الثالث، يرتدي ثوبه. من تقع عليه الجريرة في هذا كله؟ إنه الحاضر دائماً. ومن تُراه يكون غير هذا، لقد حطّمت أضلاع تلك البهيمة، في تلك الأيام، ولذلك لا بدّ لي من دخول هذا الوَكْر. والآن تتمتع هذه بما كانت تريد، فقد مات الوحش، والآن أقف هنا، أصرخ صراخ البهائم إذ تتوجَّع، لنفسي، وأجري في البرد، على طول الشوارع، إلى أين، إلى حيث سَكَنَتْ معه، عند أختها. واجتاز شارع الأنفاليد ودخل شارع الأكر، فكان المنزل كأن لم يكن فيه شيء، ثم الفناء الثاني، ولم يكن هناك سجن، ولا حديث مع اليهود في شارع دراغونَر، فأين اللئيمة، التي تبوء بالإثم في هذا، لم يَرَ شيئاً في الشارع، غير أنه وجد طريقه وفهم ما فهم. إنما هو شيء من اختلاج في الوجه وشيء من اختلاج في الأصابع، وعندها نذهب. إنما الجَلَبة من الضاربين ضربتهم، أما المتفرجون فهم أهل السوء، إنما الجلبة من المتفرجين. إنه رنين جرس، «مَنْ هنا، يا تُرى؟» «أنا» «مَنْ؟» «افتح، أيها الآدمي، يا إلهي، أنتَ فرانتس» «افتح»، إنما الجلبة للضاربين ضربتهم، أما المتفرجون فهم أهل السوء، الضاربون، إنما هو خيط رفيع، على اللسان، فلتبصق مرة. إنه يقف في الدهليز، وهي توصد الباب وراءه، «ماذا تبتغي لدينا، يا تُرى، لو أنَّ أحداً رآك على السلالم» «وهل يضيرني هذا في شيء، فليرَوْني، غدا». ويذهب وحده، وينعطف يساراً، داخلاً في الحجرة، الجلبة للضاربين ضربتهم، إنه خيط رفيع قديم، على اللسان، لا ينزِل، وهو يحاول إزالته

بإصبعه، ولكن ليس ثمة شيء، وإنما هو مجرد شعور ساذج على ذؤابة اللسان، هذه هي الحجرة، والأريكة المصنوعة من ألواح الخشب، وصورة الإمبراطور معلَّقة على الجدار، وفرنسي في سروال أحمر يعطيه الحسام، لقد استسلمت. «وماذا تريد هنا يا ترى، يا فرانتس، أنت مجنون حقاً» «ها أنذا أقعد» لقد استسلمت، الإمبراطور يسلم الحسام، ولا بد للإمبراطور أن يردَّ إليه الحسام، وهذه سيرة الدنيا» «أيها الآدمي، إذا لم تنصرف فسأصرخ طالباً النجدة، وسأصرخ في كل مكان» «ولماذا يا تُرى؟» إنما الجَلَبة للضاربين ضربتهم، لقد سرت مسافة جدًّ بعيدة، وها أنذا هنا، قاعد هنا «وهل حرَّرت نفسك من السجن؟» «أجل، لقد انقضى أجل السجن».

وإذ به ينظر إليها نظرة المتجهِّم وينهض قائلاً: «إنما أنا هنا لأنهم أطلقوا سَراحي، لقد سَرَّحوني، ولكن كيف؟» ويهمُّ أن يقول، غير أنه يلوك الخيط الرفيع على لسانه، لقد تحطم البوق، وولّى، ويرتعد، ولا يستطيع أن يشكو، أو يصرخ باكياً، وينظرَ إلى يدها «ماذا تريد يا ترى، أيها الآدميْ، هل حدث شيء ما، يا تُرى؟

وههنا جبال، تنتصب منذ آلاف السنين، وجيوش لها مدافع زحفت عليها، وههنا جزر وعليها بشر، تُغَصُّ بهم كأنما حُشروا فيها حشراً، وكل شيء قوي، وأعمال تجارية وطيدة ومصارف، ومشروعات، ورقص، وقرع طبول، واستيراد، ومسألة اجتماعية، وفي يوم من الأيام تستقيم الأمور، رّرّرّرّ، رّرّرّرّ، أمور السفينة الحربية، فإن هذه تقفز وتحجل بذاتها، — من الأسفل، فالأرض تقفز قفزة: أيها العندليب، أيها العندليب، كيف كنت تغني ذلك غناءً بالغ الجمال؟ السفن تطير نحو السماء، والطيور تسقط على الأرض، وأصيح قائلاً: «فرانتس، ماذا، هلاّ أطلقتني، فسَرْعان ما يأتي كارل، إذ لا بُدّ أن يأتي كارل في كل لحظة. لقد بدأتَ مع "إيدا" كذلك على هذا النحو».

وأية قيمة تكون لامرأة بين أصدقاء؟ لقد نطقت محكمة الطلاق في لندن، بناءً على اقتراح من الكابتن بيكون، بالحكم بفسخ علاقته الزوجية، بسبب الخيانة الزوجية التي أقدمت عليها زوجته مع رفيقه، الكابتن فوربر، وأقرَّت تعويضاً له يبلغ ٧٥٠ جنيهاً، ويبدو أن الكابتن لم يكن يقدّر غير المخلصة، التي سوف تتزوَّج عشيقها إثرَ

ذلك ، تقديراً عالياً إلى حد مفرط آه ، ههنا توجد جبال لبثت راقدة بهدوء منذ آلاف السنين ، وعبرت من فوقها جيوش لها مدافعها ، وفيها فِيَلَتُها ، وماذا ينبغي للمرء أن يصنع ، حين تبدأ فجأة في القفز والوثوب ، لأنَّ الأمور تسير على هذا النحو في الأسفل: رَرَرَرّ رومّ ، أَفَلا نُزمِع ، أن نقول في ذلك شيئاً ، على الإطلاق ، وهل نزمع الآن أن ندع الأمور على حالها فحسب ، فإن مينا لا تستطيع أن تستردّ يدها ، وعيناه قبالة عينيها ، كما أنَّ وجهه الرجوليّ تشغله الخطوط والغضون . والآن يمر قطار بهذا مرور الكرام ، ألا فانظر ، كيف يبعث هذا الذي ينطلق ، بالدخان FD ، برلين ، هامبورغ– ألتونا ، الساعة ١٨ و ٥د ، وحتى الساعة ٢١و٣٥د ثلاث ساعات وخمس وثلاثون٩ دقيقة . هنا لا يستطيع المرء أن يفعل شيئا حيال هذا ، هذه الأذرع الرجالية قُدَّت من الحديد . سأصرخ في طلب النجدة ، وصرخت ، وكانت قد باتت ترقد على البساط ، ووجنتاه الحافلتان ببقايا الشعر على وجنتيها ، وفمه يترشَّف من فمها ، وإذ بها تلتفت مَعْرِضة عنه ، «فرانتس ، يا إلهي ، فلتكن رحيماً ، يا فرانتس» وكانت هي قد رأت الرؤية الصحيحة .

الآن تعرف أنها أخت إيدا ، وهكذا كان ينظر إلى إيدا في بعض الأحيان ، وإيدا بين ذراعيه ، إنها هي ، ومن أجل ذلك أغمض عينيه هكذا ، وهو يبدو سعيداً ، وهنا ما عاد يوجد التضارب والشجار المفزع ، والطواف في الليل على الحانات والشرب هنا وهناك ، وهنا ما عاد يوجد السجن! هذه تريبتوف ، حديقة الفردوس ، مع المفرقعات ، حيث لَقِيها وجاء بها إلى البيت ، الآنسة الصغيرة العاملة لدى الخياط ، وكانت قد ربحت مزهرية في لعبة النرد ، في دهليز المنزل ، والمفتاح في يدها ، قبَّلها أولاً ، ووقفت على رؤوس أصابع قدميها ، وكانت تنتعل حذاءً من الكتان ، وسقط المفتاح عليه ، ثم لم يستطع خلاصاً منها ، وهذا هو فرانتس بيبر كوبف القديم الطيب .

والآن يَشَمُّها من جديد عند العنق ، إنها البشرة ذاتها ، والبخار ، وهذا يجعله يشعر بالدوار ، حيثما ولّى المرء وجهه ، وهي ، الأخت ، ما أغرب الأحوال التي تطرأ عليها ، وهذا أمر يمكن الإحساس به من وجهه ، ومن رقاده الساكن إلى جانبها ، وقالت إنها مضطرة إلى الذهاب ، وصدَّته ، غير أن هذا ينتابها في صورة تبدُّل ،

وكان وجهها يعلوه التوتُّر، وما عاد ذراعاها يستطيعان أن يضغطا عليه فيبعداه، أما فمها فيغدو عاجزاً لا حول له. والرجل لا يقول شيئاً، وهي تَدَعُ، تَدَعُ، تَدَعُ له فمها، وتلين وتستكين وكأنها في الحمّام، فلتفعل بي ما تشاء، وهي تنساب مائعة كالماء، لقد باتت الأمور على ما يرام، هَلُمَّ فحسب، أنا أعلم كل شيء، وأنا في موقف طيب حيالك.

إنه السحر والاختلاج، والسمكة الذهبية تلتمع كالبرق في الحوض، والحجرة يلتمع فيها الضوء، إنه ليس شارع أَكَر، فليس ثمة منزل، ولا جاذبيةُ ثِقَل، ولا قوة نابذة، لقد توارت، وغاصَت، وانطفأت، عملية تحويل اللون الأحمر في الإشعاعات في حقل طاقة الشمس، ونظرية الغاز في علم الحركة وتحوُّل الحرارة إلى عمل، والذبذبات الكهربائية، والظواهرّ الاستقرائية، وكثافة المعادن والسوائل، والأجسام الصلبة غير المعدنية.

وكانت ترقد على أرض الحجرة، تقذف بنفسها هنا وهناك، فضحك، وتمدَّد: «أخنقتيني ذات مرة، وسألزَم السكون حين تنجزين هذا» «لقد استحققت ذلك» وجعل يَدِبُّ على الأرض زاحفاً حتى نهض قائماً، وضحك، وجعل يلتفت حواليه ويدور من فرط السعادة، والهناءة، والغبطة. ما الذي تبثه الأبواق والفرسان، هَلّلويا! لقد عاد فرانتس بيبركوبف إلى هنا من جديد، فرانتس بيبركوبف حر طليق! لقد شمّر ساقَيْ بنطاله وكان يعرج من ساقٍ إلى أخرى، وقعدت على كرسيّ، وهمَّت أن تُعْوِل: «سأقول ذلك لزوجي، سأقوله لكارل، لقد كانوا خليقين أن يدعوك قابعاً في السجن ما يعدل أربع سنوات أخرى»، قولي ذلك له، يامينا، ياصغيرتي، فتصدّقي، فأنا امرؤّ جدُّ سعيد، لقد عدت إنساناً من جديد، ياصغيرتي مينا» «أيها الآدمي، أنت مجنون، لقد بَدَّلوا عقلك بالفعل في السجن» «أليس لديك ما يمكن شربه، فنجان من القهوة أو شيء من هذا القبيل» ومن يدفع عني ثمن الصديريّ، ألا فانظر، إنه مِزْقة من الخِرق، يا فرانتس، ياصاحب الناس جميعاً، يا فرانتس، ياصاحب الناس جميعاً! لقد عاد فرانتس إلى الحياة من جديد!» «خذ قبعتك، وامضِ في سبيلك. فلو أنه لقيك وعيني زرقاء، وحاذِر أن تقع العين عليك مرة أخرى» «الوداع، يامينا».

ولكنه لم يلبث أن عاد في الصباح التالي ، ومعه رزمة صغيرة ، وكانت تعتزم أن لا تفتح له الباب ، فحشر قدمه فيما بين مصراعيه ، وهمست إليه من خلال الشق: «ينبغي لك أن تسلك طريقك ، أيها الآدمي ، لقد قلت لك ذلك حقاً» «يامينا ، المسألة ما هي إلاّ في ذوات المرايل» «وما شأن ذوات المَرايل» «ينبغي لك أن تلتمس صديرياً» «تستطيعين أن تحتفظي ببضاعتك المعتقلة لنفسك» «ليست بالمعتقلة ، ألا افتحي» أيها الآدميّ ، سوف يراك الجيران ، فهلا انصرفت» «ألا فافتحي ، يامينا» .

وإذ بها تفتح ، وكان قد قذف بالرزمة إلى داخل الحجرة ، وحين أبت أن تدخل الحجرة ، دفعت بها إلى يدها بقضيب المكنسة ، جعل يثب وحده في داخل الحجرة . «إني لمسرور ، يامينا ، وسَأُسَرُّ طوال النهار ، فقد لبثت أحلم بك في الليل» .

وإذ بها تفتح الرزمة على المنضدة ، وكانت قد دنت منه ، وتحسست القماش ، وقد كان اختار ثلاث صديريّات ، غير أنه ظل هناك راسخ القدم ، حين أمسك بيدها ، وكان قد ردَّ الأشياء الى الرزمة وحَزَمها ، وقفت من جديد هنا ، وفي يدها المكنسة: «ألا فأسرع ، وأخرج من هنا» ، وكان قد أشار إلى الباب: «إلى اللقاء ، ياصغيرتي ، مينا» وصفقت الباب بقضيب المكنسة .

وبعد أسبوع كان يقف من جديد أمام الباب: «لا أريد إلاّ الاطلاع على حالة عينيك» «كل شيء على ما يرام ، وليس لديك هنا ما تلتمسه» وكان أقوى ، وكان يرتدي معطفاً شتوياً أزرق ، وقبعة مقواة بنيّة» لقد أردت أن أبيِّن لك ، وأنا أقف هنا ، كيف أبدو» «هذا شيء لا يهمّني ولا يعنيني» «والآن-دَعيني أشرب فنجاناً من القهوة» . وهنا كانت تسمع أصوات خطوات نزول على السُلَّم ، وتدحرجت كرة أطفال فوق الدرجات ، وفتحت المرأة الباب مذَعورة ، وشدَّته إلى الداخل «هيّا فلنُعِد ترتيب هندامك ، كما كان ، فإنهم أهل لومْكه ، وهكذا تستطيع الآن أن تذهب من جديد» «فنجان قهوة فحسب . سوف تُعدّين لي فنجاناً صغيراً من القهوة» «ما من شكّ في أنك لا تحتاج إليّ من أجل هذا ، وما من شكّ في أنك حصلت على مثل هذا الفنجان كما يبدو عليك» «مجرد فنجان من القهوة» «إنك لتبعث في المرء التعاسة» .

وحين كانت تقف عند حاجزة الستار، في الدهليز، وهو ينظر إليها عند باب المطبخ راجياً، رفعت المريلة الجديدة الجميلة عالياً، وهزّت برأسها، وبكت: «أنت تجعلني تعيسة بائسة، أيها الآدمي» «ولكن ما الذي حدث يا ترى» «إن كارل لم يصدق إصابة عيني الزرقاء، وكيف يمكن أن أصطدم بالدولاب هكذا. وهذا ما ينبغي لي أن أتظاهر به أمامه. وما من شكّ في أن المرء يمكن أن يخرج بعين زرقاء نتيجة لاصطدامه بدولاب، حين يكون الباب مفتوحاً، وهو يستطيع أن يجرِّب ذلك، ولكن لست أدري لماذا، فهو لا يصدق» «هذا شيء لا أفهمه، يامينا» «لأنني مازالت لديّ هنا، آثار ضرب، في العنق، وهذه آثار لم ألاحظها أبداً، فما الذي ينبغي أن أقوله إذا ما عرضها على امرئ من الناس، والمرء ينظر في المرآة، ولا يدري من أين جاءته» «إن من الممكن أن يحكَّ المرء نفسه، ويمكن أن يشعر بحكّة لسبب ما، فلا تدَّعي أنَّ كارل يعاملك هذه المعاملة غير اللائقة. لقد كنت خليقاً أن أصطدم بهذا حقاً» «وأنت ما تزال تظهر، المرة بعد الأخرى، وسيكون أهل لومكه قد رأوْك» «كلاّ، فما ينبغي لهؤلاء القوم أن يشعروا بأنهم من ذوي الأهميّة» «هلاّ انصرفت بربك، يا فرانتس، ولا تعودّن من جديد، فأنت تجعلني أشعر بالتعاسة والشقاء» «وهل سأل عن المرايل؟» «لقد كنت أريد على الدوام شراء مرايل» «لا عليكِ فسأنصرف، يامينا».

وكان قد لامسها حول العنق، وارتضت ذلك، وبعد هنيهة، حين لم يُرْسِلْها، ومن دون أن يضغط عليها، لاحظت أنه كان يداعبها، وأنه رفع الطرف إليها وقد تولاه العجب: «والآن إذهب، يا فرانتس» وشدَّها شداً يسيراً إلى الحجرة، وكانت قد قاومت، غير أنه كان يتابعها خطوة فخطوة: «فرانتس: «الآن يفترض أن تكون انصرفت من جديد؟» ولماذا يا ترى، فأنا لا أريد سوى أن أقعد معك في الحجرة».

وكانا قد قعدا، بسلام، هنيهة من الزمان، أحدهما إلى جانب الآخر، على الأريكة، ثم ذهب وحده، وكانت قد رافقته إلى الباب. «ألا لا تعوَدنَّ من جديد، يا فرانتس، كذلك قالت له وهي تبكي، وتضع رأسها على كتفه. «إنه الشيطان، مرة أخرى، يامينا، ما الذي تستطيعين أن تفعليه مع الواحد من الناس، ولماذا ينبغي لي أن لا أعود من جديد، يا تُرى، لا عليكِ، فلن أعود من جديد» وأمسكت بيده

إمساكاً محكماً: «كلاّ، يا فرانتس، لا تعودّن من جديد» هناك فتح الباب، وكانت ما تزال تمسك بيده بإحكام، وتضغط عليها ضغطاً شديداً، وكانت ما تزال تمسك بيده، حين بات يقف في الخارج، ثم أرسلت يده، وضغطت الباب بهدوء، وعلى عجل، وبعث إليها من الشارع بقرصين كبيرين من لحم ظهر العجل، إلى مسكنها.

والآن يقسم فرانتس، لنفسه وللناس جميعاً، أن يظل في برلين

حسن السلوك، مهذَّباً، سواءً أكان لديه المال، أم لم يكن.

وكان قد بات يقف على قدميه، في برلين، وِقْفة محكَمة، وكان قد حوَّل أثاث حجرته القديم إلى مال، فتهيّأ له من تيغل بعض القروش، وأسلفه صديقه مك وصديقته، بعض المال – وهنا أصابته ضربة أخرى محكَمَة، غير أن هذه لم تجيء فيما بعد إلا من الورق المقوّى، إذ كان يرقد هنا ذات صباح. وكان ما يزال، على استقامته و إذ بورق أصفر، على منضدته، رسميّ، مطبوع، وآلة كاتبة:

رئيس الشرطة، القسم ٥، بالعلامة المميزة للمصلحة، يلتمس، في حالة وجود العرائض المحتملة، في المسألة التي بين أيديكم، بيان العلامة المميّزة للمحل التجاري المذكور أعلاه. وبالاستناد إلى ما تثبته الملفّات المتوافرة، فقد عوقبت، بسبب التهديد، والإهانة بالفعلٍ، والإصابة الجسدية، بالمآل القاتل، ويدخل في ذلك النظر إليك على أنك فرد يشكل خطراً على الأمن العام والآداب العامة، وبناءً على ذلك قررت، بالاستناد إلى التفويض الممنوح لي، بموجب الفقرة الثانية من القانون الصادر في ٣١ كانون الأول ١٨٤٢، وكذلك بموجب قوانين ١٢ حزيران ١٨٨٩، و١٣ حزيران ١٩٠٠، أن أحظر عليك بسبب بلاغ الشرطة الإقليمية، الإقامة في برلين، وفي شارلوتنبورغ ونويكولن، وبرلين شونيبرغ، وفيلمرز دورف وليشتنبرغ وشترالاوْ وكذلك المناطق الرسمية: برلين، فريديناوْ وشمارغندورف، وتمبِلْهوف وبريتس وترييتوف ورواينيكيندورف وفايسينزيه، وبانكوف و برلين– تيغل، وأطالبك، من أجل ذلك، بمغادرة المنطقة المحظورة عليك خلال أربعة عشر يوماً، مع التصريح، بأنه ستُحدَّدُ لك إذا ما صادفك أحد في منطقة الحظر بعد انقضاء الأجل الممنوح لك،

أو عُدْتَ إلى هناك ، على أساس الفقرة ١٣٢ البند الثاني من القانون المتعلّق بالإدارة العامة للإقليم ، الصادر في ٣٠ تموز QIIE ، ١٨٨٣ ، غرامة مالية تبدأ بمائة مارك ، أو ، في حالة عدم المقدرة على الدفع ، عقوبة السجن التي تبلغ عشرة أيام ، ويتمّ تنفيذها . وفي الوقت ذاته نلفت نظرك إلى أنك إذا أقمت في الأماكن المدرجة أسماؤها فيما يلي ، والمثبتة في السجلات على أنها تدخل في عداد الأماكن المحيطة ببرلين ، وهي بوتسدام ، شبانداو ، فريدريشسفيلدو ، كارلْشهورست ، فريدريشسهاغن ، أوبرشونيفايده ، وفولهايده ، وفيشتِناْ ، ورانزدورف ، وكاروف وبوخ ، وفروهنا وكوبينديك ، ولانكفيتِس ، وشتيغليتس وتساهليندورف وتيلتوف ، وداهليم وفانزيه وكلاينغلينيكه ، ولوفامنيس ونويبيندورف وآيْشه وبورنيم ، وبور نشتيت ، فسوف يترتب عليك أن تكون على استعداد لأن تُطْرد من الأماكن المعنّية .

حين قرأ هذا سرى الدّم بقوة في عظامه . وكان هناك منزل جميل عند الخط الحديدي في المدينة ، شارع غرونر ، رقم كذا ، عند أليكس ، رعاية المساجين ، ويتفقد هؤلاء فرانتس ، ويطرحون عليه أسئلة من هنا وهناك ، ثم التوقيع: السيد فرانتس بيبركوبف وضع نفسه تحت إشرافنا لحمايته ، وسوف نبحث في مسألة هل تعمل ، ويترتَّب عليك أن تقدم نفسك إلينا في كل شهر . اتفقنا ، بدقة ، كل شيء ، كل شيء على أحسن ما يرام .

لقد نسي الخوف ، ونسي تيغِل ، والسور الأحمر والأنين ، وما عدا ذلك— لقد ولى الأذى والضرر ، وسنبدأ حياة جديدة ، أما القديمة فقفد ألغيت وصُرِف النظر عنها . والسيد فرانتس بيبركوبف عاد من جديد ، والبروسيون قوم مرحون

ثم إنه لبث ، على مدى أربعة أسابيع يملأ بطنه باللحم والبطاطا والبيرة ، كلما ذهب ، مرة أخرى ، إلى اليهود ، إلى شارع دراغونر ، ليشكرهم . وكان ناحوم وإليسار قد عادا إلى التنازع لتوِّهما ، من جديد ، فلم يعرفاه ، إذ كان قد ارتدى ملابس جديدة كل الجدّة ، وبدا بديناً ، تفوح منه رائحة البراندي حين دخل ، وقال يهمس وهو يرفع قبعته ويضعها أمام فمه ، بلهجة الإجلال والتقدير: ، أما زال أحفاد السيد الشيخ مرضى ، وسألوه في الحانة ، عند الناصية ، أين تقدم له الخمور ، وأية

أعمال يمارس. « أنا لا أمارس أعمالاً، وكل شيء يسير على هذا المنوال عندنا» «ومن أين تحصل على المال؟» «من زمان مضى، من الاحتياطيات، فقد ادَّخر القوم شيئاً من المال» وغمز ناحوم في خاصرته، وشمخ بأنفه، وجعل ينظر بعينيه نظرات تنمُّ عن المكر والشطارة، وتبعث الرهبة: «أما زلتم تعرفون حكاية نوفيتش، الفتى الرائع، لقد كان هذا جميلاً، وفيما بعد قتلوه بدم بارد. ما أكثر ما تعرفون، لقد وددت لو ذهبت هكذا في صورة أمير، لأدرس، كلاّ، فنحن لا ندرس، وربما تزوجنا» «نتمنى لك الكثير من السعادة» فتعالوا إلى هناك، إذ يوجد ما يأكل القوم، أيها الناس، وما يشربون».

وكان ناحوم، الأحمر، يتأمَّله، وهو يداعب ذقنه: «ربما تسمع قصة أخرى، كان لرجل كرة، وأنتم تعلمون، كرة للأطفال، غير أنها لم تصنع من المطاط، بل صنعت من السيللولويد، وكانت شفافة، وفي داخلها كرات من الرصاص. وهنا يستطيع الأطفال أن يلهوا مستمتعين بجَلَبتها، كما يستطيعون أن يقذفوها، فتناول الرجل الكرة وقذف بها، وقال في نفسه: إذا كان فيها كرات من الرصاص ففي وسعي أن أقذف بها، وأظنّ أنّ الكرة لن تواصل الجري، بل ستقف على وجه الخصوص في البقعة التي عينتها، ولكن حين قذف بالكرة، لم تُحَلِّق كما كان يحسَب، بل وثبت وثبة أخرى، ثم جرت أيضاً مسافة يسيرة، مسافة ذراعين، بصورة عرضية» «هلا تركته ياناحوم، أنت وحكاياتك، فهذا ما لا يحتاجه الرجل»، وقال البدين: «وما الذي حدث للكرة يا تُرى، ولماذا تختصمان من جديد؟ ألا فانظر إلى كلا الرجلين، ياسيدي المضيف، فهما يختصمان مذ عرفتهما» «لابدّ للمرء أن يدع الناس وشأنهم، على ما هم عليه، والتنازع غير مفيد للكبد». وقال الأحمر: «أريد أن أقول لك، لقد رأيتك في الطريق، وفي الفناء، وسمعتك تغني، وأنت تغني بصوت جميل للغاية، وأنت إنسان طيب، ولكن لا تكن جامحاً هكذا، بل عليك بالهدوء الجميل، ولتعتصم بالصبر في الدنيا، فأنا أعرف كيف تبدو الأحوال في نفوسكم، وماذا ينويه الرب تجاهكم، ألا فانظروا، فإن الكرة لا تطير، حين تقذفون بها، كما يشاء المرء، بل تطير، على نحو تقريبي، هكذا، غير أنها تواصل طيرانها مسافة أخرى، ضئيلة، وربما طارت مسافة كبيرة كما نعلم، ومسافة ضئيلة إلى جانب هذا».

وردّ البدين رأسه إلى الوراء، وضحك، ونشر ذراعيه، وعانق الأحمر: «لقد كان في وسعك أن تسرد قصتك، فإن الرجل يستطيع أن يسرد القصص، ثم إن لفرانتس تجاريبه، وفرانتس يعرف الحياة. وفرانتس يعرف مَنْ يكون هو» «لم أُرِدْ أن أقول لك إلاّ أنك غنيت غناءً بالغ الحزن» «رويداً، رويداً، فما مضى مضى، والآن لدينا صديريُّنا وقد عاد مترَعاً من جديد، وكُرَتي تطير طيراناً حسناً. وأنا! لا يستطيع أحد أن يضيرني! الوداع، وعندما أتزوَّج، فلتكونوا حاضرين.

وهكذا انتهى عامل الاسمنت، والعامل، فيما بعد، في نقل الأثاث من جديد، الى برلين و إلى الشارع. فرانتس بيبركوبف هو رجل فظّ خشن غليظ ذو مظهر منفّر قد تعلقّت به فتاة حسناء من عائلة من أهل القصور، جعل منها بعد ذلك مومساً، وفي النهاية أصابها، أثناء مشاجرة، إصابة قاتلة، وقد كان أقسم للعالم كله أن يظل رجلاً مستقيماً فاضلاً، وقد كان يلتزم بالفضيلة والاستقامة مادام يتوافر لديه المال، غير أن المال نفد بعد ذلك، وهي اللحظة التي كان ينتظرها لمجرد أن يبيِّن للناس جميعاً كيف يكون الفتى.

الكتاب الثاني

وبذلك نكون قد جئنا برجلنا إلى برلين ، سعيداً ، لقد أدّى قَسَمه ، والمسألة هي: هل ينبغي لنا أن نُمسِك عن هذا ، ببساطة ، فالخاتمة تبدو ودِّية ، خالية من الارتباك أو الحرج أو مزالق الخطر ، وتبدو كأنها نهاية ، كما أن المجموع يتميَّز بمزية الإيجاز الكبرى .

غير أنّ فرانتس بيبركوبف ليس رجلاً مثل أي رجل ، فأنا لم أبعثه إلى كعِب أو عبث ، بل لكي يعيش حياته الصعبة ، الحقيقية ، الجلية الواضحة .

وفرانتس بيبركوبف ويتحرَّق شوقاً ، إلى أمور معينة ، وهو يقف الآن مغتبطاً مسروراً ، منفرج الساقين ، في الإقليم البرليني ، وعندما يقول إنه يريد أن يكون فاضلاً مستقيماً نستطيع أن نصدقه ، لأنه سيكونُه .

ولسوف ترون كيف يظل مستقيماً فاضلاً طوال أسابيع ، ولكن هذا ليس إلاّ نوعاً من الإمهال القضائيّ .

كان يعيش ذات مرة اثنان من البشر ، آدم وحواء ، وكان الله خلقهما ، وهو الذي صنع الحيوانات والنباتات ، وصنع السماء والأرض ، وكان الفردوس جنة عَدْن الرائعة ، إذ كانت تنمو فيها الأزهار والأشجار ، والحيوانات ترتع هنا وهناك ، ولم يكن أحد يعذِّب الآخر ، وكانت الشمس تشرق وتغيب ، والقمر يفعل الشيء ذاته ، وكان هذا سروراً فريداً طوال النهار في الفردوس .

وهكذا نريد أن نبدأ مسرورين مغتبطين. نريد أن نغني ونتحرك، فبالأيدي نصفّق ونصفّق وبالأقدام الصغيرة ندق الأرض في مثل خطو حوافر الخيل المسرعة، ذاهبين طوراً وآيبين طوراً آخر، في مسارات دائرية، وليس هذا بالعسير.

فرانتس بيبركوبف يدخل برلين

التجارة والمِهن

نظافة المدينة والنقل

الصحة

أعمال الإنشاء تحت الأرض

الفن والثقافة

المواصلات

صندوق التوفير ومصرف المدينة

مصانع الغاز

الاطفائية

المالية والنظام الضريبي

شفافية الخطة الخاصة
بملكية الأراضي، عند جسر شبانداوْ ١٠

تُعَدُّ الخطة الخاصة التي يفترض أن تقصُر إيراد الحلْية المعمارية الجدارية الوردية على جدار الشارع الخاص بالمنزل الواقع على جسر شبانداو ١٠ ، على الدوام ، من الخطط التي تتوافر فيها الشفافّية ، والمسجّلة في السجّل العقاري بحيث يراها كل امرئ إلى جانب المرافق الأخرى ، في منطقة بلدية وسط برلين ، وخلال هذا الوقت يستطيع كل مشارك أن يتقّدم بالاعتراضات ، ضمن نطاق حجم مصلحته ، على هذه الخطة ، وحتى مجلس إدارة منطقة البلديّة يتمتّع بالحق في التقّدم بالاعتراضات . وأمثال هذه الاعتراضات يترتب التقدُّم بها لدى مكتب منطقة وسط برلين C2 شارع كلوستر ٦٨ ، الغرفة ٧٦ ، خطّياً ، أو التصريح بها شفهيّاً بحيث تُحَرر في المحضر .

لقد أبلغت مستأجر حق الصيد ، السيد بوتّيش ، بالموافقة التي يمكن نقضها في كل وقت ، والصادرة عن السيد رئيس الشرطة ، على اقتناص الأرانب الصغيرة البرية وما عداها من ألوان عمليات الصيد على أرض منتزّه البحيرة ذات الماء الآسِن في الأيام التالية من العام ١٩٢٨ : يجب الفراغ من القنص في الصيف ، من ١ نيسان ، وحتى ٣٠ أيلول ، في موعد أقصاه الساعة السابعة ، وفي الشتاء الممتد من ١ تشرين الأول إلى ٣١ آذار ، في موعد أقصاه الساعة الثامنة وبذلك يتّم إيصال هذا إلى نطاق المعرفة العمومية . ويتم التحذير قبل دخول الأرض المعنية أثناء وقت القنص المبيَّن ، ويعد العمدة الأول رئيس الصيد .

أما الفرّاء ألبرت بانغِل، الذي يستطيع أن ينظر إلى ما خلَّف وراءه من نشاط دام ثلاثين عاماً وعاد عليه بصفة موظف شرف، فقد تخلى عن منصب الشرف هذا نتيجة لتقدُّمه في السن وتأخره، خارجاً من مجال اللجنة. وخلال هذا الوقت الطويل كان يعمل بغير انقطاع، بصفة رئيس لجنة الرعاية الاجتماعية، وبالتالي فقد كان يعمل في الرعاية الاجتماعية. وقد عبّرت إدارة المنطقة عن استحقاقه للثناء في رسالة شكر إلى السيد بانغِل.

وكان ميدان روزنتال يجد التسلية وتتوافر فيه إمكانية تمضية الوقت.

وكان ثمة طقس متبدِّل، أكثر وُدّاً، بدرجة ١ تحت الصفر. أمّا ألمانيا فتنتشر فيها منطقة منخفض جوي مهّدت في كل مجالها، لوضع نهاية للطقس الذي كان سائداً حتى الآن، على أن التغيُّرات الضئيلة التي تحدث في الضغط الجوي تشهد على الانتشار البطيء للمنخفض الجوي باتجاه الجنوب، بحيث يتواصل بقاء الطقس متأثراً به. وخلال النهار قد يكون من الجائز أن تكون درجة الحرارة أدنى مما كانت عليه حتى الآن، هذه احتمالات الطقس بالنسبة لبرلين والمناطق المحيطة بها.

كانت الحافلة الكهربائية رقم ٦٨ تنطلق عبر ميدان روزنتال، وفيتّناو ولورد بانهوف، والمصَحّ وفيدنغ بلاتس وشتيتّنربانهوف، وميدان روزنتال وميدان الإسكندر وميدان شتراسبرغ ١٠ ومحطة القطار وشارع فرانكفورت المشجَّر، وليشتنبرغ ومصح هيرتسبرغه للمجانين. وتشكل مشروعات المواصلات البرلينيّة الثلاثة، وهي الحافلة الكهربائية والمترو العالي والمترو المنخفض، والسيارة العامّة تعريفة جماعية. وتكلف تذكرة الركوب للكبار ٢٠ قرشاً، بينما تكلف تذكرة الركوب للطلاب عشرة قروش. أما تخفيض سعر الركوب فيحصل عليه الأطفال حتى إتمام سن الرابعة عشرة، والصبيان الذين يتعلمون حرفة من الحرف، والتلاميذ، والطلاب المُعْدَمون، والمتضررون من الحروب، والمعوَّقون في المشي إعاقة شديدة بشهادة دوائر الرعاية الاجتماعية في المنطقة. فعليك بالاطلاع على شبكة الخطوط، وخلال أشهر الشتاء لا يجوز أن يُفْتَح الباب الأمامي للصعود والنزول، ٣٩ مكاناً للقعود، ٥٩١٨، ومن أراد النزول فعليه الإبلاغ عن ذلك في الوقت المناسب،

ويحظر على سائق المركبة التحدث إلى الركاب، والصعود والنزول أثناء انطلاق المركبة يرتبط بالخطر على الحياة.

وفي منتصف ميدان روزنتال يَثِب رجل معه رزمتان صفراوان، من المركبة رقم ٤١، وكانت سيارة من طراز عربة الحنطور، فارغة تمرُّ به لتوِّها في طريق منحدر، ويتابعه الشرطي بنظره، ويظهر مفتشالحافلة الكهربائية، ويتصافح الشرطي والمفتش، غير أن هذا قد أصاب حظاً سعيداً برزَمه.

وهناك خمور البراندي المختلفة المتخذة من الفواكه بأسعار الجملة. الدكتور بِرْغيل هو المحامي وموثّق العقود، ولوكوتاتههي وسيلة إعادة الشباب الهندية المستمدة من الفيَلة، وفَصْل فرومهو أفضل اسفنج مطاطي، ومن أجل أي شيء يحتاج المرء إلى الاسفنجات المطاطية الكثيرة.

ومن الميدان ينطلق شارع النبعات الكبير، الذي يفضي إلى الشمال، وشركة الكهرباء العامة تقع فيه، على الجانب الأيسر، أمام حرش همبولدت، وشركة الكهرباء العامة فمشروع هائل يشمل كما يفيد دليل هاتف عام ١٩٢٨: منشآت الإنارة والطاقة الكهربائية، والإدارة المركزية، NW40، ضفة فريدريش كارل ٢–٤، دائرة المرور المحلي والمرور البعيد، في الشمال ٤٤٨٨، الإدارة، بفورتنر بنك القِيَم الكهربائية، شركة عامة، قسم الأجسام المضيئة، قسم روسيا، قسم مصانع المعادن، أوبر شبريه، مصانع أجهزة تريبتوف، مصانع شارع برونِن، مصانع هينيغز دورف، مصنع المواد العازلة، مصنعْ شارع الراين، مصنع كلابلات أوبرشبريه، مصنع المحوِّلات، شارع فيلهلمينين، روملز بورغر شوسيه، مصنع التوربينات، NW87، شارع هوتّن ١٢–١٦.

أما شارع الإنفاليد فَيَنَصَّل من المسؤولية تجاه اليسار وما حوله، ويكون المسار نحو محطة قطار شتيتّن، حيث تصل القطارات من بحر البلطيق: فهي بالغة التلوُّث بالهُباب– إذ يتصاعد الغبار هنا– طاب نهارك، إلى اللقاء– إذا كان لدى السيد ما يحمله، فخمسون قرشاً– ولكنك استجممت استجماماً حسناً– واللون البني سرعان

ما يزول– من أين يترتب على الناس أن يكونوا بدَّدوا المال الكثير بالأسفار فحسب– ففي فندق صغير، هنا في شارع مظلم أطلق عاشقان النار على نفسَيْهما، في ساعة مبكرة من صباح الأمس، وهما نادل من درسدن، وامرأة متزوِّجة، غير أنهما كانا قد سجَّلا نفسَيْهما خلافاً لهذا.

ومن الجنوب يأتي شارع روزنتال إلى المكان. وفي الجهة المقابلة يقدِّم آشْنغر للناس ما يأكلون، والبيرة ليشربوا، وحفلة موسيقية ومخبزاً كبيراً. والأسماك المغذية، وبعض الناس يسرُّهم الحصول على السمك، وثمة آخرون لا يستطيعون أن يأكلوا السمك، كلوا السمك تظلوا نُحلاء، معافَيْن، منتعشين، جوارب نسائية، حرير صناعي حقيقي، ولدى القوم هنا قلم حبر له ريشة ذهبية من الطِراز الأول.

وفي شارع الألزاس كانوا قد أحاطوا بكل طريق السفر، حتى شمل ذلك ميزاباً صغيراً، ووراء سياج البناء تنفث في الجنب قاطرة، بيكر– فيبِش، متعهِّد البنا، شركة عامة، برلين W35، وكان ثمة شيء يعتمل في الداخل، وسيارات جيب توجد في منطقة تمتّد إلى الزاوية التي يكون فيها مصرف التجارة والمصرف الخصوصي، وصندوق الودائع L.، والمحافظة على الأوراق المالية، ودفع حسابات توفير المصارف، ويركع خمسة رجال أمام المصرف، والعمال، لا يضربون الحجارة بالأرض.

وعند موقف شارع لوترِنغَر صعد عدد من الناس يصل إلى أربعة، سيدتان متقدمتان في السن ورجل بسيط مهموم، وغلام يعتمر قبعة وغطاءين للأذنين. وكانت السيدتان ترتبط كل منهما بالأخرى، إنهما السيدة بلوك، والسيدة هوبه، وهما تريدان أن تؤمّنا للسيدة هوبه، الأكبر سناً، حزاماً لأن لديها استعداداً لانفتاق السرَّة، وكانت لدى المختص بالأحزمة في شارع برونِن، وهما تزمعان بعد ذلك، أن تأتي كلتا هما بزوجَيْهما إلى الطعام. أما الرجل فهو الحوذي هازيبروك، الذي يعاني من المتاعب، من جراء مكواته الكهربائية التي اشتراها لرئيسه قديمة ورخيصة، وكان الباعة أعطوه مكواة رديئة، وكان الرئيس قد جرّبها بضعة أيام، ثم إنها ما عادت تتَّقِد، وبات عليه أن يستبدلها، والقوم يأبَوْن، وهو ينطلق إليهم للمرة الثالثة.

اليوم يفترض أن يدفع مبلغاً فوق ما دفع. أما الغلام، ماكس رُسْت فسوف يغدو فيما بعدُ سمكريّاً، وأباً لسبعة آخرين من آل رُسْت، وسوف يشارك بنفسه في مؤسسة تدعى هالّيس وشركاؤه، للإنشاء، وأعمال الأسطح في غروناوْ، وفي عامه الثاني والخمسين سوف يربح في اليانصيب الربعي، العائد لليانصيب الفئوي البروسي، وعلى أثر ذلك يخلد إلى الراحة، وسيموت أثناء عملية ترضية بتعويض يجريها مع مؤسسة هالّيس وشركائه، في عامه الخامس والخمسين، وسيكون نص الإعلان عن وفاته على النحو التالي: في الخامس والعشرين من أيلول قضى نحبه فجأة، من جراء سكتة قلبية، زوجي المحبوب من أعماق القلب، ووالدنا العزيز، ولده وأخوه وصهره وعمه باول رُسْت عن عمر لمّا يفرغ من العام الخامس والخمسين، و تعلن عن هذا وقد تكدَّرت تكدُّراً عميقاً، باسم من ظلوا أحياء من بعده، ماري رُسْت، أما تقديم الشكر بعد الدفن فسيكون نصه على النحو التالي: تقديم شكر! لمّا لم يكن من الممكن أن نشكر لكل فرد ما برهن به عليه، الخ، فإننا نعبِّر بهذا، لكل ذوي القربى والأصدقاء، وكذلك لمستأجري المنزل في شارع كلايست رقم ٤ ولكل المعارف، عن شكرنا القلبي الأعمق إلى أقصى الحدود، ونتقدم بالشكر على وجه الخصوص تماماً إلى السيد دايْنِن، لكلماته المواسية الحميمة– والآن بات هذا المدعو ماكس رُسْت في سن الرابعة عشرة، وقد سُرِّح لتوّه من مدرسة البلدية، ويفترض فيه أن يزور في طريق الذهاب، المركز الاستشاري لمرضى الكلام، وثِقَل السمع وضعف الرؤية وضعف الموهبة، وصعوبة التربية، الذي كان ينتابه في كثير من الأحيان، لأنه يتلعثم، غير أنه تحسَّن.

مقصف صغير في ميدان روزنتال

أمّا في المقّدمة فيلعبون البلياردو، وأمّا في الخلف، في أحد الأركان فيدخن رجلان ويشربان الشاي، أوَّلهما ذو وجه متهدِّل وشعر أشيب، وهو يقعد في وشاح نسائي طويل الأطراف: «والآن فلتطلق طلقتك، ولكن عليك بالقعود مع السكون، ولا تتململ أو تقلق، بهذا الشكل».

«أما أنا فلن تحصِّلونيَ اليوم في البلياردو، فليس لي يَدٌ واثقة»

ويلوك رغيفاً صغيراً، ولا يمسُّ الشاي.

«لا ينبغي لك ذلك على الإطلاق، فنحن نقعد ههنا قَعْدَة حسنة»

«إنها الحكاية ذاتها دائماً. الآن نجح هذا»

ومَنْ ذا الذي نجح؟»

وقالت الشخصية الأخرى، وهي فتيةً، شقراء ناصعة، ذات وجه مشدود وقامة مشدودة: «وأنا بالطبع كذلك، أوَ كنت تحسُب أن الأمر مقصور على هؤلاء؟ لقد دخلنا في طور النقاء».

«وبتعبير آخر، فأنت في الخارج»

«لقد تحدثت مع الرئيس بالألمانية، وعلى أثر ذلك أغلظ لي في القول. وفي المساء لي إخطاري الأول الموجه إلى الأوّل».

«لا ينبغي للمرء أبداً أن يتحدَّث بالألمانية في مواقف معينة، ولو أنك تحدثت إلى الرجل بالفرنسية لفهم، ولكنت ما تزال في الداخل».

«أنا ما زلت في الداخل، وماذا تتصوَّر، وها أنذا آتٍ لتويّ. أنت تحسَبِ أنني سأجعل الحياة ميسَّرة لك، في كل يوم تدقّ الساعة الثانية. وها أنذا، حاضر، أكدِّر عليك صفوَ الحياة: ففي وسعك أن تعتمد عليّ».

«أيها الآدميّ، أيها الآدميّ، أنا أحسَب أنك متزوِّج»

ويدعم هذا رأسه بذراعه ليرتفع: «هذا هو العام، المشترك، أنا لم أقل لك بعدُ، ولا أستطيع أن أقول لك ذلك»

«قد تتاح الفرصة لهذه المسألة من جديد»

«إنها تتوافر في ظروف أخرى»

«الثاني؟»

«أجل»

ويسحب المتلفّح بالوشاح النسائي العباءة لتكون أكثر التصاقاً به، ويبتسم للآخر متهكماً، ثم يومئ موافقاً: «لا بأس، فهذا حسن، الأطفال يهبون للمرء الجرأة والشجاعة. ومن الممكن أن تحتاج إليها الآن».

ويتقدَّم هذا منه: «لا يمكن أن أحتاج إليها وفيم تكون الحاجة إليها يا تُرى فعليّ ديون حتى الآن، الأقساط الخالدة، لا أستطيع أن أقول لك ذلك. ثم يعمدون إلى إرهاب المرء وإخراجه. لقد تعوّدت النظام، وهذا مشروع قذر من أعلاه إلى أسفله. وللرئيس مصنعه للأثاث، ولا يهمّه البتة في الحقيقة أن أدْخِل فيه تكاليف من أجل قسم للأحذية، وهذه هي المسألة، ويكون المرء بمثابة العجلة الخامسة في العربة. ويقف المرء في المكتب، هنا وهناك، ويسأل، ويسأل: هل خرجت الآن، أخيراً، العطاءات؟ أية عطاءات، لقد قلت لك ذلك ست مرات، ولماذا أجري، يا ترى، إلى الزبائن، وها نحن أولاء نعرِّض أنفسنا للسخرية، فإما أن يدع القسم ينتهي أمره إلى الأبد، وإما أن لا يسمح بذلك».

«هلاّ شربت جرعة من الشاي. إنه يدعك تذهب، مؤقتاً».

ويأتي رجل في أكمام قميص من منضدة البلياردو، ويربِّت على كتف الغلام: «أتريد لعبة؟»

وقال الأكبر سناً، له: «لقد تلقّى لكمة في ذقنه»

«البلياردو يردُّ إلى من تلقى لكمة في ذقنه، عافيته» ثم يخرج. أما المتلفح بالوشاح النسائي فيتجرَّع الشاي الساخن، ومن المستحسَن أن يشرب المرء الشاي الساخن مع السكر والروم ويسمع حديثاً آخر. إنه شيء مريح في الكوخ: «لا شك في أنك لن تذهب اليوم إلى البيت، ياجورج؟»

«لا تكن جريئاً، لا تكن جريئاً. ما الذي ينبغي لي أن أقوله لها، فأنا لا أستطيع أن أنظر في وجهها»

المشي، المشي دائماً، والنظر في وجهها بهدوء.

«ما الذي تفهمه من هذا»

ويرقد هذا، ونهايات الوشاح النسائي بين أصابعه، عريضاً، على المنضدة: «إشرب، ياجورج، أوكل، ولا تتكلم، أنا أفهم شيئاً من هذا، وأعرف السحر إلى هذا الحد، عندما كنت ما تزال صغيراً، كنت قد قطعت هذه المسافة»

«ولو وضع أحدهم ذات مرة نفسه في مكاني، إنه موقع جيد، ثم يفسدون على المرء كل شيء»

«لقد كنت أستاذاً أوَّل، قبل الحرب، وحين نشبت الحرب كنت قد أصبحت كما أنا الآن.

وكان المقصف كحالة اليوم. ولم يستدعوني، إذا لا يمكن أن يحتاجوا إلى أناس مثلي، أناس يحقنون أنفسهم، أو، بعبارة أصح، كانوا قد استدعوني، وحسبت أن الضربة تصيبني، وبالطبع فقد انتزعوا من يدي الحقنة، كما انتزعوا المورفين كذلك، وهرعوا بي إلى المشروع، واحتملت ذلك يومين، ما دامت ما تزال تتوافر لديَّ، وما هي إلاّ قطرات، ثم الوداع، إلى بروسيا، وإذ بي في مستشفى المجانين، ثم تركوني أنطلق، كلاّ، ما الذي أردت أن أقوله، طردتني المدرسة، المورفين، فالمرء يكون في بعض الأحيان في حالة سُبات وذهول، في البداية، أمّا الآن فما عاد هذا يحدث للمرء، مع الأسف، ثم ماذا عن المرأة؟ والطفل؟ والآن وداعاً، أنت ياموطني العزيز، أيها الآدمي، ياجورج، لقد كان في وسعي أن أقصَّ عليك أقاصيص رومانسية. أمّا ذو الشيب فيشرب، وكلتا يديه على القدح، يشرب رويداً رويْداً، بحرارة ولهفة، وينظر في الشاي: «امرأة، وطفلك وتبدو المسألة وكأنّ هذا هو العالم. ولم أندم، فأنا لا أُحس بالذنب. ولا بدّ للمرء أن يتقبَّل الحقائق، ويتقبل نفسَه. ولا ينبغي للمرء أن يتعاظَم بمصيره. وأنا خصم للقَدَر المحتوم، وأنا لست يونانياً، بل أنا برليني. لماذا يَدَعون الشاي الجميل يبرُد؟ فلنشرب الروم». والحق أن الغلام يضع يده فوق القدح، ولكن الآخر يزيحها جانباً، ويصبُّ له من قارورة من صغيرة من الصفيح يسحبها من جيبه، قَدْراً معيَّناً «لا بُدَّ لي من الانصراف، شكراً جزيلاً. ولا بُدَّ لي من أن أطلق العنان لغيظي» إبق هنا من دون حرج، ياجورج، اشرب قليلاً، ثم العب البلياردو، ولكن حَذارِ من ترك الفوضى تنتشر وتستفحل، وهذه بداية النهاية. وحين لم أجد

زوجتي والطفل في المنزل، ولم يكن هناك سوى رسالة، وذهبت إلى أمي في غربيّ بروسيا، وهكذا دواليك، والوجود في غير محله، وزوجها، والعار، وهكذا دواليك، فقد تسبَّبت في انفتاح شِقّ هنا في الذراعِ اليسرى، الأمر الذي بدا كأنه محاولة انتحار، ولا ينبغي للمرء أبداً أن يفوته أن يتعلّم شيئاً ما، ياجورج، بل كنت أتقن حتى اللغة البروفسالية ولكن التشريح، وكنت أَعُدُّ وتر العضلة بمثابة النبض، على أنني لست في هذه الأيام أفضل اطّلاعاً بعدُ، غير أنَّ هذا ما عاد وارداً في الحسبان، وجملة القول أن الألم والندم كانا من قبيل العبث، وظللت أعيش، كما ظلت الزوجة تعيش، وكذلك الطفل، بل لقد وُلِد لديها أطفال أكثر بعد، في غربي أوروبا، ثمانية، اثنان، لقد كنت أحدث الأثر على البُعْد، ونحن نعيش جميعاً، وميدان روزنتال يبعث لديَّ السرور. والشرطي الواقف عند ناصية الألزاس، يبعث في نفسي السرور، كما يسرني البلياردو، فليأت ذات مرة أحدهم ولْيَقُل إن حياته أفضل، وإنني لا أفهم شيءً من أمور النساء».

وكان الأشقر يتأمّله بتقزُّز واشمئزاز: «إنما أنت شيء من الأنقاض والخرائب، ياكراوزه، وهذا ما تعرفه أنت بلا ريب، أيُّ نوع من الأمثلة أنت، وأنت تقدِّم نفسك لي وأنت في داخل إهاب الزفت الذي تتلبَّس فيه، ياكراوزه، فلقد رَوَوْا لِي بأنفسهم كيف تضطر إلى معاناة الجوع في ساعاتك الخصوصية، أنا لا أودّ أن أُدْفَن بهذه الطريقة» وكان الشائب قد أفرغ قدحه، ورقد بالوشاح النسائي في المقعد الحديدي مرتدّاً به إلى الوراء، ويلبث لحظة من الزمان يغمز بعينيه بعد أن ضيَّقهما، للغلام، غمزاً عدائياً، ثم ينفث هواء من فمه، ويضحك ضحكة متشنِّجة: «كلاّ، دَعْنا من الأمثلة، هنا أنت على حق، هذا ما لم أطالب به قطّ، وأنا لست المثال بالنسبة إليك، أنظر إلى الذبابة، فإن لها وجهات نظر، الذبابة تستقر تحت المجهر وتبدو في نظر نفسها حصاناً، إنما ينبغي للذبابة أن تمثُل أمام منظاري المقرِّب. مَنْ أنت، ياسيد جورج؟ فتصوَّر، ذات مرة، ممثل مؤسسة س ع في المدينة، قسم الأحذية بأنواعها. كلاّ، دَعْ عنك النكات. والتحدُّث إليّ عن هَمِّك، عن همّك: ولتتهجَّ حرف الكاف مثلما يكون في كلمة Kalbskopf، والحرف U مثلما يكون في كلمة

Unfug ، العبث الفظّ ، بل العبث الأكثر فظاظة وجلافة على الإطلاق ، والحرف M مثلما يكون في كلمة Mumpits ، وتكون قد ارتبطت ارتباطاً خاطئاً ، ارتباطاً خاطئاً ، ياسيدي ، بل الارتباط الخاطئ على الإجمال .

وتصعد إلى المركبة فتاة صغيرة من المبنى رقم ٩٩ ، مارييننزدورف ، عند الطريق الجبلي المعبَّد ، تمبِلْهوف ، باب هالليه ، كنيسة هيدفيغ ، ميدان روزنتال ، شارع باد ، ناصية طريق البحر ، شارع توغو ، وفي الليلتين الواقعتين بين السبت والأحد ، مزرعة بين شارع أوفَر وتِمبِلهوف ، وشارع فريدريش كارل ، على مسافات تبلغ ١٥ دقيقة ، في الساعة الثامنة مساء ، وهي تحمل محفظة للملاحظات تحت ذراعها ، وكانت قدر ردّت ياقة صوف الخروف عالياً حتى بلغت منتصف وجهها ، وكانت تسير في ناصية طريق فاينبرغ وشارع برونن ، جيئة وذهاباً ، ويخاطبها رجل في الفناء ، فتنتفض مذعورة ، وتنتقل على عجل إلى الطرف الآخر ، وتقف تحت المصباح العالي وهي ترقب الناصية المقابلة ، ويظهر على الجانب المقابل سيد متقدِّم في السن على عينيه نظارتان مصنوعتان من مادة القرون ، وإذا هي تنضم إليه على الفور ، وتسير إلى جانبه وهي تقهقهِ ، ويسيران صعوداً في شارع برونن .

«لا يجوز لي اليوم أن أذهب إلى البيت متأخراً إلى هذا الحد ، كلاّ ، بالفعل ، وما كان لي ، في الحقيقة أن آتي أبداً ، ولكن لا يجوز لي ، حقاً ، أن أعطي الإشارة بالجرس» «كلاّ ، بل على سبيل الاستثناء فحسب ، حين لا يكون هناك بُدٌّ من ذلك ، فالناس يصيخون السمع في المكتب ، وهذا بسببك ، يابنيَّتي» «أجل ، فأنا أخشى ، أن لا ننتهي إلى الخروج من المأزق ، فإنهم لا يقولون هذا لأحد ، بلا ريب» «بلا شك» «يا أبتِ لو كان هذا يسمع شيئاً ، ووالدتي ، ربّاه» ويمسك بها السيد المتقدم في السن من ذراعها مسروراً «ما من شيء يخرج من هذا المأزق ، وأنا لا أقول كلمة لإنسان ، وهل تعلمتِ في هذه الساعة تعلُّماً حسناً؟ . ، «شوبان . أنا أعزف موسيقى الليل ، وهل أنت ذو نزعة موسيقية؟» «أجل ، إذا لم يكن هناك بُدٌّ من ذلك» ، ولقد وَدِدْت لو أعزف أمامك لو كنت أستطيع ، غير أني يتولاّني الخوف في حضورك» «ولكن ، كلاّ» «أجل ، انا أخاف منك على الدوام ، قليلاً ، لا كثيراً ، كلاّ ، ليس بالخوف الكثير ، ولكني لست مضطراً إلى أن أخاف منك» «لا أثر لذلك ، ولكن شيئاً كهذا .

فأنت تعرفني منذ ثلاثة شهور» «الحق أنني لا أخاف إلاّ من والدي، حين تنتهي المسألة إلى الخروج من المأزق» «أيتها الفتاة، سوف تستطيعين، ذات مرة، أن تسيري وحدك، في المساء، فلا ريب في أنك ما عدت طفلة «لقد سبق أن قلتٍ هذا لوالدتي، على الدوام، وأنا أخرج من البيت» «سنذهب، أيتها الصغيرة المتشكّية، إلى حيث يناسبنا المُقام» «لا تقل إنني متشكّية، فأنا لم أقل هذا إلاّ لك على أية حال، لكي ينتهي هذا- بصورة عَرَضية، ولكن إلى أين ننطلق اليوم، ولا بُدَّ لي أن أكون في البيت في التاسعة» «هنا، في الأعلى، باتوا هنا، إذ يسكن صديق لي، وفي وسعنا أن نصعد، دونما تكلُّف» «أنا خائفة، أن يرانا أحد أيضاً؟ إمضِ أمامي، وسألحق بك وحدي».

وفي الأعلى تبتسم لنفسها، وتقف في الركن، وكان هو قد وضع معطفه وقبعته، وتَدَعه يتناول منها حقيبة النوطات، والقبعة.

ثم تجري إلى الباب، وتطفئ النور: «ولكن اليوم لن تدوم المسألة طويلاً، فليس لديّ إلاّ القليل جداً من الوقت، ولا بُدَّ لي من الذهاب إلى المنزل، ولن أخلع ثيابي، وهم لا يسبّبون لي ألماً».

فرانتس بيبركوبف يخرج للبحث

لا بد للمرء من كسب المال، فبدون المال لا يستطيع الإنسان أن يعيش

حول سوق الفخّار في فرانكفورت

وقعد فرانتس بيبركوبف مع صديقه مِلْك إلى منضدة كان يقعد إليها عَددٌ من الرجال الخائبين، وكان ينتظر بداية الاجتماع، وصرّح مِلْك قائلاً: «أنت لا تخرج للختم والدَّفع، يا فرانتس، كما أنك لا تخرج إلى المصنع، وبالنسبة للأعمال في الأرضِ، يعدُّ الجوُّ مفرطاً في البرودة، أما التجارة فهذه هي الأفضل، في برلين، أو في الريف وفي وسعك أن تختار. «غير أن هذا يغذي رجلها». وصاح النادل قائلاً: «حاذروا، وابعدوا رؤوسكم» لقد شربوا بيرتها، وفي هذه اللحظة كان يصدح صوت خطوات في الأعلى، فوقهما، وكان السيد فُنشِل، المدير، في الطابق الأول،

يجري نحو جرس الإنقاذ، إذ كانت زوجته تعاني من الإغماء. هنالك أعلن مِلْك من جديد قائلاً: «مثلما أنني أُدعى غوتليب، سوف أنظر لكَ في الناس هنا، لأرى كيف تبدو حالتهم، وهل يموتون من الجوع، وهل هم أناس لا يُعدّون من أهل الاستقامة والفضل» «أنت تعرف، ياغوتليب، أنني لا أسمح لأحد أن يمارس الهزل والنكات معي حول الفضيلة والاستقامة. فلتضع يدك على قلبك، أهي مهنة شريفة أم لا؟» «فأنظر إلى الناس، وأنا لا أقول شيئاً على الإطلاق» إنهم أناس ممتازون لا شائبة فيهم. فهلا نظرت إلى ما حولك، بربّك» «إنها حياة ذات أساس متين، صلب. وعلى هذا يكون المُعَوَّل، أي على الحياة ذات الأساس المتين» بل على الحياة الأصلب عوداً من بين ما وُجِد منها، حيث يكون للمرء ما يُعْطى له، انها حمّلات البنطال والجوارب، والجوارب القصيرة، وسترات الصوف من التريكو، وفي النهاية أغطية الرأس، وإنما يكمن الربح في التسوُّق».

وكان يتحدث، على أرضية القاعة، رجل ذو حَدَبة، من معرض فرانكفورت. وقبل الاشتراك الخارجي في المعرض، لا يمكن توجيه الإنذار المُلِحّ بما يكفي. والمعرض يوجد في مكان رديء، ولا سيما سوق الفخار. «سيداتي، سادتي، زملائي المحترمين، إنَّ من يشارك في سوق الفخّار في فرانكفورت، سيتمكّن من إنّ يؤيِّد معي، حقيقة أن هذا لا يمكن أن يثق الجمهور به» وقال غوتليب وهو يصدِم فرانتس: «إنه يتحدَّث عن سوق الفخار في فرانكفورت. أنت لا تذهب إلى هناك» «هذا لا يضير، هو رجل طيِّب، وهو يعلم ما يريد» «ومن يعرف ميدان المخازن في فرانكفورت، لا يذهب إلى هناك مرة أخرى.

هذا شيء يبلغ من اليقين ما تبلغه كلمة «آمين» في الكنيسة، لقد كان هذا قذِراً، بل كان مجتمعاً للقاذورات وأودُّ أن أتابع تأييد فكرة أن إدارة بلدية فرانكفورت، أعطت لنفسها وقتاً يمتد إلى ثلاثة أيام قبل الأجل، ثم قال: ميدان المخزن لنا، وليس ميدان السوق كما كان ذلك دائماً، أمّا لماذا فذلك ما أودُّ أن أتشمَّمه من زملائي، لأن السوق الأسبوعي ينعقد في ميدان السوق، وعندما نأتي نحن فسيُسْفِر ذلك عن تعطيل أو إعاقة لحركة المواصلات، وهذا شيء لم يُسْمَع بمثله، من إدارة بلدية

فرانكفورت، بل هذا لكمة في الوجه، التصريح بهذا على أنه السبب، لقد سلخ السوق الأسبوعي حتى الآن أربعة أيام ونصف اليوم، ثم ينبغي لنا أن نذهب بعد ذلك؟ ولماذا نحن على وجه الخصوص؟ ولماذا لا يذهب بائع الخضار، وبائعة الزبدة؟ ولماذا لا تبني فرانكفورت، قاعة للسوق؟ وذلك أن تجار الفاكهة والخضر والمواد الغذائية تُساء معاملتهم من قبل إدارة البلدية مثلما تُساء معاملتنا نحن، ولا بُدَّ لنا أن نعاني جميعاً من جرّاء أخطاء إدارة البلدية في الاختيار. ولكن لا بُدَّ الآن من أن توضع خاتمة لهذا. لقد كانت الموارد في ميدان المخزن ضئيلة، بل لم يكن هناك شيء على الإطلاق، ولم تكن المسألة مُجْدية، فلم يأتِ أحد في غمرة الوحل والمطر. أمّا الزملاء الذين كانوا حاضرين، فلم يجنِ معظمهم من النقود ما يكفي لكي يتزحزح بعربته من الميدان. ثم هناك مصروفات الخط الحديدي، وأموال الدكاكين، وأموال الانتظار «أو الحراسة» والدحرجة جيئة وذهاباً، هذه أمورا أودُّ تأييدها أمام الملأ كلهم بأوضح عبارة، ونشرها، أما في فرانكفورت فلا يمكن وصف أحوال دورات المياه، على أنَّ من كان حاضراً كان في وسعه الحديث عن ذلك بلسان فصيح. وأمثال هذه الأحوال الصحية لا تعد مما يليق بمدينة كبرى، ولا بد للجمهور أن يشهَّر بهذا حيثما استطاع ذلك فحسب. وأمثال هذه الظروف لا يمكنها أن تغري زائراً بالذهاب إلى فرانكفورت، وتلحق الضرر بالتاجر، ثم لطبقات أصحاب الدكاكين ذات النطاق الضيق، مثل سمك الفلوندر، الواحدة منه إلى جانب الأخرى».

وبعد المناقشة التي هوجم فيها مجلس الإدارة بسبب انعدام نشاطه حتى الآن، تمَّ، بالإجماع، تبنيّ القرار التالي:

«لقد أحسّ تجار المعرض بتحويل المعرض إلى ميدان المخزن إحساسَهم بلكمة في الوجه. وتعد النتيجة التجارية بالنسبة للتجار من النتائج التي تخلّفت كثيراً، وإلى حد بالغ الأهمية، عن مستوى المعارض التي سلفت، ويعد ميدان المخزن غير مناسب على الإطلاق ليكون مكاناً للمعرض، لأنه بعيد كل البعد عن أن يستوعب عدد زوار المعرض، كما يعد، من الوجهة الصحية، باعثاً للشعور بالعار على وجه الخصوص بالنسبة لمدينة فرانكفورت /الأودَر، بصرف النظر عن أنه في حالة ظهور خطر الحريق

سيكون التجار في عداد المفقودين، هم وكل متاعهم. ويتوقع المجتمعون من إدارة بلدية المدينة إعادة تحويل المعرض إلى ميدان السوق، إذ لا يتوافر عن هذا الطريق ضمان للحِفاظ على المعرض. وفي الوقت ذاته يلتمس المجتمعون التماساً مُلِحّاً تخفيض ضريبة السوق، إذ إنهم ليسوا في الوضع الذي يمكّنهم من الوفاء بالتزاماتهم ولو على نحوٍ تقريبيّ في ظل الأحوال القائمة الآن، وهذا خليق أن تتحول معه رعاية الرفاهية في المدينة إلى عبء على المدينة». .

غير أن بيبركوبف كان يرتب نتيجة ذلك على الخطيب على نحو لا سبيل إلى مقاومته، مِلْك، هذا خطيب، رجل كأنما اصطُنع خصيصاً للعالم». «إذا داس المرء ذات مرة على أصابع قدميه، فربّما ارتدَّ عنك شيء ما». «هذا شيء لا تستطيع أن تعرفه، بلا ريب، ياغوتليب، فأنت تعلم حق العلم، لقد أخرجني اليهود من هناك، لقد ذهبت إلى قصور الملوك، وغَنَّيْت للحراسة على الراين، غناءً باعثاً للسُّكر، كما كان ذلك في رأسي، وهنا اقتنصني اليهوديّان وسردا عليّ الأقاصيص، والكلمات الطيّبة، ياغوتليب، وما يقوله الناس». «وقصة السمكة، وستيفان ويا فرانتس، أنت مازالت لديكَ أفكار مضحكة». ، فرفع هذا كتفيه: «ياغوتليب، إنما هي أفكار مضحكة تذهب وأفكار مضحكة تأتي، فضع نفسك في مكاني، ثم وتحدث. فالرجل الموجود في الأعلى، ذلك القصير ذو الحَدَبة، رجل طيب، أقول لك، بل هو ممتاز، من الطراز الأول». «كلاّ، فبالنسبة إليّ، قد يكون من الأفضل لك أن تعنى بشؤونك، يا فرانتس». «اتفقنا، سيتمّ حلّ كل شيء، الواحد بعد الآخر، وأنا لا أتحدث ضد المشروع التجاري».

وتَلَوّى متوجهاً نحو الأحدب، ورجا منه، مستسلماً، أن يقدم له المعلومات «ماذا تريد؟». «أودُّ أن أرجو منك الإفضاء ببعض المعلومات». «ما عادت هناك مناقشات لقد انتهى هذا الأمر، والآن انتهينا، لقد بات لدينا الآن ما يكفي، إلى هنا». وكان الأحدب لاذِعاً: «ولكن ما الذي تريده، يا تُرى؟». «أنا، هنا يجري الحديث الكثير عن معرض فرانكفورت، ولقد جعلت من قضيتك شيئاً رائعاً، ممتازاً، ياسيدي هذا ما أردتُ أن أقوله لك، عن شخصي، فأنا أرى رأيك تماماً». «هذا يسرني، أيها

الزميل، وما اسمك الكريم؟» «فرانتس بيبر كوبف. لقد رأيت بسرور كيف تدبرت أمر قضيتك، وكيف وهبتها للفرانكفورتيين» «لإدارة البلدية» «ممتاز، لقد رتبت هذه ترتيباً متألقاً، ولن يسخر هؤلاء من هذا. وأنت لا تقعد على الكرسيّ مرة أخرى» وحزم القصير أوراقه، وصعد من أرضية قاعة المسرح إلى القاعة التي يسودها الدخان: هذا جميل، أيها الزميل، جميل» وأشرق وجه فرانتس، وكان يجري وراءه خاضعاً ذليلاً، «أوَ أردتَ بعدُ معلومات؟ أوَ أنت عضو في العصابة؟» كلاّ، أنا آسف للغاية» «تستطيع أن تحصل على ذلك مني، فَهَلُمَّ معنا إلى مائدتنا» وقعد فرانتس إلى مائدة مجلس الإدارة، في الأسفل، إلى جانب رؤوس حمر، وجعل يشرب، ويحيّي، وحصل على قسيمة في يده. أما الإسهام فقد وعد به من أجل الأوائل التالين، ثم تأتي مصافحة.

وكان يلوّح لِـمِكْ من بعيد، ومع قصاصة الورق، قائلاً: «لقد أصبحت الآن عضواً، أجل، بلا ريب، أنا عضو في مجموعة البرلينيين الشرقية، هنا تستطيع أن تقرأ، إذ يرد قولهم: مجموعة البرلينيين الشرقية، عصابة الرايخ، وما الذي يعنيه هذا: ممارسو الحِرف المتنقِّلين في ألمانيا. قضية جميلة، أليس كذلك» ومَنْ تكون أنت، أأنت تاجر تحمل السلع النسيجيّة؟ هنا توجد سلع نسيجية. ومنذ متى يا تُرى، يا فرانتس؟ وما هي سِلَعُك النسيجيّة؟» «أنا لم أقل، على الإطلاق: سلع نسيجيّة، بل قلت: جوارب وقمصان من أشغال التريكو، وظل على قوله: السلع النسيجيّة، هذا لا يضير في شيء على أية حال. أنا أدفع أوَّلاً للأول» «كلاّ، يا ابن آدم: أوَّلاً، عندما تخرج الآن بأطباق من الخزف أو بسطول للمطبخ، أو ربما تتاجر بالماشية، شأن السادة هنا: سادتي، أوَليس من العبث أن يحصل الرجل على بقسيمة العضو على سلع نسيجيّة، وربما كان يمشي مع الأبقار؟» «أمّا الأبقار فأنا أنصح يتركها وشأنها، فالأبقار خاملة، ولْتَمْشِ مع الماشية الصغيرة» غير أنه مازال لا يمشي مع شيء على الإطلاق. وهذه حقيقة، ياسادتي، ذلك الذي يقبَع هنا وهناك فحسب، ويريد، فأنتم تستطيعون أن تقولوا: «أجل، بلا ريب، يا فرانتس، فاذهب بمصائد فئران، أو برؤوس من الجصّ» «إذا لم يكن من ذلك بُدٌّ، يا غوتليب، عندما يغذي ذلك

رَجُلَها، فتجنّب مصائد الفئران على وجه الخصوص، هنالك تتنافس الصيدليات أيّما تنافس في السموم، ولكن عليك بالرؤوس من الجصّ. لماذا لا ينبغي للناس أن يدخلوا رؤوس الجصّ في المدن الصغيرة؟» «كلاّ، أنظر: هنا يأخذ قسيمة من أجل قمصان من صوف التريكو؟»، ويذهب برؤوس من الجصّ.

«ياغوتليب، لا تفعل بربِّك، سادتي، أنتم على حق، ولكن أنت لست بمضطر إلى أن تَلْوِيَ المسألة على هذا النحو، ولا بُدَّ للمرء أن يلقي الضوء على القضية بالأسلوب الصحيح وأَنْ يضعها في الضوء الصحيح، مثلما استمع الأحدب القصير إلى القضية القائمة مع فرانكفورت، حيث لم تستمع أنتَ إليها» «ذلك لأنني لا أَمُتُّ بصلة إلى فرانكفورت، كما لا أَمُتُّ إلى السادة بصلة» «لا بأس، ياغوتليب، هذا جميل، ياسادتي، ولا يفترَض أن يكون مأخذاً، فأنا وحدي الذي انتمَيْت بشخصي، إلى ضآلتي وهوان شأني، وقد كان جميلاً للغاية، إلقاؤه الضوء على كل شيء، بهدوء، ولكن بقوة، بصوته الواهِن، والرجل ضعيف على أية حال، في الصدر، ومثلما يكون لكل شيء نظامه، ومثلما جاء القرار بعد ذلك، فكل نقطة نظيفة، قضية دقيقة، ورأس، ويصل ذلك، على وجه الدقة إلى دورات المياه التي لم تَرُق لهم، وقد كانت لديّ، هنا، بلا شك، القضية المتعلّقة باليهود، وأنت أصبحت تعلم، لقد ساعدني ذات مرة، ياسادتي، حين كنت مَوْهون القوى، سريع العطب، أسير الهواجس، اثنان من اليهود، بسَرْدِ الأقاصيص. لقد تحدثوا إليّ، وهم أناس ذوو فضل واستقامة، لم يعرفوني على الإطلاق، ثم حدَّثوني عن بولونيّ أو شيء من هذا القبيل، وكان هذا مجرَّد حكاية، وما من شك في أنها كانت حسنة للغاية، حافلة بالدروس والعِبَر إلى حد بعيد بالنسبة لي في هذا الموقف الذي كنت فيه، وقلت في نفسي إن الكونياك كانت خليقة أن تؤثر كذلك. ولكن من يدري، فبعد ذلك عدت منتعشاً ووقفت على قَدَمَيّ»، وكان واحد من تجار الماشية يدخّن ويبتسم ابتسامة صفراء: «أَوَ كانَ قد سقط عليك من قبلُ، بلا ريب حجر غليظ بوجه خاصّ، في قفاك؟» دَعْوا عنكم النكات سادتي، وفضلاً عن ذلك فأنتم على حق، لقد كان حجراً عادياً بوجه خاص. وهذا ما يمكن أن يحدث لكم

بعدُ في الحياة، وهو أن تنهال على رؤوسكم الملابس كالمطر، وأن تخرجوا بسيقان ضعيفة ليِّنة، وهذا ما يمكن أن يحدث لكل امرئ، حظه منكود. وما عسى أن يصنع المرء بالركبة الضعيفة الواهنة بعد ذلك. إنهم يَعْدون في الشوارع، ويدورون، هنا وهناك، في شارع الينبوع وفي بوابة روزنتال، وفي أليكس، يمكن أن يحدث لهم أن يجروا، هنا وهناك، ولا يستطيعون قراءة لافتات الشوارع. لقد أعانني القوم الأذكياء وقالوا لي وحدثوني، أناس من أولي الدماغ، ولذلك فهم يعرفون: لا ينبغي للمرء أن يقسم بالذهب أو بالكونياك أو بالإسهام بالقروش التافهة. فالمسألة الرئيسية هي أن يكون لدى المرء دماغ، أو عقل، وأن يستعمل المرء هذا العقل، وأن يعرف المرء ما يحدث له أو ينتابه، وأن لا يتعرَّض المرء للإحباط والإفساد على الفور. عند ذلك يكون كل شيء متسِماً بشطر من السوء الذي هو فيه الآن، وهذا هو الحال، ياسادتي، وهذه هي ملاحظتي وهذا هو إحساسي».

«هذه الطريقة، ياسيدي، سنشرب عليها قدحاً، في صحة عصابتنا» «في صحة العصابة، ألا فليبارك الله في السادة، وليبارك الله في غوتليب». وضحك هذا المرة بعد الأخرى:

«أيها الإنسان، هنا يبقى مجرد سؤال: «من أين تريد أن تسدِّد إسهامَك، الأوَّل التالي؟» «ثم انتظر بعد ذلك أيضاً أيها الغلام، في مسألة مكان الحصول على قسيمة عضوية، وتكون عضواً في عصابتنا، بحيث تساعدك العصابة على الظفر باستحقاق سليم، أو مكرُمة جُلّى. وضحك تجار الماشية مع غوتليب في صدد الرهان وقال واحد منهم:

«إذهب ذات مرة بالقسيمة إلى ماينِنْغِن، ففي الأسبوع القادم يكون ثمة سوق، وسأقف على الجانب الأيمن، وأنت تكون قبالتي، على اليسار، وأنظر أنا إليك، لأرى كيف تكون الأحوال في دكانك. وتصوَّرْ، يا ألبرت أنَّ لديه قسيمة، وأنه عضو في العصابة، وأنه قاعد في دكانه، وهم يصرخون، عندي: قديد من فينا، ولحوم مجففة أخرى أصلية، من ماينِنغِن، وكان يزمجر من الطرف المقابل: هَلِمّوا، هلمّوا، شيء لم يسبق له وجود بعد، عضو من العصابة، الحماسة الكبرى لسوق

السخال[1] في مايننْغِن. وهناك يأتي الناسُ زرافاتٍ. يايا كوب، يايا كوب، يالك من رأس خروف» وكانوا يضربون على المنضدة، ومعنا بيير كوبف، وجعل يدس الورق في جيب الصدر بحذر: «إذا أراد امرؤٌ أن يجري، فَلْيَشْتَرِ لنفسه نعلين. وأنا لمّا أَقَل بعد إنني سأنشئ محالاً تجارية ضخمة، غير أنني لست بالغبيّ أو المغفَّل أيضاً، على أية حال» ونهضوا واقفين.

وفي الطريق جعل مِلْك يخوض مع تاجِرَي الماشية في مجادلة حامية الوطيس، وكان كلا التاجَرِيْن الماشية يمثّلان وجهة نظرهما من خلال مجادلة بأسلوب التقاضي أو الخصومة كان يخوض فيها كلّ واحد منهما، وقد كان تاجراً بالماشية في السوق، غير أنه لم يكن يحق له أن يتاجر إلاّ في برلين. وكان منافساً له قد لقيه بعد ذلك في قرية، وأبلغ عنه الشرطة ولكن هنالك كان تاجرا الماشية، اللذان سافرا معاً. قد لَوَّيا المسألة وكيَّفاها بدقة وإتقان: إذ يصرِّح المُدَّعى عليه، أمام المحكمة، بأنه لم يكن إلاّ مرافق الآخر، وأنه كان قد اتفق على كل شيء بتكليف من الآخر.

وصرَّح تاجرا الماشية قائلَيْن: «نحن لا نتحدث بالهذر والكلام الفارغ، بل نُقْسِم، فالمسألة تصل الآن، بين يَدَيْ المحكمة الابتدائية، إلى القَسَم. فيُقْسِم هو على أنه لم يكن سوى مرافقي، وقد سبق أن كانه من قبلُ مِراراً، وسوف يُدَعَّم هذا بالقِسم، ويكون قد تمَّ الفراغ من هذه المسألة».

هنالك خرج مِلْك عن طوره تماماً، وتشَّبث بتاجِرَيْ الماشية من معطفيهما: «الآن تبينت حقيقتكما، بالطبع، فأنتما مجنونان، وينبغي إحالتكما إلى قرية الأغبياء. وهنالك سوف تقسمان بعدُ في قضية تتسم بالسذاجه والخَرَق البالغَيْن، لكي تَحْظيا بإعجاب المكّار الداهية المُخاتِل لكي يدخلكما تماماً، ولا بُدَّ من إيراد هذا في الجريدة، وبيان أن المحكمة تساند شيئاً كهذا، وليس هذا بالنظام، السادة بالنظارة ذوو العين الواحدة.

---

(١) «ج: السَّخلة، وهي الأنثى الصغيرة من الماعز.

«ولكن الآن ننطق بالحق».

ويظل تاجر الماشية الثاني على هذا: «أُقْسِم، كلاّ، أَوَ تكون المسألة غير هذا؟ أو تكون، مثلاً، هذراً وكلاماً فارغاً، ثلاثة مراجع للتقاضي، وسوف يستمتع الداهية المُخاتِل؟

إنه امرؤ حسود، أما عندي، أنا شورنشتاين فالمسألة خَصْمٌ حُرٌّ».

وضرب مِكْ جبهته بقبضة يده: «أَيْ ميشيل الألمانيّ، يجب أن يُقْذَف بك في مجتمع القَذَر، حيث ترقد هناك»..

وانفصلا عن تاجِرَيْ الماشية، وتأبط فرانتس ذراع مِكْ، وجعلا يتهاديان في مشيتهما، وحدهما، في شارع برونن، وقال مِكْ مهدّداً، وراء تاجري الماشية: «أشقاء» تنوء لتنوء ضمائرهم بوِزْرِ الإثم في حقنا، بل الشعب بأسره، كلهم تنوء ضمائرهم بوزر الإثم في حق هؤلاء». «ماذا تقول، ياغوتليب؟». «إنهم الجبناء الرعاديد، وهذا بدلاً من يبرزوا القبضات، مكان المحكمة، إنهم الجبناء الرعاديد، الشعب بأسره، التجار، والعمال، من خلال المصرف».

وفجأة ظل مِكْ واقفاً، وانتصب في وجه فرانتس: «يا فرانتس، لا بُدَّ لنا أن نتحدث معاً ذات مرة، وإلاّ فأنا لا أستطيع أن اسمح لنفسي بمرافقتك، ولا بأي حال من الأحوال» «لا بأس، إبدأ الآن» «يا فرانتس، لا بُدَّ لي أن أعرف من أنت. أنظر في وجهي، وقل لي هنا، بصدق، وبالكلام، أنك ذقت هذا هنا، في المِقْلاة، فأنت تعلم ما يكون حقاً وعدلاً. هنالك لا يكون هناك بُدٌّ من أن يظل الحق حقاً، لا إنه لحق، ياغوتليب» «إذاً، فيا فرانتس، ضع يدك على قلبك: «ماذا اصطفَيْت لنفسك هنا من تسريحة لشعرك؟» «تستطيع أن تهدّئ ثائرة نفسك، وتستطيع أن تصدّقني: لو كانت لك قرون، لتركتها جميلة، في الخارج. أمّا عندنا فقد قرأوا الكتب وتعلّموا الاختزال، ثم لعبوا الشطرنج»، و«أنا وأنت نستطيع أن نلعب الشطرنج كذلك؟» «ماذا، فنحن نواصل لعبة الورق «السْكات»، ياغوتليب. وعلى هذا فأنت تقعد هنا، حوالينا، وأنت امرؤ ليس عندك الكثير من العقل من أجل التفكير، فنحن،

معشر عمال النقل، تستكينُّ في عضلاتنا أكثر مما تستكينُّ عظامنا، ثم تقول ذات يوم: ألا لعنة الله، لا تَسْتَرْسِلَنَّ في علاقتك مع الناس ولا تتمادَيَنَّ فيها، بل اسلك طرقك الخاصة، وارفع يديك عن البشر. يا غوتليب، وأي شيء يبتغيه الواحد منّا من المحكمة والشرطة والسياسة؟ لقد كان لدينا شيوعيٌّ كان أكثر بدانة منّي. وكان قد شارك معي، في برلين، في تسعة عشر، على أنهم لم يمسكوا به، غير أن هذا لم يلبث أن ثاب إلى رشده، وكان قد تعرَّف على أرملة ودخل محلها التجاري، إنه فتى خبيث من الشُطّار، كما ترى» «ولكن كيف انتهى هذا إليكم؟» «سيكون قد حاول إحداث زحزحة أو تأجيل»، وقد كنّا دأبنا، دائماً، على التماسك والتلاصق، ومَنْ كان صنع مصابيح فقد كان في وسعه أن يشاهد عَلْقَتَه، ولكن من الأفضل أن لا يكون ذلك مع الآخرين. هذا انتحار، أن تدع الناس يَجْرون على الدوام. وأن يظلوا من أهل الفضل والاستقامة، وأن يظلوا لوحدهم. هذه كلمتي».

وقال ملكْ «هكذا» ونظر إليه نظرة جامدة: «إذاً لكان في وسعكم جميعاً أن تحزموا متاعكم، فهذا يعدُّ من قبيل الإفراط في الذلّ والهوان من قِبَلك، ونحن خليقون أن ننهار جميعاً من جّراء ذلك» «لا ينبغي أن يحزم متاعه إلاّ من يشاء، وليس هذا مبعث قلقنا» «يا فرانتس، أنت من أهل الهوان والصَّغار، هذا شيء لن أحجم عن قوله، ولسوف يكون هناك انتقاماً منه، يا فرانتس».

وكان فرانتس بيبركوبف يتنزَّه منحدراً في شارع الإنفاليد، وقد خرجت معه صديقته الجديدة، لينا البولونية. وعلى ناصية الشارع المبلَّط مَنْصَبٌ للصحف في دهليز منزل، وكان يقف هناك أناس يثرثرون.

«انتبهوا، لا ينبغي الوقوف هنا»، فإن الناس خليقون أن يتمكَّنوا من رؤية الصور، بلا ريب» هلاّ اشتريتم لأنفسكم بعضها، لا تعطِّلوا حركة المرور هنا» «ديمْلاك».

ملحق للرحلات، عندما يكون قد حلَّ في شمالنا البارد، الوقت غير المستطاب، الذي يكون بين أيام الشتاء التي تبرُق متألقة بالثلج وبين الخضرة الأولى من أيام أيار، نخرج – وهو دافع قديم يرجع إلى آلاف السنين، إلى الجنوب المُشْمِس، على

الجانب الآخر من جبال الألب، إلى إيطاليا. أعني مَنْ كان سعيداً كل السعادة بحيث يستطيع أن يستجيب لدافع الترحال هذا. «لا تغضبنَّ من الناس. هلاّ نظرت إلى هنا ذات مرة، لترى كيف يستوحش الناس الآن، فهذا فتى ينقضُّ على فتاته في خط المدينة الحديدي، ويضر بها حتى يدعها نصف ميتة بسبب خمسين ماركاً» «وأنا أفعل ذلك مقابل هذا كذلك» «ماذا؟» «أتراك تعرف، أنت، ما هي الماركات الخمسون، أنت لا تعرف هذا على الإطلاق، الخمسون ماركاً، يشكِّلن كومة من النقود بالنسبة إلى الواحد منّا، أنتَ، عندما ستعلم ما تعنيه الماركات الخمسون، عند ذلك أتابع الحديث معك».

كلمة حماسية عصبية لمستشار الرايخ، ماركس: ما يفترض أن يأتي فهو داخل، تبعاً لنظرتي إلى العالم، في نطاق العناية الإلهية التي تنطوي على مقاصد معينة تجاه كل شعب من الشعوب، وفي مقابل ذلك ستظل شبكة السلك مجرد عمل ناقص، ونحن لا نستطيع أن نعمل إلاّ بأفضل طاقاتنا ومن دون انقطاع، وبما يتماشى مع قناعاتنا وبذلك سوف أملأ مركزي الذي أشغله الآن بأمانة وصدق. وأختتم كلامي، ياسادتي المحترمين بكل احترام، بأطيب التمنيات المتصلة بالعمل الناجح في نشاطكم المجهد والمستعد للتضحية، لصالح بافاريا الجميلة. وأتمنى لكم التوفيق في مطمحكم البعيد. فعش وفقاً لما تطمح إليه، وارغب في الظفر بالثناء.

«والآن، أتُراك اخترتَ فأحسنت الاختيار، ياسيدي؟» «هل يَحْسُن بي أن أعطيك الجريدة، ربما بتحريكها من المِشْبك؟ كان هناك، ذات مرة، سيد، سمح لنفسه أن أعطيه كرسيّاً، لكي يستطيع أن يقرأ على نحوٍ مريح» «أنت تُحْسِن تعليق صورك في الخارج، لمجرد أن تكون. . . . —» «ما أقصدُ إلى عمله بصوري يترتَّب عليك أن تدعه لكي يكون شأناً من شؤوني، فأنت لا تدفع ثمن مَنْصَب جرائدي، غير أنَّ ما لا يزيد على أن يكون طفيلياً يعيش على حساب الآخرين، لا يمكن أن أحتاج إلى أن يكون معي، إذ إنه لا يزيد على أن يفزِع زبائني».

اخرجوا، فإني أفضِّل أن أطلب مسح حذائي ذا الساق، وناموا في المضافة، في شارع ما، لتصعدوا إلى الحافلة الكهربائية، ومن كان يرتحل آمناً بتذكرة سفر مزيَّفة

أو يكون قد التقط تذكرة ركوب من الأرض، فليجرِّب ذلك. وإذا اكتشفوه فقد ضيّع الشيء الصحيح، إنهم على الدوام هؤلاء القادمون من ناسّاوْ، وقد عادوا اثنين من جديد، والخطوة التالية هي أن أَعْرِض قضبان السجن، ولا بُدَّ من تناول الإفطار.

ويأتي فرانتس بيبركوبف في قبعة مُقَوّاة، في مسيرة القطار الزاحف ولينا البولونية، المكتنزة تتأبط ذراعه، «يالينا، انظري ناحية اليمين، وادخلي دهليز المنزل، والطقس ليس من أجل العاطلين عن العمل. نحن نشاهد صُوَراً، صوراً جميلة، غير أننا معرَّضون هنا لتيار الهواء الشديد. أيها الزميل، قُلْ لي، كيف الحال مع العمل والتجارة، فإن القوم يرتجفون من البرد هنا إلى حَدِّ الموت «وليس هذا، على أية حال، بصالة تدفئة» «لينا، هل تودِّين الوقوف داخل شيء كهذا؟» «تعال بربُك، فإن الفتى ينظر نظرة بالغة السوء والقذارة» «أيتها الآنسة، أنا لا أقصد سوى أن هذا يمكن أنِ يروق لبعض الناس، إذا ما وقفوا هكذا في دهليز المنزل وباعوا الصحف، الخدمة بأَيْدٍ رقيقة لطيفة».

وتهب ريح عاصفة، فترتفع الصحف تحت مَشابِكها «أيها الزميل، يجب عليك أن تنصب هنا مظلة في الخارج» «لكيلا يرى أحد شيئاً» «وأجعل لنفسك لوحاً من الزجاج» «هلاّ أتيت، بربك، يا فرانتس» «لا عليك فانتظري لحظة، لحظة يسيرة، فالرجل يقف هنا طوال ساعات، ولا تقلبه الريحِ رأساً على عقب، ويجب على الرجل أن لا يكون مفرطاً في إرهاف حِسه وتَشَكيه، يالينا» «كلاّ، بل لأنه ينظر نظرته إلى الوراء إلى حد بعيد» «هذا هو تعبير وجهي، بل ملامح وجهي، أيتها الآنسة، وهذا شيء لا حيلة لي فيه» «إنه ينظر هذه النظرة على الدوام، اسمعي بربك، يالينا، هذا الفتى المسكين».

وردّ فرانتس قبعته إلى الخلف، ونظر إلى بائع الصحف في وجهه، وانفجر على سجيَّته، وضحك، ويد لينا في يده. «إنه امرؤٌ لا حيلة له في ذلك، يالينا، فقد أخذ هذا مع حليب أمه، أتعرف أيها الزميل، أيَّ تعبير ذلك الذي يحمله وجهك، عندما تنظر نظرتك الصفراء هذه؟ كلاّ، ليست هذه نظرتك من قبلُ؟ أتعرفين يالينا، لكأنه يرقد في حضن أمه يرضع من ثديها وقد بات لبنها حامِضاً» «ما من شيء يمكن

عمله لديّ ، لقد كانوا يرضعونني بالزجاجة» «إنها تقطيبات قديمة» ١١ «فقل لي ، أيها الزميل ، ما الذي يكسبه المرء من هذا العمل؟» «الراية الحمراء «الماركسية» ، شكراً ، دَعِ الرجل يمر في طريقه ، أيها الزميل ، أبعد رأسك ، فهذا صندوق» «غير أنك تقف هنا وقفة طريفة في خِضمّ الزحام» .

وسحبته لينا ، وأخذا يسيران الهُوَيْنى في الشارع المبلَّط ، منحدِرَيْن نحو بوّابة أورانيين بورغ . «هذا شيٌ ما ، لي ، وأنا امرؤٌ ليس من السهل أن أشعر بالبرد ، وإنما هو مجرد الانتظار في الدهليز» .

وبعد يومَيْن يزداد الطقس دفئاً ، وكان فرانتس قد باع معطفه ، وهو يرتدي ملابس داخلية غليظة كانت لدى لينا ، قد أتت بها من أية جهة ، وهو يقف في ميدان روزنتال أمام مؤسسة فاربيش وشركائه ، للخياطة الجميلة المتقنة ، للرجال ، وفقاً للمقاس ، والمعالجة المتأنّية ، والأسعار المنخفضة ، من السِمات المميِّزة لمنتجاتنا ، ويصرخ فرانتس قائلاً: «حمالة ربطة عنق .

«ولكن لماذا يرتدي الرجل الأنيق في الغرب الأنشوطة ولا يرتديها ابن الطبقة العاملة؟ فيا أصحاب السيادة هلاّ تقدمتم قليلاً ، وأنتِ ، أيتها الآنسة ، مع السيد زوجك . الدخول مسموح به للشباب ، فالمسألة هنا ما عادت تكلِّف الشباب شيئاً . لماذا لا يرتدي العامل الأنشوطات؟ لأنه لا يستطيع أن يعقدها . عند ذلك يترتَّب عليه أن يشتري حمالة ربطة عنق ، وحين يكون قد اشتراها تكون رديئة ، ولا تستطيع أن تشدَّ الأنشوطة إلى العنق ، وهذه خديعة ، وهي تملأ نفوس الشعب بالمرارة ، وهذا ما يقذف بألمانيا إلى دَرْك من البؤس أعمق مما كانت تتردّى فيه من قبل ، ولماذا لم يكن الناس يريدون ، مثلاً ، أن يعقدوا مجاريف الثلوج حول أعناقهم . هذا شيء لا يريده الرجل ولا المرأة ، بل لا يريده حتى الرضيع لو أمكنه أن يجيب . ولا ينبغي للمرء أن يضحك من هذا ، ياسادتي ، لا تضحَكنّ ، فنحن لا نعرف ما الذي يحدث في أدمغة الأطفال الصغار الأعزاء . سبحانك اللهم ، هذا الرأس الصغير العزيز ، رأسه الصغير والشعيرات ، لا ، إنها جميلة ، ولكن يترتب دفع تكاليف المواد الغذائية ، وهنا لا يوجد ما يستوجب الضحك ، فهذا أمر يدفع إلى الوقوع في المحنة ، ألا

فلتشتروا لأنفسكم أمثال هذه الأنشوطات من تيتس، أو من فيرتهايم، أو من أي مكان آخر، إذا لم تشاؤوا أن تشتروها من اليهود، وأنا رجل آريّ». ويرفع قبعته، شعره أشقر، وأذناه حمراون متباعدتان عن رأسه، عيناه مضحكتان، كالعيون التي تكون في جانب السفينة «ألا إن محالّ السلع الكبرى لا قرار لها، أن أطلب صياغة إعلانات عني، وهي التي يمكن أن توجد حتى من دوني، اشتروا لأنفسكم أمثال هذه الأنشوطات كتلك التي عندي هنا، ثم فكّروا كيف ينبغي لكم أن تعقدوها غداً.

أيها السادة، من تُراه يتوافر له اليومَ الوقتُ في هذه الأيام، لكي يعقد لنفسه في الغَدِ أنشوطة حول عنقه، ولَخَيْرٌ لكم ألاّ تمنحوا أنفسكم دقيقة تضاف إلى وقت نومكم، فنحن نحتاج جميعاً إلى الكثير من النوم، لأننا مضطرون إلى العمل الكثير مع الكسب القليل. ومثل هذه الحمالة للأنشوطة تيسِّر عليكم النوم، فهي تنافس الصيادلة، لأن الذي يشتري أمثال هذه الحمالات للأنشوطات، كتلك التي عندي، لا يحتاج إلى مادة سامّة منوِّمة، ولا إلى شراب البنش المنوِّم، ولا إلى أي شيء، بل ينام من دون أن يُهَزَّ له سرير، مثلما ينام الطفل على صدر أمه، لأنه يعلم: أنه لا يوجد في الغدِ زحام، وما يحتاج إليه فهو على الكومودينة، جاهز، ناجز، ولا يحتاج إلاّ إلى أن يُدْفَع به إلى داخل الياقة. إنكم تنفقون مالكم من أجل الكثير من الأقذار. ها أنتم قد رأيتم، في العام السابق، النصابين المحتالين، في إهاب التمساح، وكان يوجد في المقدمة قديد التَّيْس الساخن، وكانت ترقد في الخلف حوالَي في الصندوق الزجاجيّ، وكانت قد تركت الملفوف المخلل ينمو حوالَيْ فمها. وقد رأى هذا كلّ منهم- فتقاربوا وتراصّوا فحسب لكي أستطيع أن أصون صوتي، أنا لم أؤمّن على صوتي، وما زال ينقضي القسط الأول- أمّا كيف كانت جوللي ترقد في الصندوق الزجاجيّ، فهذا ما رأيتموه، وأمّا كيف دسَّت له الشوكولاته فذلك ما لم ترَوْه، ولكن هنا تشترون بضاعة خالصة من الغش والزَّيف، إنه ليس مُدَرْفلاً بالسيللوليد، بل هو مَدَرْفل بالمطاط، القطعة بعشرين قرشاً، والقطع الثلاث بخمسين.

هلاّ ابتعدت عن السَدّ الترابيّ، أيها الشاب وإلاّ دهستك سيارة، ومن تُراه يفترض أن يجمع القمامة بالمكنسة بعد ذلك؟ سوف أشرح لكم كيف يعقد المرء الأنشوطة،

لا يحتاج المرء، بلا ريب، إلى أن يضربكم بالمطرقة الخشبية على رؤوسكم، فهذا شيء تفهمونه على الفور، تأخذون من الجانب الواحد هنا ثلاثين إلى خمس وثلاثين سنتيمتراً، ثم تجمعون الأنشوطة فتضمّون بعضها إلى بعض، ولكن ليس هكذا، فإن هذا يبدو كما لو أنَّ بقَّةً ضُغِطت على الجدار فسُوِّيت به والتصقت به، أوكأنه ذلك السمك المسطح الذي يشبه سمك موسى، والرجل الأنيق لا يرتدي شيئاً كهذا، ثم فلتأخذوا جهازي، ولا بُدَّ للمرء أن يوفِّر الوقت فالوقت كالمال. لقد ولّى عهد الرومانسية ولن يعود أبداً، ولا بُدَّ لنا جميعاً أن نُدْخِل ذلك في حسباننا في هذه الأيام، فأنتم لا تستطيعون أن لا تشدّوا خرطوم الغاز إلاّ ببطء حول أعناقكم، بل تحتاجون إلى هذا الشيء الجاهز الذي يمكن الاعتماد عليه والركون إليه، ألا فانظروا، هذه هديتكم في عيد الميلاد، هذه موافقة لذوقكم، ياسادتي، وهذه لصالحكم، وإذا كانت خطة دافيس قد تركت لكم شيئاً فذلك هو الرأس الموجود تحت الغطاء، وهذا مايترتَّب عليه أن يقول للواحد منكم: «هذا شيء لك، تشتريه، وتحمله إلى المنزل، سيكون لك فيه عزاء ومواساة.

فيا سادتي، نحن نحتاج إلى العزاء والمواساة، نحن جميعاً، على ما نحن عليه، وإذا كنا أغبياء التمسنا هذين في المقصف، ومن كان موفور العقل فلن يفعل شيئاً كهذا، من أجل كيس نقوده على الأقل، ذلك لأن ما يخرجه مضيفو المقاصف اليوم من الخمر الرديئة، يستصرخ السماء برداءته والخمر الجيدة باهظة، ولذلك خذوا هذا الجهاز، ودُسّوا شريطاً ضيّقاً واسلكوه فيه، كما تستطيعون أن تأخذوا شرائط عريضة كتلك التي سلكها الغلمان المولعون باللِّوَاط في أحذيتهم، حين يخرجون في رحلة، إذ، والآن تمسكون بإحدى النهايتين، والرجل الألماني لا يشتري، دائماً إلاّ البضاعة الممتازة، والتي هي هنا، بين أيديكم».

لينا تدبّر ذلك للغلمان من أهل الشذوذ

غير أن هذا لا يكفي فرانتس بيبر كوبف ، فإذا مقلتاه تترَجْرَجان ، وهو يلاحظ ، مع لينا المهملة لهندامها ، وذات القلب الحنون ، الحياة في الشارع ، بين ميدان الإسكندر وميدان روزنتال ، ويقرّر أن يبيع الصحف . لماذا؟ لقد حدّثوه أن لينا تستطيع أن تساعد ، وهذا يعدُّ أمراً له شأنه بالنسبة إليه ، فالمسألة ذهاب مرة وإياب مرة أخرى ، ثم دوران حول المكان ، وليست المسألة بالعسيرة .

لينا ، أنا لا أستطيع أن أخطب ، فأنا لست خطيباً شعبياً ، وعندما أنادي تفهمينني ، ولكن هذا ليس بالشيء الصحيح . أتعلمين ما الفكر؟» وتحملق فيه لينا في نظرة حافلة بالتوقّعات ، قائلة: «كلاّ» ، «ألا فانظري إلى الصغار في ميدان الإسكندر ، هنا ، فهؤلاء جميعاً ليس لهم فكر ، ويدخل في عداد هؤلاء أهل الدكاكين والذين يخرجون بالعربات ، فكل هؤلاء ليسوا بشيء ، إنهم شُطّار ، وإخوة دهاء وخبثْ ، وأحداث من العوامّ ، كما ستحتاجين إلى أن تقولي لي ، ولكن تصوَّري المتكلم باسم الفكر في الرايشستاغ ، بسمارك أو بيمبل ، لا يُعَدّان الآن شيئاً بالطبع ، أيتها المخلوقة ، هذان ذوا فكر ، والفكر إنما هو الدماغ ، وليس مجرَّد الجمجمة التي تغطيه ، وهؤلاء لا يستطيعون ، بأسرهم أن يرثوا شيئاً عندي ، برأسهم الغضّ الإهاب ، والخطيب إنما هو الخطيب» «وأنت الخطيب ، بلا ريب ، يا فرانتس» «أنت تحتاجين إلى أن تقولي ذلك ، أأنا الذي أُعَدُّ خطيباً ، أتعلمين من الذي كان خطيباً؟ كلاّ ، فلن تصدقي ، القائمة على شؤون بيتكَ» «المدعوَّة شفينك؟» .

«كلاّ، بل السابقة التي أتت بالأمتعة مِنْ لَدُنْها، من شارع كارل» «هذه في السيرك، ولستِ بمضطرة إلى أن تأتي معها».

ويحني فرانتس ظهره متقدِّماً برأسه إلى الأمام على نحوٍ متكتِّم ينطوي على الأسرار «لقد كانت هذه خطيبة، يالينا، كما يجب أن تكون الخطيبة فحسب» «شيء لا يمكن تصوُّره، تدخل حجرتي، حيث ما أزال أرقد في السرير، وتهمُّ أن تظفر بحقيبتي، من أجل شهر واحد» «هذا جميل، يالينا، هلاّ أصغيتِ إليَّ، بربك، لم يكن هذا مستحسَناً من جانبها، ولكن حين كنت في الطابق العلوي، وأنا أسأل ما الذي جرى للحقيبة، بدأت هذه» «أما الهذر والكلام الفارغ الذي تتحدث به فأنا أعرفه، هنالك لم أَصْغِ إليها أوَّل الأمر على الإطلاق. يا فرانتس، أنت لست بمضطرٍّ إلى أن تدع واحدة كهذه تقنعك بما هو مخادعة لك ويمكن أن يلحق الضرر بك» «يالينا، أقول لك إن هذه بدأت، من فقرات في القانون المدني، وحين استخرجت، بشق النفس، معاشاً تقاعدياً لزوجها الطاعن في السن، حيث كان الشيخ بلاكر قد سقط ضحية الشلل، وهو الأمر الذي لا يمت إلى الحرب بصلة على الإطلاق. فمنذ متى كانت للشلل صلة بالحرب، كذلك تقول هي ذاتها، غير أنها فرضت ذلك بدماغها. إن هذه لذات فكر، تلك البدينة، وإذا أرادت شيئاً فرضته فرضاً، وهذا أكثر من كسب القروش القلائل. هنالك تكشفين عمَّن تكونين، وهنالك تظفرين بالمُتَنَفَّس، أيتها الآدمية، أنا مازلت مندَهِشاً» «أَوَ مازلت تصعد إليها؟» وأومأ فرانتس بكلتا يديه أَنْ لا «لينا، فلتصعدي إليها ذات مرة، هل تريدين أن تأتي بحقيبة من عندها، في الساعة الحادية عشرة تكونين هناك على وجه الدقة، وفي الساعة الثانية عشرة تنوين شيئاً ما وفي الساعة الثانية إلاّ ربعاً تكونين ما تزالين واقفة هنا وهي تتحدث، تتحدث إليك، ومازالت والحقيبة ليست معك، وربما انصرفتِ بعد ذلك من دون حقيبة، أمّا إن هذه لتستطيع الحديث حقاً».

ويمارس التفكير فوق لوح المنضدة، ويرسم بإصبعه في نقرةٍ من البيرة: «أنا أَبَلِّغ عن نفسي لمكان ما، وأبيع الصحف. وهذا شيء كأنه مُدَبَّر تدبيراً».

وتظل خرساء لا تملك جواباً، وقد شعرت بقدر يسير من المهانة. فرانتس يفعل

ما يريد. وذات ظهيرة يقف في ميدان روزنتال، فتأتيه بسندويشات يقضمها في الثانية عشرة، ويَدُسّ الصندوق ومَنْصَب الصحف وعلبة المقوّى تحت ذراعيها ويذهب للاستعلام عن الصحف.

وأوصاه أوَّل الأمر، رجل متقدم في السن، في سوق الحطّابين، قبل شارع أورانيين بورغر، بأن يهتم بالتنوير الجنسيّ، وقال إنه شيء يمارَس الآن على نطاق واسع، ويسير سيراً حسناً إلى مدىً بعيد، ويسأل فرانتس، وهو لا يحب ذلك حقاً: «وما هو التنوير الجنسيّ، ويشير الرجل ذو الشعر الأشيب إلى إعلان: «إنه النظر والمشاهدة، أتسمع، وعندئذ لا تسأل» «هؤلاء فتيات عاريات، قد صُوِّرْنَ» «ليس عندي غير هذا، ويدخنان صامتين، وكلٌّ منهما إلى جانب صاحبه، وينهض فرانتس قائماً، ويحملق في الصور فاغر الفم، مذهولاً، من الأعلى إلى الأسفل، ينفث نَفَسَه في الهواء بما يشبه الصدمة، وينظر المرء إليه نظرة عابرة، ويحيط به فرانتس بنظرة عينيه: ألا فقل لي، أيها الزميل، ألاَ تمتِّعك الفتيات هنا وصورهن؟ الحياة الضاحكة؟ هنا يصوِّرون الآن فتاة عارية مع قطة صغيرة، فما الذي يقصدون إليه بالقطة الصغيرة على السُّلَّم، إنها المعكرونة التي هي موضع التساؤل، هل يكدِّر هذا صفوك، أيها الزميل؟» إنه يتنفَّس على كرسيه القابل للطيّ، مستسلماً، مرسلاً هواء الزفير غارقاً في ذاته: وهنا توجد حمير يبلغ ارتفاع الأبراج، شأن الجمال الحقيقية التي تعدو في وَضَح النهار، في سوق الحطّابين، هنا وهناك، وتواجه المرء بعدُ حين ويكون حظه تعيساً، وتهذي بالسخافات كثيراً، وحين يُخْلِد ذو المَشيب إلى الصمت، يتناول فرانتس بضع كراريس من المَشابك: «هذا شيء يجوز لي، بلا ريب، أيها الزميل، ما اسم هذه، الفيجارو وهذه: الزواج، وهذه: الزواج المثالين وهذه الآن شيء آخر، غير الزواج، الحب عند النساء، أن يحصل المرء على كل شيء مستقلاً، منفرداً، عند ذلك يستطيع أن يتزوّد بالمعلومات على النحو اللائق المستحسَن، حين يتوافر للمرء الكثير من المال، غير أنه باهظ للغاية، وليس هناك كُلاَّب في هذه الحالة «لقد وَدِدْت لو عرفت أي نوع من الكلاليب يفترَض أن يتوافر في هذه الحالة، هنا يكون كل شيء مباحاً، ولا يكون هناك شيء محرَّماً. فما أبيعه يكون لديَّ موافقة عليه، ولا يكون

ثمة كُلاّب في هذه الحالة. أنا أربأ بنفسي عن التورُّط في شيء كهذا» «أستطيع أن أقول لك، كل ما أريد أن أقوله لك إن التحديق في الصور ليس بشيء، فأنا أستطيع أن أحدثك عن ذلك بالكثير. وذلك أن هذا يفسد الرجال، أجل، إنه يقضي عليك، وبعد ذلك، إذا أردت، عندئذ أن تقف هنا، عند ذلك لا تعود الأمور تسير بطريقة طبيعية» «لست أفهم، ما الذي يعنيه هذا، ولا تبصُقَّن على كراريسي، فإنها تكلِّف المال الكثير، ولا تتحسّس على الدوام الغطاء، بل اقرأ هنا ذات مرة: لغير المتزوِّجين، يوجد كل شيء، مجلة استثنائية ممتازة لهؤلاء» «غير المتزوجين، ياللعجب، لو لم يكن لهؤلاء وجود لما كنت متزوِّجاً من البولونية لينا» «إذاً، هنا، ماذا يوجد هنا، أوَ ليس هذا صحيحاً، إنه مجرد مثال: إرادة تنظيم الحياة الجنسية للزوجين بطريقة التعاقد، ورسم القواعد الخاصة بالواجبات الزوجية المتصلة بهذه المسائل، كما ينص على ذلك القانون، يعني الاستعباد الأكثر فظاعة والأكثر تجريداً للإنسان من كرامته، على الإطلاق، بل أفظع ألوان الاستعباد التي يمكن تصوّرها على الإطلاق وأكثرها حَطّاً من شأن الإنسان، ثم ماذا بعد؟» «ولماذا؟» «ثم ماذا؟ أيصُحّ هذا أم لا؟» «هذا شيء لا يَرِد عندي، فالمرأة التي تطالب الرجل بهذا، كلاّ، فإن مثل هذا، أتراه يعدُّ ممكناً؟» «هلَ يوجد هذا؟» «هلاّ قرأتَه» «كلاّ، هذا فظيع جدّاً. فلتأتني هذه، ولترَ ما يكون».

ويقرأ فرانتس وهو مذهول، الجملة مرة أخرى، ثم يستحوذ عليه الانفعال، ويقول مبيِّناً الشعر الأبيض: «ثم ماذا، وهنا، بعد ذلك: أريد أن أسوق على ذلك مثلاً، من كتاب دانونزيو، متعة، انتبه، دانونزيو هو الخنزير الأعلى، وهو إسبانيّ أو إيطاليّ، أو من أمريكا، وهنا تحفِل أفكار الرجل بالعشيقة البعيدة عنه إلى حد يبلغ منه أن اسم الحبيبة الحقيقية البعيدة عنه يفلت من لسانه خلافاً لإرادته في ليلة غرام مع امرأة تقوم بالدور التعويضي، وهنا تدق الساعة الدقيقةَ الثالثةَ عشرة، كلاّ، أنتَ، أيها الزميل، أنا لا أشارك في شيء كهذا» «أوّلاً: أين يَرِد هذا، أَرِنيه»، هنا، حيث تؤدي دورها التعويضي امرأة، أو فتاة؟» إذ يتخذ لنفسه امرأة أخرى لأنه لا يجد بين يديه امرأته على وجه الخصوص، والجديدة تلاحظ ذلك، ثم تتحسَّن الحال، وربما

كان يفترَض أن لا تعود هذه إلى الخروج عن طورها؟ وهذا ما يوعز الإسباني بطبعه. أمّا أنا فما كنت لأطبعه لو كنت منضّداً» «والآن هلاّ فتحت طريقاً، أيها الآدميّ، وما من شك في أنك لست بمضطرٍ إلى أن تصدِّق مجرّد أنك تستطيع أن تفهم، بما أتيح لك من القَدْرِ اليسير من العقل، ما يعنيه امرؤٌ كهذا، أي كاتب حقيقي، وهو فوق ذلك، بلا ريب، إسباني أو إيطاليّ، هكذا، هنا، في غمرة الزحام في سوق الحطّابين».

ويتابع فرانتس قراءته: «وعلى أثر ذلك كان فراغ كبير وصمت يملآن روحها. إنه لأمر يبعث على اليأس. هذا ما ينبغي أن يحملني على تصديقه امرؤٌ ما، ومثل هذا يمكن أن يأتي من حيث يشاء، ومنذ متى كان الفراغ والصمت، هنا أستطيع أن أشارك في الحديث على قدر ما يستطيع هو، ولن تكون الفتيات هنا شيئاً مختلفاً عما يَكُنَّ عليه في أي مكان آخر، ولو أني حظيت بواحدة منهن ولاحظت شيئاً ما، مثل عنوان في دفتر ملاحظاتي، ولتتصوَّر ذلك: أتلاحظ هذه شيئاً ما ثم يكون الصمت؟ هكذا تبدو أنت، هنا تعرف النساء، ياصغيري، لقد كان عليك أن تسمع، وقد كان المنزل كله يصرخ وتدوّي صيحاته. وهكذا كانت هي تزمجر. ولم أكن أستطيع، على الإطلاق، أن أقول لها ما الذي حدث في الحقيقة، إنها هي، دائماً، وعلى نحو متواصل، وكأنها منصوبة على الخازوق. وقد وصل الناس، وكنت مسروراً حين كنت في الخارج «أيها الآدمي، أنت لا تلاحظ بالطبع، على الإطلاق، أمرين» «وهما؟» «عندما ينتزع امرؤٌ الجريدة من يدي، يشتريها، وهذا يحتفظ بها، وعندما يكون فيها الهذر والكلام الفارغ لا يزعج هذا ولا يكدِّر الصفو، إذ لا يهم هذا سوى الصور»، واستهجنت عين فرانتس بيبر كوبف اليسرى هذا. ثم يكون لدينا هنا الحب عند النساء والصداقة، وهؤلاء لا يثرثرون بالكلام الفارغ، بل يكافحون، أجل، في سبيل حقوق الإنسان» «وما الذي ينقصهم يا تُرى». «الفقرة ١٧٥، إذا كنتَ ما زلت لا تعرف ذلك». لقد ألقيت اليوم على وجه الخصوص، محاضرة في شارع لاند برْغَر، قصر الإسكندر، وهنا كان من الممكن أن يسمع فرانتس شيئاً ما حول الظلم الذي يصيب مليوناً من البشر في ألمانيا، في كل يوم، وقد كان من الممكن

أن يقف شعر المرء وقوفاً يشكِّل معه جبالاً. ودَسّ الرجل رزمة من المجلات القديمة تحت ذراعه، وتنهَّد فرانتس ونظر إلى الرزمة تحت ذراعه، وقال: أجل، سوف يأتي، بلا ريب، وماذا ينبغي لي أن أصنع هنا في الحقيقة، فلأنصرف الآن بالفعل إلى هناك لأرى هل يُعَدّ هذا عملاً وإتجاراً بمجلاته، أما الغلمان الذين يحسون بالنزوع إلى الشذوذ الجنسي، فليمسك بهذا عني الآن، وينبغي لي أن أحمل هذا إلى المنزل الآن وأقرأه، أجل فإن الصغار يمكن أن يسببوا لي الشعور بالألم، غير أنهم لا يمتّون لي بصلة في الحقيقة.

وخرج في إطار ورطة ومأزق حافلين بالوحول والمصاعب، وبدت له القضية بعيدة عن الخلوِ من الشوائب والهواجس بعداً حمله على أن لا يقول للينا كلمة واحدة، وانتهى بها في المساء إلى وضع جديد، وحشر تاجر الصحف في الحجرة الصغيرة، حيث كان عدد من الرجال يقعدون بعضهم إلى بعض تقريباً، وكانوا حديثي السن على الأغلب، وكان فيهم بعض النساء، ولكن كُنَّ في صورة أزواج. ولبث فرانتس طوال ساعة لا يقول كلمة، وكان يتبسم من وراء قبعته، ابتسامة صفراء، ويكثر منها، وبعد الساعة العاشرة ما عاد في وسعه أن يتماسك، ولم يكن له بُدٌّ أن يضغط على نفسه، فقد كانت المسألة والناس مفرطَيْن في إثارة الضحك، وكان هناك قدر كبير من الجوّ الثقيل المكتوم، في كومة واحدة كان هو في القلب منها، ولم يكن له بُدٌّ أن يخرج على جناح السرعة وهو يضحك، إلى أن وصل إلى ميدان الإسكندر. وأخيراً سمع فيه المحاضر الذي كان مازال يتحدث عن كيمنتْس، حيث كان يوجد إجراء تفرضه الشرطة، يرجع إلى ٢٧ تشرين الثاني، إذ لم يكن يجوز للأفراد من جنس واحد أن يخرجوا إلى الشارع، ولا أن يدخلوا أماكن قضاء الحاجة «دورات المياه»، وإذا ضبطوا كلَّفهم ذلك ثلاثين ماركاً، وكان فرانتس يبحث عن لينا، غير أن هذه كانت قد خرجت مع صاحبة منزلها، فرقد لينام. وكان يضحك في نومه ويتفوَّه بالكثير من الشتائم، وكان يتشاجر مع حوذيّ غبيّ لبث يروح ويغدو به على الدوام حول نبع رولاند عند شارع النصر المشجَّر، في جولة دائرية، وكان شرطي المرور قد بات وراء العربة يلاحقها. هنالك وثب فرانتس آخر الأمر خارجاً من

العربة، والآن باتت السيارة تنطلق مثل مجنون حول النبع دائرةً من حوله، وكان هذا يتواصل ويستمرّ ولم يكن يتوقف، وكان فرانتس ما يزال واقفاً، مع شرطي المرور على الدوام، وكانا يتشاوران، قائلَيْن: «ما عسانا نصنع مع هذا المجنون.

وفي ضحى الغد كان ينتظر لينا في المقصف، كشأنه دائماً، وكان يحمل الصحف معه، وهو يريد أن يقول لها ما يترتَّب على فتيانه أن يعانوا منهن في كيمنتِس والفقرة التي تفرض غرامة الثلاثين ماركاً، ولم يكن يعنيه من ذلك شيء على الإطلاق، وكان عليهم أن يتوصلوا إلى اتفاق جديد بصدد الفقرات الخاصة بهم، إذ كان من الممكن أن يأتي مِلْك كذلك، وينبغي له أن يفعل شيئاً من أجل تجار الماشية، كلاّ، بل يريد السلام، وينبغي أن يظلوا بالنسبة إليه غير ذوي أهمية على الإطلاق.

وترى لينا على الفور أنه كان ينام نوماً مزعجاً، ثم يدفع إليها بالمجلات في شيء من التردد والوَجَل، والصور فوقَها، وتمسك لينا بفمها من الفزع، هنالك يبدأ من جديد في الحديث عن الفكر، ويبحث عن نُقْرة البيرة التي كانت بالأمس على المنضدة، ولكن ليس هناك نُقْرة، أمّا هي فتنأى عنه بجانبها، أتُراه أصابه شيء ما، من جراء الأسلوب الذي يسود في الصحف، ولا تفهم، فإنه لم يكن على هذه الحال حتى الآن، بلا ريب، وهو يستنفد طاقته بالدوران في الحجرة، ويرسم بإصبعه الجافة خطوطاً على الخشب الأبيض، وإذا هي ترفع رزمة الصحف برُمَّتها عن المنضدة، وترمي بها إلى أسفل، على المقعد الطويل، وتقف أوَّل الأمر مثل امرأة مذهولة قد جُنَّ جنونها، ويشخص كل منهما ببصره إلى صاحبه، أمّا هو فمن الأسفل إلى الأعلى، مثل غلامٍ صغير، هنالك تهدأ ثائرتها ويقعد هو هنا مع صحفه، ويستطيع أن يفكر في أهل اللِّواط.

وذات مساء يخرج إلى النزهة رجل أصلع، ويصادف في حديقة الحيوان غلاماً صبيح الوجه لا يلبث أن يمشي معه وقد شبكا ذراعيهما، ويتبادلان المتعة ساعة من الزمان، ثم تساور الأصلع الرغبة، بتأثير الغريزة، والرغبة، الهائلة، في أن يكون في هذه اللحظة، مُحَبّباً جداً إلى الغلام، وهو متزوِّج، وقد لاحظ ذلك من قبلُ في بعض الأحيان، ولكن الآن لا بُدَّ أن يكون ذلك فإنه شيء رائع الجمال، «أنتَ شعاع شمسي، وأنت الذهب عندي».

وأما هو فبالغ الرقة. أن يكون شيء كهذا موجوداً. «تعال فسوف ننتقل إلى فندق صغير، وأنت تهب لي خمسة ماركات أو عشرة، فأنا مفلس لا أملك شروى نقير» «كما تريد، ياشمسي» ويهدي إليه كل حافظة نقوده. أن يكون شيء كهذا موجوداً، هذا هو أجمل الأشياء طُرّاً.

ولكن كان يوجد في الحجرة ثقوب خلال الباب يُنْظَرُ منها إلى ما وراءه، وإذا المضيف يرى شيئاً وينادي المضيفة التي ترى كذلك شيئاً ما، ويوَليان بعد ذلك إنهما لا يطيقان وجود هذا في فندقهما، وأنهما رأيا هذا، وهو لا يستطيع أن ينكره، وما كانا ليحتملا هذا أبداً. وإنه ينبغي له أن يشعر بالعار من جراء إغرائه الغلمان، لأنهم سيفضحونه، ويأتي كذلك خادم المنزل وخادمة الحجرة ويبتسمان ابتسامة صفراء، وفي اليوم التالي يشتري الأصلع زجاجتين من خمر أشباخ أورْأَلْت، ويقوم برحلة عمل، ويهمُّ بالسفر إلى هيلغولاند، ليشرب حتى السِكْر والغَرَق. ولكنه يُسْكِرُ نفسه في الحقيقة ويركب السفينة، غير أنه يعود بعد يومين إلى أمه، حيث لم يحدث شيء على الإطلاق.

ولا يحدث شيء على الإطلاق طوال الشهر، وطوال السنة، ولا يحدث سوى شيء واحد، إذ يَرِث من عمّ له أو خال ثلاثة آلاف دولار، ويغدو في وسعه أن يهب لنفسه شيئاً من المال. وهنا تضطرُّ أمه، حين ينطلق إلى الحمام، إلى أن تُوَقِّع على استدعاء له، وتفتح هذه الرسالة، فإذا فيها كل ما يأتي من ثقوب الإطلال والنظر، ومن محفظة الرسائل والنقود والغلام المحبوب وحين يعود الأصلع من رحلة الاستجمام يبكي القوم جميعاً عليه، الأم وبنتاه الكبريان، ويقرأ الاستدعاء، الذي ما عاد حقيقياً على الإطلاق، وإنما هو تعقيد الإجراءات الرسمية الذي كان شارلمان قد تخلّى عنه، والآن وصل إليه، غير أنه صحيح. «سيدي القاضي، ما الذي فعلته يا تُرى؟ فأنا لم أثر غيظ أحد، بل ذهبت إلى حجرة وأوصدت بابها على نفسي، وأية حيلة أستطيع أن ألجأ إليها حين يحدث هؤلاء ثقوباً يطلّون منها على ما وراء الباب، ولم يحدث ما يستوجب العقوبة» ويؤكد الصبيّ ذلك. «إذاً فما الذي اقترفته؟» ويبكي الأصلع وهو في معطف الفراء: «أتراني سرقت، أم تراني سطَوْت على بيت؟ أنا لم أَسْطُ إلاّ على قلب إنسان عزيز. فقد قلت له، ياشعاع شمسي، وقد كان كذلك».

ويصدر الحكم ببراءته. أما في المنزل فيظل القوم على بكائهم.

«الناي السحري»، قصر الرقص، مع قصر الرقص الأمريكي في ساحة المسرح، والملهى الشرقيّ للاحتفالات في الأماكن المغلقة، خالٍ، فماذا أهدي إلى صديقتي في الاحتفال بعيد الميلاد؟ رجالاً في ثياب نساء، للمتعة، فقد وجدت بعد تجاريب دامت سنوات طويلة، آخر الأمر وسيلة جذرية ضد البقايا من شعر اللحية، مع جذورها، فكل جزء من أجزاء الجسم يمكن تجريده من الشعر.

وفي الوقت ذاته اكتشفت الطريق للوصول إلى صد أنثويّ حقيقي خلال وقت قصير إلى حد يبعث على الدهشة، وليس هناك حاجة إلى أدوية، بل هي وسيلة أكيدة على نحو مطلق، لا تنطوي على اذى. والبرهان: أنا نفسي، حرية في الحب على الجبهة بأكملها.

وكانت سماء صافية تكشف عن النجوم تطل على مرابع البشر المظلمة. وكان قصر كيركاوِن يرقد في أحضان سكينة ليلية عميقة. ومع ذلك فقد كانت امرأة ذات خصلات شُقْر تدس رأسها في الوسائد ولا تجد نوماً. وفي الصباح أراد عزيز عليها، محبَّب إلى قلبها، أن يغادرها وسرى في غياهب الليل المُدْلَهِمّ «الغُدافيّ» الذي لا يمكن ينفذ البصرِ منه، همس يقول: جيزا، فلتبقَ لي، فلتبقَ لي، ولا تبتعد، ولا ترحل، ولا تَنْأَ عني، أرجوك، بل أقعد». لا تغادِرْني. ولكن السكون الذي لا عزاء فيه لم تكن له أذن ولا قلب «ولا قدم ولا أنف». وفي الجهة المقابلة، ومع فاصل يتألف من قليل من الجدران فحسب، كانت ترقد امرأة شاحبة، ناحلة، مفتحَّة العينين، وكان شعرها الداكن، الجَثْل، يرقد على شَعَثْ فوق حرير السرير «وقصر كيركاوِن مشهور بالأَسِرّة الحريرية» وكانت رِعْدة البرد تسري فيها فتحدث زلزلة، وكانت أسنانها تصطك كما يحدث في حالة الصقيع العميق، نقطة، غير أنها لم تكن تحرِّك ساكناً، بل فاصلة، ولم تكن تسحب الغطاء عليها ليكون أكثر إحكاماً، وكانت يداها الناحلتان ترقدان في مثل برودة الجليد بغير حراك «كما يحدث في الصقيع العميق، رِعدة البرد، والمرأة الناحلة ذات العينين المفتوحتين، وأَسِرّة الحرير المشهورة» فوق ذلك، وكانت عيناها المتألِّقتان تتيهان وهما ترتعشان، حواليها

في الظلام، وكانت شفتاها ترتجفان. نقطتان، وقدمان صغيرتان كأقدام الإوز، وساقان ناحلتان كسيقان الإوز، لورا، معترضة، معترضة، لورا، معترضة، أقدام الإوز، سيقان الإوز، كبد الإوز مع البصل.

كلاّ، كلاّ، أمّا معك فلا أذهب، يا فرانتس، وأنت غائب بالنسبة إليّ، وفي وسعك أن ترحل عني متكتّماً» «تعالَيْ، يالينا، فسأردُّ إليه أقذاره» وحين خلع فرانتس قبعته ورقد على الأريكة، وكانت في حجرتها– وقام بملامسات لها بهدف الطمأنة والإقناع، حَكّت له يده أوّلاً وبكت، ثم خرجت مع فرانتس، وأخذا النصف من كلٍّ من المجلات التي هي موضع الشك والتساؤل، واقتربا من جبهة القتال على خط شارع روزنتال، وشارع شونهاوزر الجديد، سوق الحطابين.

وفي منطقة الحرب قامت لينا، المثيرة، المهملة لهندامها، الضئيلة، وغير المغتسلة، التي أضر البكاء بعينيها، بتوغُّل مستقل عند الأمير فون هومبورغ: عمي النبيل، فريدريش فونديرمار كت! ناتالي! دعيني! يا إله العالمين، لقد حدث هذا الآن له، والأمر سيّان! وكانت تعدو لا تلوي على شيء عَدْوَ الخبب السريع، فوق منصب الأصلع. هنالك جرَّ فرانتس بيبر كوبف على نفسه، وهو المتسامح النبيل، أن يظل في الخلفية، وكان يقف أمام محل بيع السجائر الذي يحمل اسم «شرود، للاستيراد والتصدير» متخذاً الخلفية مكاناً له. وكان يرقب من هناك، وقد أعاقه الضباب إعاقة يسيرة، الحافلةَ الكهربائية، والمارّة، وتطوُّر حَدَث القتال الذي تمَّ التمهيد له، ثم استؤنف، وكان الأبطال قد تأثروا تأثُّراً محسوساً، وكانوا يتلمَّسون مواطن ضعفهم ونقائضهم وكانت الآنسة برزيبا للاّ قد بعثت بالرزمة المغلّفة بالجريدة متبَّلة بالفلفل والملح، وكانت هذه ابنة المزارع ستانيسلاوْس برزيبا للاّ من تسير نوفيتش، الوحيدة من زواجه بعد ولادتين حدثتا قبل الأوان، لم تكونا قد وصلتا إلى النموِّ والازدهار إلاّ في شطر منهما، وكان مقدَّراً للاثنتين أن تُسَمّيا لينا، وضاع ما بعد ذلك في غمرة جلبة حركة المرور في الشوراع، وكان فرانتس المعوَّق مع مرحه وسروره يتنهَّد، معجَباً، مع صبره، قائلاً: «العكاز، العكاز، وكان يدنو بصفته جيشاً احتياطياً لقلب الحَدَث القتاليّ، هنالك ضَحكَتْ له، قبل صب الشراب من قِبَل إرنست كومَرليش، البطلةُ والمنتصرة، الآنسة لينَا برزيبا للا، وصاحت، وهي في ملابس تفتقر إلى العناية والهندام، ولكن، بسعادة وحبور: «فرانتس، لقد ظفرتَ بها!».

وكان فرانتس قد عرف ذلك. وفي الملهى انحنت وقد انتصب قدماها، عند تلك المنطقة من الجسد التي كانت تعدُّها قلبه، ولكنها كانت تحت قميصه الصوفي، وعلى وجه أدقّ، تحت عظم القصّ، وتحت الطرف العلوي الرخو من الرئة اليسرى، وانتصرت حين صبَّت القدح الأول من خمر الجيلكا: «ثمّ إنه يستطيع أن يجمِّع أقذاره في الشارع، بالبحث».

والآن، أيُّهذا الخلود، إنما أنت، كُلّك، لي، ياعزيزي، فأي نوع من البريق والألَق ينتشر، ألا فليحيا الأمير فون هومبورغ، المنتصر في موقعة فير بيللين، ولْيَعش «تظهر سيدات البلاط، والضباط، والمشاعل على مقدمة القصر» «عليَّ بقدح آخر من الجيلكا».

مرج الأرانب، عالم جديد، حين لا يكون هذا العالم فهو العالم الآخر، ولا ينبغي للمرء أن يجعل العالم أصعب مما هو عليه

ويقعد فرانتس مع الآنسة لينا برزيبالاً في الحجرة، ويضحك لها: ب»أتعلمين، يالينا من تكون مديرة المهجع؟» ويلكِزها بقبضة يده؟ وتحملق هذه فيه قائلة: «لا بأس فالسيدة فولش مديرة المهجع، بلا ريب، وهي تلتزم بالبحث عن الأطباق والصفائح لاستخراجها عند رجل الدعاية الموسيقية» «ليس هذا ما أقصده. عندما أعطيك دفعة، وأنت راقدة على الأريكة، وأنا إلى جانبك، عند ذلك تكونين مديرة المهجع، وأكون أنا مدير المهجع» «أجل، هكذا تبدو أنت» وقالت ذلك بصوت الزعيق.

وكذلك نريد، مرة أخرى، نريد مرة أخرى، أن نكون مَرِحين: فالّيري، فاليرا، رالّليه، لالالا، ترلاّلالا؟، وهكذا نريد أن نكوَن مرة أخرى، مَرِحين مَرِحين.

وينهضان عن الأريكة – فهما غير مريضين، بلا ريب، ياسيدي، وإلّا فسنذهب إلى العم الطبيب، ويذهبان بغية الاستمتاع، إلى مَرْج الأرانب، حيث يظهران مشغولَيْن بذلك أيّما انشغال، وحيث تتقد نيران المسرّات، ويكون تميُّز بطّة الساق الأكثر نحولاً، بالجائزة، وكانت تستقر في الزِيّ التيروليّ، على المسرح،

وكانت الأمور تسير ببطء وتدرُّج، وعلى نحو لا يكاد يُلاحظ: إشرب، فأشرب، ياأُخَيّ، وخَلِّف همومك في البيت، وتجنَّب الهمّ والغم، وتجنَّب الألم، عند ذلك تكون الحياة مزاحاً وهزلاً. وعند ذلك تكون الحياة لهواً ولعباً».

وكان هذا يجري في المسرح، مع كل إيقاع، وكان يبتسمان بين أقداح البيرة ابتسامة السرور والحبور، ويشاركان بالدندنة، ويحركان الأذرع مع الإيقاع: اشرب اشربْ، ياأُخَيّ، اشرب، وخلِّ عنك الهموم، ودَعْها في البيت. اشرب، اشرب، ياأُخَيّ، وتجنَّب الألم، عند ذلك تكون الحياة لهواً ومُزاحاً.

وكان شارلي شابلن حاضراً هناك بشخصه، يهمس بألمانية الشمال الشرقيّ، يحرك قدميه بخطىً ثقيلة، جيئة وذهاباً، في السراويل الفضفاضة، وبنعلَيْن عملاقين، في الأعلى، على السور، ويلامس ساق سيدة ليست بالحديثة السن كثيراً، ويصخب معها على خط الانزلاق. وكانت أُسَر جمّة العدد تطلب الأشربة والأطعمة مُعْجَلةً، تلوِّث بها ثيابها. حول مائدة من الموائد. وتستطيع عند ذلك أن تشتري عصا طويلة في مؤخرتها حزمة كبيرة من الورق المقصوص بخمسين قرشاً، وتنشئ بذلك أيّ ارتباط تشاء، والعنق حسّاس، وكذلك بطن الركبة.

وبعد ذلك يرفع المرء ساقه ويدور على نفسه، ولكن مَنْ تُراه يكون هنا كل شيء. المدنيّون من كلا الجنسَيْن، ثم حفنة من قوة الدفاع عن الرايخ، مع ألوان من الارتباط والتعارف، اشرب، اشربْ، يا أُخَيّ، وخلِّ عنك الهموم في البيت.

ثم يدخنون، وترتفع السحائب من الغلايين والسيجار والسيجارة، في الجوّ، بحيث يسود القاعة العملاقة بأسرها الضباب، ويحاول الدخان، عندما يضيق الجوّ ذرعاً بالدخان، أن يتسرَّب بفعل خِفَّته، إلى الأعلى، كما يجد شقوقاً وصدوعاً على الوجه الصحيح، ويجد ثقوباً وصمامات تكون مستعدة لنقله، ومع ذلك ففي الخارج، في الخارج يخيِّم ليل مُدْلَهِمّ، وبرد. هنالك يندم الدخان على خِفَّته، ويقاوم تركيبه، ولكن المسألة ليست قابلة للإبطال أو الاسترجاع، نتيجة لانعطاف الصمامات إلى جهة واحدة. لقد فات الأوان، فهو يرى نفسه محاطاً بالقوانين

الطبيعية، ولا يعرف الدخان كيف يكون حاله، فيلامس بيده جبينه، فإذا جبينه غير موجود، ويريد أن يفكر، ولا يستطيع، فما عاد يرى الريح، ولا البرد، إذ استحوذ عليه الليل، وما عاد يُرى.

وكان يقعد إلى إحدى الموائد زوجان، ينظران إلى المارّين، وينحني السيد ذو الفلفل والملح بوجهه ذي الشاربين على الصدر الموجود امامه، صدر بدينة سوداء، ويرتعد قلباهما الحُلْوان، بينما يتنسَّم العبيرَ أنفاهما، هو من فوق صدرها، وهي فوق مؤخرته المكتنزة بالدهن. وإلى جانبهما تضحك امرأة في ثوب مخطط بالمربعات، بينما يحيط فارسها كرسيَّها بذراعه، وهي ذات أسنان تبرز من فمها نحو الخارج، وعلى عينها نظارة أحادية العين فالعين اليسرى المفتوحة كأنما خبا نورها، وهي تبتسم، وتنفث دخان سيجارها على شكل دفعات، وتهز برأسها: «يالهذه الأسئلة التي تطرحها» وثمة فتاة مغفَّلة، صبية، ذات شعر يتشكل في مثل أمواج الماء، تقعد إلى المائدة المجاورة، وبالتالي تغطي بالجزء الخلفي المتطوِّر كثيراً ولكنه محجوب، اللوح المعدني لكرسِيّ منخفض من كراسيّ الحديقة، وهي تصدر أصواتاً من أنفها وتدندن مع الموسيقى، سعيدة، بتأثير شريحة لحم بقري، وثلاثة من أقداح خمر الهيلليس وهي تثرثر وتثرثر، وتضع رأسها حول عنقه، حول عنق الرجل الثاني الذي يتولّى تجهيز الآلات في مؤسسة في كولونيا الجديدة، والذي تمثل هذه المغفَّلة الصبية علاقته الرابعة في هذا العام، بينما يمثل هو، على نحو معكوس، بالنسبة إليها، علاقتها العاشرة، وبالتالي الحادية عشرة، إذا أضاف المرء إلى الحساب ابنَ عمها الكبير، الذي كان خطيبها الدائم، وتفتح عينيها بقوة، لأن من الممكن أن يهبط، في الأعلى، شارلي شابلن، في كل لحظة، ويمد مجهِّز الآلات كلتا يديه نحو خط الانزلاق، حيث يحدث شيء ما، ويطلبان نوعاً من الكعك المملَّح.

يربط بين شارعين من أجل دعامة الوزن، وثمة نظرة إلى المستقبل: إذ كان الواحد من الناس يضغط بالإصبع الذي أُحْسِن تبليله على المستحضر الكيميائي في الدائرة بين كلا القلبين، ويمسح بها بضع مرات على صفحة الورق الفارغة المذكورة آنفاً، وتظهر صورة المستقبل. فأنت على الطريق الصحيح منذ أيام الطفولة، وقلبك لا

يعرف الخطأ، ومع ذلك فأنت تتشمَّم، بإحساس مرهف، كل مَكْمَن يمكن أن يتخذه لك أصدقاء يريدون بك سوءً. ثم إن عليك أن تثق، بعد ذلك، بفَنّك في الحياة، لأن نجمك الذي دخلت هذا العالم في ظل إضاءته، سيكون لك الدليلَ الدائم، كما سيساعدك على الوصول إلى رفيق الحياة الذي يفترض أن يكمِّل سعادتك. والرفيق الذي تستطيع أن تثق به مماثل لك في شخصيَّتك، ولا يتهيّأ الظفر به بالعنف وانفلات العِنان، بل ستكون السعادة الهادئة إلى جانبه أكثر ديمومة.

وبالقرب من غرفة الملابس، في الصالة الجانبية كانت فرقة موسيقية تنفخ في الآلات أنفاسها من الشرفة، وكان لهذه الفرقة الموسيقية صديريّات حمر، وكانت تصرخ دائماً قائلة إنها ليس لديها ما تشربه، وكان يقف في الأسفل رجل مكتنز، بدين في ثياب الخروج، ذو طبيعة صادقة مستقيمة، وكان يعتمر قبعة ورقية مخططة بأسلوب يلفت النظر، وأراد، بينما كان يغنيّ، أن يدسّ لنفسه بنفسجة ورقية في عروة سترته، الأمر الذي أخفق فيه نتيجة لشربه ثمانية أقداح من خمر الهيلليس وقدحين من شراب البنش، وأربعة أقداح من الكونياك، وكان يرفع عقيرته بالغناء على أنغام الفرقة الموسيقية، ثم يتنقّل بشخصية من العجائز قد تداعى جسدها، يرقص معها رقصة الفالس، وكان يرسم معها دوائر واسعة، بطريقة متماوِجة. على أن هذه الشخصية كانت تزداد تداعياً وانحلالاً، غير أنّها كانت تتمتع من الغريزة بما يكفي لكي تقعد قبيل انفجارها على ثلاثة من الكراسيّ.

ووجد فرانتس بيبر كوبف وهذا الرجل الذي يسعى في ثياب الخروج، نفسَيْهما، في فترة استراحة، تحت الشرفة التي كانت الموسيقى فوقها تجأر في طلب البيرة، وكانت عيون زرق مشرقة توجه فرانتس، أيها القمر الظريف الفاتن، أنت تمشي بسكينة بالغة، وكانت العين الأخرى عمياء، ورفعا أباريق بيتهما البيض، وقال هذا المعوَّق، بصوت يضاهي نعيق الغراب: «أنت مثل هذا الخائن، أمّا الآخرون فيقعدون لدى مِذْود العلف». وقال وهو يبتلع ريقه: «لا تنظرَنَّ إليَّ مثل هذه النظرة العميقة في عينيّ، أنظر إليّ، أين خدمت؟».

متبادلا الأنخاب، بوق الفرقة الموسيقية، ليس لدينا ما نشربه، أنتَ، هلاّ

أحجمت عن هذا، أيها الأطفال، تصرَّفوا بهدوء، بهدوء دائماً، في صحتكم وعافيتكم، نخب الهدوء والعفوية «أأنت رجل ألمانيّ، أأنت ألمانيٌّ أصيل؟، وما اسمك؟ «فرانتس بيبر كوبف، أيتها البدينة، هذا لا يعرفني» وهمس المعوَّق، ويده على فمه، قائلاً وهو يرفع عقيرته إلى حد الإزعاج: «أأنت رجل ألماني، ضع يدك على قلبك. أتُراك لا تذهب مع الحمر، وإلاّ فأنت خائن، ومَنْ كان خائناً فليس بصديق لي» وعانق فرانتس: «البولونيوّن، الفرنسيّون، الوطن، وما قدَّمنا الدماء من أجله، هذا هو شكر الأمة» ثم استجمع شتات نفسه، وتابع الرقص مع الشخصية ذات الأطوار المتبدِّلة التي استجمعت قواها من جديد، وهي على الدوام، راقصة الفالس العجوز على أنغام كل موسيقى، وكان يترنَّح ويحاول، وقال فرانتس مزمجراً: «هنا» وجاءت به لينا، فإذا هو يرقص أوَّلاً مع لينا وذراعه في ذراعها، وبدا، وهو معها، أمام فرانتس، في الحانة: «أستميح عفوك، مع مَنْ يتاح لي السرور، والشرف، اسمَك الكريم، رجاءً» فلتشرَبنَّ، ولتشرَبَنّ، ياأخَيّ، وخلِّ عنك الهموم في البيت، ولتتجنَّب الكرب ولْتَتَفادَ الألم، عند ذلك تكون الحياة لهواً ولعباً.

عَظمان للتزلُّج على الجليد، وفيما مضى زائدة لحمية تستعمل لحفظ اللحوم والأسماك، وكان لدى السيدة جذور الفجل الوتدية اللحمية المتبَّلة، ومجموعة ملابسها، أجل، أين سَلَّمْتِها، إذ يوجد هنا غرفتان للملابس، وهل يجوز في الحقيقة لسجناء رهن التحقيق أن يحملا في إصبعيهما خاتميْ خطبة؟ أقول لا. وفي نادي التجديف استغرق ذلك أربع ساعات. والطرق المخصصة هنا للسيارات، معرَّضة للقصف من قِبَل كل المدافع، هنالك تثِبُ على الدوام إلى أن تبلغ سقف العربة، وعندها تستطيع أن تأخذ حمامات غطس.

ويقعد المُعاق وفرانتس متلاصِقيْ الجسدين في حيِّز ضيق في المشرب: «أستطيع أن أقول لك، أنت، إنهم قد اختصروا لي المعاش التقاعديّ، وسأذهب إلى الحمر، فمن يخرجنا من الفردوس، بسيف اللهيب هو كبير الملائكة، وعلى أثر ذلك لا نعود إليها مرة أخرى، فلنقعد في الأعلى، في هارتمانزفايْكر كوبف، أقول هذا للنقيب الذي أتبعه، وهو من ستارغارد، مثلي» «شتوركوف؟» «بل ستارغارد. الآن فقدت

بنفسجتي ، كلاّ ، هاهي ذي معلّقة هنا» ومَنْ مارس التقبيل ذات مرة على شاطئ البحر ، واسترق السمع إلى الأمواج المتراقصة ، فهو يعرف ما هو أجمل الأشياء طُرّاً على وجه الأرض ، ويكون قد ناجى الحبَّ في جوٍّ من الحميمية والألفة .

وكان فرانتس يبيع الآن الصحف الشعبية ، ولم يكن لديه ما يعترض به على اليهود ، غير أنه يقف إلى جانب النظام ، ذلك لأن النظام لا بدَّ أن يكون في الفردوس ، وهذا ما يتبيَّن حقاً لكل امرئٍ ، والخوذة الفولاذية ، لقد رأى الصبيان ، وقادتهم ، وهذا شيء ليس بالقليل ، وهو يقف عند مخرج الممرّ ، تحت محطة القطار في ميدان الإسكندر ، وهو يمثل رأياً في صدد المعاقين من العالم الجديد ، وفي صدد ذي العين الواحدة وفي صدد السيدة البدينة .

إلى الشعب الألماني بمناسبة اليوم الأول من الشهر السابق على عيد الميلاد: حطِّموا آخر الأمر تركيباتكم الخادعة وعاقبوا أولئك الذين يهزّون مِهادكم في ألعاب الشعوذة! ثم يَأْزِف اليوم الذي تبرز الحقيقة فيه من ميدان القتال ، بسيف حقكم ، وبالدرع ذي الصفحة البيضاء ، لنهزم الأعداء .

وبينما تكتب هذه السطور ، يلتئم الاجتماع للتفاوض بشأن فرسان رايات الرايخ ، الذين كان التفوُّق الذي يصل إلى نحو خمسة عشر– إلى عشرين ضعفاً ، يتيح لهم إصدار التصريحات من ذلك النوع ، سواء في صدد نزعتهم السلمية الموافقة لبرنامجهم ، أم في صدد جرأتهم التي تتماشى مع موقفهم ، بحيث أغاروا على حفنة من النازيين ، وسحقوهم ، وقتلوا ، في هذه الأثناء ، رفيقنا في الحزب ، هيرشمن بطريقة حيوانية وحشية إلى أقصى الحدود ، ويتبيَّن ، حتى من إفادات المتَّهمين الذي تلقَّوْا ، بحكم القانون ، الإذن ، ومن جانب الحزب ، على ما يظن ، الأمر ، بأن يكذبوا ، مدى الجلافة والوحشية المقصودتين ، المتعَّمدتين اللتين يكشف عنهما النظام المدمِّر بوضوح ، واللتين تمَّ التصرُّف بهما هنا» .

الفيدرالية الحقّة هي اللاسامية ، والكفاح ضد اليهود هو كفاح ضد الدولة المستقلة القائمة بذاتها في بافاريا ، ومنذ ما قبل البداية كانت قاعة الاحتفالات الكبرى الماتيزية غاصة بالحضور ، وكان الزوّار الجدد لا يفتأون يندفعون إليها متزاحمين ، وحتى

افتتاح المؤتمر كانت فرقتنا الموسيقية ذات الهمة والنشاط تستمتع بالإنشاد الجريء للمارشات السريعة الإنسيابية وإنشاد الألحان البسيطة الكهنوتية الشعبية وفي الساعة الثامنة والنصف افتتح المعلم الأول في مؤسسة P.G ، المؤتمر بتحية قلبية ، ثم أعطى الكلمة للسيد ب . ج . ن . فالتر أمَّرى .

وفي شارع الألزاس كان الإخوة يضحكون ضحكاً متحفَّظاً رافضاً ، حين يدخل المقصف عند الظهيرة ، والضماد في جيبه من باب الحيطة والحذر ، وكانوا يسحبونه من جيبه ، وكان فرانتس يقطعه بالمنشار .

وكان يتحدث إلى صانع الأقفال العاطل عن العمل ، فأزاح هذا قدح بيرته الكبير من فرط الدهشة: «إذاً فأنت تهزأ بي ، ياريتشارد ، ربما ، فلماذا؟ لأنك متزوِّج ، وأنت في الحادية والعشرين وزوجتك في الثامنة عشرة ، وماذا رأيتَ من الحياة؟ لا أقل من ثلاثة ، وأنا أقول لك ، ياريتشارد ، عندما نتحدث ذات مرة عن الفتيات ، حيث يكون لك صبي صغير هنالك يُفْتَرَض أن تكون على حق بسبب هذا الصَخّاب ، ولكن ماذا غير هذا؟ ياللعجب» .

أما الجلاّخ ، جورج درسكه ، الذي بلغ من العمر تسعة وثلاثين حولاً ، والذي هو الآن محتجز في الخارج ، فيعدِّل وضع ضِماد فرانتس . «فانتبه إلى الضماد ، يا أورغه ، وانظر إليه بإمعان ، إذ لا يوجد شيء فوقه مما لا يستطيع المرء أن يبرِّره ، ولكني ، أنا أَفْلَتُّ في الخارج ، أيها الآدمي وصنعت صنيعك على وجه الدقة ، ولكن ما الذي كان بعد ذلك . فسواء أكان للمرء ضماد للبطن أحمر ، أو ذهبي أو أبيض أو أسود ، فإن السيجارة لا يكون لها مذاق أفضل . وإنما تتوقف المسألة على التبغ ، أيها الفتى المتقدم في السن ، الصفحة العلوية ، والصفحة السفلية ، والطيّ الصحيح ، والتجفيف الصحيح ، ومِنْ أين ، كذلك أقول . وماذا صنعنا ، يا تُرى ، يا أورغه ألا قلْ لي بربِّك» .

وعَمَد هذا إلى وضع الضماد أمامه على منصة صب الخمر ، وتجرَّع بيرته ، وأخذ يتحدث بتردُّد شديد ، وكان يتلعثم في بعض الأحيان ، ويبلِّل شفتيه في كثير من الأحيان: «أنا أنظر إليكَ ، نظراً فحسب ، ولا أزيد على مجرد القول ، وأنا أعرفك ،

بلا ريب، منذ عهد بعيد، عن طريق آراس وكوفنو، ولقد أقنعوك بما ليس في صالحك، ببراعة»: ، «أتعني بسبب الضماد؟» «وبسبب كل شيء. دَعْ عنك هذا، يا رجل، فما كنتَ في حاجة إلى أن تجري بين الناس، هكذا، هنا وهناك».

والآن ينهض فرانتس قائماً، ويزيح صانع الأقفال الشاب ريتشارد فيرنر ذو الياقة البرّاقة ذات الوميض واللون الأخضر، جانباً، حيث كان هذا يوشك أن يطرح عليه سؤالاً: «كلاّ، كلاّ، يا أخي ريتشارد، فأنت امرؤ ذو معدِن طيب، ولكن هذه هنا أمور تتعلَّق برجال. ولأنك تتمتع بحق الانتخاب فأنت بعيد عن أن تتمكن من المشاركة في الحديث بيني وبين أورغهِ» ثم يقف مُطْرِقاً إلى جانب عامل التجليخ، عند منصة صب الخمور، ويقف إلى جانبهما المضيف في المريلة الكبيرة الزرقاء، قبالة الهيكل الذي يُنْصَبُ عليه برميل الكونياك، منتبهاً، ويداه المكتنزتان في حوض الغسيل. «إذاً يا أورغه، ما الذي حدث لآراس؟» «وما الذي يفترض أن يحدث له؟ هذا ما تعلمه أنت وحدك، ولماذا أنت هارب، ثمّ يأتي الضماد، أيها الإنسان، يا فرانتس، من الأفضل عندي أن أتعلَّق بهذا، لقد أقنعوك حقاً بما ليس في صالحك».

وكانت لفرانتس نظرة واثقة للغاية، فهو يُمسك بعامل التجليخ، الذي يتلعثم، ويدع رأسه يرتمي إلى أسفل، بنَظَره إمساكاً محكَماً: «أما ما حدث لآراس فما زلت أريد أن أعرفه. أفَلا تجُسُّه وتتفحصه، عندما كنتَ لدى آراس!» «لا ريب في أنك تفتري الكذب. وفرانتس يقول إنه لم يقل شيئاً على الإطلاق، ولا شك في أنَّك سكران» وينتظر فرانتس، ويفكر، لسوف أستدرجه، فإنه يتظاهر بأنه لا يفهم شيئاً، وهو الذي يَعُدُّ نفسه من كِبار الشُطّار والدُّهاة. «إذاً، بالطبع، يا أورغه، لقد كنا عند آراس بالطبع، مع آرتور بوزهِ وبلوم، والجاويش القصير، كيف كان اسم هذا، لقد كان اسمه مضحكاً للغاية» «لقد نسيت» دَعْ هذا يتحدث فقد أفرط في الشراب، والآخرون يلاحظون هذا «انتظر بعض الانتظار، كيف كان اسم هذا، بستا، أو بيسكرا، أو شيئاً من هذا القبيل، القصير» دعه يتكلَّم، أنا لا أقول شيئاً على الإطلاق، وهذا تتعثر الكلمات على شفتيه. ثم لا يعود يقول شيئاً، «أجل، فهؤلاء نعرفهم جميعاً، غير أن هذا فحسب هو ما لا أعنيه، أين كنا بعد ذلك، عند آراس،

حين انتهت المسألة، بعد الثامنة عشرة، حين ذهب الصندوق الآخر، هنا في برلين، وفي هالّه وفي كيل، وأماكن أخرى . . » . .

ورفض جورج دريسكه، بحَزْمٍ وعزم، هذا يُعَدُّ بالنسبة إليّ من باب التغفيل والغباء، وأنا لا أقف هنا في المقصف من أجل كلامه الفارغ: «كلاّ، فامسكوا عن هذا، وسأخرج على الفور. فتحدَّث بهذا إلى ريتشارد القصير، تعال، ياريتشارد» «إنه يتظاهر أمامي بالعظمة والروعة، السيد البارون، وهو الآن يروح ويجيء، هنا وهناك، مع البارونات فحسب، أمّا أن هذا يأتي إلينا في المقصف، السيد الرفيع المقام» عينان صافيتان في عينَيْ درسكه المضطربتَيْن: «وهذا ما أعنيه أيضاً، هذا على وجه الدقة، يا أورغه، حيث وقفنا بعد الثامنة عشرة، مدفعية الميدان، أو المشاة، أو فلاك أوفُنْكر أو شيبر، أو ما شئت. وأين كنا نقف بعد ذلك في السلم؟». فإذا طلَعَ عليّ نور، فانتظر ذات مرة، أيها الغلام، فما ينبغي لك أن تحرَّك في الحقيقة ساكناً، في هذا، «والآن سأتجرَّع قدح بيرتي الكبير بالملعقة حتى نهايته، بالملعقة، وأنت، يا فرانتس، حيث كنتَ بعد ذلك في كل مكان، تعدو ولا تعدو، أو تقف أو تقعد، فهذا ما تراه ذات مرة في أوراقك، عندما تثوب إلى نفسك على وجه الخصوص. وذلك أن التاجر لا بُدَّ له أن تكون أوراقه معه على الدوام» والآن فهمتني حق الفهم، فهو في السجن، وأذكُر هذا. عينان هادئتان في عينَيْ درسكه الماكرتين: «وبعد العام الثامن عشر بأربع سنوات كنتُ في برلين، ولم يسبق للحربِ أَنْ طال أمدها أكثر من ذلك، وهذا صحيح بلا ريب، لقد طُفْت في الأرض طولاً وعَرْضاً، وطُفْتَ أنتَ فيها كذلك، بينما كان ريتشارد هنا يقعد لدى أمه، على صديريّها، أجل، فهل لاحظنا هنا شيئاً عن آراس، أنتَ، مثلاً؟ لقد خرجنا بالتضخم والعملات الورقية والملايين، والمليارات، ولم يكن ثمة لحم، ولا زبدة، بل كانت الأمور أسوأ من ذي قبل، لقد لاحظنا هذا كله. وأنتَ، يا أورغه، أين كانت آراس، هل تستطيع أن تستكمل الحساب على أصابعك. لم يكن هناك شيء، أين إذاً؟ كان يروح ويجيء هنا وهناك، وكانوا يسلبون الفلاحين ما لديهم من البطاطا.

الثورة؟ إذاً فككّوا البزالات التي تشدُّ الرايات بعضها إلى بعض، ولتَحْشُرْ قماش

الرايات في غلاف من مُشمَّع الموائد، ولتضع هذا المتاع في صندوق الملابس، ولتدع أمك تأتيك بنعلَيك اللذين تستخدمهما في المنزل، ولْتحُل عقدة ربطة العنق الحمراء كالنار. إنكم لتصنعون الثورات دائماً بخُطومكم؟، جمهوريتكم- حادث من الحوادث العلم أو إصابة!.

ويفكر دريسكه: سوف يغدو هذا أخاً ذا خطر، وهذا ريتشارد فيرنر، هذا المغفَّل الحديث السن، عاد يفتح شدقَيْه من جديد: «ما من شك في أنك تفضَّل هذا، وتودُّ لو ظفرت وهو أعزُّ عليك، يا فرانتس، فنحن نصنع حرباً جديدة، وهذا ما تودّون لو تؤجّلوه أو تزيحوه جانباً، على ظهورنا، ونحن نريد أن نضرب فرنسا ضربة باعثة للسرور. ولكن هنا انفتح لك ثقب كبير في سروالك»، ويفكر فرانتس: إنَّ هذا القرد، بل الهجين المولَّد، فردوس الزنوج، لا يعرف الحرب إلاّ من الأفلام، ضربة على الرأس، وتنتهي المسألة بسلام، إذ يسقط.

ويجفف المضيف يديه بمريلته الزرقاء، وثمة منظر طبيعي أخضر يتجلّى وراء ألواح الزجاج النظيفة، وكان المضيف يستنشق الهواء بعمق، بينما يقرأ: بنٌّ محمَّص، ارجع فالزقاق مسدود، قد نُقّيَ من الشوائب باليد، يعد شيئاً فريداً، يندر وجوده! «شوائب حبات البن مع البن المحمَّص» وحبُّ البن الصِّرف، غير المطحون ٢/٢٩، سانتوس يضمن النقاء، سانتوس نوع أوّل، خلط على يد الإدارة المنزلية، قوي واقتصادي في الاستعمال، خليط قوي فان كامبيناس، نقيُّ المذاق، خليط مكسيكو المختار بعناية فائقة قهوة قيِّمة تستحق السعر العالي، من المزارع ٣/٧٥، الإرسال بالخط الحديدي، على الأقل ٣٦ في حينه، سلع متنوِّعة، نحلة، يَعْسوب، وثمة ذبابة كبيرة تحوم في الأعلى، عند السقف، إلى جانب أنبوب المدفأة، أعجوبة طبيعية كاملة، في الشتاء. أمّا رفاقه من القبيلة، ورفاقه في الأسلوب والعقلية والنوع، فقد ماتوا، ماتوا أو لمّا يولدوا بعد، وهذا هو العصر الجليدي الذي تحتمله الذبابه الكبيرة، المنفردة، ولا تدري كيف جاء، ولماذا جاء هو على وجه الخصوص، غير أن شعاع الشمس، الذي كان يغطّي، دونما صوت، المناضد الأمامية وأرض الحجرة، كان مقسَّماً من قِبَل المِجَنّ، إلى كتلتين ناصعتين، «بيرة الأسود، باتِسنهوفر» العريقة في

القِدَم والتعتيق ، وفي الحقيقة فإن كل شيء يبدو صائراً إلى الفناء ، وغير ذي معنى ، حين يراه المرء ، وهو يأتي على مدى «س» من الأميال ، وقد انطلق ماراً بالنجم «ع» ، والشمس ترسل أشعتها منذ ملايين السنين ، قبل نبوخذ نصر بوقت طويل ، وقبل آدم وحواء ، وقبل الإكثيوسور «الزاحفة البحرية المنقرضة» وهي ترسل أشعتها الآن في حانة البيرة الصغيرة من خلال زجاج النافذة ، وتتعرَّض هذه الأشعة للتقسيم بفعل مِجَنّ يقال له «بيرة الأسود ، باتسينهولفر» ، إلى كتلتين ، وهي ترقد على المنضدة وعلى أرضية الحجرة ، وتزحف من دون أن تُلاحَظ . وهو يرقد فوقها وهم يعلمون ذلك ، إنها مجنَّحة ، خفيفة ، فائقة الخفة ، بل خفيفة كالنور ، فأنا آتي إلى هنا من فوق السموات .

وكان يقف لدى منصة صبّ المشروبات حيوانان كبيران نموهما مفرط ، متلفّعان بالمناديل . وإنسانان ، ورجلان ، هما فرانتس بيبركوبف وجورج درسكه ، أي بائع صحف وعامل تجليخ قد حُظِر عليه استئناف العمل ، يحافظان على الوضع العمودي ، فوق أطرافهما السفلى ، وهما في السراويل ، ويستندان بذراعيهما إلى الخشب ، وهما اللذان يستكينّان في أنابيب غليظة في صورة معاطف ، وكلٌّ منهما يفكر ، ويلاحظ ويُحِس ، وكلٌّ منهما يخرج بشيء مختلف عن صاحبه . «عند ذلك تستطيع أن تعرف وأن تلاحظ ، دونما حرج ، أنه لم يكن هنا آراس ولا أورغه . فلسنا ، ببساطة ، نحن الذين أنجزنا ذلك ، نريد أن نقول ، دونما حرج ، إننا لم نكن مَنْ أنجزوا ذلك ، أو أنتم/ أو أولئك الذين شهدوا ذلك ، إذ لم يكن هناك نظام ، أو انضباط ، ولم يكن ثمة من يُصدر الأوامر ، وكان هناك ، على الدوام ، واحد في مواجهة الآخر . لقد فرَرْت من الخندق ، وأنتَ معي ، ثم فرَّ الخبثُ بعد ذلك .

كلاّ ، وهنا في البيت ، حين جَدَّ الجدّ وبدأ ما بدأ ، من تُراه كان ذلك الذي تكومَّت جثته؟ كلهم من خلال الدكّة ، ولم يكن ثمة أحد حاضراً على الإطلاق ، بقي هناك ، وأنت الذي رأى ذلك ، وربما كانوا حفنة ، أو ألفاً ، ألا فلتُصبَّها لنفسك» ، ومن هنا ينفخ هذا في بوقه ، وهو يضاهي واحداً من الماشية ذوات القرون ، وإنه لواقع في الشَّرَك «ذلك لأننا تعرضَّنا للغدر والخيانة ، يا فرانتس ، في الثامنة عشرة والتاسعة

عشرة، من المستغِلّين لمناصبهم، ولقد قتلوا روزا، وقتلوا كارل ليبكْنِشت. وهنا ينبغي للناس أن يتماسكوا، وأن يفعلوا شيئاً ما، هلاّ نظرت إلى روسيا، ولينين، هنا يصمدون، وهذا وِثاق. ولكن فلتتربَّصوا» ولا بُدَّ للدم أن يُسْفَك لا بُدَّ للدم أن يُسْفَك، لا بُدَّ للدم أن يسفَك بغزارة. «لست أبالي بذلك، البتَّة. أما الصبر والتربُّص فخليق أن يفضي إلى خراب العالم، وأنتَ معه، على أنني لا أحفل الآن برائحته المُقَبِّلة، مرة أخرى. فبالنسبة ليَّ يتمثل البرهان في أنك لم تنجز هذه المسألة، وهذا يكفيني، لم يتحقق أدنى الأمور، مثل مستوطنة جبل هارتمانز فايلر، التي كثيراً مايُذْكَر لي شيء منها من باب الموعظة، على لسان المُعاق الذي جلس هناك في الأعلى، وأنت لا تعرف هذا، لا تعرف حتى هذا، ثم ماذا–»

ثم ينهض فرانتس قائماً، ويتناول ضماده من المنضدة، ويدسُّه في سترة الرياح، ويسوّي وضعه بالمرور عليه بذراعه الأيسر جيئة وذهاباً، حين يعود إلى منضدته رويداً رويداً: «وهنا أقول ما أقوله دائماً، وإذا فهمت ياكراوزه، ففي وسعك أن تلاحظ، ياريتشارد، أن المسألة لن تنتهي إلى شيء فيما يتعلَّق بقضاياك، لن تفضيَ إلى شيء بهذه الطريقة. ولست أدري هل ينتهي ذلك إلى شيء فيما يتصل بالضماد هنا، ثم إنني لم أقل على الإطلاق، ولكن هذه مسألة أخرى، بلا ريب، السلام على الأرض، كما قيل، هكذا تكون المسألة صحيحة، ومن أراد أن يعمل فعليه أن يعمل، وبالنسبة لألوان العبث نُعَدُّ طيبين فوق ما ينبغي».

ثم يقعد على المقعد الطويل المحاذي للنافذة، ويمسح وجنته، ويغمز بعينه في الحجرة ذات الضوء الساطع، وينتف شعرة من أذنه. وتَصِرُّ الحافلة الكهربائية وهي تنعطف حول الناصية، رقم ٩، أوسترنغ، هرمان بلاتس، فيندن بروخ بلاتس، محطة تريبتوف، جسر وارسو، ميدان بالتن، شارع كنيبروديس، شارع شوهاوْزر المشجَّر، محطة شتيتين، كنيسة هيدفيغ، بوابة هالّه، ميدان هرمان، ويستند المضيف إلى صنبور البيرة المصنوع من النحاس الأصفر، يُمَصْمِص حشوة ضرسه الجديدة الواقعة في الفك السفليّ، التي يجد لها رائحة الصيدلية ونكهتها، ولا بد لإميلي الصغيرة أن تقضي الصيف، مرة أخرى في الريف، أو تذهب إلى تسّينوفيتس

ومستعمرة الإجازة، وها هي ذي الطفلة تزمجر من جديد متذمّرة، وتلتقي عيناها من جديد بالمنظر الطبيعي الأخضر الذي يقع على انحراف، فهو يصلح وضعه، ويكون هناك، في هذه الأثناء شيء من الخوف، وهو لا يستطيع أن يرى شيئاً منحرفاً. وسمكات بسمارك من نوع الهيرِنغ في صلصة التوابل، واللحم الطريّ من دون عظام ناتئة وسمك الرنجه الملفوف، وصلصة التوابل طرية مع الخيار المخلّل، سمك الهيرنغ بالهلام، قطع كبيرة، وسمكات غضة، وسمك الهيرينغ المشوي.

وكانت الكلمات، والأمواج المُدَوِّية. والأمواج الصاخبة، حافلةً بالمضمون، تتأرجح جيئةً وذهاباً عبر الحجرة، من حنجرة دريسكه، المتلعثم الذي يتسم ناظراً إلى أرض الحجرة: «فأنا أتمنى لك الكثير من الحظ والتوفيق، يا فرانتس، كما يقول القس، في طريق حياتك الجديد، وعندما نزحف، بناءً على هذا، في كانون الثاني، إلى فريدريشز فيلده، إلى كارل وروزا، لا تشاركنا في هذه المرة، كشأنك في العادة» فدع هذا يتأتئ ويُفَأفِئ، فإني أبيع جرائدي.

ويبتسم المضيف، حين يخلو كل منهما إلى صاحبه، لفرانتس، فيمدُّ هذا ساقيه على النحو المريح، تحت المنضدة: «لماذا، فيما ترى، ياهينشكه، لماذا يَفِرُّ هؤلاء؟ أهي شارة الذراع؟ إنهم يأتون بالدعم والمساندة!» وهذا لا يُمسك عن ذلك. على أنهم سوف يضربون هذا فيخرجوه هنا، ولا بُدَّ من سفك الدماء، لا بُدَّ من سفك الدماء، وتعاقُب الخطوب.

ويتذوَّق المضيف مذاق حشوة ضرسه، لا بُدَّ للمرء أن يزيد الحَسّونَ قرباً من النافذة، فأمثال هذه الحيوانات الضئيلة تريد أيضاً شيئاً من الضوء، ويساعده فرانتس فيدق مسماراً وراء منضدة المحل، ويأتي المضيف، من الجدار الآخر، بالفلاح الذي يمسك بالحيوان الضئيل الذي يرفرف بجناحيه. «الجوُّ اليوم مكفهرٌ حقاً، وثمة منازل مفرطة في الارتفاع». ويقف فرانتس على الكرسيّ، ويتعلّق بالفلاح، ثم ينزل، ويُصَفِّر ويرفع سبابته، ويهمس: «الآن لا يدخل علينا أحد. على أن المرء اعتاد ذلك وأَلِفه، فهو حسّون، حسّون مؤنث، وكلاهما ساكن أبداً، يومئ كلٌّ منهما لصاحبه ويرفع الطرف، ويبتسم.

فرانتس رجل من المقاس الكبير
وهو يعرف ما يدين به لنفسه

وفي المساء يُقْذَف بفرانتس خارجاً، بمعنى الكلمة، عند هِنْشكة، وكان يمشي في خطوات قصيرة، وحيداً، في الساعة التاسعة، وينظر إلى الطائر الذي كان قد دسَّ رأسه تحت جناحه، قاعداً في الركن فوق القضيب، لئلاّ يسقط طائره الضئيل وهو نائم، ويهمس فرانتس إلى المضيف قائلاً: «ماذا تقول للحيوان الضئيل الذي ينام عندك في غمرة الجَلَبة، ماذا تقول، هذا رائع، ولا بُدَّ أن يكون هذا متعَباً، أَوَ يُحَسِن من حاله الدخان الكثير هنا، أيَحَسِّن رئته الصغيرة؟» «هذا لا يعرف شيئاً آخر على الإطلاق، فهنا يسود الدخان على الدوام، في المقصف، على أنه مازال اليوم ذا طبقة رقيقة».

ثم يقعد فرانتس: «كلاّ، لن أدخن اليوم، وإلاّ فسنزداد كثافة، ثم نفتح الباب هنيهة بعد ذلك، ولن يخرج» ويقعد جورج دريسكه وريتشاد الابن وثلاثة آخرون، متفرقين، إلى منضدة واحدة، وكلٌ منهم في مواجهة الآخر، ويجلس معهم اثنان لا يعرفهم فرانتس، ولا يوجد أكثر من هؤلاء في المقصف، وحين يدخل فرانتس يكون ثمة مشهد مسرحي، وحديث وسباب وشتائم، وحين يُفْتَح الباب يخلدون إلى الهدوء على الفور. أما الرجلان الجديدان فيرسلان نظراتهما في كثير من الأحيان إلى فرانتس، وينحنيان على المنضدة ثم يرتدان إلى الخلف بجرأة، ويتبادلان عبارات الإعجاب فيما بينهما، وعندما تغمز العينان الجميلتان وعندما تلتمع الأقداح المترعة، هنالك يطرأ من جديد، من جديد، مرة أخرى، سبب للشرب.

ويتوجه هينشكه، المضيف الأصلع، إلى صنبور البيرة وحوض الغسيل ليمارس عمله، ولا يعود يخرج كشأنه في العادة، إذ يتوافر لديه على الدوام ما يشتغل به لتمضية الوقت.

ثم تعلو الأصوات دفعة واحدة بالحديث على المائدة المجاورة، ويكون أحد الرجلين الجديدين هو الذي يمسك بزمام الحديث، فهذا يريد أن يغنّي، إذ يشعر بأن

الجوّ هنا هادئ فوق ما ينبغي. كما أنه لا يوجد هنا عازف للبيانو، ويبعث هينشكه بصوته إلى مدى بعيد قائلاً «لمن يكون ذلك يا ترى، فإن المحل لا يقدِّم هذا» وما تريد أن تغنيه يعرفه فرانتس من قبل، فإما نشيد «الأمميّة» وإما نشيد «الإخوة، في سبيل النور والحرية» إذا لم يكن لديهم شيء جديد، ويكون البدء والانطلاق، وإذا الموجودون في الجهة المقابلة ينشدون نشيد الأمّمية.

ويعض فرانتس على شفتيه، ويقول في نفسه: إنهم يعنونني، وفي وسعهم أن ينالوا ما لم يفرطوا كل هذا الإفراط في التدخين، وإذا غنوا من دون تدخين، فهذا يلحق الضرر بالحيوان الضئيل. أمّا أن الشيخ جورج دريسكه لم يكن يجالس مثل هذا الرهط من الأحداث الأغرار، ولم يكن يصل إليهم مجرد وصول، فذلك ما لم يكن يحسب أنه ممكن، وكان عمه شتيفل، الشيخ متزوِّجاً، وهو عم صادق أمين، وكان يقعد مع الشباب الغض الإهاب، يستمع إلى ثرثرتهم، ويصيح أحد الحاضرَيْن الجدد: «ماذا؟ هل راقت لك الأغنية، أيها الزميل؟» لقد راقت لي، وإن لكم لأصواتاً وأيَّ أصوات» «ما من شك في أنك تستطيع أن تشارك في الغناء» «أنا أفضّل أن آكل، وعندما أفرغ من الطعام أشارك في الغناء، أو أنشد أغنية ما» «اتفقنا».

ويستأنفان الحديث، أما فرانتس فيأكل ويشرب، على راحته، ويفكر في لينا، وفي أن الطائر الصغير لا يسقط على قفاه في نومه، وينظر إلى مسافة بعيدة ليرى من تُراه يدخن بالغليون. أمّا صندوقه اليوم فقد امتلأ، ولكن الجوَّ كان بارداً. ومن الجهة المقابلة كان ثمة أناس يتابعون على الدوام الكيفية التي يأكل بها. لا شك في أن هؤلاء يساورهم الخوف، وإني لخليق أن أَشْرَقَ، لقد كان هناك ذات مرة رجل أكل سندويشاً من القديد، وحين بات في معدته، ثاب إلى نفسه، وخرج مرة أخرى، إلى عنقه، وقال: «لم يكن فيه خردل! وعند ذلك فحسب نزل إلى أسفل، نزوله الصحيح. وهذا ما يشكل سندويش القديد الصحيح الذي يُعِدُّه الأبوان الطيِّبان، وحين يفرغ فرانتس من هذا، ويشرب عليه بيرته ينادي، على النحو الصحيح من مسافة بعيدة، قائلاً: «والآن، أيها الزميل، كيف كان هذا، هل ترمع أن تنشدنا الآن شيئاً ما؟» إن هؤلاء ليشكلون اتحاداً للإنشاد، وفي وسعنا أن ندخل فيه، فعندما يغنون

لا يدخنون . أمّا أنا فلست بالمتلهّف ، وما أعِدُ به فسوف أَفي به ، ويفكر فرانتس في الأمر مليّاً ، إذ يمسح أنفه الذي يقطر عندما يدخل المرء أجواءً دافئة ، على أن الخروج لا يجدي ، وهو يفكر أين تبقى لينا ، وهل يفترض أن أبيح لنفسي الاستمتاع بزوج من سندويشات القديد ، غير أنني أزداد وزناً إلى حد مفرط ، وما الذي يفترض في المرء أن ينشِدَهم ، فإنهم لا يفهمون شيئاً من الحياة ، ولكن الوعد هو الوعد ، وفجأة تتيه في أنحاء دماغه جملة ، سطر ، هو قصيدة تعلّمها في السجن ولقد كرّروها عليه مراراً ، وكانت تسري في كل خلاياه ، وهي محظورة في اللحظة الراهنة ، لقد بات رأسه دافئاً من جراء الحرارة واحمرَّ وبات منكّساً ، فهو جادّ مترع بالأفكار ، وهو يقول ، ويده على وعاء نصف الليتر: «أما القصيدة فأنا أعرف واحدة ، من السجن ، وضعها واحد من نزلائه يقال له ، انتظر ، كيف كان اسمه ، لقد كان اسمه دوْهمس» .

كان هذا هو ، وقد خرج ، غير أنها قصيدة جميلة ، وهو يقعد وحده إلى المنضدة ، وهينشكه وراء حوض غسيله ، والآخرون يُصغون ، ولا يدخل أحد ، وماسورة المدفع تفرقع ، وينشد فرانتس وقد نصب رأسه عالياً ، قصيدة نظمها دوهْمس ، وإذا الزنزانة حاضرة ، وفِناء النزهة ، وهو يستطيع أن يحتملها دونما حرج ، وأي ضرب من الفتيان يحتمَل أن يستكين فيها ، فهو يسير الآن بنفسه في فِناء النزهة ، وهذا أكثر مما يستطيعه الذين هم هنا الآن ، وماذا يعرف هؤلاء عن الحياة .

ويقول: إذا أردتَ ، أيها الإنسان ، أن تكون ذاتاً بشرية ، فكّر في ذلك بدقّة قبل أن تدع نفسك تُنْقَل من قِبَل المرأة الحكيمة إلى ضوء النهار! فالأرض وَكْر باعث للتفجُّع! وصدِّق شاعر هذه الأبيات الذي يظل ، في كثير من الأحيان يلوك هذا الطعام المملّ السخيف القاسي! وهو شاهد من فاوست لغوته: «الإنسان لا يُسَرُّ بحياته في العادة إلاّ وهو جنين! . . . وهنا تكون الدولة التي هي بمثابة الأب الطيب ، فهو الذي يقودك من الأيام الأولى إلى مرحلة متأخرة ، مثلما يقاد الأطفال من حزام التدريب على المشي .

وهي تقرصك وتهزُّك هزّاً عنيفاً ، بعد ساعات الضيق والكرب ، بموادّ القانون

وفقراته وبالمحظورات! أمّا وصيَّتُها الأولى فهي: ياابن آدم، ادفع! وأما الثانية فهي: احفظ لسانك! وبذلك تعيش في الغسق، في حالة الإعاقة، أو إحداث الشلل، والتمس لنفسك من حين إلى آخر دفن الملل الجامد، في الحانة، في البيرة، وبالتالي، في الخمر، وعندئذٍ يتعطّل القَطّ على الفور. وفي هذه الأثناء تنبئ عن نفسها السنون، ويستنزف ما تعدو عليه قوةَ الشعر، والطقطقةُ والتداعي اللذان يثيران الهواجس والمخاوف، في الأخشاب التي يقوم عليها البناء، وتسترخي الأوصال وتغدو واهنة مهيضة، ذابلة، ويتخمَّر العقل وتعتريه الحموضة في الدماغ، وينتاب الأفكارَ والخواطرَ الهُزال والتضاؤل المُطَّردان، وجملة القول أنك تلاحِظ أَنْ قد حَلَّ الخريف الآن، فتطرح الملعقة جانباً وتموت. والآن أسألك، أيها الصديق، وأنا أرتجف، والإنسان، وما الحياة: إنهما ليسا بأنفس السلع وأعلاها شأناً غير أني أقول: إنهما يضاهيان سُلَّماً حلزونياً ضِّيقاً، من الأعلى إلى الأسفل، وهكذا دوالَيْك».

أخلدوا إلى السكون جميعاً، وبعد هنيهة من التوقُّف يقول فرانتس: «لقد أنجز هذا ذلك الذي جاء من هانوفر، غير أني احتفظت به. جميل، أيُّ حياة هذه، ألا إنها لحياة مريرة».

ويأتي الجواب من الجهة المقابلة: «ألا لاحظ هذا فيما يتعلق بالدولة، الدولة التي هي بمثابة الأب الطيب، وهي مَنْ يقودك كما يقاد الأطفال بأحزمة التدريب على المشي. واحفظ ذلك عن ظهر قلب، أيها الزميل، وبذلك لا نكون قد فرغنا من المسألة» وكان فرانتس مازال يدعم رأسه ليظل منتصباً، والقصيدة ما زالت حاضرة: «أجل، فهؤلاء لا يحظوْن بالمَحار والكافيار، ولا نحظى به نحن، ولا بُدَّ للمرء أن يكسب قوته، وأن يكون ثقيل الوطأة، مستعصياً على الشيطان، المسكين، ولا بُدَّ للمرء أن يكون مسروراً، حين يكون له ساقان، ويكون في الخارج». على أن هؤلاء يواصلون الاندفاع من الجهة المقابلة، ولا ريب في أن الفتى سيستيقظ: «في وسع المرء أن يكسب قوته بأساليب وطرق شتى. ففي روسيا سبق، فيما مضى، وجود مخبرين من رجال المباحث، وقد كسِب هؤلاء الكثير من المال مع من كسبوا». ثم إن الجديد الآخر ينفخ في البوق قائلاً: «هنا يوجد بعدُ لدينا، أناس في الأعلى، عند المَعالِف،

ولقد خان هؤلاء الطبقة العاملة لصالح الرأسماليين، ودفعت لهم في مقابل ذلك، الأموال» «ليسوا بأفضل من المومسات» «بل هم أسوأ».

ويفكر فرانتس في قصيدته، وفيما يصنعه الأولاء الطيبون هنا في الخارج، ويرى أنه سيكون هنا الكثيرون من الجُدُد، إذ يوجد في كل يوم عمليات نقل، إذ ينادون قائلين: «فلننطلق ذات مرة! وكيف تَرَوْن أغنيتنا؟ ليس لدينا موسيقى، الوعد وعدم الوفاء به» أغنية أخرى، يمكن أن تكون لديكم: فأنا أَعِد وأفي بوعدي. الترطيب أَوَّلاً.

ويتناول فرانتس وعاء نصف ليتره الجديد، ويتجرَّع جرعة، ماذا ينبغي لي أن أغنّي، وفي اللحظة الراهنة يرى نفسه واقفاً في الفِناء، وأشياء ما، كائنة ما كانت، تزمجر باتجاه جدران الفناء، وما يلفِت أنظار المرء اليوم، ما الذي كان يا تُرى؟ ويغني بروح المسالم وعلى رَيْثٍ، مع انسياب ذلك في فمه: «كان لي رفيق، لا وجود لمن هو أفضل منه. وكانت الطبول تدق إيذاناً بالشروع في القتال، وكان يسير إلى جانبي، وعلى إيقاع مماثل في خطواته، على إيقاع مماثل في خطواته، على إيقاع مماثل في خطواته». ثم تكون فترة توقُّف، وينشد الشطر الثاني: «وأقبلت رصاصة تطير، موجَّهةً نحوي، أو موجَّهةً نحوك، فاقتلعته، فإذا هو راقد عند قَدَمَيّ، كأنه جزء مني. » ثم ينشد بصوت عالٍ، البيت الأخير: «وما زال يريد أن يمدَّ يده نحوي، لأنني أنا الذي كنت دعوته، لا أستطيع أن أصافحك، فأبقَ أنت في حياتك الخالدة، يارفيقي الطيِّب، يارفيقي الطيب».

وكان يَنشد، بصوتٍ عالٍ، محمولاً على أجنحة، وقد ارتد بجسمه إلى الخلف، آخر الأمر، شجاعاً وشبعان، وفي الختام تغلَّبوا على أنذهالهم وباتوا يشاركون في الصراخ والضرب على المائدة ويزعقون، ويصنعون مشاهد مسرحية: «يارفيقي الطيب». ولكن فرانتس يخطر بباله، بينما يغني، ما كان أراد أن ينشده في الحقيقة. هنالك كان قد وقف في الفناء، وبات الآن راضياً إذ عثر على ذلك، وما عاد يهمه أين يكون، فقد انهمك الآن في الفِناء، ولا بُدَّ لهذا أن يخرج، ولا بُدَّ له أن يغنّي الأغنية، واليهود حاضرون، وهم يتشاجرون، ماذا كان اسم البولونيّ،

والرجل الشيخ الأنيق، الرقة والدماثة والامتنان، وهو يقتحم الحانة بالقوة: «إنه يطلق نداءً له دويٌّ كقصف الرعود، مثل صليل السيوف واصطخاب الأمواج، إلى الرائن، إلى الراين، إلى الراين الألماني، نحن جميعاً نريد أن نكون حُماةً! أَيْ وطني العزيز فليقِرَّ قرارُك، ياوطني العزيز، ولتُخْلِد إلى الهدوء، فالحراسة ثابتة راسخة، مخلصة، الحراسة عند الراين!» لقد خلَّفنا هذا كله وراءنا، وهذا شيء نعرفه، والآن نقعد ههنا، والحياة جميلة، جميلة، وكل شيء جميل.

وعلى أثر ذلك يخلدون إلى السكون والهدوء تماماً، وكان الجديد الأَوّل يهدّئ ثائرتهم، فيدعون المسألة تمرُّ مرور الكرام، أما دريسكه فيقعد محنيَّ الظهر، يحكُّ رأسه، ويبرز المضيف من وراء منصة صب الخمور، يتشمَّم الروائح ويقعد إلى المائدة إلى جانب فرانتس. ويحيي فرانتس، في نهاية أغنيته، الحياة كلها، ويغسل وعاء نصف الليتر الذي كان لديه، قائلاً: «بارك الله فيكم»، ويضرب بيده على المنضدة، ويشرق وجهه، كل شيء على ما يرام، لقد شبع، ولكن أين تبقى لينا فحسب، ويتحسس وجهه الممتلئ، إنه رجل قويٌّ، شديد البأس، مكتنز اللحم مع طبقة من الدهن فوقه، ولا يجيب أحد. ويسود الصمت.

وكان واحد منهم في الجهة المقابلة يرفع ساقه فوق الكرسي، ويُحْكم عقد أزرار سترته، ويشد ذَيْل السترة، إنه رجل منتصب القامة، طويل، جديد، ولدينا، ههنا، السلطة، وفي الزحف الاستعراضيّ، ينتقل إلى فرانتس في الجهة المقابلة، وسوف تأتيه ضربة على رأسه، وهذا يعني، حين يصل إليه الجديد. ويقوم هذا بوثبة ويقعد بطريقة ركوب المطايا، إلى مائدة فرانتس، وينظر فرانتس إلى هذا، وينتظر: «ماذا، أيها الآدميّ. ستظل توجد، بعدُ كراسيٌّ هنا، في الحانة»، ويُطِلُّ هذا من عَلٍ على طبق فرانتس: «ماذا أكلت هنا؟» «أقول إنه سيظل يوجد، بلا ريب، كراسيٌّ هناً، في الحانة، إذا كانت لك عينان، ألا فقل لي، لا بُدَّ أنهم غسَّلوك وأنت طفل، بماء ساخن فوق ما ينبغي، فقُلْ لي» «هذا ما لا نتحدث فيه على الإطلاق. وأريد أن أعرف ماذا أكلت» «سندويشات بالجبن، ولحم ثور مخصيّ. ومازال هنا سندويشات لحم البقر، لك، لحم البقر أنت تنزل الآن عن المائدة، إذا لم تتحلَّ

بآداب اللياقة» «أمّا أنه يوجد هنا سندويشات بالجبن فذلك ما أشمّه وحدي، ولكن من أين». ولكن فرانتس، ذا الأذنين الحمراوين ينهض قائماً، كما ينهض القاعدون إلى المائدة الأخرى، ويلامس فرانتس منضدته، ويَقْلِبُها الجديد مع الطبق ونصف الليتر ووعاء المُسْتَرَد على الأرض. فإذا الطبق مكسور، وكان هينكشه قد توقَّع ذلك، فإذا هو يطأ الشظايا بقدمه: «هذا شيء لا يمكن تصوُّره، المشاجرات شيء لا وجود له عندي، يُمارَس الضرب في حانتي، ومن لم يحافظ على السلام يُطْرَد» وإذا الطويل ينهض من جديد على قدميه، ويزيح المضيف جانباً: «هل ابتعدت يا رجل، ياهينشكه، هنا لا يوجد مشاجرة، نحن نختصِم، وحين يكسر امرؤٌ شيئاً ما فلا بُدَّ له أن يدفع ثمنه» وقال فرانتس في نفسه: «لقد نزلت على الحكم، وكان قد التصق بالنافذة وراء أعواد مصاريعها الخشبية، هنا أنطلق، مالم يمسّوني فحسب، فأنا طيب تجاه الآخرين جميعاً، ولكن سيكون هناك سوء حظ إذا لم يكن هذا بالغ الخَرَق والغباء بحيث يلامسني.

ويرفع الطويل بنطاله عالياً، وبذلك يبدأ هذا، ويرى فرانتس شيئاً يوشك أن يأتي، ماذا سيفعل دريسكه الآن، إنه لا يزيد على أن يقف هنا، ويرى هذا. «أورغه، من يكون هذا الغلام التافه الذي لا يساوي فلساً، ومن أين دبَّرت لنفسك ابن اللئيمة هذا الذي تُجَرْجِرُه؟» وينقِّب الطويل في سراويله فتنزلق وتفلت من أصابعه، ينبغي له أن يطلب أن تخاط له أزرار جديدة، ويتهكَّم الطويل على المضيف: «دعوه يتحدث أبداً. فالفاشيون يستطيعون أن يتحدَّثوا، على أن من يقولونه يتمتعون لدينا بحرية الكلام» ويُلَوِّح دريسكه بذراعه اليسرى من جهة الخلف: «ماذا، يا فرانتس، أنا لم أتدخَّل، فانظر ماذا تجرُّ على نفسك بقضاياك وبأغانيك، كلاّ، أنا لا أتدخَّل، فإن شيئاً كهذا لم يسبق له وجود بعدُ هنا».

ويدوّي نداء كقصف العود، ياللعجب، الأغنية، في الفِناء، وهنا يريد هؤلاء أن يمارسوا التخمين والتكهُّن، ويريدون المشاركة في الحديث.

«فاشيّ، كلب سفّاك للدماء!» ويزمجر الطويل أمام فرانتس: «فأخرج بالعصابة! ماذا، هل سيكون ذلك قريباً؟».

الآن يكون الانطلاق، إنهم يريدون الانطلاق نحوي وهم أربعة، وظللت وظهري إلى النافذة، ومعهم أولاً كرسيّ. «فلتخرج بالعصابة! وسحبتها من جيبه، وأطالب الفتى بالعصابة» والآخرون معه. وكان فرانتس يمسك بالكرسيّ في يديه. فأمسك بهذا ذات مرة، إمساكاً محكماً، ثم أسحبه فأُحَرِّره.

وكان المضيف يمسك بالطويل من جهة الخلف، متوسِّلاً إليه: «والآن فاذهب، يابيبركوبف، الآن، على الفور، انصرف عني فحسب» هذا الرجل يساوره الخوف على دكانه، وما من شك في أنه لم يؤمِّن على ألواح الزجاج، كلاّ، وهذا صادر عني «ياهنشكه، هناك، بالطبع، الكثير جداً من الحانات في برلين، وقد كنت أنتظر لينا فحسب، ولكن هل تقف إلى جانب هؤلاء فحسب؟ ولماذا يندفع بعضهم إلى الخارج، حيث أقعد كل يوم هنا، وكلا الجديدَيْن اليوم هنا، في المساء، أول مرة» وكان المضيف قد ردَّ الطويل إلى الوراء، ويقول الجديد الآخر وهو يبصق: «لأنك فاشيّ، وشارة الذراع في جيبك، فأنت إنما تحمل شارة الصليب المعكوف».

«إني لكذلك، ولقد صرَّحت بهذا لأورغه دريسكه، ولماذا. هذا شيء لا تفهمونه ومن أجل ذلك تزمجرون» «ماذا، أنتَ الذي زمجر، الحراسة على الراين!» «عندما تحدثون جَلَبة، كتلك التي تحدثونها الآن، ويقعد واحد منكم على مائدتي، بهذه الطريقة لن يكون هدوء على الإطلاق، في هذه الدنيا، أما بهذه الطريقة فلا، ولا بُدَّ أن يسود الهدوء، لكي يستطيع المرء أن يعمل ويعيش، عمال المصانع والتجار، والناس جميعاً، ولكي يسود بذلك النظام، وإلاّ فلن يستطيع المرء أن يعمل، ومِنْ أين إذاً تريدون أن تعيشوا، أيها الفَشَّارون المتبجِّحون، إنكم لتُسْكِرون أنفسكم، بلا ريب، بالعبارات ذات البلاغة، وما كنتم لتستطيعوا سوى أن تجْلِبوا على الناس وتثيروا أحقادهم وضغائنهم، إلى أن يصبحوا ذوي أحقاد وضغائن ويضربوكم، وإذا سمح واحد منكم لنفسه بالمَشْي على رؤوس أصابع رجليه؟».

وفجأة يزمجر هو أيضاً، ما الذي تفتَّح فيه، وبات لا يتدفَّق إلاّ هكذا، لقد أطلقه، وثمة تيار من الدم، وهو ينشط خلال عينه: «أيها المجرمون، أيها الأوغاد، إنكم لا تعلمون حقاً ما تفعلون، ولا بُدَّ للمرء أن يضربكم ليخرج الديدان من رؤوسكم،

إنكم لتخرِّبون العالم بأسره، انتبهوا لكيلا تشهدوا شيئاً ما، أيها السفّاكون للدماء، الأنذال». .

وكان شيء ما يتفجَّر فيه وكان يقبع في سجن تيغل، إن الحياة لمفزِعة، فأيُّ حياة هذه، إن هذا الذي يَرِد في الأغنية ليعرفها، مثلما حدث لي، ويا إيدا، لا تفكري في ذلك.

وكان يواصل زمجرته في موقف يقف له شعر الرأس، ما الذي ينفتح هنا، وإذا هو يمانع ويقاوم، ويدوسه، فلا بُدَّ من الزمجرة، والسحق بالزمجرة، والحانة تُرْعِد، وهنشكه يقف أمامه عند المنضدة، ولا يجرؤ على التقدُّم منه، وهكذا يقف هذا هنا، وهكذا يزمجر بهذا، لذاك من العنق، مختلطاً كلامُه بعضه ببعض، ويقول وهو يرغي ويُزْبد: «هنا لا يكون لديك شيء تقوله لي، هنا لا يستطيع أحد أن يأتي ويقول لي شيئاً، كلاّ، ولا فرد، وهذا ما نعرفه نحن جميعاً معرفة أفضل، ومن أجل ذلك لم تكن في الخارج، وكنا نرقد في الخارج، أمّا أنكم تستفزّون، أيها المحرِّضون، فإنه لا بُدَّ أن يسود الهدوء، أقول: الهدوء، وفي وسعكم أن تدوِّنوا هذا خلف آذانكم، الهدوء، ولا شيء من بعده «أجل، هذه هي المسألة، وإلى هنا وصلنا، وهذا يصح حتى في أدقّ التفاصيل» ومَنْ يَأْتِ الآن ويشعلْ ثورة، ولا يحقق هدوءً، فأولئك الذين ينبغي أن يعلَّقوا على المشانق، على طول شارعٍ بأسره «على الأعمدة السود، أعمدة البرق، وثمة سلسلة بأكملها في الطريق المبلَّط بالصلصال الغنيّ بالكلس، لست أدري»، ولسوف يؤمن هؤلاء بذلك عندما يَتَدَلْدَلون من أعواد المشانق، وعند ذلك قد تستطيعون أن تلاحظوا هذا وما تنجزون وتحققون، أيها المجرمون. أجل وبذلك يسود الهدوء، ويخلدون إلى السكون، وهذا هو الشيء الوحيد الحقيقيّ، الذي سوف نشهده».

وكان فرانتس بيبركوبف يمثِّل غضباً جنونيّاً، إذ كان يطلق صراخاً كنعيق الغربان، شأن الأعمى، من حنجرته، وكانت نظرته زجاجّية، وكان وجهه أزرق، مُتَرهِّلاً، وكان يبصق، وكانت يداه تتوهَّجان، وإذ بالرجل خارج عن طوره، وفي هذه الأثناء كان يُنْشِب أظفاره في الكرسيّ، ثم ما يلبث أن يتناولها وينهال بها ضرباً.

انتبهوا، خطر متأخر، أَخْلوا الشارع، الحوانيت، النار، النار، النار.

وفي هذه الأثناء كان الرجل الذي يقف هنا ويزمجر، يسمع نفسه، عن بُعْد، وينظر إلى نفسه والمنازل، المنازل، توشك أن تنهار من جديد، والأسقف ترشك أن تنقضّ عليه، هذا شيء لا وجود له، ولا ينبغي لهؤلاء أن يأتوني به، ولن يفلح المجرمون، فنحن في حاجة إلى الهدوء.

وكانٍ في نفسه شيء من التيه: فسوف يأتي الانطلاق عمّا قريب، وسوف أفعل شيئاً، لن أمْسِك بتلابيب أحدهم، كلاّ، فانا لا ألبث أن أخرَّ مغشيّاً عليّ، وأسقط، وما هي إلاّ لَحظة أخرى، لحظة، وإذ بي أقول في نفسي إن العالم هادئ، يسوده النظام، وفي غَسَقه يتولاّه الفزع، فثمة شيء ما ليس على ما يرام في هذا العالم، والذين يقفون في الجهة المقابلة، هناك، مفزعون للغاية، وهو يدرك ذلك عن طريق العرافة والتكهن.

ولكن كان يعيش ذات مرة، في الفردوس اثنان من البشر آدم وحواء، وكان الفردوس جنة عدنٍ الرائعة، وكانت الطير والبهائم ترتَعْ فيها، هنا وهناك.

أجل، إذ لم يكن الرجل مجنوناً. لقد أخلدوا إلى السكون، وحتى الطويل يتشمَّم من الوراء، فحسب، من خلال أنفه، ويغمز بعينه لدريسكه، هنا يُفَضَّل أن نقعد إلى المائدة، ونزمع أن نطلب أن يُسْرَد علينا شيء مختلف. ويتلعثم دريسكه في جو الهدوء: «والآن، عادت أحوالك على ما يرام، يا فرانتس، الآن بات في وسعك أن تدع الكرسيّ، فقد تحدثت الآن بما يكفي» وفي هذه الأثناء تهدأ حِدّة الموقف، وتنقشع السحابة، الحمد لله، إنها تنقشع. ويشحب وجهه، ويُنَكِّس رأسه.

إنهم يقفون عند مائدتهم، أما الطويل فيقعد ويشرب، وأمّا أرباب صناعة الأخشاب فيُلِحّون على بريقهم، كما أن كروب يدع أصحاب المعاشات التقاعدية التابعين له يموتون من الجوع، وثمة مليون ونصف المليون من العاطلين عن العمل، وخلال خمسة عشرة يوماً يزدادون بمقدار ٢٢٦/٠٠٠ نسمة.

وسقط الكرسيّ من يد فرانتس، إذ أصبحت يده رخوة، وكان صوته يبدو

عادياً مألوفاً، وما زال يمسك برأسه المنكّس، وما عادوا يثيرون ثائرته: «أنا ذاهب، أتمنى لكم الاستمتاع والسرور، من جانبي أما ما يدور في رؤوسكم فلا شأن لي به».

ويستمعون من دون جواب. ألا فدَعوا الأوغاد الجديرين بالازدراء من أهل المروق والارتداد، يلجأون، تحت تأثير استحسان البورجوازية، والشوفينيين الاشتراكيين، يطعنون في دستور الحكومة الشيوعية فهذا يسرِّع ويعمِّق خروج العمال الثوريين في أوروبا على طاعة أولياء الأمور، وهكذا دواليك، وذلك أن جماهير الطبقات المقهورة لنا.

ويتناول فرانتس قبعته: «يؤسفني، يا أورغهِ أننا تباعدنا هكذا، ومن جرّاء ماذا؟» ويمدُّ إليه يده، فلا يتناولها دريسكه، ويقعد على كرسيه، ولا بد للدم أن يسفك، بما فيه الكفاية.

«إذاً، فأنا ذاهب. وما الذي يترتَّب عليَّ سرده، ياهينشكه، والكأس والطبق؟!»

هذا نظامه، للأطفال البالغ عددهم أربعة عشر فنجان واحد من الخزف الصيني، إنه مرسوم الرفاهيّة الصادر عن الوزير المركزي هيرتسيفر: أمّا نشر هذا المرسوم فيترتَّب العدول عنه، ومع النظر بعين الاعتبار إلى ضآلة الوسائل المتوافرة لديّ لا ترد في الاعتبار، مع ذلك، إلاّ أمثال هذه الحالات التي لا يصل فيها عدد الأطفال إلى رقم مرتفع على وجه الخصوص تماماً– مثل العدد ١٢، فحسب، بل ترد، تلك الحالات التي تمثِّل فيها التربية المبنية على العناية والحرص، للأطفال، بالنظر إلى الأحوال الاقتصادية تضحية خصوصية تماماً، ومع ذلك فهي تحدث بطريقة تعدُّ أنموذجية.

ويزمجر واحد من الحضور وراء فرانتس، قائلاً: «المجدُ لك وأنت في إكليل النصر، والبطاطا بذنب سمك الهيرينغ» هل ينبغي لي أن أزيل المُاسترَد عن المؤخرة. هذا الفتى، وا أسفاه، إذا لم أظفر به بين أصابعي. وكان فرانتس يعتمر قبعته ويخطر بباله سوق الحطابين، والغلمان من أهل الشذوذ الجنسي، ومنصَب المجلات العائد إلى الرجل الأشيَب، ولم يشأ، بل كان يتردَّد، وينصرف.

إنه في الخارج. وعلى نحوٍ مباشر، أمام المحل تقف لينا التي جاءت لتوِّها.

ويمشي مِشية بطيئة. وأحبُّ الأمور إليه أن يعود أدراجه ويشرح لهؤلاء مقدار إيغاله في الجنون، وسوف يتم إيصالهم إلى السُّكْر، وهم جميعاً ليسوا كذلك على الإطلاق، وحتى الطويل، الجسور الطويل اللسان، الذي يندفع محدثاً صوتاً كصوت الرطل إذ يهوي على الأرض، ليس كذلك. إنهم لا يعرفون فحسب أين يذهبون بالدم الكثير الذي أُهْرِق، وإن لهؤلاء لدماً بالغ الحرارة، ولو كان هؤلاء في الخارج، في مدينة تيغِل، أو فيما وراءها، لانفتح لهم ضوء يعدل مائة شمعة.

وكان يتأبَّط ذراع لينا، وينظر حواليه إلى الشارع المظلم، لقد كان من الممكن إيقاد المزيد من المصابيح، وماذا يبتغي الناس من امرئ، أوَّلاً ذوو الشذوذ الجنسي، الذين لا يعنون المرء في شيء، الخمر. ماذا يعنيني من هذا كله، فلينطلقوا برَوْثهم وحده، ينبغي لهم أن يَدَعوا المرء يقعد حيث يقعد، إنه لا يستطيع حتى أن يشرب بيرته بهدوء، إلى النهاية، وأحبُّ الأمور إليه أن يعود أدراجه ويضرب للفتى هينشكه كل محله بحيث يتحوَّل إلى كتلة من الأنقاض. ويتراقص الوميض من جديد، ويشتد النبض في عينَيْ فرانتس، وتُغلظ جبهته وأنفه، غير أن هذا ينحَسر، ويستند إلى لينا، ويحكها من معصمها، فتبتسم: «في وسعك أن تفعل هذا دونما حَرَج، يا فرانتس، هذه الحكَّة اليسيرة الجميلة منك».

«الآن نذهب في جولة، يالينا، ولن ندخل دكانه المُنْتِن، فلقد حَظيت من ذلك بما يكفي، إنهم يدخنون ويدخنون، بينما يقعد هنا حسّون صغير، وهذا يمكن أن يلقى حتفه ببساطة، غير أن هذا لا يشكل شيئاً بالنسبة إليهم، وهو يصرِّح لها إلى أي حدٍّ كان على حق لتوِّه، وهي توافقه الرأي كذلك، ويصعدان إلى الحافلة الكهربائية وينطلقان نازلين إلى جسر يالوفيتس، في قاعة الرقص التي تحمل اسم فالترشِن. وعلى هذا فقد كان كلما ذهب ووقف، انطلق، ولم يكن يجوز للينا حتى أن تبدِّل ملابسها، وهي فتاة بالغة الحُسْن، ثم إن البدينة تستخرج، وهي في الحافلة الكهربائية، حين ينطلقان، تذكرة صغيرة من حقيبتها، متكسِّرة متعدِّدة تماماً، وكانت قد جاءته بها، وهي تذكرة خاصة بيوم الأحد، ويلاحظ مبعوث السلام فرانتس أنه لا يبيع التذاكر، فيدسُّها في يدها، ويَقَرُّ عيناً بالعنوان الجميل على الصفحة الأولى: «الوصول إلى السعادة عن طريق سوء حظ».

التصفيق بالأيدي، وسَيْر الخَبَب بالأقدام الصغيرة، والأسماك، والطير، يوماً بأسره، والفردوس.

وتتوقّف الحافلة الكهربائية، ويقرآن في العربة على النور الواهن، وقد اجتمع رأساهما، القصيدة في الصفحة الأولى، وهي القصيدة التي أطّرتها لينا بقلم الرصاص: «الأمور تستقيم على نحوٍ أفضل مثنىً، مثنىً»، بقلم ي. فيشر: «أَنْ يسير الإنسان وحيداً، سيراً سيئاً، وكثيراً ما تتعثّر القدم، وإذا شئت أن تسقط فمن عساه يساند الخطوة؟ وإذا أصابك التعب فمن يجرُّك معه، الأمور تستقيم على نحوٍ أفضل، مثنىً، مثنى، أيّهذا الذي يضرب في الأرض والزمان، فلتتخذ لنفسك عيسى المسيح مرافقاً وحارساً، الأمور تستقيم على نحوٍ أفضل مثنىً مثنى، إنه يعرف الطرق، ويعرف الدرب، وهو يعينك على استئناف المسير بالنصيحة والفعل، الأمور تستقيم على نحوٍ أفضل مثنى مثنى».

غير أني مازلت أُحسُّ بالظمأ، وأتصوَّر، فيما بين ذلك، فرانتس وهو يقرأ، وكان القدحان أقلَّ مما ينبغي، والحديث الكثير يجفف الحنجرة، ثم يخطر بباله نشيده، وهو يشعر كأنه في بيته، ويضغط على ذراع لينا.

وهي تتشمَّم هواء الصباح. وفي الطريق عبر شارع الإسكندر، بعد شارع سوق الحطب، تلتصق به التصاقاً مريحاً: أَوَ لن يكونا عما قريب خطيبين على الوجه الصحيح؟

أَمْداء هذا المدعو فرانتس بيبركوبف

وهو يستطيع أن ينافس في ذلك الأبطال، غير هَيّاب

وهذا المدعو فرانتس بيبركوبف، الذي كان فيما سلف عامل إسمنت، ثم عاملاً في نقل الأثاث، وهكذا دواليك، وهو الآن بائع صحف، يناهز وزنه القنطارين، وهو قويّ مثل أفعى من أفاعي الكوبرا، وهو، مرة أخرى، عضو في نادٍ للّاعبين الرياضيّين، وهو يرتدي قَلْشيناً أخضر يلتفُّ حول الساق وحذاءً في أخمصه مسامير، وسترة مشمَّعة. ولم يكن في وسعكم أن تجدوا لديه الكثير من المال. وما تفتأ المسألة عنده تصل إلى النجاح على نحوٍ مطَّرد منتظم، ويحدث ذلك على الدوام في كميات قليلة، ولكن كان على المرء، على الرغم من ذلك، أن يحاول الاقتراب منه.

هل كانوا يحرِّضونه فينهكونه، منذ أيام سلفت، يا إيدا، وهكذا دواليك، أَوَ كانت هواجس ضمير ناجمة عن الشعور بالخوف في غمرة الأَرَق، والنوم المضطرب وألوان العذاب، أم كانت هذه آلهات الشقاق العائدات إلى حقبة أمنا الأولى؟ ما من شيء يمكن عمله. وَلْيُدْخل المرء في حسبانه الموقف المتغيِّر. إنه رجل مجرم، حلَّت عليه لعنة الله في عصره «من أين تعلم ذلك، ياولدي؟» في الهيكل، أوريستيس، ابن آغا ممنون وكليتمنيسترا، وشقيق إلكترا وإيفيجني، الذي انتقم لقتلأغا ممنون بقتل كليتمنيسترا وعشيقها، وكان اسمه لا يكاد يكون من الممكن التلفُّظ به، وعلى كل حال فقد كانت أمه «والهيكل الذي تقصده؟». أمّا عندنا ففي وسعك أن تبحث عن كنيسة تكون مفتوحة في الليل. أقول أزمنة متغيِّرة. ياللفظاعة، وياللعجب، هذا التحريض المجهِد، والوحوش المفزعة، والنسوة ذوات الشعر الأشعث، اللواتي يحملن الأفاعي، ثم الكلاب من دون كمّامة لأفواههم، ومعرض الحيوانات

المتنافر، لحيوانات تلهث وتجري نحوه، غير أنها لا تتقدم، لأنه يقف لدى الهيكل. وهذا تصوُّر قديم، ثم يرقص، والمجموعة بأكملها قد استاءت منه وتولاّها الغيظ، والكلاب تظل دائماً في وسط جمع من أولئك الذين يفتقرون إلى آلة الجُنُك، كما يَرِد في الأغنية، وفي رقصة إلهة الانتقام، إذ تتلوّى ملتفَّةً حول الضحية، إنه خلل جنوني، وتضليل الحواسّ وتغريرٌ بها، وتحضير من أجل مستشفى الأمراض النفسية.

أمّا فرانتس بيبر كوبف فلا يستثيرونه أو يستحثّونه. ولنعبِّر عن ذلك، فهو وجبة مباركة، وهو يشرب لدى هينشكه أو في أي مكان آخر، وشارة الذراع في جيبه قدحاً من البيرة بعد الآخر، وبينهما الحافز الشوكي، بحيث ينفتح له القلب. وهكذا يتميَّز نقل الأثاث، والعامل في سائر المهن، وبائع الصحف، فرانتس بيبر كوبف، من برلين، القطاع الشمالي الشرقي عام ١٩٢٧، من أوريست الشيخ المشهور. ومَنْ تُراه لا يفضِّل أن يستكين في جلده.

وكان فرانتس قد أردى عروسه قتيلة، أمّا إيدا، اسم العائلة، فلا يسهم بشيء في المسألة، في ريعان شبابها. وحدث هذا أثناء نزاع بين فرانتس وإيدا، في مسكن أختها، مينا، حيث تمَّ في هذه الأثناء إلحاق أذى يسير أوَّل الأمر بالأعضاء التالية من جسد المرأة: البشرة التي تعلو الأنف، على الجزء المُدَبَّب، وفي الوسط، والعظم الراقد تحته، مع الغضروف، غير أن هذا لم يُلاحَظ، إلاّ في المستشفى، ثم لحقت بالكتف اليمنى واليسرى رضوض وكدمات يسيرة، مع نزيف دمويّ، غير أن المجادلة أصبحت بعد ذلك مفعمة بالحيوية، ثم إنَّ تعبير «الفاسق الفاجر» و»زير المومسات» بعث الحياة في الرجل ذي الحساسية حيال الشرف، فرانتس بيبر كوبف إلى درجة هائلة، وإن كان بالغ الانحطاط، وهو الذي كان فوق ذلك مُستثاراً بفعل أسباب أخرى. ولم يكن يرتعد إلاّ هكذا، في عضلاته.

ولم يكن يتناول في يده شيئاً سوى خفّاق القشدة، ذلك لأنه كان يتدرَّب منذ تلك الأيام، وكان قد شوَّه يده في هذه الأثناء، وكان قد جمع بين خفّاق القشدة هذا وبين الحلزون السلكيّ في اندفاعة هائلة تكررت مرتين، مع قفص إيدا الصدري، وهي المشاركة في الحديث، وكان قفص إيدا الصدري حتى هذا اليوم

سليماً لا تشوبه شائبة، على نحوٍ كامل. وكانت تلك الشخصية الضئيلة بأسرها، التي كانت ذات مظهر حسن للغاية، ما عادت كذلك بالطبع، ونقول هذا بصورة عرضية.

وذلك أن الرجل كان يتكهن، تكهُّناً ليس بالمجانب الصواب، بأنها كانت تزمع أن تصرفه، أو تهجره لصالح رجل منٍ بريسلاوْ ظهر حديثاً. وعلى كل حال لم يكن القفص الصدري للفتاة الحسناء مُهيَّأً لتحمُّل ضربات خفّاقات القشدة، فقد صرخت منذ الضربة الأولى، وما عادت تنطق بكلمة «أيها الطائش الأرغن القذر»، بل باتت تقول: أيها الإنسان، وحدث التماسُّ الثاني مع خفّاق القشدة في ظل موقف ثابت لفرانتس بعد ربع التفاتة إلى اليمين، صوب إيداً، لم تنبس إيدا على أثره بشيء على الإطلاق، بل فغرت فاها على نحوٍ يلفت النظر ويثير الاشمئزاز على النحو الذي يضاهي البوز أو الخطم، واستشاطت غاضبة رافعة كلا ذراعيها.

وكانت قد طرأت في الثانية التي سلفت، للقفص الصدري للشخصية النسائية علاقة بقوانين الجمود والمرونة، والصدمة والمقاومة. إنه أمر لا سبيل إلى فهمه من دون الاطلاع على هذه القوانين على وجه الإطلاق. وسوف يستعين المرء بالصيغ التالية:

أمّا القانون النيوتوني الأول فينصُّ على أنَّ: كل جسم يظل في حالة السكون ما لم يَحمِلْه مفعول قوة معينة على تغيير حالته «وهذا يعود على أضلاع إيدا». وأمّا القانون النيوتونيّ الثاني، الخاص بالحركة: فهو أن تغيُّر الحركة يتناسب مع القوة الفاعلة ويكون له معها الاتجاه ذاته «القوة الفاعلة هي فرانتس، وبالتالي ذراعه وقبضته، مع مضمون هذا».

أما حجم القوّة فيتم التعبير عنه بالصيغة التالية:

$$F= C \lim \frac{\Delta v}{\Delta 6} \approx cw$$

وأما التسريع الحاصل بفعل القوة، أي درجة تعكير صفو الهدوء فتعبِّر عنه الصيغة التالية:

$$\Delta v = \frac{1}{c} f \, \Delta t$$

وبموجب ذلك يترتَّب أن نتوقع ونؤيِّد، بالفعل: أن حلزون المضرب يجري ضغطه، وأنّ الخشب ذاته سيرتطم لدى سقوطه. ومن الناحية الأخرى، ومن ناحية الخمول وناحية المقاومة هناك كسر في الأضلاع يشمل ٧–٨ أضلاع، وخط الإبط الخلفيّ الأيسر.

وفي حالة مثل هذه النظرة العصرية يتمكَّن المرء من تدبير أموره تماماً من دون إلهة الانتقام. وفي وسع المرء أن يتابع المسألة قطعة فقطعة، وهو ما فعله فرانتس وعانت منه إيدا. ولا يوجد شيء مجهول في المعادلة، ولا يبقى سوى أن نستعرض استمرار العملية الذي تمَّ التمهيد له على هذا النحو: أي فقدان للخط العمودي عند إيدا، والانتقال إلى الأفقيّ، إلى هذا بحكم كونه أثراً فظّاً من آثار الصدمة، وأضيف إلى ذلك في الوقت ذاته إعاقة التنفُّس، والألم الشديد المبرِّح، والفزع واختلال التوازن الفيزيولوجي. وقد كان فرانتس خليقاً أن يُرْدِيَ الشخصية المصابة إصابة تشويهيّة والتي كانت معروفة لديه حقَّ المعرفة، على الرغم من كَونِها قتيلة، مثلما يفعل الأسد الهصور المزمجر، لولا أن أختها هُرِعَت إليه من الغرفة المجاورة. وفي مواجهة زعيق هذه المرأة انسحب، وفي المساء اختطفوه بالقرب من مسكنه بينما كانت دورية من رجال الشرطة تقوم بجولة تفقدية لضبط الأمور.

وكانت آلهة الانتقام العجائز يصرخن: «ياللفظاعة، ياللعجب! ياللمطاردة المجهدة! ياللهول، ياللهول، إذ ينظر المرء إلى هذا، رجل قد حلت عليه لعنة الله عند الهيكل، ويداه تقطران دماً. يالَهذا الذي الشخير، أتُراكَ نائم؟ فأدفع عن نفسك نعاسك. وأنهض؛ آغاممنون، يا أبتاه، الذي كان قد انطلق قبل سنوات طوال، من طروادة، وكانت طروادة قد سقطت، ثم أُشْعِلت نيران الإبلاغ من هنا، من إيدا

عن طريق جبل آتوس، وكانت هذه مشاعل من خشب الصنوبر، تظل تشتعل على الدوام في كيتيرونفالد.

فما أروع أن يلاحظ المرء، بصورة عابرة، هذا الإبلاغ المتوهِّج، من طروادة إلى اليونان. ألا إنه لكبير، هذا التيار من النار، عبر البحر، وهذا ضوء، وقلب، وروح، وسعادة وصراخ!

النار الحمراء القاتمة، الحمراء المتوهجة، من فوق بحيرة غورغوبيس، ثم يراها واحد من الحُرّاس، وهذا يصرخ، ويَقَرُّ عيناً، وهذه حياة، كان قد تمّ إيقادها وتمت مواصلتها إلى مدى أبعد، والخبر، والانفعال، والسرور، كل هذا معاً، وفي قفزة فوق صدر البحر، في مسار عاصفة، إلى مرتفع الأراخينيون، وما هو إلاّ الصراخ فحسب، دائماً، والجنون الذي تراه، أحمر متوهجاً: فها هو ذا آغاممنون، قادم! ولا نستطيع أن نقارن أنفسنا بطريقة العرض هذه، فههنا نرجع القهقري من جديد.

ونحن نستخدم من اجل بعض عمليات الإبلاغ بعض النتائج المستمدة من هاينريش هيرتس، الذي كان ييش في كارلسروهه، ومات في سن مبكرة، وكان يتخذ لحية كاملة، في مجال التصوير الضوئي على الأقل للمجموعة التصويرية «غرافيك» في مونيخ، وكنا نرسل البرقيات اللاسلكية، ونحن ننتج، عن طريق جهاز الإرسال الآلي، في المحطات الكبرى، تيارات متناوبة عالية التوتُّر، ونحن نولِّد، عن طريق عمليات الدوران في دائرة للذبذبات، موجات كهربائية، ثم إن الذبذبات تنتشر بأسلوب الأطباق الكروية، ثم يكون هناك بعدُ أنبوبة للإلكترونيات، من الزجاج ومكبِّر للصوت يزداد قرصه ذبذبةً حينا ويتناقص ذبذبةً، حيناً آخر، وبذلك ينبثق اللحن، على نحوٍ مماثل بدقة للكيفيّة التي دخل بها قبل ذلك في الآلة، وهذا أمر باعث للدهشة، وينطوي على الحِذْق والمكر، كما أنه يعذب عذاباً خبيثاً، ومن الصعب أن يتحمَّس المرء له، فهو يؤدي عمله، وتكون النهاية.

على أن مشاعل الإبلاغ التي تتخذ من خشب الصنوبر الراتنجي تختلف اختلافاً كاملاً عند عودة آغامِمْنون!

وذلك أنها تشتعل وتشتعل وتستعر، في كل لحظة، وفي كل مكان تقول، وتُحس، وكل شيء تحتها يتهلَّل فرحاً. هذا آغاممنون قادم! وألوف الرجال يتوهَّجون، في كل مكان، هذا آغا ممنون قادم، وقد بلغوا الآن عشرة آلاف، وعلى ظهر البحر مائة ألف.

ثمَّ، ولكي نصل إلى قضيتنا، بات في المنزل. والمسألة تتغيَّر، وتختلف كل الاختلاف، فالقرص يدور، ومثلما جاءت به المرأة إلى المنزل، تدسه في الحمام، وهي تكشف في اللحظة الراهنة عن أنها امرأة سَوْء لئيمة، فهي تقذف، إلى الماء، بشبكة لصيد السمك فوقه، بحيث لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم تكون قد جاءت ببلطة معها كأنما لتقطَع بها الحطب، وهو يئن ويتوجَّع قائلاً: «ويلٌ لي، لقد أُصبت!» وفي الخارج يسألون، مَنْ تُراه يندب نفسه هنا». «الويل لي، مرة أخرى!» على أن الوحش القديم يذبحه، ولا يرمُش له جفن، ويظل، وقد بات في الخارج أيضاً، يفتح شدقيه: «لقد فرغت من هذا، فقد قذفت حواليه بشبكة الصيد، وضربت مرتين، ومع تنهُّدتين يتمدَّد صريعاً، ثم أرسلته بضربة ثالثة إلى العالم السفلي»، وذلك ما انتاب الشيوخ الهمُّ والكربُ على أثره، وعلى كل حال فهم يجدون الملاحظة الصائبة التي تأتي في مكانها: «إننا مَعْجبون بما في حديثك من الجرأة»، وإذاً فقد كانت هذه المرأة، هذه البهيمة الوحشية القديمة التي أصبحت، بمناسبة ألوان من الاستمتاع الزوجي مع آغا ممْنون، والدة لغلام حصل، عند ولادته، على اسم أوريستيس، ولقد قتلتها فيما بعد ثمرة مسراتها، ثم تعذِّبها بعد ذلك آلهة الانتقام.

وهنا يقف صاحبنا فرانتس يبركوبف وقفة مختلفة هنا، فبعد خمسة أسابيع تقضي نحبها صاحبته إيدا، في مستشفى فريدريشسْهافن، من تكسُّر معقد في الأضلاع، وتمزُّق في جلد الصدر، وتمزُّق يسير في الرئة، ودُبَيْلة تالية، وتقيُّح في جلد الصدر والتهاب في الرئتَيْن، أيتها الآدمية، الحمى لا تنخفض درجتها، فكيف تبدين الآن، فلتأخذي مرآة، أيتها الآدمية، لقد انتهى أمرك، وولّى، وفي وسعك أن تحزمي أمتعتك، لقد شرّحوها ودفنوها في شارع لاندْزبرغ، تحت التراب بمترين، لقد ماتت بالكراهية لفرانتس، على أنَّ سخطه عليها لم يتراجع ولم يفتُر حتى بعد وفاتها، وكان

صديقها الجديد، البريسلاويّ، قد زارها، وهي ترقد في الطابق السفلي، بعد خمسة أعوام في وضع أفقيّ، على ظهرها، وقد انتاب ألواح الخشب العطن وهي تذوب متحوِّلة إلى بَوْل، وهي التي رقصت ذات مرة في حديقة الفردوس، مع فرانتس، في نعلين، أبيضَيْن من نعال السفن الشراعية، والتي أحبت وضربت في الأرض فصالت وجالت، إنها تظل ساكنة كل السكون، وما عاد لها وجود.

وكان قد سلخ سنواته الأربع، والذي قتلها مازال يروح ويغدو، هنا وهناك، يعيش ويزدهر، ويشرب حتى يسكر، ويلتهم الطعام، ويقف بنُطَفه، مستأنفاً نشر الحياة، وحتى شقيقة إيدا لم تُفْلِت منه، وذات مرة سوف يُضْبَط، وقد مات من لا أعرف من يكون، ولكن أُتيح له بذلك أجل لا يستهان به، وهذا ما يعرفه، وفي هذه الأثناء سوف يواصل تناول إفطاره في المقاصف، ويثني، بطريقته، على السماء المنتصبة فوق ميدان الإسكندر: منذ متى تنفخ جدتك في البوق: فإن ببغائي لا يأكل البيض القاسي.

وأين يوجد الآن سور السجن الأحمر في بلدة تيغل الذي كان يبعث في نفسه القَدْر الكبير من الخوف، ولم يكن يتخلص منه وهو يولّيه ظهره، وكان البواب يقف عند الباب الحديدي الأسود الذي كان يثير في فرانتس ذات مرة ذلك الاشمئزاز، ومازال الباب الخارجي الكبير عالقاً أبداً في مفصّلاته، لا يكدِّر على أحد صفوه، ولا يفتأ يجدِّد الهواء، وعند المساء يوصد، مثلما يحدث هذا لكل باب خارجيّ جيد. والآن، في وقت الضحى، يقف البّواب أمامه، يدخِّن غليونه، والشمس ترسل أشّعتها، إنها الشمس ذاتها، دائماً، وهي التي يستطيع المرء أن يتنبّأ على الدوام، بالوقت التي ستكون فيه في مكانٍ ما من السماء، أما شروقها فيتوقف على السكان، ومن المحطة رقم ٤١ يصعد للتو بعض الأفراد، وهم يحملون أزهاراً ورزماً صغيرة، والأرجح أنهم يريدون أن يذهبوا مباشرة إلى المصح. وإلى اليسار ينحدر الطريق المبلّط، والارتجاف من البرد شديد على الإجمال، والأشجار تنتصب في سلسلة سوداء، وفي السجن مازال يقبع المساجين في زنزاناتهم، يمارسون أعمالهم وألوان عبثهم في حجرات العمل، ويخرجون في مشية الإوزة، عبر فناء النزهة، وهناك أمر

صارم، يقضي بأن لا يظهروا في الساعة الحرة إلاّ وهم ينتعلون الأحذية ويعتمرون القبعات ويضعون المناديل على أعناقهم، أما زيارة الزنزانة من قبل الشيخ فكانت كما يلي: كيف كان حساء المساء بالأمس؟» لقد كان من الممكن أن يكون أفضل، وأن يكون مقداره أكثر من ذلك إلى حد ما، دونما حرج» وإذا لم يشأ الاستماع اصطنع الصمم: «كم مرة تحصلون على غيارات لملاءات السرير؟» وكأنه لم يكن يعرف هذا.

ويكتب واحد من السجناء في سجن انفرادي، قائلاً: «دعوا الشمس تدخل! وهذا هو النداء الذي تتردد أصداؤه اليوم في كل أرجاء الدنيا، ولكن هنا فحسب، وراء أسوار السجن، لمّا يَجِدْ بعدُ صدى له، فنحن أناس لا قيمة لنا بحيث تغشانا أشعة الشمس؟ ألا إن طراز البناء في السجون ليجرُّ معه أن لا تتعرض مصاريع بعض النوافذ والأبواب، على مدى العام كله لأشعة الشمس، من الجانب الشمالي الشرقي، فما من شعاع من أشعة الشمس يتيه في هذه الزنزانات ويهدي التحيات إلى سكانها، ولا بد للناس، أن يتدبَّروا أمورهم، ثم يتتابعهم الذبول والشحوب، في كل عام، بالطريقة ذاتها، من دون أن يظفروا بشعاع الشمس المنعش» وثمة لجنة تزمع أن تتفقَّد المبنى، وها هم المشرفون يجْرون من زنزانة إلى زنزانة. ويكتب سجين آخر، قائلاً: «إلى النيابة العامة في محكمة الدرجة الثانية. أثناء مداولات المحكمة ضدي، بين يَدَيْ دائرة الجنايات في محكمة الدرجة الثانية، أبلغني الرئيس، السيد مدير محكمة الدرجة الثانية، الدكتور س، أنه قد تمَّ، من قبل مجهول، جلب أمتعة من مسكني، في شارع إليزابيت ٧٦، بعد اعتقالي، وهذه الواقعة مدوَّنة في الملفات، ولما كان هذا مدوَّناً في الملفّات فلا بُدَّ أن يتمّ الإيعاز من جانب الشرطة، أو النيابة العامة، بالقيام بالتحقيق في هذا، ولكن لم يَجْرِ إبلاغي بأي شيء من قِبَل أية جهة، حول سِرقة أمتعتي، بعد اعتقالي، إلى أن اطلعت على ذلك في ذلك الموعد، وأرجو من النيابة العامة إبلاغي فيما يتعلق بنتيجة التحقيق والتحرّيات أو إرسال إليّ بنسخة مصدَّقة عن التقرير الموجود في الإضبارات، لكي أرفع في النهاية دعوى تتعلق بتعويض الخسائر، إذا كان هناك، من جانب مضيفتين، عدم تبصُّر أو حذر».

أمّا ما يتعلّق بالسيدة مينّا، شقيقة إيدا، فأحوالها على ما يرام، وشكراً جزيلاً، فأنتم قوم ذوو فضل، تتسمون برقة الشمائل، للغاية، والساعة الآن الحادية عشرة وعشرون دقيقة، وهي قادمة لتوها من صالة السوق في شارع أكّر، وهي مبنى أصفر من مباني المدن يفضي إلى شارع الأنفاليد، غير أنها تختار مخرج شارع أكّر لأنه أقرب إليها، وقد جاءت بالقُنَّبيط ورأس خنزير، وجاءت فوق ذلك، بشيء من الكَرَفْس، واشترت، من الصالة، ومن العربة، سمكاً يشبه سمك موسى، كبيراً، دَسِماً، وعلبة صغيرة من شاي البابونج، ولا يستطيع المرء أبداً أن يعرف ذلك، فمن الممكن أن يحتاج المرء إليه دائماً.

الكتاب الثالث

وهنا شهد فرانتس بيبر كوبف الضربة الأولى ، المبرِّحة ، التي تلقى القبول الحسن وهو يتعرَّض للخداع . وتصيب الضربة موقعها المقصود .

وكان بيبر كوبف أقسم أنه يريد أن يكون مستقيماً فاضلاً ، وقد رأيتم كيف يظل مستقيماً فاضلاً على مدى أسابيع ، ولكن هذا كان مجرد مهلة رحمة أخيرة .

على أن الحياة تجد هذا ، على المدى الطويل ، مفرطاً في الرقة والتلطُّف ، وهو يقيم في طريقه حجر عَثْرة . أمّا هو ذاته ، أي فرانتس كوبف ، فكان هذا يبدو له أنه ليس بالأمر اللائق على وجه الخصوص من جانب الحياة ، وكان تتوافر لديه ، على مدى الزمن الفسيح ، مثل هذه الحياة الوضيعة ، الخبيثة ، التي تتناقض مع كل النوايا الطيبة ، بقدر كبير باعث للسَّأم .

فلماذا تتصرَّف الحياة هذا التصرُّف ، ذلك ما لم يكن يدركه ، وقد بات لِزاماً عليه أن يسلك بعدُ طريقاً طويلاً ، إلى أن يتبيَّن له هذا .

كان بالأمس ما يزال متعاظماً

ولما كان قد أزف عيد الميلاد فقد أخذ فرانتس، الذي يتعامل، تجارياً، بأنواع شتى من سلع المناسبات، يبدّل سِلَعه، ويرقد بضع ساعات قبيل الظهيرة، أو بعد الظهر، متحوّلاً إلى أربطة الأحذية، ويكون ذلك أوّل الأمر وحده، ثم مع أوتو لودَرْز، وقد ظل هذا عامين عاطلاً عن العمل، وكانت زوجته تعمل في غسيل الملابس، وكانت لينا، البدينة، قد جاءت به، وكان للبدينة عّماً، وفي الصيف عمل بضعة أسابيع في بيع النعنع، في رودَرْزدورف، بالأهداب والشُرّابات والحُلّة الرسمية، وكان يجوب، هو، وفرانتس، الشوارع، ويدخلان المنازل، ويقرعان الأجراس، ثم يلتقيان بعد ذلك.

وذات مرة يدخل فرانتس بيبركوبف المقصف، والبدينة حاضرة، ويكون على وجه الخصوص، في مزاج المتأهب للسرور والبهجة، وإذ به يأتي على سندويشات البدينة، ويطلب، وهو بعدُ في طور المصنع، آذان الخنزير مع الحمص، لكل الثلاثة بعد ذلك. أمّا البدينة فيعانقها بحيث تتردّى إلى دَرْك الابتذال وتغدو حمراء متوهّجة بعد تناول آذان الخنزير. أليس مِن المستحسَن أن تخرج هذه، البدينة، يا أوتّو». «إن لها مسكنها، ثم إنها تظل تعانقك على الدوام».

ويرقد فرانتس على المائدة، وينظر إلى لودرز من الأسفل: «ماذا تحسب يا أوتو إذاً، ما الذي حدث؟» «ماذا جرى، يا تُرى؟»، ماذا، يا تُرى؟» «كلاّ، فلتنطلق» «ما هو هذا، يا تُرى».

قدحان من البيرة، وليمونة، وكان نزيل جديد ينفخ نفخة الغيظ في وسط الحانة، ويمسح أنفه بالضغط بيده على أنفه، ويسعل: «فنجاناً، من القهوة» «بالسكر؟» وكانت المضيفة تغسل الأطباق. «ولكن عجّلي، بربك».

ويدخل فتى حديث السن يعتمر قبعة رياضية بُنِّية، ويسير في أنحاء الحانة باحثاً، يستدفئ بالمدفأة الحديدية الأسطوانية، يبحث عن مائدة فرانتس، ثم يقول بصورة عَرَضية: «هل رأيت أحداً يرتدي معطفاً أسود وياقة بُنِّية، ياقة من الفراء؟» هل يكون هنا في كثير من الأحيان» «أجل» ويلتفت الرجل الطاعن في السن، برأسه نحو الرجل الشاحب إلى جانبه: «فراء بُنّي؟» ويقول هذا متجهِّماً: «كثيراً ما يدخل أناس إلى هنا بفراء بُنِّي» ويقول ذو المشيب: «ومن أين أتيت؟ ومن بعث بك؟» «هذا لا يهم، بلا ريب، إذا كنت لم تره» «هناك كثير من الناس، هنا، يعتمرون القبعة ذات الفراء البنّي، ولا بُدَّ للمرء أن يعرف مَنْ بعث بك يا تُرى» «ليس ضرورياً عندي» بلا ريب، أن أحدثك عن أعمالي»، ويستثار الرجل الشاحب، فيقول: «إذا كنت تسأل هل كان هنا أحد ففي وسعي بلا ريب، ، أن أسألك مَنْ بَعَث بك إلى هنا». .

وكان النزيل قد بات لدى المائدة الأقرب: «حين أسألك لا يعنيك على الإطلاق مسألة مَنْ عسايَ أكون» «كلاّ، حين تسألني يكون في وسعي أن أسألك من جديد، وعند ذلك لا تكون في حاجة إلى أن تسألني» «ما من شك في أنني لا أكون مضطرّاً إلى أن أقول هل كان امرؤٌ معَّين هنا».

ويتوجه النزيل نحو الباب، ثم ينفتِل إلى الوراء، قائلاً: إذا كنت مكّاراً شاطِراً إلى هذا الحد، فسوف تظل، أيها الرجل، من الشُطّار بالقدر ذاته» ثم ينفتِل إلى الوراء، ويفتح الباب بعنف، وينصرف.

ويقول كلا الرجلين لدى المائدة: «أتُراك تعرف هذا؟ فإني لا أعرفه»: «هذا الرجل لم يسبق له وجود هنا، ومن يدري ماذا يريد» «لقد كان بافاريّاً» «هذا الرجل من إقليم الراين، أجل، من إقليم الراين».

ويبتسم فرانتس للرجل الأبله المسكين، المتجمِّد من البرد، الباعث للتفجُّع

ابتسامة صفراء، قائلاً: «لقد وَدِدْتُ لو أنك لم تنتهِ إلى هذا، وعلى هذا فأنت تسألني ألديَّ مال؟» «أجل، ألديك شيء منه؟».

وحين وضع فرانتس قبضته على المنضدة، ابتسم ابتسامة صفراء، مزهوّاً: «إذاً فكم؟»، وكان المسكين، الرجل الضئيل الباعث للتفجُّع، قد انحنى إلى الأمام، وهو يَصِرُّ على سن جوفاء: «اثنان من الجند في الكتيبة العاشرة، والشيطان»، ويطرح فرانتس خِرَق المسح على المائدة: «كيف نقف الآن هنا. لقد حققنا ذلك خلال خمسة عشر دقيقة، وخلال عشرين دقيقة، أمّا أطول من ذلك، فلا، إنه رهان» «ياابن آدم» «كلا، ماذا تحسَب، تحت المائدة، من الأسفل لا يكون هذا، حقاً وصدقاً، يا أوتّو، باستقامة، وبأسلوب أصولي موافق للتوقُّعات، أتفهم؟».

وأخذا يتهامسان، وقد تحرك أوتّو لودرز ليكون ملاصِقاً له الى جانبه، وكان فرانتس قد قرع الجرس لدى سيدة، إنه رباط حذاء ماكّو، فهل تحتاجين شيئاً منه لنفسك، أو للسيد زوجك، أو للأطفال الصغار، وكانت قد نظرت إلى هذه الأربطة، ثم نظرت إليَّ، فوق ذلك، وهي أرملة، مازالت حسنة الحال مصونة، وتحدثا في الردهة، وهنا سألت ألا يمكنني الحصول على فنجان من القهوة. إنه برد رهيب هذه السنة، وشربت القهوة معي، ثم مزيد من ذلك بعدُ إلى حد ما وينفخ فرانتس في يده، ويضحك من خلال أنفه، ويحكُّ وجنته، ويغمز أوتّو في ركبته، بركبته هو: «لقد تركت كل أمتعتي القديمة راقدة عندها». أتُراها لاحظت شيئاً ما؟» «مَنْ؟» «لقد عيل صبري، فمن عساها تكون، البدينة، لأنني لم أُخَلِّف شيئاً عندها» «فهلاّ تركت هذه تلاحظ هذا، بربك، فلقد بعتَ كل شيء، وأين كان إذاً، يا تُرى؟».

ويصفِّرُ فرانتس: «هنا أذهب إلى هناك مرة أخرى، ولكن ليس عمّا قريب، في المؤخرة، ألزاسيّ، أرملة، يا ابن آدم، بين سكان المنطقة الحدودية، مارك براندينبورغ، وهذه صفقة» ويأكلان ويشربان حتى الثالثة، ويحصل أوتو على قطعة نقدية من فئة الخمسة قروش، غير أنه لا يزداد مرحاً وبشاشة.

من يزحف في ضحى الغد، بمتاعه من أربطة الأحذية، إلى ما وراء الباب الخارجي لروزنتال؟ أوتّو لودرز، إنه ينتظر عند فاييش، لدى الناصية، إلى أن يرى، ويعد فرانتس عَدْوَ الخبب على طول شارع برونِن، ثم ينحدِر، مُعْجَلاً، في شارع الألزاسي، صحيح، هذا هو الرقم. وربما كان فرانس قد أصبح في الطابق العلوي، الناس يسيرون جميعاً، بهدوء، على طول الشارع، سوف أدخل أوَّلاً، إلى حدٍّ ما، دهليز المنزل، وحين يأتي أقول، ماذا أقول، قلبي يخفق، إنهم يبعثون الاستياء في نفس المرء على مدى النهار بأسره. وما من جدوى أو مكسب، فالطبيب لا يجد شيئاً، ولكن لديَّ شيء ما، أن يمرَّ المرء بأسماله وما زالت هناك الهوَّة الناجمة عن الحرب، فأصعد السلم.

ويقرع الجرس: «أربطة الأحذية، ماكو، ياسيدتي، كلاَّ، لقد أردت مجرد السؤال، فلتقولي، ولتصغي بربك، ذات مرة، أوَّلاً» إنها تريد إغلاق الباب بالضَغط عليه، فيضع قدماً؟ بينهما. «وذلك أنني لست آتياً وحدي، صديقي، وأنتِ تعلمين بلا ريب، الذي كان بالأمس هنا، وقد خلَّف بضاعته هنا» «يا إلهي» وتفتح الباب، وإذا لودرز في الداخل، ثم تضغط على الباب وراءها على عجل، فتغلقه «ما الذي حدث، يا تُرى، يا إلهي» «لم يحدث شيء على الإطلاق، ياسيدتي، مالك ترتجفين»، على أنه يرتجف هو ذاته، لقد دخل إلى هنا دخولاً مفاجئاً للغاية، والآن تتواصل المسألة، وليحدث ما يحدث، فسوف تسير الأمور وتستقيم، ولم يكن له بُدٌّ أن يكون دَمِثاً رقيقاً، على أنه لا يجد صوتاً، إذ توجد شبكة من الأسلاك قبالة فمه وتحت أنفه، وهي شبكة تمتدّ إلى الجبهة عبر الوجنتين، حين تغدو الوجنتان متوترتَيْن، لقد انصرفت. «كل ما أردته أن آتي بالبضاعة، وتعدو السيدة ذات الوجه الفاتن، في الحجرة، تريد أن تأتي بالحزمة، هنالك يقف هو ذاته، على عتبة الحجرة، وهي تبتلع ريقها وتنظر: «ها هي ذي الحزمة، يا إلهي» شكراً، شكراً جزيلاً، ما لك ترتجفين هكذا فحسب، فالمكان هنا دافئ دفئاً جميلاً، دفئاً جميلاً، ألا تستطيعين أن تقدمي لي فنجاناً من القهوة؟» إنه مجرد البقاء واقفاً، والحديث دائماً، مع عدم الخروج فحسب، وأن يكون المرء قوياً مثل شجرة البلوط.

وكانت المرأة تقف أمامه، ضامرة، فاتنة الوجه، وقد ضغطت يديها، إحداهما على الأخرى، أمام جسدها: «هل قال لك بعدُ شيئاً ما؟ ماذا قال لك، يا تُرى» «مَنْ، صديقي؟» الحديث دائماً، والحديث كثيراً، وكلما أكثر المرء من الكلام ازدادت حرارته، والآن تحتكُّ الشبكة بمقدمة أنفها ومن أسفله فحسب «آه، ولا شيء بعد ذلك، كلاّ، وماذا غير ذلك يا ترى. ما الذي يفترض أن يرويَه هذا عن القهوة، أما السلعة فقد باتت في حوزتي».

«أنا لا أزيد على أن أدخل المطبخ» وهذه يساعدها الخوف في صدد ما أصنعه لنفسي من قهوتها. فانا أغليها على نحوٍ أفضل، ونحصل عليها في المقصف على نحو مريح بدرجة أكبر، وهي تريد أن تضغط على نفسها وتتربَّص، على أننا مازلنا هنا، غير أن من المستحسن أن أكون في غمرة هذا، وأن أكون سِرْت سَيْر المتأهِّب المستعد، ولكن ما من شك في أن لودرز يساوره الخوف، ويصيخ السمع إلى الباب، وإلى السُلَّم، وإلى الأعلى، ويعود أدراجه داخلاً الحجرة. لقد نام نومة سيئة ملعونة، أمّا اليوم فإن هذا العليل ما يفتأ يسعل، على مدى الليل بطوله، إذ نظل قاعدين وهو يقعد على الأريكة الحمراء المتَّخذة من القطيفة.

وهنا فعلت ذلك مع فرانتس، والآن تغلي لي القهوة، ولسوف أرفع القبعة، إصبع باردة برودة الثلج، هنا تناولا فنجاناً من القهوة، وما من شك في أنها كان يساورها الخوف، شخصية حسناء ضئيلة، وبات في وسع المرء أن يحظى بالمتعة إذ يحاول شيئاً ما. «أَوَ لا تشرب معي ؟ من باب المصاحبة؟» «كلاّ، كلاّ، فسرعان ما يأتي المستأجر من الباطن، الذي توجد الحجرة في حوزته، ولسوف يخافني ويخرجني، وأين يكون لهذه مستأجر من الباطن، لا بُدَّ أنه كان واقفاً في السرير، «ولا شيء بعد ذلك؟» ألا فَدَعي الرجل، فإن المستأجر من الباطن، الذي لا يأتي قبل الظهر، لا بُدَّ أن له عمله. أجل، فإن صديقي لم يَرْوِ لي شيئاً بعد ذلك، ولم يكن عليَّ إلاّ! أن الآتيَ بالبضاعة «– ويترشَّف القهوة على راحته، وقد طامن رأسه، وما عاد يرفعه–، الجوّ حارٌّ جميل، وبارد اليوم، وماذا يفترض أن يرويَ لي، يا تُرى. أمّا أنكِ أرملة، فذلك صَحيح، بلا ريب، ألستِ كذلك؟» «أجل» «وكيف الحال

لدى زوجك؟ أهو ميت؟ أتُراه سقط؟» «يترتَّب عليّ عمل شيء ما، ولا بُدَّ لي من الطبخ» فلتُعدّي لي، بربك، فنجاناً آخر. لماذا يكون هذا سريعاً إلى هذه الدرجة، وما عدنا نرى أنفسنا حديثي سِنٍّ، مرة أخرى. ألديك أطفال صغار؟» «هلاّ ذهبت فحسب، بربك، فإن لك أمتعتك، أمّا أنا فليس لديَّ وقت» «كلاّ، لا تكوني بربك، غير مريحة، وسوف نأتي، بلا ريب بالقسم العلويّ من الثوب الذي ينسدل إلى مسافة بعيدة فوق الحزام، وبالنسبة لي، فأنت لا تحتاجين إلى هذا، فاذهبي هكذا، وما من شك في أنني سأتمكَّن من الفراغ من شرب الفنجان. أما أنتِ فما عاد لديك وقت، دفعة واحدة. وقد كان يتوافر لك في الآونة الأخيرة الكثير من الوقت، وأنت تعرفين الكيفيّة، كلاّ، هنيئاً لك وجبة طعامك، أنا لست كذلك، وأنا ذاهب». .

ويلقي بالقبعة على رأسه، وينهض قائماً، ويدس الرزمة الصغيرة تحت إبطه، ويخرج ببطء متوجِّهاً نحو الباب، وبعد أن مَرَّ بها ينفتل إلى الوراء على عجل: «إذا أخرجْي، أيتها المرأة، قطع العملة الصغيرة» ويمدُّ يَدَهُ اليسرى، وفي سبّابته إغراء، وتجعل يدها قبالة فمها، وقد بات المسكين الضئيل ملاصقاً لها: «عندما تصرخين، تمنحين فحسب، بلا ريب، وعندما يكون لديك أحد. كلاّ، فانظري، فإننا نعلم كل شيء، وليس ثمة سر بين الأصدقاء» ألا إنها لخنزيرة لعينة، وإنها لخنزيرة عجوز، ترتدي ثوباً أسود، وأحبُّ الأمور إلى هذه المرأة أن يصفعها المرء من وراء أذنيها، فإنها ليست بأفضل من عجوزي، أنا. ويكون للمرأة وجه متوهِّج، ولكن يكون وجهها في مثل بياض الثلج في اليمين واليسار فحسب، وكانت تحمل كيس نقودها في يدها، وتنقِّب فيه بأصابعها، غير أنها تنظر بعينين مفتوحتين على مصراعيها إلى المسكين الضئيل، وتناوله بيدها اليمنى قطعاً نقدية، على أنها تنطوي على تعبير مجانب للطبيعيّ، وما زالت سبابته تواصل الإغراء. وإذا هي تنفض في يده كل كيس نقودها، والآن يعود أدراجه إلى الحجرة، إلى المائدة فيجمع إليه الخِوان الأحمر المطرَّز، وإذ هي تنعق كنعيق البوم، ولا تخرج لهجة أو نبرة، ولا تقدر على أن تفتح من بعدُ فمها، وتقف ساكنة كل السكون لدى الباب، ويضمُّ هو إليه وسادتين من

الأريكة، ثم ينتقل إلى المطبخ، وقد فتح صناديق المائدة، وينقّب، إنها أدوات قديمة من الصفيح، ولا بد لي من الجَرْي، وإلاّ أطلقت هذه عقيرتها بالصراخ، وإذا هي تتدحرج منقلبة، خارجةً فحسب.

ويمر بالردهة، فيعبر الباب ويضغط على مصراعه ليردَّه، ببطء ثم ينزل السلَّم، إلى المنزل المجاور.

اليوم يطلق الرصاص على صدره

لقد كان هذا هو الفردوس الرائع، وكانت المياه تعجُّ بالأسماك، ومن الأرض كانت تنبثق الأشجار، والحيوانات ترتع، حيوانات البر، وحيوانات البحر والطيرَ.

هنالك بات يُسْمَع حفيف في إحدى الأشجار، وأطلت أفعى، أفعى، برأسها فأخرجته. وكانت الأفعى تعيش في الفردوس، وكانت هذه أشدَّ حيلة ومكراً من كل حيوانات الحقل، وأخذت تتحدث، إلى آدم وحوّاء.

وحين كان فرانتس بيبر كوبف يصعد السُلَّم، بعد أسبوع وفي يده باقة من الأزهار في ورق حريريّ، في مشية وئيدة، كان يفكر في صاحبته البدينة، ويُنْحي على نفسه باللائمة ويأخذ عليها المآخذ، ولكن ليس بالجدّية الكاملة، يظل واقفاً، وإنها لفتاة مخلصة أخلاصاً نقيّاً نقاء الذهب. ماذا ينبغي للعنزات الغبّيات، يا فرانتس، يا للتفاهة، فالعمل هو العمل، وهنا يقرع الجرس، ويبتسم في استشعار مسبَق، ابتسامة الرضى، وهذه قهوة ساخنة، ودمية صغيرة، وإذ بأمرأة تدخل، إنها هي. وينكبُّ بصدره، ويقدم، أمام الباب الخشبي، باقة الأزهار، وتُبْسَط السلسلة، ويخفق قلبه، هل يستقيم وضع ربطة عنقي، ويسأل صوتها: «مَنْ يكون هنا؟» فيقهقه، قائلاً: «إنه ساعي البريد».

وكان هناك شِقٌّ صغير أسود بين مصراعَيْ الباب، إنهما عيناها، وينحني انحناءة رقيقة، ويبتسم ابتسامة الرضى، ويحرك باقة الأزهار حركة نوّاسِيّة، وإذ بصوتُ جَلَبة شديدة، وينغلق الباب، وينصَفِق رَزْزَزْ، ويتم تقديم المِزلاج، يا لها من مصيبة، لقد

أَغْلِق الباب. إنه صاحبه البهيمة، الوضيع، الدنيء. هنا تقف أنت، لا ريب في أن هذه مجنونة، أتراها عرفتني، باب بُنّي، حشوة الباب، وأنا واقف على السّلّم، وقد استقام وضع ربطة عنقي، شيء لا يُصدَّق على الإطلاق، ولا بُدَّ من قرع الجرس مرة أخرى، أَمْ ليس ذلك بالمُحَتَّم يا تُرى، وينظر إلى يديه، باقة من الأزهار، سبق أن اشتريتها عند الناصية، لقاء مارك، مع ورق الحرير. ويقرع الجرس مرة أخرى، ومرتين، وقتاً بالغ الطول، لا بُدَّ أن هذه مازالت واقفة لدى الباب وهي تغلق الباب، ببساطة، إنها لا تَحَرَّك ساكناً، بل تمسك الهواء، وتدعني واقفاً، وفي هذه الأثناء مازالت تستحوذ على ربطات الأحذية العائدة إليّ، السلعة بأسرها، ربما مقابل ثلاث ماركات، أستطيع أن آتيَ بها، بلا ريب، والآن تدخل واحدة، والآن تنصرف، وهي التي في المطبخ، هذا هو، بالطبع—.

فلينزل على السُلَّم، ثم فليصعد عليه من جديد: لسوف أقرع الجرس مرة أخرى، ولا بُدَّ لي أن أرى ذات مرة، تلك التي لا يمكن أن تكون رأتني، والتي حسبتني امرأ آخر، كأن تكون حسبتني متسوّلاً، إذ يَرِد في هذا الحسبان كثيرون، ولكن حين يقف أمام الباب لا يقرع الجرس. وذلك أنه لا ينطوي على إحساس على الإطلاق، بل ينتظر فحسب، إنه يقف هنا. وهكذا، فهي لا تفتح لي، لقد أردت مجرد أن أعرف، هنا في المنزل، لن أبيع بعدُ، فماذا أصنع بباقة الأزهار. لقد كلفتني ماركاً كاملاً، أقذف به إلى حافّة الطّوار، وفجأة يقرع الجرس مرة أخرى، وكأنه يفعل ذلك استجابة لأمر، وينتظر، بهدوء، انتظاراً صحيحاً، بل لا تصل حتى إلى الباب، وهي التي تعلم أنني هنا، ثم سوف أسلّم رقعة من الورق لدى الجيران، ولا بُدَّ لي من استعادة سلعتي.

ويقرع الجرس بصورة عابرة، فلا يجد أحداً هنا. جميل، فلنكتب على رقعة الورق، ويذهب فرانتس إلى نافذة الردهة، وقد انتزع الزاوية البيضاء من جريدة، ويكتب بقلم رصاص صغير: «لأنك لا تفتحين، أريد أن أستعيد بضاعتي، لأسلّمها إلى كلاوسّن، ناصية الألزاسيّ».

أيها الإنسان، المسكين، لو كنتِ تعرف مَنْ أنا، وما شعرت به واحدة ذات مرة، من ناحيتي لما فعلت ما فعلت. أُفٍّ لهذا، لسوف نحصل على ذلك. لقد كان

المرء خليقاً أن يأخذ بلطة، يُحطِّم بها الباب، ويدس رقعة الورق، بهدوء، من تحت الباب.

ويظل فرانتس يروح ويغدو، متجهماً متبرماً. وفي الصباح التالي، وقبل أن يلتقي بلودرز يعطيه صاحب أحد الدكاكين الصغيرة، رسالة. هذه هي «ولم تُسلِّمكَ شيئاً غير هذا؟» «كلاّ، وماذا يا ترى؟» «رزمة فيها سلع» «أُفٍّ لك، لقد جاءني بهذه الرسالة غلام. مساء الأمس» «إذاً، ماذا، ربما كان عليَّ أن آتي بالبضاعة».

وبعد دقيقتين يذهب فرانتس إلى النافذة الواقعة إلى جانب نوافذ العرض، ويدع جسمه يسقط على كرسي خشبي ذي مسند، والرسالة في يده اليسرى المسترخية، ويَزُمُّ فمه، ويحملق في لوح المنضدة. ثم إن لودرز، الباعث للتفجُّع يدخل لتوِّه من الباب، ويرى فرانتس، يراه قاعداً، لقد ألمّ بهذا الرجل أمر ما، ولا يلبث أن يخرج.

ويتقدَّم المضيف من المائدة: «لماذا يعدو لودرز منصرفاً يا ترى، فإنه لمّا يأت ببضاعته» ويظل فرانتس قاعداً. ألا إن مثل هذا ليوجد في العالم كله، لقد قُطِّعت ساقاي بالفأس، مثل هذا لا وجود له في العالم بأسره، هذا شيء لم يسبق له وجود. أنا لا أستطيع الوقوف على قدمَيّ. هذا فتى، لا يمكن تصوُّره في العقل.

«هل تريد قدحاً من الكونياك، يابيبر كوبف؟ أتُراها حالة حِداد؟» «كلاّ، كلاّ» ماذا يقول هذا في الحقيقة، فإني لا أُحْسِن السمع، وفي أذني قطعة قطن. ولا ينصرف المضيف: «ما بال الفتي لودرز يعدو منصرفاً، هكذا؟ فإن أحداً لم يمسسه بسوء، وكأن أحداً ينطلق في أَثَره» «الفتى لودرز؟» «أجل، لسوف يترتَّب عليه أن يفعل شيئاً ما، أجل، قدحاً من الكونياك» ويصب القدح، والأفكار تتلاشى من ذهنه، المرة بعد الأخرى، ياللمصيبة، أية قضية هذه التي تتصل بالرسالة هنا. «لقد سقط من يدك المظروف هنا، على الأرض. وربما أخذت جريدة الصباح» «شكراً» ويتابع تأملاته: لقد وددت لو أعرف فحسب، أية قضية هذه، قضية الرسالة، التي تكتبها إليَّ هذه في أمثال هذه القضايا. أما المدعو لودرز فرجل عاقل متبصِّر، له أطفال. ويفكر فرانتس كَيْف حدث هذا بها. وفي هذه الأثناء يثقُل عليه رأسه،

وينتقل به إلى الأمام كما في النوم. أمّا المضيف فيعتقد أنه متعَب، ولكنه الشحوب، وبعد الشُّقة والفراغ، وفي ذلك تنزلق ساقاه. هنالك يحدث ذلك وقعاً كوقع الرطل إذ يسقط، ويكون الوقع خالصاً نقيّاً تماماً، ويلتفت ذات مرة إلى اليسار، والآن إلى أسفل، إلى الأسفل تماماً.

ويرقد فرانتس بصدره ورأسه على لوحة المائدة، وينظر من تحت ذراعه، على خط منحرف إلى لوحة المائدة، وينفخ فوق الخشب ويمسك برأسه إمساكاً محكمَاً: «هل باتت البدينة هنا، تلك المدعوَّة لينا؟» «كلاّ، هذه لا تأتي إلاّ في الساعة الثانية عشرة» هكذا، أجل، ونحن الآن في الساعة التاسعة فحسب، وأنا لمّا أفعل شيئاً بعد، كما أنّ لودرز أنصرف.

وماذا ينبغي للمرء أن يفعل؟ وها هي ذي تنصَبُّ عن طريقه، وهو يعض على فمه ليغلقه: هذه هي العقوبة، فقد تركوني في الخارج، أمّا الآخرون فمازالوا ينقّبون عن البطاطا، وراء السجن، على جبل القمامة الكبير، ولا بُدَّ لي من الانطلاق بالحافلة الكهربائية، فلتَحِلَّ عليهم اللعنة، فقد كان ذلك جميلاً للغاية هنا، وينهض قائماً، فليخرج المرء إلى الشارع ذات مرة وليُبْعِد هذا مرة أخرى، وكل المطلوب ألا يساور المرءَ الخوفُ من جديد، ، وأنا أقف عَمودياً على ساقَيَّ، إذ لا يصل إلينا أحد، لا أحد يأتينا، حين تأتي البدينة قولوا لها إن لديّ حالة حداد، خبر باعث للأسى، العمّ أو نحوه، ولن آتيَ اليوم عند الظهيرة، أجل، إنها لا تحتاج إلى أن تنتظر، وعلى هذا فما الذي يُفْضي إليه هذا؟» «قدح من البيرة، كما هو مألوف» «هكذا» «والرزمة تدعها هنا؟» أية رزمة هذه؟» «كلاّ، لقد ضبطتَ ذلك ضبطاً كما ينبغي أن يكون، يابيبركوبف، لا تجعلنَّ من هذه أموراً فوضوية يختلط بعضها ببعض، أمّا الرزمة فأنا أحفظها» «وأية رزمة هذه؟» «أفٍّ لك، أخرج يا رجل، إلى الهواء الطلق».

بيبركوبف في الخارج، والمضيف يتابعه بعينيه من خلال لوح الزجاج، أتراهم لن يأتوا بهذا من جديد على الفور؟ فهذه أمتعة، رَجُله القوي، أمّا البدينة فسوف تتولاّها الدهشة».

وكان رجل شاحب قصير يقف قبالة المنزل وقد وضع ذراعه اليسرى في العصابة

ويده في القفاز الجلدي الأسود، وكان قد أنفق ساعة هنا، تحت الشمس، وهو لا يصعد إلى أعلى وهو قادم لتوّه من المستشفى، ومعه ابنتان طويلتان، وقد لحق به ولده الصغير فيما بعد، وكان في الرابعة من العمر، وقد مات هذا بالأمس في المستشفى. وفي البداية كانت المسألة مجرد التهاب في الرقبة، وقال الطبيب إنه يزمع العودة على الفور، غير أنه لم يأت إلاّ في المساء، وهو يقول على الفور: المستشفى، اشتباه بحالة خناق، فالغلام يرقد هنا منذ أربعة أسابيع وكان قد أصبح على ما يرام تماماً، وعند ذلك أصيب، فوق ذلك، بالحمى القرمزية، وبعد يومين، أي بالأمس، قضى نحبه، ضعف في القلب، كما قال كبير الأطباء.

ويقف الرجل قبالة باب المنزل، وسوف تصرخ الموجودة في الطابق العلوي، وتبكي، كما فعلت بالأمس، الليل بطوله، وتأخذ عليه أنه لم يُخْرج الغلام قبل ثلاثة أيام، إذ كان على ما يرام تماماً، ولكن الممرضات قُلْنَ إنه مازال عنده جراثيم في الرقبة، ومثل هذا يُعَدُّ خطِراً ما دام يوجد في المنزل أطفال، وأَبَت المرأة أن تصدق ذلك لدى الوهلة الأولى، ولكن من الممكن، بلا ريب، أن يكون حدث شيء ما لدى الأطفال الآخرين، ويقف، وهُنَّ يصرخن قبالة منزل الجيران. وفجأة يخطر بباله أنه قد قيل له في المستشفى، حين جاء بالطفل إليه، هل تلقىّ من قبل حقنة مع المصل، فقال: كلاّ، لم يتلقَّ بعدُ حقنة، وقال إنه لبث طوال النهار ينتظر، ولم يأت الطبيب إلاّ في المساء، ثم قالوا: إنه انصرف على الفور.

وعلى الفور يضع الرجل نفسه في موقع التصرُّف السريع حيال شلل الحرب، فهو يعبر السد، صاعداً الطريق حتى الناصية، إلى الطبيب الذي قيل إنه ليس في المنزل، غير أنه يزمجر، فهذا وقت الضحى، ولا بُدَّ للطبيب أن يكون في البيت، وينفتح باب حجرة الكشف. وينظر إليه السيد الأصلع، المكتنز، ويجرُّه إليه فيدخله الحجرة. ويقف الرجل، فيتحدث عن المستشفى، لقد مات الطفل، ويصافحه الطبيب.

«غير أنك تركتنا ننتظر، طوال يوم الأربعاء بأسره، من الصباح حتى الساعة

السادسة مساء، ولقد أرسلنا في طلبك مرتين، ولم تأتِ» «لقد أتيت ، بلا ريب» ويعود الرجل من جديد إلى الزمجرة: «أنا رجل ذو عاهة، لقد نزفت دماؤنا في الميدان؟ والقوم يَدعوننا ننتظر، وهذا ما يستطيع القوم أن يُقدِموا عليه معنا». «والآن هلاّ جلست أخيراً، ولتهدِّئ نفسك، بربِّك. فإن الطفل لم يمت أبداً بالخُناق. ففي المستشفى تَرِدُ أمثال هذه الحالات من العدوى» «ثمة مصيبة تذهب ومصيبة تُقْبِل. ويتابع زمجرته. «القوم يَدعوننا ننتظر، فنحن عمّال سُخْرة، وفي وسع أطفالنا أن يفْطَسوا، كما فَطِسْنا».

وبعد نصف ساعة ينزل على السُلَّم ببطء، ويلتفت في الأسفل، تحت الشمس، ويذهب إلى الأعلى. وزوجته تمارس بعض الأعمال في المطبخ. «ماذا، يا باوْل؟» «ماذا يا أماه» ويتصافحان وينكِّسان رأسَيْهما. «أنت لمّا تأكل بعد، ياباوْل، وسأُعِدّ لك طعاماً على الفور» «لقد كنت هناك، عند الطبيب، لقد قلت له إنه لم يأتِ يوم الأربعاء، لقد قلت له الكلام الذي يستحقه» «لا ريب في انه لم يمت بالخُناق، فَتانا الصغير، باول» «هذا ليس له أهمية. لقد قلت له ذلك، ولكن لو أنه تلقى على الفور حقنة، لما احتاج على الإطلاق إلى دخول المستشفى. أقول لما احتاج إلى الذهاب إلى هناك على الإطلاق. ولا بُدَّ للمرء أن يفكر في أناس آخرين، عندما يَرِدُ شيء كهذا، مرة أخرى. ومثلا هذا يحدث في كل يوم، من يدري» «دَعْ عنك هذا، وكلْ شيئاً. وماذا قال الطبيب، يا تُرى». «إنه بالطبع رجل طيب، ثم إن الرجل، ليس بالأحدث سناً، ويترتَّب عليه أن يعمل ما يعمل، ولا بُدَّ له أن يكدَّ ويكدح. أعرف ذلك وحدي، ولكن حين يحدث ذات مرة ما يحدث، يحدث شيء ما. لقد قدَّم إليّ قدحاً من الكونياك، وينبغي لي أن أهدّئ ثائرة نفسي، وقد دخلت علينا السيدة زوجة الطبيب» «لابُدَّ أنك أفرطت في رفع عقيرتك، ياباول». «كلاّ، على الإطلاق، في البداية، وبعد ذلك اتخذ كل شيء مساراً سلمياً. وقد سَلَّم هو ذاته بذلك: لا بُدَّ أن يقول له هذا أحد من الناس. على أنه ليس بالفتى السيّء، ولكن لا بُدَّ للمرء أن يقول ذلك».

وكان يرتعد ارتعاداً شديداً، بينما كان يأكل، وكانت زوجته تبكي في الحجرة

المجاورة ، ثم يشربان القهوة معاً لدى الموقد . «قهوة البن ، ياباول» ويتشمم الهواء من فوق فنجانه ، قائلاً: هذا ما يصل إلى الأنف» .

غداً، في القبر البارد، كلا فسوف نعرف كيف نتحكم في أنفسنا

لقد توارى فرانتس بيبر كوبف ، ولينا تذهب ، بعد الظهر ، في اليوم الذي تلقى فيه الرسالة ، إلى حجرته ، وهي تزمع أن تعرض عليه ، في الخفاء صديرياً مطرّزاً بنّياً ، كانت هي قد صنعته .

إذا كان الرجل يقعُد لكِ في البيت على وجه اليقين ، حيث يذهب في العادة للبيع ، وعلى وجه الخصوص الآن ، من أجل عيد الميلاد ، يقعد القرفصاء على سريره ، وقد اجتذب المائدة إليه ، وهو يعبث بساعته ذات المنبِّه التي كان قد فكّك أجزاءها بعضها عن بعض ، على أنها لا ينتابها الفزع إلاّ حين تطّلع على وجوده ، وربما حين تكون قد رأت الصُدَيْريّ ، غير أن هذا لا يكاد ينظر إليها ، بل يظل ينظر ، على الدوام ، إلى المائدة وإلى ساعته ، على أنها ترى هذا أمراً حسناً للغاية ، وتستطيع أيضاً أن تحشر الصُدَيْريَّ على نحو ثابت ، على الباب ، غير أنه يغدو بعد ذلك قليل الكلام للغاية ، فماذا أصابه فحسب ، وهو الذي كان له قطّ ، وأيُّ وجه هذا الذي يصطنعه ، إنّني لا أعرفه بهذه الصورة أبداً ، وهو يعبث بالمنبِّه القديم ، وهذا ما كان يفعله في حالة التعب والذهول . «ما من شك في أن المنبِّه كان على ما يرام تماماً ، يا فرانتس» «كلاّ ، كلاّ ، لم يكن على ما يرام ، دَعْ عنك هذا ، يا رجل ، فإنه ما يفتأ يُقَرْقِر ، كما أن جرسه لا يدق على الوجه الصحيح ، كما سيتبيّن لي» وهو يعبث به ، ويَدَعه راقداً ، ويحك أسنانه ، أما هي فلا ينظر إليها على الإطلاق . هنالك تتوارى مسرعة من دون أن تلفت النظر ، وقد ساورها شيء من الخوف ، ينبغي له أن ينام ذات مرة نوماً كاملاً . وحين تعود أدراجها في المساء يكون الرجل قد انصرف . وكان قد دفع ثمن ما تناول وحزم أمتعته وأخذ معه كل شيء ، وانصرف . أما المضيفة فكل ما تعرفه هو أنه دفع ثمن ما طلب ، وأنه يفترض فيها أن تكتب على رقعة الإبلاغ: خرج يضرب في الأرض ، ولا بُدَّ له أن يبتعد من دون أن يلفت الأنظار ، هذا ، ماذا؟

ثم استغرقت المسألة أربعاً وعشرين ساعة، إلى أن تجد لينا آخر الأمر، الفتى غوتليب مِلْك، الذي يستطيع أن يساعد، وكان الرجل متقبّض الوجه، وكانت تبحث عنه من محل إلى آخر وأخيراً ظفرت به، وهو لا يعرف شيئاً، وما الذي آل إليه أمر فرانتس يا تُرى، لقد بات الرجل ذا عضلات، كما أنه من الشُطّار الماكرين، ومن الممكن أن يكون قد رحل، أتسأل أتُراه ربما فرغ من تناول طعام ما؟ هذا مستبعد تماماً في حالة فرانتس، ربما حدث بينهما شجار، لينا وفرانتس، ولكن لم يحدث ذلك على الإطلاق، فأين يكون يا تُرى، لقد جئته بالصديريّ. ولم يذهب مِلْك إلاّ في ظهر اليوم التالي، إلى المضيفة، على أن لينا لا تتوانى ولا تُحْجِم، أجل، لقد خرج فرانتس بيبركوبف، بسرعة بالغة، وهنا كان ثمة شيء غير صحيح. لقد كان هذا الرجل، على الدوام، مخلصاً يمكن الاعتماد عليه، وحتى في الصباح لا بُدَّ أنه كان ثمة أمر يجري على قَدَم وساق، وأنا مُصِرَّة على هذا: لقد ذهب بكل ما كان في الحجرة، ولم يخلِّف من أمتعته، شيئاً، وهنا تأتي أنتَ لترى. هنالك قال مِلْك يخاطب لينا: يالينا، ينبغي للمرء أن يكون هادئاً، وإنه سوف يحقق في المسألة، ويفكر فيها مَلِيّاً، وعلى الفور يظفر بحَدْس صادق، بصفته تاجراً، ويذهب إلى لودَرْز. وكان هذا يقعد عند مبناه، مع ذويه وأتباعه، وأين فرانتس؟ ويقول هذا بعناد وإصرار، إنه قد خلَّفه هناك قاعداً، وإنه قد ظل، حتى مديناً له. وقد كان فرانتس نسي تسوية الحساب معه. على أن مِلْك لا يصدق هذا الآن على الإطلاق ويمتد حديثهما على مدى ساعة، ولكن الرجل لا يمكن استخلاص شيء منه، ثم يضبطه عند المساء بعد ذلك، مِلْك، ولينا، في الحانة، معه، قاعدةً قُبالَته. وهنا تنتهي المسألة إلى جَلَبة.

وإذ بلينا تنعق كالبومة، وتشير إلى شيء ما. وتقول إنه لا بُدَّ له، بلا ريب، أن يعلم، أين يكون فرانتس، فلقد كانا، بلا ريب، معاً، وقت الضحى، وما من شك في أين فرانتس سيكون قال شيئاً ما. كلمة وحيدة. «كلاّ، بل لم يقلْ شيئاً» «لا بُدَّ أنه حدث له شيء ما» «يحدث لهذا شيء ما؟ لا بُدَّ أنه خليق أن يلبس لكل حالة لَبوسَها، وماذا إذاً» كلاّ، فإن هذا لم يأكل شيئاً. وهنا تأبى لينا أن تقتنع، إنه

لم يصنع شيئاً، إنها تضع يدها في النار، ولا بد للمرء أن يتوجه بالسؤال إلى الشرطة «هنا تقول أنت، لقد ضلَّ هذا سبيله، وهؤلاء ينبغي لهم أن يقضوا عليه» ويضحك لودرز، إنه تفجُّع الشخصية القصيرة البدينة. «ولكن ماذا نصنع، ماذا نصنع؟ إلى أن يغدو ذلك، بالنسبة إلى مِكْ، الذي لا يزيد، دائماً، على أن يقعد ههنا، ويفكر في نصيبه، شيئ لا يُطاق، ويَهَبُ للفتى لودرز إيماءة برأسه، إنه يريد أن يخلُوُ ذات مرة إلى لودرز ويتحدث إليه، وهذا كله ليس بذي جدوى. وعلى هذا يُعَدِّل لودرز، ويخوضان في حديث متكلِّف يشيع فيه الرياء وهما يصعدان في شارع راملَر، إلى أن يبلغا شارع الحدود.

ومن هنا، حيث يسود الظلام الدامس، أقبل مِكْ، على نحو مفاجئ تماماً، على الفتى لودرز القصير، وكان قد ضربه ضرباً رهيباً، وحين كان لودرز يزمجر، راقداً على الأرض، كان مِكْ قد أخرج منديل جيبه من سترته، وضغطه على فم هذا، ثم تركه ينهض قائماً، وأظهر للقصير مُدْيته المكشوفة، وكان كلاهما من دون هواء للتنفُّس، ثم إن مِكْ، الذي لمّا يَثُبْ إلى رشده بعد، نصح الآخر بأن يلوذ بالفرار من دون أن يلفت الأنظار وأن يزور فرانتس في الصباح. «يهمني، أيها لفتى أن تعثر عليه، فإذا لم تعثر عليه فسوف نلتقي، نحن الثلاثة. أما أنت فنحن نجدك منذ الآن، ياغلام، ولو كان ذلك عند شيوخك».

وجاء لودرز القصير، شاحباً، ساكناً، في الأمسية التالي، بإشارة من مِكْ، قادماً من الحانة. ودخلا حجرة النزلاء، .واستغرق الأمر وقتاً طويلاً، إلى أن أوقد المضيف لهما الغاز، ثم وقفا هنا. وقال مِكْ يسأله: «ماذا، هل كنت هناك؟ فأومأ هذا برأسه موافقاً «أنت ترى هذا، وماذا بعد؟.

لا مزيد بعد هذا» «وماذا قال إذاً، وكيف تستطيع أن تثبت أنك كنت هناك» «أتحسب، يامِكْ أن هذا لم يكن له بُدٌّ أن يذهب بعقلي، مثلك، كلاّ، لقد كنت على أهبة الاستعداد لهذا» «دَعْ هذا، وماذا الآن؟».

واقترب لودرز منه ساكناً: «انتبه، يامِكْ، واصْغِ إليّ، فإذا استمعت إليّ: فأنا

أريد أن أقول لك ، حين يكون فرانتس صديقك الذي كنتَ في حاجة ، بسببه ، إلى أن تتحدث إلي بهذا الحديث ، فسرعان ما بات هذا قتلاً ، حيث لم يكن ثمة شيء بيننا كلَيْنا ، على الإطلاق ، أما بسبب هذا ، فلا» . إذا استطعت أن تدخل ، فإن قَدْراً كبيراً من الناس يريدون ذلك «كلاّ ، فما من شك في أنَّ هذا مجنون! ألم تلاحظ ذلك ، ياملِكْ؟ المسألة عند هذا ليست أصحَّ هنا ، في الأعلى ، في الحجرة العلوية الصغرى» «كلاّ ، الآن فلتُمسِك ، فإن هذا صديقي ، وهي ، مشيئة الله ، إن ساقيَّ لتتراقصان» ، ثم يتحدث لودرز ، ويقعد مِلْك .

وكان قد لقي فرانتس بين الخامسة والسادسة ، وكان يسكن سكَناً ملاصقاً تماماً لمسكنه القديم ، على بُعْدِ ثلاثة منازل ، وكان الناس قد رأوه ، بالطبع ، ومعه علبته من الورق المقوّى وزوج من الأحذية ذوات الساق ، في يده ، داخِلاً ، وهناك استقبلوه حقاً ، في المبنى المستعرض ، في حجرة من الحجرات ، وحين يدخل لودرز الآن ويقرع الباب ، ويدخل ، يكون فرانتس راقداً على السرير ، وكان قد ترك قدميه في الحذاء ذي الساق تتدليان . على أنَّ لودرز يميِّز هذا ، وكان يتقد في الأعلى مصباح كهربائي ، وهذا هو لودرز ، هنالك يدخل المتشرِّد ، ولكن ماذا دها هذا ، لقد كان للودرز سكين مكشوفة في جيبه الأيسر ، حيث كان يدسُّ يده ، وكان لديه في الآخر نقد ، بضعة ماركات ، يضَعها على المنضدة ، ويتحدث فيفرط في الحديث ، ويلتفت يمنة ويُسْرة ، وله صوت أَجَشّ ، ويكشف عن أورام في رأسه كان مِلْكْ قد ضربه فأحدثها ، وعن أذنيه المتورِّمتين ، وهو حاضر هنا لكي ينعق نعيق الغراب من الغيظ والغضب .

وكان بيبركوبف قد جلس منتصباً بجذعه ، وكان وجهه يتسم بالقسوة الكاملة أحياناً ، وفي بعض الأحيان ترتعد في وجهه حُزَم صغيرة ، ويشير إلى الباب ، ويقول بصوت خفيض: «أخرج من هنا ، فإن لودرز قد بسط مارْكاته ، وكان يفكر في مِرْك ، وفي أن هؤلاء سوف يترصَّدون له ويكمنون ويلتمس رقعة من الورق ، قائلاً إنه هنا ، وهل يمكن لِمِرْك ذاته أن يصعد إليه ، أو لينا .

هنالك ينهض بيبركوبف قائماً ، قياماً كاملاً ، وفي هذه اللحظة يمرُق لودرز

من الباب وقد جعل يده على الأُكْرة، غير أن بيبر كوبف يسير منحرفاً إلى الخلف، نحو منصَب الغسيل، فيتناول حوض الغسيل و- ماذا تقول- ويصب الماء في اندفاع وعنفوان، في الحجرة، أمام قَدَمَيْ لودرز.

من التراب أتيت وإلى التراب تعود من جديد. ويفتح لودرز عينيه بقوة، ويتنحّى جانباً ويضغط على الأكرة. ويتناول بيبر كوبف إبريق العسيل، وكان ما يزال فيه مزيد من الماء، مازال عندنا منه الكثير، وسوف نقيم مائدة، من التراب أتيتَ، ويصبُّه باتجاه من يوجد لدى الباب، فيتناثر على عنقه وفمه، ماء بارد كالجليد، ويمرُق لودرز خارجاً، وقد غدا بعيدا، والباب مغلق.

وفي حجرة النزلاء يهمس بعبارة لاذعة، قائلاً: «هذا مجنون، وهذا ما تراه بلا ريب، ها انت ذا ترى» وسأل مِكْ: «أي رقم كان هذا؟ وعند مَنْ؟».

وبعد ذلك كان بيبر كوبف ما يزال يقذف بحمولة في أثر حمولة، إلى الحجرة، وكان ينثر الماء بيده في الهواء: «لا بُدَّ أن يغدو كل شيء نظيفاً، وأن يولّي كل شيء، والآن فلأنظف النافذة أيضاً ولأنفخ عليها، فليس لنا علاقة بذلك «ليس هناك انهيارات في المنازل، ولا انزلاق لأسقف. فقد خلَّفنا هذا وراءنا، وراءنا، مرة وإلى الأبد» وكان يحملق، حين اشتد البرد عند النافذة، في أرض الحجرة، إذ لم يكن للمرء بُدٌّ من الإزالة بالمسح ففي وسعه أن يدع الرذاذ يتساقط على الرأس، وبذلك يصنع بُقَعاً. وأَوْصَد النافذة، ورقد في وضع أفقي على السرير «ميتاً، من الأرض خرجت، وإلى الأرض تعود من جديد».

ويَصْفُقُ بيديه، صَفْقاً، ويحاكي بقدميه الصغيرتين خطوات الخَبَب.

وعند المساء ما عاد هذا المدعو بيبر كوبف يسكن في الحجرة، أمّا إلى أين خرج فذلك ما لم يكن في وسع مِكْ أن يقرِّره، وقد أدخل معه لودَرْز القصير، الذي كان ينطوي على تصميم ينطوي على الخبث والمكر، في حانته، حيث يكون تجاه الماشية، وكان يُفْتَرَض في هؤلاء أن يستجوبوا لودرز، ويسألوه عمّا كان، وما جرى للرسالة التي كان صاحب الدكان الصغير قد تلقّاها. على أن لودرز ظل قاسِيَ القلب، وكان

يبدو بالغ المكر والغدر إلى حَدّ حملهم على أن يَدَعوا ذلك الشيطان المسكين يُفْلِت منه. وقال مِلْك ذاته» لقد نال هذا عقابه».

وكان مِلْك يقلّب النظر في المسألة على وجوهها: هذا الفتى، فرانتس، إمّا أن يكون خدع لينا، وإمّا أن يكون استاء من لودرز وسَخِط عليه، وإمّا أن تتخذ المسألة شكلاً آخر. لقد قال تجّار الماشية: «هذا المدعو لودرز نصّاب، وما يرويه هذا ليس فيه كلمة صحيحة. وربما كان مجنوناً كذلك، هذا المدعو بيبر كوبف. لقد كانت تراوده الخواطر منذ تلك الأيام في صدد شهادة المهنة، ولم يكن يحوز سلعة بعدُ، ومثل هذا يتبيَّن بعد ذلك دفعة واحدة مع الغيظ» وظل مِلْك على هذا: «هذا شيء يمكن أن يصيب الإنسان في كبده، ولكن ليس في رأسه. فالرأس مستبعد كل الاستبعاد. وما من شك في أن هذا رياضيّ، يمارس الأعمال الشاقّة، وقد كان ناقلاً للأثاث من الدرجة الأولى، ناقلاً لأجهزة البيانو ونحوها. على أن المسألة تأتي عند هذا على وجه الخصوص مثل الضربة على الرأس، وهذا الفتى حسّاس، وهنا لا يمارس الدماغ عمله إلاّ قليلاً، وإذا فعل نفد صبره وأصابه اللُّهاث على الفور. «ما علينا، وكيف الحال بالنسبة إليكم، معشر تجار الماشية، وبالنسبة لعملياتكم؟ فأنتم بلا شك، توجدون جميعاً فوق السد» «وتاجر الماشية يتميَّز ببشرة قرنية قاسية، فيا للعجب، لو أراد هؤلاء البدء في الاستياء لاستطاعوا أن يذهبوا جميعاً إلى هيرتسبيرغه. ونحن لا نستاء ولا يتولاّنا الغيظ أبداً. أما طلب السلعة، ثم ترك الواحد بعد ذلك قاعداً، أو عدم الرغبة في الدفع، فهذا ما يحدث، بلا ريب للواحد منا، بلا ريب، في كل يوم، وذلك أن الناس لا يتوافر لديهم المال دائماً» «أو أنهم لا يملكون على حد سواء السيولة الكافيه» .

وكان أحد تجار المواشي ينظر إلى صديريّه القذر: «وذلك أنني أشرب في المنزل، القهوة، من طبق الفنجان، فمذاقها أفضل، غير أنها أحفل بالماء وأكثر سيولة» «لقد كان من الواجب عليك أن تربط كأساً حول عنقك» «إن امرأتي العجوز تضحك، وإن يديها تجنحان إلى الارتجاف، أنظر نظرةً».

ولا يعثر مِلْك ولينا على فرانتس بيبر كوبف، ويبحثان عنه في أنحاء نصف برلين، ولا يجدان هذا الإنسان.

الكتاب الرابع

والحقيقة أن بيبر كوبف لم تُصِبه مصيبة، وسوف تتولّى القارئ العادي الدهشة ولكن فرانتس بيبر كوبف ليس بالقارئ العاديّ، وهو يلاحظ أن مبدأه مهما يكن من بساطته، فلا بُدَّ أن ينطوي على نقيصة في موضع ما، كائناً ما كان، وهو لا يعرف أين يكون ذلك. غير أنه معرفته أنه هو الذي كان ينطوي على النقيصة كانت تدفع به إلى تكدُّر بالغ الفداحة.

وسوف ترون الرجل هنا يشرب الخمر، ويظهر أنه يكاد يكون تائهاً ضل طريقه، غير أنه لمّا يَغْدُ قاسياً إلى حد بعيد، إذ يتمُّ الحِفاظ على بيبر كوبف من أجل أمور أشد سوءً ووَبالاً.

حفنة من البشر حول أليكس

وكانوا في ميدان الإسكندر يَشُقُّون السدَّ الترابي من أجل خط المترو، وكانوا يسيرون على ألواح. وكانت الحافلات الكهربائية تسير نحوه، عبر شارع مُنْتس، لتصل إلى بوابة روزنتال. وتوجد شوارع عن اليمينِ وعنِ اليسار. وفي الشوارع يقوم المنزل إلى جانب المنزل. وهذه مترعة بالبشر من أَقْبِيتها إلى أرضيَّتها. وفي الأسفل توجد الدكاكين والمحالّ.

وكانت توجد الحانات والمطاعم ومحالّ بيع الفاكهة والخضار والسلع المستوردة، من المستعمرات والطيِّبات من المآكل، ومقاولات النقل والرسم الزخرفيّ «الديكوريّ» وصنع قطع الملابس بالجملة، ومصانع الدقيق ومطاحنه، ومرائب السيارات، وجمعيّات الإطفاء وتعدُّ مزية المطافئ ذات المحرك الصغير تركيباً بسيطاً، وخدمة يسيرة، ذات الوزن الخفيف والحجم الضئيل- الأتباع الألمان لما يسمى بالمجتمع المحليّ الشعبي الألماني، وما من شعب تعرَّض للمخادعة والتضليل على نحو أكثر إثارة للاشمئزاز قطُّ مثلما تعرَّض له هذا الشعب، ولم يسبق قطُّ أن تعرَّضت للتضليل على نحو أدعى إلى الاشمئزاز، وأكثر ظلماً مما تعرَّض له الشعب الألماني. أَوَ ما زلتم تعرفون كيف وَعَدَنا شايديمَنْ، في التاسع من تشرين الثاني من عام ١٩١٨، من شرفة نافذة الرايشستاغ، بالسلام والحرية والخبز؟ وكيف وَفى القوم بوعودهم!- فهذه المقالات التي تتحدث عن شق قنوات الصرف الصحي، وجمعيات تنظيف النوافذ، والنوم دواء، وسرير شتاينر الفردوسي، - ثم المكتبة، مكتبة الإنسان العصري، الطبعات الكاملة لشعرائنا ومفكرينا، تأتلف معاً في مكتبة

للإنسان الحديث، إنهم كبار الممثلين للحياة الفكرية الأوروبية– أما قانون حماية المستأجر فمجرد قطعة من الورق، والإيجارات تتصاعد تصاعداً دائماً. والطبقة الوسطى، طبقة الحرفيين تُطْرَح على أرض الشارع وتُخْنَق، ويحظى المُحْضِر القضائي بعوائد كبيرة، ونحن نطالب بقروض عامة تصل إلى مستوى ١٥٠٠ مارك، للمهن الصغيرة، وبالحظر الفوري لكل الرهون في حالة الممارسين للمهن الصغيرة – على أنَّ التصدي للساعة العصيبة مع حُسْن الاستعداد لها إنما هو رغبة كل امرأة وواجبها. وكل تفكير وإحساس عند المرأة التي توشك أن تصبح أمّاً يدوران حول الجنين الذي لمّا يولَد. وهنا يكون اختيار المشروب المناسب للأم أثناء الحمل ذا أهمية خصوصية. ثم إن بيرة الشعير بالكراميل، الأصلية، أي بيرة إنغلْهارت، تتمتع، كما لا يكاد يتمتع به مشروب آخر، بخصائص المذاق الحَسَن، والطاقة الغذائية، وتُعَدُّ صحيّة، سهلة الهضم، مرئيةً. وبالمفعول المنعش– ولتزوِّدي طفلك وأسرتك بعقد صفقة تأمين على الحياة لدى مؤسسة رينتن السويسرية، زوريخ– ويضحك قلبها! يضحك قلبها من فرط السرور، حين يملكَان منزلاً مجهَّزْ بقطع الأثاث المشهورة من صنع هوفنر، وكل ما يحلمان به من أسباب الراحة والرفاهية في السكنى يتفوَّق عليه واقع لم يسبق تصوُّره، ومثلما تتبدَّد السنون يظل هذا المنظر مما يروق للناظرين، كما أن ديمومته ومقاومته للبِلى وإمكانات استعماله العملية يظلان يبعثان السرور دائماً من جديد– .

ثم إن جمعيات الرعاية تحمي كلَّ شيء، وهي تروح وتغدو، هنا وهناك، وتتغلغل في الأماكن وتطل ببصرها على الداخل، وتدسُّ ساعات وجرساً للإنذار، وتُرَتِّب خدمة لصالح الحماية من أجل برلين الكبرى، وخارج برلين، كما تُرَتِّب تأهُّب الحرس من أجل ألمانيا وتأهُّب حرس برلين الكبرى، وقسم الحراسة السابق لقسم اقتصاديات المطاعم، الخاص بمُلاّك الأراضي في برلين، المؤسسة المتحدة، مركز حراسة الغرب، شركة الحراسة، شركة سِرلوك، الأعمال الكاملة لشرلوك هولمز، تأليف كونان دويْل، شركة الحراسة لبرلين والأماكن المجاوِرة، الحارس مربّياً، وفلاكسمن مربياً، منشأة الغسيل، أبول، لإعارة الملابس الداخلية، مغسلة أدلر تتولّى القيام بكل أنواع الغسيل، من اليدوي، وغسيل الملابس الداخلية، اختصاص بالملابس الداخلية الحساسة للسادة والسيدات.

ولكن يوجد فوق الدكاكين، وتحتها، مسكن، وفي الخلف تأتي بعدُ أَفْنِية، ومُلْحق، ومبنىً مستعرض، ومنازل خلفية ومنازل ذوات حدائق، وشارع للخطوط، وهذا هو المنزل الذي تسلَّل إليه فرانتس بيبركوبف، بعد المصيبة التي أصابته مع لودرز.

ويوجد في المقدَّمة محل جميل لبيع الأحذية، له أربع من نوافذ العرض متألِّقة، وفيه ست من الفتيات يقمن بأعمال الخدمة أيْ أنهن إذا اقتضى الأمر خدمة امرئ ما، نِلْنَ ثمانين ماركاً في الشهر عن الرأس الواحد، وحين ترتقي المسألة وتحقق تقدَّماً، ويَكُنَّ قد اعتراهن المشيب، ينلن مائة مارك. ويعود المحمل الجميل، الكبير، لبيع الأحذية إلى امرأة عجوز، كانت قد تزوجت مدير محلها، ومنذ ذلك الوقت تنام في الخلف، كما أن أحوالها لا تسير على ما يرام. وهو رجل وسيم ذو قامة رياضية، وقد ارتقى بالمحل، غير أنه لمّا يبلغ الأربعين ثم ترقد العجوز يقظانة مُسَهَّدة، ولا تستطيع أن تنام من شدة الغيظ، وفي الطابق الأرضي يوجد السيد المحامي، وهل يدخل الأرنب الصغير البريّ، في دوقية زاكسِن ألتنبورغ، في عداد الحيوانات التي يمكن اصطيادها؟ على أن المُدافع يجادل بغير وجه حق في افتراض المحكمة العليا للأقاليم أن الأرنب الصغير البري يمكن أن يُعَدَّ، في دوقية زاكسِن ألتنبورغ، قابلاً لأن يُصاد. على أن تقرير ماهية حيوانات الصيد وماهية تلك الحيوانات التي تخضع للقنص الحر للحيوانات، تطوَّرت في ألمانيا، في كل إقليم من الأقاليم على حدة، تطوُّراً مختلفاً. ومع نقص التعليمات القانونية الخصوصية يكون القول الفصل في هذا القانون للعرف والعادة. وفي مشروع القرار الخاص بقانون شرطة الصيد، الذي يرجع تاريخه إلى ٥٤/٢/٢٤، كان الأرنب الصغير لا يُذْكَر بعد. وعند المساء، وفي الساعة السادسة تشرع المضيفة في عملها في المكتب، فتكنِس وتغسِل اللينوليوم في حجرة الانتظار، وكانت المسألة لمّا تصلْ بعد إلى مستوى شَفّاطة للغبار، وإلى حالات شحّ وتقتير قديمة، حيث لا يكونُ الرجل حتى متزوّجاً، والسيدة تسيسكه تتفوَّه بما يصدر عن ربة المنزل من ألوان السباب والشتائم، التي يفترض مع ذلك أن تعرفها. على أن المضيفة تَدْعَكُ وتمسح بعنف، وهي نحيفة إلى حَدٍّ رهيب يبعث على

الانقباض، غير أنها ذات مرونة، فهي تكدح من أجل طفليها الاثنين، أما أهمية ألوان الدسم في التغذية، فإن الدسم يكسو النتوءات العظمية المتقدمة ويحمي النسيج الراقد تحتها، من الضغط والصدمات. ومن أجل ذلك يشكو أولو الدرجات العالية من الهُزال مما يحِسّون به من الألم في أخمص القدمين عند المسير، غير أن هذا لا ينطبق على المضيفة.

ويجلس في الساعة السابعة مساءً، إلى مكتبه، السيد المحامي لوفينهوند، ويعمل من وراء مصباحَيْ مكتب يتقدان. أما الهاتف فيتفق أنه لا يعمل. وفي القضية الجنائية المسماة قضية غروسّ أ ٨٧٨٠–٢٧، أُسَلِّم، في المَرْفَق، تفويضَ السيدة المتَّهمة غروسّ لي، وألتمس، بكل الطاعة والامتثال، أن يتاح لي إذن عام بالتحدُّث إليها– إلى السيدة أوجيني غْروس، في برلين، سيدتي الموقَّرة، السيدة غروس، لقد كان مما أنْتويه منذ زمن بعيد، أن أزورك مرة أخرى. ونتيجة لعبء العمل الذي أنوء به، لم يكن من الممكن عندي مع ذلك أن أقوم بهذه الزيارة. وأنا آمل، على وجه اليقين، أن أتمكن من زيارتك يوم الأربعاء القادم، وأرجو منك أن تعتصمي بالصبر حتى ذلك الوقت. مع فائق التقدير والاحترام.

أما الرسائل وتحويلات مبالغ المال والعناوين المدوَّنة على الرزم فيمكن التزويد بها مع العنوان الشخصي بشرط إضافة رقم السجين، أمّا مكان الوصول فهو: برلين NW52، موآبيت، ١٢.

– إلى السيد تولْمن. أما في صدد ابنتك فلا بُدَّ لي أن ألتمس مزيداً من الأتعاب، وذلك ما يصل في الحقيقة إلى ٢٠٠ مارك، وأدع تقرير دفعات الأقساط ليكون لك القول الفصل فيه. والأمر الثاني: هو العرض من جديد– سيدي المحامي الموقَّر، لمّا كنت أودُّ زيارة ابنتي التعيسة في موآبيت، غير أنني لا أعرف إلى مَنْ يترتَّب عليَّ أن أتوجَّه فأنا أودُّ أن أرجوك من كل قلبي أن تحرص على تدبير مسألة متى أستطيع أن أجيء إلى هناك، وأن أتقدم، في الوقت ذاته بالتماس تمكيني من أن أوصِل للابنة ذاتها كل أربعة عشر يوماً، صُرَّة صغيرة من المواد الغذائية. وأنا في انتظار خبر بلا رَيْث أو إبطاء، وأحبُّ ما يكون ذلك بالنسبة ليَّ في نهاية هذا الأسبوع أو في مستهل الأسبوع

التالي . أما السيدة تولمن ، «والدة أوجيني غروس» فإن المحامي لوفِنهوند يقف قائماً ، وسيجاره في فمه ، وينظر من خلال شق الستار . إلى شارع الخطوط ، ويقول في نفسه: هل ينبغي لي أن أتصل بها هاتفياً ، أم لا ينبغي لي ذلك ، الأمراض الجنسية من حيث كونها مصيبة مُسْتَحَقَّة ، «يستأهِلُها من يصاب بها» ، «المحكمة العليا ذات الدرجة الثانية» ، فرانكفورت ١ ، C5 ، وقد يكون تصوُّر المرء للإباحية الأخلاقية فيما يتعلق بالمعاشرة الجنسية عند الرجال غير المتزوجين ، أقلَّ صرامة ، ويترتَّب عليه أن يُسلِّم ، بلا ريب ، بأن هناك ، في العلاقة القانونية ، استحقاق للذنب ، أو استئهال للعاقبة الوخيمة ، وأن المعاشرة الجنسية خارج نطاق الزواج تُعَدُّ ، كما يقول شتاوب ، تطرُّفاً وغُلُوّاً يرتبطان بأخطار ، وأن هذه الأخطار لا بُدَّ أن يتحملها ذلك الذي يتحمَّل أعباء هذا التطرُّف والغُلُوّ ، مثلما ينظر بلانك ، في إطار هذا التحديد ، إلى الإصابة بالمرض ، الناجمة عن معاشرة جنسية خارج نطاق الزواج ، عند من يلتزم بخدمة العلم ، حتى على أنها اعتلال ناجم عن انعدام للتبصُّر والحذر يتسم بالفظاظة والجلافة ، ويتناول السمّاعة ، دائرة كولونيا الجديدة من فضلك ، أما الرقم فموجود الآن عند بيرفالد .

الطابق الثاني: المدير وأربعة أزواج مكتنزون ، الأخ مع زوجته ، والأخت مع زوجها ، ومعهما بنت صغيرة .

الطابق الثالث: رجل في الرابعة والستين ، يعمل في تلميع الأثاث ، ذو صلعة ، وابنته امرأة مطلَّقة ، تؤمِّن له إدارة المنزل ، وهو ينزل في كل صباح على السُلَّم محدثا وَقْعَ أقدام وجَلَبة ، وقلبه في حالة سيئة وسوف يسجل نفسه عما قريب في سجل المرضى «تصلُّب الشريان التاجي ، تدهور حالة العضلة القلبية» . وقد كان ، فيما سلف ، يمارس التجذيف ، فماذا يستطيع أن يفعل الآن؟ أما في المساء فيقرأ الجريدة ، ويشعل الغليون ، وتضطر الابنة بالطبع ، في هذه الأثناء ، إلى أن تطلق لسانها بالشائعات والأقاويل . وأما الزوجة فغائبة ، إذ ماتت في الخامسة والأربعين ، وكانت ذات حزم وعزم ، وذات طبيعة تسهل استثارتها ، ولم تستطع قط أن تحصل على ما يكفيها ، وقد باتوا يعلمون ذلك ، ثم فقدت طاقتها الجسدية والفكرية ذات

مرة، غير أنها لم تقل شيئاً، وربما كانت خليقة، في السنة التالية، أن تبلغ سن اليأس. هنالك تنتهي بصفتها مثل هذه الزوجة، ثم تدخل المستشفى، ولا تخرج منه مرة أخرى.

وإلى جانب ذلك خرّاط، في الثلاثين، وله صبيّ صغير، وحجرة ومطبخ، وامرأته مُتَوَفّاة أيضاً، والغلام يكون في النهار، في روضة الحضانة، وفي المساء يأتي به الرجل، وحين يكون الصبيّ قد أوى إلى فراشه يغلي الرجل لنفسه شايه الطبيعي، ويمارس العمل اليدوي في جهاز الراديو حتى الليل، وهو رئيس جمعية لِلاّسلكي، ولا يستطيع أن ينام، ما لم يُفْرَغ من التوصيلة.

ثم هناك نادِل مع زوجته. وحجرة ومطبخ، قد تم إعدادهما إعداداً حسناً، وموقد يعمل بالغاز ويظل النادل في المنزل من الضحى حتى الساعة الثانية، فينام طوال هذا الوقت ويعزف على القيثارة. وفي الوقت ذاته الذي ينطلق فيه المحامي لوفينهوند بسرعة جنونية، هنا وهناك، في المحكمة الإقليمية العليا، ١، ٢، ٣، في ثوبه الأسود الرسمي، عبر الممرات والردهات، من حجرة محام إلى حجرة محام، داخلاً قاعة المحكمة وخارجاً منها. سوف نؤجل الجلسة، وسوف أقترح حيال المتهم الحكم الغيابيّ، ثم إن عروس النادل مُراقِبة في متجر كبير، كما تقول. وكان هذا النادل قد خدع زوجته، حين كان متزوِّجاً، خداعاً رهيباً، غير أنها كانت تستطيع دائماً أن تعزيه وتواسيه المرة بعد الأخرى، إلى أن هجرها. وكان يعيش حياته فتى كسولاً متخاذلاً، وكان ما يفتأ يُهْرَع إلى زوجته، وفي النهاية تم التصريح في القضية، مع ذلك، بأنه مذنب، لأنه لم يستطع أن يثبت شيئاً، وكان قد هجر زوجته بخبث وسوء نية، ثم تعرَّف على زوجته الحالية في حديقة القفز الخاصة بالأطفال، حين كانت تمارس اقتناص الرجال. وكانت هي المرأة من الطراز ذاته، بالطبع، إلاّ أنها كانت أكثر مكراً وشطارة. على أن هذا لا يلاحظ شيئاً، حين كانت عروسه ترحل كل بضعة أيام، إلى محلّها بالوكالة، منذ متى ترحل مُراقِبة، كلاّ فهذا مركز يبعث على الثقة، غير أنه يقعد الآن على أريكته، وله منديل مبلل حول رأسه، يبكي، وتضطر هي إلى خدمته، وكان قد زَلَّت به قدمه على طول الطريق، وظل راقداً،

كما يقول، وكان قد اصطدم أحدهم بالرجل. ولا تذهب إلى محلّها بالوكالة. ولو أنه لاحظ شيئاً لكان ذلك باعثاً للأسى، ومع ذلك فهذا غباؤه وعفلته المحبَّبة إليه، وسوف نعود إلى هذا ونَجْبُرُ كسره.

وفي الأعلى تماماً بائع أمعاء، وذلك ما تصدر عنه بالطبع رائحة كريهة، وحيث يكثر صراخ الأطفال والخمر. وإلى جانب ذلك، مؤخَّراً أجير فرّان مع زوجته، التي تستورده الورق في مطبعة وهي مصابة بالتهاب في المبيض، فما الذي يعرفه كلاهما عن الحياة؟ أجل، فإن أول ما يعرفانه أن كلاً منهما يعرف الآخر، ثم مشاهدة العرض المسرحي والفيلم في يوم الأحد الأخير، ثم هذه الجلسة تارة وتلك الجلسة تارة أخرى، للجمعية، وزيارة والديه، ولا شيء بعد ذلك؟ كلاّ، لا تَطَأَنَّ بقدمك حُلّة الفراك، أيها السيد، فسوف يأتي بعدُ، فوق ذلك طقس جميل، أو طقس رديء وحفلة في الريف، والوقوف عند المدفأة، وتناول الإفطار، وهكذا دواليْك، ماذا لديك، يا تُرى، سيدي النقيب، ياسيدي الجنرال، ياسيدي، فارس السباق؟ ألا لا تخادِعَنَّ نفسك بشيء ما.

بيبركوبف في غيبوبة المخدر، فرانتس يتوارى
فرانتس لا يريد أن يرى شيئاً

فرانتس بيبر كوبف ، هلاّ نظرت إلى نفسك . ما الذي يُفْتَرَض أن يُسْفِر عنه مستنقع الرذيلة! الرقاد هكذا ، على الدوام ، هنا وهناك في الدكان ولا شيء غير الشراب ، وشرود الذهن ، وأحلام اليقظة! .

ومَنْ ذا الذي يعنيه مني ما أفعله ، فأنا إذا شئت أن أشرُدَ بذهني وأحلم أحلام اليقظة لبثت أفعل ذلك إلى ما بعد غدٍ ، في بقعة واحدة . — وكان يعبث بأظفاره ، ويُقَلِّب رأسه على الوسادة المبلَّلة بالعرق ، وينفث الهواء من أنفه ، — أنا راقد هكذا إلى ما بعد غدٍ ، إذا راق لي ذلك ، إذا كانت المرأة خليقة أن تنطلق راحلة بسرعة بالغة فحسب ، وإنها لكسولة لا تفكر إلاّ في نفسها .

ويُعْرِض برأسه بعيداً عن الجدار وكان يوجد على أرض الحجرة شيء من مهروس البطاطا ، في نُقْرةٍ من الأرض . — قد تقيَّأها مَنْ تقيَّأها . لا بُدَّ أنني أنا الذي كُنْتُه . ما يحمله الواحد من بني آدم في معدته ، رائحاً به وغادياً هنا وهناك . «أُفّ لهذا ، إنه نَسْجُ العنكبوت في الزاوية الرمادية ، ذلك النسج الذي لا يستطيع أن يقتنص الفئران . وأنا أودّ لو أشرب الماء . فمن ذا الذي عسى أن يعنيه شيء من هذا . ظَهْري يؤلمني . ثوب أسود وأسنان طويلة» .

هذه ساحرة «تخرجِ من تحت اللِحاف» أُفّ لهذا! لقد قال لي مجنون لماذا أقيم في البيت ، وأقول ، أوَّلاً ، أيها المجنون ، ما الذي يحملك على أن تسألني ، وثانياً ،

عندما أقيم من الساعة الثامنة حتى الثانية عشرة. ثم أمكث في الدكان ذي الرائحة الكريهة. ويقال إن هذا قد طاب له وراق. كلاً، فليس هذا بمتعة. لقد قال كاوْفمَن إنه ينبغي له عندئذ أن يتوجَّه إلى هذا. وربما فعلت هذا بحيث أكون في شباط، في شباط أو آذار، وآذار هوالصحيح.

أتُراك كنت تَفْقد قلبك في الطبيعة. لم أكن أفقِد قلبي هناك. والحق أنه كان يُخَيَّلُ إليّ كأنّ جوهر الروح الأول كان يريد أن يجرفني معه بعيداً، حين وقفت قبالة عملاق الألب، أوْ رقدت على شاطئ البحر الهادر. هنالك كان يرغي ويُزْبد ويهيج ويموج في أَوْصاليّ. وكان قلبي قد زُلْزِل زِلْزالَه، ومع ذلك فأنا لم أفقِده لا هناك، حيث تبني النسور وُكْناتها، ولا هناك حيث ينقِّب عامل المنجم، في الأعماق عن عروق الفِلِزّات المستَكِينّة. —

—فأين إذاً؟

أتُراك فقدت قلبك في الرياضة؟ في التيار المصطخب، تيار حركة الشبيبة؟ في خضم الكفاح السياسيّ.

— لم أفقِدْه هناك

— ألم تفقِده، في أي مكان، كائناً ما كان؟

أتُراك من هؤلاء الذين لا يفقِدون قلوبهم في أي مكان، بل يحتفظون به لأنفسهم، يحفظونه نظيفاً ويحنِّطونه؟

إنه الطريق إلى العالم الذي يخرق قوانين الطبيعة، إلى المحاضرات العامة. عيد الترحُّم على الموتى: وهل ينتهي، مع الموت كل شيء، يا تُرى؟ يوم الاثنين، في الحادي والعشرين، في الساعة الثامنة مساءً: وهل يستطيع المرء أن يصدِّق اليومَ بعدُ؟ الثلاثاء، في الحادي والعشرين من تشرين الثاني: هل يستطيع الإنسان أن يغيِّر نفسه؟ الأربعاء ٢٣ تشرين الثاني: من يكون العادل أمام الله؟ ونحن ننبِّه بوجه خاص إلى معالجة الجانب الحماسيّ الانفعالي «بولوس».

الأحد، الساعة السابعة وخمس وأربعون دقيقة.

مساء الخير، سيدي الراعي. فأنا العامل العابر المؤقت فرانتس بيبركوبف، وقد كنت فيما سلف عاملاً في نقل الأثاث، وأنا الآن عاطل عن العمل. وقد أردت أن أسألك عن شيء، وهو: ما الذي يستطيع المرء أن يفعله لمعالجة آلام المعدة، فإن ما في المعدة يرتفع إلى بلعومي، آه، لَشَدَّ ما يؤلمني هذا، الآن يعود، أُفٍّ له، المرارة المسمومة، هذا يرجع بالطبع إلى الإفراط في الشراب. اسمح لي أستميح عفوك، إذ أخاطبك بهذا الهذر هكذا في عرض الطريق، إنه إعاقة عن العمل والخدمة. ولكن ما عسايَ أفعل فحسب من أجل تسمم المرارة، فإن المؤمن بالمسيح لابُدَّ له أن يساعد الآخر، وأنت رجل طيب، أنا لن أدخل الجنة. لماذا؟ فلتسأل السيدة شميت التي تخرج هنا في الأعلى من تحت اللحاف. إنها تجيء وتروح، وأنا ينبغي لي أن أظل منتصب القامة، واقفاً، على الدوام. ولكن ليس لدى أحد ما يقوله لي، ولكن حين يوجد مجرم، فأنا الذي يستطيع أن يتحدث في هذا. أنا الذي يشرِّفني إخلاصي. لقد أقسمنا على ذلك بين يَدَيْ الفتى ليبكنيشت، ونحن نمدّ يدنا لتلك المدعوَّة روزا لوكسمبورغ أما أنا فسأدخل الفردوس حين أقضي نحبي، وسوف ينحنون بين يَدّ، ويقولون: هذا هو فرانتس بيبركوبف، الذي يشرِّفه إخلاصه، رجل ألمانيّ، العامل الموقت، في الفرص السانحة، الذي يشرِّفه إخلاصه. ألا فَلْتَعْلُ الراية السوداء البيضاء، الحمراء، غير أنه احتفظ بها لنفسه، إنه لم يتحول إلى مجرم، مثل الرجال الآخرين، الذين يريدون أن يكونوا أَلْماناً، ويخدعون إخوتهم في المواطنة. ولو كان لديّ سكين لأغمدتها في داخل جسدي. أجل هذا ما أفعله «فرانتس ينقِّب في أنحاء السرير ويضرب حواليه بيديه» والآن قد أصبحت على وشك أن تُهْرَع إلى القسيس، يونفيكَين، الفتى الصغير الصغير! إذا كان هذا يروق لك، وإذا كان في وسعك بعدُ أن تنعق نعيق البوم، أنتَ، وأنا الذي يشرِّفني إخلاصي، فأنا أسحب يدي من هذا، ياسيدي القسيس، فحالي ملائمة لهذا إلى حد الإفراط. والأنذال ليس مكانهم السجن: فقد كنت في السجن، وأنا أعرف هذا من الصفحات التالية، بضاعة من الدرجة الأولى، هنا لا يوجد مأخذ على المسألة، وهنا لا مكان للأنذال،

ولا سيما أمثال هذا الذي لا يتولاّه الخجل حتى من زوجته، وهو ما كان من الواجب أن يتولاّه الخجل منه، وأمام العالم كله.

إثنان في إثنين أربعة. هذا كلام لا اعتراض عليه.

هنا ترون رجلاً، أستميح عفوكم، في مسار الخدمة والعمل، وإني لأعاني من آلام فظيعة في المعدة. ولسوف أعرف كيف أملك زمام نفسي. عليَّ بقدح من الماء، ياسيدتي شميت. لا بُدّ لابن اللئيمة أن يدسَّ أنفه في كل مكان.

فرانتس في طريق الانسحاب

فرانتس يعزف لليهود في آلة النفخ نشيد زحف الوداع

وقد نهض فرانتس بيبركوبف، القويّ مثل أفعى الكوبرا، والمترنح المُزَعْزع مع ذلك على قدميه واقفاً، وذهب إلى شارع منتس، إلى اليهود، وانطلق مباشرة، ولكنه اتجه وجهة تنطوي على الدوران والالتفاف، بدرجة عالية، وكان الرجل يريد أن يزيل آثار كل شيء، ويريد أن يصفّي الأمور في صدد كل شيء، هنا إذهب مرة أخرى، يا فرانتس بيبركوبف. طقس جاف، بارد، ولكنه منعِش، مَنْ تراه يودُّ الآن أن يقف في دهليز المنزل، وأن يكون بائعاً يطوف في الشوارِع، يُجَمِّد أصابع قدميه في البرد فلا يعود يُحِس بهن. أنا الذي يشرِّفني إخلاصي. ألا إنه لمن السعادة أن يكون المرء خرج من الحجرة، وما عاد يسمع نقيق النساء. هنا فرانتس بيبركوبف الذي يسير في الشارع. وكل المقاصف خالِية. لماذا؟ الغافلون ما زالوا سادرين في نومهم، أما المضيفون ففي وسعهم أن يشربوا أبْوالهم وحدهم. الأبوال ذوات الأسهم «شأن شركات المساهمة». ونحن نشرب العرق.

وكان فرانتس بيبركوبف يدفع بجسده، بهدوء المحشور في المعطف الأخضر الرماديّ، العسكري، ليشقّ طريقه بين الناس ليس هناك نساء يَبِعْن، على العربات، الخضار والجبن وسمك الهيرنغ، وكان يُنادى على البصل.

الناس يفعلون ما في وسعهم، ولديهم أطفال في البيت، أفواه جائعة، مناقير

الطير، فهذا منقار ينفتح، وذاك منقار ينطبق، منقار ينفتح، ومنقار يغلق، فتح فإغلاق، وفتح فإغلاق.

وكان فرانتس يسير بسرعة أكبر، ويضرب بقدمه الأرض عند ناصية الشارع، هكذا، هواء طلق، وكان يمر بنوافذ العرض الكبرى مروراً أهدأ، كم تكلف الأحذية ذوات الساقَيْن؟ والحذاء الملمَّع، وحذاء حفلة الرقص، لا بُدَّ أن يبدو في قمة الفخامة، هكذا، عند القدم، صغيرته بحذاء حفلة الرقص، حذائه الصغير، ثم ليسّاريك المتكلِّف، البوهيمي، والشيخ ذو المنخارين الكبيرين، في الخارج، في البوتقة، والذي كان يسمح لنفسه، بأن تأتيه زوجته، أو من تتظاهر باتِّصافها بهذه الصفة، بزوج من الجوارب الحريرية الجميلة وزوج من الجوارب الجديدة، وزوج من الجوارب القديمة، إنه شيء يبعث على الضحك، ولو أنها كانت تسرقهن لما كان له بُدٌّ من حيازتهن. ولقد ضبطوه ذات مرة، وقد ارتدى الجوارب على ساقيه القذرتين، بِآدميته الغبيّة المملة، التي لا يحفِل بها أحد، وهو ينظر الآن إلى ساقيه وقد استفحل جسده متطاولاً إلى أعلى، واحمرَّت أذناه، هذا الفتى يبعث على الضحك، الأثاث المنزلي مع الدفع بالتقسيط، أثاث المطبخ، باثنَيْ عشر قسطاً شهرياً.

وكان بيبر كوبف يتابع تجواله راضياً مغتبطاً، ولم يضطر إلاّ في بعض الأحيان، إلى النظر إلى الرصيف. وكان يختبر خطواته، والبلاط الجميل، الراسخ، المأمون، ولكن نظراته انزلقت بعد ذلك إلى أعلى في اندفاعة نحو واجهات المنازل، وجعلت تتأكد من أنها كانت تقف ساكنة، ولا تبدي حراكاً، وعلى الرغم من ذلك فإن منزلاً كهذا كانت له نوافذ كثيرة، فقد كان في وسعه أن ينحني بسهولة إلى الأمام، وهذا يمكنه أن ينتقل من فوق أسطح المنازل، وأن يجرَّ الأسطح معه، ومن الممكن أن تترنَّح وتتذبذب. إنها تستطيع أن تأخذ في التذبذب والتَّأرْجُح، والارتجاج، وتستطيع الأسطح أن تنزلق، مثل الرمل نحو الأسفل، مثلما تنزلق القبعة عن الرأس، فلقد نصبت، بلا ريب، كلها، مائلة فوق خشب السقف، على طول السلسلة بأكملها، غير أنها مثَّبتة بالمسامير، وتحتها جذوع خشبية قوية، ثم يأتي الورق المقوّى الخاص بالسقف والقار. وتستقر الحراسة راسخة، مخلصة، الحراسة على نهر

الراين، صباح الخير، ياسيد بيبركوبف، نحن نسير هنا منتصبي القامة، وقد برزت صدورنا، وتصلَّب ظهرنا، أيها الفتى الشيخ، على طول شارع النبع. ألا إن رحمة الله لَتَسع الناس جميعاً، ونحو مواطنون في الدولة الألمانية، مثلما قال مدير السجن.

وكان رجل يعتمر قبعة من الجلد، ذو وجه أبيض مُتَرَهِّل يحك بخنصره دُمَّلاً صغيراً في ذقنه، وكانت شفته السفلى في هذه الأثناء تبدو كالمتدلِّية، وكان رجل عريض المَنكِبَيْن ذو أرضية للسروال متدلّية. وكانا يسدّان الطريق، وسار فرانتس في حركة التفاف حولهما، وكان ذو القبعة الجلدية يهمس في أذنه اليمنى.

ولاحظ وهو مغتبط راضٍ، أن كل البشر كانوا يسيرون بهدوء على طول الطريق، وكان الحوذيون يفرِّغون حُمولاتهم، وكانت السلطات تهتم بأمر المنازل، ويُدَوِّي نداء كقصفِ الرعود نستطيع علة أثرِه أن نذهب نحن كذلك. وثمة عمود للملصقات الإعلانية عند الناصية، وكان يُقْرَأ، على ورق أصفر، بحروف لاتينية سود، قولهم: «هل عِشتَ على شاطئ الراين الجميل»، «ملك أصحاب قلب الهجوم» وكان خمسة من الرجال يقفون على الإسفلت في دائرة صغيرة، وكانت مطارق سود تتولى تكسير الإسفلت. أما ذلك الذي كان يرتدي السترة الخضراء فنعرفه، بلا ريب، وإنّ له لعملاً، وهذا ما نستطيع أن نؤديه كذلك، فيما بعد ذات مرة، وكان القوم يمسكون بشيء ما بيُمْناهم، ويرفعونه عالياً، ويتقدّمون، ثم يُكبّون، ليضربوا ضربتهم. وهؤلاء نحن، معشر عمال اليومّية، الطبقة الكادحة، وعن اليمين، وفي الأعلى، ونحو اليسار، يتجه وقع الضربات. انتبه!، موقع بناء، شركة الإسفلت، شترالاوْ.

وكان يتسكّع هنا وهناك، من دون هدف، على طول الحافلة الكهربائية التي تَصِرُّ صريراً. حاذروا من الوثوب، أثناء الانطلاق! انتظر! إلى أن تتوقف العربة. الشرطي ينظم حركة المرور، وثمة جابٍ من جباة البريد يهم بالعبور بعدُ على عجل. أنا لست في عجلة من أمري، وكل ما أُريده، يا رجل، ليس إلا الذهاب إلى اليهود، هؤلاء يوجدون بعد ذلك. ومثل هذا القَذَر يحصل المرء عليه عالقاً بالأحذية ذوات الساقين، على أنها لا تكون منظفة مُهَنْدَمة على أية حال، ومن عساه يترتَّب عليه

أن ينظفها، أتراه، مثلاً، زوجة شميت التي لا تفعل شيئاً «نَسْج العنكبوت على السقف، والمصادمة التي تسبب الإزعاج، وكان يتمطّق عند حلقه، ويوجّه رأسه نحو ألواح الزجاج: غار غويل، موبيل أوْيل، منشأة الكَبْرتة، رعاية بوبيكوبف، وموجة الماء على أساس أزرق، بيكسا فون، مستحضر القار المحسَّن». وهل يمكن أن تمسح لينا البدينة الحذاء ذا الساقَيْن؟ هنا كان قد دخل في هذه اللحظة في سرعة إيقاع أكبر.

المخادع لودرز، ورسالة المرأة، سوف أُغْمِد سكيناً في بطنك، فياربَّ الأرباب، ويا أيها الإنسان، هلا أعرضت عن هذا. سوف نتمالك أنفسنا، حزمة من الخِرَق، ونحن لا نخطئ في اختيارنا تجاه أيِّ امرئ. لقد كنا نتذمَّر، ذات مرة، في تيغل وعلى هذا: فهو الخروج بشيء له مقاسات محدَّدة، وصناعة يدوية بارعة، للرجال، يفيد أوَّلاً، ثم ثانياً، أن أغطية الهياكل، ولوازم السيارات، ذات أهمية، من أجل الانطلاق السريع، ولكن ليس من أجل الانطلاق المفرط في السرعة.

الساق اليمنى، فالساق اليسرى، فالساق اليمنى، وهو التقدم إلى الأمام رويداً رويداً، على الدوام، أما مدافعة الناس في وسط الزحام فلا وجود لها، أيتها الآنسة. أمّا في حالتي، فالشرطي عند تزاحم الأقدام. ما هذا؟ في العجلة الندامة. كي كي كي كي كي، الدِيَكة تصيح، وكان فرانتس قرير العين، وكانت الوجوه تبدو كلها أجمل وأظرف.

وكان يوغل في الشارع، وكانت تهب ريح باردة، قد امتزجت ببخار من الأقبية دافئ تبعاً للمنازل، والفاكهة، وفاكهة الجنوب، والبنزين، والإسفلت في الشتاء لا تصدر عنه رائحة.

وعند اليهود قعد فرانتس ساعة كاملة على الأريكة، وكانوا يتحدثون، وكان يتحدث، وكان يتعجب، وكانوا يتعجبون، طوال ساعة طويلة بأسرها، كان فيها يقعد على الأريكة، وكانوا يتحدثون وكان هو يتحدث. وكان يتولاّه العجب من أنه يقعد هنا ويتحدث، وكان يتعجب على وجه الخصوص، من نفسه ذاتها. وقد

عرف ذلك ولاحظه بنفسه، وقرره، مثلما يقرر مكتب التسجيل وجود خطأ في حسابٍ ما، وقرَّر شيئاً ما.

وهذا الأمر قد تمَّ الفصل فيه، وتولاه العجب من هذا الفصل في المسألة الذي عثر عليه في نفسه وأعرب عن هذا القرار بينما كان ينظر في وجوههم، وابتسم، وسأل، وأجاب: يا فرانتس بيبركوبف، في وسعك أن تتحدث بما تشاء، فإنهم يرتدون أثواب الكُهّان الرسمية غير أنهم ليسوا من آباء الكنيسة أو رعاتها، إنه قفطان، وهم ينتمون إلى غاليسيا، وفي ليمبرغ يقولون ذلك بأنفسهم، يقولون إنهم من الشُطّار، غير أنهم لا يخدعونني في شيء، بل أقعد هنا على الأريكة. لقد أدَّيت ما أستطيع أداءه.

وفي المرة الأخيرة التي كان فيها هنا قعد مع الواحد منهم على البساط، في الأسفل، وإذا القاعد ينزلق، وأود لو أُجَرِّب ذلك مرة أخرى، ولكن ليس اليوم. فهذه أيام مضت، ونحن نقعد مسمَّرين على إلْيَتِنا ونتأمل كبار السن من اليهود.

وما عاد في وسع الإنسان أن يبذل، فالإنسان ليس بالآلة. فالوصية الحادية عشرة تقول: «لا تسمح لنفسك بأن تتولاّها الدهشة. فالمسكن الجميل يكون للإخوة، ببساطة، خالياً من الذوق، خالياً من أي رَوْنق أو أُبَّهة. وبذلك لا يبعث هذا عند فرانتس بأضواء إلى الخارج. على أن فرانتس يستطيع أن يتمالك نفسه. وبذلك تكون المسألة قد انتهت. فإلى السرير، إلى السرير يقال هذا لمن كان لديه واحدة، ومَنْ لم تكن لديه واحدة، فلا بُدَّ له من الإخلاد إلى السرير، إلى السرير. إذ لا يعود هناك عملٌ بعد، فالإنسان لا يعود يبذل عطاءً. وحين المضخة في الرمل يستطيعون أن يفعلوا بهذه الوسيلة ما يشاؤون. وفرانتس يتقاضى معاش التقاعد، من دون إيواء أو رعاية في فندق عائلي «بنسيون»، وقال في نفسه بخبث وهو ينظر إلى حافة الأريكة: كيف يكون هذا. معاش تقاعدي من دون مأوى عائلي.

«وعندما تتوافر للمرء قوة وجبروت مثلكم، ينبغي للإنسان الشديد البأس مثل هذا أن يشكر خالقه. وما الذي يمكن أن يجري له الآن، هل يحتاج هذا إلى أن يشرب؟

وإذا لم يُقدِم على هذا. فسوف يفعل ذاك. فاذهبوا إلى صالة السوق، وتصوَّروا الأعمال التجارية والصفقات، واتفقوا عند محطة الخطوط الحديدية، ماذا تقولون، وما الذي انتزعه مني مؤخَّراً مثل هذا الإنسان حين أتيت من لاندز بيرغ في الأسبوع الماضي، فقد لبثت بعيداً يوماً واحداً، فما قولكم، فيما ينتزعه هذا، أشِرْ عليَّ ذات مرة. هذا ناحوم، رجل طويل كالباب، بل هو جالوت، فليَحْمني الرب، خمسون قرشاً، كلاّ، خمسون قرشاً، لقد سمعتم، خمسون قرشاً، عن حقيبة صغيرة، من هنا، حتى الناصية، ولم أشأ أن أحمل، إذ كان اليوم يوم السبت، وينتزع مني هذا الآدميّ خمسين قرشاً. غير أني نظرت إليه. والآن ربما كان في وسعكم – كما تعلمون، أنا أعلم، بالنيابة عنكم، وهذا هنا ليس عند فايتِل، عند تاجر الحبوب، ألا فَقُلْ، لا ريب في أنك تعرف فايتِل» «أمّا فايتِل فلا، بل إخوته!» والآن، أجل، لا ريب في أنَّ لديه حبوباً. ومَنْ يكون أخوه؟ «إنه شقيق فايتِل، لقد قلت لك» «وهل تُراني أعرف كل أهل برلين؟» «إنه شقيق فايتِل، وهو رجل ذو دَخْلٍ، مثل..».

وكان ينوس برأسه في إعجاب يائس، ورفع الأحمر ذراعه، ونكَّس رأسه: «يالَهذا الذي تقوله، ولكن من تْسيرنوفيتش» لقد نسيت فرانتس. وجعل كلاهما يفكر تفكيراً مُرَكَّزاً في غِنى شقيق فايتِل. وكان الأحمر يروح ويجيء، هنا وهناك، ثائراً، منفعلاً، مُرْسِلاً من أنفه أنفاساً كالحشرجة، وكان الآخر يقَرْقِر، فيّاضاً بالرضى والارتياح، ويبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة من ورائه. ويقرض أشياء بأظفاره: «وا أسفاه. إن ما تقوله لرائع» «ما يأتي من الأسرة فهو ذَهَب، وليس الذهب بالكلام، بل هو ذهب». وكان الأحمر يروح ويغدو، هنا وهناك، ويقعد، مُزَلْزَلاً، إلى النافذة. وكان ما يحدث في الخارج يفعمه بالازدراء، إذ كان ثمة رجلان يغسلان، بأكمام القميص، عربة، عربة قديمة. وكان يُعْلَق بأحدهما حمالة السروال، وكانا يَجُرّان سطلَيْن مملوءين بالماء، وكان الفناء يسيل بالماء، وكان يتأمل فرانتس بالنظرة المتفكِّرة، الحالمة بالذهب: «ماذا تقولون في ذلك الآن؟» وماذا يستطيع هذا أن يقول، فهو إنسان مسكين، نصف مجنون. وما الذي يفهمه مسكين كهذا، من مال فايتِل الذي يرجع إلى تسير نوفيتس. إنه يسمح لنفسه بمسح حذاء هذا. وردَّ فرانتس على

نظرته صباح الخير. ياسيدي راعي الكنيسة. الحافلات الكهربائية، لا تفتأ تجوب الشوارع، غير أننا غَدوْنا نعرف ما الذي رَنَّ به الجرس، ما من إنسان يبذُل أكثر مما لديه، وما عاد الناس يعملون بعد. ولو أنَّ كل الثلج بأسره احترق، ونحن ما عُدْنا نحرك ساكناً، بل نجمِّد أنفسنا.

كانت الأفعى قد نزلت عن الشجرة وقد سُمِع لها حفيف. فلتَحُلَّ عليكِ اللعنة مع كل الماشية ولتزحَفي على بطنك، وَلْتأكلي التراب طوال حياتكِ، وليستحكم العداء بينك وبين زوجك، وَلْتَلِدي ولادة مفعمة بالآلام، ياحواء، ويا آدم، فلتحلَّ اللعنة على أديم الأرض من أجلك، ولتنبت فوق هذا الأشواك والقتاد، ولْتأكلا أعشاب الحقل.

وما عُدْنا نعمل، إذ لم يكن العمل يجدي، ولو أن كل الثلج احترق لما حرّكنا ساكناً.

وكان هذا هو القوة والقَسر، بل هو ما كان فرانتس بيبركوبف يمسك به بيديه، والذي قعد به وولج من الباب بعد ذلك. وكان فمه يقول أيَّ شيء كان. وكان قد أقبل إلى هنا متسلّلاً على تردُّد. وكان قد أطلق سراحه من السجن في تيغِل، وكان قد انطلق بالحافلة الكهربائية، يجري، سريعاً هادئاً، يجتاز الشارع بطوله، والمنازل بطولها، وكانت أسطح المنازل تولّي هاربة منه. وكان قد قعد مع اليهود. ونهض قائماً. فلنواصل السير. لقد ذهبت، بلا ريب، إلى مينا، في تلك الأيام. ماذا ينبغي لي أن أصنع هنا. فلنذهب ذات مرة إلى مينا، ولنشاهد كل شيء بدقة، وَلْنَرَ كيف كان هذا كله.

ومضى في طريقه، وجعل يتسكع قبالة منزل مينا، وكانت ماري الصغيرة تقعد على حجر، على ساق واحدة، وحيدة تماماً. ما الذي يعنيني من هذا؟ هل يفترض أن تغدو هذه سعيدة مع زوجها الشيخ. إنه الملفوف المخلَّل مع اللفت، وهؤلاء هم الذين طردوني. ولو أن أمّي طبخت اللحم لظللت عندها. وهنا تُنْتِن القطط على نحوٍ لا يختلف عمّا يكون في أي مكان آخر. أيُّهذا الأرنب الصغير، فلتتوارَ مثلما يتوارى

القديد في الدولاب. ولو أني وقفت هنا وهناك، بدماغ فظّ، وأنا أتأمل المنزل، والمجموعة بأسرها تصيح صياح الديكة.

كيكيريكي، كيكيريكي. هكذا تكلم مينيلاؤس، ومن دون أن يقصِد إلى ذلك، سبَّب بذلك للمدعو تيليماك كآبةً في قلبه، حتى لقد انسابت الدموع على وجنتيه، ولم يكن له بُدٌّ أن يضغط المعطف الأرجواني بكلتا يديه، ضغطاً محكَماً قبالة عينيه.

وفي هذه الأثناء برزت الأميرة هيلينا خارجة من مخادع النساء التابعة لها، تضاهي في جمالها إلهة من الآلهة.

كيكيريكي. هناك أنواع كثيرة من الدجاج. ولكن حين يسألني القوم، مناشدين ضميري وشرفي، عن أكثرهِنّ ظَفراً بمحَّبتي، أجيب بحرية، وبصراحة لا لَبْسَ فيها: إنه الدجاج المشويّ. كما يدخل في عداد طيور الدواجن طيور النهر، وفي كتاب بريم: حياة الحيوان، يُلاحَظ: أنَّ دجاج المستنقعات المتقزّم يتميَّز عَنْ دجاج المستنقعات العادي، بصرف النظر عن حجمه الضئيل، عن طريق كونهم يكتسون بثوب مماثل تقريباً، في الربيع، وبالنسبة لكلا الجنسين، على أن الباحثين في آسيا يعرفون ما يسمى بالمونيال Monial أو المونال، الذي يستند اسمه، كما يقول العلماء، إلى دجاج المستنقعات العادي Fasan، ذي البريق والتألُّق. ومن الصعب أن نقدم وصفاً لأُبَّهة ألوانه وفخامتها. أما صيحته المنطوية على الإغراء والتي تمثل صفيراً طويلاً يجأر بالشكوى، فيُسْمَع في الغابة في كل ساعات النهار. غير أن سماعه يكون أكثر ما يكون تواتراً، قبل بزوغ ضوء النهار، وقبيْل المساء.

ومع ذلك فإن هذا كله يتميَّز تميُّزاً بعيداً للغاية فيما بين سيكّام وبهوتان في الهند. والمسألة بالنسبة لبرلين تمثل حكمة مكتبة عامة عقيمة للغاية.

ذلك لأن البشر يحدث لهم ما يحدث للماشية

فمثلما تموت هذه، يموت البشر.

فناء المسلخ في برلين، في الشمال الشرقي من المدينة، بين شارع إلدينا فوق طريق تاير، عبر شارع لاندزبيرغ المشجَّر، وحتى شارع كورتينيوس، على طول الخط الدائري، تمتد المنازل والقاعات والحظائر في فناء المسلخ والماشية.

وهو يغطّي مساحة تبلغ ٤٧،٨٨ هكتار، مما يعادل ١٨٧،٥، في الصباح ومن دون المباني الواقفة وراء شارع لاندزبيرغ المشجر، استهلك هذا ٢٧٠٩٣٤٩٢ مارك، أسهم فيها فِناء الماشية بمقدار ٧ ملايين و٦٨٢٨٤٤ مارك، كما أسهم المسلخ بمبلغ ١٩ مليون و٤١٠٦٤٨.

ويشكل المسلخ وسوق بيع اللحوم بالجملة، كلاً اقتصادياً لا يقبل الفصل بين أجزائه. أما العضو الإداري فهو المفوَّض المنتدَب لفناء الماشية والمسلخ، مؤلفاً من عضوين من إدارة البلدية، وعضو من إدارة المحافظة، وأحد عشر عضواً من المجلس البلدي، وثلاثة نواب عن المواطنين، ويجري في هذه المؤسسة تشغيل ٢٥٨ موظفاً، فيهم أطباء بيطريون ومفتشون ومختصون بالدمغة ومساعدو أطباء بيطريين، ومساعدون للمفتشين، ومختصون بالدمغة ومساعدو أطباء بيطريين، ومساعدون للمفتشين، وموظفون لهم في الوظائف قدم راسخة. وهناك نظام لحركة المرور يرجع إلى ٤ تشرين الأول ١٩٠٠، ولوائح وتنظيمات عامة، وتحكمٌ في العرض، وتوريد العلف، وتعرفة الرسوم، ورسوم السوق، ورسوم مَدِّ أجل الشحن، ورسوم الذبح، ورسوم إبعاد مَذاوِد العلف عن قاعة سوق الخنازير.

وعلى طول شارع الإلدينر تمتد الجدران الرمادية القذرة، المكسوّه في أعلاها بالأسلاك، الشائكة. والأشجار في الخارج عارية. والوقت شتاء، وقد بعثت الأشجار بعصارتها إلى الجذور، في انتظار الربيع، وعربات الذبح تجري على غير هدى، ومن دون هدف، في سير خبب رشيق، وعجلات صُفْر وحُمْر بصورة مسبَقة، ويجري وراء عربة جواد ضامر، ومن الطُوار ينادي واحدٌ وراءها: إميل، إنهم يساومون على الحصان، بخمسين ماركاً، وعلى موقع لنا، بثمانية، وينعطف الحصان، ويرتعد، ويقضم شيئاً من شجرته، فيردُّه الحوذيّ إلى الوراء، خمسون ماركاً، وموقع، يا أوتّو، وإلاّ فالرحيل، ويحيي ذلك الموجود في الأسفل الحصان قائلاً: اتفقنا.

وثمة مبنى إداري أصفر، ومِسلة، لمن سقطوا في الحرب، وعن اليمين وعن الشمال قاعات ذوات امتداد وطول وأسقف زجاجية، وهذه هي الحظائر، وحجرات الانتظار، وفي الخارج لوحات سود، مُلْك اتحاد مصالح المسالخ الكبرى في برلين، ولا تُباح الإعلانات على هذا اللوح إلاّ بعد الحصول على الموافقة، من مجلس الإدارة.

وفي القاعات الطويلة أبواب، وفتحات سود تُدْفع الحيوانات من خلالها، وعليها أرقام ٢٦، ٢٧، ٢٨. وهناك قاعات الأبقار وقاعات الخنازير، وقاعات الذبح، وعلف أخير للحيوانات قبيل الذبح، وبلطات تَشْتَجِر وتتعانق، أنتَ لا تبدو لي حيّاً، وتَحُدُّ المكانَ شوارعُ وديعة مسالمة، فمنها شارع شترسْمَن، وشارع ليبيش، وشارع بروسكاور، ومنشآت الحديقة التي يتنزّه الناسِ فيها، وهم يسكنون في مساكن دافئة، بعضهم إلى جانب بعض. وحين يعتلُّ الواحد منهم، ويعاني من آلام في زَوْرِه، يأتيه الطبيب عَدْواً.

ولكن، من الناحية الأخرى، تمتد قضبان الخط الحديدي الدائري مسافة خمسة عشر كيلو متراً، وإلى هذا المكان تدرُج الماشية من الأقاليم، إنها نماذج من نوع الخراف والخنزير والبقر من بروسيا الشرقية وبوسيرانيا وبراندنبورغ، وبروسيا الغربية. ومن أرصفة الشحن والتفريغ تنثال أصواتها، ثغاءً وخُواراً. أما الخنازير فتَنْعَر وتَتَشَمَّم الأرض، فهي لا تَرى إلى أين يُغْدى بها، ثم إن الحُداة وعُصِيَّهم يجرون وراءها:

داخلين الحظائر ، وهنا ترقد ، ترقد شاحبة الوجوه ، مكتنزة بعضُها إلى جانب بعض ، وهي تشخر نائمة . لقد دُفِع بها زمناً طويلاً ، ثم عانت من الرجفة في العربة ، والآن ما عاد شيء يهتزُّ من تحتهم ، ولا تكون قطَع البلاط إلاّ باردة ، وهي تنتبه من نومها ويتكّئ بعضها على بعض ، وترقد وقد انزاحت حتى غَشِي بعضها بعضاً ، فهنا يتشاجر اثنان ، وفي المنحنيات متّسع ، وإذا هي تحرك رأساً قبالة رأس ، يتشمم بعضها رقاب بعض وآذانها ، وتدور الآذان في دائرة ، وتُوَحْوِح ، وفي بعض الأحيان يكونون ساكنين كل السكون ، لا يزيدون على أن يعضّوا على أسنانهم . وفي غمرة الخوف يتسلق الواحد منهم أجساد الآخرين ، ويتسلّق الآخر وراءه ، ويتشمَّم ، أما الذين في الأسفل فيناضلون بأجسادهم ليرتفعوا بها وكلاهما يسقط على الأرض مُحْدِثاً جلبة ، ويقع كلٌّ على من يشاكله كما تقع الطيور على أشكالها .

وثمة رجل في صديريّ من الكتان يتجول في الممشى ، ويُفْتَح المُنْحنى ، ويدخل هو بينها والباب مفتوح ، وتندفع خارجة من المكان ، وتَصِرّ ، ويبدأ يُسْمَع نعيرٌ وصراخ ، والآن يغدو كل شيء خلال الممّرات . وعلى الأفنية وبين القاعات ، يُدْفَع بالحيوانات البيض المضحكة ، والأفخاذ الغليظة المضحكة والأذيال الحَلَقية وبالخطوط الخضر والحمر على الظهور . هذا ضوء ، أيتها الخنازير الصغيرة العزيزة ، هذه أرض ، فلتَشَمَّمْن ، ولتَبحثْن على مدى بعض الدقائق ، كلاّ ، فأنتن على حق ، إذ لا يجوز للمرء أن يعمل بالساعة ، وعليكن بالتشمُّم والتنقيب ، فلسوف تُذْبَحْن ، وأنتُنَّ هنا فأنظرن إلى المسلخ ، مسلخ الخنازير . هناك دور للذبح قديمة ، غير أنكن تدخلن أنموذجاً جديداً ، فالجو هنا مشرق والمذبح مبنيٌّ من الحجارة الحمر ، وقد يحسبه المرء ، إذا ما نظر إليه من الخارج ، ورشة صُنّاع أقفال ، أو قاعة مكتب ، أو قاعة تركيب أجهزة ، وأنا أزمع أن أروح وأغدو إلى غير هذه الوجهة ، أيتها الخنازير العزيزة ، لأنني إنسان وأنا أدخل من هذا الباب ، وسوف نلتقي في الداخل من جديد .

وإذا صدمة تصيب الباب فيهتزُّ اهتزاز النابض ويتذبذب ، جيئة وذهاباً ، أُفّ ، يا لهذا البخار! ماذا يُصْدِر هؤلاء من البخار . ها أنت ذا في غمرة البخار مثلما يكون المرء في حمام . وهنا ربما تستحم الخنازير في حمام روسي– روماني . ويذهب

المرء إلى أي مكان آخر، وأنت لا ترى أين، والنظارة كأنما سُمِّرت على وجه المرء تسميراً، وربما خرج المرء عارياً، وكان جسده ينضح بالروماتيزم، على أنّ الأمر لا يستقيم بالكونياك وحده، ويروح المرء ينتعل خُفّاً يطرق به، ولا يمكن رؤية شيء، فالبخار مفرط في الكثافة، ولكن يسمع هذا الصرير والوَحْوَحة والطرطقة، ونداءات الرجال، وسقوط الأجهزة، والضرب بالأغطية على الأوعية، هنا لا بد أن تكون الخنازير في مكان ما، فقد جاءت من الجهة المقابلة، ودخلت من الجانب الطولي، هذا البخار الأبيض الكثيف. لقد باتت هنا خنازير، وقد عُلّق بعضها، إذ ماتت، وقد كانت خُصيت وقد أوشكت أن تنضج للأكل، وها هو ذا أحدهم يقف ومعه خرطوم يرشُّ به أنصاف الخنازير البيض، وهي معلّقة على حمّالات حديدية ورؤوسها إلى الأسفل، وبعض الخنازير كاملة، والسيقان من أعلاها قد باعدت بينها قطع خشبية مستعرضة، والحيوان الميت لا يستطيع أن يفعل شيئاً، كما أنه لا يستطيع أن يجري، وأقدام الخنازير ترقد مقطعة بالفأس في كومة. وثمة رجلان يحملان من غَيْهَب الظلام شيئاً ما، ويحملان إلى منصة معدنية حيواناً قد شُقَّ بطنه وفُرِّغ جوفه من الأحشاء، ويرفعان المنصة إلى الحلقة الدوّارة، وهنا يسبح في الهواء كثير من الزملاء منحدرين إلى أسفل. وينظرون بحواس متبلّدة إلى ألواح البلاط.

وأنتَ تسير في غمرة الضباب، خلال القاعة، والألواح الحجرية ذوات أثلام طوليّة وهي مبلّلة، كما أنها مضرَّجة بالدم. وتوجد بين الحمّالات أرتال الحيوانات البيض التي فُرِّغت أجوافها، ولا بُدَّ أن تكون الوَهْدة هي التي تُوَجَّه إليها الضربة القاتلة، من الوراء وهنا تصطفق قدماه، وتنطبقان، ويَصِرّ، ويصرخ ويحشرج وينْعَر، وهنا تنتصب مراجل ينطلق منها البخار، وبراميل وأحواض، ومن هنا يأتي البخار، ويرمي الرجال في الماء الذي يغلي الحيوانات المقتولة ويَسْمِطونها فيه، ثم يستخرجونها جميلةً، بيضاء. ومازال رجل يكشط بسكينه البشرة العلوية، ويزداد الحيوان بياضاً، ويغدو أملس تماماً، لطيفاً رقيقاً، أبيض للغاية، وقد رضي كل الرضى مثلما يكون حاله بعد حمّام مُجْهِد، وبعد عملية ناجحة كل النجاح، أو مسّاج ترقد الحيوانات في أرتال على المنصّات، والألواح، ولا تتحرك في راحتها المُشْبَعة وفي

قمصانها البيض الجديدة، وهي ترقد جميعاً على جُنوبها. وفي بعضها يرى المرء سلسلة حُلَمات الضرع المزدوجة، وكم من الأثداء يوجد لدى الخنزيرة، ولا بُدَّ أن تكون هذه حيواناتٍ ذوات خصوبة، ولكن لَهُنَّ، جميعاً، هنا، شِقٌّ أحمر مستقيم عند الرقبة، في خطِّ المنتصف على وجه الدقة، وهذا أمر يثير الشبهة إلى حد بعيد.

والآن يحدث انصِفاق من جديد، ويُفْتَح باب من الخلف، فيخرج البخار، ويدفعون إلى الداخل بمجموعة جديدة من الخنازير، وأنتم تعْدون هنا، أمّا أنا فقد دخلت من الباب المنزلق، حيوانات وردية مضحكة، وأفخاذ تبعث على الضحك، وأذيال حَلَقية مضحكة، والظهر موسوم بخطوط ملوَّنة، وهي تتشمَّم في الملاذ الجديد، وإنها لباردة شأن كبيرة السن، ولكن ما يزال هنا شيء من البلل على الأرض، غير معروف. زَلاقَة حمراء، وهي ترتعد بخرطومها من جراء ذلك.

وثمة شابّ شاحب اللون له شعر أشقر كأنما أُلصِقَ برأسه إلصاقاً، وفي فمه سيجار. ألا فانظُرْنَ، فهذا هو الإنسان الأخير الذي يشغل نفسه بكن! ولا ينبغي لكن أن تحملن عنه تصوُّراً سيئاً، فإنه لا يفعل إلاّ ما تمليه عليه وظيفته، إذ إن عليه أن يسوّي معكُنَّ مسألة إدارية، فإنه لا يرتدي سوى حذاء طويل الساق، وسروال وقميص وحمّالة سروال وساق الحذاء يبلغ ما فوق الركبة، وهذا هو زِيُّه الرسمي، وهو يسحب سيجاره من فمه، فيضعه في رف من الرفوف على الجدار. ويتناول من الركن بلطة طويلة، وهي رمز مكانته الرسمية ومقامه الذي يعلو عليكن، مثلما يكون شأن العلامة المعدنية عند المجرم، وسوف يعرضها عليكُن فوراً. وهذا قضيب من الخشب طويل يرفعه الفتى إلى أن يبلغ مستوى كتفيه فوق الخنازير الصغيرة التي تَصِرّ في الأسفل، والتي تبحث هنا وهناك لا يكدِّر صفوها أحد، وتتشمم الأرض وتَنْعِر. والرجل يروح ويجيء هنا وهناك وبصره موجّه إلى الأسفل، يبحث ويبحث، والمسألة تتعلق بعملية وساطة لدى شخصية معينة، شخصية معينة في أمور «س» في مقابل المسألة«ع»— وثمة شيء آخر، فالرجل رشيق، ذو همّة، وكان قد أضفى على نفسه المشروعية ولقد هَوَت البلطة إلى أسفل وغاصت في الزحام منقضّبة بطَرَفها غير المدبَّب، على رأس، وعلى رأس آخر كذلك، وكانت هذه لحظة، فهذا يتقلَّب

ويتخبّط في الأسفل. وهذا يضرب بأطرافه يميناً ويساراً، وهذا يقذف بنفسه جانباً، وهذا ما عاد يعرف شيئاً بعد وهو راقد هنا. فماذا تفعل السيقان، والرأس، ولكن هذا شيء لا يفعله الخنزير، بل تفعله السيقان كأنها شخصية مستقلة. وإذ رجلان قد أطلاّ ببصرهما من قاعة الغَلْي والسَّمْط، لقد وصلت المسألة إلى هذا المدى، وها هما يرفعان مزلاجاً إلى مستوى الوَهْدة التي تكون عندها الضربة القاتلة، ويستخرجان الحيوان، وقد وضعت المُدْية الطويلة لِتُسَنَّ، على قضيب لِتُجلَخ وتُشْحَذ، وجثا الرجلان على ركبتيهما، وإذ المُدْية يُدْفَع بها لتَحُزَّ في الرقبة، وإذا صوت تمزيق وشَقّ يسمع وقد حدث شرخ طويل، بل جدٌّ طويل في الرقبة وإذا الخدش العميق ينفتح مثل كيس أو غرارة، وها هي شقوق عميقة، غائرة، وإذا الحيوان يختلج، ويتخبط ويتقلَّب، ويضرب بأطرافه، لقد فقد الوعي، الآن بات فاقد الوعي فحسب وسرعان ما يغدو أكثر من ذلك، وهو يصَرّ صريراً، والآن تفتح شرايين الرقبة، لقد دخل في غيبوبة عميقة، وقد دخلنا الآن في الميتافيزيقا، في اللاهوت، فيا بنيّ، أنت لن تمشي بعدُ على الأرض، بل سوف تتنقَّل الآن فوق السحب، وإذ الحوض ذو الأرضية المنبسطة يؤتى به على عجل، ويتدفق الدم الأسود الساخن مُرْغياً مزبداً، فيقذف بالفقاعات في الحوض، ويكون التحرك السريع، فالدم يجري في الجسد، وينبغي استخدام السدادات وسد الجروح الآن خرج من الجسد. وما زال يريد أن يسيل. ومثلما يظل الطفل يصيح: ماما، ماما، عندما يرقد على منصة العمليات، ولا يكون ثمة حديث عن الأم على الإطلاق، والأم لا تزمع المجيء على الإطلاق، ولكن هذا يبعث على الاختناق، بتأثير القناع، مع السائل الأثيري الطيار، وهو ما يزال يصرخ، إلى أن لا يعود قادراً على الصراخ: ماما، التمزُّق، التمزُّق، الشرايين عن اليمين، والشرايين عن اليسار، التحرك بسرعة. وهكذا، والآن تتراجع حِدّة الاختلاجات. الآن ترقد هامداً، وها نحن قد فرغنا من الفيزيولوجيا واللاهوت، الآن تبدأ الفيزياء.

وينتصب الرجل الذي كان جاثياً على ركبتيه قائماً. ركبتاه تؤلمانه، ولا بُدَّ من سَمْطِ الخنزير، وتفريغ جوفه وتقطيعه بالفأس. وهذا أمر يسير خطوة فخطوة. ثم إن رئيس المطبخ، الحسن التغذية يسير بغليون التبغ جيئة وذهاباً فيغمره البخار،

وهو ينظر أحياناً في بطن مفتوحة. وقد عُلّق على الجدار مُلْصَق: حفل راقص لأوائل مبنى صالة مخلّصي الماشية، فريدريشسهاين صومعة كيرمباخ. وفي الخارج تُعْرَض مباريات في الملاكمة، في صالات جرمانيا، وشارع شوسّيه ١١٠، أسعار تذاكر الدخول ٥٠،١ مارك إلى ١٠ مارك، ٤، مباريات التأهيل.

سوق الماشية، لعرض البقر: ١٣٩٩ بقرة، ٢٧٠٠ عجل، ٤٦٥٤ خروفاً، ١٨٨٦٤ خنزير، اتجاه السوق: الأبقار، ذات الجودة، تباع من دون عوائق أو مصاعب، وإلاّ فبهدوء. أما العجول فيتم تسويقها بسهولة، والخراف بهدوء، أما الخنازير فأمرها ثابت راسخ في البداية وفيما بعد ضعيفة، أمّا أنواع الدسم فتلقى الإهمال.

وفي شوارع الماشية تهب الرياح، والسماء تمطر، والأبقار تخور، والرجال يسوقون أمامهم قطعاناً كبيرة تزمجِر، ذوات قرون، والحيوانات تُحتَجَز، وتظل واقفة، وتسيرون عَدْواً مصطنعاً، والحُداة يجرون حواليها بعصّيهم. وثمة جاموس ينزو، حتى في وسط الزحام على بقرة وتجري البقرة مبتعدة يميناً ويساراً، والثور يجري وراءها، ويظل يعود إلى اعتلائها بقوة وجبروت، من جديد.

ويُدْفَع بثور كبير إلى قاعة الذبح. هنا لا يوجد نجار، ولا توجد حفرة من أجل الخنازير المتزاحمة. ويدخل الحيوان الكبير، الثور، بين حُداته، من الباب الكبير، وإذا الصالة الدامية أمامه وفيها أنصاف الحيوانات المعلّقة، وأرباعها، والعظام المقطعة بالفأس، والثور الكبير له جبهة عريضة، ويُدْفَع به بالعُصِيّ والصدمات ليغدُوَ بين يَدَيْ الذبّاح، فيضربه هذا ضربات يسيرة على فخذه بوجه البلطة العريض، لكي يقف وِقْفة أفضل. والآن يمسك أحد حادِيَيْ الثور، من الأسفل، برقبة الثور، ويقف الثور وقد لانَتْ عريكته، ويتجاوب بيُسْرٍ، على نحوٍ غريب، وكأنّ هذا أمر متفق عليه، وهو يوافق الآن، بعد أن رأى كل شيء، وهو يعرف أن هذا قدره، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حياله. بلا ريب، وربما كان يعدُّ حركة حادي الماشية نوعاً من المداعبة، إذ كان يبدو ودوداً للغاية، وهو يتّبع ذراعَيْ حادِيَيْ الماشية اللذين يسحبانه، فينحّي رأسه جانباً تنحية منحرفة، ويرفع شدقه نحو الأعلى.

ولكن هذا يقف وراءه، وهو الذبّاح، وفي يده المطرقة المرفوعة. لا تنظر حوالَيْك. المطرقة التي رفعها الرجل القويّ بكلتا قبضتيه، باتت وراءه، بل فوقه، ثم: بُمْ، ويهبط. القوة العضلية لرجل قويّ، مثل إسفين تنغرسُ، حديديّةً في القفا. وفي اللحظة ذاتها، والمطرقة لمّا تُرْفَع بعد، تنتفض قوائم الحيوان الأربعة مرتفعة، ويبدو كلِ الجسد الثقيل وقد دهمته الإصابة. ثمَّ، استرخى الحيوان، هابطاً بصوت مكتوم كأَنْ ليس له قوائم، الجسد الثقيل على الأرض، وعلى الساقين اللتين تشَّنجتا جامدتين، يرقد لحظة هكذا، وينقلب على جنبه. وعن اليمين وعن اليسار يطوف به الجلاّد، موجهاً إليه ضرباتِ رحمة جديدة تنطوي على شحنة تخدير، على رأسه، وعلى صدغيه، فلتُخْلِد إلى النوم، فإنك لن تفيق بعد هذا. ثم يتناول الآخر، إلى جانبه، سيجاره من فمه، ثم يشتم نفسه، ويستل مديته، وهي طويلة مثل نصف حسام، ويركع وراء رأس الحيوان الذي كان التشنُّج قد غادر ساقيه، وهو يصدر صدمات اختلاجية يسيرة، قاذفاً بالجزء الخلفي من جسده جيئة وذهاباً. أما الذبّاح فيبحث في الأرض، يستعمل المُدية، بل يصبح طالباً الوعاء من أجل الدم، والدم ما زال يدور دورته في الداخل بهدوء، وقد استثير قليلاً تحت وطأة نبضات قلب جبّار. والحق أن النخاع كان قد انهرس، ولكن الدم ما زال يسيل بهدوء في الشرايين، والرئتان تتنفّسان، والأمعاء تتحرك، والآن سوف تستعمل المُدْية، وسوف ينهال الدم خارجاً، وفي وسعي أن أتصوَّر ذلك إنه في مثل غِلَظ الذراع في خيط تدُّفقه، دم أسود، جميل، مبتهج مهلّل، ثم إنّ التهليل الاحتفالي المرح بأكمله سيغادر المنزل، والضيوف يرقصون بينما يخرجون. ما هو إلاّ شيء من اللغط والصخب، وتكون قد وَلَّت المراعي الباعثة للسرور، والحظيرة الدافئة، والعلف الذي يعبق بالعبير، كل شيء مضى وانقضى، وذهبت به الرياح السافيات. ما هو إلاّ ثقب فارغ، وظلمة، والآن تأتي صورة جديدة للعالم. وَيْحَك لقد ظهر فجأة سيد اشترى المنزل، اختراق للشوارع، أحوال اقتصادية أفضل. سوف يقوّض خيمته ويرتحل. ويأتي القوم بالطست الكبير، فيقدمونه نحوه، ويقذف الحيوان الجبار بساقيه الخلفيَّتين عالياً، وتنغرس المدية في رقبته إلى جانب الحنجرة، وقد كانت تلتمس الشرايين في حذر.

فمثل هذا الشريان يغطيه جلد قوي، فهو يرقد في مَأْمَنٍ رُقاداً حسناً، وها هو ذا قد انفتح، ثمة شريان آخر، الفَوَران، سواد ساخن، ينبعث منه بخار. وينبثق الدم أحمر مسودّاً فوق المُدْية، وفوق ذراع الذبّاح، الدم المهلِّل الهاتِف، الدم الساخن، والضيوف يأتون، وفصل التحوُّل حاضر، من الشمس جاء دمك، واستكانت الشمس في دمك. والآن تنبثق منه، من جديد، والحيوان يتنفَّس تنفُّساً مهولاً، وهذا شيء يحاكي اختناقاً، إنه تهيُّج هائل. إنه يحشرج ويصلصل، أجل، والهيكل الخشبي يوشك أن ينهار، وحين ترتفع الأجنحة هذا الارتفاع المفزع، يكون الرجل ذا عون للحيوان، وإذا أراد حجر أن يسقط، فأعطه صدمة، أو ركلة، الرجل يقفز على الحيوان، على الجسد، بكلتا ساقيه، ويقف في الأعلى، يتأرجح. ويدوس على الأحشاء، يتأرجح جيئة وذهاباً، ينبغي أن يخرج الدم بسرعة أكبر، أن يخرج بأكمله، وتشتد الحشرجة، إنه نخير مُحَشْرَج ممطوط للغاية، حشرجة مع ضربات يسيرة مقاومة، من جانب القائمتين الخلفيتين، والقائمتان تُصدران إشارة خافتة. الحياة تحشرِج الآن، وهي تخرج، والتنفُّس يعتريه الوَهْن ويلتوي الجسد الخلفي ثقيلاً، وينقلب. هذه هي الأرض، جاذبية الثِقَل. ويَثِب الرجل إلى أعلى، أما الرجل الموجود في الأسفل، فيحضِّر الفروة التي تغطي الرقبة، راجعاً بها إلى الوراء.

المراعي الباعثة للسرور، والحظيرة الدافئة.

دكان الجزار ذو الإضاءة الحسنة، ولا بد من تحقيق التوافق والانسجام بين إضاءة الدكان وإضاءة نافذة العرض. والأرجح أن يَرِد في الاعتبار الضوء المباشر أو نصف المباشر، وعلى وجه العموم تُعَدُّ الأجسام المضيئة مفيدة من الوجهة العملية بالنسبة للضوء المباشر، لأن ما تترتب إضاءته في المقام الأول إنما هو منصة المحل ومنصة تقطيع اللحم. أما ضوء النهار الاصطناعيّ، الذي ينجم عن استخدام المصفاة الزرقاء، فلا يمكن أن يَرِدَ في الاعتبار بالنسبة لدكان الجزّار، لأن سلع اللحوم تظل على الدوام تتطلب الإضاءة، التي لا تنتقص من اللون الطبيعي لِلَّحم.

العظام المدبَّبة المحشوّة. بعد أن يتمَّ تنظيف الأقدام جيداً يجري فسخها طولياً، بحيث تظل طبقة الجلد السميك متماسكة، ثم يتم جمع الفرعين المفسوخَيْن، ولَفُّهما بالخيط.

فرانتس ، ها أنت ذا تقعد القرفصاء على مدى أسبوعين في حجرتك البائسة . وسرعان ما تبادر مضيفتك إلى إخراجك ، فأنت لا تستطيع أن تدفع لها . وهذه السيدة لا تؤجر هازلة أو مازحة . وإذا لم تستجمع قواك ، فسوف يبعثون بك إلى ملجأ الشاردين التائهين ، وماذا بعد ذلك ، أجل ، ماذا بعد ذلك . أنت لا تُهَوّي حجرتك ، ولا تذهب إلى الحلاق ، وقد نبتت لك لحية كاملة بُنيّة ، أما مبلغ الخمسة عشر قرشاً فسوف تدبّره عما قريب .

حوار مع أيوب، المسألة ترجع إليك، يا أيوب، فأنت لا تريد

وحين كان أيوب قد خسِر كل شيء ، كل ما يمكن أن يفقِده البشر ، لا أكثر ولا أقل ، هنا كان يرقد ، في حديقةِ الفَحْم .

«يا أيوب ، أنت ترقد في حديقة الفحم ، عند كوخ الكلاب ، بعيداً ، على وجه الخصوص ، بحيث لا يستطيع كلب الحراسة أن يعضّك . وأنت تسمع صوت اصتكاك أسنانه ، والكلب ينبح بمجرد الاقتراب خطوة فحسب ، وحين تلتفت إلى الخلف ، وتريد أن تنتصب قائماً ، يَهِرُّ ويُقَرْقِر ، وينطلق نحوك انطلاق السهم ، ويَشدُّ السلسلة التي تقيده ، ويثب قائماً على قائمتيه الخلفيّتين ، مُرْغياً ، مزبدا ، يلتقط أنفاسه .

يا أيوب ، هذا هو القصر ، وهذه هي البساتين والحقول التي كنتَ تملكها أنت نفسك ذات مرة . أمّا كلب الحراسة هذا فلم تعرفه ذات مرة على الإطلاق ، وأما بستان القنبيط التي أُلْقِي بك فيه فلم تكن تعرفه على الإطلاق حتى مجرد معرفة ، كما لم تكن تعرف العنزات ، وهي التي كانوا يَحْدونَها مارّين بك ، فينتِفون العشب ويسحقونه ، ويحشون أفواههم حتى تبرز وَجَناتهم .

يا أَيّوب ، الآن خسرت كل شيء ، أما الأكواخ فيحق لك أن تزحف إليها عند المساء . فالناس يخافون مما أَلَمَّ بك من البَرَص ، وأنت الذي امتطيت مطيتك فوق متاعك مُشِعاً ، وقد ازدحم القوم عليك ، والآن بات لديك السور الخشبي قبالة

أنفك ، وهو السور الذي تزحف عليه القواقع فتَعْلو . وأنت تستطيع أن تدرس دودة الحَرْطون ، وهي المخلوقات الوحيدة التي لا تهابُك .

أمّا عيناك اللتان تغشيهما قشور الجروح ، أنت يا كتلة البؤس والشقاء ، ويا أيها الرجل الحيّ ، فلتفتحهما فحسب .

ما الذي يعذبك أكثر ما يعذبك ، يا أيوب؟ أنَّك خسرت أولادك وبناتك ، وأنك لا تملك شيئاً ، وأنك ترتعد من البرد في الليل ، وقروحك في بلعومك ، وعلى أنفك؟ ماذا ، يا أيوب؟»

«مَنْ يسأل؟»

«لست إلاّ صوتاً»

«صوتاً يأتي من رقبة»

«تقصد أنني لا بُدَّ أن أكون إنساناً»

«أجل ، ومن أجل ذلك لا أريد أن أراك ، فانصرف عني»

«لست إلاّ صوتاً ، يا أيوب ، فلتفتح عينيك ، على قَدْرِ ما تستطيع ، فإنك لن تراني»

«ويلاه ، أنا أمارس التخيُّل ، رأسي ، دماغي ، أنا ، يجعلونني مجنوناً ، الآن ينتزعون مني أفكاري»

«وإذا فعلوا ذلك كان فيه ما يدعو إلى الأسف؟»

«لا أريد ذلك ، أبداً»

«على الرغم من أنك تعاني ، وأنت تعاني من جراء أفكارك ، فأنت لا تريد أن تخسرها؟»

«لا تسأل ، بل انصرف»

غير أني لا أنتزع منك شيئاً على الإطلاق ، وكل ما أريد أن أعرفه هو ما يعذبك أكثر ما يعذبك»

«هذا لا يعني أحداً في شيء»

«أتُراه لا يعني سواك، أنت؟»

«أجل، أجل، أما أنت فلا»

وينبح الكلب ويقرقر، ويعض على أسنانه حواليه، وبعد بعض الوقت يعود الصوت من جديد

«وهل أولئك الذين تتفجَّع عليهم، أولادك؟»

«لا يحتاج إلى أن يصلي من أجلي، حين أكون ميتاً، فأنا سُمٌّ للأرض، ولا بُدّ للمرء أن يبصق ورائي. أما أيوب فلا بُدَّ للمرء أن ينساه».

«ابنتك؟»

«الابنة، وأنت ميت، وأحوالك على ما يرام. لقد كانت هذه صوراً لنساء وكانت خليقة أن تأتيني بالحَفَدة، ولقد أزيحت وأبْعِدَت، وسقطت منهنَّ الواحدة بعد الأخرى، وكأن الرب كان يأخذهن من شعرهن، فيَرفعهن ثم يطرحهن إلى أسفل طرحاً، بحيث يتحطَّمن».

«يا أيوب، أنت لا تستطيع أن تفتح عينيك، فقد التصق منهما الجفنان بالجفنَيْن، وأنت تتفجَّع، وتنادي بالويل والثبور لأنك راقد في بستان الملفوف، وكُشك الكلاب آخر ما تبقىّ لك، ومَرَضك».

«الصوت، أنتَ، أيها الصوت، صوتُ مَنْ أنت، وأين تستكِينّ».

«لستُ أدري، علامَ تتفجَّع».

«آه، آه»

«وأنت، تتوجَّع، وتتأوَّه، ولا تعرف ذلك، يا أيوب»

«كلاّ، ليس لديَّ»

«ماذا».

«ليس لديَّ قوة ، هذه هي المسألة»

«وهي التي تودُّ لو أتيت بها!»

«ما عاد ثمة قوة يؤمِّلها المرء ، ولا رغبة ، فأنا امرؤٌ لا أسنان له ، وإني لضعيف ، رَخْوٌ ، وإني ليتولاّني الخجل»

«هذا ما قلتَه»

«وإنه لَلحقّ»

«أجل ، أنت تعرف ذلك ، وهذا هو الجانب الأكثر إثارة الفزع ، في المسألة»

«إذاً فقد بات هذا مكتوباً على جبيني . لقد بِتُّ مثلَ هذه المِزَق»

«هذه هي المسألة يا أيوب ، ما تعاني منه أكثر ما تعاني ، فأنت لا تود أن تكون ضعيفاً ، وتودُّ لو كان في وسعك أن تقاوم ، أو تؤثر أن تكون مزعزع الأركان تماماً ، وقد فارقك دماغك ، وأدْبَرَت عنك الأفكار ، ثم أصبحت واحداً من أولي الفظاظة الأجلاف ، تماماً ، ألا فلتتمَنَّ شيئاً»

«لقد سألتني فأفرطت في الأسئلة ، أيها الصوت ، والآن بِتُّ أعتقد أن من حقك أن تسألني ، فلتشفني! إذا كان ذلك في وسعك ، سواءٌ أكنتَ شيطاناً أم ربّاً ، وسواءٌ أكنت ملاكاً أم إنساناً ، هيا اشفِني» .

«وسوف تقبل الشفاء من أيّ امرئٍ كان؟»

«فلتَشْفِني»

«يا أيوب ، فكِّر في المسألة مَلِيّاً ، أنت تراني ، وعندما تفتح عينيك ، ربما يتولاّك الفزع مني . وربما أطلب ثمناً مرتفعاً ومُفْزِعاً» .

«سوف نرى كل شيء ، أنت تتكلم كمن يحمل المسألة على محمل الجد»

«ولكن إذا كنتُ أنا الشيطان أو الشرّ؟»

«فلتشفِني»

«أنا الشيطان»

«فلتشفني»

هنالك تنحّى الصوت جانباً، وضَعُف، وازداد وَهْناً على وَهْن، وكان الطلب ينبح، وكان أيوب يصيخ السمع وهو مفعم بالخوف، لقد أدبر وتولّى، ولا بُدَّ لي من الشفاء، وإلاّ لم يكن لي من الموت بُدّ. وكان يزعق زعيقاً، وأقبلت ليلة قاسية، وجاء الصوت مرة أخرى:

«وإذا كنت أنا الشيطان فكيف تتخلَّص مني؟»

وصاح أيوب: «أنتَ لا تريد أن تشفِيَني، ما من أحد يريد أن يساعدني، لا رب ولا شيطان، ولا مَلاك ولا بشر»

«وأنت ذاتك»؟

«ماذا دهاني؟»

«أنتَ الذي لا يريد!»

«ماذا»

«مَنْ تُراه يُعينُك، إذا كنتَ، أنت ذاتك لا تريد المساعدة!»

وقال أيوب، بأصوات غير واضحة: «كلاّ، «لاّ»

وقال الصوت في مواجهته: «الرب والشيطان، الملاك والإنسان، كل هؤلاء يريدون أن يساعدوك، غير أنك لا تريد – أمّا الرب فبدافع المحبة، وأمّا الشيطان فلِكَيْ يمسك بك فيما بعد، وأما الملائكة والبشر فلأنهم مساعدو الرب والشيطان، غير أنك لا تريد»

وقال أيوب بأصوات غير واضحة، مزمجراً: «كلاّ، كلاّ» وألقى بنفسه. ولبث يصرخ طوال الليل، وكان الصوت ينادي بغير انقطاع «الرب والشيطان، والملائكة

والبشر، يريدون أن يعينوك، وأنت لا تريد»، وكان أيوب يقول بغير انقطاع «كلاّ، كلاّ» وكان يحاول أن يخنق الصوت، وكان يتصاعد، يتصاعد تصاعداً مطرد الزيادة، وكان يظل يستبقه درجةً، طوال الليل، وحين لاح الصباح سقط أيوب على وجهه.

وكان أيوب يرقد أخرس، صامتاً. وفي هذا اليوم شُفِيَت قروحه الأولى.

وللناس جميعاً النَفَس الواحد ذاته
وليس للإنسان أكثر مما لدى الماشية

المعروض في سوق الماشية: خنازير ١١٥٤٣، أبقار ٢٠١٦، عجول ١٩٢٠، خراف ٤٤٥٠، ولكن ماذا يصنع هذا الرجل بصغار العجول الظريفة؟ إنه يدخلها إلى هنا وحدها، بالحبل ذاته. وهذه هي القاعة العملاقة التي تزمجر فيها الثيران، والآن يدخل الحيوان الصغير إلى منصة كالمقعد الطويل، ويوجد هناك الكثير من المقاعد الطويلة، بعضها إلى جانب بعض، وإلى جانب كل منها ترقد هراوة من الخشب، وهو يرفع العجل الصغير بذراعيه كليهما، فيرقُد على المقعد الطويل بهدوء، وهو ما يزال يمسك بالحيوان من أسفل، ويمسك بيمناه وقائمته الخلفية، لكيلا يستطيع الحيوان أن يتقلّب ويتخبَّط، ثم يكون قد أمسك بالحبل الذي كان أدخل به الحيوان إلى هنا، وبهذا الحبل يشده إلى الجدار شدّاً محكماً، ويثبت الحيوان صابراً، إنه يرقد الآن هنا، ولا يعرف ماذا يحدث. إنه يرقد رَقْدة غير مريحة، على الخشب، ويصدم برأسه قضيباً ولا يدري ما هذا، غير أن هذا هو الرأس المدبَّب للهراوة، الذي ينتصب على الأرض، والذي سوف يتلقى به الآن، ضربة عمّا قريب، وسوف يكون هذا لقاؤه الأخير مع هذا العالم، وبالفعل، فإن الرجل، الرجل البسيط، الذي يقف هنا وحده تماماً، رجل دَمِث رفيق، ناعم الصوت – وهو يوجه حديثه نحو الحيوان– ويتناول ذراع المكبس، فيرفعه إليه قليلاً، وتمس الحاجة إلى الكثير من القوة، من أجل مثل هذ المخلوق الرقيق، ويسدِّد الضربة للحيوان الصغير في قفاه. وبكل هدوء، وبمثل ما ساق الحيوان إلى هنا، وقال له: والآن فلتلزم السكينة، ويسدِّد إلى الحيوان الضربة

في قفاه، من دون غضب ولا حفيظة، ومن دون انفعال شديد، وحتى من دون كآبة، كلاّ، فالمسألة هكذا، أنت حيوان طيب، وأنت تعرف بلا ريب أن هذا لا بُدَّ أن يحدث بهذه الطريقة.

وإذا صوت يصدر عن العجل الصغير بِرْزِرْزْ، جامداً متصلّباً، والساقان الصغيرتان ممدَّدتين، وقد أصبحت العينان السوداوان المخمليَّتان، فجأة كبيرتين والآن تتنحَّيان جانباً، والرجل يعرف هذا من قبل، أجل، هكذا تنظر الحيوانات، ولكن مازال أمامنا الكثير مما يترتب عمله، ويجب علينا مواصلة العمل، ويبحث تحت العجل الصغير، على المنصة الطويلة سكينه موجودة هنا، وبقدمه يعدِّل وضع الطست في الأسفل من أجل الدم. ثم يسمع صوت الشَّق، عبر العنق، إذ تجري المُدْية، خلال البلعوم، وخلال كل الغضاريف، وإلى جانب العضلات ويتسرّب الهواء أما الرأس فما عاد له تماسك، فهو ينصفِق نحو الأسفل، على المنصة الطويلة، ويتناثر الدم، سائلاً أحمر مسوداً مع الفقاعات الهوائية، وبذلك كان هذا خليقاً أن يكون حدث، غير أنه يقطع ويحزُّ بهدوء، حزّاً أعمق وبملامح وديعة لا تتغيَّر، وهو يبحث ويتكمَّش بسكينه في الأعماق، ويندفع داخلاً بين دوّامتين، إنه نسيج فتيّ للغاية، لدن طريّ، ثم تكف اليد عن عملها في الحيوان، وتتدحرج المُدْية على المنصة الطويلة محدثة بعض الجلبة، ويغسِل يديه في سطل، وينصرف.

والآن يرقد الحيوان وحده. باعثاً للتفجع، في جانبٍ ما، مثلما كان قيَّده. وكان يسود في القاعة الصخب والضوضاء في كل مكان على نحْوٍ مضحك، فالقوم يعملون، وينهمكون في الجر والسحب والحمل، وينادي بعضهم بعضاً، والرأس يتدلّى منقلباً، نازلاً على الجلد ذي الشعر بين كلتا قائمتي المنضدة، وقد جرى فوقه الدم والرغوة والزَّبَد. أمّا اللسان فأزرق غليظ، محتَبس بين الأسنان، وما زال الحيوان يُجْلِب لاهثاً ويحشرِج، فوق المنصة الطويلة، والرأس يرتعد عند الفراء، والجسد على المنضدة الطويلة ينتفض ليقذف بنفسه، وقوائمه تختلج، وتندفع، ساقان طفوليّتان، دقيقتان كثيرتا العُقَد، غير أن العينين جامدتان كل الجمود، إنهما عينان مَيْتتان، فهذا حيوان قضى نحبه.

وكان الرجل الطاعن في السن، الوديع المسالم يقف عند أحد العواميد مع كراسة ملاحظاته السوداء، مرسِلاً بصره نحو المنصة الطويلة، ويحسُب، الأيام تتسم بالغلاء، والحساب فيها سيّء، ويصعب أن يواكب التنافس.

نافذة فرانتس مفتوحة، تحدث في الدنيا أمور مضحكة

الشمس تشرق وتغرب، وتأتي أيام مشرقة، فتنطلق عربات الأطفال في الشارع، ونكتب شباط ١٩٢٨.

ويدخل فرانتس بيبركوبف شهر شباط، وهو يشرب، في غمرة اشمئزازه من العالم، في استيائه، وهو يبدِّد ما لديه من المال بالشراب، ولا يحفل بما يكون أو يحدث، لقد أراد أن يكون امرأً فاضلاً مستقيماً، ولكن هناك أوغاد وأنذال ونصّابون وأناس من السَّفَلة، ومن أجل ذلك كان فرانتس بيبركوبف لا يريد بعدُ أن يرى مزيداً من هذا العالم، وحين يغدو من الغافلين الذي يثيرون الاشمئزاز، يبدد القرش الأخير من ماله بالشراب.

وحين يدخل فرانتس بيبركوبف، بغضبته هذه، شهر شباط، على هذا النحو، يستيقظ في الليل على جَلَبة في الفِناء، وفي الخلف مؤسسة لتجارة الجملة، وينظر إلى أسفلَ، فيغمره شروده، ويفتح النافذة، ويصرخ فوق الفِناء، هلاّ خرجتم من الفناء، أي معشر الثيران، أنتم يا أصحاب الرؤوس الفارغة» ثم يرقد، ولا يعود يفكر في شيء، فقد انصرف القوم في الوقت الحاضر.

وبعد أسبوع يحدث شيء مماثل. فرانتس يوشك أن يفتح النافذة بعنف، ويَنْزِل بالكتلة الخشبية إلى أسفل، بالعنف، هنالك يخطر بباله أن الساعة الآن هي الواحدة، وسوف يرى الغلمان الآن، ماذا يصنع الإخوان في الحقيقة هنا، في الساعة الواحدة ليلاً، وما الذي يلتمسونه هنا، وهل يمت هؤلاء إلى المنزل بصلة، هذا شيء كان عليه في الحقيقة أن يحقق فيه.

وقد كان ذلك حقاً. إنه سلوك ينطوي على التكلف والحذر، وينحدرون على

طول الجدار، ويحني فرانتس رقبته نحو الأعلى، هناك واحد يقف لدى باب الفناء، والغلام يقف ليكون جرس إنذار لرفاقه إذا أحدق بهم الخطر. إنهم يدبرون فعلاً ما، يمارسون ذلك بباب القبو الكبير، وهم في شُغْلٍ بعمل شيء لا يصيبون فيه نجاحاً، هم الثلاثة، ويقال لهم إنهم لا ينبغي لهم أن يتولاهم الخوف من أن يراهم أحد، والآن يسمع صرير، وينفتح الباب. لقد دبَّروا المسألة. فيظل أحدهم في الفناء، في أحد أركانه، أما كلا الغلامين ففي الأسفل، في القبو. والجو شديد الاكفهرار وعلى هذا يبنون حساباتهم.

ويغلق فرانتس نافذته بهدوء. كان الهواء قد بَرَّد رأسه. الناس يفعلون شيئاً كهذا، على أية حال، طوال النهار، وفي الليل كذلك، وهكذا تُمارَس عملية النصب والاحتيال هنا وهناك لقد كان من الواجب أن يتناول المرء أصيص أزهار، ويقذف به على الفناء. ما الذي يلتمسه هؤلاء هنا، على وجه الإطلاق، في المنزل، حيث أسكن، لا شيء على الإطلاق.

ويسود الهدوء والسكينة، ويرقد، في الظلام، على سريره، لا بُدَّ له أن يذهب إلى النافذة وينظر إلى أسفلَ منها: ما الذي فَقَدَه هؤلاء عندي، في المنزل على وجه الإطلاق، ثم يدس في جيبه شمعة، ويبحث عن زجاجة العرق، وحين يظفر بها، لا يصيب منها. لقد أقبلت رصاصة تطير، أتُراها وُجِّهت إليَّ أم إليك.

ولكن حين ينتصف النهار ينزل فرانتس إلى الفِناء، وإذا رهط من الناس يجتمعون وقد حضر بينهم نجار الغرف، غيرنَر، وفرانتس يعرف هذا، ويتحدثون قائلين: «ها أنتم أولاء سرقتم، من جديد»، ويوجه فرانس لكمة إلى هذا: «لقد رأيت هؤلاء الأوغاد ولن أدعهم يسيرون صاعدين، ولكن إذا جاءني هؤلاء إلى الفناء، حيث أسكن هنا وأنام، وحيث لا يكون ثمة ما يبحثون عنه فسوف أنزل، حقاً، مثلما أنا فرانتس بيبركوبف، هنالك يستطيعون أن يلتمسوا عظامهم ويجمعوا بعضها إلى بعض، ولو كانوا ثلاثة». أمّا نجار الغرف فيمسك به فرانتس إمساكاً مُحْكَماً: «إذا كنت تعرف شيئاً ما، فهؤلاء مجرمون، فانصرف، ففي وسعك أن تكسب شيئاً

ما» ، « هلاّ تركتني راضياً مرضيّاً عند هؤلاء ، فأنا لم أَخُن بعدُ أحداً ، وفي وسعهم أن يعملوا وحدهم ، فإنهم يحصلون على المال مقابل ذلك .

ويولّي فرانتس الأدبار . وهنا يأتي مجرمان ، حين كان غيرنر مازال واقفاً هنا ، فيُقْبلان عليه ، ويريدان أن يعرفا منه ، بأي ثمن ، أين يسكن غيرنر ، أي أين يسكن هو ذاته . وينتابه فزع ، ويشحُب الرجل حتى تغدو عيناه كعينَيْ دجاجة ، ثم يقول: «دعوني أرى ذات مرة ، غيرنر ، هذا هو نجّار الغرف ، وفي وسعي أن أريه لكما»ولا يقول كلمة ، وتخطر بباله خاطرة ، وتفتح المرأة ، وعلى أثر ذلك يدخل الرهط كله ، وأخيراً يدس غيرنر نفسه بينهم ، ويغمز زوجته في أضلاعها ، ويضع إصبعه تلقاء شفتيه ، وهي لا تدري ماذا حدث ، ويختلط بالناس ، ويداه في جيبي سرواله ، وما زال هناك اثنان حاضرَيْن ، سيدان من شركة للتأمين ، ينظران حواليْهما في مسكنه ، إنهما يريدان أن يعرفا مقدار سماكة الجدران هنا وحالة الأرضية ، وإنهم لينفضون الجدران ويقيسون ، ويكتبون ، وذلك أن هذا ينتهي فيما هو رماديّ ، بعمليات الاختراق في مؤسسة تجارة الجملة ، ثم إن هؤلاء الفتيان يبلغ من وقاحتهم أنهم حاولوا اختراق الجدار ، إذ كان يوجد هنا آلة تُقْرَع ، على الباب وعلى السلّم وهذا ما يعرفونه . أجل ، فالجدران رقيقة إلى حد يبعث على اليأس ، والمبنى كله مزعزع الأركان ، مثل هذا النوع من عيد الفصح المضخّم .

ويزحفون من جديد على الفناء ، خارجين ، وغيرنر في صورة أوغست الغبي معهم دائماً . والآن يدرسون كلا البابين الحديديَّيْن الجديدين ، عند القبو ، وغيرنر ملاصق لهما ، وهنا تشاء المصادفة ذلك ، ويخطو خطوة إلى الوراء ، إنه يريد أن يفسح مكاناً ، ذلك ما شاءته المصادفة ، ويطأ شيئاً ما ، وهنا ينقلب شيء ما ، وحين يمد يده إليه على عجل ، يكون هذا قارورة سقطت لتوها على الورق ، ومن أجل ذلك لم يسمع المرء شيئاً ، وإذا كان ثمة قارورة هنا في الفناء فقد تركها هؤلاء حيث هي ، فلنأخذها معنا ، ولمَ لا ، فإن السادة الكبار لا يخسرون شيئاً في هذا الصدد ، وينحني ، وكأنه يريد أن يشد رباط حذائه بإحكام ، وفي أثناء ذلك يمسك بالقارورة مستخدماً الأوراق ، وهكذا قدمت حواء التفاحة لآدم ، ولو أن التفاحة لم تسقط من

الشجرة لما سارعت حواء إلى مدِّ يدها إليها، ولما جاءت إلى آدم. وفيما بعد دسَّ غيرنر القارورة تحت سترته، وولّى بها، عبر الفناء، إلى أمه، في الدكان.

ما قولك الآن، أيْ أمّي» ويشرق وجه هذه: «من أين أتيت بهذه يا أوغست؟» «اشتريتها، حين لم يكن أحد هنا في الداخل» «كلاّ!» إنه الماء الذهبي من دانتسيغ، ماذا تقول!»

إنها تشع وتشرق، وكأنها من ستارلاوْ. وهي تشد الستائر بعضها إلى بعض: «أيها الإنسان هنا مازال ثمة أناس جاؤوك من الجهة المقابلة، أليس كذلك؟» «لقد وقف تلقاء الأم، وقد كانوا خليقين أن يأخذوها معهم، لأنفسهم» «أيها الإنسان، يجب عليك أن تُستلِّم هذا» «ومنذ متى يضطر الإنسان إلى تسليم الماء الذهبي» حين يجده؟ ومتى أَتَحْنا لأنفسنا زجاجة من الكونياك ياأمي، في الأيام العصيبة، لقد كان هذا خليقاً أن يُضْحَك منه يا أمي».

أتُراها تقصد، آخر الأمر، أنَّ هذا ليس كذلك، المرأة، والزجاجة، الزجاجة الصغيرة، ماذا تشكِّل بالنسبة إلى مؤسسة كبرى، وفضلاً عن ذلك، يا أمي يفكر المرء التفكير الصحيح فإنها ما عادت على الإطلاق تخصّ المؤسسة بعد، وإنما باتت تخصُّ اللصوص، وينبغي للمرء أن يقذف بها نحوهم. وما من شك في أنني أُعَرِّض نفسي بذلك للعقوبة، إنهم يشربون معاً، ويرشفون رشفة من شراب، ثم رشفة صغيرة أخرى، أجل، لا بد للمرء أن يفتح عينيه في هذا العالم، فليس من الضروري أن يكون كل شيء من الذهب، فالفضة لها قيمتها كذلك.

وفي يوم السبت يأتي اللصوص، ويتطوَّر شيء محبوب. على أن هؤلاء يلاحظون أن امرأً غريباً يتسلّل هنا، في الفناء، وبالتالي فهو ذلك الذي يقف عند الجدار، يلاحظ ذلك، كما يلاحظه الآخرون الذين يحملون المصابيح الباهرة، مثلما يبرز الأقزام من جحورهم، خارجين، بأقصى سرعة إلى باب الفِناء، ولكن هنا يقف غيرنر، وهؤلاء الآن يَعْدون في سرعة الخبب، ومثل الكلب السلوقيّ، ومن فوق الجدار، يهبطون على أرض الجيران، ويعدو غيرنر وراءهم، فيعدون مبتعدين

عنه: «لا تهْرِفَّن، بربك، بكلام فارغ، فإنه لا يجديك، فليكن الله معكم معشر الثيران» ولابُدَّ له أن ينظر كيف يتسلّقون الأسوار، ولا بُدَ أن يتحطّم قلبه، مثلما يتم إبعاد اثنين بتكويم أحدهما فوق الآخر. أيها الفتيان، لا تكونوا مجانين بربكم، الأخير فحسب، الذي يركب بعدُ في الأعلى، على سور المنزل، الذي يضيء له مصابيحه الباهرة، في وجهه: ما الذي حدث لك؟» أتُراه زميل من الزملاء، يفسد علينا الرحلة «سوف أشارك بالطبع»، كذلك يقول غيرنر، ما الذي جرى لهذا. «سأشارك بالطبع، ولماذا تتكوّمون يا تُرى».

هل يَدِبُّ هذا بالفعل من السور، بعد هنيهة، نازلاً إلى أسفل، وحده، يتأمل نفسه، نجّار الغرف، الذي يرتضي لنفسه السكْر، باقياً على حاله، غير أن البدين يتميّز بالجرأة، لأن نجار الغرف سكران، كما أن رائحة الخمر تفوح منه. ويصافحه غيرنر «هاتِ يدَك، أيها الزميل، هل تأتي معي؟» «لا ريب في أن هذا شَرَك، أليس كذلك» «ولماذا؟» «لا ريب في أنك تحسَب أنني سأقع في الشَّرَك الذي تنصبه لي؟» ويشعر غيرنر بالإهانة، فيتكدَّر صفوه. أمّا الآخر فيحمل مسألته على محمل الجدّ، وينظر إليه نظرته إلى امرئ مكتمل المزايا، إذا لم يُوَلِّ هذا الأدبار فحسب، وما من شك في أن الماء الذهبي كان جميلاً إلى حد الإفراط، وحتى امرأته كانت خليقة أن تُلِحَّ عليه في ذلك لو أنه وصل مخيَّب الآمال، ويقول غيرنر متوسّلاً: «كلاّ، ملاذا إذاً، فإن في وسعك أن تدخل هناك وحدك بلا ريب، وهنا أسكن» «ومَنْ يكون هذا، يا تُرى» «أنا القيِّم على المنزل بالطبع أيها الآدميّ، ومن الممكن أن يكون لي، ذات مرة، نصيب من هذا» هنالك يفكر اللص في المسألة مَلِياً، هذا أمر مقنع، وقد كان خليقاً أن يكون، بالطبع، شيئاً لامعاً برّاقاً، لو أنَّ هذا شارك في الدفع بالمسألة إلى الأمام، ولو أن المسألة لم تكن شَرَكاً فحسب، كلاّ فنحن لدينا مسدَّس.

وهو يدع سُلّمه مستنداً إلى الجدار، ويسير مع غيرنر، في أرجاء الفناء، أما الآخرون فقد أفلتوا من القبضة، وما من شك في أنهم يحسَبون أنني فُقدتُ من دون أن يُعثَر لي على أثر. وإذا غيرنر يقرع الجرس من الجهة الخلفية. «أيها الآدميّ، لماذا تقرع الجرس، ومَنْ تُراه يسكن هنا؟» ويقول غيرنر بفخر: «ومَنْ تُراه يسكن

هنا سواي! انتبه» وإذا هو يسحب السُقّاطة، ويفتح بصوت عال: «والآن أتُراني أنا هو أم لستُ كذلك؟» وينقر بإصبعه على زرّ النور فإذا امرأته واقفة عند باب المطبخ ترتعد، ويقدمها غيرنر جذلان مبتهجاً: «بصفتها امرأة تقوم مقام زوجتي، وهي زميلة لي، غوستا» ترتعد، ولا تخرج، وفجأة تومئ بالموافقة بأسلوب احتفاليّ، وتبتسم، هذا رجل ظريف، هذا رجل في ريعان الشباب، وسيم، وتخرج، ها هي ذي: «ولكن، ياباوْل، ما من شك في أنك لا تستطيع أن تدع هذا السيد واقفاً هكذا في الممر، فلتَدْنُ منّا فحسب، ياسيدي، ولتخلع عنك قبعتك»، ويَهُمُّ الآخر أن ينسَلّ هارباً، ولكن كليهما لا يتهاوَنان. أما هذا الذي تتولاّه الدهشة، فمن ناحية أن هذه هي الإمكانية، فما من شك في أنهما من ذوي العفة والاستقامة، وأن أحوالهم سيئة، فالطبقة الوسطى الصغيرة أحوالها سيئة، إنه التضخم وما إليه. أمّا المرأة الضئيلة فتنظر إليه على الدوام نظرة المحب الذي يتوق إلى أن يبعث الدفء في جسده بمشروب البنش، ثم انصرف، على أن المسألة مازالت بالنسبة إليه ليست مسألة واضحة كل الوضوح حتى اللحظة الأخيرة.

وعلى كل حال فهذا الشاب الذي من الواضح أنه أرسل من قبل عصابته، يستفسر منذ الضحى، وبعد طعام الإفطار الثاني عند غيرنر، بأسلوب موضوعيّ للغاية، عن إمكان أن يكون خلَّف وراءه شيئاً ما، هنا، وغيرنر غير حاضر هنا، وما هي إلاّ المرأة فحسب، المرأة تستقبله بمودّة، بل بأسلوب التابع الذليل على وجه الخصوص، كما تعرض عليه قدحاً من العرق تفضَّل بقبوله.

وكان من بواعث الأسف الشديد عند كلا التجّارين أن اللصَّيْن حَرَصا على ألاّ يظهرا لهما الأسبوعَ بأسره، ويناقش باول وغوستا الموقف ألف مرة، مناقشة مستفيضة وهل تُراهما رَوَّعا الصبيَّيْن، ولم يكن لدى كليهما شيء يأخذانه عليهما. «ربما كنت مفرطاً في الخشونة معهما، يا باوْل، فإنّ لك، في بعض الأحيان، مثل هذه النبرة» «كلاّ، يا غوستا، فالمسألة ليس مَرَدُّها إليّ، بل إليكِ، لأنك اتخذتِ وجهاً يتسم بمثل هذه الملامح كما لو كنتِ القسيس، وهذا ما سبَّب له صدمة، ونَفَّره، فهؤلاء لا يجدون أنفسهم على ما يرام حين يكونون معنا، والمسألة تبعث

على الفزع، فم الذي يفترض أن يفعله المرء هنا» وكانت غوستا قد أخذت في البكاء. ألا ليتَ أحداً يأتي ذات مرة، من جديد، فحسب. أَنْ يترتَّب عليها أن تسمع المآخذ على الدوام، ولم يكن في تصرفها ما يؤخذ عليها، بلا ريب.

وهذا صحيح، فيوم الجمعة هو اللحظة الكبرى، وهنا يُقرَع الباب، أحسُب أنه يُقْرَع، وحين تنهض قائمة، ولا ترى، مع ذلك شيئاً، لأنها كانت نَسِيَت، وهي مُعْجَلة، أن تضغط على الزر، هنالك تعرف على الفور مَنْ كان هذا. وأنه ذلك الطويل الذي يتظاهر بالنبل على الدوام، والذي يريد أن يكلِّم زوجها، وهو جادٌّ كل الجد. ويتولاّها الفزع:

هل حدث شيء ما، وقال يهدِّئها: «كلاّ، فالمسألة تتعلَّق بمناقشة في مجال العمل والتجارة الصِّرف» ثم يتحدث بعض الحديث عن ألوان الإمكانية، وأن اللاشيء لا يمكن أن يأتيَ منه شيء، وهكذا دواليك، ويقعدان في حجرة الجلوس، وهي سعيدة بأن يكون لديها في الداخل، والآن لا يستطيع باوْل، بلا ريب، أن يقول إنها طردته، وتقول إنها كانت تقول هذا على الدوام، ونقيض ذلك صحيح، فاللاشيء لا يمكن أن يأتي منه شيء، وتنجم مناقشة مستفيضة بين كليهما حول هذا، ويتبيَّن أن كليهما يعتمدان على تصريحات من والديه، وجَدَّيْه وفروع القرابة الثانوية، والتي تفيد الشيء ذاته: فمن اللاشيء لا يمكن أن يأتي شيء على أية حال، أبداً، ويكاد المرء يقسِم على ذلك، فإنه يبلغ من اليقين مبلغاً عظيماً، وكانا يَرَيان رأياً واحداً، وكان كلٌ منهما يأتي صاحبه بالأمثلة، الواحد بعد الآخر، من ماضيه هو، ومن الجيران، وكانا ما يزالا في غمرة هذا، حين رنَّ الجرس، ودخل رجلان بَرَّرا دُخولهما بأنهما موظفان جنائيّان، مع ثلاثة من موظفي التأمين. وخاطب واحد من الموظفَيْن الجنائيين الضيف، ببساطة، قائلاً: «أنتَ السيد غيرنر، ويترتَّب عليك الآن أن تكون ذا عون لنا، والمسألة نجمت من جراء حالات السطوِ الكثيرة، هنا، في الخلف، وأَوَدُّ أنَّ تشارك ذات مرة في السهر والحراسة الخصوصية. وذلك أن السادة التابعين للمؤسسة يظهرون بالطبع مع التأمين، من أجل التكاليف» ويظلان يتحدثان عشر دقائق، أما المرأة فتصغي إلى كل شيء، وفي الساعة الثانية عشرة يخرجان، أما كلا الاثنين

الباقيين فقد بلغ من مَرَحهما بعد ذلك أنه حدث بينهما حوالي الساعة الواحدة شيء يجلُّ عن الوصف، ويُزْري بكل وصف، وهو ما انتاب كليهما الخجل الجدّي من جرّائه. ذلك لأن المرأة كانت في الخامسة والثلاثين، أما هو فربما كان في العشرين، أو في الحادية والعشرين، ولكن الفرق في السن لم يكن هو وحده– وكان هو يبلغ من الطول ٨٥، ١متراً، وكانت تبلغ من الطول ٥٠، ١متراً–، بل كانت المسألة أن هذا ورد، غير أنه نجم هكذا فيما بين الأحاديث، وفي غمرة الانفعال، والتهكّم على رجال الشرطة، وكان هذا، على وجه الإجمال، أمراً ليس بالمستنكر، إلاّ أن له في النفوس فيما بعد أثراً غير مستحب، وذلك، على الأقل، بالنسبة لها، وبالتالي فسوف ينقطع أثره. وعلى كل حال فقد وجد السيد غيرنر، في الساعة الثانية، موقفاً وجوّا هادئين مريحين على نحو لا يوصف، وما كان ليتمنى لنفسه موقفاً أجمل منه. على أنه حضر هو ذاته على الفور ليشهد هذا.

وقعدوا من بعدُ، حتى الساعة السادسة مساءً، معاً، وكان هو يصغي مفتوناً، مثلما كان حال الزوجة، إلى كل ما كان الطويل يرويه، حتى حين لم يكن صحيحاً إلاّ بدرجة جزئية. وكان هؤلاء أحداثاً من الدرجة الأولى، وكانت تتولاه الدهشة مما كان ينطوي عليه صاحب الآدمي الصغير، اليوم من وجهات نظر عن العالم. وكان فتى انهكته السنون وفعلت فيه الأيام فعلها، وكانت الغشاوات تتساقط قطعاً ثقيلة، عن عينيه، أجل، وحين كان الفتى قد انصرف وذهب، في الساعة التاسعة إلى الفراش، قال غيرنر إنه لا يعلم على الإطلاق كيف يسترسل معه أحداث أذكياء إلى هذا المدى، وهذا شيء لا بد لغوستا أن تسلّم به بلا ريب، شيء لا بُدَّ أن يكون فيه بلا ريب، ما يترتب أن يعرضه كذلك، وتمدَّد الفتى الطاعن في السن مباعداً بين أطرافه.

وفي ساعة مبكرة من الصباح، وقبل أن ينهض قائماً، قال لها: «ياغوستا، هنا ينبغي لي أن أُدعى باول بينديكل، حين أذهب مرة أخرى إلى كشك البناء وأعمل عملاً ما، فأنا امرؤ ليس لي إلاَّ عمل وحيد، وقد وَلّى هذا، وما من شك في أن هذا ليس بعمل لرجل كان مستقلاً بنفسه وأحبُّ الأمور إليّ أن يقذفوا بي إلى الخارج،

لأنني امرؤ طاعن في السن، ولماذا لا ينبغي لي أن أستحق شيئاً، من الخلف، من المؤسسة، فأنتِ ترين بلا ريب مقدار ذكاء الأحداث، ومن لم يكن اليوم ذكياً فسوف تدهسه العجلات، هذا قولي، وأنتِ؟» «أنا أقول هذا منذ عهد بعيد» «أترين. أنا أودُّ أن أعيش، مرة أخرى، حياة رَغْدة وأن لا أدع أصابع قدمي يعتريها الصقيع». وعانقته مسرورة، ممتنة لكل ما عُرِض عليها ولِما هو خليق أن يُعْرَض عليها. «أتعلمين ما ينبغي لنا أن نفعله، أيتها الصديقة، وأنا؟ وقَرَصها في ساقها حتى لقد صرخت». «ستشاركين ياصديقتي» «كلاّ» «أقول نعم، تقصدين، ياصديقتي، أن الأمور تسير على ما يرام، من دونِك» «حيث تكونون القطعة رقم خمسة، وبصيغة من الرجال الأقوياء» وكم تبلغ قوتهم. «تولّي الحراسةِ، والإنذار بوجود الخطر»، كذلك تتابع التسلّي بالحديث، «لا أستطيع ذلك، فأنا أحِسُّ بتشنُّج في الشرايين».

«والمساعدة، ماذا ينبغي لي أن أفعل لكي أساعدكم؟» «أنت خائفة، ياصغيرتي غوستا» «خائفة، ولماذا يا تُرى، فلتُصَب أنتَ ذات مرة بتشنج الشرايين، ثم فلتَعْدُ لاحقاً بي» هنالك يعدو كلب حراسة عَدْواً أسرع، وعندما يظفرون بي عند ذلك تكون أنت في مأزق، وعندئذ أكون لك الزوجةَ» «وهل أستطيع شيئاً لأغيِّر مسألة أنك زوجتي» وقرصها في ساقها، مع توافر الإحساس، «لقد كان ينبغي لك أن تكُفّ عن هذا، يا باوْل، وههنا يكتسب المرء المشاعر على نحو منتظم ومعتدل» «أيتها الصديقة، ستصبحين، إنسانة مختلفة كل الاختلاف عندما تخرجين من الملفوف المخلل»، «كلاّ، لقد وَدِدْتُ ذلك، وإني إليه لمتعطّشة ملهوفة» «تعالي أَوَّلاً، ياصديقتي» أمّا اللقمة الصغيرة، فلم تكن قد تهيّأت بعدُ على الإطلاق، فهلاّ أخرجت القطنة من أذنيك. أنا أُنَقِّب عن هذا الشيء وحدي» «يا للعجب! والآخرون؟»، إنه فزعي.

هذا هو المعنيّ على وجه الخصوص، يا غوستا. هذه أشياء نتنازل عنها، وأنتَ تعرفين، شؤون جمعية تعاونية لا تُدْبر قط، وهذه قيثارة قديمة، كلاّ، ماذا، أنا أستقل بنفسي، وما من شك في أننا أَوّل مَنْ يلي، حيث نقيم في المقاعد الخلفية، والغِناء في منزلي، أهذا صحيح أم لا، يا غوستا؟» وقد كان هذا، في العادة مؤسفاً

إلى حد غير متوقَّع في هذه الأثناء، ثم إن الصديقة أقرَّت ذلك، الحامض الحلو بالفم، ولكن باتجاه الداخل، حيث تستقرُّ المشاعر، تقول: كلاَّ، ثم تقول: كلاَّ.

وفي المساء، عندما غادرت المؤسسة كلها القبوَ في الساعة الثانية، وترك غيرنر نفسه وزوجته يُغْلَق عليهما. في الساعة التاسعة، وفي المنزل لا يصدر صوت، وهو يريد أن يبدأ للتوّ في العمل، ويترتب على الحارس أن يقوم بأعمال الدورية الآن، فماذا يحدث هنا؟ هناك من يقرع باب القبو. إنه يقرع، فيما أحسَب، ثم يقرع، ومَنْ تُراه يمكن أن يقرع هنا، لست أدري، ولكنه قَرَع. والآن لا يترتَّب على أحد أن يقرع، والمحل مغلق، لقد قُرِع. وهو يقرع من جديد، وكلاهما ساكن لا يصدرُ عنه صوت أو نأْمَة، ولم يحرِّك ساكناً، ولم يتفوَّه بكلمة، الباب يُقْرَع من جديد، وغيرنر يوجِّه إليها لكمة: «لقد قرع الباب» «أجل «ما الذي جرى فحسب» وكان الغريب في الأمر أنها لم يكن يساورها خوف على الإطلاق، ولا تريد على أن تقول: «ما من شك في أنه لن يكون ثمة شيء، أمّا أن يقتلونا فذلك ما لن يفعلوه» كلاّ، فلن يقتلنا من يأتي إلى هنا، فإني أعرفه، وما كان ليقتلني، وإن له لساقين طويلتَيْن وشاربين، وإني لخليقة أن أُسَرَّ بهذا، وهنا يُقْرع الباب قرعاً بالغ الإلحاح، ولكن بصوت خافت. بحق الإله، هذه إشارة «أجل، إنها لكذلك، فإنه يعرفنا، وهذا فتى من فتياننا الصغار، كما ظللت أحسَب ذلك منذ عهد بعيد، ياصديقتي» «لماذا لا تقولين ذلك».

وبوثبة يكون غيرنر على السُلَّم، من أين يعلم هؤلاء على الإطلاق، أننا هنا، فلقد فاجأونا، ويهمس ذلك الذي في الخارج: «فلتفتح، ياغيرنر».

ولم يكن له بُدٌّ أن يفتح، شاء أم أبى، إنه قَذَر وضيع وَضاعةَ الكلاب، وإنها لخَنْزَرة ملعونة وإن المرء لَيَودُّ أن يضرب العالم كله فيقطّعه إرباً إرباً، ولا بُدّ له أن يفتح، إنه الطويل، الذي يريد بلا ريب، فقد كان من الممكن أن يكون واحداً من المنزل، أو يكون الحارس» إنهم يقولون: اعملْ وقَسِّم، ثم إنهم لا يقولون شيئاً آخر عن اللعنة، عَن خَنْزَرته.

وحين حاول غيرنر ذلك مرة ثانية، وترك الصديقة تخرج، إذ كان يلعَن، فهي تعود عليه بالتعاسة والحظ المنكود، هنالك يقرع هؤلاء الباب حقاً، من جديد، غير أنهم الآن ثلاثة وهم يتصرَّفون كما لو كانوا قد دعاهم، وهنا لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً على الإطلاق، إذ لا يكون سيداً حتى في عقر داره، إذ لا يفعل شيئاً ضد أصحابه المحتالين. وهنا يقول غيرنر لنفسه وقد خارت قواه، واستبدّ به الغيظ والحنق: اليوم أشارك هؤلاء، وقد بدأت معهم في التعليق، ولكن غداً نكون المسألة قد انتهت: فإذا دخل عليَّ الكلاب مرة أخرى منزلي، حيث أكون رب المنزل، وتدخلوا في شؤوني، هنالك ينبغي لهم أن يُرَوْا كيف يكون الخُضْر هنا، وهؤلاء مستغلّون بالطبع، إنهم مبتزّون.

ثم إنهم يعملون ويعملون، ساعتين كاملتين، في القبو، ويحملون إلى مسكن غيرنر معظم الأشياء، القهوة، أكياساً أكياساً، على الدوام، والزبيب والسكر، إذ يعيدون فرض النظام من جديد، بصورة أساسية، ثم الصناديق المملوءة بالمشروبات الكحولية، وأنواعاً شتى من العرق والخمر، وكان المعسكر بأسره يجرُّها بعيداً، وغيرنر مَغيظ مُحْنَق إذ يفترَض فيه أن يشاطر هؤلاء هذا كله. وكانت الصديقة في الجهة المقابلة تهدّئ ثائرته: «ما كنت لأستطيع، بلا ريب، أن أحتمل هذا القَدْر الكبير مع وجود التشنُّج في شراييني»، ويستشيط غضباً، وما زالوا يَجرون بغير انقطاع «أما شرايينك المتشنِّجة، فقد كان عليك أن تشتري، منذ عهد بعيد، جوارب من النايلون، وهذا يتأتى من توفير الزوجة، التوفير دائماً، هو ما يكون خاطئاً» غير أن غوستا لا تزيد على أن تنظر من وراء صاحبها الطويل، وهذا فخور بها إلى حد بعيد، وهي فخورة به أمام الأحداث الآخرين، وهذا هنا محلُّه، وهو مضارب.

وحين يبتعدون، يكونون قد عملوا كالحيوانات، ويغلق غيرنر باب مسكنه، على نفسه، ويأخذ في الشرب مع غوستا، إذ لم يكن له بُدٌّ من الحصول على هذا، على الأقل، ولا بُدَّ له من خوض التجربة مع كل الأنواع، أما أفضل الأنواع، فسوف يُطْرَح بعدُ في ساعة مبكرة من الصباح على بعض التجار، وكلا الطرفين يسرُّه هذا، وغوستا كذلك، فما من شك في أنه زوجها الطيب، وأخيراً فهو زوجها،

ولسوف تساعده ، ومن بين اثنين في الليلة ، حتى الخمسة يقعد كلا الاثنين ، ويجربان كل الأنواع ، ولكن تجربة عميقة ، من الأساس ، مع خطة ، وحساب وتقدير . لقد غرقا ، كلاهما ، في أعمق مستويات الرضى عن هذه الليلة ، ولبثا ، حتى الصباح في سِكْر كامل ، وقد سقطا كما يسقط الكيس الممتلئ .

وحوالي الظهر ، يفترض أن يفتحا ، ويُقْرَع الجرس ، ويصدح بصوته ، ويتردَّد صداه ، ولكن من لا يفتح فهو من رهط غيرنر . وكيف يفترَض فيهم أن يفتحوا وهم في حالة الحِذْر ، غير أن هؤلاء لا يتراجعون ولا يتوانَوْن . أما أولئك فيدقون الباب دقّات يتردد صداها ، وهنا تلاحظ غوستا شيئاً ، وتنطلق إلى أعلى ، فتقبل على باول ، مطلَقة العنان: «باول ، هنا يدق الباب أناس ، ولا بُدَّ لك أن تفتح» . هنا لك يقول ، أوَّل ما يقول:: «أين» ، ثم تدفع به إلى الخارج ، ولأنها تقذف بالباب كله فتحطمه ، سيكون هذا هو ساعي البريد . وينهض باوْل قائماً ، ولا يزيد على أن يرتدي سرواله ، ويفتح ، وهنا يزحفون مارّين به ، في ارتفاع ثلاث قامات بشرية ، عصابة كاملة ، ماذا يبتغي هؤلاء ، أوَ يريد الغلمان أن يأتوا بالأمتعة ، كلاّ فهؤلاء أناس آخرون . وإذا هنا ثيران ، موظفون جنائيون ، ولهؤلاء لعبة يسيرة ، إنهم يندهشون ، المرة بعد المرة ، السيد المدير رب البيت .

وعلى الناصية يرقد كل شيء مَلآن ، في الردهة ، في الحجرة ، الأكياس ، والصناديق ، والزجاجات وعلى الأرض يرقد كل شيء ملآن ، في الردهة ، وفي الحجرة ، والأكياس ، والصناديق ، والزجاجات والقش قد تداخل بعضها في بعض ، على نحو فوضوي . ويقول المأمور الجنائيّ: «خَنْزَرته هذه لم تَرِدْ عندي بعدُ طوال أيام حياتي» .

وماذا يقول غيرنر؟ وما عسى أن يقول هذا؟ لن يقول هذا كلمة ، بل لا يزيد على أن ينظر إلى المسؤولين الجنائيين ، على أن الحالة سيئة بالنسبة إليه ، الكلاب السفّاكة للدماء ، لو كان عندي مسدَّس لما ظفروا بي حيّاً ، هؤلاء الكلاب السفاكون للدماء ، هنا ينبغي للمرء ، بلا ريب ، أن يظل طوال حياته ، في كشك البناء ، ثم إن السادة المهذبين دَسّوا مالي في جيوبهم ، فَلَوْ أنهم تركوني أتجرّع جرعة أخرى فحسب ، غير

أن هذا لا يجدي شيئاً، ولابُدَّ له أن يرتدي ثيابه، وسوف أتمكَّن، بلا رب، من عقد أزرار حمّالة السروال».

ويسيل لعاب المرأة وترتعد: «لست أعرف على الإطلاق، ياسيدي المأمور، فنحن أناس من ذوي الاستقامة، بلا ريب، ولا بُدَّ أن أحداً من الناس دَبَّر لنا مكيدة، أما الصناديق فقد كنا نغطُّ في سُبات عميق، وقد كنا لاحظنا، بالطبع، ولا بُدَّ أنَّ أحداً دَبَّر لنا مقلباً يُخرجِنا به من المنزل.

ألا فلتقل ياسيدي المأمور. باوْل، ما الذي دَهانا، يا تُرى؟» «هذا ما تستطيع أن تسرده كله وأنت في دور الحراسة» ويخطر ببال غيرنر شيء ما: «لقد اقتحموا علينا المنزل الآن، في الليل، ياصديقتي، هؤلاء جاؤوا كأنما من الخلف، ولذلك ينبغي لنا أن نكون في طور الحراسة» «هذا ما تستطيع أن تسرده كله بعد ذلك، وأنت في طور الحراسة، أو في مكتب قيادة الشرطة» «ما أنا بذاهب إلى قيادة الشرطة» «سوف ننطلق بمركبة» «ياإلهي، غوستا، أنا لم أسمع وَقْع شيء، حين اقتحم هؤلاء هنا، بيتَنا علينا، ولقد نمت نوم الجرذان» «وأنا كذلك، لم أسمع شيئاً، ياباوْل».

وتَهُمُّ غوستا أن تأتي برسالتين من منضدة السرير، وهما واردتان من الطويل، ولكن موظفاً كان رآهما: «أرينيهما، أو أدخهليهما في مكانهما من جديد. الإمساك بالأشياء الأبعد يأتي بعد هذا».

وتقول معاندة شامِخة «هل تستطيع، لقد كان عليك أن يتولاّك الخجل من اقتحام مسكين غريبِ» والآن فتلمضوا قُدُماً».

وتبكي، وهي لا تنظر إلى زوجها، وتصرخ، وتحدث ما يشبه المشهد المسرحي، وتلقي بنفسها على الأرض، ويضطر القوم إلى رفعها. أما الزوج فيلعن، ويمسكون به: «سوف تأخذ زوجتك بعد بالشدة والعنف» «هؤلاء المجرمون، الأدنياء، المبتزّون، لقد وَلَّوْا الأدبار، ولقد أدخلوني في حمأة أقذارهم.

هَيّا هَيّا هيّا، المَهْر يعود إلى العَدْو السريع

وفي الأحاديث التي دارت في دهليز المنزل ، وفي الفِناء ، لم تكن هناك مشاركة لفرانتس بيبركوبف الذي كانت يداه في جيبيه ، والياقة فوق أذنيه ، ورأسه وقبعته بين كتفيه ، وكان يظل يستمع على الدوام ، مع المجموعة ، حيث يسمع من هنا وهناك . وبعد ذلك جعل ينظر إليهم ، وكانوا قد شكلوا صفَّيْن على جانبيْ الطريق ، حين سيق نجار الغرف وزوجته القصيرة البدينة عبر دهليز المنزل إلى الشارع ، وتراجعوا الآن مندهشين . لقد جريت أنا كذلك ، غير أني كنت في تلك الأيام مكتئباً . وينظر أحدهم كيف يحملق هؤلاء في نظرة على خط مستقيم ، ويشعرون بالخجل ، أجل ، أجل ، ففي وسعكم أن تتصنَّعوا وتُراؤوا ، فأنتم تعرفون كيف يبدو هذا في واحد من البشر . وهؤلاء هم أهل الكروش الحقيقيون ، الذين يقعدون القرفصاء وراء المدفأة ، ويخادعون ، والذين لا يظفر المرء بهم مع ذلك . على أنّ عمليات النصب والاحتيال التي يُقْدِم عليها الإخوة لا يمكن ضبطُها ، والآن يشكلون شخصية هاينريش المغفَّل ، أجل ، الآن ، فأدخلْ ياهذا ، وليدخل المرء على الدوام ، أيها الأطفال الصغار ، والمرأة الصغيرة الضئيلة ، نتسامح معها حقاً ، فهي على حقّ ، الحق الذهبي ، فدَعْ هذه تضحك ، يا رجل ، إذ ينبغي لهم أن يعرفوا ذات مرة ، كيف يكون الانطلاق في البحر ، وسماع هديره .

وكان القوم مازالوا يدسّون رؤوسهم فيجمعون بعضها إلى بعض ، وهنا كان يقف فرانتس بيبركوبف قبالة باب المنزل ، وكان بارداً برودة قاسية ، وكان يرى باب المنزل من الخارج ، ناظراً من وراء السدّ الترابي . مال الذي ينبغي للإنسان أن يفعله

الآن، وما العمل، وكان ينقل ثقل جسمه من ساق إلى أخرى. إنها برودة لعينة، برودة مسعورة، لن أصعد إلى أعلى، وماذا يمكنني أن أفعل؟

هنا كان يقف والتفت– ولم يكن يلاحظ أنه كان متيقّظاً إلى هذا الحد، مع العصابة التي كانت تقف هنا، تمارس الرياء والنفاق، ولم يكن لديه ما يعمله، وأنا أرى نفسي في مكان ما، آخر، وهؤلاء يطردونني من هنا، وهو يعدو عَدْوَ الظليم، وينطلق انطلاقة الخيل مُنْطلَق العِنان، يعدو عَدْوَ الخبب، نازلاً في شارع الألزاس عند سياج البناء الخاص بخط المترو، على طول الطريق متجهاً إلى ميدان روزنتال أو إلى أية جهة كانت.

وكان قد حدث أنَّ فرانتس بيبركوبف خرج يزحف من مبناه، وإذا الرجل الذي كانوا يدفعون به بين الصَّفّين، والمرأة المكتنزة التي تدندن بالألحان كيفما اتفق، وحادثة السطو، وهاينريش الساذج المغفَّل، يسيران معه، ولكن حين حلَّ في الميدان، حتى قبل الناصية المؤدية إليه، انطلقت العملية. هنالك انطلقت يداه، من ذاتَيْهما، من الناصية إلى جيبه، وانطلقت العاملة هنا، ولم يكن ثمة زجاجة يفترض مَلْؤُها. لا شيء، لا زجاجة، وعَرَق غزير، وفي الأعلى هدوء ورصانة واعتدال.

وبسبب الضباب اليسير. كان قبل الأَطيط أو الفرقعة، داخلاً في معطفه، يفكر في المضيّ منحدراً، ولا يفكر في الزجاجة، ألا فلتحلَّ اللعنة، أهي عودة القهقري، متسكعاً؟ هنا انطلقت المسألة مطلقة العنان في داخله: كلاّ، أجل، أجل، كلاّ، كل هذا القَدْر من الاختلاج، ذهاباً وإياباً، إنه السبُّ والشتم، وإنه للإقدام والشروع! والإزاحة، كلاّ، ماذا إذاً، فدَعني راضياً، فأنا أريد أن أدخل حقاً، مثل هذا لم يكن له وجود في فرانتس منذ أَبَد. سأدخل، وإذا لم أدخل ظمِئِت، ولكن هنا يكفيني قدح من الماء المعدني. إنه ظَمأ رهيب، جبّار، ظمأ ضخم. يا إلهي، لقد وَدِدْت لو أشرب، فابقَ هنا، بربِّك ولا تدخلَنَّ الدكان الصغير، وإلاّ مُتَّ عما قريب، ورقدت ميتاً من جديد. ثم تعود إلى قعدة القرفصاء عند الصديقة، ومن ثم حضر هنا هاينريش الساذج، والنجّاران، ثم الدندنة بأي لحن كان والانعطاف يميناً، كلاّ، هنا لا نبقى، ربما لبثنا في أي مكان آخر، وتابعنا المسير، ومضينا إلى ما هو أبعد. العَدْوُ، والعَدْوُ، دائماً.

هكذا يكون حال فرانتس وليس في جيبه سوى ٥٥، ١مارك، وهو يسير حتى يبلغ ميدان الإسكندر، ولم يتشمّم سوى الهواء الصِّرف، وكان يعدو مهرولاً، وكان يحس بالتقزز والاشمئزاز، وكان قد قعد في مطعم، وعلى الرغم من أنه كان يحس بالاشمئزاز فقد قعد في أول مطعم، وأكل الأكل الصحيح، الحقيقيّ، الأكلَ الصحيحَ أول مرة، منذ أسابيع، اليخْنة بلحم العجل، مع البطاطا، وبعد ذلك بات الظمأ أقل، ويبقى في الجيب خمسة وسبعون قرشاً، كان يحكها في يده. أأذهب إلى لينا، وماذا يفترض أن تفعل بي هذه المدعوَّة لينا، فإني لا أحبها، وأصبح لسانه متبلداً كالمتخدِّر، وغشيته حموضة، وكان يشعر بحرقة في عنقه، لا بُدَّ له أن يصب قدحاً آخر من الماء المعدنيّ، وأن يزيل، بالحكِّ، فقاعات حمض الفحم، مهما كانت وجهته، إلى مينا. أما شرائح السمك فقد بعث بها إليها، وأما قمصان التريكو الصوفية فلم تقبلها، أجل، هذا صحيح.

فلننهض قائمين، وأمام المرآة يصلح فرانتس بيبركوبف هندامه، غير أنَّ من لم يكن مرتاحاً على الإطلاق، حين رأى وجنتيه الشاحبتين المتهدلتين وخدّيه الحافلين بالبثور، إنما كان بيبركوبف. لقد كان للفتى وجه وأي وجه، وكان يحمل آثار ضرب على جبهته، لم تتبقَّ منها سوى آثار حُمْر، ومن القبعة ومن الخيار، أيها الآدميّ، ذلك الأنف الأحمر الغليظ، أجل، ولكن ليس من الضروري أن يكون هذا ناجماً عن الخمر، فهذه باردةٌ اليوم، وما ذلك إلا بسبب العينين الجاحظتين الطاعنتين، كعينَيْ العجل، وعلى هذا فلتُحَملِق، وكأنني لا أستطيع أن أحملق مع الاهتزاز والارتجاج، وكأن أحداً صبَّ عليَّ الشراب. ولكن هذا لا يضير في شيء أمام مينا، وما هو إلاّ أن يَرُدَّ المرء شعره إلى الوراء، بالضغط، وهكذا سننزِل إليها. ذلك لأن هذه تعطيه بضعة قروش حتى يوم الخميس. ثم نرى ما يلي ذلك.

فلنتخرج من الوَكْر، إلى الشارع البارد. أناس كثيرون، إذ يوجد، في ميدان الإسكندر، أناس كثيرون كثرة كارثيّة، وكلٌّ منهم لديه ما يشغله، على قدر ما يكون هذا ضرورياً، وكان فرانتس بيبركوبف يجري إليهم، وكان يُديرِ عينيه يميناً وشمالاً، وكأن فرساً زَلَّت قدماها على الاسفلت المبلَّل، وهي تتلقى وَطْأً بالقدم في

بطنها، بالحذاء ذي الساق، وهي تَدِبُّ دبيباً، إلى أعلى، ثم تعدو على غير هدى، هنا وهناك، مطلقة العنان، وتجري كالمجنونة، وكانت لفرانتس عضلات وقد سبق أن دخل نادي الرياضة البدنية، والآن كان يتسكَّع في أنحاء شارع الإسكندر، ولاحظ أيَّ نوع من الخطوات كان يخطو، خطوات مُحْكَمة، ثابتة، مثل من يكون واحداً من الحرس ونحن نسير بدقة بالغة، مثل الآخرين.

تقرير أحوال الطقس: اليوم قبل الظهر: احتمالات الطقس تبدو أكثر انطواءً على المودَّة إلى حدٍّ ما. والحق أنه ما زالت تسود برودة ملموسة، قارسة، ولكن ميزان الضغط الجوي في حالة ارتفاع. والشمس عادت تتجّرأ عليَّ، تطل بوجهها من جديد، على استحياء، وبالنسبة للساعات التالية يتوقع حدوث ارتفاع في درجة الحرارة.

ومَنْ كان يوجه الأسطوانة Nsu-6 بنفسه فهو متحمِّس، أَلا فَلأَقْدَم إليك، وَلأَخلُ إليك، أي حبيبي، وَلأَخرج.

وحين يغدو فرانتس إلى بيتها، ويقف أمام بابها، يكون هناك جرس، ويرفع قبعته بحركة تنمُّ عن الهمّة ومضاء العزيمة، ويجر الجرس، ومن يفتح، مَنْ سيكون ذلك الذي يفتح، هنالك نقوم بعمل إشارة، عندما يكون لدى الفتاة رجل، ومن تُراه سيكون عندئذ يا تُرى، رَفْرِف، رَفْرِف، فلنُصفِّق. رجل، زوجها! هذا هو كارل، السيد صانع الأقفال. غير أنه لا يضرُّ على الإطلاق. فابْدِ لنا، يا رجل، وجهك الكالح».

«ما الذي تقول، ما الذي حدث؟» «كلاّ في وسعك أن تَدَعَني أدخل دونما حرج يا كارل، فإني لا أعضُّ أحداً» وبات في الداخل. هنا كنا خليقين أن نكون إذاً، صاحبه لودفيغ، لقد بدا للناس شيئاً كهذا.

«سيدي الموقَّر، كارل، إذا كنت صانع أقفال متمرِّساً، وأنا مجرد عامل في المناسبات، فلا تتخذنَّ موقف المتبجِّح المفرط في التبجُّح. وفي وسعك أن تقول لي طاب يومك، عندما أقول: صباح الخير» «ماذا تريد أيها الآدمي؟ هل تركتك

تدخل؟ فما الذي دفع بك خلال الباب؟» «ما علينا، هل زوجتك هنا؟ ربما كان في وسعي أن أقول لهؤلاء طاب يومكم» «كلاّ، إنها ليست هنا، كلاً على الإطلاق، بالنسبة إليك. وبالنسبة إليك لا يوجد أحد هنا» «هكذا» «أجل، ما من أحد هنا» «ما علينا، فما من شك في أنك هنا بلا ريب، يا كارل» «كلاّ، فأنا لست هنا، وكل ما فعلته أنني أتيت، لنفسي، بصُدَيْريّ مطرز ولا بد لي من النزول فوراً إلى المحلّ» «الأمور تسير سيراً هائلاً للغاية، العمل والتجارة» «أجل، بلا ريب» «إذاً فأنا مطرود من قِبَلك» «أنا لم أسمح لك بالدخول أبداً، وما الذي خسرته في الحقيقة يا تُرى، أيها الآدميّ؟ أَوَلا تخجل على الإطلاق من الصعود إلى هنا، لِتَلومَني، حيث يفرمك القوم جميعاً، من هذا المنزل» «هلاّ تركت هؤلاء، يا رجل، يثغون ثغاء الماعز، يا كارل، إذ يفترض أن يكون هذا أقل همومنا شأناً. أمّا حجراتك فلا أودُّ أن أنظر فيها، هل تعرف، يا كارل، فمن أجل هذه لا تحتاج إلى أن تحمل همّاً. وهنا قادوا اليومَ عندي رجلاً إلى السجن، الخُضْر، تجّاراً متمرّساً، وكان هذا ما يزال مُدَبِّر المنزل. فتصوَّر، مع الزوجة، ولقد سرقوا مثلما تسرق الغِربان، أتُراني سرقت؟ أخيراً؟» «أيها الآدمي، سأنزِل، فاخرج، وفيم تصغي في مثل موضعك، إذا وَطِئت مينا تحت عينيها فاستحضر في ذهنك، هنالك تأخذ مكنسة وتضربك فتحوِّلك إلى كتلة من الهريسة» وما الذي يعرفه هذا عن مينا، وزوجها الذي له قرنان في جبينه، ويريد أن يقول لي شيئاً، وما أكثر ما يضحكني، عندما يكون لفتاة رجل تحبه وتهواه. ويتقدم كارل من فرانتس: «مالي أراك مازلت واقفاً بعدُ؟ نحن لسنا من ذوي قرابتك، يا فرانتس، كلاّ، فلسنا لك بأقرباء على الإطلاق. وعندما تخرج الآن من السجن عند ذلك يترتَّب عليك أن ترى، وحدك، ماذا تصنع» «أنا لم أَتَسوَّل منك شيئاً بعد» «كلاّ ولم تنسَ مينا تلك المدعوة إيدا. فالأخت أخت، وأنتِ ما زلتِ تحملين هذه الصفة عندنا، على الدوام، وأنتِ التي كنت تحملينها، لقد فَرَغنا منك»، أنا لم أقتل المدعوة إيدا. من الممكن أن يحدث لكل امرئ ذات مرة أن تَزِلَّ يده، عندما يكون في عجلة من أمره» «لقد ماتت إيدا» فاسلكي الطرق التي تسلكينها، فنحن أناس شرفاء».

أما كلب ذي القرنين، الذي يحمل كيساً للسم، فأَحَبُّ الأمور إليَّ أن أقول له

إنني سأنتزع زوجته منه، بجسدها، من سريره. «لقد سلخت سنواتي الأربع، حتى آخر دقيقة، وستستطيع بعد ذلك أن تجعل نفسك أكثر بدانة مثلما يفعل الطعام، فإن طعامك يهمُّني، والآن تسلك طرقك الخاصة بك. مرة وإلى الأبد. وبالنسبة إليك ما عاد هنا وجود للمنزل، مرة وإلى الأبد» أمّا ما يكونه هذا فحسب، أي السيد صانع الأقفال، فسوف يخطئ في اختيار أسلوب التعامل معي كذلك.

وعندما أقول لك الآن يا كارل إنني أريد أن أبرم معك صلحاً، وإنني قد أمضيت مدة عقوبتي، وإنني أَمُدُّ إليك يدي» «هنالك لا أتقبلها، ولا آخذها» «هذا ما أردت أن أعرفه على وجه الدقة فحسب. «فقد لامست الفتى ذات مرة على عجل. وأمسكت به ذات مرة من ساقيه، وصفعته ذات مرة، صفعته صفعة ألصقته بالجدار». والآن أعرف ذلك وكأنه مُدَوَّنٌ» ولقد أطبق بالقبعة على رأسه إطباقةً أحدثت جُلبة، بالعنفوان ذاته الذي كان من قبل: «ذلك لأن الصباح الحسن جميل، يا كارل، ياصانع الأقفال، السيد كارل، فلتسلِّم على مينا، ولتقُل لها إنني كنت هنا، لمجرد أن أرى ذات مرة كيف تسير الأمور، وأنتَ، أيها الفتى الخنزير، تُعَدُّ هنا أشدَّ اللئام حمقاً وغفلةً في العالم، فضع هذا نصب عينيك، وانظر إلى قبضتي إذا ما أردت شيئاً، ولم تصل إليه، فإنما أنت مِزَق من أقذاره وبقية منها، يبلغ منها أنَّ أمْرَ مينا معك يبعث في نفسي الألم».

وإذ به ينصرف، ينصرف بهدوء، وينزل على السُلَّم بهدوء، رويْداً رُوَيْداً، ينبغي له أن يأتي وراء ذلك، ولسوف يحاذِر ويحترس. وفي مقابل قدح وحيد من العَرَق، قدح ساخن مُقَوّ للقلب، يصبُّه في بطنه، وربما انتقل إلى الجهة المقابلة، مع ذلك. وأنا في الانتظار. ولقد مضى فرانتس لوجهه، راضياً كل الرضى. أمّا المال فسوف أُحَصِّله من أي مكان آخر، وقد كان شعر بقوة عضلاته، ولسوف أعود فأملأ كأسي من جديد.

«أنت تريد أن تَقِفَني، في طريقي، وتطرحني أرضاً، ولكن لي يداً تستطيع أن تخنق، وأنت لا قِبَل لك بي، وإنك لتَنفُذُ إليّ بالتهكم، وأنت تريد أن تصبَّ عليَّ جام ازدرائك صباً، ليس أنا، ليس أنا، فإني قويّ جداً، وأنا أستطيع أن أسمع سخريتك

مارّاً بها مرور الكرام ، وأسنانك لا تنفذ في دِرْعي ، فأنا محصَّن من الأفاعي ، ولست أدري من أين تأتيك المقدرة على الانقضاض عليّ ، غير أني قادر على مقاومتك ، فقد وضع الرب أعدائي بين يَدَيَّ جاعلاً أقفيتهم تلقائي» .

«فتحدَّث فحسب ، فما أحسن ما تستطيع الطير أن تغني عندما تكون قد أفلتت من دائرة خطر الظِربان ، ولكن الظربان يوجد منها الكثير ، ولا يحسُن بصغار الطير إلاّ أن تغني! وأنت مازلت من دون عينين تتوجهان نحوي ، وما زلتَ لا تجد حاجة إلى النظر إليّ ، وإنك لتسمع ثرثرة البشر ، وصخب الشارع ، وهدير الحافلة الكهربائية ، ولكنك لن تسمعني ذات مرة إلاّ – ولتسمع فحسب – في غمرة هذه الأمور كلها» .

«وأسمع مَنْ؟ مَنْ يتكلَّم؟» .

«لا أقول ذلك ، فسوف تراه ، وسوف تحسّ به ، فلتُعدَّ قلبك لهذا ، ولسوف أتحدث إليك بعدئذ ، ولسوف تراني عندئذ ، ولن تجود عيناكَ إلاّ بالدمع»

«في وسعك أن تتحدَّث على هذا النحو مائة عام أخرى ، فإني لا أملك لحديثك إلاّ الضَّحِك منه» . «لا تضحك ، إياك أن تضحك» .

«هذا لأنك لا تعرفني ، ولا تعرف مَنْ أكون ، ومَنْ يكون فرانتس بيبر كوبف ، الذي لا ينتابه خوف من شيء . ألا إن لي قبضتَيْن ، وأي قبضتين ، ولذا فانظر أيُّ عضلات لديّ» .

الكتاب الخامس

أَما إنّها لنقاهة سريعة، فقد عاد الرجل يقف هنا من جديد، حيث كان يقف، ولم يكتسب من العلم شيئاً فوق ما كان لديه، ولم يدرك شيئاً. والآن يدهمه المكر السيء الأول، الفادح. وذلك أنه يُجَرُّ جرّاً، بهدف توريطه في جريمة، وهو لا يريد، ويقاوم، ولكن لا بُدَّ أن يضطر إليها.

وإنه ليقاوم مقاومة باسلة، شامسة، بيديه ورجليه، غير أن ذلك لا يجدي فتيلاً، فالأمر فوق طاقته، ولا بُدَّ أنَ يضطر إلى التورُّط.

اللقاء من جديد في ميدان الإسكندر، والبرد القارس في العام التالي، ١٩٢٩، سيكون البرد أشد

بُمْ بُمْ، كذلك كان المِدَكُّ البخاري ينتفض أمام آشِنْغَر، في ميدان الإسكندر ويبلغ ارتفاعه مقدار ارتفاع طابق، وهو يضرب الخطوط كما لا يضربها شيء، ليدسَّها في الأرض.

وثمة هواء كالجليد. ونحن في شهر شباط، والناس يسيرون في معاطف. ومَنْ كان لديه معطف فِراء فهو يرتديه، ومَنْ لم يكن لديه مثل هذا المعطف لا يرتديه. وللنساء جوارب رقيقة، ولا بُدّ لهن أن يتجمَّدْن من البرد، ولكن المنظر جميل، وقد توارى النائمون في جحورهم، من البرد، وحين يسود الدفء يخرجون أنوفهم من جديد. وفي هذه الأثناء يستمتعون بشرب ضعف التقنين المعتاد من العَرَق، ولكن أي عَرَق هذا، فإن المرء لا يريد أن يسبح فيه كما تسبح الجثة.

وكان المِدَكُّ البخاري يضرب الأرض في ميدان الإسكندر، بُمْ، بُمْ

وكثير من الناس يتوافر لديهم الوقت، وهم ينظرون كيف يضرب المِدَكّ الأرض. وثمة رجل في الأعلى يجر على الدوام سلسلة، ثم يدفع بها إلى أعلى يغشاها البخار، وفجأة تصيب القضيب ضربة على رأسه هنالك يقف الرجال والنساء، ولا سيما الأحداث، مسرورين، يشهدون كيف تسير العملية من دون عوائق، وفجأة يصاب القضيب بضربة على رأسه، وبعد ذلك يكون صغيراً مثل أُنْمُلة، ولكنه يصاب بعد ذلك، أبداً، بضربة أخرى، وعندها يستطيع أن يفعل ما يريد، وأخيراً بات

بعيداً. بحق السماء، لقد دبَّروا المسألة فأحسنوا تدبيرها ويمضي القوم لِوَجْهِهم راضين مغتبطين.

وكان كل شيء مغطى بالألواح، وكانت بيرولينا، سيدة برلين، تنتصب قبالة ديتريش، وقد مدت إحدى يديها، وكانت امرأة هائلة، وكانوا قد أبعدوها بالجَرّ، وربما أذابوها وصهروها وصنعوا من ذلك ميداليات.

لقد أقبلوا على الأرض كالنحل، وإنهم ليصطنعون ما يصطنعون، ويلفقون بالعمل ما يلفِّقون عابثين، هنا وهناك، طوال النهار والليل.

وتنطلق الحافلات الكهربائية هادرةً، صفراً، مع مقطوراتها، عبر ميدان الإسكندر المغطىّ بالخشب. والوثوب خطر، والمحطة قد أُخْليت على نطاق واسع، وثمة شارع ذو خط واحد يفضي إلى شارع الملك ماراً بفيرتهايم، ومن أراد الذهاب شرقاً فلا بُدَّ له أن يمرّ من الخلف حول مجلس الرئاسة، من خلال شارع الدير، والقطارات ينبعث هديرها من المحطة إلى جسر يانّوفيتس، وفي الأعلى تنفث القاطرة البخار، وهي تقف فوق تمثال الحَبْر على وجه الخصوص، ثم شلوسّ برويْ، فالمدخل، والركن بعد ذلك.

وفوق السدّ يطرحون كل شيء، المنازل كلها على خط المدينة الذي جاؤوا بالمال منه فمدينة برلين غنية، ونحن ندفع الضرائب.

وكان لوزَر وفولف قد قطعاها بعلامة المرور المشكَّلة بالموزاييك، وكان السد الترابيّ ينتصب على ارتفاع عشرين متراً، ووراء ذلك من جديد، ثم ينتصب في الجهة المقابلة، قبالة المحطة، مرة أخرى. لوزَر وفولف، برلين– إلْبِنغ، مزايا من الدرجة الأولى، في كل اتجاهات الذوق، البرازيل، هافانا، مكسيكو، المُواسية الصغيرة، ليليبوت، السيجار رقم ٨، القطعة قصيدة الشتاء الدرامية، العبوة: ٢٥ قطعة، ٢٠ قرشاً، سيجاريلّلو، رقم ١٠، غير مصنَّفة، غطاء سوماطرة، إنجاز خصوصي بهذا المستوى من السعر، في صناديق يحتوي كلٌّ منها على مائة قطعة– ١٠ قروش، وأنا أضرب كل شيء، وأنت تضرب كل شيء، وهو يضرب كل شيء بالصناديق

ذات الخمسين قطعة، والرُّزم مِن الورق المقوى ذات القطع العشر، الإرسال إلى كل بلدان الأرض، بويرو ٢٥ قرشاً، هذه البضاعة الجديدة عادت علينا بالكثير من الأصدقاء، أنا أضرب كل شيء، وأنت تطوِّح بكل شيء إلى مدى بعيد.

وإلى جانب تمثال الحَبْر توجد فسحة، وفيها تقوم العربات التي تحمل الموز. فأعطوا أطفالكم الموز، فالموز أكثر الفواكه نظافة، إذ تحميه قشرته من الحشرات والديدان، كما تحميه من الجراثيم، باستثناء تلك الحشرات والديدان والجراثيم التي تنفذ من خلال القشرة. وقد أشار صاحب المشورة، تسيرني، مع التوكيد والإلحاح إلى أن هذا هو ما يتعرَّض له حتى الأطفال في سنوات العمر الأولى، وأنا أحطِّم كل شيء، وهو يحطِّم كل شيء.

والريح موجودة بكميات ضخمة في ميدان الإسكندر، وعند ناصية ديتريش تشتد حركة المرور، وهناك رياح تهبُّ بين المنازل، نقيّة، وعلى حُفَر البناء، والناس يودّون لو يستكينون في المقاصف، ولكن من يقدر على ذلك الذي يهب خلال جيبَيْ سرواله، هنالك تلاحظ أن ثمة شيئاً ما يحدث، ولا يكون هناك تردُّد، ولا بُدَّ للمرء أن يكون مرحاً في تعامله مع الطقس ففي الصباح الباكر يأتي العمال وقد جاءت بهم المراكب في البحر، من قرية راينيكه، ونويْ كولن، وفايسِنزيه، سواء أكان الطقس بارداً أم لم يكن بارداً، وساء أكان ثمة رياح أم لم تكن هناك رياح، عليَّ بإبريق القهوة ولْتَحزِموا السندويشات، فلا بُدَّ لنا من الكدح، ففي الأعلى تقعد اليعاسيب وذكور النحل، الذين ينامون في أسرتهم المحشوَّة بالريش، ويمتصون دماءنا إلى أن يستنفدوها.

وللسيد آشنغر مقهى كبير ومطعم، ومن لم يكن له بطن ففي وسعه أن يحصل على بطن، ومن كان له بطن ففي وسعه أن يضخمه قَدْرَ ما شاء والطبيعة لا تسمح بان يخادعها أحد! ومن كان يعتقد أن في وسعه أن يصلح ويحسّن بالاعتماد على خبز ومعجنات مصنوعين من دقيق أبيض مجرَّد من قيمته، عن طريق إضافات كيميائية مصطنعة، فهو مخدوع مُغَرَّر به، هو والمستهلكون. فالطبيعة لها قوانينها في الحياة وهي تنتقم من كل إساءة للاستعمال. ثم إن الوضع الصحي الذي تعرَّض للهزات عند

كل الشعوب المتحضرة في العصر الحالي تقريباً يجد عِلّته في الاستمتاع بغذاء مجرَّد من قيمته، مُحَسَّن بأساليب مصطنعة وبِجَعْلِ السِلع المحسَّنة المصنوعة من القديد، من خارج المنزل، وقديد الكبد وقديد الدم رخيصة.

«المجلة» المنطوية على الإمتاع العالي تُباع، بدلاً من مارك واحد، بعشرين قرشاً فحسب، ومجلة «الزواج». ذات الإمتاع العالي والتلميحات المثيرة، تباع بعشرين قرشاً. والمنادي يدخن السجاير وقد اعتمر قبعة صغيرة، وأضرب صفحاً عن كل شيء.

وتُقْبِل من الشرق، من فايسِّينزيه، وليشتنبرغ، وفريدريشسهايْن، وشارع فرانكفورت، الحافلات الكهربائية الصفر، على الميدان حتى يُغَصَّ بها وتتكوَّم، وذلك عن طريق لاندسبِرْغ. أما الحافلة رقم ٦٥ فتأتي من فِناء الماشية المركزي، ومن الحلقة الكبرى، في ميدان فيدِنغ، وميدان لويزه، وأمّا حافلة هنديكيله، رقم ٧٦ فتأتي عن طريق شارع هوبيرتوس المشجَّر. وعند ناصية شارع لاندسبِرْغ، كانوا قد فرغوا من بيع فريدريشسها وهو المقهى السابق، وأفرغوه وسوف ينقلونه إلى الرب. وهنا تتوقف الحافلات الكهربائية وسيارة النقل العام رقم١٩، شارع تورْم. أمّا حيث كان يورغينز، أي محل الورق فقد اقتلعوا المنزل ووضعوا بدلاً منه سوراً لعملية البناء، وهنا يقعد رجل طاعن في السن إلى ميزان طبيب: راقب وزنك، بخمسة قروش، يا إخواني وأخواتي الأعزاء، الذين يعجُّ بكم ميدان الإسكندر، جودوا على أنفسكم بهذه اللحظة، وانظروا من خلال الثغرة إلى جانب الميزان الطبي، إلى ميدان الحماية هذا، حيث ازدهر ذات مرة محل يورغينز، وهنا مازال ينتصب متجر هان، وقد أفرغوه، وأَخْلَوْه، وفرَّغوه من أحشائه، حتى ما عاد يوجد فيه سوى المِزَق الحمر عالقة بنوافذ العرض. وثمة كومة من القمامة توجد أمامنا، من التراب خرجتَ، وإلى التراب ستعود. لقد بنينا منزلاً رائعاً. الآن ما عاد يدخل إلى هنا إنسان، ولا يخرج.

وهكذا خَرِبَت روما، وبابِل، ونينوى، وهلك هانيبال وقيصر، وفَنِيَ كل شيء، ألا ففكروا في هذا. أوَّلاً: يترتَّب عليَّ أن ألاحظ في هذا الصدد، أنَّ القوم

ينقّبون الآن عن هذه المدن، من جديد، مثلما تكشف عن ذلك التصاوير في طبعة يوم الأحد الأخيرة، وثانياً: لقد أدَّت هذه المدائن غرضها، وما عاد في وسع القوم الآن إلاّ أن يشيّدوا مدناً جديدة، وما من شك في أنك لا تتفجَّع على سراويلك القديمة حين تكون قد أصبحت رميمة وتولاّها الفناء، بل تشتري سراويل جديدة، ومن هذا يعيش العالم.

وكانت الشرطة تسيطر على الميدان بجبروتها، فهي تقف في الميدان ممثَّلة في العديد من رجالها، وكل فرد منهم يلقي نظرات العارف الخبير على جانبيه، ويحفظ قواعد المرور عن ظهر قلب، وله، حول ساقيه، قَلْشين يلتف عليهما، وتتدَلى من جنبه الأيسر هراوة من المطاط. أما ذراعاه فَينوس بهما من الغرب إلى الشرق، وهنا لا يعود في وسعه أن ينوس بهما من الشمال إلى الجنوب، والشرق ينصبُّ نحو الغرب، والغرب ينصبُّ نحو الشرق، وبعد ذلك يُحَوّل الفرد الاتجاه من تلقاء نفسه: فإذا الشمال ينصبَّ في اتجاه الجنوب، والجنوب في اتجاه الشمال وحُلَّة الشرطي مطرَّزة تطريزاً حادّاً عند الخصر، وعلى أثر الحركة القوية التي صدرت عنه يعدو عبر الميدان، في اتجاه شارع الملك نحو ثلاثين فرداً خصوصياً، ويتوقف جزء منهم في جزيرة الحماية، وفريق آخر يصل بسهولة ويُسْر إلى الطرف المقابل، ويتابع تطوافه على الخشب.

وكان قدر كبير مماثل، منهم، قد شرع في التوجه نحو الشرق، وسبحوا لملاقاة الآخرين، وقد جرى لهم ما جرى للآخرين، ولكن لم يحدث لأحد منهم شيء.

إنهم رجال ونساء وأطفال، والأخيرون يمسكون، على الأغلب، بأيدي النساء، ومن العسير إحصاؤهم جميعاً، والتحدث عن مصائرهم. وما كان هذا ليصيب نجاحاً إلاّ مع بعضهم والريح تقذف، على نحو منتظم بالتِبْن فوق الحاضرين جميعاً. أمّا وجه الذاهب في الاتجاه الشرقي، فلا يختلف في شيء عن وجه الذاهب في الاتجاه الغربي، أو الجنوبي، أو الشمالي، ثم إنهم يتبادلون الأدوار فيما بينهم، وإذ بالذين يسيرون الآن في ميدان آشِنْغَر، يستطيع المرء بعد ساعة، أن يجدهم أمام متجر هان الخاوي، وعلى النحو ذاته يختلط أولئك الذين يأتون من شارع

النبع ويريدون الذهاب إلى جسر يانوفيتس ، فقد تبادلوا الأدوار مع أولئك الذين يتجهون اتجاهاً معكوساً. أجل ، بل إن كثيراً منهم لينعطفون جانباً ، من الجنوب إلى الشرق ، ومن الشمال إلى الشرق. على أنهم يبلغ من تماثلهم وتَساويهم أنهم يحاكون أولئك الذين يقعدون في حافلة النقل العام ، أو في الحافلة الكهربائية ، فإنهم يقعدون جميعاً في مواقف مختلفة هنا ، وبذلك يجعلون وزن العربة التي كُتِبَ عليها وزنها مِن الخارج ، أثقلِ. أمّا من يحدث فيهم ، ومَنْ يستطيع أن يعبّر عن هذا ، فإن هذا يشكل فصلاً مهولاً ، ولو فعل أحد ذلك فمَنْ تُراه سيخدم؟ أهي كتب جديدة؟ فإن مجرد الكتب القديمة لا تروج ، وفي عام ٢٧ تراجع رواج الكتاب ، في مقابل العام ٢٦ ، بنسبة كذا وكذا. ولْيتناول المرء الناس ، ببساطة ، بصفتهم شخصيات غير رسمية دفعت عشرين قرشاً ، باستثناء مالكي البطاقات الشهرية ، والتلاميذ الذين لا يدفعون سوى عشرة قروش. وهنا ينطلقون الآن بوزنهم الذي يتراوح بين قنطار وقنطارين ، في ثيابهم ، مع الحقائب والرُّزَم والمفاتيح والخِيام واللُّقَيْمات المصطنعة ، ومُجَلِّدي الكتب ، عبر ميدان الإسكندر ويحفظون القسائم الطويلة الحافلة بالأسرار ، والتي كُتِب عليها: الخط رقم ١٢ ، شارع سيمينس DA ، شارع غوتسكوفسكي ، C.B ، بوّابة أوانيينبورغ C.C ، بوابة كوتسبوز ، إشارات تنطوي على الأسرار ، ومن يستطيع أن يحزر ذلك ، ومن تُراه يستطيع أن يسميه ومن يستطيع أن يعترف به ، ثلاث كلمات أذكرها لك ، مثقَلة بالمضمون ، ورقعة الورق مثقَّبة في مواضع محدَّدة ، أربع مرات ، وعلى رقاع الورق يوجد ، بالألمانية ذاتها التي كتب بها الكتاب المقدس وكتاب القانون المدني: صالحة للوصول إلى هدف السفر من أقصر الطرق ، وليس هناك ضمان لخطِ لمواصلة السفر. إنهم يقرأون الصحف ذوات الاتجاهات المختلفة ، ويحافظون ، عن طريق متاهة الأذن عندهم ، على التوازن ، فيستهلكون مولِّد الحموضة ، فيحلمون أحلام اليقظة ، ويحسون بالآلام ، ولا تكون لديهم آلام ، ويفكرون ، ولا يفكرون ، وهم سعداء ، وتعساء فلا هم بالسعداء ولا هم بغير السعداء.

بُمْ ، بُمْ ، كذلك ، ينقضُّ المِدَكُّ هابطاً على الأرض ، وأضرب صفحاً عن كل

شيء، مازال هناك عارضة معدنية طويلة، وينبعث أَزيزٌ فوق الميدان صادِراً عن مجلس الرئاسة، هنالك يُرَشِمون، وهنالك تَدْلُق آلة للإسمنت شحنتها، وينظر إليها السيد أدولف كراون، خادم المنزل، فإنّ انقلاب العربات يشدُّ انتباهه ويقيِّد، إلى حد هائل. أنت تضرب بكل شيء عَرْض الحائط، وهو يضرب بكل شيء عَرْض الحائط، وهو يتربَّص على الدوام مَشوقاً متوتِّر الأعصاب، ويضرب كل شيء، وما يفتأ يتربَّص متوتِّراً، ليرى كيف ترتفع سيارة الشحن القلاَّبة بالرمل في جانب من جوانبها، هنالك يأتي الارتفاع، بُمْ، والآن تلتفت دائرةً. ولا يطيق المرء أن يُطْرَد من السرير هكذا، فلترفع ساقيك ولْتَخْفِض رأسك. وها أنت ذا ترقد. من الممكن أن يحدث للمرء شيء ما، غير أن هؤلاء يزيحون هذا جانباً، في غير مبالاة.

وعاد فرانتس بيبركوبف يحمل الكيس حول جسده، يبيع الصحف. وكان قد بَدَّل مقرَّه، وهجر بوابة روزنتال، فهو يقف في ميدان الإسكندر، وهو فوق السَدّ الترابيّ على نحوٍ كامل، يبلغ طوله مائة وثمانين سنتيمتراً، ووزنه هابط، غير أنه بات يحمل نفسه بمزيد من السهولة، وقد اعتمر قبعة الصحف.

نُذُر الأزمات في مجلس النواب، والقوم يتحدثون عن انتخابات في آذار، انتخابات نيسان، هي الأرجح، إلى أين يا يوزيف فيرت؟ الكفاح في وسط ألمانيا يتواصل، ويفترض إنشاء غرفة للتحكيم، غارة نهب في شارع تيمْبِل هيرِن، وقد نصب حمّالة صحفه عند مخرج خط المترو، وراء شارع الإسكندر، قبالة سينما أونا، وفي هذا الجانب بنى بائع النظارات فروم محلاً جديداً، وينحدر فرانتس بيبركوبف بنظرته ليرى شارع منتس حين يقف، أوَّل مرة في وسط الزحام، ويفكر: كمم يبلغ طول المسافة التي تفضي من هنا إلى كلا اليهودِّيين، فإنهما لا يقيمان في موقع بعيد على الإطلاق. لقد كان هذا أثناء تعاستي الأولى، ربما أقوم ذات مرة، بزيارة قصيرة لهؤلاء، فمن الممكن أن يشتروا مني نسخة من «الرقيب الشعبي»، ولمَ لا، أمّا أنَّهم يحبونها أملا يحبونها فأمر لا أحفِل به، إذا ما اشتروها فحسب، ويبتسم عند هذه الفكرة ابتسامة ساخرة، وقد كان اليهودي الطاعن في السن إلى حد بعيد، في قبقابه القديم، مضحكاً إلى حد مفرط، بلا ريب، ويلتفت ناظراً حواليه. أصابعه

مازالت رطبة، وإلى جانبه يقف ذو العاهة القصير القامة، وله أنف بالغ التَقَوُّس، وما من شك في أنه محطَّم. نُذُر الأزمات في مجلس النواب، إخلاء المنزل رقم ١٧ في شارعِ هيبِل بسبب خطر الانهيار، فِعلة دموية على ظهر باخرة للصيد، متمرِّد أو مجنون.

ونفث كلٌّ من فرانتس بيبر كوبف وذو العاهة، الحرارة في يد صاحبه، والعملُ قبل الظهيرة مخيِّب للتوقُّعات، وهو يبدو رجلاً متقدماً في السن، مهزولاً متآكِلاً، قد اجتمعت عليه العيوب والعلل، وهو يتقدّم من فرانتس وقد اعتمر قبعة خضراء من اللُّباد، ويسأل فرانتس كيف تسير الأحوال فيما يتصل بالصحف، كما سأل فرانتس كذلك مرة، «أيكون ذلك من أجلك، أيها الزميل ومَنْ تُراه يستطيع أن يعرف» «أنا في الثانية والخمسين» «أجل، المسألة كذلك، على وجه الخصوص، ولذلك، ففي الخمسين يبدأ داء المفاصل بلا ريب، ويوجد لدينا، عند البروسيين نقيب طاعن في السن من جند الاحتياط، لمّا يتجاوز الأربعين، من ساربروكِن، بائع لأوراق اليانصيب– وهذا يعني، فيما يقول، أنه ربما كان فتى السيجار– وقد أصيب بداء المفاصل منذ كان في الأربعين، في الظهر، غير أنه صنع من ذلك موقفاً صلباً متماسكاً، إذ كان يسير مثل ساق مكنسة، على عجلات، وقد كان، على الدوام، يَدَّهِن بالزبدة، وحين ما عاد هنا وجود للزبدة، كما كان ذلك في العام ١٩١٧، وحين ما عاد هناك بعدُ إلاّ البالمين، وهو زيت النباتات الأوَّل، وكان فوق ذلك زَنِخاً، أوعز بإطلاق النار عليه».

«وماذا يجدي هذا، ففي المصنع ما عادوا يقبلون أحداً، وفي العام المنصرم أجْرَوْا لي عملية، في ليشتنبرغ، بمستشفى هوبرتوس، وذهب مارك، ويقال إنه كان السِلّ، أقول لك، أنا مازلت أعاني من الآلام» «كلاّ، فحاذر يا رجل، فبعد ذلك يأتِي الآخر مُقْبلاً أيضاً، وهنا يكون القعود أفضل، وهنا يكون من الأفضل بالنسبة إليك أن تكون حوذيَّ عربة» والكفاح في وسط ألمانيا يتواصل، والمفاوضات لا تفضي إلى نتيجة، محاولة اغتيال قانون حماية المستأجر، لقد أفاق المستأجر، فالقوم ينتزعون منك السقف الذي يُظِلّ رأسك «أجل، أيها الزميل، أما الصحف

فتستطيع أن تبيعها، ولكن لا بُدَّ أن تكون قادراً على الجَرْي، وأن يكون لك صوت، فكيف حال حنجرتك، حنجرتك الحمراء التي تحاكي طائر أبي الحنّاء الصغير ذي الصدر الأحمر الضارب إلى الصفرة. هل تستطيع أن تغني؟ كلاّ، ألا ترى، هذه هي المسألة الرئيسية عندنا، ففي حالتنا لا بُدَّ للواحد منّا أن يكون قادراً على الغناء، قادراً على الجري، ونحن نحتاج إلى أن نكون أناساً صالحين لأن نَجْأَر ونَزْأَر، والمتحدثون بصوت عالٍ يمارسون أفضل الأعمال. أقول لك إن هذا مجتمع قد خُطِّطَ له تخطيطاً. ألا فانظر ذات مرة، كم يشكّل هذا من القروش؟» أما بالنسبة إليّ فأربعة» «صحيح بالنسبة إليك أربعة، وعلى هذا يكون المُعَوِّل، بالنسبة إليك، ولكن حين يكون الواحد في عجلة من أمره، ثم ينقِّب في جيبه، وفي حوزته مَلّيم، ثم يكون لديه مارك، أو عشرة ماركات، فاسأل الإخوة، منّا، وهم يستطيعون تبديلها جميعاً، أمّا ما اختطفه هؤلاء فأولئك هم رجال المصارف الحقيقيون، الذي يعرفون كيفية الصرف والتبديل، فيخصمون نِسَبهم المئوية وأنت لا تلاحظ شيئاً، فالمسألة تمضي بسرعة بالغة».

ويتنهَّد الشيخ. «أجل، سنواتك الخمسون، ثم التهاب المفاصل بعد ذلك. أَيْ زميلي، حين يكون لديك استعداد داخلي لأن تعقد العزم، عند ذلك لا تجري وحدك، بل تتخذ لنفسك، غلامَيْن، وستضطر، بالطبع، إلى أن تدفع لهما الأجور، وربما حصلا على النصف، ولكن لا بُدّ لك من تأمين المحلّ، وأن تصون ساقيك وصوتك، ولا بد أن يكون لك اتصال، ومكان ملائم. وحين تمطر السماء، يسود البَلَل، على أنّ ما يقتضيه المحل الجيّد هو المباريات الرياضية، وتبُدل الحكومات، فعند موت إيبرتس، يقولون إنهم انتزعوا الصحف منهم، فيا أيها الآدمي، لا تصطنع مثل هذا الوجه فحسب، فإن كل شيء لا يكون سيئاً إلاّ بمقدار نصف هذا. ألا فأنظر، في الجهة المقابلة، إلى المِدَكّ، وتصوَّر أن هذا يسقط على رأسك، فأي شيء تحتاج عندئذ إلى النظر فيه من وجهة الأمور الكبيرة؟» محاولة اغتيال قانون حماية المستأجر، التعويض الخاص بقضية تسور غيبِل، وأنا أهجر حزب خيانة المبادئ. الرقابة الإنجليزية على أمان الله، ولا يجوز للهند أن تطَّلع على شيء.

وفي الجهة المقابلة عند المنزل الصغير العائد لراديو، ويب– وإلى إشعار آخر نشحن مكثّفاً مجاناً– ويبدو أنها مستغرقة في التفكير المركّز، وسائق سيارة الجوّاكيْن إلى جانبها، يفكِّر، أتُرى هذه تفكر الآن في مسألة هل تريد أن تسافر، أم بات لديها ما يكفيها، أم هل تنتظر أحداً، غير أنها لا تزيد على أن تحني جسمها قليلاً، في معطفها المخملي، وكأنه قد انخلع بعض مفاصله، ثم تقعد من جديد لتقوم بالتشغيل. وكل ما فيها أنها ليست على ما يرام، وكانت تحس عندئذ في كل مرة بمثل هذه القرصة في جسدها. وهي تؤدي امتحانها، امتحان المعلمات. واليومَ تريد البقاء في البيت، وأن تستعين كمّادات ساخنة، وعند المساء ستكون الحالة أفضل على كل حال.

على مدى هنيهة من الزمان، لا شيء، فترة استراحة
الناس يتغلَّبون على المصاعب الاقتصادية

وفي مساء التاسع من شباط ١٩٢٨، الذي أطيح فيه، في أوسلو، بحكومة العمال، وهو الليلة الأخيرة في سباق عَدْوِ الأيام الستة، التي ركض الناس فيها– أما المنتصرون فظلّوا، فان كيمبن– فرانكنشتاينش، بسبعمائة وست وعشرين نقطة، على مسافة ٢٤٤٠ كيلو متراً– وبدا الوضع في منطقة شتوتغارت وقد ازداد حِدّة، في مساء التاسع من شباط عام ١٩٢٨، الذي صادف يوم ثلاثاء «وأرجو أن تمهلني أيها القارئ لحظة، فأنت ترى الآن محيّا المرأة الغريبة الحافل بالأسرار، إذ إن سؤال هذه الجميلة موجَّه إلى كل امرئ، وحتى إليكَ أنت، هل أصبحت تدخن غارباتي كاليف؟». في هذا المساء وقف فرانس. بيبركوبف في ميدان الإسكندر عند عمود ليتفاس، وكان يدرس دعوة البستاني الضئيل من تريبتوف– نويكولن وبريتس، إلى الاجتماع من أجل الاحتجاج، في صالات إرمِر للاحتفالات، وكان جدول الأعمال، البيانات الكيفية، التعسفية، وكان تحته هذا الملصق: عذاب الربو وإعارة الأقنعة، والاختيار الغنيّ للسيدات والسادة. وهنا انتصب فجأة المشنّع العيّاب، القصير، العيّاب الذي نعرفه بلا ريب، وأنت ترى بلا شك، ها هو ذا آتٍ، يخطو خطوات طويلة.

«كلا يافرانسيسكا، يافرانسيسكا»، فقد كان ذلك المشنّع العيّاب سعيداً، كان سعيداً هذا، «فرانتس، أيها الإنسان، ما كنت لأحسَب أن هذا ممكن، وإذا رأى المرء

ذلك فيك من جديد فأنت كأنما خرجت من هذا العالم، لقد كنت خليقاً أن أقسم— كلاّ، ماذا إذاً؟ فمن الممكن أن يخطر ببالي أنني صنعت من جديد شيئاً ما، كلاّ، كلاّ، أيها الفتى»، ويتصافحان، وهزَّ كلٌ منهما لصاحبه ذراعيه حتى الكتفين، وهزَّ كلٌ منهما لصاحبه كتفيه حتى الأضلاع، وربَّت كلٌ منهما لصاحبه على إبطيه، وارتجَّ الإنسان بأكمله، ودخل في طور الحركة. «المسألة، يا رجل، ياغوتليب، بحيث لا يرى المرء صاحبه، فأنا أبيع هنا، رائحاً وغادياً» «هنا، في ميدان الإسكندر، يا فرانتس، ما تقوله، هنا كنت خليقاً أن أضطرّ إلى أن أصيبك ذات مرة، بلا ريب، فالمرء يمرُّ بصاحبه مرور العابر، وماله من عينين» «المسألة هكذا، ياغوتليب» وسارا، وقد تأبَّط كلٌ منهما ذراع صاحبه، نازلَيْن، على طول شارع برينتسلاوْ. «لقد أردت ذات مرة، أن تبيع رؤوساً من الجص، يا فرانتس» «إنما ينقصني، من أجل الجص، الفهم، فالرؤوس الجصية تقتضي توافُر الثقافة التي لا أملكها، لقد عدت من جديد، أبيع الصحف، فهذا عمل يؤمِّن القوت لصاحبه، وأنت، ياغوتليب؟» «أنا أقف في الجهة المقابلة، عند شارع شونهاوْر، بالحلة الرسمية، من سترة واقية من الرياح وسروال» «ومن أين تأتي ببضاعتك؟» «مازلت، بلا ريب، فرانتس القديم، دائماً، السؤال أبداً عن المصدر الذي يؤتى بالشيء منه، وهذا ما لا تسأل عنه إلاّ الفتيات إذا ما أَرَدْنَ الحصول على الأغذية». وكان فرانتس يسير الهُوَيْنى إلى جانب مِلْك من دون أن ينبس ببنت شفة، وكانت ترتسم على وجهه ملامح التجهُّم: «أنت تمارس نَصْبَك واحتيالك، إلى أن تقع في الحفرة التي حفرتها للآخرين» «وما الذي يعنيه الوقوع في الحفرة، هنا، وما الذي يعنيه النصب، يا فرانتس، لا بُدَّ للمرء أن يكون رجل أعمال وتجارات، وأن تكون له دراية بالتسوُّق».

ولم يكن فرانتس يريد أن يتابع المشاركة في الحديث، لم يكن يريد ذلك، فقد كان جامداً، غير أن مِلْك كان ولا يتوانى، وكان يترجرج، ولا يتوانى: «تعال معي إلى المقصف، يا فرانتس، فربما استطعت أن ترى تجار الماشية، فما من شك في أنك مازلت تعرف أولئك الذين يمتّون بصلة إلى القضية، والذين قعدوا معنا إلى المائدة في الاجتماع، حيث حوَّلتَ الأضواء إليك، فأمّا هؤلاء فقد عرفوا كيف يتدبرون

المسألة على نحو بارع، في قضيّتهم، فأفلتوا من القبضة، والآن وصلت المسألة إلى أداء القَسَم، وبات ذلك يعني الآن الإتيان بالشهود لأداء القسم، أيها الإنسان، هؤلاء سيسقطون عن صهوات خيلهم، ولكن يسقطون على رؤوسهم أوَّلاً» «كلاّ، ياغوتليب، فأنا أفضل أن لا آتيَ معك».

ولكن مِلْك لم يتراجع، فقد كان هذا صديقه الطيب القديم، وكان، فوق ذلك، أفضلَ الأصدقاء قاطبة، وذلك، بالطبع، باستثناء ذلك المدعو هربرت فيشوف، ولكن هذا كان لئيماً، ولم يكن يعترف بهذا، كلاّ، لن يعرفه بعد ذلك أبداً. وسارا، وقد تأبَّط كل مهما ذراعِ صاحبه، ينزلان على طول شارع برينتسلاو، مصنع الخمور، ورشات النسيج، والحلويات، والحرير، الحرير، أنا أوصي بالحرير، شيء حديث إلى حد يبعث على الجنون، من أجل المرأة ذات القوام الحسن!

وحين دقت الساعة الثامنة، كان فرانتس يقعد مع مِلْك، ورجل آخر بعدُ، رجل كان يلتزم الصمت، ولا يزيد على إعطاء إشارات، إلى المائدة في الناصية، في مقصف. وكانت الأمور قد وصلت إلى مداها الأقصى، وانتابت الدهشة مِلْك والرجل الأخرس في صدد الكيفيّة التي كان فرانتس يتخلّص بها كل التخلص من الخجل والحيرة والارتباك، والسعادة والاغتباط اللذين كان يأكل بهما ويشرب، إنهما قطعتان من لحم الخنزير البارد، ثم الحشوة ومعها قدح من مشروب إنْغِلهارْدْت بعد الآخر ونصبوا الأذرع، ثلاثةً معاً، منضماً كل منها إلى الآخر، بحيث لا يدنو أحد منهم من المنضدة الصغيرة، ويكدِّر صفوهم، ولم يكن يجوز إلاّ لزوجة المضيف الناحلة أن تدنو، وترفع الأشياء، وتعيد ترتيبها، وتملأها من جديد. وإلى المائدة المجاورة كان يقعد ثلاثة من الشيوخ، كان كل منهم يمسح في بعض الأحيان، لصاحبه، صلعته، وكانت وجنتا فرانتس ممتلئتين، وكان يبتسم، وكانت فتحتا عينيه تنتقلان إلى فتحان عيونهما.

«ماذا يصنع هؤلاء يا تُرى». ، ودفعت المضيفة إليه بالخردل، بالوعاء الثاني: «كلا، سوف يتحابُّ هؤلاء» «أجل، هذا ما أعتقده»، وكانوا يشنعون ويتذمّرون،

ويتمطّقون ، ويحتسون المشروبات ، ثلاثتهم ، وكان فرانتس لا يفتأ يعلن قائلاً: «لا بد للمرء أن يستكمل ما انتابه من نقص . فالإنسان الذي يتمتع بالقوة لابُدَّ أن يأكل ، وحين لا يكون بطنك ملآن ، فأنت لا تستطيع أن تصنع شيئاً» .

وأقبلت الماشية تدرج خارجة من الأقاليم ، من بروسيا الشرقية وبوميرانيا ، وبروسيا الغربية ، وبراندينبورغ . أما أرصفة شحن الماشية فهي التي تثغو وتُمَأمئ عليها ، وأما الخنازير فتنعَر ، وتتشمَّم الأرض ، وأنت تسير في غمار الضباب ، وهذا شاب يتناول الفأس ، هيّا ، هيّا ، لقد كانت هذه لحظة ، وهو ما عاد يعرف شيئاً .

وفي الساعة التاسعة حقّقوا حرية التصرُّف ، ودسّوا السجاير في الأفواه السمينة وشرعوا في إصدار رائحة اللقمة الدافئة من أفواههم بأشكال من التجشُّؤ .

هنالك تمَّ التمهيد لشيء ما .

دخل في البداية فتى غضّ الإهاب إلى المقصف ، فعلّق قبعته ومعطفه على الجدار ، وضرب بيده على البيانو .

وامتلأ المحل ، وكان يقف في مكان صب المشروبات بعض الناس ، يتناقشون ، وإلى جانب فرانتس قعد أناس إلى المائدة المجاورة ، شيوخ في قبعات ، وفتى ذو قبعة مقوّاة ، وكان مِكْ يعرف هؤلاء ، وكان الحوار يروح ويجيء . الأحدث سنّاً بعينيه السوداوَيْن البرّاقتين ، فتى متمرّس محنَّك ، من هوبيغارتِن ، كان يحدِّث قائلاً:

«ما الذي رآه هؤلاء أوَّل الأمر ، حين أقبلوا إلى أوستراليا؟ ففي البداية يكون الرمل ، والرابية والمَرْج وما من أشجار ، ولا عشب ، ولا شيء ، وإنما هي صحراء رملية صِرفة ، ثم هناك الملايين وألوف الملايين من الخراف الصفر . لقد كانت هذه توجد هنا في صورة بريّة ، ولقد كانت موجودة حيث عاش الإنجليز أوَّلاً ، وقد كان هؤلاء يصدِّرونها ، إلى أمريكا . وهنا يحتاجون ، على وجه الخصوص ، إلى خراف من أوستراليا» «من أمريكا الجنوبية ، فلنعتمد على هذا» «وهنا يتوافر لديهم قدر كبير من الثيران ، على أن هؤلاء أنفسهم لا يعرفون إلى أين يذهبون بالثيران الكثيرة» «ولكن الخراف ، والصوف . حيث يوجد في البلاد هذا القدر الكبير من السود

الذين يرتعدون من البرد ، كلاّ ، الآن لن يعرف الإنجليز إلى أين يذهبون بخرفانهم ، الإنجليز ، أنت تحتاج إلى أن تُعنى بأمرهم ، ولكن ما الذي صار إليه أمر الخرفان بعد ذلك؟ الآن تستطيع أن تنطلق إلى أوستراليا ، كما حدثني أحدهم ، وعلى قدر ما يمتد نطاق نظرك ، لا ترى خروفاً ، وكل شيء ذهب من دون أن يخلّف أثراً ، وأين الخرفان؟» «حيوانات مفترسة» ، وأومأ مِكْ بيده في إشارة إلى الرفض: «أية حيوانات مفترسة! إنها أوبئة تنتاب الماشية . وهذا يعدُّ ، على الدوام البلاء الأعظم الذي يُلِمُّ بالبلاد ، إنها تنقرض ، وبعد ذلك تقف أنت هنا» ، على أن الفتى الحديث السن ذا القبعة المقوّاة لم يكن يرى أن أوبئة الماشية كانت هي الحاسمة «ستكون أوبئة الماشية قد وجدت كذلك ، فحيثما تكثر الماشية يموت منها بعضها ثم يصيبها العطن . ثم توجد أمراض ، غير أن هذا لا يأتي من ذلك ، كلاّ ، لقد جرى هؤلاء داخلين البحر ، بأسرهم ، في عَدْوِ الخبب ، عندما أقبل الإنجليز وقد كان خوفاً سائداً بين الخراف ، في الريف ، عندما أقبل الإنجليز ، وهم يشرعون دائماً ، ويظلون على الدوام ، يدخلون العربات المقطورة ، وهنا جرى الكادحون بالألوف ، إلى البحر ، دائماً» . وقال مِكْ «كلاّ ، وهنا ، لا ريب في أن هذا حسن ، فدَعْهم يَجْرون ، بربك ، فههنا تقف السفن بالطبع ، وهنا يوفّر الإنجليز مصاريف الطريق» «أجل ، بلا ريب ، ومصاريف الطريق ، ألَدَيْك رافعة ، لقد استغرق هذا وقتاً طويلاً ، إلى أن كان الإنجليز قد لاحظوا هذا على وجه الإطلاق ، أولئك الذين هم بالطبع ، وبلا ريب في ا لجزء الداخليّ من البلاد ، أسارى ، يُدْفَع بها دفعاً ، إلى العربات المقطورة ، وإلى بلادهم العملاقة ، ولا تفعل ذلك منظمة ، مثلما كان ذلك في البداية ، وبعد ذلك فات الأوان ، فات الأوان ، الخراف ، لدى البحر بالطبع وقد شربوا وَسَخ الملح» «ثم ماذا؟» «وأي نوع ، وماذا . فلتعطش ذات مرة وليس عندك شيء تقتات به ، ولتشرب ، على النحو ذاته ، وَسَخ الملح» «وشرِبَتْ ونَفَقَتْ» «كلاّ ، بلا ريب ، لا بُدّ أن هذه كانت عند البحر ، بالآلاف ، والألوف المؤلفة ، وقد شربت ، وعليها السلام» . وقال فرانتس يؤيّده: «الماشية حسّاسة ، والماشية شأنهُ . وهنالك يترتّب على المرء أن يكون قادراً على التعامل معها ، ومَنْ لم تكن له دراية بهذا ، فلينفض يده منها» .

وشربوا جميعاً، وقد شعروا بالمصيبة، وجعلوا يتبادلون الملاحظات حول رأس المال المبعثَر هنا وهناك، وكل ما يفترض أن يرد بعد، وأن أولئك الذين هم في أمريكا يدعون حتى القمح يتعطن ويفسد، محصولاً بأكمله، وكل شيء وارد «كلاّ»، كذلك قالها ذلك القادم من هوبيغارتن، ذو العينين السوداوين، «هنا يوجد بعد أكثر من ذلك كثيراً، من أوستراليا، ولا يدري الناس بذلك على الإطلاق، وفي الصحف لا يوجد شيء، وهؤلاء لا يكتبون شيئاً، ومن يدري لماذا، بسبب الهجرة، وإلاّ لما جاءهم أحد. وهنا يفترض أن يوجد نوع من السحالي ينتمي إلى سحالي ما قبل الطوفان على نحو مباشر، على طول أمتار، لا يعرضونه وحتى في حديقة الحيوان لا يسمح به الإنجليز. ولقد اقتنصوا قطعة من سفينة، طافوا بها يعرضونها في هامبورغ، ولكن ما لبث أن حُظِر كل شيء. وما من شيء يمكن عمله، وهذه تقطن البِرَك، هكذا في ماء ملوَّث بكثافة، وما من أحد يعلم علامَ تعيش. وذات مرة غرق طابور كامل من السيارات، فلم ينقبوا عنه مجرد تنقيب، ولم يحققوا في مسألة إلى أين انتهى هؤلاء. وما من شيء يمكن عمله، فما من أحد يجرؤ على ذلك، أجل» «دولّ»، كذلك قال مِكْ، «وبالغاز» وقال الغلام يفكر في نفسه ويقدِّر: «لقد كان يجدر بالإنسان أن يجّرب ذات مرة، فالتجربة لا ضير فيها»، كذلك قال يحاول الإقناع.

وقعد واحد من الشيوخ وراء مِكْ وقد جعل مِرفقه على كرسيّ مِكْ، وكان فتى قصيراً، مربوع القامة، ذا وجه مكتنز، أحمر كالسرطان وعينين كبيرتين جاحظتين كانتا تسرعان التحرُّك جيئة وذهاباً، وأفسح الرجال له المكان، وسرعان ما نشأ بنيه وبين مِكْ تهامُس، وكان للرجل حذاء طويل الساق لماع، وكان يحمل معطفاً من الكتان على ذراعه، وكان يبدو أنه تاجر مَواشٍ، وكان فرانتس يتحدث إلى الغلام القادم، «هو بيغارتن» الذي راق له، عبر المناضد. هنالك رَبَّت مِكْ على كتفه، وأشار برأسه، ونهضا واقفَيْن، ومعهما تاجر الماشية القصير الذي كان يضحك مرتاحاً، واصطفّوا الآن، ثلاثتهم، لدى المدفأة الحديدية، وقال فرانتس في نفسه إن المسألة تتعلق بتاجرَيْ الماشية كليهما، مع قضيتَّهما، هنالك أراد أن يومئ إيماءة المُعْرِض

على الفور، ولكن كان هذا وقوفاً هنا وهناك من دون أي طائل على الإطلاق، وهمّ القصير أن يهزَّ يده فحسب، ويسأله عمّا يمارس من أعمال وتجارات، وضرب فرانتس بيده على حقيبة صحفه، كلا، ربما، حول مسألة هل يزمع أن يأخذ، بهذه المناسبة، فاكهة، أمّا هو فيدعى بومْز، ويبيع الفاكهة ومن الممكن أن يحتاج في بعض المناسبات، إلى بائع على العربة، وهو ما ردَّ عليه فرانتس بهزّة من كتفه «تعال إلى حيث الكسب» وعلى أثر ذلك قعدا. وفكر فرانتس في مدى القوة التي يتحدث بها القصير، إذ يستعمل الكلمات بحذر، ويرتجف بعد الاستعمال.

وكان الحوار قد تتابع، والآن كان، مرة أخرى، «هوبيغارتن»، في المقدمة، وكانا في بصدد الحديث عن أمريكا. وكان المدعو هوبيغارتن يمسك بالقبعة بين ركبتيه: «إذاً فهل يتزوَّج هذا امرأة في أمريكا ولا يتصوَّر في هذه الأثناء، أهِيَ زنجيّة، ويقول: «ماذا، أأنتِ زنجيّة؟» بُمْ، وتخرج كأنها تطير. هل اضطرت المرأة إلى أن تتجرَّد من ثيابها أمام المحكمة، وبسروال للاستحمام، وهو يأبى أوَّل الأمر، بالطبع، ولا ينبغي له، بالطبع، أن يصطنع كلاماً فارغاً. أكانت البشرة بيضاء تماماً. لأنها كانت مولّدة، ويقول الرجل: ما من شك في أنها زنجيّة. ولماذا؟ لأن أظفار الأصابع محتقنة باللون البُنيّ بدلاً من الأبيض. لقد كانت هذه مُوَلَّدة». «دَعْ عنك هذا، وماذا كانت هذه تريد. الطلاق؟» «تعويضاً عن الأضرار». فلقد تزوَّجها بلا ريب، وربما خسرت مكانتها. فإن المرأة المطلَّقة لا يريدها أحد، بلا ريب، ولقد كانت امرأة ناصعة البياض، جميلةً جمال الصور الأنموذجيّة، يرجع أصلها إلى الزنوج، وربما كانت من القرن السابع عشر، تعويضاً عن الأضرار».

وكان ثمة مشاحنة كبيرة وجَلَبة عند مكان بيع الخمور، وكانت المضيفة تزعق في وجه سائق مستثار منفعل، فقال هذا يعارضها: «لن أسمح لنفسي بممارسة ألوان الغباء بالمأكولات»:

وصاح بائع الفاكهة: هلاّ هَدَأْتُم، أنتم هنا!» وعلى أثر ذلك التفت السائق إلى الوراء التفاتة تنمُّ عن العداء، ونظر إلى البدين، غير أن هذا ابتسم له ابتسامة قاتلة، ثم ساد السكون المنطوي على الخبث وسوء النيّة.

وهمس مِكْ لفرانتس قائلاً: «اليومَ لا يأتي تجار الماشية، فقد بات كل شيء لديهم يُظله سقف. وما من شك في أن لديهم الأجل التالي، ألا فأنظر، ذات مرة، إلى الأصفر، فإنه الفاعل الرئيسيُّ هنا.

هذا الأصفر، الذي أشار إليه مِكْ، كان فرانتسِ يرقبه طوال الأمسية الطويلة، وكان فرانتس يشعر بانجذابه الشديد إليه. كان امرأً ناحِلاً، وكان يرتدي معطفاً مغلقاً– أيكون هذا شيوعياً؟–، وكان له وجه طويل، عالٍ، يضرب إلى الصفرة، وكان ما يلفت النظر فيه التجاعيد العميقة العرضية في الجبين، وكان مما لا ريب فيه أن الرجل لم يكن إلاّ في مستهلّ الثلاثين» ولكن كانت تمتد من الأنف إلى الفم، على الجانبين أمثال هذه الأخاديد المنفرجة الواسعة. أما الأنف، وكان فرانتس يتأمله بدقة وعلى نحوٍ متواتر، فكان الأنف قصيراً، غير مدبَّب، منتصباً على نحو موافق للغرض المنشود منه. أما الرأس فكان يدعه يتدلّى تدليّاً شديداً قبالة يده اليسرى، التي كانت تمسك بالغليون الذي يتوقَّد، وكان له شعر أسود منتصب بكل طوله، وحين انتقل بعد ذلك إلى منصة صبّ الخمور، وكان يجر ساقيه وراءه، وكان هذا يبدو وكأن القدمين كانتا تزلاّن على الدوام مستكينَتَيْن في مكانٍ ما، هنالك رأى فرانتس أنه كان ينتعِل حذاء طويل الساقين، أصفر، بائساً، ولكن الجورب السميك، الأشهب، يتدلّى، مُرْسَلاً، مهمَلاً، كأنه لا يعني صاحبه أَوَ كأن الفتى مصاب بالتدرُّن الرئوي؟ ولا بُدَّ من إيداعه في مَصَحّ، في بيليتس أو في مكان آخر، يدعونه يروح ويغدو هنا وهناك. فما الذي يفعله هذا يا تُرى؟ لقد أقبل الرجل يتهادى في مشيته، والغليون في فمه، وفي إحدى يديه فنجان من القهوة، وفي اليد الأخرى شراب الليمون مع ملعقة من القصدير، وقعد، ومعه هذه الأشياء، من جديد، إلى المائدة، فاحتسى جرعة من القهوة، واحتسى، مرة أخرى، جرعة من شراب الليمون، وكان فرانتس يرصده بعينيه رصداً محكماً، يا لهاتَيْن العينين المحزونتين اللتين يتميز بهما الفتى، وسيكون هذا قد سبق قعوده من قبل، تعالوا إليّ، وانتبهوا، إنَّ هذا يحسَب الآن أنني قعدت، صحيح، ياصغيري، في البوتقة، أربع سنوات، الآن تعرف ذلك، ما علينا، وكيف الحال الآن؟

ولم يكن في المساء شيء. ولكن فرانتس بات يذهب الآن بتواتر أكبر إلى شارع برينتسلاوْ ويرتمي على هذا الرجل في معطف الجنديّ القديم، مُقْبلاً عليه، لقد كان هذا غلاماً لطيفاً، إلاّ أنه كان شديد التلعثم، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً إلى أن بات لديه شيء في الخارج، ومن أجل ذلك ارتسمت على عينيه علائم كبيرة تعبِّر عن التوسُّل والتضرُّع، وتبيَّن أنه لم يسبق له قعود، ولم يكن سياسياً سوى مرة واحدة، وكان قد نسف مصنعاً للغاز في الهواء تقريباً، وكانوا قد تواروا عن الأنظار، غير أنهم لم يظفروا به. «وماذا تصنع الآن؟» «أبيع الفواكه ونحو كذلك، وحين لا تستقيم الأمور أطلب معاش العاطلين عن العمل» وكان فرانتس بيبر كوبف قد دخل في صحبة أناس غامضين مثيرين للشكوك. لقد كان معظم الناس هنا يبيعون الفاكهة، مما كان يلفت النظر إلى غرابة المكان، ويعقدون في هذه الأثناء صفقات طيبة، وكان الضئيل ذا الوجه الأحمر، حُمْرةً سرطانية، يُعنى بشؤونهم، إذ كان تاجر الجملة التابع لهم. أما فرانتس فكان يحافظ على مسافة فاصلة بينه وبينهم، ولكنهم كانوا، هم كذلك، يحافظون على مسافة فاصلة بينهم وبينه، ولم يفهم حقيقة المسألة، وكان يقول في نفسه ألا إن بيع الصحف لخيرٌ وأحبُّ إليّ.

بيع البنات، تجارة رابحة

وذات مساء يدخل هذا في المعطف العسكري، وكان اسمه راينهولد، في مزيد من الحديث أو التلعثم، وانطلق في ذلك بمزيد من السرعة والسلاسة، وجعل ينهال بالشتائم على النساء، وكاد فرانتس يغمى عليه من كثرة الضحك، وكان الفتى يحمل النساء على محمل الجد حقاً، وما كان ليظن بهذا ذلك الظن ولا كان يتوقَّعه منه، هناك كان عليه مطعن، بل كان على كل الأطراف مطعن، الأول هنا والآخر هناك، وما من أحد كان في الموقف الصحيح تماماً، وكان الفتى واقعاً في غرام زوجة حوذيّ، هو رفيق سفر عائد إلى معمل للبيرة، وكانت قد ولت هاربة من الرجل بسببه، وكان هناك الصليب، والآن ما عادت تريد راينهولد أبداً، وجعل فرانتس يتحدث بصوت كمن يحشرج من فَرط السرور، من خلال أنفه، وكان الفتى مضحكاً إلى حد لا يحتمل: «فدَعْ هذه تهرب» وتلعثم هذا، واتخذت عيناه شكلاً رهيباً: «ما من شك في أن هذا بالغ الصعوبة، فالنساء لا يفهمن، وفي وسع المرء أن يعطيهن ذلك خطياً» «ما علينا، وهل دوَّنْتَ هذا لها يا ترى، يا راينهولد؟» وتلعثم هذا، وجعل يبصق، والتفت قائلاً: «لقد قلته مائة مرة، وهي تقول إنها لا تفهم ذلك، ولا بد أن أكون مجنوناً، فإنها ليس من شأنها أن تفهم شيئاً كهذا، ولا بد أن أكون، وعندئذ يترتَّب عليَّ، بناءً على هذا، أن أحتفظ بها إلى أن أموت» «ما علينا، ربما» «وهي تؤكّد ذلك» وضحك فرانتس ضحكة هائلة، وقال راينهولد وقد تولاّه الغيظ: «يا ابن آدم، لا تكونَنَّ، بربك، ساذجاً إلى هذا الحد» كلاّ، فإن فرانتس لم يكن يحفِل بهذا، ولا كان يعنيه، فهو فتى بالغ الجرأة، سليط اللسان، مع

إدخاله الديناميت في مصنع الغاز. والآن يقعد وينفخ في البوق نشيد مسيرة الحداد، وقال راينهولد وهو يتلعثم: «هلاّ أخذتها مني»، وضرب فرانتس المائدة بيده هازلاً: «وماذا أصنع بهذه» «لا عليك، ففي وسعك أن تدعها تهرب» عند ذلك افتُتِن فرانتس: «سوف أسدي إليك هذا المعروف، وفي وسعك أن تعتمد عليّ، يا راينهولد، ولكن هلاّ نظرتَ إليها ذات مرة– ولسوف يجعلونك بعد في قِماط الرضيع، ثم قُل ما أنتَ قائل» وكان كل منهما راضياً مغتبطاً.

ثم رقصت فرينتسه عند ظهر اليوم التالي في بيت فرانتسٍ، وكان هذا هو اسمها كما سمع، وسُرَّ بذلك على الفور، هالك انسجم كلٌّ منهما مع صاحبه انسجاماً جميلاً، وذلك أن اسمه فرانتس، وكان يفترض أن تأتي بيبركوبف بزوج من الأحذية يتسم بالخشونة، من راينهولد. وهذا يعدل مكافأة يهوذا الإسخريوطي «التي منحه إياه كبار الكهنة، مقابل خيانته»، وقال فرانتس وهو يضحك في سره، عشرة شلنات. ثم إنها تأتيني بهذا بنفسها بعدُ! كما قال في نفسه، وذهب معها في المساء لزيارة راينهولد الذي ما كان ليُعْثَر عليه بموجب التعليمات، وعلى أثر ذلك يكون انفجار غضب عند فرينتسه، وأغنية للتهدئة وبعث الطمأنينة، على مدى مفرط في البعد في حجرته. ومنذ الصباح التالي ظهرت زوجة الحوذي عند راينهولد، الذي لم يحدث له حتى مجرد التلعثم: كلاّ، لا ينبغي له أن يبذل جهداً، فإنها لا تحتاج إليه، إذ إن لديها رجلاً آخر، ولكنها كانت مازالت بعيدة عن أن تقول له مَنْ يكون هذا، ولم تكد تخرج حتى ظهر فرانتس عند راينهولد بحذائه الجديد ذي الساقين الطويلتين اللتين ما عادتا مفرطتين في الضخامة، لأنه يرتدي زوجَيْن من الجوارب الصوفية، وكل منهما يرقد بين ذراعَيْ صاحبه ويربّت على ظهره «سوف أسدي إليك بعدُ معروفاً، بلا ريب، ورفض فرانتس كل مظاهر إبداء التقدير والاحترام.

وكانت زوجة الحوذي هذه قد وقعت، وهي في طور الحُمَيّا والعنفوان، في غرام فرانتس، وكان لها قلب مَرِن، لم تكن لها معرفة به حتى هذا التاريخ، وسرَّه أنها كانت تشعر أنها داخلة في حوزة هذه القوة الجديدة، لأنه كان صديقاً للبشر عارفاً بالقلوب، وكان يلاحظ، وهو مسرور، كيف كانت تُرَسِّخ أقدامها عنده، وكان

يعرف هذه الخطط على وجه الخصوص ، إذ تناول المسألة عند النساء في البداية ، على الدوام ، بالسروال الداخليّ والجوارب الممزَّقة . أمّا أنها كانت ، مع ذلك ، تمسح له الحذاء ذا الساقَيْن الطويلتين حتى في الصباح ، وعلى وجه الخصوص فَرْدَتَيْ الحذاء العائدتين إلى راينهولد ، فذلك ما كان يسفر في كل صباح عن ضحك يضاهي حفلة موسيقية ، وقال حين سألته لماذا يضحك: «لأنها ضخمة للغاية ، فهي أكبر من أن تكون لواحد. إذاً نستطيع أن ننسجم معاً في داخلها» وحاولا ذات مرة ، أن يولجا قدمَيْهما في حذاء واحد ، ولكن هذا كان مبالغة ، فلم تستقِم المسألة .

والآن بات لدى المتلعثم راينهولد ، صديق فرانتس الفعليّ ، صديقة من جديد ، كان اسمها سيللي ، أو كانت تدّعي ، على أية حال أنها كانت تدعى بهذا الاسم ، وكان هذا بالنسبة إلى فرانتس بيبركوبف ، غير ذي أهمية على الإطلاق ، وكان يرى ، في بعض الأحيان ، سيللي في شارع برنتسلاوْ ، إلاّ أن شبهة غامضة ثارت في نفسه ، حين استفسر المتلعثم ، بعد نحو أربعة أسابيع عن فرينتْسه وهل سبق أن صرفها فرانتس وتخلَّص منها . وقال فرانتس إنما هي مخلوقة مضحكة ، ولم يفهم أول الأمر ، ثم زعم راينهولد إن فرانتس قد وعد حقاً بأن يطردها عما قريب ، غير أن هذا ما كان فرانتس ينفيه ، قائلاً إن هذا سابق لأوانه كثيراً ، وكان لا يريد أن يُدَبِّر لنفسه عروساً جديدة إلاّ في الربيع . أما أشياء الصيف وقضاياه فقد سبق أن رآها ، ولم تكن لديه فرينتسه ، وما كان ليستطيع أن يشتري لها شيئاً من الأشياء . ثم إنها ستذهب في الصيف ، وقال راينهولد بأسلوب السماسرة ، إن فرينتسه تبدو في الحقيقة ، مستهلكة إلى حد بعيد ، وأن الملابس التي ترتديها ليست على الإطلاق بملابس الشتاء الصحيحة بل هي أقرب إلى الملابس الانتقالية . أما الآن فليست في الحقيقة ، بالملابس الملائمة لدرجة الحرارة الراهنة ، وعلى أثر ذلك كان هناك محادثة طويلة ، حول درجة الحرارة وميزان الضغط الجوي واحتمالات الطقس ، وكانوا يبحثون عن ذلك في الصحف ، وظل فرانتس يثابر على القول بأن المرء لا يستطيع أبداً أن يعرف حق المعرفة كيف ستكون الأجواء ، غير أن راينهولد كان يتنبّأ بصقيع حادّ كل الحِدَّة ، هنالك فحسب لاحظ فرانتس أن راينهولد كان يزمع التخلّص من سيللي التي كانت ترتدي فراء

أرنب زائف، وذلك أنه كان ما يزال يتحدث، أبداً، عن فراء الأرنب الزائف، وقال فرانتس في نفسه: ماذا ينبغي لي أن أصنع بشواء الأرانب الصغيرة، كذلك يضيف الرجل على عبئه عبئاً آخر «أيها الإنسان، لاشك في أنك مخدَّر منوَّم حقاً، فأنا لا أستطيع أن أنهض بعبئَيْن، حيث يترتَّب أن أضع عن كاهلي العبء الواحد، ثم إن المحل التجاريّ لا يزدهر مثلما ازدهر فليغَر. فمن أين يأخذ المرء ولا يسرق» «ليس ضرورياً بالنسبة إليك على الإطلاق، اثنان، أين قلت: اثنان، وهل تُراني أثق بأن يكون في وسع إنسان أن يحمل على عاتقه امرأتين، فما من شك في أنك لست تركياً» «لقد قلت لك هذا بلا ريب» «لا بأس، فما من شك في أنني لا أقول، شيئاً على الإطلاق، وأين أقول لك إنَّ عليك أن تحمل على عاتقك اثنتين. ولمَ لا يكُنَّ ثلاثاً، كلاّ فلتطرُدْ هذه بربك– أو، ألا يوجد لديك أحد؟» «وأيُّ أحد؟» ما الذي يعنيه هذا من جديد، وأية خواطر غريبة تعتمل في رأس هذا الفتى على الدوام. «فإن من الممكن أن ينتزعها منك امرؤ آخر، هذه المدعوَّة فرينتسه» وكان فرانتس في سعادة غامرة، فهو يربِّت على ذراع هذا: «أيها الفتى، أنت إنسان مستنفَد القوة، غير أنك دخلت المعهد العالي، بحق السماء، وها أنذا أقف، متين البنيان وها نحن أولاء نتاجر بالسلاسل، ماذا، مثلما يحدث في التضخُّم؟» «ما علينا، ولمَ لا» «لا بأس، ولم لا، فالنساء يوجد منهن الكثير على كل حال، الكثير الذي هو فوق ما ينبغي» «الكثير إلى حد الإفراط البالغ» «بحق السماء أنت إنسان غريب الأطوار، متميِّز، أنا مازلت لا أحصل على الهواء» «ما علينا، ماذا حدث الآن؟» «فلنتصرَّف، فإن الصفقة صحيحة، وأنا أبحث عن واحد، ولقد وجدت واحداً، وهنا أبدو بين يديك، وفي نظري، أَصَمَّ الأُذُنين، لقد وجدت واحداً، وها أنذا أبدو أصمّ كل الصمم بين يديك! وإني لأتلقَّف الهواء كما يفعل المتلقِّف حقاً».

وكان راينهولد ينظر إلى هذا، وكان فيه خطأ يسير من أخطاء النسيج، هذا في الحقيقة، غبيّ غباءً هائلاً، هذا المدعو فرانتس بيبركوبف. هل فكر هذا الرجل بالفعل في أن يحمل على عاتقه امرأتين دفعة واحدة.

وكان فرانتس قد بلغ من حماسته لهذه الصفقة أنه سلك طريقه على الفور وجعل

يبحث عن إيدي، الضئيل في بنيانه، ليرى هل يريد هذا أن يحصل منه على فتاة، وكانت لديه فتاة أخرى، وكان يريد التخلص من هذه.

وجاء هذا ملائماً لذلك الرجل ومُواتياً له على وجه الخصوص، وهو الذي أراد، ذات مرة، أن يتوقف عن عمله، ثم أتيح له مال تعويضي، عن المرض، وبات في وسعه أن يوليَ نفسه قدراً يسيراً من الرعاية التي يمكن أن تعوِّضه، وتذهب إلى الصندوق. أمّا الإثبات عندي فهذا ما قاله على الفور، وهذا ما لا وجود له عندي.

وفي ظهر اليوم التالي، وعلى الفور، وقبل أن يخرج من جديد إلى الشارع، أحدث فرانتس لزوجة الحوذيّ، بسبب لا شيء، ولا شيء مرة أخرى، جَلَبة مَهولة كالجحيم، وتصاعدت هذه إلى الذروة وكان يصرخ ويزعق مسروراً، وبعد هنيهة بات كل شيء على ما يُرام: فقد أعانها الأحدب في حَزْم متاعها، وكان فرانتس قد ولى الأدبار راكضاً وهو غاضب، وطلبت زوجة الحوذَي الإقامة لدى الأحدب، لأنها لم تكن تدري إلى أين تذهب، وإذا الأحدب يغدو إلى الطبيب ويبلغ عن مرضه، وفي المساء كان الاثنان يوجهان السباب والشتائم، معاً، نحو فرانتس بيبر كوبف.

ولكن سيللي أبلغت عن قدومها، لدى فرانتس. وماذا تريدين إذاً، يابُنَيّة؟ أتحسين بوجود إصابة أو موضع مؤلم، وأين تحسين بوخز الألم، فواعجباً، يا أبانا «لم يكن عليَّ إلاّ أن أسلِّمك ياقة الفرو بيدك، مُقِراً معترفاً. إنها شيء أنيق، من الطراز الأول، حيث لا يمارس الفتى إلاّ الأمور الجميلة. ففي المرة الأخيرة كان هذا مجرد حذاء طويل الساقَيْن. على أن سيللي، البريئة، التي لا تدري بشيء، قالت بصوت صادح، وعاطفة تنم عن الإخلاص: «أتُراك من ذوي الصداقة الراسخة مع صاحبي راينهولد؟ «أجل، ياإلهي» كذلك قال فرانتس ضاحكاً «إنه يبعث إليَّ من حين إلى آخر ببعض المواد الغذائية وقطع الملابس، مما يتوافر لديه الكثير منه، وقد كان آخر ما بعث إليّ به حذاء طويل الساق، مجرد حذاء طويل الساق. انتظري، ففي وسعك أن تتفحصيه كما يفعل الفاحص الخبير» ولو أن تلك المدعوَّة فرينتْسه، الجيفة، السادرة في غفلتها وسذاجتها، لم تشارك فحسب. فأين عساها تكون، يا

تُرى ، آه ، هنا كُنَّ خليقات أن يَكُنَّ «أنظري أيتها الآنسة سيللي ، هذا ما بعثت به إليّ في المرة الأخيرة . فما قولك الآن في سبطانة المدفع هذه؟ هنا يستطيع أن يدخل ثلاثة من الرجال ، فلتدسّي ساقيك فيهما ، وإذ بها تصعد وتقهقه ضاحكة وقد لبست ثياباً حسنة لائقة ، مخلوقة ضئيلة ، ماذا تقول ، من أجل القضم ، إنها فاتنة ، المظهر إلى حد رهيب ، في معطفها الأسود ، بما فيه من الإضافات المتخذة من الفراء ، فيا لهذا ، المدعو راينهولد ، من مخلوق غبي عديم الإحساس ، إذ ينبذ هذه ، ومِنْ أين يقتنص بشوكته على الدوام البنات الفاتنات ، وها هي ذي الآن واقفة ، في سبطانتَيْ المدفع ، وفرانتس يفكر في الموقف الأسبق. أنا مِثْلَ مشترك في خزانة ملابس شهرية ، من النساء ، وإذ به يَدسُّ إحدى قدميه في الحذاء ويقلبه على قفاه الطويلة ، وتزعق سيللي ، ولكن ساقه تدخل وراءها في السبطانة . وتهمُّ أن تعدو وتبتعد ، ولكنهما يقفِزان معاً ، ولا يكون لها بُدٌّ أن تأخذه معها . ثم يظهر هو لدى المائدة وقدمه الأخرى في سبطانة المدفع ، إنهما يوشكان أن يسقطا ، وينقلبان ، ويكون زعيق ، أيتها الآنسة ، هلاّ أَلْجَمْتِ خيالك ، فدعي الطرفين يتسمان بالمرح فيما بينهما ، فإن لدى هذين الآن أوقات مقابلة خصوصية ، أمّا بالنسبة للأفراد المشتركين في الصندوق فلا تكون هذه من الخامسة إلى السابعة إلاّ بعد ذلك .

«أنتَ ، يا راينهولد ، تنتظرني ، بلا رب ، ويا فرانتس ، أنتَ لا تقول له شيئاً ، بلا ريب ، رجاءً ، رجاءً» «أتُراني صائرة ، يا تُرى ، إلى أن أكون دمية مدلَّلة» ثم إنه نظر إليها عند المساء ، كاملة ، آلة الولولة والتفجُّع الصغيرة ، وفي المساء كانا يشتمان دائماً بلهجة جبارة وهي شخصية بالغة الظرف ، ولديها خزانة ملابس جميلة ، المعطف الذي مازال جديداً تقريباً ، وزوج من القفافيز للحفلات الراقصة ، كل هذا تأتي به معها ، على الفور ، أيها الآدمي ، هذا ما أهداه إليك ، كله ، راينهولد ، وهو الذي لا ريب في أنه يشتري مايشتريه في المحطات إلي يمرُّ بها على مراحل المسافات .

وكان فرانتس يلقى صديقه راينهولد ، الآن بالإعجاب والسرور ، على الدوام . وليس عمل فرانتس بالسهل ، فهو يحلم منذ الآن وهو مهموم من أجل نهاية الشهر ، حيث سيبدأ راينهولد الذي يجنح إلى الصمت كثيراً ، من جديد ، في الحديث

وإذ براينهولد يقف، ذات مساء، إلى جانبه، عند خط مترو الأنفاق، في ميدان الإسكندر، قبالة شارع لاندزبرغ ويسأله هل يزمع القيام بشيء ما، عند المساء، كلاّ، فإن الشهر لم ينصرم بعد، أمّا ما هو موجود وفي الحقيقة تنتظر سيللي فرانتس– ولكن لتذهب مع راينهولد– وذلك، بالطبع، بأكبر سيارة للشحن، وهنا يتجوّلان في مِشْية الهوينى، على الأقدام– ما تقول في ذلك، إلى أين– التجوال نزولاً في شارع الإسكندر، إلى شارع الأمير. ويظل فرانتس، إلى أن يكون قد خرج، إلى حيث يريد راينهولد الذهاب. «هل نزمع الذهاب إلى فالترشِن؟ أم نجول شاردين، هنا وهناك؟» إنه يريد الذهاب إلى جيش الخلاص، في شارع درسدن! يريد أن يدع أذنه تسمع هذا، شيئاً كهذا. وهذا يبدو، على الوجه الصحيح، مشابهاً لراينهولد. لقد كان هذا يستحوذ على أفكاره. وفي تلك الأيام شهد فرانتس بيبركوبف، أول مرة، أمسية بين جند جيش الخلاص. ما أكثر ما يبدو هذا مضحكاً، وكان يشتد عجبه من ذلك.

وفي العاشرة والنصف حين بدأت الصيحات تدعو إلى شاطئ الخطايا، أصبح راينهولد في القاعة مثيراً للدهشة تماماً، فانطلق كالعاصفة، وكأن أحداً كان يجري وراءه، إلى الخارج دائماً، أيها الإنسان، ما الذي حدث، يا تُرى، وكذلك كان يطلق عقيرته بالشتائم وهو نازل على السلالم موجِّهاً كلامه إلى فرانتس: «لقد كان عليك أن تتكهَّن لنفسك، قبل الأحداث، ولقد ظل هؤلاء يعالجون أمورك طوال هذا الزمن، وما عُدْتَ في الرمق الأخير، وأنت تقول لكل شيء: «أجل» «ياللعجب، ياللعجب، أمّا لنفسي فأنا لا أقولها منذ عهد بعيد، هنالك يترتَّب عليك أن تنهض من فراشك باكراً» وكان راينهولد مازال يطلق الشتائم في محل اللحم المفروم في شارع الأمير، ثم سارت الأمور وتواصلت دفعة واحدة، ونجم عن ذلك شيء ما. «أريد التخلُّص من النساء، يا فرانتس، فانا ما عدت أريدهن» «يا إلهي، أمّا أنا فقد سُرِرْت بأول واحدة» «أتُراك تحسَبُ، أن مما يُمْتعني أن أتيك في الأسبوع التالي من جديد، ويفترض أن تنتزع مني الساحرة الشقراء؟ كلاّ، على أساس. . » . »أمّا أنا، يا راينهولد، فلا ينبغي أن تتوقف المسألة عليّ، ولِمَ يا ترى؟ في وسعك أن تعتمد عليّ،

فمن الممكن أن يأتي مني ، عشر نساء ، فعلينا بإيوائهن جميعاً ، يا راينهولد» «دعني أَقَرُّ عيناً بالنساء ، ولكن إذا كنت لا أريد ، يا فرانتس؟» والآن تعرَّف هنا أحدهم على ما يحيط به وبات يألفه ، وهذا يتولاّه الغضب من ذلك . «كلاّ ، إذا كنت لا تريد النساء ، فهذه مسألة بسيطة كل البساطة ، فلتطلق سراحهن ببساطة ، فنحن نحسم حسابنا معهن دائماً دفعة واحدة . أمّا تلك التي عندك ، فسآخذها منك ، من جديد ، ثم تقلع عن هذا ببساطة» اثنان في اثنين أربعة ، وإذا كنت تستطيع الحساب ففي وسعك أن تفهمني ، إذا لا يوجد هنا ، بلا ريب ، شيء من أجل نفوذ البصر عن طريق فتح العيون إلى مداها الأخير ، إذا ما نفذ هذا بصره إلى امرئ ما . وإذا شئت ففي وسعك أن تحتفظ بالأخيرة ، كلاّ ، فإن ما هو قائم الآن ، هو أنَّ الفتى مضحك ، الآن يأتي بقهوته ، وعصير الليمون ، فهو لا يستطيع احتمال الخمر ، وإن ساقيه لترتجفان به ، وفي هذا الصدد يكون هناك النساء دائماً . هنالك أمسك راينهولد عن الكلام هنيهة ولم يقل شيئاً على الإطلاق ، ولم يعد إلى إفراغ ما في جعبته إلاّ بعد أن أفرغ في جوفه ثلاثة فناجين من مشروب «لوركه» ، وهناك كشف عمّا لديه .

أمّا أن اللبن مادة غذائية عالية القيمة ، فذلك ما لا جدل جدّي حوله بلا ريب ، إذ يُوصى به للأطفال ، ولا سيما صغار الأطفال ، والرُضَّع ، ثم للمرضى ، من أجل التقوية ولا سيما حين يتمُّ ، إلى جانب ذلك ، تقديم غذاء آخر يتضمن موادّ غذائية . ومثال ذلك أن من بين أغذية المرضى التي تعترف بها السلطات الطبية بوجه عام ، غير أنها لا تلقى التقدير مع الأسف ، لحم الخروف ، أي أنه ما من شيء يتعارض مع اللبن ، إلاّ أنه لا يجوز ، بالطبع ، لهذه الدعاية أن تتخذ أشكالاً فجّة منحرفة ، ويقول فرانتس في نفسه ، على أية حال ، أنا ألازم البيرة ، وحين تكون قد أُحْسِنَ تخزينها ، لا يمكن الاعتراض عليها بشيء .

وإذا وُجِّه راينهولد حَدَقَتَيْه نحو فرانتس – كان الفتى يبدو محطَّماً كل التحطيم ، حين ينطلق في الحديث بأسلوب مزعج صَاخب: «لقد سبق أن وُجِدْت هنا مرتين ، يا فرانتس ، في جيش الخلاص ، ولقد سبق أن تحدثت إلى واحد منهم . أمّا هذا فأقول له «أجل» ، وأمسك به بالعصا ، ثم أنقلِبُ بعد ذلك» «وما الذي يكون» «أنتَ تعلم

حق العلم أن النساء سرعان ما يغدون أكثر مما أطيق واحتمل. وأنت ترى هذا، بلا ريب، أيها الآدمي ماهي إلاّ أربعة أسابيع، ثم تنتهي المسألة. أما لماذا، فذلك مالا أعرفه. ما عدتُ أحبها. وقبل ذلك أصابني مَسٌّ من جنون من الشوق إليها، لقد كان من الواجب عليك أن تراني ذات مرة، وقد جُننْت كل الجنون، ومضيت مباشرة إلى الاحتجاز في زنزانة ثوران الجنون المُبَطَّنة بالمطّاط، وأنا من الجنون في منتهاه. وبعد ذلك: كلاّ، لا بُدَّ لها أن تنصرف، فإني لا أستطيع أن أراها، وقد كان من الممكن أن اطرح المال وراءها، لو أني لا أراها فحسب» وقال فرانتس وقد أخذته الدهشة. «ما علينا، أيها الإنسان، فأنت هنا ربما كنت بالفعل مجنوناً. انتظر.». «هنالك كنت في جيش الخلاص، كما قلت لهم، ثم إنني صليت مع واحد..». وقال فرانتس مندهشاً أيّما اندهاش: «أَوَصَّليْت؟» «أيها الإنسان إذا كان هذا شعورك وأنت لا تعرف لنفسك حيلة ولا نصيحة» بحق السماء، بحق السماء. أما فتاه فهو هذا، وأنتَ لك ألحانك. «فقد ساعدتَ، من الآباء الأحداث ستة، بل ثمانية، والمرء يفكر في شيء آخر، وأنت تتجلّد وتتماسك، وتستقيم الأمور وتمضي لوجهها» «ما علينا، يا راينهولد، ربما ذهبت ذات مرة إلى الجمعية الخيرية، أو ربما لم تكن الآن مضطراً إلى أن تبادر فوراً إلى المُراكمة، في الأعلى، في القاعة. هنا كنت خليقاً أن تتمكّن من القعود، دونما حرج على المقعد الطويل، في المقدمة. وأنت لا تحتاج إلى أن يتولاّك الخجل بين يديّ» «كلاّ، فأنا ما عدت أريد، وهذا أمر ما عاد يجدي، وهذا هراء كله. وإلى أين يفترَض أن أسعى زاحفاً، وأتوجّه بِصَلاتي، وأنا لا أؤمن البتة» «أجل، هذا شيء أستطيع أن أفهمه، إذا كنت لا تؤمن فلن يكون ثمة مايجدي»، وكان فرانتس يتأمل صديقه الذي كان ينظر في فنجانه الفارغ نظرة من ضاق به ذَرْعاً. «أما أنني أستطيع أن أساعدك، يا راينهولد، فذلك، مالا أستطيع معرفته. ولا بُدَّ أن أستعرض المسألة ذات مرة في ذهني. وربما كان من الواجب أن يبعث المرء في نفسك الاشمئزاز العميق من النساء، أو نحوَ ذلك» أما الآن فربما كان من الممكن أن أتقيّأ اشمزازاً من الساحرة الشقراء، ولكن غداً، أو بعد غد، كان ينبغي أن تراني ذات مرة، عندما تتعلّق المسألة بنيللي أو غوستا، أو ما يمكن أن يُسَمَّينَ

به، هنالك ينبغي لك أن ترى راينهولد، بأذنيه الحمراوَيْن، ولا يكون لديه سوى هاتِه النسوة، ولو أنك هدَرْتَ كل مالك لكان لا بُدَّ أن يكون في حوزة هذه».

«وماذا تحب إذاً، هكذا، على وجه الخصوص؟» «أتُراك تعني بأي وسيلة تظفر هذه بي؟.

ينبغي لي أن أقول نعم، بلا شيء على الإطلاق، وهذه هي المسألة على أية حال. أمّا الأولى فقد قطّعت– فيما أعلم– السيد بيير كوبف إرباً إرباً، أو هي تصطنع النكات، أمّا لماذا أحبها، يا فرانتس، فذلك ما لا أعرفه أبداً. النساء، ولتسألْهُنَّ ذات مرة، هُنّ اللواتي تتولاهن الدهشة، عندما أفغر فمي دفعة واحدة، مثل ثور، ولا أفارق القشرة، ولتسأل المدعوّة سيللي، غير أني لا أستطيع أن أتخلص من هذا، ولا أستطيع خلاصاً لنفسي».

ويظل فرانتس يرقب راينهولد، على الدوام.

إنه حصّاد اسمه الموت، قد أوتِيَ السلطان من لَدُن الرب الكبير. اليومَ يشحذ المُدية وقد باتت تبتُر بتراً أفضل كثيراً، وعما قريب سوف تمارس القطع في هذا، ولا بُدَّ لنا من المعاناة.

أَما إنه لفتى غريب عجيب. ويبتسم فرانتس، أما راينهولد فلا يبتسم على الإطلاق.

إنه حصّاد، اسمه الموت، قد أوتي السلطان من لَدُن الرب الكبير، وعما قريب سوف يمارس القَطْع في هذا.

ويقول فرانتس في نفسه: أمّا أنت فسوف نهزُّك قليلاً، ذات مرة، أيها الآدميّ، وسوف نضغط القبعة عليك ذات مرة حتى يَلِج وجهك فيها إلى عمق أكبر، يزيد على ما كان بمقدار ١٠ سنتيمترات.

ولا بأس، سوف نفعل، يا راينهولد، وسوف أسأل ذات مرة، المدعوة سيللي».

فرانتس يفكر في تجارة البنات، ملياً،
وفجأة ما عاد يريد ذلك فهو يريد شيئاً آخر

«سيللي، إيّاكِ والقعود في الحضن الآن، ولا تضربيني، يا فتاة فوراً، فأنتِ عملي المجهد الذي يقتضي الكثير من الصبر والدقة، والبراعة، والآن أشيري عليّ، بذلك الذي كنت معه» «لا أريد أن أعرف ذلك على الإطلاق، الملامح التعبيرية، ومثيلات سيللي الصغيرة، إذاً، فمع مَنْ – مع راينهولد» هناك تغدو الصغيرة خبيثة ماكرة، لماذا فحسب «راينهولد، أتُراه روى شيئاً كهذا؟» «ما علينا، لقد روى الكثير على أية حال» «هكذا، وأنت تَدَع هذا كله يُسْرَد عليك، وتصدقه، ما هذا؟» «كلاّ، بربك، ياصغيرتي سيللي» «ما علينا، فإني ذاهبة. ففي البداية أظل أنتظرك ثلاث ساعات كاملة، ثم ها أنت ذا تريد أن تتحدث باللغو وتَسرُد عليّ ما تسرد» «كلاّ، بربك، أيتها الإنسانة «فإن هذه فقدت صوابها» وقد كان عليك أن تقصّي عليَّ شيئاً ما. وما من شك في أنه ليس كذلك» «ما الذي حدث؟ الآن ما عدت أفهم شيئاً على الإطلاق» ثم أفلت العِنان. سيللي، هذا الشخص الأسود الضئيل، جاء على عجل، وما عادت تستطيع مواصلة السرد في بعض الأحيان، وهكذا هدّأت من روعها، وكان فرانتس يعانقها أثناء السَّرْد، لأنها كانت تبدو بالغة الحُسْن في هذه الأثناء، بطائرها الصغير، الأحمر، بلون الكرز، والمتألّق، وشرعت الآن، في البكاء، حين خطر ببالها كل شيء. «وإذاً فهو الرجل، المدعو راينهولد، الذي ليس لك بعاشق، وما هو باللئيم، بل لا يعد رجلاً، على الإطلاق، بل هو مجرَّد صعلوك متشرد، فهو يروح ويغدو، هنا وهناك مثل عصفور، في الشارع، ينقُر نَقْراتٍ هنا وهناك، ويحاول أن ينهَشَ الفتيات. ويسْتطيع العشرات أن يحدِّثوكَ بأمور شتى يستمدونها من تجربتهم الخاصة غير المستساغة. وما من شك في أنكَ لا تفكر، لقد كنتُ فتاتَه الأولى، أو ربما الثامنة؟ بل ربما كنتُ الفتاة المائة» وحين تسأله فهو لا يعرف وحده كم كان مقدار ما في حوزته، غير أنه يعرف كيف تمت حيازته «وعلى هذا، فيا فرانتس، عندما تستنكر فعل المجرم هنالك تحصَل مني، كلاّ، فإني لا أملك شيئاً، ولكن عندئذ ربما استطعت أن تذهب إلى مجلس الرئاسة، وتحصل لنفسك على

مكافأة. أمّا أنت فلا ترى في هذا شيئاً. عندما يقعد هكذا وينقّب ويتناول هندباءه، وإنما هي القهوة الرديئة دائماً، والقهوة الرديئة، ثم يعضُّ الفتاة من الفتيات» «لقد سرد ذلك على الجهات كلها» «هنا تفكر أوَّل ما تفكر، فيما يفكر فيه الفتى، وإنما ينبغي لهذا أن يستحوذ عليه الغضب ذات مرة، ومن الخير له أن ينام إلى أن يفيق، متغلباً على سِكْره، وهنا يأتيكَ هذا، مرة أخرى، فتى وَقحاً، ورجلاً من الدرجة الأولى، أقول لك، يا فرانتس، إنك تلامس جبهتك. ما الذي جرى لهذا، يا تُرى، هل ترك هذا نفسه تتعرض للنَّخر من الداخل، بالأمس؟ وعلى هذا فهو يشرع في الحديث ويستطيع أن يرقص. . ». أتُراه تعلَّم؟ على أرضية الرقص، في الشارع المبلَّط» «وهل يستطيع هذا أن يدفع بِكُرة» «إن هذا ليستخرجك استخراجاً، يا فرانتس، حيث أنت، وإذا كانت هذه امرأة متزوجة لا يُرْخي قبضته، بل يحصل عليها، هذا السيد الممتاز» وكان فرانتس يضحك ويضحك. لا تُقْسِمَنّ لي على الولاء، ولا تؤدِيَنَّ لي قَسَماً، لأن الجديد يستثير مع الزمن كل امرئ. والقلوب الحارّة لا تمنح ذويها قط سكينة، ولا راحة، بل تظل، أبداً تلتمس حافزاً جديداً. لا تُقسِمَنّ لي على وَلاء، لأنني أَتسلّى، على نحوٍ مماثل لما أنت عليه تماماً.

هنالك ابتهج، ذلك الإنسان. أتُراك، أنتَ، مثل هذا الفتى؟» «كلاّ أبداً، ياسيللي الصغيرة، فهذا الفتى ليس إلاّ مضحكاً إلى حد مفرط، وبالنسبة إليّ فهو يعود إلى العويل والولْوَلة من جديد، أمامي، قائلاً إنه لا يستطيع أن يهجر النساء، لا أستطيع هجرَكِ، لا أستطيع هَجْرَك، لا أستطيع الإعراض عنك. وخلع فرانتس سترته «الآن باتت اللئيمة في حوزته، الشقراء، وربما، ما رأيكِ، هل ينبغي لي أن أنتزعها منه؟» وهل تزعق المرأة! هل تستطيع المرأة أن تجأر بالصراخ! هل تزعق سيللي مثلما يجأر بالصراخ نَمِرُها المتوحش، وهل يطرح فرانتس سترته بعيداً أو يقذف بها على الأرض، وهي التي لم أَشْتَرِها لأعبث بها وأتلفها، والأمر التالي هو أنها تنتزع هذه بعنف حتى تمزِّقها، وهذا ما تنجزه.

«أيها الآدميّ، يا فرانتس، لقد صبّوا عليك الشوكولاته صبّاً، بلا ريب، فما الذي حدث لِلَّئيمة الداهية، هلاّ قلتَ لي ذلك مرّةً أخرى» «إنها تزعق زعيق نَمِر قد

استعَرت نيران حُمَيّاه. وعندما تظل تصرخ زمناً طويلاً ، يأتي بهذه رجال الشرطة، ويحسبون أنني أغلق صنبور الغاز عنها. إنه الدم البارد، يا فرانتس «ياسيللي، لا أسألك إلاّ أن لا تقذفي بقطع الملابس، فحسب. فهذه أشياء لها قيمتها، وليس من السهل تأمينها في هذه الأيام. وهكذا فسَلّمي ذات مرة، فأنا لم أَعْضُضْكِ بعد» «كلاّ، يا فرانتس، فأنتَ امرؤ ساذج إلى حد بعيد» «جميل، فأنا امرؤٌ يفترض أنني ساذج. ولكن إذا كان صديقي، هذا المدعو راينهولد، يعاني من أشكال من الضائقات والعُسْر، بل يجرّر خطاه إلى شارع درسدن، نحو جيش الخلاص، وهو يريد الصلاة، فتصوَّري، هنا لا بُدَّ لي أن أقف إلى جانبه إذا كنت صديقه. أوَ لا ينبغي لي أن أنتزع منه اللئيمة الداهية؟» «وأنا؟» «لقد وَدِدْت لو أذهب معك لأصطاد السمك بالصنارة» «كلاّ، هنا يترتَّب علينا أن نتحدث في ذلك على أية حال، وفي وسعنا أن نحتفل بهذا فنشرب عليه الخمر، كما نريد أن نفعل ذلك. وأين توجد أباريق الخمر في الحقيقة، الأباريق العالية؟ هلاّ نظرت إليها ذات مرة» «دعني بربك، راضيةً، قريرةَ العين، أيها الآدمي». «ولكني لا أريد أن أعرض عليكِ سوى الأباريق العالية، ياسيللي، وذلك أنني أتيتُ بها من لَدُنْه» «وأنت – تعلم بلا ريب، أنكَ أتيتني في تلك الأيام بياقة من الفراء! ما علينا، وقبل ذلك جاءتني فتاة من لَدُنْه بإبريق الخمر» «ألا فقولي دونما حرج، لِمَ لا، لماذا تقفين متحدثةً من وراء سور، فبالصراحة يغدو كل شيء أفضل».

وكانت هذه تقعد على الكرسيّ ذي المسند، وتنظر إليه، ثم تجهش بالبكاء ولا تنبس ببنت شفة. «المسألة هكذا، والرجل هكذا، لقد أَعَنْتُه، وإنه لصديقي، وهنا لا أعتزم أن أُبيِّن لك شيئاً أبداً» كيف يستطيع هؤلاء أن يُطِلّوا بأبصارهم على الجهة المقابلة، مثل هذا الغضب: «مثل هذه الجيفة الوضيعة، التي تضاهي جثث الكلاب، أنت فتى وضيع وضاعة الكلاب. أوَ تعلم، إذا كان المدعوّ راينهولد وغداً من الأوغاد، فأنت أسوأ من أسوأ اللؤماء طُرّاً» «كلاّ، فما أنا بالتي تتصف بهذه الصفة» «لو كنت رجلاً..». «كلاّ، إن من الخير أن لا تكوني رجلاً، أيتها الإنسانة غير أنك لا تحتاجين إلى أن تُستثار حفيظتك استثارة مصطنعة، يا سيللي، لقد صرحت بما

كان، ولقد فكرت في كل شيء، في هذه الأثناء، وأنا أنظر إليك، في كل شيء. لن أنتزع منه اللئيمة، وسوف تظلين هنا». وينهض فرانتس قائماً، ويتناول إبريق الخمر، عَن الخزانة، المسألة لا تستقيم، وأنا لا أشارك، والذي يدمِّر البشر لا أشارك فيه. ولا بد أن يحدث شيء ما. «ياسيللي، أنت تظلين اليوم هنا، وفي الصباح الباكر، حين يكون راينهولد قد انصرف تذهبين إلى صاحبته الساحرة وتتحدثين إليها، وسوف أقف إلى جانبها، وفي وسعها أن تعتمد عليّ، فقولي لها ذات مرة: انتظري، وينبغي لها أن تصعد إلى هنا، نحن نتحدث إليها معاً».

ومثلما تقعد، في منتصف النهار، الساحرة الشقراء، عند فرانتس وسيللي، تكون قد باتت شديدة الشحوب، وتبدو محزونة، وتنهال على رأس سيللي بقولها: إن راينهولد لا يكترث بها، ويغيظها، ويكون كل شيء صحيحاً. ومثلما تأخذ الساحرة في البكاء، غير أنها لا تعلم على الإطلاق ما يبتغيه هؤلاء منها، يصرح لها فرانتس قائلاً: «هذا الرجل ليس بالوغد، فهو صديقي، وأنا لا أدع شيئاً يأتيه مما يمسُّه أو يضره. ولكن ما يفعله إنما هو تعذيب للحيوان، والمسألة زمجرة وصيحات سِباب وشتائم» ينبغي لها أن لا تدعه يصرفها عن طريق الترهيب. أمّا هو، أي فرانتس، فسوف يتعرَّض، فضلاً عن ذلك، . . . . كلاّ، فسوف نرى ذلك على أية حال.

وفي المساء يأتي راينهولد بفرانتس من حيث كان أمام حمّالة صحفه، والجوّ بارد إلى حدٍّ يضيق الإنسان به ذَرْعاً، ويسمح فرانتس لنفسه بأن يُدْعى إلى قدح ساخن من الفروغ «وهو مشروب ساخن يتألف من الروم والسُكّر والماء». ويرتضي، دونما حرج، أن يستمع إلى مقدمة راينهولد، ثم يوجه راينهولد كلامه مباشرة، وعلى الفور، إلى القضية المتعلقة بالساحرة، التي انتهت بالنسبة إليه، ولا بُدَّ له أن ينبذها.

وقال: «يا راينهولد، هل باتت لديك، من جديد، فتاة أخرى؟» وكان لدى هذا فتاة، وهو يقول ذلك، عند ذلك يقول فرانتس إنه لن ينبذ المدعوَّة سيللي، فقد أَلِفَت الحياة معه على نحو مستحسن، وهي امرأة مستقيمة فاضلة، أمّا هو، أي راينهولد، فينبَغي له أن يكبح جماح نفسه ذات مرة، كما يليق برجل مستقيم فاضل، فإن هذا لا يمكن أن يستمرّ ويتواصل، أبداً، ببساطة، على هذا النحو. ولكن راينهولد لا

يفهم، ويريد أن يعلم، أكانت المسألة بسبب الياقة، أي ياقة الفراء. أما الساحرة فهي خليقة، كلاّ، ما هذا، ربما كانت خليقة أن تأتيه بساعة، ساعة جيب مفضّضة، أو بقبعة من الفراء، مع ساتِرَيْن للأذنَيْن، وهي التي يمكن أن تكون حاجة فرانتس إليها من الكثير من الكلام الفارغ السخيف. سوف أشتري كل شيء وحدي، هنالك يود فرانتس لو يتحدث إلى راينهولد حديثاً ودّياً، بل حديث الصديق إلى الصديق. ويصرِّح عندئذ بما كان فكر فيه، اليومَ، وبالأمس. أمّا الساحرة فيحسُن بالمرء الآن أن يحتفظ بها لراينهولد، ولو ناءت بحَمْل ذلك حمّالات السقف، وينبغي له أن يُعَوِّد نفسه، ثم تستقيم الأمور، فالإنسان إنسان، والمرأة كذلك، وإلاّ لكان في وسعه أن يشتري لنفسه عاهراً، بثلاثة ماركات، وتكون راضية قريرة العين إذا كان في وسعها أن تواصل، على الفور، سَيْر الخَبَب، فِعْل الجياد، غير أن هذا يعني أن تتدثَّر بصورة المرأة، أوّلاً، بالحب والوجدان، ثم تُتْرَك لتهرب، واحدةً بعد الأخرى، كلاّ.

وأما راينهولد فيستمع إلى هذا على طريقته، وهو يشرب قهوته رُوَيْداً رويداً، ناظراً أمامه، كأنما في حلم، في شرود لا يركّز فيه انتباهه على شيء، ويقول، دونما حرجٍ، إنه إذا كان فرانتس لا يزمع انتزاع الساحرة منه، فليكن ما يكون، ولقد سبق له أنْ ذهب من دونه، ثم ينصرف ويتوارى، فليس لديه وقت.

وفي الليل يستيقظ فرانتس ولا يغفو حتى الصباح، والجو بارد جليديّ في المبنى وسيلبي تنام وتشخر إلى جانبه، لماذا لا أغفو؟ لماذا لا يأتيني النوم؟ الآن تنطلق سيارات الخضار إلى قاعة السوق. أنا لا أودُّ أن أكون حصاناً، أجري في الليل تحت وطأة البرد، أمّا في الحظيرة فنَعَم، فهذه دافئة. وأما النوم فتستطيعه امرأة كهذه، هذه تستطيع أن تنام، أمّا أنا فلا، لقد تجمَّدت أصابع قدمَيّ اللتان كثيراً، الشعور بالرغبة في الحكة، وهذا شيء فيه، إنه القلب، والرئة والتنفُّس، والشعور الداخلي، وهذا حاضر ماثِل، يُطْبَع ويُضْرَب، ومن قِبَل مَنْ يا ترى؟ إنه لا يَعْلَم ممن يأتي هذا الشيء، فالشعور لا يستطيع إلاّ أن يقول، إنه لا ينام.

فإذا حَطَّ طائر على شجرته، وانزلقت على جسده في النوم، أفعى، واستيقظ الطائر بفعل فحيحها، والآن يقعد الطائر وقد انتصب ريشه، ولم يشعر بوجود أفعى.

آه ، إنه التنفس دائماً ، وسَحْب النَفَس بهدوء. ويلقي فرانتس بنفسه وقد جثمت كراهيته لراينهولد على صدره وهو يجادله ويقاتله ، فيندسُّ هذا من خلال الخشب ويوقظه ، وكان راينهولد راقداً ، إنه يرقد إلى جانب الساحرة ، وقد تمكن منه النوم واستحوذ عليه ، وفي الحلم يقتُل ، وفي الحلم يجد لنفسه مُتَنَفَّساً.

أخبار محليّة

كان هذا في برلين، في الأسبوع الثاني من نيسان، حيث بات المناخ ربيعياً في بعض الأحيان، وحين قررت الصحافة، بالإجماع، أن مناخ عيد الفصح الرائع يغري الناس بالخروج إلى الهواء الطلق. وفي برلين أطلق، في تلك الأيام، طالب روسي، يدعى أليكس فرينكل، النار على عَروسه، البالغة من العمر، اثنين وعشرين حَوْلاً، وهي المحترِفَة الفنية، فيرا كامينسكايا، في نُزُلها العائلي، أمّا مثيلتها في العمر، المربية تاتيانا زانفتليبين، التي كانت قد انضمت إلى خطة مفارقة الحياة مفارقة مشتركة، فقد اعتراها، في اللحظة الأخيرة، الخوف من قرارها، وغادرت صديقتها حين باتت ترقد على الأرض وقد أسلمت الروح، والتقت بدورية من رجال الشرطة، وحدثتها عن التجاريب الرهيبة التي حدثت في السنين الأخيرة، وقادت الموظفين إلى الموضع الذي كانت فيرا وأليكس يرقدان فيه وقد أصيبا إصابة قاتلة، وتمَّ إنذار الشرطة الجنائية وأرسلت اللجنة الخاصة بجريمة القتل موظفين إلى مكان المأساة. وكان أليكس وفيرا يريدان أنْ يتزوَّجا، غير أن الأحوال الاقتصادية لم تكن تفسح المجال للاتحاد الزوجي.

ثم إن الوساطات المتعلقة بمسائل الدين الخاصة بكوارث الحافلات في شارع الجيش لم تكن قد اختُتِمت بعد، كما كانت عمليات الاستجواب ولا التحقيق مع الأفراد المشاركين والقائد، تتعرَّض للتدقيق بعدُ، بأسلوب صادق نزيه، كما أن تقارير الخبرة الصادرة عن الخبراء الفنيين مازالت مفتقدة، وبعد ورودها فحسب يكون من الممكن التصدي للتحقيق في المسألة، وهل يوجد ذنب يُنْسَب إلى القائد

عن طريق الفَرْمَلة المتأخرة، أم أن ائتلاف مصادفات تعيسة وتعاونها هو الذي أدّى إلى الكارثة.

وكان يسود البورصة حرية التداول الهادئة، وكانت اتجاهات حرية التداول تتمتع بالرسوخ الأشدّ بالنظر إلى هوية مصرف الدولة التي يُفترض أنها وصلت إلى النشر، والتي يفترض أن تكشف عن صورة مُواتية في حالة رواج تداول العملات بمقدار ٤٠٠ مليون ووصول المخزون من الكمبيالات إلى ٣٥٠ مليون. وقد سمع الناس، في ١٨ نيسان، حوالي الساعة الحادية عشرة مؤسسة I.G. اللون ٢٦٠ ونصف إلى ٢٦٧، وسيمينس وهالسكة ٢٩٧ ونصف، إلى ٢٩٩ وغاز ديسّاور ٢٠٢ إلى ٢٠٣ وسيليلوز فالدهوف ٢٩٥، وكان يوجد بعض الاهتمام بالبترول الألماني يصل إلى ١٣٤ ونصف.

ولكي نتطرَّق، مرة أخرى إلى مأساة الحافلات الكهربائية في شارع الجيش، فإن كل المصابين في الحادث إصابة فادحة. هم في طريق التحسُّن.

ومنذ الحادي عشر من نيسان، كان المحرَّر براون قد تمَّ تحريره من موآبيت بقوة السلاح. لقد كان هذا مشهداً من مشاهد الغرب المتوحش، وكان قد تمَّ التمهيد للملاحقة وتمَّ على الفور إرسال البلاغ الملائم من قبل ممثل رئيس المحكمة الجنائية إلى السلطة العدلية الأعلى التي تتبعها هذه المحكمة. وفي هذا الوقت، كان يجري بعدُ استئناف عمليات التحقيق والاستجواب مع شهود العيان والموظفين المتورطين.

على أن جمهور برلين كان أقل اشتغالاً، في هذا الوقت، بالاستجابة إلى رغبة واحد من أهم مصانع السيارات الأمريكية، في الحصول من المؤسسات الألمانية ذات الرأسْمال القوي، على حق التمثيل الحصري للسيارات التي يتراوح عدد أسطواناتها بين الستة والثمانية في الشمال الألمانيّ.

وأخيراً فإن هذا يفيد في الترشيد، وأنا أتوجَّه هنا، على وجه الخصوص، إلى جيران مكتب البريد في شتاينبلاتس، وفي شارع هاردنبرغ، يوجد، في مسرح النهضة، في ظل مظاهر الاحتفال الغنية بالذكرى السنوية، مسرحية «دُمَّل القلب»،

هذه الكوميديا الجذابة الساحرة التي تتحد فيها الفكاهة الظريفة مع المعنى الأعمق، والتي يجري تمثيلها الآن للمرة المائة، ويُطْلَب إلى البرلينيين، عن طريق الملصقات، أن يساعدوا هذه المسرحية على الوصول إلى مراتب من تكريم الذكرى السنوية، أعلى وأرفع شأناً. على أنَّ المرء يضطر الآن إلى أن يُدْخِل في حسبانه بالطبع أموراً شتى، وذلك أن البرلينيين يمكن أن يُطالبوا في الحقيقة، وعلى وجه العموم، ولكن من الممكن أن يُمْنَعوا، عن طريق ظروف شتى، من الاستجابة للنداء، فمن الممكن أن يكونوا أوَّل الأمر قد رحلوا من دون أن تكون لهم معرفة بوجود المسرحية، ومن الممكن أن يكونوا في برلين، ولكن لا تتاح لهم فرصة لكي يرَوْا، في لوحة الإعلانات، الإعلان عن المسرحية، كَأَنْ يكون ذلك، مثلاً، لأنهم مرضى يلازمون الفراش، وهذا يُعَدُّ، في مدينة تضمُّ أربعة ملايين نسمة، في حد ذاته، جمهوراً لا يستهان به، من البشر. وعلى كل حال فقد كان من الممكن إخبارهم، عن طريق الإذاعة، بأخبار دعائية في الساعة السادسة مساءً، تفيد أن مسرحية «دُمَّل القلب Gour»، هذه الكوميديا الباريسية الساحرة، التي تتحد فيها الفكاهة الظريفة بالمعنى الأعمق، يحري تمثيلها الآن للمرة المائة، غير أن هذا الخبر يمكن أن ينتزع منهم، على أقصى الحدود، أسفاً، لا على التمكّن من الانطلاق إلى شارع هاردينبرغ، المهمّ كانوا ليتمكنوا من الانطلاق إليه بحال من الأحوال لو كانوا طريحي الفراش. وتفيد المعلومات التي يمكن الوثوق بها، أنه لا يوجد في مسرح النهضة احتياطات بصدد قبول أَسِرَّة المرضى، الذين يجري إيواؤهم هنا بصورة عابرة، عن طريق عربات نقل المرضى.

ولا يمكن على الإطلاق، بعد ذلك، إهمال الإشارة إلى أن من الممكن أن يوجد في برلين أناس، وما من شك في أن هؤلاء موجودون، وأعني أولئك الذين يقرأون ملصق مسرح النهضة، ولكنهم يشكّون في حقيقته، إنهم لا يشكّون في حقيقة وجود الملصق، بل يشكّون في صحة مضمونه، وفي أهمية هذا المضمون، المعبَّر عنهما بالحروف الطباعية، وقد كان من الممكن أن يقرأوا، مع عدم الارتياح، والشعور بالاستياء والاشمئزاز وربما مع الشعور بالغيظ، هناك، تقرير مسألة أن كوميديا «دُمَّل

القلب» إنما هي كوميديا ساحرة، أمّا من تُراها تسحر، وماذا تسحر، وبمَ تسحر، وكيف ينتهي المرء إلى أن يسحرني، فليس من الضروري أن أدع نفسي تتعرَّض للسّحْر، ومن الممكن أن يجعل شفاهكم تنقبض انقباضاً شديداً للفكاهة الظريفة بالمعنى الأعمق، في هذه الكوميديا. إنهم لا يريدون الفكاهة الظريفة، إذ إن موقفهم من الحياة موقف الجِدّ، وعقليَّتهم متكدِّرة، غير أنها مفعمة بالسمّو والرفعة، وهناك بعض حالات الحزن والحِداد التي تعرض في إطار قُرباهم، كما أنهم لا يَدَعون أحداً يستغفلهم، عن طريق الإشارة إلى أن ثمة معنى أعمق يرتبط بالفكاهة المستظرَفة، مع الأسف، ذلك لأن تحويل الفكاهة المستظرفة إلى شيء لا ضير فيه ولا أذى، وتحييدها لا يحدثان على الإطلاق تبعاً لما ترى. ولا بُدَّ للمعنى الأعمق أن يكون، في كل مرة، ماثلاً وحده، ولا بُدَّ للفكاهة المستظرفة أن يتمَّ التخلُّص منها، مثلما تخلَّص الرومان من قرطاجة، أو من مدائن أخرى، بطريقة أخرى ما عاد في وسعهم أن يتذكروها. على أنَّ فريقاً من الناس لا يؤمنون على الإطلاق بالمعنى الأعمق الذي يكمن في مسرحية «دُمَّل القلب» والذي يلقى الثناء.

ومن الواضح الجليّ، أنه، في مدينة كبيرة مثل برلين يتشكك كثير من الناس ويتنقّصون الكثير من الأمور ويجادلون فيها، وكذلك تفعل الملصقات المعلَّقة مقابل الكثير من المال، من قِبَل المدير، كلمةً كلمة. إنهم يأبَوْن الاعتراف بالمسرح مطلقا، وحتى حين لا يصِمونه بوصمة ما، وحتى حين يحبون المسرح، ولا سيما مسرح النهضة في شارع هاردنبرغ، وحتى عندما يسلِّمون بأن هذه المسرحية يحدث فيها اتحاد بين الفكاهة المستظرفة والمعنى الأعمق، يأبَوْن المشاركة فيه، لأنهم يَأبَوْن، ببساطة، أن يُقْدِموا في هذا المساء على شيء آخر، وبذلك يتضاءل إلى حد بعيد عدد أفواج البشر الذين سيتدفقون على شارع هارديبرغ، ويمكن أن يفرضوا، مثلاً، عروضاً موازية لمسرحية «دُمَّل القلب» في القاعات المجاورة.

ونعود أدراجنا، بعد هذه النبذة الغنية بالعِبَر، عن الأحداث العامة والخاصة في برلين، حزيران ١٩٢٨، من جديد إلى فرانتس بيبركوبف، ورانيهولد ومحنته مع الفتيات. ولا يمكن أن نفترض أنه لا يتوافر، لهذه الأخبار، سوى نطاق محدود من

المهتمين ، ولا نزمع أن نناقش عِلَل هذا ، غير أن هذا لا يُفْتَرَض أن يحول بيني ، من جانبي أنا ، وبين متابعة آثار إنسانيَ الضئيل في برلين ، قلبِها وشرقِيِّها ، وكذلك يفعل كل امرئ ما يراه ضرورياً .

فرانتس يتخذ قراراً وخيم العواقب
ولا يلاحظ أنه متورِّط

ولم تكن الأمور تسير على ما يُرام، مع راينهولد، بعد الحوار مع فرانتس بيبركوبف، وذلك أن راينهولد لم يكن مما يلائمه، حتى الآن، على الأقل، أن يكون مع النساء امرأً فظاً غليظ القلب، مثل فرانتس، ولم يكن بُدٌّ هنا أن يساعده على الدوام امرؤٌ ما، والآن وصل برَّ السلامة، وكانت الفتيات يلاحِقْنه، ومنهن الساحرة التي كانت ما تزال لديه، والأخيرة، المدعُوَّة سيللي، والفتاة قبل الأخيرة، التي قد كان نسيَ اسمها. وكن جميعاً يمارسن التجسس من حوله، فكان فريق منهن يفعلن ذلك وهُنَّ مهمومات قد عراهُنَّ الخوف والتوجُّس من جرّاء القطعة الأخيرة من الملابس الداخلية، وكان فريق آخر منهن يفعلن ذلك بدافع الولع بالحب الذي عراهن من جديد بسبب «قطعة الملابس الداخلية الثالثة قبل الأخيرة». على أنَّ أحدثهُنَّ على الإطلاق، أي تلك التي كانت تلوح في الأفق، وهي فتاة تدعى نيللي، من قاعة السوق المركزية، وهي أرملة، سقطت على الفور وانفصلت، حين ظهر لديها على التتابع الساحرة المدعوَّة سيللي، وأخيراً، وفي صورة رجل، يحمل صفة شاهد محلَّف، رجل، يقال له فرانتس بيبركوبف، وهو ذاته صديق لراينهولد، وحَذَّرها. أجل، هذا ما فعله فرانتس بيبركوبف.

أيتها السيدة لابشنْسكي– وهو اسم نيللي بالطبع– أنا لا أفعل هذا لكي أكون لديك، ولكي أَحُطَّ من شأن صديقي، أوْ مَنْ يمكن أن يكون، فما جئت من أجل

هذا أبداً، فأنا لا أتدخل مطلقاً في أمور غسيل الآخرين الوسخ، ياللعجب، غير أن ما هو حق لا بُدّ أن يبقى حقاً.

الوقوع على امراة بعد الأخرى، في الشارع، وأنا أشهد على ذلك شهادة الاستقامة والصدق على وجه الخصوص. ثم إن هذا ليس بالحب الحقيقيّ».

وتركت السيدة لابشنسكي صدرها يعلو وينخفض في حلة الفراء، من أجلها، فهي، في النهاية، ليست مبتدئة مع الرجال. ومضى فرانتس قائلاً: «يسرني أن أسمع هذا، وهو يكفيني، ثم إنكِ سوف تعرفينَ، بلا ريب، لأنك تؤدين عملا صالحاً. ومن أجل ذلك يترتب أداء هذا العمل على وجه الخصوص بالنسبة إليّ. ألا إن النساء ليُثِرْن الأسى في نفس المرء، وهُنَّ اللواتي يُغْدَدْن بشراً مثلنا، ثم يأتي راينهولد ذاته، وهو يتعرَّض للهلاك من جراء ذلك بالنسبة إلينا، ومن أجل ذلك ما عاد يشرب البيرة، ولا العَرَق، وإنما هي القهوة الخفيفة فحسب، فإنه لا يحتمل قطرة واحدة، ثم يكون من الخير له أن يستجمع شتات نفسه، ألا إن لهذا لنواةً طيبة في ذاته «إذا كان يملك شيئاً فهو له»، كذلك قالت السيدة لابشنسكي وهي تبكي، وأومأ فرانتس إيماءة الجدّ، ومن أجل ذلك يترتب عليّ المبادرة والفعل، لقد أنجز الآن الشيء الكثير، ولكن لن تظل الأمور تسير على هذا النحو، وهنا لا يكون لنا بُدٌّ أن نَمُدَّ يَدَنا».

وقدَّمت السيدة لابشنسكي جُماع أظفارها القوية إلى السيد بيبركوبف للوداع: «سأعتمد عليك، ياسيد بيبركوبف» وكان في وسعها أن تعتمد عليه. ولم يخرج راينهولد، وكان إنساناً ينزع إلى الاستقرار، غير أنه لم يكن يتيح للناس أن يستشفّوا حقيقته.

وقد لبث ثلاثة أسابيع مع الساحرة في تجاوزٍ منه للوعد. أمّا فرانتس فكان يُنادى عليه في كل يوم من قبل خضراء الدِّمَن لكي يقدم تقريراً. وكان فرانتس مبتهجاً. الآن سرعان ما يستحق الأجلُ التالي. الآن يعني هذا الانتباه. وكان هذا صحيحاً، ففي منتصف يوم من الأيام تُبْلغه الساحرة وهي ترتعد، قائلة إن راينهولد قد سهر في الخارج أمسيتين، في الحلّة الرسمية الفخمة.

وفي منتصف النهار التالي كانت قد عرفت مَنْ كان هذا: إنها امرأة معيَّنة يقال لها روزا، التي تخيط عُرى الأزرار، في مستهل الثلاثينات، أما اسم العائلة فكانت ما تزال لا تعرفه، ولكن العنوان، وضحك فرانتس قائلاً: «كلاّ، فعندئذ يكون كل شيء قد عاد إلى مجاريه.

وما من شك في أنه لا يمكن إقامة ارتباط أبديّ بقوى المصائر والمقادير، والقدر يخطو خطواته بسرعة، فَلْتَحْمِلِ عندما تكون مُعاقاً عن التقدم بخُطاك، حذاء لايْزَر، واسم لايْزَر هو اسم أكبر الدور الخاصة بالأحذية في الميدان. وإذا لم تشأ أن تخطو فلتنطلق بمركبة. وهذه مؤسسة NSU تدعوك إلى رحلة تجريبية بالمركبة ذات الأسطوانات الستة. وفي هذا الخميس على وجه الخصوص، سار فرانتس بيبركوبف، من جديد، وحده في شارع برينتسلاوْ، إذ كان قد خطرت بباله رغبة في زيارة صديقه مِكْ الذي لم يكن رآه منذ عهد بعيد، هكذا بوجه عام، ثم إنه أراد أن يتحدث إليه عن راينهولد والنساء، وكان يفترَض في مِكْ أن ينظر ويبدي إعجابه، حين يظفر هو، أي فرانتس، بمثل هذا الفتى عن طريق التأديب، وكيف يحوِّل دفَّته، ولا بُدَّ له أن يعوِّد نفسه على النظام، وهو يعوِّد نفسه على ذلك .

وهذا صحيح، فحين يدفع فرانتس بصندوق صُحُفه في المقصف، مَنْ يكون، يا تُرى ذلك الذي تُبْصِرُه مقلتاي؟ هذا مِكْ يقعد هنا على الفور مع اثنين آخرين، ويتناول بعض اللُّقَيْمات، ويُقِرّان لنفسَيْهما بالحق في الاستمتاع ببعض أقداح كبيرة من البيرة بناءً على دعوة فرانتس. ويتحدث فرانتس الآن، وهو يُغَرْغِر ويتجرّع ويبتلع، بينما يستمع مِكْ الآن وهو يغرغر ويبتلع، ويبدي اندهاشه، راضياً مغتبطاً، في صدد ما يوجد من أنواع البشر. أمّا مِكْ فيريد أن يحتفظ بذلك لنفسه احتفاظاً كاملاً ولكنه يعد، بلا ريب، صندوقاً، وأيَّ صندوق، ويشرق وجه فرانتس ويتحدث عما أنجز في القضية، حين أبعد عن راينهولد تلك المدعوَّة نيللي، التي كانت سيدة يقال لها السيدة لابشِنْسكي ولم يكن له بُدٌّ أن يمكث ثلاثة أسابيع من بعد الموعد، لدى الساحرة، والآن توجد فتاة معينة يقال لها روزا، وهي خياطة عرى الأزرار. غير أنا نغلق عليه هذه العروة بالخياطة، وهكذا يقعد فرانتس ههنا، بديناً قبالة قدح

بيرته الكبير، يقعد في شحمه، يزجي الثناء مسروراً، أنتن أيتها الخناجر، ويا أيتها الجوقات الشبابيّة، هنا يطوف بنا نشيد من حولنا، من جديد، وينطلق نشيد دائري من حول مائدتنا. ثلاثة في ثلاثة تسعة، نحن نشرب الخمر كالخنازير، ثلاثة في ثلاثة، إذا ما أضيف إليهن واحد كان الحاصل عشراً، سنشرب قدحاً مرة أخرى قدحاً، واثنين وثلاثة، وأربعة، وستة، وسبعة.

من تُراه يقف لدى منصب الصبّ، ولدى منصة الغناء، ومَنْ تراه يبتسم في دكان النَّتَن ذي الأبخرة؟ إنه الخنزير الأكثر بدانة بين كل الخنازير، سيد الطبل. وهو يبتسم ما يسميه ابتسامة، هكذا، كيفما اتفق، ولكن خنازيره الرُضّع تبحث وتلتمس، لقد كان عليه أن يتناول مكنسة ويحدث ثغرة في وسط هذا الدخان إذا ما أراد أن يرى شيئاً. وإذ بثلاثة يتسلّقونه، إذاً فهؤلاء هم الصغار الذين يشكلون معه، على الدوام، مشروعاً مشتركاً، فالإخوة من الدرجة الأولى، الإخوة المتساوون، والرؤوس المتشابهة، والصغار المعلّقون على المشانق، أفضل من البحث عن أعقاب السجائر، وهم يحكّون رؤوسهم كل أربعة معاً، ويثغون معاً ويبحثون في المحل منقبين، ولا بُدّ لهم أن يتناولوا مكنسة إذا ما أرادوا أن يَروْا شيئاً ما، على أن صمّام الأمان يفعل ذلك كذلك، وقال مِلْك وهو يغمز فرانتس في جنبه: «إنّهم ليسوا مكتملين، فما زالوا يحتاجون إلى أناس من أجل بضاعتهم. أمّا البدين فلا يستطيع أن يظفر بعدد كافٍ من الناس» «لقد كان قد كتب عندي على الآلة الكاتبة، ولكن هل أسترسل مع هذا. وماذا يفترض أن تكون الفاكهة بالنسبة إليّ؟ وهل كان لديه الكثير من هذا البضاعة؟»

«أوَ يعلم المرء ما الذي يتوافر لهذا من السلع. أما الفاكهة فيذكرها، وليس المرء بمضطر إلى أن يطرح الكثير من الأسئلة، ولكن ليس من السيّء على الإطلاق أن يلازم المرء هذا الرجل، إذ يظل يرتدّ، على الدوام، امرؤ ما، أو يسقط، إذ يكون داهية أو محنّكاً، الشيخ، والآخرون».

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والعشرين، والثانية السابعة عشرة يتقدم، من جديد، أحدهم، من مائدة صب الخمور، أو منصة تقديم المشروبات، واحد،

اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة ستة، سبعة، أمي التي تطبخ اللفت- من عساه يكون هذا؟ إنهم يقولون إن ملك إنكلترا، كلاّ إنه ليس ملك إنكلترا وهو ينطلق وسط حاشية كبيرة من البشر إلى افتتاح البرلمان، وهذه إشارة لمعنى الاستقلال عند الأمة الإنجليزية. أمّا هذا فليس هو. إذاً فمن عساه يكون؟ أتُراهم مندوبو الشعوب، الذين وقّعوا في باريس معاهدة كيلّوغ «وهي معاهدة نبذ الحرب التي تمَّ إبرامها في عام ١٩٢٨ عن طريق فرانك كيلّوغ، وزير الخارجية الأمريكي». وقد أحدقت بهم خمسون صورة ضوئية، ولم يكن من الممكن الإتيان بالمحبرة الحقيقية بسبب حجمها الكبير، ولم يكن بُدٌّ للقوم أن يكتفوا بطاقم من سيفر؟ وحتى هذه ليست هي المقصودة، إنها شيء مقصور، محدود، شيء يأتي وهو يجرّر أذياله، والجوارب الصوفية معلّقة، راينهولد، شخصية تفتقر كلٍ الافتقار إلى اللّمعان، وهو فتى أشهب كالفأر، فتى أشهب كالفأر، وهؤلاء يُحكُّ بعضهم لبعض في خمسة من الرؤوس، وينقبون في المحل، وقد بات من الواجب عليهم أن يتناولوا مكنسة، لكي يرَوْا هنا شيئاً ما، على أَنَّ صمام أمان كان خليقاً أن يفعل ذلك، وكان فرانتس ومِلك يرقبان من مائدتهما، متوتّرين مشوقَيْن، الإخوة الخمسة، وما سيفعلونه، وكيف سيقعدون الآن، معاً، إلى مائدة واحدة.

وبعد ربع ساعة سوف يأتي راينهولد، لنفسه، بفنجان من القهوة، وقدح من شراب الليمون، وسوف ينظر في هذه الأثناء إلى الحجرة نظرة حادّة، ومَنْ تُراه سيضحك منه في هذه الأثناء ويغمز له بعينه؟ بربّك لا تفعل، يادكتور لوبّه، فإن هذا كبير العُمُد في نورنبرغ، لأنه يترتَّب عليه في هذه الظهيرة، بمناسبة «الذكرى السنوية لدورَرْ»، أن يلقي كلمة الترحيب والتحية، وتحدَّث بعده وزير داخلية الرايخ، الدكتور كويْدِلّ ووزير الثقافة في بافاريا، والدكتور غولدن برْغر. ولهذا السبب ونتيجة لذلك، ما عاد يوجد اليوم هنا، كما أنه معوَّق. ثم إن حبوب السُّكَر التي تُمْضَغ والتي تحمل اسم رايلي، ب. ر. تفضي إلى أسنان سليمة معافاة، ونَفَس نقيّ كالهواء الطلق، وهضم أفضل. إنه مجرد فرانتس بيبركوبف الذي يبتسم ابتسامة صفراء تغطي الوجه بأسره، وإنه ليُسَرُّ أيَّما سرور إذ يُقْبِل راينهولد، فهذا موضوعه

التربويّ وهذا ربيبه الذي يستطيع أن يقدمه الآن، ذات مرة، إلى صديقه مِكْ. ألا فانظر كيف يأتي هذا، فإننا نمسك بزمامه، وراينهولد يجتذب من يجتذب، بقهوته وبشراب ليمونه، وهو يجلس إليهم ثم ينكمش على نفسه، على عجل، وإلى حد بعيد، ويتلعثم قليلاً. أمّا فرانتس فيودُّ لو يجسُّ نبضه، في محبة وشوق وفضول، ويفترض أن يسمع هذا مِكْ: «كيف تسير الأمور يا تُرى، في البيت، يا راينهولد، أترى كل شيء مشرقاً زاهيا طافحاً بالبشر والحيوية:

«ما علينا، الساحرة موجودة، ونحن نتعوَّد ذلك» ويقول هذا ببطء شديد، إذ يقطُر مثل تمديد للماء مسدود. كلاّ، فإنّ فرانتس لسعيد، وإنه ليكاد يحلّق في الأعالي، ويشعر أنه مسرور قرير العين. هذا ما أنجزه، من تُراهُ يكون سوايَ أنا، وهو ينظر إلى صديقه مِكْ نظرة مفعمة بالبِشْر، وهو الذي لا يَضِنُّ عليه بالإعجاب. «ماذا، يامِكْ، إننا ننشئ النظام في العالم، ونحن نقذف بالقضية ونطرحها بعيداً، إذا يفترض أن يأتينا امرؤٌ ما» ويربِّت فرانتس على كتف راينهولد الذي يختلج مرتداً إلى الوراء: أنت ترى حقاً، أيها الفتى، أنه لابُدَّ للمرء أن يستجمع شتات نفسه، ثم يخرج إلى الدنيا، وأنا أقول دائماً: «إنه التماسُك واستجماع شتات النفس، والصمود والجَلَد، ثم ينبغي للمرء أن يأتي» على أن فرانتس لا يستطيع أن يقرَّ عيناً بالقدر الذي يكفيه، حيال راينهولد، فالخاطئ النادم التائب أفضل من تسعمائة وتسعة وتسعين من ذوي العدل والاستقامة.

«وماذا تقول الساحرة يا تُرى، أوَ لا تتولاّها الدهشة من أنَّ كل شيء يسير بسلام؟ وأنت، أيها الآدميّ، ألست مسروراً من تخلُّصك الكامل من الغيظ والاستياء من النساء؟ يا راينهولد، النساء طيّبات وفي وسعهن أن يمارسن المعابثة والمُزاح. ولكن هل ترى، عندما تسألني عما أظن بالنساء بعد هذا، عند ذلك أقول: إنه لا يحسن أن يكون هناك القليل منهن، ولكن لا يحسُن أن يكون هناك منهن الكثير إلى حد الإفراط. فحين يكون هناك الكثير منهن، هنالك يعد هذا خطيراً، أن ينفض المرء يديه من هذا. هنا تستطيع أن تسألني أنا عن ذلك، أحدثك عن أغنية من الإيدا، جنة الفردوس، تريبتوف، وقبقاب الانزلاق ثم مدينة تيغِل أما النصر فقد خَفَتَ وقع

أقدامه، وتلاشى، فلتشرب، «سوف أساعدك، يا راينهولد، على أن يؤدي هذا وظيفته مع النساء. هنالك لا تحتاج إلى الذهاب إلى جيش الخلاص، فنحن نؤمّن كل شيء على نحوٍ أفضل، كلاّ، في صحتك، يا راينهولد. سوف تتحمل قدحاً كبيراً آخر من البيرة»، فقرع هذا قدحه، في سكون، بفنجان قهوته: «ما الذي تستطيع أن تؤمّنه، يا فرانتس، لماذا، ولماذا؟».

يالها من مصيبة، لقد كنت خليقاً أن أزجي الوقت في الهذر واللغو «أنا أقصد هذه الطريقة فحسب، ففي وسعك أن تعتمدي عليّ، ولا بُدَّ لك أن تعوّدي نفسك على الخمر، وعلى الكراوية الخفيفة». ويقول الآخر وهو ساكن: «ما من شك في أنك تريد أن تمثل لديَّ دور الدكتور؟» «ولم لا. ولي في هذه المسائل قدمٌ راسخة ومعرفة عميقة، وأنت تعرف بلا ريب، يا راينهولد. لقد أعنتك بسيللي، وقبل ذلك ألا تثق بي، وبأنني أقف إلى جانبك الآن؟ أمّا فرانتس فما زال صديق البشر، وهو الذي يعرف في أي اتجاه يمتد الطريق».

ويرفع راينهولد طرفه، ناظراً إليه بعينيه المحزونتين: «هكذا، أنت تعرف هذا» أما فرانتس فيثابر على مَدّ بصره باتجاه الخارج، ولا يسمح بما يكدّر صفو سروره، وهو الذي يستطيع أن يلاحظ بهدوء شيئاً ما، ولا يستطيع إلاّ أن يتلقّاه لقاءً حسناً، حين يلاحظ أن الآخرين لا يسمحون بأن تتمَّ قَولَبَتُهم. «أجل، هنا يستطيع مِلْك أن يؤكّد لك، أن لنا تجاريب خلّفناها وراءنا عليها نبني ما نبني، ثم بالعَرَق، يا راينهولد، حين تحتمل هذا، عند ذلك نحتفل هنا بعيد، على حسابي، فسأدفع فاتورة السَّلَطة بأكملها. ومازال راينهولد ينظر إلى فرانتس الذي كان ارتفع بصدره، وإلى مِلْك القصير الذي يتأمله بفضول وشوق. ثم إن راينهولد يخفض بصره، ويبحث في فنجانه، منقّباً، قائلاً: «ما من شك في أنك تودُّ تقويم اعوجاجي وتحويلي إلى زوج شائه ذي عاهة؟» «في صحتك، يا راينهولد، فإن من المفروض أن يعيش الزوجان الشائهان من ذوي العاهات، ثلاثة في ثلاثة، تسعة، إننا نشرب الخمر كما تشرب الخنازير، فغنِّ معي، يا راينهولد، كل بداية صعبة، ومع ذلك فلولاها لما كان ثمة نهاية».

ألا فليتوقف هذا كله، مشكّلاً في أرتال وصفوف، ثم الانعطاف يميناً، فالمسير، ويخرج راينهولد صاعداً من فنجان قهوته. ثمْ، هذا الفتى ذو الوجه المكتنز يقف إلى جانبه ويهمس إليه بشيء ما، ويهز راينهولد كتفيه، ثم ينفخ بصوت كصوت الطبل خلال الدخان الكثيف، ويطلق لعقيرته العنان بصوت كنعيق الغراب، مسروراً: «لقد سألتك ذات مرة، ياببيركوبف، كيف حال هذا معك، هل تزمع مواصلة الجَرْيِ بضاعتك الورقية؟ وما الذي يكسبه المرء من ذلك، قطعة من فئة القرشين، الساعة بخمسة قروش، أليس كذلك» ثم إن هناك اندفاعاً في الطريق جيئة وذهاباً كما يُفْتَرَض أن يأخذ معه عربة خضار، وهذا بومْز يتولّى توريد السِّلَع والدخل ممتاز، أما فرانتس فيريد ولا يريد، مرة أخرى، إن هؤلاء ليضربونني على أذني أما راينهولد، المتلعثم، فيخلد إلى الصمت في الخلفية، وحين يسأله فرانتس عن رأيه، يلاحظ أنه كان ينظر إليه على الدوام، والآن فحسب يعود إلى النظر في الفنجان. «ما علينا، ما رأيك يا راينهولد» فيقول هذا متلعثماً: «أجل، سوف أشارك في ذلك» وحين يقول مِكْ: : «ولِمَ لا يكون هذا، يا فرانتس، إذا أراد فرانتس أن يفكر في ذلك لنفسه، فهو لا يريدَ أن يقول لا ولا يريد أن يقول نعم، بل يريد أن يأتي غداً أو بعد غد، ويناقش المسألة مع بومز، وكيف يكون الحال مع السلع والذهاب للمجيء بالسلع، وتسوية الحسابات، وما هي المنطقة التي تعدُّ الأفضل.

لقد انصرفوا جميعاً، أما المحل فيكاد يكون خاوياً، وأمّا بومز فقد انصرف، وأمّا مِكْ وببيركوبف فقد انصرفا، ولا يوجد إلاّ عند منضدة صبّ الخمور واحد من العاملين في الحافلة الكهربائية، وهو يتفاوض مع المضيف حول الحسومات من الأجور التي تعد مرتفعة فوق ما ينبغي، هنالك يقعد المتلعثم، راينهولد، القرفصاء، في مكانه، وإذ بثلاث من زجاجات عصير الليمون الفارغة ينتصِبْن أمامه، وقدح نصف ملآن وفنجان من القهوة. ولا يذهب إلى البيت. ففي البيت تنام الساحرة الشقراء، ويفكر مليّاً وينقّب، فينهض قائماً ويسير الهوينى في المحل وقد تدلى الجوربان الصوفيّان منه فوق الحافّة. ويبدو هذا الإنسان بائساً، أصفر شاحباً، وحول فمه الخطوط المنفرجة والتجاعيد العرضية المُفْزِعة فوق محيّاه، ويأتي لنفسه، بفنجان

من القهوة، وبقدح من عصير الليمون. ويتكلّم يرميا فيقول: «ألا لُعن الرجل الذي يتوكّل على الناس، والذي يتخذ من الجسد مستنداً له، والذي يرتدُّ قلبه عن الله. إنه يحاكي رجلاً مهجوراً في السهوب ولا يحس بمَقْدَم الخير حين يجيء. إنه يمكث في الجَدْب والقحط، في الصحراء، على الأرض المِلْحيّة، غير المأهولة، وليتبارك، وليتبارك، وليتبارك، الرجل الذي يثق بالله، وتكون السيادة لثقته به، فهو يضاهي شجرة زرعت لدى الماء، تمتد جذورها في الجدول، وهي لا تحِسُّ مَقْدَم الحرارة، إذ تظل أوراقها خُضْراً، وهي تستطيع أن تظل، في سنة القحط، غير مهمومة، إذ إنها لا تمسك قط عن حمل الثمار. فالقلب مخادع، فوق كل شيء، وفاسد، ومن تُراه يعرف ذلك؟

الماء في الغابة الكثيفة، السوداء، أنتن ترقدن في صمت بالغ، ترقدن هادئات مثمرات، والسطح العلوي لديكن لا يتحرك، والنُّسُج العنكبوتية بين الأغصان تتمزَّق، عندما تحدق العاصفة بالغابة، ويفلت عنان تطايُر الشظايا، وتأخذ أشجار الصنوبر في انحنائها، ثم ترقُدْن في الأسفل، في المرجل، في مائكن الأسود، وتسقط الأغصان.

والريح تشدُّ أعصاب الغابة حتى تضنيها. أما أنتنَّ فلا تتغلغل العاصفة نازلة إليكُن، وليس لديكنَّ، على أرضكن، تنِّين، فقد ولى عصر فِيَلَة الماموت، وما من شيء يمكن أن يكون هنا، مّما يمكن أن يبعث الفزع فينا. والنباتات تتعفَّن فيكن، والأسماك والقواقع يتحركن، ولا شيء بعد ذلك، ولكن على الرغم من هذا، على الرغم من أنكن لستن إلاّ ماءً، فأنتن رهيبات، مياه سود، مياه هادئة إلى حد رهيب.

الأحد، في الثامن من نيسان ١٩٢٨

«إذا كان هناك ثلج، فربما أصبح أبيض مرة أخرى، في نيسان؟ وكان فرانتس بيبركوبف يقعد لدى نافذة دكانه الصغير مُسْنِداً ذراعه اليسرى إلى لوح النافذة، واضعاً رأسه في يده وكان الوقت بعد الظهيرة من يوم الأحد، دافئاً، إلى الحد

المريح، في الحجرة، وكانت سيللي قد دَفَّأت الحجرة في منتصف النهار، والآن كانت تنام في الخلف، في السرير، مع قطتها الصغيرة.

«هل يوجد ثلج؟ إنه هواء قاتم إلى حد بالغ، وقد كان خليقاً أن يكون جميلاً تماماً».

وحين أغمض فرانتس عينيه، سمع الأجراس تُقْرَع، وقد قعد طوال دقائق، ساكناً، وكان يسمعها تُقْرَع، بُمْ، بِمْ، بُم، بِمْ، بام، بُمْ، بُمء، بِمْ، إلى أن رفع رأسه عن يده، وجعل يسمع: لقد كان هذانَ جرسان مكتومين وصادِحَين، ثم توقَّفا.

لماذا يُقْرعان الآن، كذلك كان يسائل نفسه. هنالك بدأ دفعة واحدة من جديد، بقوة بالغة، وكان هناك جَلَبة رهيبة، ثم توقَّفا، وساد السكون بضربة واحدة.

وتناول فرانتس ذراع لوح النافذة، ودخل الحجرة، وكانت سيللي قاعدة على السرير وفي يدها مرآة صغيرة، وكان بين شفتيها دبابيس لخصلات الشعر، وجعلت تُدَنْدن مسرورة حين وصل فرانتس. «ما الذي حدث اليوم، يا تُرى، ياسيللي، أهذا يوم جمعة؟» وكانت تعمل في تزيين رأسها. كلاّ، بل هو يوم أحد» «أوَ ليس يوم عطلة؟» «ربما كان يوم عطلة كاثوليكيّاً، لست أدري» «وذلك لأن الأجراس تُقْرَع على نحوٍ بعيد أشدَّ البعد عن المألوف» «أين؟» «هنا، بالطبع» «لم أسمع شيئاً، هل سمعت شيئاً، يا فرانتس؟» «كلاّ، فقد أرعدت السماء رعداً حقيقياً، بمثل هذه الفرقعة والجَلَبة، أما أنتَ فكنت تحلُم بلا ريب، أيها الآدمي، إنه فزعي وجَزَعي.

«كلاّ، أنا لم أعلم، بل كنت أقعد ههنا» «لا شك في أنك غَفَوْتَ إغفاءةً ما». «كلاّ» وظل ملازماً لذلك، وكان جامداً كل الجمود، وكان يتحرك ببطء وقعد في مكانه، إلى المنضدة. «ما الذي يحلم به الناس من أمور. لقد طالما سمعت بذلك». وصبَّ جرعة من البيرة، ولم يزاوله الفزع.

وكان يبعث بنظراته إلى سيللي، في الجهة المقابلة، وهي التي كانت تبدو ميّالة إلى البكاء تماماً: «من يدري، ياسيللي الصغيرة، ذلك الذي حدث له هذا على أية

حال» وسأل عن الصحيفة واستطاعت أن تضحك. «لا ريب في أنها غير موجودة الآن، عدد الأحد لا يوجد أبداً، أيها الآدمي».

وجعل يبحث في الجريدة الصباحية، وينظر إلى العناوين: «إنما هي جملةٌ من صغائر الأمور وسَفْسافها. كلاّ، هذا كله ليس بشيء. لم يحدث شيء على الإطلاق» «حين يقرعِ الجرس لديك، يا فرانتس، هنالك سوف تذهب إلى الكنيسة، بلا ريب». «واعجباً لك، دعني مع القساوسة. هنا لا يكون ثمة شيء مشترك بينه وبيني، في المدني، وما من شك في أن هذا مضحك للغاية: فالمرء يسمع شيئاً ما، وعندما يمعن النظر لا يكون ثمة شيء بعد ذلك». وفكَّر مليّاً، وقال، وهي تقف إلى جانبه، تداعبه، سوف أنزل الآن، أتنشق الهواء، ياسيللي، سويعةً صغيرة. فأنا أريد أن أسمع ذات مرة، هل حدث شيء ما. وفي المساء توجد جريدة دي فيلت، أو جريدة مونتاغ مورغن. وهنا يترتَّب عليّ أن أرى ذات مرة «كلاّ، بل أنتَ، يا فرانتس، وهذا البحث والتنقيب سوف يَرِدُ فيه: عربة قمامة تعطَّلت عند باب برنتسلاوْ، وإذا القمامة كلها تندلق، أو: انتظر هنيهة: لم يكن بُدٌّ، لبائع الصحف أن يبدِّل العملة، وقد سَلَّم بالأمر كل التسليم، جرّاء السهو والخطأ».

وضحك فرانتس: «كلاّ، الآن أذهب، الوداع ياسيللي الصغيرة»، «الوداع يا فرانتس» وعلى أثر ذلك نزل فرانتس، رويداً رويداً على السلالم الأربعة، ولم يَرَ سيللي مرة أخرى.

وكانت قد انتظرت في الحجرة حتى الخامسة، وحين لم يأتِ خرجت إلى الشارع وظلت تسأل عنه في المقاصف حتى بلغت ناصية بْرِنْتْسلاوْ. ولم يكن موجوداً في أي مكان هنا، غير أنه أراد أن يتابع، في مكان ما في الصحيفة، ، قراءة قصته المنطوية على السذاجة والغباء، وما كان حَلِم به، كما كانت تقول في نفسها. لا شك في أنه ذهب في اتجاه معيَّن، كائناً ما كان. وعند ناصية برنتسلاوْ قالت المضيفة: «كلاّ، إنه لم يكن هنا، ولكن السيد بومز سأل عنه، وعند ذلك قلت له أين يسكن السيد بيبر كوبف، ولا بُدَّ أنه سيكون قد ذهب إلى هناك» «كلاّ، لم يكن عندي أحد» ربما لم يجده» «أجل» «أو ربما لَقِيه قبالة الباب».

عند ذلك قعدت سيللي هنا حتى ساعة متأخرة من المساء، وامتلأ المقصف، وظلّتْ تنظر إلى الباب. وفي مرة من المرات جَرَت إلى المنزل وعادت أدراجها من جديد، ولم يأتِ سوى مِكْ، فجعل يواسيها، ولبث يمازحها ربع ساعة. وقال: «إنه لا يلبث أن يعود، فقد اعتاد هذا الفتى على طعام المساكين، فلا تحملي همّاً بربك، أيتها المخلوقة، ياسيللي». ولكن بينما كان يقول هذا خطر بباله كيف قعدت لينا ذات مرة على جانبه، وكانت قد بحثت عن فرانتس، في تلك الأيام، مثلما حدث مع لودَرْز، مع شريط الحذاء، وقد كان خليقاً أن يذهب، هو ذاته معها، عما قريب، حين سارت سيللي من جديد في الطريق المظلم المُوحِل، غير أنه لم يُرِد أن يخيفها، وربما كان كل شيء ضرباً من الهذر واللَّغو.

وفجأة جعلت سيللي، وهي في حالة غضب، تبحث عن راينهولد، وربما كان هذا قد فرض، من جديد، على فرانتس، صورة لخضراء الدِّمَن، وتركها فرانتس تقعد، ببساطة، وكان دكان راينهولد مغلقاً، ولم يكن ثمة آدميّ، كلاّ، ولا حتى الساحرة.

وخرجت تمشي الهوينى، من جديد، إلى المقصف، فإلى ناصية برينتسلاوْ، وكان لا تفتأ تعود أبداً إلى المقصف. وبات الثلج يُسّاقط، ولكنه كان يذوب، وِفي ميدان الإسكندر كان باعة الصحف ينادون: «مونتاغ مورغِن»، «دي فيلت أمْ مونتاغ»، واشترت لنفسها، من بائع صحف غريب، صحيفة، ونظرت فيها بنفسها، لعلها ترى هل حدث شيء ما، وهل كان على حق بعد ظهر اليوم. كلاّ، إنه حادث جرى في الخط الحديدي، في الولايات المتحدة، في أوهايو، واصطدام بين الشيوعيين وبين حملة الصليب المعقوف، كلاّ، فهنا لا يشارك فرانتس، مع اشتعال نار كبيرة ألحقت أضراراً في فيلمزدورف، فما الذي ينبغي لي عمله حيال هذا، وكانت تتسكّع مارّة ببيت تيتْس المُشْرِق، وانطلقت تعبر الجسر لتصل من ورائه إلى شارع برينتسلاو المظلم، وكانت تسير من دون مِظَّلة، وكانت قد اخضَّلت وتبلّلت على نحو كامل، وقد وقفت عند شارع برينتسلاور قبالة محل الحلويات الصغير مجموعة من فتيات الشوارع تحت المظلات، وكانت تسدُّ حركة المرور.

وكان يتحدث، وراء ذلك مباشرة، رجل بدين من دون قبعة برز من دهليز من دهاليز المنزل، ومرت على عجل، غير أني أتقبَّل الأوَّل، وما عسى أن يقول الفتى في نفسه، ياتُرى. مثل هذا الشيء المشترك لم يسبق له ورودٌ بعد.

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة وثلاثة أرباع الساعة. إنه يوم أحد رهيب. ففي هذا الوقت كان فرانتس يرقد في منطقة مدينة أخرى على وجه هذه الأرض، ورأسه في حجر الميزاب، وساقاه على الرصيف.

وينزل فرانتس على السُلَّم، درجةً ثم درجة، ثم درجة ثالثة، ودرجة، ودرجة ودرجة. أربعْ درجات، وهو النزول إلى ألأسفل دائماً، فإلى ألأسفل، ثم إلى ألأسفل، وإلى مزيد من الأسفل، ويتبلَّد حِسّ المرء ويفقد انتباهه إلى ما يحيط به، وتَنْسَدُّ منافذ التفكير في رأسه، هل تطبخين الحساء أيتها الآنسة شتاين، ألديك ملعقة، أيتها الآنسة شتاين، ألديك ملعقة، أيتها الآنسة، هل تطبخين الحساء، أيتها الآنسة شتاين، كلاّ، فما من شيء يمكن عمله لديّ، هل تعرَّفْت لدى اللئيمة خضراء الدِّمَن، لا بُدَّ للمرء من الذهاب إلى حيث الهواء الطلق، إنه درابزين السُلَّم، وما من إضاءة ملائمة هنا، وإنه لمن الممكن أن يغرس المرء في جسده مسماراً.

فإذا انفتح الباب في الطابق الثاني جاء وراءه رجلٌ ثقيلُ وَقْعِ الخُطا، ولكن لا بُدَّ أن يكون ثمة كَرِش لمن ينفخ الهواء من فمه هذا النفخ، ويضيف إلى ذلك بعدُ ما يحدث أثناء النزول على السُلَّم، وفي الأسفل يقف فرانتس بيبركوبف قبالة الباب، والهواء قاتم داكِن، رَخِيّ، ولا تلبث السماء أن تُساقِطَ الثلج، ثم إن الرجل الذي يقوم على أمر السِلم، ينفث الهواء إلى جانبه، وثمة رجل قصير القامة اسفنجيّ، هشّ، مترهِّل، له وجه أبيض منتفخ، يعتمر قبعة من اللباد خضراء. «ما من شك في أن هذا لا يكاد يصل عندك إلى ما يتجاوز الصدر، ياسيدي الجار؟» «أجل، الدسم، والإكثار من صعود السلالم»، ويذهبان معاً على طول الطريق. أما قصير النَّفَس فينفث الهواء قائلاً: اليوم يوجد من السلالم ما يبلغ حاصل ضرب خمسة في أربعة. فلتحسُب ولتُقَدِّر: عشرون سلَّماً، في كلٍّ منها ثلاثون درجة في المتوسط، أما السلالم الحلزونية فأقصر، غير أن اجتيازها أصعب، أي أنّ هناك ثلاثين درجة،

وخمسة سلالم، ومائة وخمسين، درجة، فمنها العلوية ومنها السفلية» «وهنّ في الحقيقة ثلاثمائة. ذلك لأن هذا يجدك في الأسفل» ولاحظت، أنه يصح، في الأسفل، وبدونه» وأنا خليق أن أبحث عن مهنة أخرى».

وكانت السماء تُساقِط الثلج نُدَفاً ثقيلة، ويلتفتون، فمن الجميل أن يرى المرء هذا، «أجل، سوف أذهب لأنشر إعلاناً، ولا بد لي من هذا الآن، وهذا لا يسفر عن حياة يومية ويوم عطلة، بل إنه ليسفر، أكثر ما يسفر، عن يوم عطلة. ويوم العطلة هو الأكثر إعلاناً عنه. وهنالك يَعِدون أنفسهم بهذا، أكثر ما يعدونها» أجل، لأن القوم يتوافر لديهم الوقت لقراءة الصحف». أنا أفهم، حتى من دون نظارة. أنظر في باب اختصاصي» «هل تنشر إعلانات؟» «كلاّ، فأنا لست سوى بائع صحف. «والآن أريد أن أذهب لأطالع إحداها» «كلاّ، فقد طالعتُهُنَّ جميعاً. مثل هذا الطقس. هل سبق أن رأيت ذات مرة شيئاً كهذا» «إنه نيسان، بالأمس كان ما يزال جميلاً، أنتبه، غداً يعود مشرقاً كل الإشراق، من جديد، أهو رهان». «إنه يستهلك ذاته، بالنفخ، والنفْث، من جديد، المصابيح تتَّقد، وهو يستخرج، على ضوء مصباح، دفتر مذكرات من دون غلاف، ثم يبعده عن نفسه كل الإبعاد، ويقرأ فيه. يقول فرانتس: «سوف ينتابك الملل». ولا يسمع هذا» فيدس الكراسة في مكانها، وينتهي الحديث، ويفكر فرانتس قائلاً: «سأودِّع، هنالك ينظر إليه القصير من تحت قبعته الخضراء: «ألا فلتقل لي، ياسيدي الجار، ممّ تعيش في الحقيقة؟» «ولماذا تقول هذا؟ أنا بائع صحف، بائع صحف حر» «هكذا، ومن هذا العمل تكسب قوتك؟» «ما علينا، الأمور تسير كما ينبغي أن تسير» «وما الذي يبتغيه هذا هناك، عكازاً ظريفاً «أجل، أنتَ، لقد كنت أريد هذا، على الدوام، أن أكسب معيشتي، في مكانٍ ما، بحرية، ولا بُدَّ أن يكون هذا جميلاً، بلا ريب، فالمرء يفعل ما يحلو له، وحين يكون المرء بارعاً، هنالك تستقيم الأمور» «وفي بعض الأحيان لا تستقيم، غير أنك تجري، وتسعى، بما فيه الكفاية، حقاً، ياسيدي الجار. اليوم، الذي يصادف الأحد، ومع مثل هذا الطقس، اليوم لا يوجد أناس كثيرون» «هذا صحيح، هذا صحيح، فأنا أظل أعدو شطراً من النهار، ولا تصل المسألة إلى ما أبتغيه، لا تصل إلى

ما أبتغيه. والناس في هذه الأيام يعانون من قلة المال بين أيديهم» «ماذا تبيع ياسيدي الجار، إذا سمحت لي بهذا السؤال؟» «لديّ معاشي التقاعديّ الضئيل، لقد أردت، على أية حال، كما ترى، أن أكون رجلاً حراً، وأن أعمل، وأكسب قوتي. أجل فمنذ ثلاث سنوات بات لديّ معاشي التقاعديّ. وكان قد طال بي العهد وأنا أعمل في البريد، والآن أعدو، وأجري، وعلى هذا: فأنا أقرأ في الصحيفة، ثم أروح وأغدو، وأنظر ما يعلن عنه الناس» «ربما كان هذا أثاثاً؟» «ما يوجد، من أثاث مكتبيّ مستعمَل» «وربما كان جناحاً حجرياً من الصفيح وآلة موسيقية تشد الجناح، أو سجاجيد عجمية قديمة، أو أجهزة بيانولا، أو مجموعات من الطوابع البريدية، أو عملات، أو خزانة من المخلّفات» «كثير من الناس يموتون. «صدمة كاملة، عملات، لا بأس، ثم أصعد وأنظر، ثم أشتري أنا كذلك» «ثم تُواصِلُ أنت البيع، فأفهَمْ».

وعلى أثر ذلك أخلد المصاب بالربو إلى الصمت من جديد، فدسَّ نفسه في معطفه، وكانوا يتسكّعون خلال الثلج الرقيق. هناك جاء، عند المصباح التالي، المصاب البدين بالربو برزمة من البطاقات البريدية، من حقيبته، ورأى فرانتس متكدِّراً، ودسَّ اثنتين منهما في يده. اقرأ، ياسيدي الجار» وكان يُقْرَأ على البطاقة: «ب ب، تاريخ خاتم البريد. يؤسفني أن أضطر إلى إبلاغك بعد ولي عن الاتفاقية المُبْرَمة بالأمس بسبب ظروف معاكسة، مع فائق الاحترام، بيرنهارد كاوَر» «أنت تسمى كاوَر؟» «أجل، فقد تمَّ سحبه بجهاز للنسخ، وقد كنت اشتريت هذا لنفسي ذات مرة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي كنت اشتريته لنفسي، وبه اصطنع لنفسي النسخ وحدي، ويستطيع المرء أن يصطنع من النسخ خمسين في الساعة» «إن ما تقوله. كلاّ، ما الذي يفترض أن يعنيه هذا الآن في الحقيقة». هذا الفتى ليس على ما يرام في عقله، ثم إنه يغمز بعينيه شأن المُغازِل. فأقرأ، بربك: الانسحاب بسبب الظروف غير المواتية. فأنا أشتري ما أشتريه ولا أستطيع أن أدفع ثمنه بعد ذلك، ولا يُسلِّم الناس البضاعة من دون دفع، ولا يستطيع المرء أن يحمل هذا منك على محمل السوء. وأنا أظلّ، المرة بعد الأخرى أجري نحو الأعلى، وأشتري، وأبرم

الاتفاقات، وأَقَرُّ عيناً، كما أن الناس يقرّون عيناً، لأن أمور العمل والتجارة تسير بسلاسة بالغة، وأنا أتصوَّر نوع السعادة الذي يتوافر عندي فهناك أشياء فائقة الجمال، ومجموعا من العملات رائعة، وقد يكون في وسعك أن تُحَدِّثنا عنها بعض الحديث، أولئك الأقوام الذي ليس في حوزتهم مال، وهنا أصعد نحو الأعلى وأنظر في كل شيء، كما أن هؤلاء يقصّون عليَّ على الفور، ما حدث، ويحدثونني عن ماهية ذلك البؤس الذي يشيع بين الناس، حين يشعرون، بالحاجة الماسّة إلى بضعة قروش يدسّونها في أَكُفِّهم، ولقد اشتريت منهم في المنزل بعض ما اشتريت فالقوم يشعرون بالحاجة الماسة إلى آلة للعَصْر، وثلاجة صغيرة، بل يشعرون بأنهم يودّون لو يشترون كل شيء، ولكن في الأسفل، هناك تدهمني الهموم الثقيلة المُمِضّة: فليس لديّ من المال شروى نقير» «وأما الرواج فلا شك في أنه يتوافر لهم رواج ينتزع منهم بضاعتهم. فتوقّف عند هذا، يا رجل، واكتفِ به، فها أنذا قد اشتريت لنفسي آلة النسخ، وبها أنسخ البطاقات البريدية، وتكلفني كل بطاقة خمسة قروش. وهذه مازالت من قبيل المصروفات الإضافية، ثم تكون الخاتمة والنهاية». .

وفتح فرانتس عينيه إلى أقصى حدودهما: «الآن عِيلَ صبري، ياسيدي الجار، ما من شك في أن هذا لا يمكن أن يكون جانبَك الجِدّي» «النفقات النثرية، التي أُقلِّصها في بعض الأحيان، هنالك أوفِّر خمسة قروش، وأقذف للناس، فور خروجي، ببطاقتي في صندوق بريدهم». «وتظل السيقان تجري إلى أن تفنى، ولا يتاح إلاّ القليل من الهواء. ولكن من أجل ماذا، يا تُرى؟»

وكانا في ميدان الإسكندر.

وهنا حدث تجمُّع وتجمْهُر، فتقدّما، ورفع القصير طرفه إلى فرانتس، مغضباً، وقال «ها أنت ذا تعيش على خمسة وثمانين ماركاً في الشهر، ولا تحرز تقدُّماً» ولكن أيها الآدمي، لا بُدَّ أن تهتم بالرواج، وإذا شئت فسوف أستعلم ذات مرة عن ذلك لدى معارفي» «هذا كلام فارغ، فأنا لم أكلفك بشيء على الإطلاق، فإني أنجز أعمالي وصفقاتي وحدي، ولا أدبِّر صفقات بين مجموعات». وكانوا في وسط الحشد والتجمهر، وكان هناك تبادل مألوف للشتائم، وكان فرانتس يبحث

عن الرجل القصير ، الذي كان قد انصرف وتوارى ، وإذا كان هذا يتابع عَدْوَه ، هنا وهناك ، فقد كان فرانتس يندهش ، قائلاً: لقد فوجئت بذلك مفاجأة لا مفاجأة بعدها. فأين تعاستي الآن؟ ودخل مقصفاً صغيراً ، وتناول رغيفاً بالكراوية ، وجعل يستعرض خطوات تقدمه ، مؤشراً محلياً ، ما عاد يكمن في الداخل أكثر مما يكمن في الخبر الطيِّب عن الأَرَضة. وهو يقدم هنا سباقاً كبيراً في إنجلترا وفي باريس ، وربما ترتَّب عليهم هنا أن يدفعوا مبالغ لا يستهان بها. ومن الممكن أن تكون هذه تمثل سعادة كبرى ، إذا كان لهذا مثل هذا الوقع في الأذن.

ثم إنه يوشك أن يذهب إلى البيت ويتحوَّلَ إلى الوجهة المعاكسة. هنالك يضطر إلى عبور السد الترابي ليرى ما حدث في غمرة الزحام. إنه قَديدُ التيس الكبير ، مع السَلَطة! أيها الفتى صباح يوم الاثنين ، العالم ، العالم يوم الاثنين!

ماذا تقول في كلا الرجلين اللذين ، يتلاكمان ، وقد انقضي الآن نحو نصف ساعة ، وما من سبب ، أيها الآدميّ ، هنا أزمع البقاء حتى الصباح ، وأنتَ ، لقد اشتركت ، بلا ريب في الوقوف في المكان المحدد للوقوف ، لكي تفرض نفسك على المكان بهذه الطريقة ، كلاّ ، فما كان تافهاً لا يستطيع أن يفرض نفسه على المكان ، على الوجنة ، أُرْفُس مرة! فيوجه هذا إليه ضربة موجعة.

ومثلما شق فرانتس طريقه وسط الزحام حتى وصل إلى الجهة الأمامية ، مَنْ تُراه يلاكم الآنَ ، ومع من يلعب؟ إنهما فَتَيان يعرفهما ، بلا ريب ، وهذا يعدُّ شيئاً ، بومز ، ماذا تقول الآن ، والطويل يطرح المتردي في صندوق التعرّق ، ثم يطرحه في غمرة الجولة التالية ، وأنت تسمح لمثل هذا أن يطرحك أرضاً ، أتُراك أدنى منه ولستَ له بكفؤ. ما الذي يفترض أن يعنيه هذا الزحام ، وأنتم ، الويل لكم ، يارجال الشرطة ، الخضر ، رجال الشرطة رجال الشرطة ، تنسلّون مولّين الأدبار ، في غفلة من أعين الرقباء ، وقُبّعات المطر على هاماتكم في غمرة الزحام ، يطلق ساقيه للريح ، أما الثاني ، وهو الطويل ، فلا يأتي طوله مماثلاً ، وقد أوتيَ عنفواناً في أضلاعه ، ولكنه عنفوان حسن ، كما ينبغي أن يكون. هنالك يشق فرانتس طريقه متقدماً بين الصفوف إلى الأمام تماماً ، لن أدع الرجل أبداً راقداً ، فهذه جماعة ، ولا يلمسنَّه أحد ، وإذا

فرانتس يتناوله فيجعله تحت ذراعه، وينطلق به بين الناس، وجعل الخضر يبحثون، ما الذي حدث هنا؟» «هل ضربوا اثنين» «فتفرّقوا، وواصلوا سيركم» هؤلاء ينعقون نعيق الغربان ويظلون أبداً يأتون متأخرين مقدار وقت تسليم بريد يوميّ. أما مواصلة المسير فقد أقدمنا عليه، ياسيدي الجاويش، ولا نريد إلا اجتناب الانفعال الزائد عن الحاجة.

ويقعد فرانتس مع الطويل في شارع برينتسلاو، في دهليز منزل واهن الإضاءة، ولا يبعد المنزل سوى رقمين عن أرقام المنازل، حيث سيبرز. بعد نحو أربع ساعات، رجل بدين حاسر الرأس، ويحادث سيللي بشيء من الهذر واللغو، وتواصل مسيرها ولا ريب في أنها ستأخذ الرجل التالي، مثل هذا الوغد، المدعو فرانتس، ألا إنها لوضاعة.

ويقعد فرانتس في دهليز المنزل، ويقول، وهويتأرجح، : والآن فأعمل، أيها الآدمي، على أن نتمكن من الخروج إلى المقصف، لا تحفِلَن بهذا، يا رجل، فما من شك في أنك سوف تحتمل هذه الشدة، وأغتسلِ يا رجل، وأجرف كل هذا الزفت مع الاغتسال». ويسيران في الشارع «الآن أُنزِلك أيَّ مقصف يتفق العثور عليه، يا إميل، لابُدَّ لي من الذهاب إلى البيت فعروسي تنتظر» ويصافحه فرانتس. هنالك يلتفت الآخر إلى الخلف مرة أخرى. «لقد كان في وسعك، في الحقيقة، أن تسدي إلي معروفاً، يا فرانتس، إذ يترتَّب عليَّ اليوم أن آتي ببضاعة مع بومز، فأجْرِ، بربك، مارّاً به، فما هي إلاّ ثلاث خطوات في الشارع، هَلُمَّ فاذهب» «وماذا ينبغي لي أن أفعل، أيها الآدميّ، ليس لديّ وقت» «إنه مجرد الطلب، فأنا لا أستطيع ذلك اليوم، وهذا ينتظر، وهو لا يستطيع أن يفعل، في العادة».

إلعنوا فرانتس، وانطلقوا، إنه جَوٌّ ما، وهو العمل والأداء دائماً، أيها الآدميّ، أنا أريد الذهاب إلى البيت، فأنا لا أستطيع، بلا ريب، أن أدع سيللي، في النهاية، تنتظر، مثل هذا القرد. ما من شك في أن الوقت الذي لديّ لم أسرقه سرقة، إنه يجري. وثمة رجل قصير يقف عند مصباح، يقرأ في كراسة. فمَنْ عسى أن يكون هذا في الحقيقة، ما من شك في أنني أعرفه. وها هو ذا بصره يتجه إلى هنا، على

الفور نحو فرانتس: «واعجباً، أهذا أنت، ياسيدي الجار، ما من شك في أنك ذلك الذي ينتمي إلى أجل، هنا تسلّم البطاقة، وبعد ذلك، حين تذهب إلى البيت، توفر أجرة البريد» ويدسُّ فرانتس بطاقة البريد في يده، التراجع نتيجة لظروف معاكسة، وعلى أثر ذلك يواصل فرانتس بيبركوبف تجواله بهدوء. أما بطاقة البريد فسوف يعرضها على سيللي، على أنه ليس في عجلة من أمره إلى هذا الحد على الإطلاق، وهو يَقرُّ عيناً بالفتى المجنون، بفريتس، عامل البريد الصغير، الذي يظل أبداً يعدو هنا وهناك وليس معه من مال، ولكن لديه طائراً، وهذا ما عاد طائراً عادياً مألوفا، بل هو من الدجاج الذي تجاوَزَ نُموه الحدَّ، والذي تستطيع أسرة أن تعيش من ورائه.

طاب نهارك، ياسيد بومز، وعِمْتَ مساءً أتُراك تعجَب من مجيئي إليك، فأي شيء: ما الذي ينبغي لي أن أقوله لك، . سأسير عبر ميدان الإسكندر. وهناك، عند شارع لانْدَزْبرغ، مُلاحاةٌ وتَشاتُم، وأنا أفكر في الذهاب إلى هناك ومَنْ أولئك الذين يتشاجرون هنا؟ ماذا؟ أنت إميل، الطويل، ومعك صغير يُسمّى باسمي، فرانتس، ولا تلبث أن تعلم» وعلى أثر ذلك يجيب السيد بومز قائلاً إنه قد فكّر، على أية حال في فرانتس بيبركوبف، ولاحظ منذ ظُهْرِ اليوم أنَّ ثمة شيئاً ما بين الاثنين.

«وعلى هذا فلن يأتي الطويل القامة، أنت تثب داخلاً إلى هنا، يابيبركوبف» «أوَ كنتَ أنا؟». «الساعة تتجه نحو السادسة، ويترتَّب علينا أن نأتي بالبضاعة في التاسعة. يابيبركوبف، اليومُ أحد، وليس أمامك على أية حال ما تفعله. أما المصاريف المترتِّبة عليك فسأعوّضك عنها، وهناك شيءآخر بعد، – كلاّ، فقُلْ إن كل ساعة بخمس ماركات». ويجنح فرانتس إلى التذبذب: «أيها الرجل ذو الماركات الخمسة» «كلاّ، فأنا معرَّض لضغط، وكلا الرجلين يتخليان عني في ساعة الضيق» «والقصير سوف يأتي». إذاً فقد اتفقنا، خمس ماركات هي مصاريفك، أجل، خمس وخمسون، ولا ينبغي أن أعوّل على ذلك.

ويضحك فرانتس في سريرة نفسه ضحكاً رهيباً وهو ينزل على السلالم وراء بومز، لقد كان هذا يومَ أحدٍ سعيداً وأيَّ سعادة، فمثل هذا لا يعرُض للمرء بسهولة ولا يتهيّأ له بسرعة، هذا إذاً حق وصدق، بلا ريب، فالأجراس تعني شيئاً ما.

الآن سوف أقبض ، كلاّ ، في يوم الأحد ، خمسة عشر ماركاً ، أو عشرين ، . وما الذي يوجد لديَّ في الحقيقة من مصاريف ، وأَقَرُّ عيناً ، والبطاقة الواردة من فريتس . ساعي البريد ، تطقطق في جيبه ، وهو يريد أن يودع بومز أمام باب المنزل ، هنالك تنتاب هذا الدهشةُ: «يا للعجب ، أنا أتصوَّر أنَّ من المتفق عليه ، ياببيركوبف» «وهو كذلك ، وهو كذلك ، وعليَّ المُعَوِّل . وليس عليَّ سوى الانتقال إلى الجهة المقابلة ، هل تعرف ، هيه ، هيه ، ما من شك في أن لديَّ عروساً ، هي سيللي ، وربما كنت تعرفها ، من راينهولد ، إذ كانت لدى هذا قبل ذلك ، وما من شك في أنني لا أستطيع أن أدع الفتاة وحدها طوال يوم الأحد ، على وجه الدقة في المبنى» «كلاّ ، يا بيبركوبف ، أنا لا أستطيع أن أطلق سراحك الآن ، ويتحطم بعدها كل شيء ، وأنا واقف هنا ، كلاّ وذلك بسبب أمور نسائية ، أو شيءٍ من هذا ، ياببيركوبف ، هذا أمر لا يبارِحُك» . هذا ما أعلمه ، فقد أدليت هنا ، ذات مرة ، بكلمة صادقة أستطيع أن أعتمد عليها ، ولكن من أجل ذلك على وجه الخصوص ، لن أَدَعَها قاعدةً هنا ، وهي لا تسمع ولا ترى ، ولا تعرف ، ما أصنعه» «والآن هَلُمَّ يا رجل ، فسوف أرى رأيي في ذلك .

وقال فرانتس في نفسه: «وما أصنع» . وسارا ، مرة أخرى إلى زاوية شارع برينتسلاو . وكان يقف هنا وهناك من قبلُ فتيات شارع ، هنَّ ، ذواتهن اللواتي سوف تراهن سيللي بعد بضع ساعات ، حين كانت تبحث عن فرانتس وتعاوِد البحث وتروح وتجيء ، تائهة . فالزمن يتقدَّم ، ويتجمَّع حول فرانتس أناس شتّى ، وسرعان ما سيقف على عربة وسوف يمد القوم أيديهم إليه ، والآن يفكر كيف يستطيع أن ينقل البطاقة البريدية ، من الفتى المجنون ، على وجه السرعة ، ويصعد بها ، بعد لحظة أخرى ، إلى سيللي ، فالفتاة تنتظر .

ويسير مع بومز في شارع شونهاوْزَر القديم ، صاعداً إلى الجناح الجانبيّ ، فهناك مكتبه التجاري ، وهناك ضوء في الأعلى ، على أن الحجرة تبدو حقاً في هيئة مكتب تجاري ، بما فيها من هاتف وآلات كاتبة ، وكانت سيدة طاعنة في السن ذات وجه صارم تدخل الحجرة في كثير من الأحيان ، حيث كان فرانتس يقعد مع بومز الذي

يقول: «هذه زوجتي، وهذا هو السيد فرانتس بيبركوبف الذي يريد المشاركة في العمل اليوم». ثم كانت تخرج وكأنها لم تسمع شيئاً. ويقرأ فرانتس بينما يعمل بومز في جهات مختلفة من منضدته، ولا يريد إلا أن ينظر ذات مرة، بعض النظر، في صحيفة B.Z: يرقد على كرسيّ: ٣٠٠٠ ميل بحري في قشرة جوزة، لغُنْتَر بلوشوف، العطلات، ومسارات الخطوط، لانيا «الازدهار» مسرح بيسكاتور عند ليسنغ، وكان بيسكار ذاته يتولّى الإخراج، من يكون بسكاتور ومن تكون لانيا؟ وما هو الشكل والمضمون، أي مسرح؟ ما عاد ثمة زيجات بين الأطفال في الهند، مقبرة للماشية المتوَّجة بالجائزة، حوليات وجيزة، برونو فالتر يقود حفلته الموسيقية الأخيرة في هذا الموسم، الأحد، في ١٥ نيسان، في دار أوبرا المدينة. البرنامج يورد سِمْفونيّة Esdur لموزار، الريع الصافي مرصود لصندوق النصب التذكاري لغوستاف في فينا. سائق سيارة، متزوج، العمر ٣٢ سنة، تذكرة السفر ٢أ و ٣ب، يبحث عن عمل لدى مؤسسة تجارية خاصة، أو سائقاً لسيارة شحن.

ويبحث السيد بومز، فوق المنضدة عن أعواد ثقاب، لسيجاره، وهنا تفتح السيدة المسنة باباً مكسوّاً بالسجاد المماثل لسجاد الجدران، وإذ بثلاثة رجال يدخلون فيه رويداً رويداً. أما بومز فلا يرفع طرفه. فهؤلاء الآن كلهم رهط بومز ويصافحهم فرانتس، وتَهُمُّ المرأة بالخروج، وهنا يلوِّح بومز لفرانتس، قائلاً: «أنتَ، يابيبركوبف، قلت إنك تريد أن تدبِّر رسالة؟ لا بأس، ياكلارا، دبّري له رسالة» «ولكن هذا جميل منك جداً، ياسيدة بومز، هل تزمعين حقاً أن توليني هذا الجميل؟ إذاً فالمطلوب ليس رسالة، بل البطاقة، ثم ترسل إلى عروسي» — ويذكر على وجه الدقة، أين يسكن، ويكتب ذلك على مظروف رسالة من مظاريف التجار ورجال الأعمال، العائدة إلى بومز، يفترض في القوم أن يقولوا لسيللي إنه لا ينبغي لها أن تُحَمِّل نفسها همّاً، وإنه آتٍ في الساعة العاشرة، ثم تأتي، من بعدُ البطاقة.

والآن بات كل شيء على أحسن ما يرام، فقد انتهى إلى الخلاص على الوجه السليم. وهذه الجثة الضامرة الخبيثة تقرأ في الكنيسة مظروف الرسالة، ثم تدسُّها في النار. أمّا البطاقة فتمزقها إرباً إرباً وتقذف بها في صندوق القمامة، ثم تُكِبُّ على

المدفأة، وتواصل شرب قهوتها، ولا تفكر في شيء وتقعد، وتشرب، الجو دافئ، وسرور بيبر كوبف سرور عاصف حين كان ما يزال بقبعته المتزحزحة، في هُوَّة الجنود الخضراء، العريضة. فمن عساه يكون، يا ترى؟ ومَنْ تُراه كان ذلك الذي يقع بصره على أمثال هذه الحفر والأخاديد؟ ومَنْ تراه تزلُّ به قدمه وكأنه يبادر، على الدوام إلى جرِّ قدم بعد الأخرى، من داخل الوَحْل؟ كلاّ، يا راينهولد. هنالك يشعر فرانتس أنه في بيته، كلاّ فهذا جميل! أمّا معك فأنا أشارك، يا راينهولد، وليحصل ما يحصل «ماذا، أَوَ تشارك؟» ولكن راينهولد ينزلق في كل اتجاه» وهذا قرار منك» ثم يأخذ فرانتس في الحديث عن أشجار في ميدان الإسكندر وكيف ساعد إميل الطوخي، فيصغي هؤلاء مشوقين، هم الأربعة، وما زال بومز يكتب، ويصطدم كلٌّ منهما بصاحبه، ثم يتهامسان كلاهما وكان واحد منهما ما زال مشغولاً بفرانتس.

وفي الساعة الثامنة تبدأ الرحلة، وكلهم قد تَدَثَّر بملابسه أَيَّما تَدَثُّر، وحتى فرانتس يحصل على معطف، ويقول وقد أشرق وجهه إنه يود لو يحتفظ به، والقبعة المتخذة من فرو الخروف، يالها من مصيبة. «ولِمَ لا»، كذلك يقول هؤلاء، «لا بد لك أن تظفر بهم إلى جانبك».

وتنطلق المسيرة، وقد اشتدت حِلْكة الظلام في الخارج، وتكون هناك مباراة رهيبة. ويسأل فرانتس قائلاً: «ماذا نصنع، يا تُرى؟» بينما كانوا يقفون في الشارع، ويقولون: «أوّلاً يكون الحصول على سيارة، أو على سيارتين، ثم البضاعة، التفاح وما يوجد مما عداه، هذه البضاعة سنأتي بها» إنهم يَدَعون كثيراً من السيارات تمر. وعند شارع ميتسر تقف سيارتان يأخذونهما، ثم تجريان منطلقتين.

وتجري كلتا السيارتين، إحداهما وراء الأخرى، جَرْياً حسناً على مدى نصف ساعة، وفي الظلام يلتبس الأمر في هذه المنطقة، إذ يمكن أن يكون هذا فايسِنْزيه أو حقل فريدريشز. ويقول الغلمان: الشيخ يريد، بلا ريب، أوَّل الأمر، أن يؤَمِّن شيئاً ما، ثم يتوقفون أمام منزل، إنه شارع مشجَّر عريض، وربما كان فناءً معبَّداً، على أن الآخرين يقولون إنهم لا يعرفون، إذ إنهما يصدران دخاناً بقوة.

ويقعد راينهولد في هذه السيارة إلى جانب بيبر كوبف ، فيا له من صوت مختلف هذا الذي يتحدث به راينهولد الآن! إنه لا يتلعثم ، ويتحدث بصوت عال ، ويقعد مشدود القامة مثل نقيب ، بل إن الفتى ليضحك ، أما الآخرون في السيارة فيستمعون إليه . وكان فرانتس يتأبَّط ذراعه ، «لا عليك ، أيها الفتى ، راينهولد «ويهمس إليه في نحره ، تحت قبعته» ، إذاً ، فماذا قلت لي؟ ألم أُحْسِن التصرف مع النساء؟ أيها الفتى ماذا؟» «كلاّ ، فكل شيء على ما يرام ، كل شيء على ما يرام» ويَصْفِق راينهولد يده على ركبته ، ألا إن لهذا الفتى لضربة ، ماذا تقولون ، فإن للفتى قبضة وأي قبضة . وينفث فرانتس الهواء من فمه: «أتُرانا نفعل ويتولاّنا الغضب من أجل فتاة ، ماذا . لا بُدَّ أن هذه وُلِدَت لتوِّها . أليس كذلك؟»

الحياة في الريف تتشكل في كثير من الأحيان تشكُّلاً صعباً .

والمغفلون يبحثون وينقبّون ولا يعثرون على شيء ، وذات يوم يجد المرء العظام المقصورة قَصْراً .

وتسير السيارتان دفعة واحدة ، من دون توقف ، حين يكون بومز قد صعد من جديد إلى القطار ، في المدينة ، وما أن تبلغ الساعة التاسعة حتى تتوقّف السيارتان عند ميدان بيلوف ، والآن يسيرون على أقدامهم ، منفصلين ، مَثْنى مَثْنى ، دائماً ، ويمشون في ظل قوس المترو ، إلى نهايته ، ويقول فرانتس: هنا سنكون عما قريب في قاعة السوق» «لقد كنا كذلك ، ولكن فلنأتِ بالبضاعة أوَّلاً ، ثم فلننقلها إلى الجهة المقابلة» .

وفجأة ما عاد من كانوا في المقدّمة مرئيين ، وذلك عند شارع الإمبراطور فيلهلم ، في موضع ملاصق للمترو ، ثم يتوارى فرانتس مع مرافقه في دهليز منزلي مفتوح ، أسود «المسألة ههنا» ، كذلك يقول المجاور لفرانتس ، «أما السيجارة فتستطيع الآن أن تطرحها بعيداً» «ولماذا يا تُرى؟» فيعمد هذا إلى الضغط على ذراعه وانتزاع السيجارة من فمه: «لأنني أنا الذي أقول ذلك» . أما هذا فقد ولّى الأدبار هارباً عن طريق الفِناء المظلم ، قبل أن يتمكن فرانتس من عمل شيء ما . فأَفَهِمْ هذا ، إذا فهمت هذا ودَعْ

الواحد منهم واقفاً في الظلام، وأين يستيكن أولئك يا ترى؟ وحين يُنَقِّل فرانتس خطواته عبر الفِناء يلتمع ضوء مصباح كهربائي قبالته، باتجاه إلى الأعلى، فيبدو بصره منبهراً. هذا بومز. أنتَ، أنتَ، ماذا تبتغي، يا تُرى؟ ليس لديك هنا شيء تبحث عنه، يايبير كوبف، أنت تقف في المقدمة، وتنتبه، تراجَعْ إلى الوراء» «يا للعجب، أنا أحسَب أنَّ عليَّ أن آتي بالبضاعة؟» «هذا كلام فارغ، تراجع، ألم يقل له أحد شيئاً ما؟»

وينطفئ النور، ويتراجع فرانتس وهو يُنَقِّل خطاه، ويرتعد شيء ما في داخله، فيبتلع ريقه، قائلاً: «ما هذا، هنا، أين يستكين هؤلاء ؟». ويكون قد وقف لدى باب المنزل الأماميّ، هنالك يصل من الخلف اثنان- السطو والقتل، والمخالب التي تقتحم، أنا أريد الانصراف من هنا، بعيداً عن هنا، وما هو إلاّ أن يتاح لي خط حديدي، أو منزلَق، فإذا بي أولّي الأدبار، في قوس على الماء، إلى ميدان الإسكندر- هؤلاء، ومنهم راينهولد الذي يتمتع بمخلب حديديّ: «ألم يقل لك أحد شيئاً ما؟ هنا سيكون وقوفك، وَأَنْتَبه» «مَنْ، مَنْ يقول هذا؟» «أيها الآدميّ، لا تقولَنَّ هذا الكلام الفارغ، فنحن معرَّضون للضغط، أليس لديك يا ترى عقل: لا تعارِض ولا تقف موقف المواجهة، يا رجل، الآن تقف وتَصْفِر، حين يكون ثمة شيء ما» «أنا. .». «هلاّ أغلقت شدقَيْك، أيها الآدميّ»، وإذا دويّ ضربة يُسْمَع، على ذراع فرانتس اليمنى، يحمله على الانحناء.

ويقف فرانتس وحيداً في دهليز المنزل الحالك السواد من الظلمة، ويرتعد بالفعل. ما الذي أواجهه هنا؟ لقد استغفلوني وخدعوني ودبَّروا لي مكيدة، حقاً، ولقد هاجمني كلب فمزَّق ثيابي. أما المخالب في الخلف فمن يدري، ماهية المخالب، ما من شك في أن هؤلاء ليسوا تجار فاكهة، بل لصوص يقتحمون على الناس بيوتهم. أما الشارع الطويل المشجَّر بالأشجار المظلمة، وأمّا الباب الحديديّ فإن كل المساجين أخلدوا إلى السكون، بعد الإحاطة بهم، وأما في الصيف فقد أُبيح لهم الامتناع عن الإخلاد إلى الفراش إلى حين حلول الظلام. هذا طابور، يقوده بومز. هل ينبغي لي أن أنصرف، هل يحسُن بي أن لا أنصرف، هل ينبغي لي، ماذا ينبغي لي، لقد

استدرجني القوم استدراجاً، أمثال هؤلاء المحتالين، لا بُدَّ من الغرق في الوحل إلى ما فوق رأسي.

وكان فرانتس واقفاً ههنا، يرتعد، يتحسس ذراعه التي تعرضت لِلَّكمة، لا ينبغي للمساجين أن يتكتَّموا على الأمراض. ولكن لا ينبغي لهم أن يختلقوها. فهذا معرَّض للعقوبة. المنزل ساكن سكون الأموات، وتتناهى، من ميدان بيلوف، أصوات أبواق السيارات. أمّا في الخلف، فوق الفناء فكانت تسمع أصوات تكسُّر، وغليان وتذمُّر، ومن حين إلى آخر كان يبرق ضوء مصباح جيب وبصوت كالحفيف مضى أحدهم بمصباح ذي حواجب، إلى القبو، لقد احتجزني هؤلاء هنا. ألا إن الخبز اليابس والبطاطا المملَّحة لَخيْرٌ وأحب إليَّ من البقاء هنا من اجل أمثال هؤلاء النصّابين، وكانت بضعة من مصابيح الجيب تبرق في الفناء، على أن الرجل الذي يحمل البطاقة البريدية لفت نظر فرانتس. إنه فتى غريب، فتى غريب، ولم يكن يفارق البقعة التي هو فيها، بل كان مشدوداً إلى هذا الموضع كأنما بسحر ساحر، منذ أن ضربه راينهولد، كان مسمَّراً بهذا الموضع. لقد كان يريد، وكان يحب ويهوى، ولكن المسألة لم تكن تستقيم، لم يكن يستطيع الإفلات من وضعه. العالم من حديد، ولا يستطيع المرء أن يصنع شيئاً، إنه يقبل على المرء مثلما تُقْبِل المَدْحَلَة الضخمة، وهنا لا يمكن عمل شيء. هنا يُقْبِل، وهنا يجري، وهنا يقعدون فيه، فهذا مستودع، شيطان له قرون وعينان متوهجتان، تمزقان لحم المرء وتقعدان هنا، تمزِّقانه بأغلالهما وأسنانهما، وهذا يجري، وهنا لا يستطيع أحد أن يتجنبه، فهذا يختلج في الظلام، وحين يكون ثمة نور فسوف يرى المرء كل شيء، كما هو، وكما كان.

لقد وَدِدْت لو انصرفت، وَدِدْتُ لو انصرفت، ولكن النصّابين والكلاب، أنا لا أريد هذا على الإطلاق، وكان يشد ساقيه. لقد كان هذا خليقاً أن يضحك المرء منه، إذاً لم أستطع الإفلات من هنا، ولم أتحرَّك. لكأن القوم قد طرحوني في المعجن وما عدت أستطيع منه خلاصاً، غير أن الأمور مضت واستقامت، وقد كانت تمضي وتستقيم بصعوبة، ولكنها كانت تستقيم. وأمضي قُدُماً إلى الأمام، لا ينبغي لهؤلاء إلاّ أن يمارسوا السلب والنهب، وانْسَلَّ. وخلع معطفه، وعاد أدراجه إلى الفناء،

رُوَيْداً رويداً، على خوف ووَجَل، ولكن لا بُدَّ أن يقذف بالمعطف في وجوه أولئك القوم. وفي الظلام قذف بالمعطف على المنزل الخلفيّ، هنالك جاءت من جديد أضواء، وكان رجلان يمّران به، في معطفين، محمَّلين بحِزَم كاملة «بالات»، وتوقفت السيارتان أمام طريق الباب الرئيسي. وفي أثناء المرور من فوقه ضرب أحد الرجال، من جديد، فرانتس على ذراعه، ضربة حديدية: «كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟». وكان هذا راينهولد. والآن كان يركض رجلان آخران مارَّيْن وفي يدَيْهم السلال، ومرة أخرى اثنان، ذهاباً وإياباً، من دون نور، مروراً بفرانتس، إذ لم يحدث شيء سوى عض الأسنان، وتكوير القبضات، وكانوا يخلطون الأمور بعضها ببعض، شأن الوحوش في الفناء، وعبر الدهليز، جيئة وذهاباً، في الظلام، وإلاّ لشعروا بالفزع من فرانتس، ذلك لأن هذا الذي كان هنا، ما عاد فرانتس، من دون معطف، ولا قبعة، وقد جحظت العينان، واليدان في الجيبين، وكان يركض، لعلّهُ يميِّز وجهاً، من يكون هذا يا تُرى، ومَنْ هذا، وما من سكّيْن هنا، فانتظر، ربما في الجاكيت، وربما لدى الصغار، فأنتم لا تعرفون فرانتس بيبركوبف، ولسوف تعرفونه حين تلمسونه. هنالك ركضوا جميعاً خارجين، هم الأربعة، مشحونين، كلٌ منهم وراء الآخر، وكان ثمة واحد قصير مكتنز يلامس فرانتس عند ذراعه: «هلُمَّ يا بيبركوبف، الرحيل، كل شيء مستقر وعلى ما يرام».

وفرانتس محشور بين الآخرين في سيارة كبيرة. وراينهولد يقعد إلى جانبه، وهو الذي يضغط على فرانتس ضغطاً شديداً، إلى جانبه. هذا هو راينهولد الآخر. وينطلقون راحلين فيها من دون نور «مالك تضغط عليّ»، كذلك يهمس فرانتس، وما من سكين هنا.

هلاّ أغلقت شدقيك، وأخلدت إلى الصمت، أيها الفتى، فما من أحد ينبس ببنت شفة» والسيارة الأمامية تنطلق بسرعة المطارِد، وسائق السيارة الثانية ينظر إلى الوراء عن يمينه، ويطلق فتحة الغاز، ويصيح باتجاه الخلف، من خلال النافذة المفتوحة: «فليلحق بنا من يلحق».

ويَدُس راينهولد رأسه في النافذة ليطل على الخارج، قائلاً: «دالّلي، دالّلي،

حول الناصية، وراء السيارة دائماً. هالك يرى راينهولد، على ضوء مصباح، وجهَ فرانتس الذي يشرق، وهو الذي يتميَّز بوجه فَرِح: «مالك تضحك أيها القرد، ما من شك في أنك مجنون جنوناً كاملاً». «أنا أستطيع أن أضحك حقاً، وهذا أمر لا يعنيك» «أوَ لا يعنيني ضحكك؟». مثل هذا اللص الذي يسطو في رابعة النهار، غلام لا يساوي بضعة قروش. وفجأة تخطر في ذهن راينهولد فكرة لم يكن رهط الراحلين بأسرهم فكّر فيها، هذا هو الفتى بيبر كوبف الذي تركه يقعد، والذي يُرسِل إليه النساء، وهذا أمر ثابت بالبرهان، هذا الخنزير الوقح، البدين، الذي حدثته ذات مرة أيضاً بكل شيء عنّي. وفجأة ما عاد راينهولد يفكر في الرحلة.

الماء في الغابة السوداء، وأنتم راقدون خُرْساً غاية الخَرَس، ترقدون رقاداً هادئاً إلى حَدّ رهيب. والسطح العلوي فيكم لا يتحرك. وحين تهب العاصفة في الغابة وتأخذ أشجار الصنوبر في الانحناء وتمزيق أنسجة العنكبوت بين الأفنان، وينطلق تطايُر الشظايا، لا تنفذ العاصفة إليكم في الأسفل.

ويقول راينهولد في نفسه: «هذا الفتى يقعد، بديناً، في الدسم، وهو يحسَب، يقيناً أن السيارة وراءه سوف تدركنا، وأنا أقعد هنا، وقد ألقى عليَّ خُطَباً، عن الأبقار، والنساء، وينبغي لي أن أتماسك وأُحْسِن التحكّم في نفسي.

يواصل فرانتس الضحك من دون صوت، وينظر خلفه من خلال النافذة الصغيرة في السيارة، إلى الشارع، السيارة تلاحقهم، لقد تمَّ اكتشافهم، فأنتظر، فهذا عقابهم. وعندما أضيع أنا، نفسي، لا ينبغي لهم أن يتغيَّروا معي، هؤلاء النصابون، المتشردون وعصابة المجرمين.

ويقول يرميا: ألا لُعِن الرجل الذي يتكل على الناس، فهو كالمهجور في السهوب والبوادي يظل ماكثاً في الجدب والجفاف على أرض مِلْحيّة، مُقْفِرة، والقلب مخادع فاسد، ومَنْ تُراه يحب أن يعرف ذلك؟

هنالك أعطى راينهولد الرجل قبالته إشارة سرية. وفي العربة تتناوب الظلمة والنور، ويكون ثمة صيد، وكان راينهولد قد دسَّ يده في الخفاء يمدُّها نحو أُكْرة

الباب ، ملاصقاً لجَنْبِ فرانتس ، وينطلقون بسرعة الريح داخلين في شارع مُشَجَّر ، وفرانتس مازال ينظر خلفه وإذا هو يُحْزَم دفعة واحدة من صدره ، فيُشَدُّ إلى الأمام ، ويَهُمّ بالوقوف ، فيضرب بيده في وجه راينهولد ، غير أن هذا قويّ قوة مُرَوِّعة ، والريح تعزف عزيف الجِنّ في السيارة ، والثلج يتطاير داخلاً فيها ، ويميل فرانتس بجسده فوق «البالات» وقد اصطدم بالباب المفتوح ، ويمدُّ يده ، وهو يصيح ، إلى عنق راينهولد ، هنالك تنطلق ضربة بالعصا من الجانب إلى ذراعه . ثم إن الثاني في السيارة يسدد نحوه صدمة في خاصرته اليسرى ، تدفع بفرانتس من خلال الباب المفتوح لينحدر عن «بالات» القماش وهو راقد ، فيتشبث مستعيناً بساقيه حيثما استطاع ، ويمسك ذراعاه بسُلَّم العربة يحيطان به إحاطة المطوِّق .

هنالك تصيبه ضربة بالعصا على قفاه ، ويقذف راينهولد بالجثة إلى الشارع وقد أكبّ بجسده عليها ، وهو واقف ، وينغلق الباب في صوت كصوت الصدمة ، ويدوي صوت سيارة المطارَدين ، وهي تجري بسرعة الريح ، من فوق البشر ، وتتواصل المطاردة في غمرة تساقط الثلج .

فَلْنَقَرَّ عيناً حين تشرق الشمس ويبزغ الضوء الجميل ومن الممكن أن ينطفئ ضوء الغاز ، الكهربائي ، وينهض البشر واقفين ، عندما يقرقر المنبِّه عندهم . لقد بدأ يوم جديد ، فإذا اليوم قبل هذا هو الثامن من نيسان ، فهو الآن التاسع منه ، وإذا كان اليوم من قبلُ هو الأحد فهو الآن يوم الاثنين . أما العام فلم يتغيَّر ، ولا تغيَّر الشهر كذلك ، ولكن تغيُّراً ما طرأ ، وقد تابع العالم تقلّبه . لقد بزغت الشمس ، وليست ماهية الشمس بالأمر المستيقَن . ثم إن علماء الفلك يشتغلون كثيراً بهذا الجُرْم السماويّ ، ويقولون: أجل ، إنه الجرم المركزي في منظومتنا الشمسية ، لأن أرضنا ليست سوى كوكب صغير ، وماذا نكون نحن في الحقيقة ، يا ترى؟ وإذا كانت الشمس تبزغ على هذا النحو وكان الناس يَقَرّون عيناً ، فسيكون من المفروض أن يكون القوم في الحقيقة متكدِّرين ، وإلاّ فما الإنسان ، فالشمس تزيد حجماً عن الأرض بمقدار ٣٠٠،٠٠٠ ضعف ، بالإضافة إلى ما يتوافر بعدُ من أرقام وأصفار لا

تفيد، جميعاً، سوى أننا لسنا سوى صفراً وحتى لا شيء، بل لا شيء البتَّة. وفي الحقيقة فإن من المضحك أن نَقَرَّ بذلك عيناً.

وما من شك في أن الناس يقرّون عيناً حين يتوافر الضوء الجميل، أبيض قوياً، وينتهي إلى الشوارع، وفي الحجرات تنبعث كل الألوان، وتكون الوجوه حاضرة، وكذلك الملامح. فإن مما يبعث على الارتياح أن نتلمَّس

صيغاً وأشكالاً بالأيدي، ولكن مما يسعدنا أن نرى، أن نرى، أن نرى ألواناً وخطوطاً، ولكن المرء يقرُّ عيناً، وفي وسعه أن يكشف عن ماهيته، فالمرء يفعل ما يفعل، ويشهد ما يشهد، ونحن نقرُّ عيناً، في نيسان بهذا القَدْر اليسير من الدفء، نحن نقرُّ عيناً بقدرة الأزهار على النموّ، ولا بُدَّ أن يكون ثمة خطأ، أو غلطة في الأرقام المفزعة، في صدد الأصفار الجمَّة العدد.

إذا كنت تشرقين فحسب، أيتها الشمس، فأنت لا تفزعينا. أما الكيلو مترات الكثيرة فغير ذات أهمية بالنسبة إلينا، قطر دائرتك، وحجمك. أيتها الشمس الدافئة، فأشرقي وأرسلي، ضوءً ساطعاً، فأنتِ لست بالكبيرة، ولستِ بالصغيرة، بل أنتِ قُرّة عين.

لقد خرجت الآن، طالعة، لتوِّها، مسرورة، من قطار الإكسبريس الشمالي الباريسيّ، ذلك الشكل الصغير، الوديع، الذي لا يلفت الأنظار، في المعطف المُزَيَّن بقطع الفراء، بعينيه العملاقتين وبقعها الصغيرة المظلمة، ذوات اللون الخزفيّ «الصينيّ»، في ذراعها، في صورها الضوئية، والجلبة المرتبطة بذراع الإدارة. وفي ابتسامة هادئة تدع راكيل كل شيء يجري لها، وهي تقرُّ عيناً، على الأغلب، بباقة من الورود الصُّفْر، من المستعمرة الإسبانية، لأن عاج الفيل هو لونها المفضَّل. ومع كلمات: «أنا امرأة يشدها فضول جنوني، إلى برلين»، ترتقي المرأة الشهيرة عربتها، وتتوارى عن أنظار حشد البشر الذي يلوّح بأذرعه لها في المدينة الشرقية «الصباحية».

الكتاب السادس

الآن لا ترَوْن فرانتس بيبر كوبف يشرب الخمر، ويتخفى، الآن ترونه يضحك: فلا بُدَّ للمرء أن يمدَّ ساقيه بما يتوافق مع دِثاره. وهو في حالة غضب إذ أرغمه القوم على أمر، وهو يرى أنه ما عاد يجوز لأَحد بعدُ أن يرغمه، ولو كان أقوى الناس طُرّاً. وهو يرفع قبضته في وجه القوة المظلمة، ويشعر بشيء يقف في وجهه، غير أنه لا يستطيع أن يراه، ولا بُدَّ أن يحدث بعدُ أن تنقضَّ المطرقة عليه بسرعة خاطفة.

إنه ليس سبباً لليأس. ولسوف أستعمل هذه الكلمة بعدُ بتواتر كبير، حين أواصل سرد هذه القصة إلى نهايتها القاسية، المفزعة، المريرة. إنه ليس سبباً لليأس. ذلك لأن الرجل الذي أتحدث عنه، ليس رجلاً عادياً مألوفاً، ولكنه يعدُّ، بلا ريب رجلاً عادياً، على قَدْر ما نفهمه على وجه الدقة، ونقول في بعض الأحيان: لقد كان من الممكن أن نكون فعلنا، خطوة فخطوة، الشيء ذاته الذي فعله. ولقد وعدتُ أن لا أكون ساكناً، هادئاً حيال هذه القصة، على الرغم من أن هذا غير مألوف.

إنّ ما أرويه عن فرانتس بيبر كوبف لهو الحقيقة القاسية، وفرانتس بيبر كوبف هو الذي خرج من بيته وهو لا يدري شيئاً ولا يقدِّر شيئاً، وشارك، خلافاً لإرادته، في عملية اقتحام، وقُذِف به أمام سيارة. وهو يرقد تحت العجلات، وهو الذي بذل، بلا ريب، أكبر الجهود، لكي يسلك نهجه القويم، المسموح به، والشرعيّ. ولكن أليس هذا، على وجه الخصوص، باعثاً لليأس، وأي معنى يُفْترض أن يكمن في هذا العبث الوقح، المثير للاشمئزاز والوضيع، وأي دلالة زائفة يفترض، يا تُرى، أن تكون وُضِعَت، بل ربما صيغ منها مصير وقَدَر لفرانتس بيبر كوبف؟

وأقول: إنه ليس سبباً لليأس. فأنا أعرف بعض الأمور، وربما رأى بعض أولئك الذين يقرأون هذا، بعض الأمور. وهنا يحدث كشف بطيء، وسوف يشهده المرء ويعانيه، مثلما يشهده فرانتس ويعانيه، ثم يتَّضح كل شيء.

المال الحرام يزدهر وينمو

ولأن راينهولد كان في مثل هذه الحال، وفي مثل هذا الطور، كان يستأنف مسيرته على الفور، فلم يأت إلى بيته إلاّ عند ظهر يوم الإثنين. فَلْنَنْشُر، أيها الإخوة والأخوات الأعزّاء، نقاب الإيثار على مدى عشرة أمتار مربعة، فوق العصر الواقع بين العصرين. أما العصر المتقدِّم، فلم نستطع أن ننشر عليه ذلك النقاب، مع الأسف، ونحن نكتفي بأن نقرر بأن الشمس، بعد أن أشرقت في ميعادها الدقيق المبكر، يوم الإثنين، ثم أفلت روملي المشهور، شيئاً فشيئاً، من عقاله، في برلين– وكان ثمة ساعة تدقّ ساعة منتصف النهار، أي الساعة الثالثة عشرة– يقذف راينهولد من حجرته بالساحرة التي طال عليها العهد وآن أوان إبعادها، إذ باتت تتخذ من بيته مقر إقامة دائم، لها، مع أنه لم يكن يريدها. لَكَم كان هذا مستعذَباً ومحبَّباً إليّ في نهاية الأسبوع، فيا لَهذا من مَغْرِز، عندما يجري التيس وراء المِعْزى، فيا له من مَغْرِز. لقد كان قصاص آخر خليقاً أن يُحَدِّد للفتى راينهولد على الأرجح الآن، عقوبة ما، ولكن لا حيلة لي في ذلك، إذا لم يتحقق هذا. كان راينهولد مَرِحاً طلْق الأسارير، ولتصعيد مَرَحِه، قذف بالساحرة إلى الخارج، وهي التي تنزع، بطبيعتها، إلى الاستقرار، ونتيجة لهذا، لم تكن تريد ذلك. أما هو فلم يكن يريد ذلك في الحقيقة، غير أن الفعلة تمّت على الرغم من عدم إرادته لها، بصورة آلية تلقائية، إن صح التعبير، وتمت الفعلة، في المقام الأول، في ظل مشاركة المخ الأوسط، وذلك أنّه كان متأثراً بالخمر تأثُراً شديداً. وهكذا كان يقف إلى جانب الرجل حتى القدر، إذ يُعَدُّ الإشباع بالكحول من الأمور التي تركناها لِلَّيْلَة المنصرمة. وما عاد أمامنا سوى أن نسارع، لكي نحرز مزيداً من التقدم، إلى القضاء على بعض

الرواسب . أمّا راينهولد ، هذا الضعيف العاجز ، الذي كان مضحكاً عند فرانتس ، والذي لم يستطع قطُّ أن يقول كلمة قاسية أو كلمة تنطوي على الحزم وقوة الإرادة ، لامرأة ، استطاع في منتصف النهار ، أي في الساعة الثالثة عشرة ، أن يضرب الساحرة عَلْقة رهيبة ، وأن يجتث شعرها من جذوره وأن يحطّم مرآة عليها ، وكان في وسعه أن يفعل كل شيء ، وأن يضرب آخر الأمر فمها ، حين صرخت ، ضرباً بلغ منه أنه تورّم في المساء حيث ذهبت إلى الطبيب ، تورُّماً عملاقاً . وكانت الفتاة قد خسرت خلال ساعات قلائل ، كل جمالها وذلك نتيجة للتدخلات النشطة ، من قبل راينهولد الذي أرادت ، من أجل ذلك ، أن تحمّله المسؤولية . ولم يكن لها بُدّ أن تستعمل المرهم على شفتيها ، بصفة مؤقتة لتغلق فتحة الجرح ، وكان مَنْ تمكّن من كل هذا ، كما قيل ، هو راينهولد ، لأن بضعة أقداح من الخمر خدَّرت دماغه ، ونتيجة لذلك حَظِيَ مخه الأوسط بحرية التصرُّف ، وهو الذي كان لديه بارعاً على الإجمال .

أمّا هو ذاته ، وهو الذي كان في ساعة متأخرة من بعد الظهر ، في حالة سيئة ، ولكنه كان في حالة من التماسك والاتّزان ، بلا ريب ، فقد قرَّر ، هو ذاته ، وهو مذهول قد اختلطت في عقله الأمور ، إحداث بعض التغيُّرات الجديرة بالترحيب والتحية ، في مسكنه . ومن الواضح أن الساحرة كانت قد انصرفت . وذلك بصورة كاملة في الحقيقة ، ذلك لأن السلة كانت قد فُقِدَت ، ثم إن المرآة كانت مكسورة ، وكان أحدهم قد بصق على الأرض بأسلوب وقِح ، وكان البصاق في الحقيقة دامياً . ونظر راينهولد نظرة المتأمِّل في الأضرار ، حواليه ، على أن فمه هو كان سليماً لم يمسسه سوء ، ثم بصقت الساحرة ، وكان قد أدمى لسانها بالضرب والصدمات ، وكان ما نقله إلى مثل هذا المزاج المُنْتَشي وإلى احترامه لذاته ، أنه كان يضحك ويقهقه بصوت عالٍ ، وتناول بقيّةً من مرآة وجعل ينظر إلى نفسه فيها: ماذا ، يا راينهولد ، أهذا الذي صنعته ، هذا ما لم أكن أحسَبُ أنه ممكن أبداً! أَيْ راينهولد ، ياصغيري! أَوَ يَسُرُّك هذا أَوَ تَقَرُّ به عيناً ، وربَّت على وجنتَيْه .

وجعل يفكّر ملياً ، أَمِن الجائز أن يكون امرؤٌ آخر قذف به إلى خارج البيت ، أَوَ يحتمل أن يكون هذا فرانتس؟ وكانت أمور المساء والليلة ما تزال غير واضحة

كل الوضوح بالنسبة إليه، فاستدعى، في سوء ظَنٍّ منه، مضيفته، وهي القوّادة العجوز، وقال ينبّهها:

«لقد حدثت اليوم مشاحنة كبرى، عندي، أليس كذلك؟» هنالك شرعت في حديث هادر كالعاصفة: لقد كان خليقاً أن يفعل ذلك على الوجه الصحيح تماماً، مع الساحرة، التي كانت قد أصبحت بهيمة كسولة كل الكسل، بل كانت تأبى أن تكوي لنفسها تنوّرة وحدها، أليس كذلك، إنها ترتدي تنّورات، وهذا ما لم يكن في وسعه أن يحتمله على الإطلاق، أليس كذلك؟ وإذا فقد كان هذا هو ذاته. فما كان أسعدَ ما كان عليه راينهولد. وهنا خطر بباله، دفعة واحدة، كل شيء، عن الأمسية وعن الليلة. لقد كانت رحلة جميلة قام بها، فوَرَث الكثير، وكاد مكيدة لفرانتس بيبر كوبف، البدين، فحفر له حفرة أوقعه فيها، وهو يأمل أن يكونوا داسوه بالسيارة فأردوه قتيلاً، وخرجت الساحرة. أيها الآدمي، لقد كان بيننا حساب، وأيُّ حساب!

فما الذي نصنعه الآن؟ فلنبدأ، أولاً، ذات مرة، بارتداء الملابس الأنيقة الرائعة من أجل الأمسية. هنا ينبغي لواحد منهم أن يحدثني عن الخمر، لم أكن أريد أن أسرع فأبادر إلى سماع هذره وكلامه الفارغ، فما أكثر ما يوفّر علينا من الطاقة، ما صنعناه الآن، من كل لون.

وحين يبدّل ملابسه يأتي إليه أحدهم مُرْسَلاً من لَدُن بومز، فيهمس ويُسِرّ إليه بسِرٍّ ما. وقد ارتدى ملابس باذخة للغاية، وأخذ يُنَقِّل وزن جسمه من إحدى ساقيه إلى الأخرى، وكان يفتَرَض أن يأتي راينهولد، على الفور إلى الجهة المقابلة حيث الحانة أو المقصف، غير أن هذا يستغرق ساعة كاملة إلى أن يفعل ذلك صاحبنا راينهولد نازلاً إليه. واليوم تتعلق المسألة بالنساء. اليوم يفترض في بومز أن يضرب على الطبل وحده، وفي الجهة المقابلة، في المقصف يتولى هؤلاء جميعاً الخوف. الذي يسري في عظامهم، لقد كان راينهولد خليقاً أن يورّطهم مع بيبر كوبف، لو لم يكن هذا الآن ميتاً، وكان خليقاً أن يفضحنا، وإذا كان هذا الآن ميتاً، يا ابن آدم، كنا أجدرَ بذلك، وكنا عندها في غياهب السجن. إذاً فلتسأل عنه، في البيت، هنا وهناك، وما ينجم عن ذلك من أمور شتّى.

ولكن راينولد سعيد، والسعادة تقف إلى جانبه. أما ذاك فما من شيء يمكن الإقدام عليه حياله، وهذا هوذا أسعد الأيام طُراً، مُذْ بات في وسعه أن يتذكّر ويتفكّر. أمّا الآن فلديه الخمر، وهو يستطيع أن يستجلب النساء ويبعدهن، على قَدْرِ ما يشاء، ولسوف يتخلّص منهن جميعاً، من جديد، وهذا هو الأحدث والأروع. وهو يريد أن يقوم بجولة على الفور، غير أن الأخوة عند بومز لا يدعونه ينطلق، إلى أن يكون وَعَد بأن يبقى معهم في فايسِنْزيه يوماً، يومَيْن؟ أو ثلاثة أيام، وأن يتوارى، ولا بُدّ لهم أن يَرَوْا ما حدث لفرانتس في الحقيقة، وما ينتج عن هذه المسألة، كلاّ، فقد وعد راينهولد بهذا.

وهل نسي ذلك من جديد، في الليلة ذاتها، وانطلق إلى التكديس، ولكن لا يحدث له شيء. وذلك أنهم يقبعون، في فايسِّنْزيه، في مبناهم، ويتولاّهم الخوف إلى حد رهيب، ثم إنهم يأتون في الخفاء، في اليوم التالي ويريدون أن يأتوا به، ولكنه يضطر إلى العودة من جديد إلى فتاة معينة يقال لها كلارا التي كان اكتشفها بالأمس من جديد.

ويظل راينهولد على حق، إذ لا يتناهى إلى القوم شيء عن فرانتس بيبركوبف، ولا يرون شيئاً ولا يسمعون شيئاً، فلقد توارى الرجل عن هذا العالم، بكل بساطة، ويفترض أن نرتاح إلى هذا ونطيب به نفساً، والمعنيّون جميعاً يتصرفون بناءً على هذا ويعودون إلى مَقارِّهم ويتصرَّفون ويبنون علاقاتهم على هذا الأساس، من جديد، مغتبطين.

ولكن في حجرة راينهولد كانت تدخّن تلك الفتاة المدعوَّة كلارا، وهي شقراء شعرها بلون التبن، أتَتْه معها بثلاث زجاجات كبيرة من الخمر، وهو ظلّ، على الدوام، يرتشف منها رشفات يسيرة، أما هي فترتشف منها أكثر من ذلك، بالمقابل، بل ترتشف في بعض الأحيان بعنف. ويقول في نفسه: ألا فلتشرب، أنا لا أشرب إلاّ حين تأزِف ساعتي، وعندئذ تكون المسألة بالنسبة إليك: الوداع لك.

هناك، بين القراء أولئك الذين يساورهم القلق على سيللي، فما الذي سيصير إليه أمر الفتاة المسكينة، حين لا يكون فرانتس حاضراً، وحين لا يعود فرانتس على قيد

الحياة، بل يكون قد طواه الردى، ويغدو، ببساطة، شيئاً لا وجود له؟ يا للعجب، لسوف تشق هذه طريقها بجهد بالغ، ألا لا تُحَمِّلُنَّ أنفسكم همّاً، ولا غَمّاً، فإن هذا النوع يظل المرة بعد الأخرى، يسقط واقفاً على قدميه. ومثال ذلك أن سيللي مازال لديها المال يكفيها ليومين، وفي يوم الثلاثاء تضبط بعد ذلك، كما تصوَّرتُ ذلك على الفور، الفتى راينهولد، الذي يسير على قدمَيْ خاطب مرشَّح للزواج، في صورة الرجل الأكثر أناقة ونبلاً في قلب برلين بقميص خارجيّ حقيقي، من الحرير. ثم إن سيللي مشدوهة مذهولة، ولا تفهم حقيقة نفسها، حين ترى الفتاة أهي مغرمة بالفتى، أم ينبغي لها أن تحاسب على هذا حساباً عسيراً.

لقد باتت تحمل، بحُرِّية، وفي محاكاة لشيللر، الخنجر في إهابها. والحق أن هذا ليس إلاّ سكين مطبخ، غير أنها تريد أن توجِّه طعنة إلى الفتى راينهولد، جزاء له على ألوان وضاعته، ولا يهم إلى أين تتجه الطعنة وها هي ذي تقف الآن هنا بالقرب من هذا، قبالة باب المنزل، وهي تتحدث بمودة حديث الهذر، ومعها وردتان حمراوان، وقبلة باردة، وهي تقول في نفسها: فلأتحدّث بالكلام الفارغ حتى الصباح، وبعد ذلك، لا أطعن لأنفذ بسكيني من خلال قماش جميل كهذا، فالرجل يحمل هوَّةً بالغة الدقّة، وهي تنتصب في وجهه رائعة، ببساطة، وتقول وهي تُنَقِّل خطاها، إلى جانبه، على طول الطريق، إنه يفترض أن يكون أبعد عنها المدعو فرانتس، ولماذا يا ترى؟ فإن فرانتس لا يأتي إلى البيت، إذ إنه لم يأتِ حتى اليوم، وحدوث هذا لا يضيره، وفضلاً عن ذلك فإن الساحرة انصرفت عن راينهولد. وعلى هذا فسيكون ذلك يقيناً لا ريب فيه، وهنا لا يستطيع أن يقول شيئاً، حيال مسألة أن فرانتس انصرف ومعه الساحرة، وكان راينهولد قد أقنعه بها بما ساق من الأحاديث، وهذه هي نقطة الذروة الآن.

وتنتاب راينهولد الدهشة كيف أنّها باتت تعرف بهذا كله، وبهذه السرعة. كلاّ، لقد كانت لديه في مركز رفيع، وكانت المضيفة قد حدثتها عن المشادَّة الكلامية مع الساحرة، وتقول سيللي، سابّةً شاتمة: «أنت أيها الوغد» وكانت تودُّ لو استجمعت شجاعتها لتصل بها إلى سكين المطبخ، لقد باتت لديك الآن امرأة

أخرى ، من جديد ، وهذا ما يلوح على وجهك ، ويبدو للناظرين ، بلا ريب .

وكان راينهولد يذكر ، على بُعْدِ عشرة أمتار:

١- لم يكن لدى هذه مال .

٢- إنها غاضبة على فرانتس ، حانقة عليه .

٣- مازالت تحبني ، أنا ، راينهولد الأنيق وذلك أنّ من تكون له مثل خزانة الملابس هذه تحبه النساء كلهُن ، هذا ما يسمّونه التكرار .

هناك يعطي للنقطة الأولى علامتين . أما النقطة الثانية فيسُب في صددها فرانتس بيبركوبف ، حيثما كان الفتى يستكِينُ .

وذلك أنه يودُّ لو يعرف هذا بنفسه «وخزات الضمير ، وأين وخزات الضمير ، أوريست ، وكليتمنيسترا . وراينهولد لا يعرف كلتا الشخصيَّتَيْن ، حتى ولا من اسميهما ، وهو يود ، ببساطة ، ومن كل قلبه ، وفي سريرته ، أن يكون فرانتس قد طواه الردى وأصبح نسياً منسيّاً ، وما من سبيل إلى العثور عليه» . ولكن سيللي لا تعرف أين يوجد فرانتس ، وهذا يؤيد ذلك ، كما يحتج راينهولد بذلك متأثراً قائلاً إن الرجل مضى إلى غايته وانتهى أمره . وعلى أثر ذلك يقول راينهولد في صدد النقطة الثالثة ، بمودّة ، وفي صدد الحب في حالة التكرار: أما الآن فمحليّ مشغول ، ولكنك تستطيعين ، في أيار ، أن تسألي من جديد ، وتقول شاتمة: لا ريب في أنك امرؤ فارقك عقلك ، وكانت تأبى أن تصدِّق من فرط السرور . ويقول وقد أشرق وجهه: كل شيء ممكن عندي ، ويودِّعها ، ويواصل نزهته . راينهولد ، آه ، حبيبي يا راينهولد ، إنك فارسي ، راينهولد ، أنتَ ، يا راينهولد ، أنا لا أحب أحداً سواك .

ويشكر ، أمام كل مقصف ، لخالقه ، أن الخمر موجودة في كل مكان ، فلو أن كل المقاصف والحانات أُغلقَت الآن ، أو تمَّ تجفيف ألمانيا ، عند ذلك ما عسايَ أصنع؟ كلاّ ، هنالك لا يكون للمَرء بُدٌّ أن يبادر إلى تأسيس مخزن احتياطي من الخمور في منزله ، في الوقت المناسب ، ونحن عازمون على تأمين ذلك على الفور ، وإني لفتى مُحَنَّك ، كذلك يقول في نفسه وهو واقف في الدكان ، يتسوَّق أنواعاً شتى من

الخمور ، وهو يعلم أن لديه مخّه الكبير ، وحين تمس الضرورة فلديه مخه الأوسط؟

وهكذا انتهت ، بصفة مؤقتة ، على أية حال ، الليلة الواقعة بين الأحد والاثنين ، عند راينهولد ، ومن كان ما يزال يسأل هل توجد عدالة في هذا العالم ، فسوف يكتفي بالجواب القائل: لا وجود للعدالة مؤقتاً ، وعلى كل حال فلا وجود لها حتى هذا اليوم ، الجمعة .

مساء السبت، ليلة الأحد، التاسع من نيسان

وتظل السيارة الخصوصية الكبيرة التي أُرْقِد فيها فرانتس بيبركوبف – فاقد الوعي ، إذ كان قد عولج بالكافور والسكوبولامينو مورفيوم – تطوي الأرض على مدى ساعتين . ثم يكون القوم في ماغديبورغ ، ويتم إخراجه بالقرب من كنيسة ، وفي المستشفى يقرع الرجلان أجراس العاصفة ، ويتم إجراء العملية له حتى في الليل ، ويتم بتر الذراع اليمنى في مفصل الكتف ، كما تُبْتَر أجزاء من عظام الكتف ، أمّا الرضوض والكدمات في القفص الصدري وفي أعلى الفخذ العليا على قَدْر ما يستطيع المرء أن يقول في اللحظة الراهنة ، فكانت غير ذات أهمية ، وكانت الإصابات الداخلية غير مستبعدة ، وربما كان هناك تمزُّق يسير في الكبد ، ولكن لا يمكن أن يكون هذا كثيراً ، وما هو إلاّ التربُّص والانتظار . أتُراه لم يخسر الكثير من الدم؟ وأين وجدوه ، على قارعة الطريق س .ع . إذا كانت هناك دراجته النارية ، لا بُدَّ أن مركبةً ما صدمته ، أتراهم لم يَرَوْا السيارة؟ كلاّ ، فحين لقيناه كان يرقد هنا ، فانقسمنا مجموعاتٍ ثلاثة ، وكان قد دُهِس من اليسار ، وذلك ما نعرفه مع الغموض الشديد . ويظل السادة بعدُ هنا؟ إنها بضعة أيام أخرى ، إنه صهري ، وسوف تلحق به زوجته . ونحن نقيم في الجهة المقابلة حين تضطرنا إلى ذلك الحاجة ، ومن قاعة العمليات يُحدِّث واحد من السيدين مرة أخرى أهل المستشفى: ما من شك في أن القضية باعثة للرعب ، غير أننا نعلّق أهمية على أنه لم يأتِ من جانبكم إبلاغ بالقصة ، وسوف ننتظر ، حين يثوب إلى وعيه لنرى كيف ينظر هو ذاته إلى هذه المسألة . على

أنه ليس صديقاً للقضايا، وذلك أنه سبق له أن دهس واحداً من الناس، وأعصابه– كما تشاء. أوَّلاً دَعْه يتجاوز مرحلة الخطر.

وفي الساعة الحادية عشرة يكون تبديل الضماد. واليوم هو الاثنين قبل الظهر– والمتسبّبون في المصيبة يصرخون في هذه الساعة، بمن فيهم راينهولد، مبتهجين، قد أفرطوا في الشراب عند المُستَتِّرين عليهم والمُجيرين لهم، في فايسّنزيه. وفرانتس يقظان كل اليقظة، يرقد في سرير وثير، في حجرة أنيقة، وقد ضاق صدره وتعرَّض لحَزْم رهيب، ويسأل الممرضة أين يكون، فتقول ما كانت سمعته من الممرضة الليلية وما التقطته قبل ذلك من الجوار. وهو يقظان، يفهم كل شيء، يتلمَّس كتفه اليمنى، على أن الممرضة ترُدُّ اليد من جديد إلى حيث كانت: عليك بالرقاد الهادئ تماماً، لقد جرى دمٌ هنا، في وحل الشارع، من كُمَّيْه، وكان قد شعر بذلك، ثم يتجمع أناس حوله. وفي هذه اللحظة حدث شيء فيه. في هذه اللحظة حدث شيء ما فيه. ما الذي حدث في هذه اللحظة، لدى فرانتس؟ لقد اتخذ قراراً. ففي غمرة ضربات راينهولد بذراعيه الحديديتين، في دهليز المنزل، في ميدان بيلوف، كان يرتعد، وكانت الأرض ترتعد من تحته. ولم يدرك فرانتس شيئاً.

وحين انطلقت به السيارة كانت الأرض مازالت ترتعد، وأبى فرانتس أن يلاحظ ذلك ولكن هذا كان حاضراً، بلا ريب.

ومثلما كان يرقد في وحل الشارع وجليده، مع فارق خمس دقائق، كان هذا يتحرك فيه. وكان يتمزق شيء ما، وكان ينكسر ويدوّي صوته، ويُدَوّي، وفرانتس متحجِّر، وهو يشعر: لقد دُهِسْت، وهو بارد، هادئ. ويلاحظ فرانتس، وأنا أسير أمام الكلاب– وهو يصدر الأَوامر، ربما أنكسر، وهذا لا يضير في شيء، غير أني لا أنكسر، إلى الأمام، والقوم يضمّدون بحمّالة سراويله، ذراعه، ثم إنهم يريدون أن ينطلقوا به إلى مستشفى بانكوف. غير أن هذا ينسجم انسجام كلب الحراسة مع كل حركة: كلاّ، ليس في المستشفى، ويصرِّح بعنوان معيَّن. أيُّ عنوان؟ شارع الألزاسيّين، هربرت فيشوف، زميله من أيام سالفة، تلقاء تيغِل والعنوان متوافر في اللحظة الراهنة. وهذا ما يتحرك في داخله، مثلما يرقد في وحل الشارع وجليده،

ويتمزَّق، وينكَسر، ويدوّي، ويدوّي، وفي اللحظة الراهنة تكون الهزة قد حدثت فيه، وليس هناك أَمْن ولا يقين.

لا ينبغي لهم أن يضبطوني ويمسكوا بي، إنه على يقين، هربرت مازال حاضراً، وهو الآن في بيته. والناس يركضون خلال المقصف في شارع الألزاسيّين، وهم يتساءلون عن هربرت فيشوف، وإذ بشابٍّ ناحل يقف إلى جانب امرأة سوداء جميلة، ما الذي حدث، ماذا، في الخارج، في السيارة، يجري معهم خارجاً إلى السيارة، والفتاة وراءه، ومعه نصف المقصف. وفرانتس يعرف مَنْ سيأتي الآن، أنه يتولّى مسألة التحكم في الزمن ويتعارف فرانتس وهربرت، فيهمس فرانتس إليه بعشر كلمات، قائلاً إن هؤلاء يفسحون مكاناً في الخارج. أمّا فرانتس فيوضع في الناحية الخلفية من المقصف، ويتم إضجاعُه على سرير، ويؤتى بطبيب، وتأتي إيفا، السوداء الجميلة، بالمال، ويُلْبِسونَه أشياء أخرى وبعد الغارة عليه بساعة ينطلق الرهط في سيارة خصوصية، من برلين إلى ماغديبورغ.

وفي منتصف النهار يدخل هربرت المستشفى، ويتمكّن من التفاهم مع فرانتس، وسوف يعود فيشوف خلال أسبوع، وفي هذه الأثناء تقيم إيفا في ماغديبورغ.

ويرقد فرانتس ساكناً سكون الحديد، متماسكاً بالقوة، ولا يرتد بفكره إلى الوراء مقدار أنملة، ولا يبكي مطلق العنان، من دون عائق إلاّ عندما يجري الإبلاغ في الساعة الثانية بعد الزيارة، عن مَقْدَم السيدة الجليلة، وتدخل إيفا وهي تحمل أزهار التوليب، ثم يَنْشُج، ولا يكون لإيفا بُدٌّ أن تمسح وجهه بمنديل يد، ويلعق شفتيه، ويغمض عينيه إغماضاً شديداً، ويعضُّ على أسنانه ولكن فكّه يرتعد، ويضطر إلى مواصلة نشيجه، حتى إن الممرضة في الخارج لتسمع شيئاً ما، فتقرع الباب وترجو إيفا وتلحُّ في الرجاء أن تنصرف اليوم، وإلاّ، فإن اللقاء يجهد المريض أيّما إجهاد.

وفي اليوم التالي يغدو هادئاً كل الهدوء، يبتسم لإيفا، وبعد أربعة عشر يوماً يأتون به، لقد بات في برلين من جديد، وعاد يتنفس هواء برلين، وحين يرى منازل شارع الألزاسيّين مرة أخرى يتحرك شيء ما في داخله، غير أن المسألة لا تنتهي إلى النشيج. وهو يفكِّر في بعد ظهر يوم الأحد مع سيللي، وفي قرع الأجراس، إنه قرع

الأجراس، وهنا أكون كأنني في بيتي، ينتظرني شيء ما، ويترتَّب عليَّ أن أؤدي شيئاً ما، وسوف يحدث شيء ما. وهذا مايعرفه فرانتس بيبركوبف بدقة كاملة، وهو لا يتحرَّك، ويدع نفسه يُحْمَل بهدوء من العربة.

ولديّ شيء يترتب عليَّ عمله. وسوف يحدث شيء ما. وأنا لا أفرُّ هارباً، وأنا فرانتس بيبركوبف، وهكذا يحمله القوم إلى المنزل، إلى مسكن صديقه، هربرت فيشوف الذي يعُدُّ نفسه وكيلاً بالعمولة. إنه الأمن ذاته الخالي من بواعث القلق والهواجس، والذي ظهر فيه بعد السقوط من السيارة.

عرض البقر للبيع في فناء المسلخ: الخنازير ١١٥٤٣، الأبقار٢٠١٦، العجول ٩٢٠، الخراف١٤٤٥٠. وما هي إلاّ ضربة، أو قنص بالمطاردة، فإذ بها ترقد.

أما الخنازير والأبقار والعجول فتذبح، وليس هذا سبباً للاشتغال بها. أين نبقى؟ نحن؟

إيفا تقعد على جانب سرير فرانتس. ويأتي فيشوف، ثم يأتي مرة أخرى. مَنْ كان هذا يا تُرى، أيها الآدميّ، كيف حدث أن جاء هذا؟ وفرانتس لا يفصح عما يقصد إليه. لقد بنى حول نفسه صندوقاً حديدياً، وها هو ذا يقعد فيه، ولا يسمح لأحد بدخوله.

وأمّا إيفا، وهربرت وصديقه إميل فيقعدون معاً. ومنذ وصل فرانتس في الليل مدهوساً، بات هذا الرجل، بالنسبة إليهم غير واضح، وذلك أن هذا لم تصدمه سيارة فحسب، إذا إن ثمة شيئاً يستكين وراءها، بلا ريب، فما الذي كان هذا يبحث عنه في الساعة العاشرة، هنا في الشمال، حيث ما عاد يسعى في الطابق العلوي بشرٌ بعدُ. ويظل هربرت وحده في هذه الأثناء: لقد أراد فرانتس أن يُحْدِث حَدَثاً، وفي هذه الأثناء حدث هذا له والآن يشعر بالعار، لأن الأمور لم تكن تستقيم فيما يتعلق ببضاعته الورقيّة الوسخة، ثم إن آخرين يستَكينون بعدُ وراء هؤلاء الذين يأبى أن يخونهم. وإيفا توافقه على رأيه، لقد أراد أن يُحْدِث حدثاً، ولكن كيف حدث هذا. لقد بات الآن ذا عاهةٍ، مشوَّهاً. ولا يلبث أن يتبيَّن لنا ذلك.

ويتبيَّن هذا حين يعطي فرانتس إيفا عنوانه الأخير، ويفترض أن يأتي القوم بسَلَّته، ولكنه لا يقول إلى أين، وعلى أثر ذلك يتفاهم هربرت وإميل، غير أن المضيفة تأبى أن تأتي بالسلة ولكنها تفعل ذلك مقابل خمسة ماركات، ثم تستأنف على الفور مساومتها. وهنا يسألون كل بضعة أيام عن فرانتس، من يكون، يا تُرى، كلاّ، إن له صلة ببومز، بومز والفتى راينهولد، وهكذا دواليك.

إذاً فهو بومز. الآن يعرفون ذلك، إنه طابور بومز، وإيفا خرجت عن طورها، ثم إن فيشوف غاضب: عندما يعود إلى المشاركة من جديد، لماذا يفعل ذلك مع بومز؟ ولكن فيما بعد، بالطبع، ثم نكون طيبين بالنسبة إليه: مع هذا يذهب، كلاّ، فالآن بات رجلاً مشوَّهاً ذا عاهة، نصف جثة، وإلاّ لتحدثت إليه بحديث غير هذا الحديث.

ولم تفرض إيفا هذا إلاّ بالعنف، بأنها كانت حاضرة في هذه الأثناء، عندما يقوم هربرت فيشوب بتسوية الحساب مع فرانتس، ثم إن إميل حاضر في هذه الأثناء. لقد كلفتها هذه القضية قطعة كاملة من فئة الألف مارك.

يا للعجب، يا فرانتس، ويأخذ هربرت في الحديث: «لقد كنت بعيداً عنا أيّما بُعْد، والآن بات في وسعك أن تنهض قائماً— ماذا تزمع أن تصنع يا تُرى؟ هل فكرت في المسألة من قبل؟» ويوجه فرانتس إليه وجهه المكسوّ بالشعر الشائك كالدبابيس: «كلاّ، دعني ذات مرة أقف على قدمَيَّ أوَّلاً» «كلاّ، فإنّا لا نُلِحُّ ولا نستعجل، على أنكم لستم بالمضطرين إلى التصديق والاعتقاد: أنت مازلت في رعايتي، لماذا لم تأتِ إلينا مِن قبل. فما من شك في أنك خرجت، منذ عام، من تيغِل بل لمّا يمضِ عليَّ كل هذا الوقت» «إذاً فهو نصف عام، أنت لا تريد أن تعرف شيئاً عنا، أليس كذلك؟». المنازل، والأسقف المُنْزَلِقة، وفِناءٌ عالٍ مظلم، ويدوّي نداء كقصف الرعود، يوفيف ألّيرا؟ أليرا، هكذا بدأت المسألة.

ويرقد فرانتس على ظهره، وينظر إلى لِحافه. لقد كنت أبيع الصحف، وما الذي كان في وسعكم أن تبدأوا به معي».

ويتدخل إميل ، ويقول مزمجراً: «أيّها الآدميّ ، أنتَ لم تكن تبيع الصحف» مثل هذا المخادع . وتعمد إيفا إلى تطييب خاطره ، ويلاحظ فرانتس أنه يحدث شيء ما ، وهم لا يعرفون . «لقد كنت أبيع الصحف ، فأسأل مِكْ» فيشوف: «أمّا ما يقوله مِكْ ففي وسعي أن أتصوره ، لقد كننت تبيع الصحف ، ثم إن رهط بومز كانوا يبيعون الفاكهة ، إلى حدّ ما ، وهم يتخبطون في ارتباك وحيرة وما من شك في أنك تعرف هذا وحدك» «أمّا أنا فلا ، لقد بعت الصحف ، وكسبت ما كسبت من المال ، ثم فأسأل سيللي ، التي كانت تلازمني طوال النهار ، عمّا كنت أفعل» .

«المارْكان الإثنان ، طوال النهار ، أو ثلاث ماركات» «وقد تكون أكثر ، لقد وصل هذا أمامي إلى ما ذكرتُ ، ياهربرت» .

والذين هم في الداخل ، إيفا تقعد إلى جانب فرانتس ، وتقول: «ألا فَقُلْ لي ، يا فرانتس ، لا شك في أنك عرفت بومز» «أجل ما عاد فرانتس يفكر ، إنهم يستفسرون مني ، وفرانتس يتذكر ، إنه مازال حياً . «ثم ماذا؟» وتداعبه إيفا: «ألا فَقُلْ لي ما الذي حدث لبومز» هنالك يفلت من شفتي هربرت إلى جانبها قوله: «هلاّ أفْدتَني ، بربك ، بهدوء ، أيها الآدميّ ، فأنا أعلم ، بلا ريب ، ما جرى لبومز . حيث كنتم في الليل . أتُراك تعتقد أنني لا أعرف هذا ، كلاّ لقد شاركتَ في هذا ، وهذا لا يهمني بالطبع ، فهذا شأنك وإنما ينبغي أن تذهب إلى أولئك الذين تعرفهم ، إلى ذلك المدعو شوبياك ، الشيخ . أمّا عندنا فأنت لا تَدَعُنا نراك» ، ويزمجر إميل قائلاً: «ألا ترى ، نحن لا نكون طيبين إلاّ عندما» ، ويعطيه هربرت إشارة ، ويبكي فرانتس . المسالة ليست على جانب من السوء يَعْدِل ما كانت عليه في المستشفى ، ولكنها رهيبة ، وينشج ويبكي ويدير رأسه إلى هذه الناحية وإلى تلك ، وكانت قد أصابته صدمة على رأسه ، وكان القوم قد وجَّهوا صدمة إليه في صدره ، ثم أُلْقِيَ به من خلال الباب ، إلى سيارة وكان هذا هو الذي دَهَسَه . لقد ذهب ذراعه ، فبات ذا عاهة مشوَّها ، ويخرج الرجلان ، أمّا هو فيواصل نشيجه بهدوء . وتظل إيفا على الدوام تمسح وجهه بمنديل يد . ثم يرقد فرانتس بهدوء ، وقد أغمض عينيه . أمّا هي فتراقبه ، وتفكر ، وهو ينام ، هنالك يفتح عينيه ، ويكون في يقظة كاملة ، ويقول: «فقل لي ياهربرت ، ويا إميل ، ينبغي لهم أن يدخلوا» .

ويدخل هؤلاء مُنَكَّسي الرؤوس . هنالك يسأل فرانتس: «ماذا تعرفون عن بومز؟ هل تعرفون شيئاً عن هذا؟» . ويتبادل الثلاثة الآخرون النظرات فيما بينهم ، ولا يفهمون ، وتربّت إيفا على ذراعه ، ولكن يا فرانتس ، أنت تعرفه بلا ريب» «كلاّ ، أنا أريد أن أعرف ما الذي تعرفونه عن هذا الرجل» ويقول إميل: «نعرف أنه مخادع داهية محنَّك للغاية ، ولم يخلّف وراءه سوى خمس سنوات في زونِنْبورغ ، وقد كان استحق السجن مدى الحياة أو خمس عشرة سنة ، هذا الرجل بعربة الفواكه» . ويقول فرانتس: «هذا الرجل لا يعيش على الإطلاق من عربة الفواكه» . «كلاّ ، فهذا يأكل اللحم ، ولكن ببراعة وكفاءة» ويقول هربرت: «ولكن أيها الآدميّ ، يا فرانتس ، ما من شك في أنك لست من أهل الزِيّ الذي عفّى عليه الزمن ، وهذا ما تعرفه أنت وحدك ، بلا ريب ، وما من شك في أنك ترى هذا على الرجل» ويقول فرانتس: «لقد حسبت أنه يعيش من بيع الفاكهة» «لا عليك ، وماذا كنت تريد أن تفعل في يوم الأحد ، حين كنتَ قد خرجت مع هذا» «كنا نريد أن نأتي بفواكه من أجل قاعة السوق» ويرقد فرانتس بهدوء كامل . وينحني هربرت فوقه لكي يرى ملامحه . «وهذا ما كنتَ تعتقده؟» .

ويعود فرانتس إلي البكاء ، ويبكي الآن بكل هدوء . أمّا فمه فقد كان أغلقه ، وكان قد نزل على السُلّم ، وكان ثمة رجل يبحث في كراسة ملاحظاته عن عناوين ، ثم كان عند بومز في مسكنه ، وكان يفترض أن ترسل السيدة بومز رقعة إلى سيللي «بالطبع ، كنت أصدق ذلك ، ثم إني لاحظت ذلك ، لقد عيَّنوني من أجل رصد التصرُّفات المحظورة ، ثم –»

ويُنَقِّل الثلاثة نظراتهم جيئة وذهاباً . ما يقوله فرانتس حق ، غير أن هذا أمرٌ لا يمكن تصديقه على الإطلاق . وتلامس إيفا ذراعه: «ما علينا ، ما الذي حدث عندئذ؟» وكان فرانتس قد فتح فاه ، إنْ قال ذلك الآن فسيغدو في الخارج ، وسوف يكون قد قيل ذلك عمّا قريب ، وهو يقول: «في ذلك الوقت لم أرِدْ ذلك ، ثم قذفوا بي من السيارة ، لأن سيارةً أقبلت من ورائهم .

عليك بالسكون ، ولا تقولَنَّ بعد ذلك شيئاً ، ولقد دُهِست ، وكان من الممكن

أن أكون ميتاً. لقد أرادوا قتلي، ولم يكن ينشُج، بل كان يتماسك، وقد انضمت أسنانه بعضها إلى بعض، ومدَّد ساقيه.

وكان الثلاثة يسمعون هذا، الآن قالها، إنها الحقيقة الصِّرفة، وهم يعرفون ذلك في اللحظة الراهنة، ثلاثتهم، إنه الحاصد الذي اسمه الموت، الذي أوتيَ القوة والعنفوان، من قبل الله العليّ الكبير.

ويسأل هربرت: «هلاّ قلتَ لي، يا فرانتس، فنحن خارجون عمّا قريب: أنتَ لم تأتِ إلينا، لأنك أردت أن تبيع الصحف؟»

إنه لا يستطيع الكلام، ويقول في نفسه: أجل، لقد أردتُ أن أظل ذا نهج قويم. ولقد ظللتُ قويم النهج حتى اللحظة الأخيرة. وهنا ما كان يحسُن بكم وأنتم في الجهة المقابلة، أن تتكدَّروا لأنني لم أُقْبِل إليكم. لقد ظللتم أصدقائي، ولم أَخُن أحداً منكم. ويرقد صامتاً، ويخرجون.

ويقعد هؤلاء، بعد أن تناول فرانتس حبّة المنوّم من جديد، في المقصف، في الأسفل منه، ولا يتمكّنون من النطق بالكلمات من أفواههم.

ولا ينظر بعضهم إلى بعض. أمّا إيفا فلا تزيد على أن ترتعد هكذا. لقد أرادت الفتاة أن تظفر بالمدعو فرانتس حين كان يسير مع الفتاة إيدا، غير أن هذا لم يتخلَّ عن إيدا، على الرغم من أن هذه كانت قد فرغت من علاقتها. ثم إنها حسنة السلوك مع هربرت، وكل ما تريده منه تحصل عليه، كائناً ما كان، غير أنها ما زالت متعلِّقة بفرانتس. ويوعز بيشوف بأن يؤتى بخمر ساخنة، فيصبّونها في حلوقهم، كل ثلاثة بجرعة مماثلة ويطلب بيشوف أقداحاً جديدة، وتظل حناجرهم مغلقة. أمّا إيفا فلها يدان وقدمان جليديّتان، وكل اللحظات تصبُّها باردة فوق قفا الرأس وفوق النحر، وحتى الفخذان تغدوان في حالة صقيع، وهي تضرب إحداهما بالأخرى. أمّا إميل فيسند رأسه عريضاً إلى الذراع، وهو يلوك بأسنانه شيئاً ما، ناظراً أمامه، ويمصُّ لسانه، ويبتلع البصقات إلى جوفه، ثم إنه يضطر إلى أن يَتْفُل النخامة على أرض الحجرة، وكان هربرت فيشوف، الشاب يقعد على الكرسيّ مشدود القامة، وكأنه

يقعد على صهوة حصان، ويبدو مثل ملازم أمام قواته، ووجهه جامد لا يبدي حراكاً.

ولم يكونوا يقعدون هنا، جميعاً، في مقصف، ولم يكونوا، يستكينون في جلدهم، فإيفا لا تسميّ إيفا، وفيشوف لا يدعى فيشوف وإميل لا يدعى إميل. لقد تمَّ تقويض سورٍ كان يُحْدِق بهم، فتدفَّق هواء آخر وانسكبت ظلمة أخرى، وهم مازالوا قاعدين لدى سرير فرانتس.

إنه حصّاد يقال له الموت، قد أوتِيَ السلطان من لدُن ربه العليّ الكبير. اليوم يشحذ السكين، لقد بات يقطع قَطْعاً أفضل كثيراً. ويلتفت هربرت إلى المائدة، خلفه، ويقول بصوت أَجَش: «مَنْ كان هذا، يا تُرى، فحسب؟» ويقول إميل: «ومَنْ عساه يكون؟» ويقول هربرت: «من ذا الذي قذف به إلى الخارج» وتقول إيفا: «هذا ما وعدت به، ياهربرت عندما تمسك بهذا». «لستُ في حاجة إلى أن تقول لي. أن يكون شيء كهذا فوق الأرض.

ولكن، ولكن» «ويقول إميل: «أيها الآدمي، ياهربرت، هل تستطيع أن تتصور شيئاً كهذا». فلا تسمعوا شيئاً من هذا، ولا تفكروا في ذلك على الإطلاق. وترتعد ركبة إيفا، وتتوسَّل قائلة: «هربرت، هلاّ فعلت شيئاً بربك، يا إميل» بالانطلاق من هذا الجو إنه حصّاد يقال له الموت. ويختتم هربرت كلامه قائلاً: «وماذا أفعل، إذا كنت لا تعرف، أليس كذلك؟ الآن نكشف عن المسألة، وحقيقتها. وفي النهاية، في النهاية ندع عصابة أوغاد بومز، بأسرها، يثور ثائرها» وتقول إيفا: «وفرانتس يشارك في هذا الثَّوَران؟» «وفي النهاية أقول: فلنفعل ذلك. ولم يكن فرانتس حاضراً في هذه الأثناء، وهذا ليس صحيحاً، هذا ما يراه الأعمى، ويصدقه فيه كل حَكَم وقاض.

هذا أمر يترتب إثباته: هذا ما قذفوا به أمام السيارة، وإلا لما فعلوا هذا». وتخفق جوانحه مثل هذا الكلب. هل يمكن تصوُّر هذا. وتقول إيفا: «ربما يقول لي مَنْ تُراه يكون».

ولكن مَنْ يرقد مثل كتلة من الحجر ولا يمكن استخراج شيء منه، . إنما هو فرانتس. فلنسترِح، فلنسترِح. لقد ذهبت الذراع، وهذه ما عادت تنبت ولا تنمو. لقد ألقوا بي من السيارة، على أنهم تركوا لي رأسي بعد هذا، ولا بُدَّ لنا من المضيّ قُدُماً، ولا بُدَّ لنا من أن نشقَّ طريقاً لنخرج بالعربة من الأقذار. يجب، أولاً، أن نكون قادرين على الزَحْف والدَّبيب.

على أنه يغدو، على نحوٍ مفاجئ، وبسرعة، في هذه الأيام الدافئة، حيّاً مفعماً؟ بالحياة، وكان ما يزال يفترض فيه أن لا يقف بعدُ على قدميه، ولكنه بات يقف الآن، وقُضِيَ الأمر، واستقام ثم إن هربرت وإميل اللذين كانت خزائن أموالهما بحالٍ جيدة على الدوام، يهبان له ما يشاء وما يعده الطبيب ضرورياً له، وفرانتس يريد أن يمشي على قدميه، وهو يأكل ويشرب كل ما تصل إليه يده، ولا يسأل، من أين يجنيان المال.

وفي هذه الأثناء تدور الأحاديث بينه وبين الآخرين، ولكن من دون طائل. أما قضية بومز فلا يتطرَّقون إليها أمامه. فهم يتحدثون عن بلدة تيغل ويتحدثون بالكثير عن إيدا. ويتحدثون عن هذه حديث التقدير والعِرفان، والأسى على أن الأمور سلكت هذا الاتجاه، وكان هذا ما يزال فتّياً إلى حد بعيد، ولكن إيفا تقول إن الفتاة كانت قد سلكت طرقاً ملتوية، على أن كل شيء بينهم مماثل لما كان قبل أيام تيغل، وما من أحد يعرف هذا أو يتحدث عن أن المنازل تزعزعت وتقلقلت في هذه الأثناء، وعن أنَّ أسطح المنازل أوشكت أن تنزلق وتسقط. وكان فرانتس قد غنىّ في الفِناء وأقسم، بما أنه فرانتس بيبركوبف، ليظلَّنَّ ملازماً للنهج القديم، وأنَّ أمور الماضي قد انتهت ووصلت إلى غايتها.

ويرقد فرانتس ويجلس معهم بهدوء. ويأتي، مع هذا، بعدُ، معارف قدماء من ألوان شتى ويأتون، معهم، بفتياتهم ونسائهم. ولم يتطرَّق القوم إلى شيء، وكانوا يحادثون فرانتس وكأنما أطلق سَراحُه لتوّه من تيغِل وتعرَّض لحادث، أما من أي طريق حدث ذلكم، فهذا ما لا يتحدث عنه الأحداث بشيء. على أن هؤلاء يعرفون ماهية الحادث الذي يحدث في إطار العمل في مؤسسةٍ ما، ويستطيعون أن يتصوَّروه، ويشق المرء طريقه، وسط الزحام، ويكون أحدنا قد أصيب بطلقةِ بندقية في ذراعه،

أو كُسرَت ساقاه، ما علينا، فهذا يظل، على الدوام أفضل مما يكون في زونِنْبورغ عند فاسَّر زوبّه، أو فَطِسْنا من جراء السُّل، وهذا واضح، بلا ريب.

وفي أثناء ذلك كان رهط بومز قد اشتمّوا رائحة الخطر، حيث يوجد فرانتس. ومَنْ ذا الذي جاء بالقفص الذي يحمل فرانتس؟ هذا ما قرّروه على وجه السرعة، وهو الذي يعرفونه بلا ريب. وقبل أن يلاحظ فيشوف بعدُ شيئاً ما، استخلص هؤلاء أن فرانتس بيبركوبف يرقد لديه، كما أنه صديق أَمْسِه الغابر، ولم يخسر إلاّ ذراعاً واحداً في هذه القصة. لقد كان لدى هذا مثل ذلك الخنزير، ولا شيء بعد هذا. وإذا فالفتى ما زال يقف على قدميه، ومَنْ يدري فإنّ في وسع هذا أن يهرب ويتوارى. ولا ينقص الكثير، بحيث لو اكتملت المسألة لوقع راينهولد في شرِّ أعماله، إذ بلغ هذا من الحُمْق كل هذا القَدْر، وهو يضع لهم في الطابور فتىً مثل الفتى فرانتس بيبركوبف ولكن في مقابل الفتى راينهولد ينبغي للمرء أن يفعل شيئاً ما، على الوجه الصحيح.

أما قبل ذلك فلا، وأمّا الآن، فلا، على الإطلاق، وحتى بومز الشيخ لا يُقْبِل على هذا، وإن الفتى ليرمق الواحد من الناس ناظراً إليه نظرة يمكن أن تبعث في نفسه الخوف، إذ يرى الوجه الأصفر والتجاعيد العرضيّة الباعثة للفزع، في الجبين، هذا امرؤٌ ليس بالصحيح المعافى، ولن يبلغ من العمر خمسين عاماً، ولكنها سنوات ينقصها شيء ما، وهي أخطر السنوات على الإطلاق وهذا الفتى يمكن أن يثق المرءُ بأنّه يمسّ جيبه ذات مرة، وهو يبتسم ابتسامة باردة، ثم يولّي الأدبار، هارباً فيكون له دويّ.

غير أن المسألة الخاصة بفرانتس، وأنه ظل على قيد الحياة ليس بالمنطوية على الخطورة إطلاقاً ويكون راينهولد وحده هو الذي يهز برأسه ويقول: «ألا لا تنفعلوا، فسيكون من الصعب على هذا أن يحترس، وسوف يبلغ عن مقدمه، وإذا ما عادت تكفيه الذراع الواحدة، بعدُ، فسوف يبلغ عن مَقْدَمِه، كلاّ، بالانطلاق من عندنا، فربما كان مقدّراً له بعدُ أن يفقد رأسه.

لستم بمضطرّين إلى أن يتولاكم الخوف من فرانتس، فذات مرة، جمع في جلسة واحدة في الحقيقة بين كلٍّ من إيفا وإميل وبين فرانتس الذي يفترض أن يقول: أين كان ذلك، وإذا كان لا يستطيع شيئاً وحده حيال هذا فإن رهطاً من الناس سيقف إلى جانبه، ويوجد من أجل ذلك أناس في برلين، غير أن هذا يخلد إلى الهدوء، وعندما يقبل عليه أحدهم بذلك يلوِّح وبيده معبِّراً عن عدم رغبته: دعوني أيها القوم. ثم يغدو شاحباً، ويتنفس تنفُّس اللاهِث، ويبدأ في البكاء من جديد: وهذا أمر لا يجدي الحديث عنه، وفيمَ ذلك يا تُرى، فإن الذراع لن تنبت لي من جديد وتنمو من جراء ذلك، ولو استطعت لهجرت برلين مطلَقاً. ولكن أي شيء يفترض أن يفعله امرؤ مشوَّه ذو عاهة؟ وتقول إيفا: «هذا لا يقال، يا فرانتس، فأنت لست بذي عاهة أبداً، غير أن المرء لا يستطيع أن يسمح بذلك، مثلما أعدُّوه لك هي، نزولاً من السيارة» «لن ينبت لي من هذا ذراع» «ولكن يفترض بعدئذ أن يدفعوا الثمن» «ماذا؟»

وانحنى إميل بالجزء العلوي من جسده، قائلاً: «إمّا أن نقطع للمعنيّ رأسه أو رأس ناديهِ حين يكون هذا الرأس فيه، ويترتَّب علينا جميعاً أن ندفع لك. هذا ما سوف نتفق عليه مع النادي. فإمّا أن يقف هنا آخرون نيابة عنه على وجه الخصوص، وإمّا أن يقذف بومز والنادي به إلى الخارج، وهؤلاء يفترض أن يرَوْا، ذات مرة، أين يحصلون على الاتصال وكيف يتم اكتشافهم من قبل الشرطة، ولا بد من دفع ثمن الذراع، وهي الذراع اليمنى. وهؤلاء لابُدَّ لهم من أن يدفعوا لك تعويضاً» ويهزُّ فرانتس برأسه. «ماذا يعني هزُّ الرأس هنا، نحن نقطع الرأس هنا لمن يكون قد فعل هذا. وهذه جريمة، وإذا لم يكن في وسع المرء أن يقيم دعوى ضد هذا إلى المحكمة، فسوف يترتَّب علينا أن نفعل ذلك» وتقول إيفا: «لم يكن فرانتس في أي نادٍ من النوادي، يا إميل.

ويهزّ فرانتس برأسه: «أمّا ما دفعتموه من أجلي فسوف تستعيدونه حتى آخر قرش، «هذا ما لا نريده على الإطلاق، ولا نحتاج إليه وليس ضرورياً لنا، على أن المسألة لا بد أن تنتهي إلى التسوية، يا لها من مصيبة. مثل هذا لا يمكن أن يظل راقداً كما هو». وتقول إيفا بلهجة حاسمة: «كلاّ، يا فرانتس، هذا لا يظل راقداً على

حاله، لقد مزَّقوا أعصابك، ومن أجل ذلك لا تستطيع أن تقول مجرد كلمة «نعم»، ولكنك تستطيع أن تعتمد علينا: فنحن الذين لم يحطم بومز أعصابنا، وقد ينبغي لك أن تسمع ذات مرة ما يقوله هربرت:

وهذا يفضي بعدُ إلى حمام دم في برلين، وإلى أن الناس سوف تتولاهم الدهشة» ويومئ إميل إيماءة الموافقة: مكفول».

ويظل فرانتس بيبر كوبف ينظر إلى الأمام على خط مستقيم، لا يلوي على شيء، قائلاً في نفسه: لا يعنيني، ما يقوله هؤلاء، فإن ذراعي لن تنبت، ولم يكن هناك بُدٌّ من بترها، وهنا لا يوجد شيء يترصد به بالعويل والنَّواح، وهذا ما زال ليس بالشيء الأخير.

وهو يمعن النظر في كيف كان يتَّسم كل شيء: أما المدعوّ راينهولد فكان ينطوي على كراهية، لأنه ينتزع منه المرأة، ومن أجل ذلك يقذف به من السيارة إلى خارجها، وها هو ذا يرقد في المستشفى، في ماغديبورغ، وكان يريد أن يظل متابعاً للنهج القويم، وإلى هذه النتيجة انتهت المسألة الآن، وهو يتمدَّد في السرير، ويكوِّر قبضته على ملاءة السرير: وهكذا جاءت المسألة، هكذا على وجه الدقة. وسوف نرى بعد ذلك. سوف نرى.

ثم إن فرانتس لا يبوح بشيء عمَّن قذف به أمام السيارة. أما أصدقاؤه فهادئون. ويقولون في أنفسهم: لا ريب في أنه سيقولها ذات يوم.

فرانتس ليس مستنفَدَ القوى،
ولن يظفروا به مستنفَدَ القوى

أما طابور بومز، الذي يسبح في المال، فقد توارى من برلين، وهناك اثنان منهم يتجوَّلان في منطقة أورانيينبورغ، بما فيها من المزارع الموحِلة، ويدخل بومز الحمام في ألتهايْده، بسبب الربو، ويوعز بتزييت آلته. وراينهولد يشرب الخمر شرباً يسيراً، إذ

يشرب في كل يوم بضعة أقداح صغيرة من الخمر ، فالرجل يستمتع ، ويوطِّن نفسه على ذلك ، ولا بُدَّ للمرء أن يخرج ذات مرة بشيء ما من حياته ، فهو يبدو ، في نظر نفسه غبياً للغاية ، وأنه كان يعيش كل هذا الوقت من دون هذا ، بل كان يعيش بمجرد القهوة وشراب الليمون ، وهو ما يوشك أن لا يكون وجوداً ، أو حياةً . فهذا المدعو راينهولد لديه بضعة آلاف من الماركات ترقد في مستقرِّها ، وذلك ما لا يعرفه أحد . وهو يريد أن ينجز بهن شيئاً ما ، غير أنه لا يعرف ماهيته ، والمهم هو أن لا يكون ذلك في تلك المزارع المزدراة الموحلة مثلما يفعل الآخرون ، فإذ به يتخذ لنفسه امرأة جميلة سبق أن شهدت ذات مرة ، أيضاً ، أياماً أفضل ، ومن أجل هذه يستأجر مبنىً أنيقاً ظريفاً ، في شارع نورنبرغ ، وهنا يستطيع عندئذ أن يتسلَّل من أسفل حين يريد أن يمثل دور فيلهلم البدين ، أو ، ربما ، حيث يكون الهواء غير نظيف . بالطبع الدكان القديم بمن فيه ، وهي خضراء الدِمَن «المرأة الحسناء الناشئة في منبت السوء» وله ، في كل بضعة أسابيع امرأة أخرى . أمّا المسرح فلا يستطيع هذا الفتى أن يتركه .

وحين يلتقي الآن ، في نهاية أيّار ، ذات مرة ، نفر من طابور بومز ، في برلين يهذون بالسخف حول فرانتس بيبركوبف ، وبسبب هذا كانوا قد سمعوا أنْ قد دار ثمة حديث في النادي . ثم إن المدعو هربرت فيشوف يحمل الناس على التمرُّد علينا . لقد كنا خليقين أن نغدو كلاباً خنزيرية وما كان المدعو بيبركوبف ليرغب في مشاركتنا على الإطلاق ، إذاً لكُنّا حاولنا ذلك بالقوة ، وبعد ذلك قذفنا به ، فوق ذلك ، من السيارة ، ولكننا تركنا الناس يقولون: إنه يريد أن يهرب ويتوارى ، ولم يكن هنا حديث يدور عن العنف ، إذ لم يتطرق إلى هذا أحد ، ولكن لم يتبقَّ لنا شيء بعد هذا ، إنهم يقدرون هنا ويهزون برؤوسهم . أمّا الجَلَبة والمهاترة مع النادي ، فهما مما لا يريده أحد ، فههنا تكون اليدان مغلولتين ، ويكون المرء راقداً في الشارع . وهنا يقولون: لا بد للمرء أن يكشف عن حسن نيته ، ومن أجل هذا المدعو فرانتس يضطر المرء إلى التجميع ، لأنه كشف ، بلا ريب ، آخر الأمر ، عن استقامته ونهجه القويم ، ولا بُدَّ للمرء أن يحرص على عملية استجمام من أجل هذا ، وعلى ما كلف المستشفى ، وأن لا يدع هذا الفتى يعيش عيش السكارى المدمنين .

ويظل راينهولد حاضراً في هذه الأثناء: هذا الفتى لا بد للمرء أن يرديه قتيلاً ، ولا يعارض في ذلك الآخرون ، لا يفعلون ذلك في الحقيقة ، ولكن سرعان ما لا يوجد من بعدُ أحد من أجل ذلك . وفي النهاية فإن المرء يستطيع أن يدع المسكين البائس يروح ويغدو هنا وهناك ، بالذراع الواحدة ، والمرء لا يعرف متى يبدأ بهذا ، ولا كيف تتواصل هذه المسألة ، أجل ، فالفتى لديه خنزير منتقى . كلاّ ، فهؤلاء يجمعون المال إلى المال ، بضعة أوراق من فئة المائة مارك ، على أن راينهولد وحده لا يبذل قرشاً واحداً ، ولا بُدَّ أن يصدر واحد منهم إلى بيبر كوبف ، ولكن حين لا يكون المدعو هربرت فيشوف حاضراً .

ويشرع فرانتس في القراءة بوداعة ، قراءة بريد الفتيات ، ثم يأتي بريد الأخضر الذي يروق له أكثر من كل ما عداه ، إذ لا يكمن فيه شيء سياسيّ ، وهو يدرس الرقم ٢٧/٢٧ تشرين الثاني ، ورد منذ زمن بعيد ، حتى قبل أعياد الميلاد ، وهنا كانت لينا البولونية ، فما الذي تهوى عملَه هذه هنا؟ وفي الجريدة يجري عقد قران الصهر الجديد للإمبراطور السابق ، والأميرة في سن الحادية والستين ، والفتى في سن السابعة والعشرين ، وهذا سيكلفها الكثير من المال ، لأنه لن يغدو أميراً ، بلا ريب ، أمّا الصديريات الواقية من الرصاص للموظفين الجنائيين فذلك شيء ما عُدْنا نؤمن به منذ عهد بعيد .

وتشتبك إيفا دفعة واحدة ، في الخارج ، مع أحدهم ، هنا وهناك ، ياللعجب ، هذا الصوت أعرفه بلا ريب . إنها تأبى أن تدع هذا الرجل يدخل ، ولا ريب في أنه لا بُدَّ له أن يتفقد الوضع بنفسه ، ويفتح فرانتس ، والبريد الأخضر في يده . وإذا هو شرايْبَر الذي كان يصحب بومز .

يا للعجب ، ما الذي حدث؟ وتصرخ إيفا في الحجرة ، قائلة: «يا فرانتس هذا يصعد إلى أعلى لمجرد أنه يعرف أَنْ ليس من المؤكَد أن هربرت هنا» «وما الذي تريده ، يا شرايبر ، ماذا تبتغي مني ، ماذا تريد؟» «لقد قلت ذلك لإيفا ، وهي لا تدعني أدخلِ ، لماذا ، أأنت هنا أسير؟» «كلاّ ، فما أنا بالأسير: «كل ما في الأمر أنك خائف من أنْ يهرب منك ويتوارى لا تَدَعَنَّ هذا يدخل ، يا فرانتس»: «ماالذي تريده إذاً ، ياشرايْبَر ، تعال معي ندخل ، إيفا ، دعيه يدخل ، يا امرأة» .

ويقعدان في حجرة فرانتس، والبريد الأخضر يرقد على المنضدة، ويعقد زفاف الصهر الجديد للقيصر السابق، وثمة رجلان يمسكان له، من الوراء، بالتاج فوق رأسه، إنه صيد الأسود، بل صيد الأرانب، فلتتمَجَّد الحقيقة ولماذا تريدون أن تَهَبوا لي المال؟ أنا لم أساعد على الإطلاق؟» «أيها الآدميّ، لقد وقفت موقف الحارس النذير» «كلاّ، ياشرايير، أنا لم أقف موقف الحارس النذير، ولم أكن أعرف شيئاً، لقد وضعتموني هنا، وأنا لا أعرف ماذا ينبغي لي أن أصنع هنا». ولو كنتُ مسروراً بكوني خرجت من هذا لما عدت أقف بعدُ في الفِناء المظلم، وأنا مازلت أدفع له شيئاً ما مقابل كوني لا أقف هنا. «كلا، فهذا كلام فارغ، أما الخوف فأنتم لستم مضطرون إلى أن تظهروه بين يَدَيّ، فأنا لم أهرب بعدُ طوال أيام حياتي، يوماً واحداً» وتظهر إيفا لشرايير قبضتها: ولكن هناك بعدُ آخرون ينتبهون. أيها الآدميّ، أنك جازفت بالصعود إلى هنا، فأنت تستطيع هنا أن تتفقّد شيئاً ما لهربرت.

وفجأة يحدث شيء باعث للفزع، وكانت إيفا قد رأت كيف يدس شرايير يده في جيب بنطاله. وذلك أن هذا يريد أن يستخرج المال ويغري فرانتس بأوراق العملة. ولكن إيفا أساءت فهم الحركة، فهي تحسَب أن هذا يريد أن يستخرج مسدَّساً، ويفترض أن يردي فرانتس قتيلاً، لكيلا يقول شيئاً، وهو الذي يفترض أن يُدَمِّر فرانتس كل التدمير. وها هي ذي تنهض عن كرسيّها قائمة، بيضاء كالجدار، قد تفتّق وجهها على نحوٍ رهيب، وهي تزعق زعيقاً مُدَوِّياً، في دَوْرتها وتسقط على قدميها، ثم تنتصب قائمة من جديد، ويستيقظ فرانتس فجأة، ويستشيط شرايير غضباً، ما الذي حدث يا ترى، وممّ تعاني هذه، ابنة الإنسان، إنها تجري حول المنضدة، إلى فرانتس، على عجل، ماذا أفعل؟، فإن هذا، وهو الموت، سوف يطلق طَلْقَته، فقد انتهت المسالة إلى غايتها، ومضى كل شيء وانقضى، القاتل، والعالم قد آذنت شمسه بالمغيب، وأنا لا أريد أن أموت، لا أريد أن يُقْطَع رأسي، كل شيء مضى وانقضى.

وتنهض قائمة، وتعدو فتسقط، وتقف قبالة فرانتس، بيضاء، مزمجرة، وتروح وتجيء وقد استرخت أطرافها وتهدَّلت، وتقول: «فتوجّه نَحْوَ الخزانة الصغيرة، أيها

القاتل، النجدة، النجدة، وتزمجر وقد اتسعت عيناها فأصبحتا في مثل حجم قبضة اليد: «النجدة» وتنصب في أوصال كلا الرجلين البرودة الجليديّة فتنفذ في عظامهما، وفرانتس لا يعرف ما الذي حدث، فهو لا يرى سوى الحركة، ما الذي سيأتي يا تُرى– هنالك يفهم، فقد كانت يد شرايبر اليد اليمنى في جيب بنطاله، وينتهي الأمر بفرانتس إلى التَّزَعْزُع والترجُّح، وتبدو المسألة مثلما كانت عليه في الفِناء أثناء الوقوفِ موقفَ الحارس النذير، وبات من المفروض أن تنطلق المسألة من جديد، غير أنه لا يريد وأقول لك إنه لا يريد، لا يريد أن يُقْذَف به تحت السيارة، وهو يئن متوجعاً، ويتخلَّص من إيفا، وقد رَقَد على الأرض البريد الأخضر، والبلغاريّ يُعْقَد قِرانه على أميرة، ولا بُدَّ لي أن أرى ذلك ذات مرة، يجب علينا أن نحصل أوَّل الأمر على الكرسيّ، ويَئِنُّ متوجِّعاً بصوتٍ عال، ولمّا كان لا ينظر إلاّ إلى شرايْبَر، ولا ينظر إلى الكرسيّ، فهو يقذف بالكرسي، حوله، ولا بُدَّ لنا أن نأخذ الكرسيّ، ونتصرف ضدَّ هذا. في السيارة الذاهبة إلى ماغديبورغ، وهم يقرعون جرس العاصفة على أبواب المستشفى، وتظل إيفا تصرخ على الدوام، يا للعجب، ها نحن ننقذ أنفسنا، ونحرِز تقدماً، إنه هواء كثيف، ونحن نتغلغل نافذين، ويحني ظهره نحو الكرسيّ هنالك ينطلق شرايبر الذي تولاّه الفزع بسرعة مدوِّية نحو الباب، مأخوذاً بالخوف، إن هؤلاء هنا جميعاً لمجانين، وفي البهو تنفتح أبواب.

أما في المقصف، في الأسفل فقد سمعوا الصراخ والجَلَبة، وإذ بنفران يصعدان على الفور، يَلْقَيان، على السُلَّم المدعو شرايبر بينما كان هذا يمرُّ بهما وهو يجري، غير أن هذا كان رأسه في الأعلى وهو ينادي ويلوِّح: التَمِسوا لنا طبيباً على عجل، سكتة قلبية، وإذ هو قد ولّى الأدبار، الكلب المكّار.

وفي الدور العلوي كان فرانتس يرقد مَغمِيّاً عليه في الحجرة، وقد قعدت إيفا القرفصاء، قعدة جانبيّة، بين النافذة والخزانة المنخفضة، تزعق زعيقاً وكأنها رأت شبحاً. ويُرْقِدان فرانتس بحذر على السرير. وباتت المضيفة تعرف أحوال إيفا وظروفها، فهي تصبُّ لها الماءَ على رأسها، ثم تقول إيفا بصوت خفيض: «رغيف صغير»، ويضحك الرجال: «هذه تريد رغيفاً صغيراً» أما المضيفة فترفعها على كتفيها،

وتقعد كل منهما على كرسيّ» «هذا ما تقوله على الدوام عندما يكون لديها هذا. غير أن هذا ليس بسكتة قلبية، وإنما هي الأعصاب، وعقوبة السماء أهتما بالرجل المريض. وما من شك في أن هذا سقط على الأرض مفلتاً من بين يديها. فما بال هذا يعود إلى الوقوف على قدميه، لا بُدَّ لهذا أن يقف على قدميه دائماً، وهنا تثور ثائرتها» «ما علينا، ما الذي يصرخ به هذا، يا تُرى: سكتة قلبية. ؟» «مَنْ؟» «إنه ذلك الذي مَرَّ بنا لتوّه، على السُلَّم»: «كلاّ، بل لأن هذا غبيٌّ مغفَّل، وما من شك في أنني أعرف صاحبتي إيفا منذ خمس سنين، وهي على هذه الشاكلة، وعندما تزعَق هذه لا يُسعف إلاّ الماء».

وحين يأتي هربرت في المساء إلى البيت، يعطي إيفا مسدساً، من أجل كل الحالات، ولكيلا تنتظر أوَّلاً إلى أن يطلق الآخر النار، عند ذلك يكون قد فات الأوان. أمّا هو ذاته فيشرع في معالجة الجوربين ويسأل عن شرايير، لا لكي يعثر عليه، بالطبع. أما رهط بومز فهم جميعاً في إجازة، ثم إنه ما من أحد يريد أن يتدخل في القضية. أمّا شرايير فقد هرب بالطبع، وأما المال المخصص لفرانتس فقد دَسَّه في جيبه، ومضى إلى أورانيينبورغ، حيث مزرعته الحقيرة، وأمّا الفتى راينهولد فما زال يغشّنه ويخاتله، ولم يأخذ بيبركوبف مالاً، غير أنَّ إيفا هيِّنة لينة مطواعة، وقد أودع المال لديها، وهذه سوف تصنع ما تصنع. إذاً فهذه هي المسألة.

لقد بلغنا شهر حزيران في برلين على الرغم من كل شيء، ويظل الطقس دافئاً وماطِراً، ويحدث الكثير من الأشياء في العالم. لقد تمَّ إسقاط السفينة الجوية، إيطاليا، مع الجنرال نوبيل، وهي ترسل إشاراتها البرقية حيث تستقر، أي في الشمال الشرقي من الجبال ذوات القمم المدبَّبة، حيث يصعب الاقتراب منها، مع ذلك، على أن طائرة أخرى صادفت خطأ أعظم أوتِيَته دفعة واحدة، من سان فرانسيسكو إلى أوستراليا، في ٧٧ ساعة وحطّت على الأرض بسَلاسَة، ثم يأتي ملك إسبانيا الذي يتنازع مع دكتاتوره، بريمو، كلاّ، فنحن نعتزم أن نعقد آمالنا على أن تعود المسألة كما كانت، على أن هذا مسَّه مسّاً رفيقاً مستعذَباً وذلك في الحقيقة منذ النظرة الأولى، خِطبة بين أهل بادِن وأهل السويد: وهنا اشتعلت النار بين أميرة من بلاد أعواد الثقاب وبين أمير من بادِن، وعندما يدخل المرء في حسبانه مقدار التباعد بين

بادِن والسويد، فسوف تتولاّه الدهشة، كيف أمكن أن تستقيم الأمور بها، مثلما يستقيم هذا، استقامة طلقات المسدس على مثل هذه المسافة، اجل فإن النساء هُنَّ نقطة ضعفي، وهُنَّ الموضع الذي أغدو فيه واحداً البشر الفانين، فإذا ما قبلت الأولى فكَّرت في الثانية، وخالَسْتُ النظر أرسله إلى الثالثة، أجل، أجل، النساء يمثلن نقطة الضعف عندي، فما الذي ينبغي لي أن أفعله، ما من شك في أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال هذا، وإذا ذَهبت ذات مرة إلى النساء وأنا مفلس كتبت ذلك، كتبت، عندها، على باب قلبي، عبارة: «البضاعة نافِدة».

ويضيف تشارلي أَمْبِرغ قائلاً: «سوف أنتزع هُدْباً من أهدابي وأوَخِزُك به لكي تموتي، ثم آخذ قلم أحمر الشفاه وأقتلك به. وعندما تكونين بعد ذلك مستاءة، هنالك لا أعرف إلاّ حيلة واحدة وأطلب مرآة وأنصحك بعصارة السبانخ.

وإذاً فالجو يظل دافئاً، ماطراً، ففي منتصف النهار تبلغ درجة الحرارة ٢٢ مئوية. ومع هذا الطقس يمثل «قاتل البنات» روتوفسكي في برلين أمام محكمة المحلَّفين، ويترتَّب عليه أن يغتسل إلى أن يَطْهُر. ويرتبط بذلك سؤال: القتيلة إلزا آرندت هي الزوجة الهاربة لمستشار معهد الأبحاث؟ ذلك لأن هذا يرى، خطَأً، أن الممكن، بل ربما كان من المرغوب فيه أن تكون القتيلة إلزا آرندت زوجته. ففي حالة الإقرار والموافقة يريد هو أن يدلي أمام المحكمة بأقوال لها أهميتها وتكمن في الجو موضوعية معينة، إنها تكمن في الجوِّ، وتكمن في الجو، في الجو. يكمن في الجو شيء جنونيّ، يكمن في الجو شيء من قبيل التنويم المغناطيسي، إنه يكمن في الجو، يكمن في الجو، وما عاد يخرج من الجو.

ولكن في يوم الإثنين التالي سوف يفتح خط المدينة الكهربائي. وهذا يتخذ من إدارة الخطوط الكهربائية في الرايخ حافزاً، أو باعثاً، لكي يقتحموا الأخطار من جديد، ولا يحفِلوا بالانتباه أو الحذر، أو يتخلَّفوا، إنهم يجعلون من أنفسهم أناساً يستحقّون العقوبة.

فلتنهض أيها الفكر الواهِن، ولْتَقِف على قدمَيْك

هناك أشكال من الإغماء أو العجز لا تعدُّ شيئاً آخر سوى ألوانٍ من الموت في الجسد الحيّ. ويوضع فرانتس بيبركوبف، في إغماءته، في السرير من جديد، ويرقد، يرقد إلى أن يبلغ أيام الدفء» ويقرر قائلاً: «لقد بتُّ من الموت على شفا حفرة. إنني أشعر بذلك وأنا في طور الفَطَس الحقيقيّ. إذا كنت الآن لا تفعل شيئاً، يا فرانتس، لا تفعل شيئاً حقيقيّاً، حاسماً، ملموساً، ولا تتناول بيدك هراوة، أو سيفاً، وتوجه الضربات حوالَيْك، وحين لا تنطلق راكضاً، بأي شيء كان، يا فرانتس، يا فرانتس، يابنيّ، ياصغيري بيبركوبف، ياقطعة الأثاث القديمة، عند ذالك تكون قد انتهيت وفَرَغ الناس منك، تماماً! عند ذلك تستطيع أن تطلب المازورة لأخذ المقاس.

ويطلق زَفْرَتُه من الأعماق: «أنا لا أريد، ولا أريد، ولن أَفْطَس، وينظر إلى الحجرة، أما الساعة الجدارية فترسل دقّاتها، وأنا مازلت هنا، مازلت هنا، وهم يريدون إنهم يريدون أن يسحلوني وجسدي على التراب. لقد أوشك شرايبر أن يسحقني سحق اللامبالي ولكن لا يجوز أن يحدث هذا، ويرفع فرانتس يده المُفْرَدة التي تبقّت له: لا ينبغي أن يحدث هذا له.

ثم إن الخوف الفعلي يستنفره ويخرجه من مخبئه، فلا يظل راقداً، ولو مات في الطريق ممدّداً أطرافه، فلا يكون له بُدٌّ أن يخرج من سريره ولا يكون له بد من الخروج

أما هربرت فيشوف فقد ذهب مع إيفا السوداء إلى تسوبوت[٢]؟ ، فيكون لها فارس قادر على الدفع يرجع ميلاده إلى سنة أبعد ، فارس من المضاربين في البورصة تستغله وهربرت فيشوف يستخفي باسم مستعار ، أمّا الفتاة فتعمل عملاً جيداً وكلٌّ منهما يرى صاحبه في كل يوم ، ويسيران متحدَّيْن ، ويناماں منفصلَيْن ، وفي فترة الصيف هذه الجميلة يسير فرانتس بيبركوبف من جديد ، مرة أخرى ، هو ، من جديد ، وحده تماماً ، فرانتس بيبركوبف الوحيد ، مُقَلْقَلاً ، غير أنه يسير ، وتراه أفعى الكوبرا ، فتزحف ببعض الجهد ، وتعدو وقد مَسَّها الضُرّ ، إنها مازالت الكوبرا القديمة ، وإن كانت ذات حلقات سود حول عينيها ، وقد بات الحيوان البدين مهزولاً ، ضامراً مستنفَد القوى .

على أن بعض الأمور باتت عند الفتى المتقدِّم في السن ، الذي يحرِّر قدميه الآن في الشوارع ، لكيلا يموت في دكانه ممدَّد الأطراف ، بات عند هذا الفتى الذي يَعْدو هارباً من الموت أوضح من ذي قبل ، بلا ريب ، لقد أفادته الحياة ، ولا شك ، ببعض الفوائد ، فبات الآن يتشمَّم الهواء ، ويتشمم رائحة الشوارع ، أتُراها مازالت تنتمي إليه ، أم تُراها تعتزم أن تتقبَّله . وهو يحدِّق في أعمدة الإعلانات ، مذهولاً ، وكأنّ هذه تمثل حَدَثاً ، أجل ، ياصغيري ، الآن ما عُدْتَ تسير على النطاق العريض ، على ساقين ، الآن تُنْشب أظفارك متعلّقاً بالأشياء ، متشبثاً بها ، وتتماسك بجهد بالغ ، لمجرَّد أن لا يُقْذَف بك إلى الخارج!

الحياة شيء جهنَّميّ ، أليست كذلك؟ لقد سبق أن عرفتها من قبلُ ذات مرة ، في حانة هينشكه ، حين همّوا أن يقذفوا بك إلى الخارج ، بضمادك ، وهاجمك الفتى ، ولم تكن اقترفت بحقه شيئاً ، وقد حسبت أن العالم هادئ ، وأن هناك نظاماً ، وأن ثمة شيئاً ليس على ما يُرام ، هؤلاء الذين يقفون في الجهة المقابلة ، يبعثون في النفس الكثير من الفزع والرهبة . لقد كان هذا ، في اللحظة الراهنة ، وكان يتسم في اللحظة الراهنة بسمة العَرافة والتكهُّن .

---

(٢) مدينة بولونيّة في خليج دانتسينغ zoppot (المترجم)

والآن فأقْبِل، أنتَ، أَقْبِل، فإني أريد أن أعرض عليك شيئاً ما، العاهرة الكبيرة، عاهرة بابل التي تقعد ههنا، لدى الماء، وأنت ترى امرأة تستوي على ظهر حيوان ذي لون قرمزيّ. والمرأة حافلة بأسماء التجديف ومرادفاته، ولها سبعة من الرؤوس وعشرة من القرون وقد اكتست بالأرجوان والقرمز وتَمَوَّهت بالذهب والحجارة الكريمة واللآلئ، وفي يدها كأس ذهبية، وقد كتب على جبهتها اسم، سِرٌّ، بابل العظيمة، أمّ كل الأهوال والفظائع على وجه الأرض لقد شربت هذه المرأة من دماء كل القديسين، وهذه المرأة سكرى من دم القديسين.

غير أن فرانتس بيبركوبف يجوب الشوارع، فهو يعدو عَدْوَ الخبب الخاصّ به، ولا يتوانى، ولا يريد أكثر من أن ينتبه ذات مرة إلى القوة على نحوٍ منتظم، قويّاً في عضلاته. إنه طقس صيفيّ دافئ، وفرانتس يتنقَّل من مقصف إلى مقصف.

وهو يتحاشى الحرارة. وفي المقصف تنطلق أمامه أقداح البيرة الكبيرة.

أمّا القدح فيقول: آنا آتٍ من القبو، من حشيشة الدينار والشعير، وأنا الآن بارد، فكيف ترى مذاقي؟

ويقول فرانتس: مُرٌّ، جميل، بارد.

أجل، أنا أبعث فيك البرودة، أنا أُبَرِّد الرجال، ثم أبعث فيهم الدفء، ثم أجرِّدهم من الأفكار الفائضة عن الحاجة؟

أجل، فإن معظم الأفكار فائض عن الحاجة، أليس كذلك، يا تُرى؟– بالطبع، فأنت امرؤٌ قُدِّرَ له أن يكون على الحق.

وكان ينتصب أمام فرانتس قدح صغير من الخمر، أصفرَ فاتحاً، من أين جاؤوك به؟– أصابوني بجروح وأثاروني، أيها الآدمي– فأنت، أيها الفتى، تعَضّ، وإنّ لك لَمخالبَ– ياللعجب، ومن أجل ذلك فأنا في حاجة بعدُ إلى قدح من الخمر، بلا ريب، أتُراك مضى عليك وقت طويل لم تَرَ فيه قدحاً من الخمر؟– كلاّ، لقد أشرفت على الموت، أيْ قَدَحَ الخمر الصغير، لقد كِدْت أموت، لقد انطلقت في رحلتي من بطاقة عودة. وهكذا تبدو– كذلك، كلاّ، لا تهذرَنّ بكلام فارغ، هلاّ جربنا

ذلك ، هَلُمَّ إليَّ ، آه ، أنت امرؤ طيب ، في جوفك نار ، إنها نار فيك ، أيها الفتى- الخمر تنساب في حلقه: مثل هذه النار .

ويتصاعد دخان النار في فرانتس ، فيجف حلقه ، لا بد أن يتناول آخر كذلك: أنت القدح الثاني ، لقد تناولت قدحاً ، ماذا تريد أن تقول لي؟- أيها البدين جرِّبني أوَّلاً ، ثم تستطيع أن تتكلم- بَعْدَ لذلك .

هنالك يقول القدح: ألا فأنتبه ، أنتَ ، عندما تشرب قدحين من البيرة أيضاً ، وفوقهما قدحاً من الكراوية وقدحاً من الخمر الساخنة ، هنالك تفيض وتطفح مثلما يحدث للحمّص- هكذا؟ عند ذلك ستغدو بديناً من جديد ، وإلاّ فكيف تبدو يا تُرى ، أيها الآدميّ؟ وهل تستطيع ، يا تُرى أن تعدُوَ بين البشر؟ جرعةً أخرى .

ويُمسك فرانتس بالجرعة الثالثة ، ها أنذا أتجرَّع ، إذ تأتي الجرعة الأخرى بعد الجرعة الأولى ، وعلينا أن نحافظ على النظام دائماً .

ويسأل عن الرابعة: ماذا تعرف أنت ، ياعزيزي؟- إنها لا تزيد على أن تزعق زعيقاً مُفْرِحاً. أما فرانتس فيصبُّها لنفسه وراء ذلك: فيما أعتقد. وكل ما تقوله ، ياعزيزي ، فأنا أصدقه . فأنت خروفي ، ونحن نذهب معاً إلى المرعى .

وهكذا جاء فرانتس بيبر كوبف ، مرة ثالثة ، إلى برلين ، أما في المرة الأولى فقد أوشكت الأَسْقُفُ أن تنزلق وتسقط ، وجاء اليهود ، وتمَّ إنقاذه وأما في المرة الثانية فقد خدعه لودَرْز . ولبث يَعُبُّ الخمور عَبّاً حتى فاض بها جوفه ، والآن ، في المرة الثالثة ، ذهبت ذراعه ، غير أنه يجرؤ ويتجاسر على دخول المدينة . أما الجرأة فموفورة عند الرجل ، جرأة تضاعفت مرتين وثلاثة ، وكان هربرت وإيفا قد خلّفا له وديعة مالية جميلة ، ويثبت ذلك قَيِّم المقصف في الدور السفلي . ولكن فرانتس لا يأخذ سوى بضعة قروش ، ويقرر في هذا الصدد: أنه لن يأخذ سوى بضعة قروش ، ويقرر في هذا الصدد ، قائلاً: أمّا المال فلا أريد أن آخذ منه شيئاً ، إذ لا بُدَّ لي أن أجعل نفسي مستقلاً ، . ثم إنه يخرج في طلب «الرفاهية» ويطالب بالمساندة والمؤازرة . «هنا لا بُدَّ لنا من البحث أوَّلاً» «وماذا أصنع في هذه الأثناء؟» «عُدْ إلينا بعد بضعة أيام ، من

جديد» «في بضعة أيام يمكن أن يموت المرء جوعاً» «بمثل هذه السرعة لا يموت أحد من الجوع في برلين، وبذلك يأتون جميعاً. وفضلاً عن ذلك فهو لا يعطي مالاً، وإنما هي مجرد ماركات. أمّا الإيجار فندفعه من هنا، والمسكن يستقيم أمره، بلا ريب؟

هنالك ينحدر فرانتس، من جديد من «الرفاهية» وحين يغدو في الأسفل، تنقشع الغشاوة عن عينيه: البحث، قل لي ذات مرة، البحث، ربما يعمد هؤلاء إلى البحث عن ذراعي، مثلما جاء هذا. إنه يقف أمام محل سجايره، ويُعْمِل فكره ويُنْعِم النظر: هؤلاء سوف يتساءلون ماالذي جرى لذراعي، مَنْ كان دَفَع التكاليف، وأين كنت أرقد، هذا أمر في وسع أولئك القوم أن يسألوا عنه، ثم: المورد الذي كنت أعيش منه في الشهور الأخيرة. انتظر.

ويفكّر، وينعم النظر، ويواصل تجواله: ماذا يصنع المرء هنا؟ مَنْ ينبغي لي أن أسأله الآن، وكيف يفترض أن أفعل ذلك الآن، أمّا مالُها فلا أزمع أن أعيش منه.

وهنا يبحث، على مدى يومين بين ميدان الإسكندر وميدان روزنتال، هنا وهناك، بعدَ مِكْ الذي قد يكون من الممكن أن يتحدث إليه، وفي الأمسية التالية يجده في ميدان روزنتال، وينظر أحدهما إلى الآخر. ويهم فرانتس بأن يصافح يده، وكيف كانوا في تلك الأيام يحيّي بعضهم بعضاً، وفقاً لحكاية لودر، والآن– ومدَّ مِكْ يده على تردُّد، فلا يصافحها. ويهمُّ فرانتس أن يبدأ من جديد، بالمصافحة باليسرى، وإذا مِكْ القصير يتخذ وجهه ملامح تتسم بالجدّية البالغة، ما بال هذا الفتى، أتُراني ألحقت به شيئاً ما؟ ويصعدان في شارع مُنْتس ويروحان ويغدوان، ثم يعودان من جديد ليجتازا شارع روزنتال، وفرانتس ينتظر دائماً ليرى ألَن يسأل عن الذراع. غير أنه لا يسأل حتى عن ذلك، وهو الذي يرى دائماً رؤية جانبيّة. ربما كنت أبدو في نظر هذا قذراً إلى حدٍّ مفرط. وإذ فرانتس يبدأ بمرح، ويسأل عن سيللي، وما تفعله هذه.

واعجباً، إن أحوال هذه لعلى ما يرام، وكيف يفترَض أن لا تكون أحوالها على مايرام، ومِكْ يتحدث بالقلم بالعريض عن هذه، ويجشّم فرانتس نفسه عناء

الضحك ، ومازال هذا لا يسأل عن الذراع ، وهنا ينبثق ، في ذهن فرانتس ، فجأة ، ضوءٌ ما ، فيسأل: «أتُراك ما زلت تتردَّد على المقصف هنا في شارع برينتسلاو؟» ويقول ملْك وقد بان عليه الازدراء ، : «أجل ، في بعض الأحيان» . هنالك يعرف فرانتس ويسير بطيئاً ، ويظل متخلفاً ، يسير وراء ملْك: «لقد حدَّث هذا بومز بشيء ما ، عنّي أو عن راينهولد ، أو عن شرايبر ، وهذا يعدُّني من ذوي الاقتحام والسَّطو ، ولو شئت أن أتكلم الآن لكان لا بُدَّ لي أن أسرد كل شيء ، ولكن هنا يستطيع أن ينتظر وقتاً طويلاً ، وهذا ما لا أفعله .

ويهيّئ فرانتس لنفسه ، بالتحفُّز ، اندفاعة ، ويقف على قدميه أمام مِلْك: «كلاّ ، ياغوتليب ، عندئذ نريد أن يودِّع كلّ منا صاحبه . أمّا أنا فلا بُدّ لي من الذهاب إلى البيت ، ولا بُدَّ لذي العاهة أن يذهب في ساعة مبكرة إلى فراشه» وينظر مِلْك إليه أوّل مرة نظرة كاملة ، ويخرج الغليون من فمه ويهم أن يسأله عن شيء ما ، ولكن فرانتس يلوِّح إليه بيده أن لا يفعل ، فما من شيء يترتَّب السؤال عنه ، وكان قد مدَّ يده إليه ، ثم ا نصرف ، أمّا مِلْك فيحُكُّ رأسه ويفكر ، لا بُدَّ لي أن أحاسب هذا حساباً عسيراً ، وهو غير راض عن نفسه .

ويزحف فرانتس بيبركوبف في ميدان روزنتال ، فيَقَرُّ عيناً ، ويقول: ما الذي يفترض أن يعنيَه كل هذا الهَذر والكلام الفارغ ، لا بُدَّ لي من كسب المال ، وما الذي يفترَض أن يجديَه عليّ مِلْك ، لا بُدَّ لي من الوصول إلى المال .

وهنا كان حريّ بكم أن تَرَوْا صاحبكم فرانتس بيبركوبف ، حين أقبل يسعى إلى اقتناص المال . لقد كان هذا شيئاً جديداً ، قد ثارت ثائرته فيه ، وكان آدم وهربرت قد وضعا حجرتهما تحت تصرفه ، ولكن فرانتس كان يود أن يحصل على محل خاص به ، وإلاّ فلن تروج تجارته ، وتأزف لحظة ملعونة حين يحظى فرانتس بدكان ، وتضع المضيفة بين يديه ، على المنضدة ، الإبلاغات بالحضور . وهنا يقعد صاحبنا فرانتس ، ويضطر إلى أن يعود من جديد إلى إمعان النظر والتأمُّل: هنا سوف أرفع رسالتي ، اسمي بيبركوبف ، وعلى الفور سوف ينظر هؤلاء في صناديقهم ، ثم يهتفون إلى رئاسة الشرطة ، ثم يُقال: هلُمَّ إلينا ذات مرة ، ولماذا لا تدعنا نراك على الإطلاق ،

وماذا حدث لذراعك يا تُرى، وأين كنت ترقد، ومَنْ دفع التكاليف، وكل شيء غير صحيح.

وتثور ثائرته على المنضدة: الرعاية، أنا في حاجة إلى الرعاية والرفاهية. أنا لا أريد هذا، فهذا ليس من شأن الرجل الحر، وهو يكتب ومازال يمعن النظر ويستشيط غضباً، اسماً على رقعة الإبلاغ بالحضور، يكتب أوَّلاً، فرانتس، وهو في هذه الأثناء يضع نصب عينيه القسم الطبّي، وكذلك الرعاية في شارع غرونر، والسيارة التي قذفوا به منها. وتَلَمَّس، من خلال سترته، بقيّة ما بتروه من كتفه. سوف يسألون عن الذراع، وإذا فعلوا فلن يضيرني ذلك في شيء، اللعنة، مرة أخرى. سأفعل.

وكان ينقضّ على الورق بحروفه، غليظةً، كأنما ينقضُّ عليه بعصا. أنا لم يسبق لي بعدُ أبداً أن كنت جباناً، أمّا اسمي فلا أدع أحداً يسرقه مني، فأنا امرؤ بالغ الحرارة، وهكذا وُلِدْت، وهكذا أبقى: فرانتس بيبركوبف، حرف غليظ بعد حرف، السجن في تيغِل والشارع المشجَّر، والأشجار السود. والسجناء يقعدون هنا، يلصقون، ويمارسون التجارة ويرقّعون، إنه الغَوْص اليسير، مرة أخرى، وأنا أضع نقطة فوق الحرف. وأنا لا أخاف من الخُضْرِ والثيران والعلامة التجارية المعدنية. فأنا إمّا أن أكون رجلاً حراً وإمّا أن لا أكون رجلاً.

إنه حصّاد، يُقال له الموت.

ويعطي فرانتس رقعة الإبلاغ بالحضور للمضيفة، وهكذا، فسيكون هذا خليقاً أن يكون مهموماً، وقد تمّ الفراغ منه، تمّ الفراغ منه، والآن نرفع السراويل إلى أعلى، ونُصَلِّب سيقاننا ونَشُدُّها، ونزحف، طاهرين، على برلين.

الثياب تصنع الناس وإنسان آخر يحصل على عينين مُختلفتين

وقد سقط، عند شارع برونِن، حيث كانوا يحفرون تحت مستوى سطح الأرض، حصان في الهوَّة. والناس يقفون منذ نصف ساعة حول الهُوَّة، والإطفائية تتقدم منها بسيارة، وهي تضع حزاماً يحيط ببطن الحصان، وهذا ما يرد فوق بعض

أنابيب التمديد وأنابيب الغاز، ومن يدري لعله قد كُسِر عظم أحد ساقيه، إنه يرتعد ويَصْهَل، فالناس لا يرون، من علٍ سوى الرأس. ويستعينون برافعةٍ فيسحبونه إلى أعلى، والحيوان يَضْرِب بقوّة.

وكان من الحاضرين فرانتس بيبر كوبف ومِكْ، ويقفز فرانتس داخلاً في الخندق، منضماً إلى رجل الإطفاء، فيشارك في دفع الحصان إلى الأمام، وتنتاب الدهشة مِكْ والناسَ جميعاً حيال ما يمكن لفرانتس أن يصنعه بذراعه الواحد، ويفحصون صدر الحيوان الذي ينضح بالعرق، فإذا هو لم يحدث له شيء.

«فرانتس، ماذا يقولون، أنت امرؤٌ جريء، ومِنْ أين أوتيتَ القوة، بالذراع الواحدة؟» «هذا لأن لي عضلات، فإذا شئت بات ذلك في وسعي». ويسيران منحدرَيْن على طول شارع برونِن، وكانا قد التقيا أول مرة، من جديد، لتوِّهما، وكان مِكْ قد ألقى بنفسه على فرانتس «أجل، ياغوتليب، هذا يأتي بما يكفي من الطعام والشراب الجيدَيْن، وهل ينبغي لي أن أروي لك ماذا أصنع إضافة إلى ذلك» أمّا هذا فسوف أردُّه، خائباً خيبة كبيرة، وأمّا ذلك المدعو مِكْ فيخاطبني مرة أخرى بهذره وكلامه الفارغ، وأنا شاكر ممتنٌّ لأمثال هؤلاء الأصدقاء. «إذاً فلتُصْغِ إليَّ ذات مرة، يترتَّب عليَّ الآن أن أُحْسِن الصنيع، فأنا واقف في سيرك في روضة للفَرَج الشعبية في شارع الإلبينغَر، وأصرخ: يا حصان هوبه الصغير[٣]؟ في ميدان سباق الخيل، هَلُمَّ إليّ، سيداتي وسادتي، خمسون قرشاً، وفي شارع رومِنْتِن، خلف ذلك، هناك أكون الرجل الأقوى، بذراع واحدة، ولكن منذ الأمس فحسب، تستطيع أن تمارس الملاكمة معي» «أيها الآدميْ، أتكون مصارعة بذراع واحدة» «هَلُمَّ إليّ، وسوف ترى، فحيث لا أستطيع أن أغطّي في الأعلى، أمارس عمل تحريك الساقين في ألوان الرياضات، وفرانتس يستغبي هذا أيّما استغباء، أمّا مِكْ فتتولاّه الدهشة.

(٣) إشارة إلى ما ماريانا هوبه، الممثّلة المسرحيّة والسينمائيّة «١٩١١» وميدان سباق الخيل في برلين. (المترجم)

ويمضيان بخُطاهما البطيئة، القديمة، منحدرَيْن، إلى ميدان الإسكندر، ويسيران بعض المسير في شارع الجِبْس، حيث يقوده فرانتس نحو دار الحفلات الراقصة، القديمة: «لقد تمَّ تجديد هذه الدار، وهنا تستطيع أن تراني أرقص، وأن تراني لدى البار»، ولا يعرف مِكْ ما يشعر به: «ما الذي دهاك، يا ترى، فحسب، هلاّ قلتَ لي» صحيح، فأنا عدت من جديد، أصطاد مثلما كنت فيما سلف، كلاّ، ولمَ لا، يا تُرى، ألديك اعتراض على هذا، هَلُمَّ إلينا، وادخل، وأنظر إليّ، لترى كَيف أرقص بذراعٍ واحدة» «كلاّ، كلاّ، سيكون هذا أحبَّ إليّ في منتسهوف» «وهذا حسن، إذاً لا تدعنا ندخل، ولكن عليك أن تأتي ذات مرة يوم الخميس، أو يوم السبت، كلاّ، ما من شك في أنك تحسَب أنني أقوم بعمل خَصِيّ، لأنهم ذهبوا بذراعي بإطلاق النار عليها» «ومن أطلق النار؟» «لديّ هنا تبادل طلقات نارية، مع المسؤولين الجنائيين، وكان هذا في الحقيقة من أجل لا شيء على الإطلاق، كان هذا وراءنا، في ميدان بيلوف، إذ همَّ بعض الفتيان المهذَبين أن يُنْشِبوا مخالبهم، فلم يظفروا بشيء، وأنّى لهم ذلك. أقول لك، أنا أسير في الخارج سيراً طويلاً، فأرى ما يُدْفَع به، في الموقع الصحيح، عند الناصية، رجلين يثيران الشبهة، في الخلف وعلى قبعتهما فرشاة حلاقة. هل ينبغي لي أن أقول لك: أنا في المنزل، أهمس للصبيّ بهذا، وهو الذي يقف حارساً نذيراً، غير أن هؤلاء يأبَوْن الانصراف، على أنهم أجدر كثيراً أَنْ لا يفعلوا ذلك بسبب مسؤولَيْن جنائيين يا رجل، لقد كان هؤلاء صغاراً، ولا بُدَّ لهم، أوّلاً، أن يستلموا البضاعة، وهنا يأتيك المسؤولون الجنائيون ويريدون أن يتشمَّموا المنزل، وهنا يكون مما لا بُدَّ منه أن يكون أحد لاحظ شيئاً ما في المنزل، سِلَعاً من الفراء، أيُّ نوع من النساء، حين يكون الفحم قليلاً، لا يفي بالحاجة. ذلك لأننا نضع أنفسنا في الشَّرَك، وحين تريد الثيران الدخول، ماذا أقول، لا تستطيع فتح باب المنزل، أما الآخرون فيهربون إلى الخارج من الوراء، ثمَّ، عندما يختبر المسؤولون الجنائيون مع صانع الأقفال شيئاً ما، أطلق أنا النار من خلال ثقب المفتاح. ماذا تقول، يامِكْ؟» «أين كان هذا؟» «هذا رجل تظل البَصْقات بعيدة عنه «في برلين، حول الناصية، في شارع الإمبراطور» «هلاّ أمسكت، بربِّك

عن الكلام الفارغ» «كلاّ ، لقد أطلقت النار من دون أن أنظر إلى ما هو أمامي ، غير أن الطلقات نفذت ، على وجه صحيح ، من خلال الباب ، ومع ذلك فلم يظفروا بي أبداً ، إلى أن يتمكّنوا من فتح الباب ، ونكون قد وَلَّيْنا الأدبار من دون أن نخلِّف أثراً ، إلاّ ذراعي فحسب ، وأنت ترى ذلك بالطبع» ويقول مِكْ متذمِّراً: «ماهذا؟ ويمدُّ فرانتس يده إليه ، بأسلوب رائع: «لا بأس ، إلى اللقاء ، يامِكْ ، وحين تحتاج ذات مرة إلى شيء ما ، فأنا جاهز– سأقول لك هذا بعدُ ، وأتمنى لك صفقات جيدة» .

وينصرف عن طريق شارع فاينمايستر ، وقد أصيب مِكْ بصدمة جعلته مَهيض الجناح بصورة كاملة: إمّا أنَّ هذا الفتى يستغبيني– وإما أن يترتَّب عليَّ أن أسأل بومز . فما من شك في أنَّ هؤلاء حدَّثوني بحديث مختلف كل الاختلاف .

وكان فرانتس يتجوَّل في الشوارع عائداً أدراجه إلى ميدان الإسكندر .

ولا أستطيع أن أصفه على وجه الدقة مثلما كان يبدو درع أخيل الذي كان يخرج مسلَّحاً به ومزداناً ، في ميدان القتال ، وما عدتُ أعي إلاّ وعياً غامضاً ، عظام قصبة اليد أو عظام قصبة الساق .

أمّا كيف كان فرانتس يبدو بها ، وهو الذي يخرج الآن إلى كفاح جديد ، فذلك ما يترتَّب عليَّ أن أقوله ، وهو أن فرانتس بيبركوبف كان يعتمر قبعته القديمة التي يكسوها الغبار وأشياءه الملطخة بالأقذار ، قَبوعَةٌ ، عليها مَرساة خفيّة ، وسترة ، وبنطال ذا ساقين بنيَّتين باليتين .

وقد دخل منتسهوف ، بعد عشر دقائق ، وفي الأسفل قدح من البيرة مع قدح آخر تُرِك قائماً هنا من قِبَل امرئ آخر ، مازال جديداً إلى حد بعيد ، في الخارج ، وكان يتحوَّل مع هذا شأن المتنزّه ، لأن الجوّ في الداخل كانت تشيع فيه الرطوبة والعفونة ، وكان في الخارج جميلاً للغاية ، وإن كان غير ملائم إلى حدّ ما ، كانا يتنزّهان في شارع فاينمايستر وشارع روزنتال الذي ثارت حفيظته ، وهو يرى كل هذا القدر من النصب والخداع حيثما ولّى وجهه! فقد بات إنساناً آخر ، ذا عينين مختلفتين ، وكأنه لم يُؤْتَ هاتَيْن العينين إلاّ الآن فحسب! الفتاة وهو ، اللذان يضحكان حتى ينحني

جسداهما ، من فرط ما يريان من هذا كله! الساعة تدق السادسة ، وثمة شيء ما في الجهة المقابلة ، السماء تمطر ، وينهال المطر في مثل أفواه القرب ، والحمد لله ، وذات العُكّاز القصيرة لها مظلة .

إنه المقصف، وينظرون من خلال النافذة

«هنا يبيع صاحب المقصف بيرَته ، انتبه ، لترى كيف يشبك ذراعيه ، هل رأيتِ ، يا إمّي ، هل رأيت: الزبد يصل حتى هنا؟ الزبد حتى هنا» «كلاّ ، وأيُّ شيء في هذا؟» «الزبد حتى هنا؟» إنه الخداع! إنه الخداع! وإنه لعلى الحق ، فالفتى يحمل شهادة ، وإني لمسرور» .

«كلاّ ، عندئذ يكون نصّاباً بلا ريب!» «الفتى يحمل شهادة رسمية!» محل لسِلع اللعب واللهو:

«يا للهَوْل ، يا إمّي ، أتعرفين ، عندما أقف هنا ، وأنظر إلى الألعاب الصغيرة ، أنظري ، عندئذ لا أَقول شيئاً: فأنا أَقَرُّ عيناً ، مثل هذا الخطأ الفاحش ، ومثل بيوضه هذه المرسومة المَطْليّة ، والتي نضطر إلى أن نلصقها بصفتها أطفالاً صغاراً . أمّا ما دفعه هؤلاء لقاء ذلك ، فهذا ما لا أريد أن أصرّح به بالطبع» كلاّ ، فأنت ترى» . إنما هؤلاء خنازير ، وأفضل ما نفعله هو أن نحطِّم ألواح الزجاج ، أيها النهّابون ، إن استغلال الفقراء والمساكين لأمر ينطوي على وَضاعة» .

معاطف نسائية ، هنا أُريد أن أمرَّ مرور الكرام ، بينما تبادر هي إلى استعمال الكوابح لوقف سَيْرها ، ذلك لأننا ، أردنا أن نعرف، فأنا أستطيع أن أترنَّم لك بأغنية عن هذا ، الآن ، من جديد. خياطة المعاطف النسائية ، من أجل السيِّدات الجميلات ، ماذا تعتقد ، ماالذي يحصل عليه المرء مقابل شيء كهذا؟» «هلمَّ إليَّ ، بربّكِ ، أيتها الفتاة ، لا أريد أن أعرف على الإطلاق ، ماذا تريدين أن تصنعي ، يا تُرى» .

«ألا ليتني كنت مسؤولاً جنائياً ، فأدع الناس يعرضون عليَّ بضعة قروش ، أما العباءة الحريرية فأريد أن أرتديها وحدي ، هذا ما أقوله» «كلاّ ، فقولي هذا ذات مرة»

وفي مقابل ذلك سوف أحرص على أن أرتدي عباءة حريرية، وإلاّ فأنا ثور، وقد كان على حق حين دسَّ في يدي قروشه الثمانية» «هذا كلام فارغ، بالطبع» «لأنني أرتدي بنطالاً قذراً؟ أتعرفين، يا إمّي، هذا من حصان، وكأن هذا قد سقط في هوة الطبقة الواقعة تحت الأرض، كلاّ، أمّا عندي فما من شيء يمكن عمله بثمانية قروش، ربما كنتُ في حاجة إلى ألف مارك» «وهذه الماركات الألف ستحصل عليها؟»

هذه تترصَّد له «لا تحصَلَنَّ عليها، أقول لك هذا فحسب، ولكني – أحصل عليها، ولا أحصل على ثمانية قروش» وتتعلّق به صعوبة، وتتولاّها الدهشة، وقد حظيت بالسعادة.

مؤسسة أمريكية للكيّ السريع، نوافذ عرض مكشوفة، ولوحان للكيّ ينبعث منهما البخار، وفي الخلفيّة عدد من الرجال الذين هم أقل سمة أمريكية، قاعدين، يدخنون، وفي الأمام وفي أكمام القميص، الخياط الأسود الصبيّ، ويدع فرانتس بصره يمرُّ به مروراً، ويهلل مغتبطاً:

إيمّي، يا إيمي الصغيرة، التي وجدتُكِ اليوم، إنما هي مفرطة في الحسن بلا ريب»، إنها مازالت لا تفهم الرجل، غير أنها قوية، شديدة البأس، تبتسم في خيلاء: «إيمّي، أيْ إيمّي الصغيرة التي عثرت عليك اليوم، لا ريب في أنك بالغة الحُسْن» على أنها مازالت لا تفهم الرجل، غير أنها تتعرض لتملُّق مفرط، ومن الممكن، ويا وَيْلاه، أن يغتاظ الآخر الذي تركها قاعدة. «إيمّي، أيتها الحلوة، إيمّي، هلاّ نظرتِ إلى الدكان فحسب» «كلاّ، فإن هذا لا يستحق الكثير، في الكيّ» «مَنْ؟» «الأسود القصير» «كلاّ، أمّا هذا فلا، بل الآخرون» «الذين هم هنا؟ هذا شيء لا تستطيع أن تعرفه. أنا لا أعرف هؤلاء» ويهلل فرانتس مغتبطاً: «أنا لمّا أَرَ هؤلاء بعدُ، غير أني أعرف هؤلاء، ألا فأنظر إليهم، والسيد المالك: فمن الأمام يمارس الكيّ، ومن الخلف– يصنع شيئاً آخر» «أهو النزول؟» «ربما، كلاّ، فهؤلاء جميعاً، بالطبع، مخادعون مكّارون، وإلى مَنْ تعود، يا تُرى، الحُلَل المعلَّقة هنا؟ لقد وَدِدْت لو أكون مجرد مسؤول جنائي بالماركة المعدنية، وأن أسأل هذا قائلاً: «فانتبه لترى كيف يهرب هؤلاء» «أليس كذلك!» «أشياء قد أنشِبَت فيها المخالب، ولم يزيدوا

على أن عَطّلوها ، منشأة الكيّ السريع! أحداث صغار ، أليس كذلك؟ فواعجباً لهم ، كيف يدخنون! إنهم يجعلون من حياتهم حياة مريحة» .

ويتابعون نزهتهم . «لم يكن بُدٌّ مِن أن يتصرف هؤلاء ، فهذا هو الشيء الحقيقي الوحيد ، وما هو إلاّ التعطُّل ، وعدم العمل ، فأخرج هذا من رأسك ، أعني الأعمال ، فمن العمل تجرّ على نفسك البقع المتخشّبة في جلد اليدين ، غير أنك لا تخرج من ذلك بالمال ، وإنما هو ، على أفضل الاحتمالات ، ثقب آخر في الرأس ، ولم يخرج إنسان من العمل بالغنى والثروة ، هذا ما أقوله لك ، وإنما هو الدوار فحسب ، أنت ترى ، هذا بالطبع؟» نعمْ .

«وماذا تصنع يا تُرى؟» وإذ هي مفعمة بالأمل ، تعالَيْ وتابعي تقدُّمَكِ ، يا إيمّي ، ها أنذا أقولها لكِ ، وأنتِ قد عُدْتِ من جديد ، في وسط غمار شارع روزنتال ، تجوبين شارع صوفي لتدخلي شارع مُنْتس ، ويذهب فرانتس ، وتنفث الأبواق إلى جانبه نشيدً زحفٍ عسكري . إنها المعركة قد انطبعت على الميدان الخالي ريتي ، تي تي ، ريتي تيتي ، لقد ظفرنا بالمدينة ، وأخذنا المال الثقيل ، الكثير ، بأسره ، فحَزَمْناه وتأبّطناه تحت أذرُعِنا ، ريتي تي ، ريتي تي!

ويضحك الإثنان ، أمّا الفتاة التي كان استخرجها من الماء ، فلها زوج من طِرازه . والحق أنها تسمى إيمّي فحسب ، ولكن كانت تحظى برعاية وقد تعرَّضت لطلاق ، خلَّفته وراءها ، وكلاهما في حالة رائعة . وتسأله إيمّي: وأين ذراعُك الأخرى يا تُرى» «إنها في المنزل ، عند عروسي التي لا تريد أن تطلق سراحي ، وعندئذ لم يكن لي بُدَّ أن أَدَع الذراع رِهاناً عندها» «إذاً فالمأمول أن يكون أمر هذه مضحكاً مثلَك» «بلى ، بالطبع ، ألم تسمعي بعد: لقد عقدت صفقة مع ذراعي ، فإذا بذراعي تنتصب على منصة ويظل ، النهار بأسره يقسم أَنْ لن يأكل إلاّ مَنْ يعمل ، ومَنْ لا يعمل فعليه أن يكابد الجوع ، وهذا ما يظل ذراعي النهار بأسره يقسم عليه ، الدخول بقرش ، والعمال الكادحون يصلون ويَقَرُّون عيناً بذلك» ، وهي تمسك بيضها ، وهو يضحك: «أنتِ تنتزعين مني الذراع الأخرى ، يا ابنة آدم» .

وهنا تنطلق في المدينة سيارة صغيرة تلفت النظر ، وعلى عجلاتها رجل مشلول ،

ينهض بنفسه، بذراعيه متقدماً إلى الأمام، وعلى العربة الصغيرة كتلة من البيارق الملوَّنة، هو يسير منطلقاً على طول شارع شونهاوْزَر المشجَّر، وهو يلتزم بكل النواصي، ويتجمع الناس حوله، ثم يبيع مساعده بطاقات بريدية بسعر عشرة قروش لكل بطاقة:

«الرحالة! يوهان كيرباخ، المولود في ٢٠ شباط ١٨٧٤، في مونيخ غلا دباخ، كان، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سليماً معافى، مشغوفاً بالإبداع، جُعِل هدفاً لطموحي الحافل بالعمل عن طريق سكتة قلبية في الجانب الأيمن، ومع ذلك فقد استعدت صحتي من جديد، إلى حدٍّ بلغ منه أنني بات في وسعي أن أذهب مسافة ساعاتٍ وحدي لأمارس مهنتي، وبذلك تمت حماية أسرتي من أكبر المحن، وفي تشرين الثاني ١٩٢٤، هلَّل كل سكان حوض الراين فرحاً، حين تمَّ تحرير الخط الحديدي الحكومي من الاحتلال البلجيكي الثقيل الوطأة، وكان كثير من الإخوة الألمان قد شربوا، من فرط السرور شراباً مُسْكِراً، وهو ما بات بالنسبة لي طامّة. وكنت أجد نفسي في هذا اليوم على طريق العودة إلى الديار، حين تَمّ قَلْبي، رأساً على عقب، من قِبَل قوة من الرجال عند مسافة ٣٠٠ متر عن مسكني، جاءت من المطعم، وبلغ من تعاسة الحادثة أنني ظللت مشوَّهاً عاجزاً طوال أيام حياتي، وما عاد في وسعي أن أسير أبداً من جديد، وأنا لا أتلقى معاشاً تقاعدياً أو أيَّ مساندة أخرى. يوهان كيرباخ».

وفي الحانة، حيث يتشمم فرانتس بيبركوبف الأخبار، فعلَ الجاسوس في هذه الأيام الجميلة، لأنه يبحث عن أية فرصة كانت، فرصة جديدة، مُحْكمة، تدفع بالمرء إلى الأمام. هنالك رأى فتىً غَضُّ الإهاب للغاية، السيارة والمشلول في محطة قطار شارع دانتزيغ، ويبدأ الآن، في الحانة، صراخ حول هذا، وما صنعوه مع آبائهم، وهذا لديه الكمية الملائمة للتفريغ، والآن يتوافر لديه القليل من الهواء، ولكن يفترض أن يكون هذا مجرد آلام عصبية، كما أنهم اختصروا له المعاش التقاعدي، وفي المرحلة التالية لا يعود يحصل على معاش على الإطلاق.

ثم إن فتى غض الإهاب، آخر، يعتمر قبعة كبيرة من طراز الجوكي يسمع هذا

الهذر والكلام الفارغ الغبيّ، وهو يقعد على المقعد الطويل ذاته، مثله، غير أنه لا يوجد أمامه قدح من البيرة، ولهذا الفتى فك سفليّ مثل فك ملاكم، ويقول هذا: «ربّاه! يالهؤلاء المشوَّهين أولي العاهات– هؤلاء قوم لا يحسُن بالناس على الإطلاق أن يدفعوا فيهم فلساً» «هكذا تبدو، أوّلاً استخراجك في الحرب، ثم عدم الدفع» وهكذا ينبغي أن تكون المسالة، أيها الآدمي، عندما ترتكب في مقام آخر، حماقة ما، فلن تنال شيئاً يُدْفَع مقابل ذلك. وعندما يتعلّق غلام صغير بالعربة، ويسقط بعد ذلك ويكسِر لنفسه، ساقاً، لا يحصل على قرش.

ولماذا يا تُرى، وإنه، وحده، حقاً، غبيٌّ مغفَّل إلى حد بعيد» «أما كيف كانت الحرب، أيها الآدميّ فذلك ما لم تعِشْهُ بعدُ على الإطلاق، إذ كنتَ ماتزال في الأقمطة» «كلام فارغ، كلام فارغ، إذ يبلغ العبث والسخف في ألمانيا من المنزلة ما يجعل القوم يدفعون ثمن المساندة لهما هنالك يجري الألوف حواليهما، ولا يفعلون شيئاً، بل يحصلون مقابل ذلك على المال».

ويتدخل آخرون على المائدة: «يااللعجب، هلاّ نكَّست رأسك إلى أسفلَ حقّاً، ذات مرة يافيللي، ما الذي تفعله هنا يا تُرى؟» «لا شيء، فانا لا أصنع شيئاً، وإذا ظلوا يدفعون لي من بعدُ زمناً طويلاً، شيئاً ما، أظل زمناً أطول بعدُ لا أفعل شيئاً، ومن أجل ذلك مِنَ العبث والسخف أن يدفعوا لي شيئاً». ويضحك الآخرون: «أما إن هذا الرأس لينطوي على الهذر والكلام الفارغ».

ويشارك فرانتس بيبر كوبف في القعود إلى المائدة، هذا الفتى، في الجهة المقابلة، الذي يعتمر قبعة من طراز الجوكي، يجعل يديه، بوقاحة، في جيبيه، ألا فانظروا إليه، كيف يقعد، بذراعه المفرَدة، وتعانق فتاة من الفتيات فرانتس: «أنتَ، أنتَ، لك أيضاً، بلا ريب، ذراع واحدة، ألا فَقُلْ لي، كم يدفعون لك من المعاش التقاعدي» «ومن تُراه يريد أن يعرف؟» وإذا الفتاة تغري الفتى في الجهة المقابلة: هذا، هنا، إنه يهتم بذلك» «كلاّ، أنا لا أهتمُّ بذلك على الإطلاق بل أقول: إنّه هوَ مَنْ ذهب إلى الحرب بهذا القَدْر من السذاجة والغباء– كلاّ، فلنسكت» وتقول الفتاة لفرانتس: «الآن يتولاّه الخوف» أمّا منّي فلا، فإنه ليس بمضطر إلى أن يخاف مني، وهذا ما أقوله

أنا، بلا ريب، أنا لا أقول قولاً مختلفاً. هل تعلم، أين ذراعي، إنها هنا، تلك التي بُترت؟ لقد تركتها توضع في الغَوْل، والآن تنتصب عندي في البيت، فوق الخزانة، وتقول لي طوال النهار بأسره، وأنا تحتها، طاب نهارك يا فرانتس، أنتَ أيها الثور ذو القرنين!».

هاها. هذه علامة تجارية، رقم جميل، وكان رجل طاعن في السن قد اغترف من ورق جريدته بضع سندويشات غليظة يقطعها بموسى يخرجها من جيبه، ويَدُسّ القطع في فمه: سيبيريا، كلاّ، والآن بِتُّ في المنزل، مع أمي، ولديَّ سندويشات «قَطِّعْني تقطيعاً»، وعندما يأتي هؤلاء، ويريدون أن يأخذوا مني ضريبة الدمغة، أيها الآدمي، أتراهم دَهَسوك دهساً كاملاً، حقاً؟» ويقول الفتى: «ومِنْ أين جاءك الروماتيزم؟ من البيع متجوِّلاً في الشارع، أليس كذلك؟ إذا كانت لديك عظام مريضة فلا تعمل بائعاً متجوِّلاً في الشارع» «عند ذلك ربما أغدو مسكيناً يبعث على الرثاء» على أن الفتى يضرب بيده على المنضدة قبالة ورق السندويش: «أجل، بلا ريب، عند ذلك يكون هذا صحيحاً. وهذا ليس مدعاة للضحك على الإطلاق. لكنْ أتيح لك أن ترى لأخي زوجته، ابنة حميّ، وهما من ذوي الاستقامة، أتعتقد أن في وسعهم أن يبدأوا مع كل امرئ، وأن هؤلاء قد استحيَوْا وخجلوا وارتضوا لأنفسهم أن يدفعوا ثمن القَذَر، ضريبة رسم الدمغة؟ على أنَّ هذا جرى هنا وهناك يلتمس عملاً، ولم تعرف هي عملاً، وإلى أين يذهب المرء ببضعة القروش، وعامَيْن وجيزين في البيت، وما من شك في أن المرأة لا تستطيع أن تذهب للعمل. وهنا تعرَّفت ذات مرة على أحدهم، وبه ربما تعرفت على آخر أيضاً، إلى أن لاحظ شيئاً ما، أخي. هنالك جاء بي، وقال لي إن عليَّ أن آتي وأصغي إلى ما يترتَّب عليه أن يتفق عليه مع زوجته، غير أنه جاء إلى الموقع الصحيح. كلاّ، فإن المسرح لم يرد أن يستمع إليها، وهذا مثل كلب قد انسحب بعد أن صُبَّ عليه الماء صَبّاً، وقد ألقت هذه، بقروشه القليلة القذرة، وهو الذي كان مزعزعاً للغاية، أخي، السيد الزوج، الذي يفترض أن يأتي، من جديد إلى الأعلى» «أما عدتَ تأتي إلى أعلى؟». إنه ليودُّ ذلك، كلاّ إنها لا تعتزم أن تكون لها صلة بمثل هذا المسكين الغبيّ المغفَّل، إنه فتى يذهب لكي يبصم الدمغة ويفتح الخطم بتمزيقه إذا ما استحق المال امرؤٌ آخر».

وهنا يتخذون جميعاً، الرأي الواحد تقريباً. وفرانتس بيبر كوبف يقعد إلى جانب الغلام الذي يسمونه فيللي، ويشرب نخبه: «أتُراك تعلم أنك أصغر منا بعشر سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، غير أنك أكثر منا حنكة ودهاءً بمقدار مائة عام. أيها الأطفال، لو أنني وَثِقْتُ لنفسي بالمقدرة على الحديث بهذا الأسلوب، مثلما كنت أفعل وأنا في العشرين، ياللعَجب، هنالك كان يُقال عند البروسيين: فلتكن أيديكم على خط خياطة السروال» «فافعل ذلك أيضاً، ولكن لا نفعله على خط خياطة سراويلنا نحن، فحسب». ويكون ثمة ضحك.

القاعة ملأى، ويفتح النادل باباً، وثمة حجرة خلفية خالية. هنالك تتقدم المائدة بأسرها إليهم، تحت ضوء الغاز، والجوّ شديد الحرارة، والحجرة ملأى بالذباب، وثمة كيس من القش يرقد على أرض الحجرة، ويُقْلَبُ لينتصب قائماً على لوح زجاج النافذة، للتهوية، على أن االلَّغَط يتواصل، والغلام فيللي يقعد بين هؤلاء ولا يتراجع.

هنالك اكتشف الغلام الغضّ الإهاب، الذي كان قد انحدر وسقط من قبل، عند معصم فيللي ساعة يد، وهو يظل على الدوام مندهشاً لأنّها هذه من الذهب: «غير أنك اشتريت هذه بثمن بخس» «ثلاث ماركات» «لقد اشتراها أحدهم» «هذا لا يعنيني» «هل تريد ساعة مثلها؟» «كلاّ، شكراً. لكي يضبطني أحدهم، ثم يُقال: من أين أتيتَ بالساعة؟ ويضحك فيللي، وهو يُجيل بصره حوالَيْه: «هذا يخاف من السرقة» «كلاّ، فاسمع أنت» «إن هذا لديه ما يعترض به على ساعتي» «والآن فلتسمع ذات مرة أنت» ويضع فيللي ذراعاً على المنضدة «بالنسبة لي هذه ساعة، تؤدي عملها وهي من الذهب» «إنما اشتُرِيَت بثلاث ماركات» «عندئذ أريد أن أعرض عليك شيئاً أخر. مسلّمني وعاء نصف الليتر، وقل لي يا هذا؟» «وعاء النصف ليتر» «صحيح، وعاء نصف ليتر، للشرب» «لن أقول لا» «وهذا هنا؟» «هذه هي الساعة، أيها الإنسان، ما من شك في أنك تمثل موقف الغبيّ» «هذه ساعة، هذه ليست حذاء شتوياً ولا هي طائر الكناري، ولكن عندما تريد، ففي وسعك عندئذ أن تقول عن هذا إنه حذاء شتويّ، هذا شيء تستطيع أن تفعله، كما تشاء، فأمره متروك لك تماماً» «لست أفهم. إلى أين تريد الوصول؟» غير أن فيللي يبدو أنه يعرف ما يريد، فهو

يبعد الذراع، ويلامس فتاة ويقول: «أنتِ، فاذهبي ذات مرة» «ما هذا يا تُرى؟ ولماذا يا تُرى» «كلاّ، فاذهبي هكذا، ماشية على طول الجدار» وتأبى أن تفعل، ويناديها الآخرون: هلاّ ذهبتِ، وَيْحَكِ، أيتها الآدمية، ولا تتحرَّجي، بربك».

ثم تنتصب قائمة، فتنظر إلى فيللي، وتذهب إلى الجدار «يا للهول! أيها الشيخ براونر، ويصرخ فيللي قائلاً: «فاذهبي» هذه تظل وقتاً طويلاً تُخْرِج له لسانها، وتزحف زحف العسكر، يهتز عَجُزُها. ويضحك القوم. الآن تعود من جديد، وعلى هذا: فماذا فعلت هذه؟». لقد أخرجت لك لسانها «وماذا بعد؟» «وأخذت تعدو» «تعدو على وجه الدقة»، وإذ بالفتاة تتدخّل: كلاّ، لقد كان هذا رقصاً» ويقول الشيخ أمام سندويشاته: «لم يكن هذا رقصاً. منذ متى كان هذا رقصاً، حين يمدُّ أحدهم عَجُزَه» وتقول الفتاة: : «عندما تمدُّ عَجُزَكَ إلى الوراء، أليس كذلك» ويهتف اثنان: «لقد كنت تعدو» ويضحك فيللي ضَحِكَ المنتصر، ويستمع إلى هذا: «إذاً، فلا بأس، وأنا أقول: لقد زحفَتْ زَحْفَ العسكر» ويقول الفتى الغضّ الإهاب وقد تولاّه الغيظ: ما علينا، والآن ما الذي حدث؟»

كلاّ، لم يحدث شيء، وها أنت ذا ترى، بلا ريب، لقد عَدَتْ، ورقصت، وزحفت زحف العسكر، كما تريد. ومع ذلك فانت مازلت لا تفهم هذا، لأنني أريد أن أهضم ذلك عنك هضماً مسبقاً. وهذا نصف ليتر من قبل، ولكنك تستطيع أن تقول في ذلك إنه بَصْقات، ولكنه شيء لا شك في أنه يُشْرَبُ منه، وعندما تزحف هذه زحف العسكر تكون قد زحفت أَوْعَدَتْ أو رقصت، غير أن ما كانه هذا، قد رأيتَه أنت بنفسك، بعينَيْك، ولقد كان هذا هو ما رأيته، وعندما ينتزع امرؤٌ ما، كائناً من كان، من يد أحد ساعته، تظل هذه من بعدُ، بعيدة عن أن تكون مسروقة، ألا ترى، الآن تفهم، لقد انتُزِعَت هذه، من الجيب، أو من نافذة العَرْض، أو من الدكان، أو سُرِقَت؟ مَنْ يقول هذا يا تُرى؟ ويرتدّ فيللي إلى الموضع الذي كان فيه، وقد باتت يداه مِن جديد في جيبَيْ سرواله: «أنا الذي لا يقول هذا على أية حال» «وماذا تقول؟» لقد سمعت ذلك بلا ريب، أنا أقول: انتُزِعَت منه، أو إنها بَدَّلت مالكها» وهذه لوحة كاملة عن المشهد. ويُبْرِز فيللي ذقن الملاكم الذي

يتميَّز به، ولا يقول شيئاً، أمّا الآخرون فيستغرقون في التفكير، لقد ظهر في اللوحة شيء مزعج، لا يبعث على الارتياح.

ويهاجم فيللي فجأة، فرانتس، صاحب الذراع الواحدة، بصوت حاد، قائلاً: «لقد كان عليك أن تذهب إلى البروسيين، فقد كنت تخوض غمار الحرب، وهذا يعني بالنسبة إليّ السطو على الحرية. غير أن هؤلاء كانت لديهم المحاكم والشرطة، لأنفسهم، ولأنهم كانت لديهم هذه، عمدوا إلى تكميم شدقك. والآن يُقال إنها ليست عملية سطو على الحرية كما تحسَب أنتَ أيها الثور، بل هي خدمة إلزامية، ولم يكن لك بُدٌّ أن تؤديها مثلما تؤدّى الضرائب، حيث لا تعلم أنت أين يَحُلّون أو يرتحلون».

وتقول الفتاة متفجّعة: «هلاّ أمسكت عن الخوض في السياسة، فهذا حديث غير مناسب لأمسية» أما الفتى الغضّ الإهاب فيستاء ويمتعض، وينسحب من الموقف قائلاً: «مع وجود مثل هذا اللغو والعبث يُعَدُّ الطقس جميلاً فوق ما يلزَم، فيستحثه فيللي على الخروج: «إذاً فاخرج إلى الشارع، أنت تعتقد، أيها الفتى، أن السياسة لا تكون إلاّ هنا فحسب، وربما كنتُ أقلّدها لك، وهذه هي التي أحتاج إليها للتقليد على وجه الخصوص، وإنها لتتقيأ على رأسك، أيها الغلام، حيثما سرت وأنىّ ذهبت، وإذا كان من الممكن أن يروق لك هذا، فإنه يقال إذا كان: ثمة امرؤ يصيح: هاتوا إسفنجة فاجعلوها فوق هذا «القَذَر» فأغلق بوزَك.

ويأتي ضَيْفان جديدان، وإذ بالفتاة تَثِب وثبة مستظرفة، وتتلوّى وهي تسير ملتصقة بالجدار، على طوله، وتترنّح بعَجُزِها، وتغمز بعينها لفيللي، على الجانب الآخر، فيثب قائماً، ويرقص معها رقصة المزلاج المتقلْقِل الوقِحة، ثم يتعانقان ويتبادلان القُبَل وكلٌّ منهما يضغط بجسده على جسد صاحبه ضغطاً شديداً، ولبثا عشر دقائق وكأنهما يقفان في موقع القِذْر فوق نار الموقد، وقد تسمَّرا في الأرض ثم ينتصب القالب الذي كأنما قُدَّ من الدقيق كالمحترِق، وما من أحد يرسل نظراته إليهما. أما فرانتس، المبتور الذراع، فيشرع في صَبِّ قدحه الثالث في جوفه، ويمسح بيده على موضع البَتْرِ من أرومة الكتف، وإذ بالأرومة تحترق، تحترق، تحترق، فيا

له من فتىً ملعون، هذا المدعو فيللي، الفتى الملعون، ويخرج الفتيان بالمائدة إلى الخارج، ويقذفون بكيس التبن إلى النافذة، وكان واحد منهم قد جذب إليه جهاز أكورديون، وهو قاعد على كرسي ذي مسند، لدى الباب، يعانق ويُقَبِّل، ياسيدي يوحنا، يا للعجب، هذا امرؤ يقدر على ذلك، ياسيدي يوحنا، ألا إنه ليجسّد الرجولة بكل معنى الكلمة.

ويتشظيّان قِطَعاً وهما يتمتعان، وقد خلعا سترتيهما، يشربان، ويثرثران بكلام غير ذي معنى، ويتصَّببان عَرَقاً، إذا لم يكن أحد يقدر على هذا، فإن زوجي يوهان يستطيعه، هنالك يقف فرانتس بيبركوبف على قدميه، ويدفع حسابه، ويقول: ما عدتُ شاباً بما يكفي لكي أسَرِّح الطرف هنا وهناك، ثم إنني لا أجد في نفسي رغبة في هذا. لا بُدَّ لي من الوصول إلى المال. أمّا من أين أحصل عليه فهذا لا يَهُمّ.

ويعتمر قبعته ويخرج.

كان هناك رجلان يقعدان، عند الظهر، في شارع روزنتال، يرشفان حساء البازلاء، وأحدهما لديه، إلى جانبه، جريدة برلين، وهو يضحك، قائلاً: «إنها لمأساة عائلية مروِّعة، في غربيّ ألمانيا» «ولماذا، وما الذي يبعث على الضحك هنا» «هلاّ تابعت الاستماع: أب يرمي بأطفاله الثلاثة في الماء، الثلاثة دفعة واحدة، فتىً من الربانيين» «وأين يكون هذا؟» «هُمْ، في ويستفاليا هذه عملية غسيل، أيها الآدميّ. لا بُدَّ أن هذا وصل به الأمر إلى هذه الدرجة، ولكن هذا امرؤ يستطيع المرء الاعتماد عليه. انتظر، فنحن نريد أن نرى ماذا صنع بالزوجة، لا بُدَّ أنه سيكون قد فعل هذا بها قبل ذلك، ماذ تقول؟ إنها لأسرة مضحكة، ياماكس، أسرة تعرف كيف تعيش. رسالة من الزوجة: أيها المخادع، عنوان مُرْفَق بإشارة تعجُّب، ينبغي لهذا أن يسمع. «لما كنت أجد الألم في متابعة الحياة فقد اتخذت قراراً بالذهاب إلى القناة، فلتأخذ لنفسك حبلاً ولتشنق نفسك، جولي. وفي الأسرة: هي في القنال، وهو في حبل المشنقة. وتقول الزوجة: فلتشنق نفسك، وهو يقذف بالأطفال في الماء. ولا يستطيع الرجل أن يسمع، ولم يكن من الممكن أن ينشأ شيء عن هذا الزواج».

إنهما اثنان من ذوي السن المتقدِّمة، أولهما عامل بناء من شارع روزنتال،

والآخر لا يقرُّ ما يتحدث به الأول. «هذه حالة تبعث على الأسى، وعندما ترى شيئاً كهذا على المسرح، أو تقرأه في كتاب، تنعق نعيق البوم» «ربما كان ذلك أنت، ولكن ياماكس، إذا صدر هنا نعيق من أحدهم على شيء كهذا، فلماذا يكون هذا أما الزوجة والأطفال الثلاثة، والآن فأُمْسِك حينما كنت مثلما كنتُ عليه أنا وكانت هذه حالي، كان يمتِّعني هذا. أمّا الزوج فيعجبني، وأمّا الأطفال فمن الممكن أن يسببوا الآلام وينغِّصوا على المرء حياته، ولكن هكذا، دفعة واحدة، وعلى مائدة واحدة، إعدام أسرة بأسرها، أنا أتهيَّب من ذلك، ثمَّ»، ويفلت من عقاله من جديد: «ثم أعثر على هذا، في وسعك أن تمزِّقني إرَباً إرباً، وإني لأجد هذا مضحكاً إلى درجة رهيبة للغاية، كيف يتشاجرون حتى الرمق الأخير. وأمّا الزوجة فتقول إنه ينبغي له أن يأخذ حبلاً، وهو يقول، كلاّ، على وجه الخصوص، ياجولي، ويقذف بالأطفال في الماء».

وكان الآخر قد وضع نظارته الفولاذية على عينيه، وهو يقرأ القصة مرة أخرى. «الزوج مازال حيّاً، لقد أمسكوا به. كلاّ، ما كان لي أن أودَّ لو كنت مكانه» «ومن يدري. أنت لا تعرف أبداً» غير أني أعرف هذا الآن حق المعرفة» «أتعلم. هذا ما أستطيع أن أتصوّره. وهذا امرؤ يقعد في صومعته، يدخن تَبْغَه حين يحصل عليه، ويقول: لقد كان في وسعكم، جميعاً أن تُسْدوا إليّ. « «وهكذا فأنت تعرف عندئذ، شيئاً ما. إنها وخزات الضمير، يافتايَ هذا امرؤ ينعق في صومعته كالغراب، أولا يقول شيئاً أبداً، وهذا لا يستطيع أن يغفو، أيها الآدميّ، أنت تقنع نفسك بارتكاب خطيئة» «أمّا هذا فأنا أعارضه معارضة حاسمة كل الحسم هذا الإنسان يستطيع أن ينام النوم الممتاز، وإذا كان هذا فتى قد جُنَّ جنونه إلى هذا الحد فمن شأن هذا أن ينام نوماً جيداً، وربما كان من حقه أن ينام نوماً حسناً وأن يأكل ويشرب ماهو أفضل مما يأكل ويشرب في الخارج. وهذا ما أكفله». على أنَّ الآخر ينظر إليه نظرة الجد. «عندئذ يكون هذا، على أية حال، كلباً فظّاً خشِناً للغاية. لو أننا قطعنا رأس مثل هذا لوَهَبْت ذلك العمل مباركتي» «وأنت على حق، على أنه خليق أن يقول أيضاً: أنت على حقّ كل الحق» «والآن فلتُمْسِك عما يتعلّق بهذا العبث والحديث الغبيّ» وسوف

أطلب لنفسي رياضياً ضعيف الأداء «ما من شك في أنّ مَثَل هذه الجريدة يعدُّ ممتعاً. إنه كلب قد جُنَّ جنونه، وربما كانت القصة تسبّب له الآلام، وربما كان بعضهم ينهض ببعض الأعباء في العمل» «أنا آكل الخيار، ورأس الخنزير» «وأنا كذلك».

الإنسان المختلف يحتاج إلى مهنة مختلفة
أو لا يحتاج إلى مهنة

عندما تلاحظ الثقب الأول في كُمّك، ثم تعرف أَنْ قد آن الأوان لكي يُعْنى المرء بتأمين حلة جديدة. ولتلتَفت بعد ذلك على الفور إلى الموضع الصحيح الذي سيعرض عليك، في مخيَّمات يمكن أن يحيط بها البصر، وفي قاعات جميلة مشرقة، على منصّات عريضة، كل قطع الملابس، التي تحتاج إليها على أنها شيء ضروريّ.

«أما أنا فلا أستطيع العمل. وفي وسعكِ أن تقولي، أيتها السيدة فيغنر، ما تشائين: رجل ذو ذراع واحدة، وهي بعدُ، الذراع اليمنى، تمَّ تقديمه «هذا شيء لا أستطيع إنكاره أو تقديمه على نحوٍ مختلف. ومن الصعب، ياسيد بيبر كوبف. ولكن من أجل ذلك يحتاج المرء، بلا ريب، إلى أن لا يكون لاهثاً، منهوك القوى، مُتَمَعِّر الوجه. أيها الآدمي، إن المرء ليتولاّه الخوف منك، حقاً» «وماذا ينبغي لي أن أصنع بذراع واحدة؟» «أن تذهب لكي تدمَغ، أو تتخذَ لنفسك حمّالةً صغيرة» «أية حمّالة؟» «حمالة للصحف أو الأقمشة تباع بالمتر، أو تبيع حمّالات الجوارب، أو ربطات العنق قبالة تيتس، أو في أي مكان آخر» «أهو قبو للصحف؟» «أم الفاكهة، الفواكه بأنواعها» «أنا أكبر سناً من أن أتولى هذا، وهنا لا بُدَّ أن يكون المرء أحدث سِنّاً».

هذه مسألة من مسائل الماضي، هنا ما عدت أعدو إلى هناك، وهنا ماعدت أحب الجري، وهذا أمر متفق عليه، وقد تمَّ الفراغ منه.

«لا بُدَّ أن تكون لك عروس، ياسيد بيبر كوبف، فإن هذه ستقول لك كل شيء، وستقف إلى جانبك حيثما تمسُّ الحاجة، وهي تستطيع أن تشارك في جرّ العربة، أو تقف للبيع عند حمّالة الصحف، إذا ما اضطررت ذات مرة إلى الانصراف».

ارفع القبعة، وانزل بها إلى أسفل، كل شيء كلام فارغ، وفي الخطوة التالية أربط حول خصري أرغناً صغيراً متنقِلاً، وأسير، صابراً، أين فيللي؟

لقد طلع النهار، يافيللي، وبعد ذلك يقول فيللي: «كلاّ، أنت لا تستطيع عمل الكثير، ولكن عندما تكون شاطِراً، تعرف من أين تستطيع القيام بعدُ بشيء.

فعندما أعطيك، مثلاً، في كل يوم شيئاً ما، شيئاً للبيع، أوْ لترويجه في الخفاء، ولديك أصدقاء طيبون، وفي وسعكم أن تظلوا متلاصقين، عند ذلك تروِّج هذا، وأنت مستحق فيمن يستحق الاستحقاق الجميل.

وهذا مايريده فرانتس، إنه يريد الوقوف على قدميه، هو. وما يعود عليه بالمال على وجه السرعة فهو يريده. العمل. الكلام الفارغ. أما الصحف فيبصق عليها، وينتهي إلى غضبة، عندما يرى رؤوس العجول هذه التي يراها بائعو الصحف. وفي بعض الأحيان تعتريه الدهشة مثلما يمكن أن يكون عليه امرؤٌ بالغ السذاجة، يَجدُّ ويَكِدّ، وآخرون ملاصقون لهم ينطلقون في سيارة، وكان مقدَّراً لهذا أن يلائمني. كان هذا ذات مرة، ياصغيري، سجن تيغل، شارع من الأشجار السود، والمنازل تتقلقل، وأسقف المنازل توشك أن تنقضَّ على رؤوس أصحابها، ولا بُدَّ لي أن أغدو امرأً فاضلاً مستقيماً! على أن من المضحك أن الفتى المدعو فرانتس بيبركوبف كان هنا، فما قولك في ذلك، وهنا تسقط على طولك مرتطماً بالأرض، وهذا مضحك، لا بُدّ أنني فقدت عقلي في السجن، ومانولي حولنا من جهة اليسار. عليَّ بالمال، لقد كسبت المال، فالمال هو ما يحتاجه الإنسان. والآن ترَوْن فرانتس بيبركوبف في صورة المُدَفِّر[٤]؟ الآخر فله مهنة أخرى، وسرعان ما يغدو أسوأ حالاً. إنها امرأة قد اكتست بالأرجوان والقرمز وازدانت بالحجارة الكريمة واللآلئ وعلى يدها كأس من الذهب، وهي تضحك، وقد كتب على جبينها اسمها، وهو سِرٌّ، بابل الكبرى أم العُهْر والدعارة، وكل الأهوال الموجودة على الأرض. لقد شربت دم القديس، بل من دم القديسين كان شربُها.

---

(٤) المدفِّر: في العاميّة السوريّة مَن يشتري سلعة مسروق ثم يبيعها بقصد إخفاء عمليّة السرقية.

أيّ هُوَّة حملت فرانتس بيبر كوبف ، حين كان يقيم عند هربرت فيشوف؟

وماذا يحمل الآن ، على مائدة ، مقابل عشرين ماركٍ نقداً ، حُلَّةً صيفية لا شائبة فيها ، قد اشتراها ، ومن أجل المناسبات الاحتفالية الخصوصية ، صليب حديدي ، إلى اليسار ، وهذا يحمله بصفة تبرير لذراعه ، متمتعاً بالتقدير الكبير من قبل المارّة ، وبغيظ الطبقة الكادحة .

وهو يبدو مثل قيِّم مقصف قد أُحْسِنت تغذيته ، يتميَّز بطيب القلب والسريرة ، أو مسؤول عن الذبح في مسلخ المواشي ، ذو ثنايا وتجاعيد ، له قُفازان وقبعة مستديرة مقوّاة ، وهو يحمل معه أوراقاً من أجل المفاجآت ، وهي أوراق زائفة ، تشير إلى رجل معين يقال له فرانتس ريكَر ، مات في عام ١٩٢٢ أثناء الاضطرابات ، وقد أعانت أوراقه الكثير من الناس ، أما ما كان وارداً على الورق ، فذلك ما يعرفه فرانتس كله ويحفظه غيباً ، ويعرف حتى أين يسكن الوالدان ، ومتى وُلِدا ، وكم أنجبا من الإخوة والأخوات ، وما يمارس هؤلاء من الأعمال ، ومتى عملوا آخر مرة ، وكل ما يمكن أن يطرحه ثور كهذا من الأسئلة على نحوٍ مفاجئ . أمّا ما وراء ذلك فسوف يأتي من تلقاء نفسه .

حدث هذا في حزيران ، في الشهر الرائع الجمال ، حين تطوَّرت الفراشة ، بعد أن خلَّفت وراءها طور الخادرة أو الشرنقة ، وفرانتس يزدهر ازدهاراً متوسطاً ، حين يأتي هربرت فيشوف وإيفا من تسوبوت ، أي من باد . وكانت قد حدثت في باد أمور شتى كثيرة ، ويمكن الحديث عن كثير من هذا ، وهذا ما يطّلع عليه فرانتس اطلاع المستمتع ، وكانت إيفا بورسيانر منكودة الحظ ، وكانت الأمور في اللعب تسير على ما يرام بالنسبة إليه ، ولكن في اليوم الذي جاء فيه بعشرة آلاف مارك من المصرف ، في هذا اليوم على وجه الخصوص ، يقال إنه تعرَّض للسرقة في حجرته بالفندق ، بينما كان يتناول الحساء مع إيفا . فكيف يمكن أن يحدث شيء كهذا . أما الحجرة فنظيفة قد فُتِحت بمفتاح مصطنع ، وأما الساعة الذهبية فقد ذهبت ، ثم ضاعت خمسة آلاف مارك كان قد تركها راقدة مكشوفة في الكومودينة ، وكان هذا الآن يمثل إهمالاً وتهاوُناً خصوصيَّيْن ، ولكن مَنْ تُراه يفكِر في شيء كهذا ، أمّا

أنَّ فندقاً من الدرجة الأولى، كهذا الفندق، يستطيع اللصوص أن يتسلَّلوا إليه، فأين كانت عينا البوّاب، لسوف أرفع الدعوى عليك أوَ لا يوجد إشراف هنا يا ترى، إننا لا نضمن الأشياء ذات القيمة في الحجرات، ويُجَن جنون الرجل مع زوجه إيفا، لأنها أَلَحَّت عليه بهذه السرعة، لكي يتناول عشاءه، فلماذا حدث هذا يا تُرى، لمجرد أن ترى السيد البارون وفي البداية تقبلين يديه من فرط المهابة وتبعثين إليه بآنية الحلوى، من حقيبتي، أما الآن فأنت بعيدة عن الرقة والتهذيب، أيتها المناضلة ذات العزم والتصميم، والماركات البالغ عددها خمسة آلاف؟ هل أستطيع أن أفعل شيئاً حيالها؟ ويلاه، نحن نريد الذهاب إلى البيت، هنالك يقول المصرفيّ غاضباً: هذه خاطرة ليست بالسيئة، ولكن ابتعدوا عن المكان هنا.

وهكذا يسكن هربرت، من جديد في شارع الألزاس، وتضطر إيفا إلى أن تطلب حجرة حسنة في الغرب، هذا أمر ليس بالجدي بالنسبة إليها، فهي تحسَب أن المسألة لن تستغرق إلاّ بعض الوقت، ثم يكون قد حَظِيَ مني بما يكفي، ثم يذهبون من جديد إلى شارع الألزاس.

وكانت تحلم، وهي بعدُ في الخط الحديدي، حيث تقعد مع المصرفيّ وتتقبَّل مداعباته في المقصورة من الدرجة الأولى، مع الملل، والسعادة الظاهرية، ترى ماذا يصنع فحسب، هذا المدعو فرانتس وكيف يسترسل المصرفيّ في الحديث وهو على أبواب برلين، وهي قاعدة وحدها في المقصورة فتنتفض ويتولاّها الخوف: لقد غادرنا المدعو فرانتس، من جديد، فياله من سرور، ويا لها من مفاجأة ويا له من حديث فشّارين بعد ذلك عند هربرت وإيفا وإميل، وكيف يدخل عندئذ، في الرابع من تموز «يوم الأربعاء» مَنْ، كلا، فإن المرء يستطيع أن يتذكَّر، إنه يدخل نظيفاً، معتنياً بهندامه إلى حد المبالغة، والصليب الحديدي ملصق على صدره البطوليّ، والعينان بنيّتان، بهيميَّتان تنمّان عن طيب القلب كشأنهما دائماً، له قبضة رجل دافئة وضغطة يد قوية: إنه فرانتس بيبركوبف، والآن فحافظ على الوضع العمودي، الآن تفقِد توازنك وإميل بات يعرف التغيُّر، فهو يُسَرِّح الطرف في هربرت وإيفا. وفرانتس يحمل الكمَّ الأيسر فارغاً في جيبه. أما الذراع فلم تُنْمُ بعد ذلك على أية حال.

وهي تعانقه وتقبِّله «يا إلهي، يا فرانتس، لقد قعدنا الآن هنا، وهَرَشنا رؤوسنا، ماذا يصنع هذا المدعو فرانتس، لقد كان لنا مثاراً للخوف، وأنتَ لا تصدق هذا» وفرانتس يروح ويغدو هنا وهناك، يقبل إيفا، ويقبِّل هربرت، ويقبل إميل: «مثل هذا الكلام الفارغ، أن تخاف عليّ» ويبرُق بعينيه بدهاء ومكر: «وكيف ترونني، أَفَأَروق لكم، محارباً بطولياً بسترة السيد بوبي[٥]؟ وتهتف إيفا: «ما الذي حدث، إني ليسرُّني بلا ريب، ذلك الشكل الذي تتجلّى به» «الذهاب؟ ياللعجب؟ كلاّ، كلاّ، وبذلك لا يكون ثمة شيء، أما أنا فليس لديّ شيء» ويندفع في الحديث ويروي ويَعِد هربرت ويَرُدُّ إليه المال كله، حتى آخر قرش، وكل فلس ويتمُّ تسديد كل شيء خلال بضعة أشهر. هنالك يضحك هربرت وإيفا. ويُلَوِّح هربرت بورقة بُنية من فئة الألف مارك أمام عيني فرانتس: «أتريد أن تنالها، يا فرانتس» وتقول إيفا متوسِّلة: «خذها، يا فرانتس، خذها» «هذا مستبعد، فنحن لا نحتاجها، وعلى أبعد الاحتمالات فنحن جميعاً نصبُّ الماء على ورقة الألف مارك إلى أن تهبط إلى أسفل، هذا شيء نستطيعه».

---

(٥) إشارة إلى السيّد روبرت بوبي بيل «١٧٨٦ – ١٨٥٠» الذي أعاد تنظيم الشرطة الإنجليزية. (المترجم)

وثمة فتاة تظهر
وفرانتس بيبركوبف يعود كاملاً من جديد

وهما يمنحان البركة على كل ما يفعل. أما إيفا التي مازالت تحب فرانتس على الدوام فتودُّ لو تساعده في الحصول على فتاة، وهو يقاوم، أما الفتاة فأعرفها، كلاّ، فهذه لا تعرفها، ياهربرت، لا تعرفها، ومِنْ أين تعرفُها أنتَ يا تُرى، كلاّ، فما من شك في أنها مازالت بعيدة بُعداً مُطلقاً عن أن تكون في برلين، فهذه من بِرْناو، وهنا كانت تأتي على الدوام عابرة من الجهة المقابلة، قادمة من محطة القطار في شتّيتِن، وإذ بي ألقاها ذات مرة، وأقول لها: سوف تنزلين تحت العجلات التي تدهَسُك يابنيّة، إذا لم تُقْلِعي عن هذا السلوك وظللت تعبرين الطريق إلى الجهة المقابلة، وهنا في برلين لا يستطيع أحد أن يظل صامداً على هذا النحو، وكانت تقول وهي تضحك إنها لا تريد سوى أن تستمتع فحسب، كلاّ، ألا ترى، يا فرانتس، فإن هربرت يعرف القصة من قبل، وإميل – وذات مرة تقعد بعد ذلك هنا في الساعة الثانية عشرة، في المقهى. وأذهب إليها وأسألها: ماهذا، أي وجه هذا الذي تصطنعينه، يافتاة، هلاّ ابتعدْت عن إثارة القلاقل، يافتاة، هنالك تصرخ في وجهي بعبارة ما، قائلة إنها اضطرت إلى الوقوف موقف الحارسة، ولم يكن لديها ورق، كما أنها مازالت دون سن الرشد، أما الذهاب إلى البيت فلم تكن تثِق لنفسها بالقدرة عليه. وأمّا المكان الذي كان لها موقع فيه فقد طردوها منه طرداً لأن الشرطة سألت عنها، كما أن أمها طردتها وتقول هي: لمجرد أنني أُمتِّع نفسي قليلاً؟ وماذا ينبغي للمرء أن يصنع في بِرناوْ؟

أما إميل فيصغي ، كشأنه دائماً وذراعاه منصوبتان على المنصة ، ويقول في ذلك: هنا كانت الفتاة على حق كل الحق فانا أعرف بِرناوْ . وفي المساء لم يحدث شيء هنا .

وتقول إيفا: وَيْحَك ، أنت تثير همّي وقلقي إلى حدّ ما على الفتاة ، إذْ ماعاد يجوز لها بعدُ فيما أرى ، أن تذهب إلى محطة القطار في شتيتين» .

ويدخن هربرت سيجاراً من المستورَد: «إذا كنت رجلاً يفهم شيئاً ما ، يا فرانتس ، ففي وسعك عندئذ أن تصنع من الفتاة شيئاً ما . لقد رأيتها ، وإن لها لمزاجاً نارّياً» .

ويقول إميل: مازالت حديثة السن بعض الشيء ، ولكن لها مزاجاً نارياً ، وعظاماً صلبة» ويتابع تجرُّع الشراب .

وقد فُتِن فرانتس بهذه الفتاة التي تقرع بابه فجأة ظهرَ اليوم التالي ، من النظرة الأولى ، وكانت إيفا قد جعلت منه امرأً حسن المظهر والهندام ، وهو يود أن يهيء لإيفا مايبعث على سرورها ، ولكن هذه كانت أنيقة بالفعل ، من الطراز الأوَّل ، رقم واحد ، ألف . ولم يكن ثمة شيء كهذا قد ورد بعدُ عنده في كتاب طبخه ، وهي شخصية ضئيلة ، تبدو في ثوبها الصغير ، بذراعيها العاريتين ، مثل تلميذة مدرسة . ذات حركة لطيفة ، بطيئة ، وكانت لا تكاد تلفت النظر إلى جانبه ، ولا تكاد تمكث في المكان نصف ساعة إلاّ وما عاد في وسعه أن يزيل من حجرته آثار التفكير فيها ، وكانت تُدْعى في الحقيقة إميلي بروسُنكه ، ولكنها كانت تفضل أن تُدْعى سونيا ، وهكذا كانت إيفا تقول لها على الدوام ، لأنها تتميَّز بعظمتَيْ وجنتين روسيَّتين للغاية . وتقول الفتاة في مثل لهجة المتوسِّل: «واسم إيفا ليس باسمِ لإيفا أيضاً ، التي تدعى إميلي كذلك ، مثلي ، ولقد صرَّحت لي بذلك بنفسها» .

وكان فرانتس يؤَرْجِحُها في حضنه ويتأمَّل الأعجوبة الرقيقة الرشيقة ، والمشدودة ، القوام ، وقد تولَّته الدهشة مما بعث إليه به الرب الكريم من سعادة في منزله ، وهذا أمر يسير في الحياة بين عُلّوٍ وانخفاض ، على نحو رائع . أمّا الرجل الذي عمَّد إيفا بهذا الاسم فيعرفه ، لقد كان هذا هو نفسه ، وكانت هي فتاته قبل تلك المدعوَّة إيدا ألا ليته ظل عند إيفا ، على أنه بات يحوزها الآن ، هنا .

غير أن هذه تدعى عنده سونيا مدةَ يومٍ واحد فحسب ، ثم يستجدي ، قائلاً إنه لا يستطيع احتمال أسماء غريبة إلى هذا الحدّ . إذا كانت هذه من بِرْناوْ ففي وسعها أن تتسَمّى باسم آخر: لقد كان خليقاً أن يظفر بالكثير من الفتيات ، وهذا أمر تستطيع هي أن تتصوَّره ، بلا ريب ، ولكن لا تستطيع ذلك بعدُ فتاة تدعى ماري . فمثل هذه كان يودُّ لو يظفر بها ، ذلك لأنه يسميها الآن صاحبته «القطة ماري الصغيرة» .

ولا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً– إذ يمتد ، تقريباً ، إلى تموز . وهنا يشهد معها شيئاً جميلاً . ولا يأتي طفل ، وهي ليست مريضة . إنه شيء آخر ، يمسُّ فرانتس حتى يبلغ منه العظام ، غير أن هذا لا يغدو سيئاً . ففي تلك الأيام ينطلق شتريزيمَن إلى باريس ، أو ربما لا ينطلق إليها ، وفي فايمار ينهار سقف مكتب البرق . وربما كان ثمة فتى لا مَوْقِع له ، يُبْحر بجندوله ، إثر عروسه التي كان قد رَحَلَتْ مع فتى آخر ، إلى غراتس ، ثم سيطلق الفتى النار على كليهما ليردِيَهما قتيلين ، ويطلق هو على نفسه رصاصة في رأسه ، على أن هنا مما يدخل في هذا الباب ، وأمثال هذه الأشياء تحدث في كل جوّ وبيئة ، وحتى الموت الكبير عند الأسماك في نهر الإلستر الأبيض يدخل في هذا الباب ، وعندما يقرأ المرء شيئاً كهذا تتولاّه الدهشة ، فإذا كان المرء حاضراً لم يَرِدْ ذلك عند أحد على الإطلاق بهذه الروعة ، ويحدث في الحقيقة شيء ما في كل منزل .

وكان فرانتس كثيراً ما يقف أمام مصرف الرُّهون في شارع أَلْته ، شونهاوْزَر . وفي الداخل ، في حجرة الوجبات الصغيرة السريعة ، يتفاوض مع هذا وذاك ، والقوم يعرف بعضُهم بعضاً ، وفرانتس يدرس أعمدة الصحيفة وعناوينها: جولات للتسوُّق ، معروضات للبيع ، وعند الظهر يلتقي بماري الصغيرة ، وهنا يخطر بباله ذات مرة أنّ ماري هذه تأتي إلى آشنْغَر ناحلة مهزولة للغاية ، في ميدان الإسكندر ، حيث يأكلان ، وتقول إنها قد أخذتها سِنةٌ من النوم– ولكن كان ثمة شيء ما لا يستقيم أمره لدى الفتاة ، ثم إنه ينسى من جديد فالفتاة يبلغ من رقتها ما لا يستطيع المرء أن يصدقه ، وكان كل شيء في حجرتها نظيفاً للغاية ، وكان يتميَّز بحُسْن التنظيم والأناقة ، ويزدان بالأزهار وقطع الأقمشة والشرائط مثلما يكون ذلك عند

بنت صغيرة ، وكانت حجرتها تظل أبداً حسنة التهوية قد نُضِحَت بماء الخُزامى حتى إنه كان يشعر بالسرور الحقيقي حين يعودان في المساء معاً إلى البيت . أما في السرير فكانت رقيقة مثل ريشة ، وكانت في كل مرة تبلغ من الهدوء والرقة والسعادة ما بلغته أول مرة. وفي كل مرة تكون على جانب يسير من الجدّ ، ولم يكن يفهم حقيقتها كل الفهم ، أتُراها كانت تفكر في شيء ما ، حين كانت تقعد هكذا هنا ولا تفعل شيئاً على الإطلاق ، وما الذي كانت تفكر فيه ، فإذا سألها قالت ، على الدوام ، وهي تضحك ، إنها لا تفكر في شيء على الإطلاق فما من شك في أنّ المرء لا يستطيع أن يظلَّ ، النهار بطوله يفكر في شيء ما ، وهذا ما يراه هو كذلك .

ولكن هنا يوجد ، في الخارج ، لدى الباب ، صندوق رسائل عليه اسم فرانتس ، وهو اسم التزييف لفرانتس ريكر ، ذلك لأنه يُقَدِّم هذا على سبيل البيان من أجل الإعلانات ومن أجل البريد . وهنا تروي له الآن ، ذات مرة ، ماري الصغيرة: أنها سمعت بوضوح كيف ألقى ساعي البريد في الضحى بشيء ما في الصندوق وحين ذهبت إليه لم يكن فيه شيء ، ويتعجَّب فرانتس ويسأل ما الذي يُفْتَرَض أن يكون هذا ، فتقول ماري الصغيرة ، أو ميتزه: إنه لا بُدَّ أن ساعي البريد قد اقتنص رسالة وأخرجها: فهؤلاء هم أهل الجهة المقابلة الذين يظلون ينظرون أبداً من خلال الثقب المُتَّخذ ، وهنا سوف يكونون قد رأوْا كيف يأتي ساعي البريد ، ثم رأوه ، قد استخرج الرِسائل ، وإذ فرانتس يحمر وجهه من الغضب ، ويفكر ، قائلاً في نفسه: «ياللعجب ، أوَ يوجد هنا أناس يجرون ورائي ، يذهبون عند المساء إلى الجهة المقابلة ، ويقرع الباب ، فإذ سيدة تقف وراءه ، فتقول إنها تريد أن يأتوها بزوجها ، ويكون الرجل هنا في الستين بلا ريب ، وزوجته في الثلاثين ، ويسأل فرانتس زوجته وهو ينظر إليها هل تمَّ تسليم رسالة هنا ، بطريق الخطأ ، وهي واردة إليه ، ويقول: أنا آت إلى منزلي على أية حال» «كلاّ ، لم يجرِ عندي تسليم رسالة» «ومتى يفترَض أنَّ ذلك قد حدث ، ياميترة؟» «حوالي الساعة الحادية عشرة ، فهذا يأتي دائماً في الحادية عشرة» «ولكن الآنسة تأخذ البريد بنفسها دائماً» «ومِنْ أين تعرف هذا يا تُرى على وجه الدقة؟» «لقد لقيته ذات مرة ، على السلم ، ثم أعطاني رسالة ، فأودعتُ هذهِ الصندوقَ» «أنا لا أعرف

أَوضَعْتِ هذه في الصندوق، ولم أَرَ سوى أَنَّه أعطاكِ الرسالة، فقد رأيته حينها، والآن، ماذا يفترض أن نصنع الآن، في هذه الأثناء؟» ويقول فرانتس: «إذاً لا توجد هنا رسالة قَبْلي، اسمي ريكر، وهنا لم يجرِ تسليم رسالة؟» «حاشا للّه، وأَنّى لي أن أقبل رسائل لأناس غرباء، فنحن لا يوجد عندنا صناديق بريد. ألا ترى كم من المرات يأتينا الرجل» وينسحب فرانتس متذمراً، مستاءً، مع ميتزه، ويرفع قبعته قائلاً: «طاب مساؤكَ، ولتسامحني يا رجل، طاب مساؤك، طاب مساؤك».

ويظل فرانتس ومِتزه يتجاذبان أطراف الحديث عن هذه المسألة بعد ذلك. أما فرانتس فيقول في نفسه هل يسترق الناس السمع إليه، يا تُرى، ويهمُّ ذات مرة أن يتحدث في ذلك إلى هربرت وإيفا، وينبِّه ميتزه فيشددّ عليها في التنبيه، لكي تقول له إنه ينبغي له أن يقرع الجرس. «إني لأفعل هذا، يا فرانتس، يابنّي، ولكن في بعض الأحيان يأتي ساعٍ جديد، بصفة مساعد مؤقت».

وحين يأتي فرانتس، بعد بضعة أيام، في منتصف النهار إلى البيت، فجأة، تكون ميتزه قد ذهبت إلى بيت آشنغر. هنالك يطّلع فرانتس على الحلّ، وهو شيء جديد كل الجدّة– وهو الحجرة التي كانت بالطبع خالية، نظيفة، ولكن علبة من السيجار الجميل تنتصب قائمة، هنا. وكانت ميتزه قد وضعت عليها رقعة من الورق: «إلى حبيبي فرانتس»، ومعها زجاجتان من الألاّش. وفرانتس سعيد، وهو يفكر كيف تتدبّر الفتاة أمور البيت بما يتوافر لها من المال. مثل هذه ما كان للمرء إلاّ أن يتزوجها، وإنها لمترَعة بالسعادة والهناءة، وماذ تقول، لقد اشترت لي طائراً صغيراً، وهذا كما لو كان اليوم يصادف عيد ميلادي، لا بأس، فانتظري يا فأرتي الصغيرة، فانا أريدك، ويُنَقِّب في جيوبه عن النقود، وهنا يسمع صوت رنين الجرس، أجل، هذا هو الساعي، غير أنه يأتي اليوم متأخراً إلى حد يستوجب اللعنة، فقد بلغت الساعة الثانية عشرة، وسوف أقول له ذلك ذات مرة بنفسي:

ويسير فرانتس في الدهليز، فيفتح الباب، ويُصيخ السمع وهو يدخل المنزل، ما من ساعٍ هنا، ولا يأتي، كلاّ، فربما كان هذا يقعد عند امرئ ما. ويستخرج فرانتس الرسالة ويدخل الحجرة وإذا في المظروف المفتوح رسالة مغلقة، ومعها رقعة

من الورق ، كتابة مستعرضة متصنّعة: «سُلِّم بطريق الخطأ» وعليها اسم تتعذّر قراءته. وعلى هذا فقد جاءت هذه الرسالة من هناك ، من الجهة المقابلة ، وراء مَنْ تتجسَّس الآن . والرسالة المغلقة معَنْوَنة إلى: «سونيا راسونكه ، عند السيد فرانتس ريكر ، غير أن هذا شيء عجيب ، مِمَّن تتلقّى الرسائل يا تُرى ، من برلين ، إنه رجل ، وعليها يكتب أحدهم ، وتسري في جسد فرانتس برودة شديدة: «يامحبوبة القلب العزيزة ، كم تَدَعين صاحبك يكْمَن في انتظار الجواب–» ولا يستطيع متابعة القراءة ، فيقعد– وهنا تنتصب السجاير ، وهنا الفلاّح صاحب طائر الكَنار الصغير .

وهنا يهبط فرانتس إلى أسفل ، ولا يذهب إلى آشِنْغَر ، بل يذهب إلى هربرت ، وقد شحُب وجهه وغار الدم منه تماماً ، ويعرض عليه الرسالةَ .

وكان يتهامس مع إيفا وهي إلى جانبه ، ثم تدخل إيفا أيضاً ، وتهدي اليه قبلة ، وتزيحه جانباً ، وتتعلّق بعنق فرانتس: «ماذا ، يا فرانتس ، هل يمكن أن أحصل على قبلة منك؟» فيحملق هذا فيها» «هلاّ تركتني بربِّك» «ياصغيري ، قبلة واحدة» فما من شك في أننا أصدقاء قدماء» وَيْحَكِ ، أيتها الآدميّة ، ما هذا يا تُرى ، أفلا تلتزمين بحُسْن السلوك وماذا يفترض أن يظن بنا هربرت» «أمّا هذا فقد طردته لتوّي من البيت ، هَلُمَّ ففي وسعك أن تبحث عنه» وتقود فرانتس في أنحاء الحجرة ، وكان هربرت قد انصرف ، الآن ، نعم ، إنه يفترَض أنه انصرف ، وتغلق إيفا الباب: : «وعندئذ تستطيع أن تهب لي قبلة» ثم تطوِّقه بذراعيها ، فهي في اللحظة الراهنة تعاني من حريق مستَعِر .

ويقعد فرانتس القرفصاء ، قائلاً: «أيتها الفتاة ، أيتها الفتاة ، لا ريب في أنك مجنونة ، ماذا تريدين مني؟» غير أنها كانت قد خرجت عن طورها ، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيالها ، إلاّ أن يندهش ويصدّها بعيداً عنه ، ثم يتحوَّل شيء ما فيه فينقلب انقلاباً! إنه لا يدري ما الذي حدث لإيفا ، إنها غضبة وحيدة وجموح عند كليهما معاً ، ويرقدان بعد ذلك أحدهما إلى جانب الآخر وقد ارتسمت العضّات على الذراعين وعلى العنقين ، وقد جعلت هي ظهرها يتصالب مع صدره .

وكان فرانتس يقول بصوت كالنعير: «أنتِ، أترين أن هربرت ليس هنا بالفعل؟» «لاتصدقَنَّ ذلك». «لقد كان هذا مني بمثابة سلوك الخنازير تجاه صديقي» «أنت، رجُلُه الحلو، وأنا متيَّمة بك، يا فرانتس، لقد كان من الممكن أن أفترسك وآتي عليك، فأنا أُسَرُّ بحبك أيَّما سرور، وحين أقبلتَ قبل ذلك، بالرسالة، أيها الآدميّ، كدت أثب إلى عنقك حتى أمام هربرت» «يا إيفا، ما الذي سيقوله هربرت حين يرى بعد ذلك البقعة، التي ستصبح خضراء وزرقاء» «إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق. وسوف أذهب بعد ذلك إلى صاحبي المصرفيّ، ثم أقول إن إنما جاءني من فلان» «هذا جميل، يا إيفا، كلا، فأنت صاحبتي الطيِّبة، إيفا. وأنا لا أستطيع احتمال مثل هذه النزعة الخنزيرية، ولكن ماذا يقول المصرفيّ، عندما يرى هذا هذه المسألة؟» «وماذا تقول العمّة والجدَّة أيتها الآدمية، أأنت امرأة هيّابة تنزع إلى الخوف، أم لديك شيء من هذا القبيل».

ثم اعتدلت إيفا وأصلحت وضعها وهي في حالة الرقاد، وأمسكت بفرانتس من رأسه وضمته إلى صدرها، شأن العاشقة، كما وضعت وجنتيها الساخنتين على موضع البتر من أرومة الكتف عنده، ثم تأخذ الرسالة، وترتدي ثيابها، وتضع قبعتها على رأسها: الآن أنصرف وأنت تعلم ما أفعل. الآن أذهب إلى آشنْغَر وأتحدث مع ميتسة» «كلاّ يا إيفا، ولماذا يكون هذا يا تُرى؟» «لأنني، أنا، أريده. ألا فامكث هنا، وأنا عائدة عمّا قريب. ودَعْ لي، بربك، إرادتي، أيها الآدميّ فما من شك في أنني سأتمكّن من العناية بفتاة حديثة السن كهذه التي لا تتمتع بخبرة، وهنا في برلين، وإذاً فيا فرانتس—» وتقبله منصرفة، ولا يفهم فرانتس شيئاً.

إنّها الساعة الواحدة والنصف، وفي الساعة الثانية والنصف كانت قد عادت من جديد. جادَّة، هادئة، غير أنها راضية، تساعد فرانتس الذي أخذته سِنةٌ من النوم، في أمتعته وتغسل له وجهه الذي لوَّثه العَرَق بعطرها، ثم تنشط إلى عملها مندفعة نحوه، وتقعد على الكومودينة، وتدخن اللفافات: «وإذاً فهي ميتسه، التي ضحكت يا فرانتس، أنا لا أحتمل أن تنطلق ألسنة السوء بالأحاديث عنها» هنالك تتولى الدهشة فرانتس. «كلاّ، يا فرانتس، أنا لا أحفِل بالرسالة على الإطلاق ولا أقيم لها أي

وزن. لقد قعدت مع آشِنْغَر، وانتظرتك، ثم عرضتُ عليها الرسالة، ثم سألت ألم تُسَرَّ بالخمر، وعن طيور الكناري» «ما علينا» «والآن فأصْغِ إليّ؟ أستطيع أن أقول لك إن هذه لم يختلج لها هُدْب وإن هذه قد أعجبتني بحيث ما عدت أجد فيها شائبة، وهذه فتاة طيّبة، وأنا لم أخدعك». ويتجهم وجه فرانتس وينفد صبره ويضيق ذرعاً، ماهذا في الحقيقة، يا تُرى، وتثب إيفا وثبات قصيرة إلى أسفل، وتربّت على ركبته: «أنت فتى حلو، ياصغيري، يا فرانتس، أتُراك لا تفهم أن الفتاة تريد، بلا ريب، ، أن تفعل شيئاً ما من أجل رجل، وما الذي تظفر به يا تُرى من وراء ذلك حين تظل أنت النهارَ بأسره تروح وتغدو، هنا وهناك، تعقد الصفقات ونحوها، وهي تغلي لك القهوة وتُعِدُّ الحجرة ولا شيء بعد ذلك. هذه الفتاة تريد أن تهدي إليك شيئاً، وتريد أن تحظى منك بشيء، تريد أن تَقَرَّ أنتَ عيناً، ومن أجل ذلك تفعل هذا» «من أجل ذلك؟ أنتِ تنتهين بالمسألة إلى آخر مداها، ومن أجل ذلك تغشُّني؟» هنالك ينتاب إيفا مزاج جدّي: «أما الغش والخداع فلا يَرِد الحديث عنهما، لقد قالت هذا على الفور: إنه لا يَرِدُ في الحسبان، وعندما تكتب هنا إلى واحدة، لا يكون هناك ضَيْر في ذلك، يا فرانتس فإن مما يَرِد أن يظلَّ المرء عالقاً، أو معلّقاً، ثم يكتب، وليس هذا بالأمر الجديد بلا ريب، بالنسبة إليك، أجل».

وعلى نحو بطيء، بطيء، ينبثق في داخل فرانتس نور، ياللعجب، ها أنذا، هنا، وهكذا يعدو الأرنب، وتلاحظ أنه أخذ يفهم. «بالطبع، ما هذا إذاً. إنها تريد أن تكسب المال. أليست على حق؟ فأنا أكسب رزقي، وليس مما يلائمها أن تدعك تسوق إليها القوت أنت على وجه الخصوص، حيث لا تستطيع ذلك، فوق هذا، على الوجه الصحيح، بذراعك الواحدة» «هكذا إذاً، لقد قالت ذلك على الفور. ولم يختلج لها هُدْب، وَيْحَك، هذه فتاة طيبة، وفي وسعك أن تعتمد عليها، وتقول: وإنما ينبغي لك أن تصون نفسك، فتسألها من أين أتيتَ بهذا كله، هذا العام.

وقبل ذلك، أيها الآدميّ، لم تكن أحوالك، بلا ريب، ، تسير على مايرام، على وجه الخصوص. أما في الخارج فهي في بلدة تيغِل، وأنت تعرف ذلك، لقد

كانت خليقة أن يتولاّها الخجل من أن تدعك تجدُّ وتكدح على هذا النحو . هنا تعمل بالنيابة عنك ، غير أنها لا تجروء على التصريح بذلك .

ويومئ فرانتس بالموافقة ، وكان قد ترك رأسه يهبط على صدره «أنت لا تصدِّق على الإطلاق» وتستمرّ إيفا ، تداعب ظهره «كيف تتعلق الفتاة بك . أمّا أنا فأنت لا تريدني ، بالطبع . أو هل تريدني ، يا فرانتس؟»

ويمسك بها من خصرها ، فتقعد قُعْدة المُحاذِر في حضنه ، فهو لا يستطيع أن يمسك بها إلاّ بذراع واحدة ، ويضغط برأسه على صدرها ، ويقول بصوت خفيض: «أنتِ امرأة طيبة ، يا إيفا ، فظّلي عند هربرت ، فمن الممكن أن يحتاج إلى ذلك ، وإنه لفتى طيب» لقد كانت صديقته قبل إيدا ، ولم يكن يمسها ، ولم يبدأ ، مرة أخرى: وتفهم إيفا . «ثم تذهب الآن إلى ميتسه ، ياصغيري ، فرانتس ، وهي مازالت تقعد عند آشِنْغر ، أو تكون قاعدة أمام الباب ، ولن تنازعها نفسها إلى العودة إلى البيت إذا كنت لا تريدها» .

وبسكون بالغ ، وبرقة ولطف بالغَبْن ، ودَّع فرانتس إيفا . وأمام آشِنْغر ، إلى جانب صندوق للتصاوير الضوئية ، يرى ميتسه الضئيلة واقفة ، في ميدان الإسكندر ، ويقف فرانتس على الجانب الآخر ، أمام سور البناء ، ويظل ينظر إليها من الوراء ، فتذهب إلى الناصية ، ويتابعها فرانتس بنظراته . إنه فصل وحَسْم ، إنه تحوُّل وانعطاف ، إذا تأخذ قدماه في التحرُّك ، ويراها عند الناصية في صورتها الجانبيّة «البروفيل» ، ألا ما أصغرها ، وهي ترتدي قفّازين صغيرين بنيَّيْن مُحْكَمَيْ الصنعة تغطيهما كتلة كثيفة غليظة من قشور الجلد . وانتبهْ! الآن سوف تخاطب ، بكلامها الفارغ أيَّ امرئ يتفق مروره بها ، هذا الأنف الصغير ذو الأرنبة المُفَرْطحة . إنها تبحث ، أجل ، لقد أتيت من الجهة المقابلة ، قادماً من تيتس ، غير أنها لم تَرَني . وثمة عربة خبز تابعة لآشينغر تقف في الطريق . ويسير فرانتس بحذاء سياج البناء إلى أن يبلغ الناصية حيث ترقد أكوام الرمل ، إنهم يصنعون الإسمنت ، الآن ستتمكّن من رؤيته ، غير أنها لا توجه بصرها نحوه ، وثمة سيد طاعن في السن ينظر إليها وهي تنظر إليه نظرة عابرة ، وتتابع تسريح طرفها نحو لوزر وفولف ، ويقوم فرانتس بعبور السد الترابيّ ، وهو يظل على

الدوام على بعد عشر خطوات وراءها، ويتم الإمساك به على البعد. إنه يوم مشمس من أيام تموز، وهذه امرأة تعرض عليه باقة من الأزهار، فيعطيها عشرين قرشاً وتغدو باقة الأزهار في يده ولا يدنو من بعدُ خطوة واحدة، ويظل على ذلك ثابتاً، ولكن الأزهار ذات عبير جميل. لقد وضعت له اليوم أزهاراً في الحجرة وفلاحاً يحمله وزجاجة خمر.

هنالك تلتفت وقد رأته على الفور. والأزهار في يسراه، ثم يشحب وجهها، ولا تتخلَّف فيه سوى بقع حمر.

وتدوي في صدره ضربات القلب، وتمسك هي به من تحت الذراع، ويسيران على الرصيف لينتقلا إلى شارع لاندزبِرْغ، ولا يقولان كلمة، أما هي فكثيراً ما تنظر بطَرَف عينها إلى الحافلة رقم ١٩ مارَّة بهما، صفراء، ذات طابقَيْن، وقد شغِلت مقاعدها من أعلى إلى أسفل، وعلى سور البناء يلتصق إعلان جداريّ قديم. حزب الرايخ من أجل ممارسي المهن والحِرَف ومن أجل التجار، ولا يعبر الناس السد الترابيّ، بينما تتمتع السيارات القادمة من مجلس رئاسة الشرطة بحق المرور من دون توقُّف. وفي الجهة المقابلة، على العمود الذي ألصقت عليه إعلانات «بيرسيل» يشعر فرانتس أنه مازال يحمل باقة الأزهار، ويَهُمُّ بإعطائها إيّاها، وبينما تنظر عيناه إلى يده، يظل يسائل نفسه، ويسري في صدره صوت كأنه التنهُّد، ويقول إن المسألة لما يَجْرِ الفصل فيها: أأعطيها الأزهار. أم لا أعطيها إيّاها؟ وإيدا، ما علاقة هذا بإيدا، وبلدة تيغل، أما أني لأحب هذه الفتاة أيّما حب.

وعلى الجزيرة الصغيرة ذات العمود الذي ألصقت عليه إعلانات برسيل، يترتَّب عليه، أن يَدُسَّ في يدها الأزهار. وكانت قد رفعت طرفها في كثير من الأحيان إليه راجية متوسِّلة، ولم يتكلّم، والآن تحيط بزَنْده الأيسر إحاطة المتشبّث، وترفع يده عالياً، ثم تضغطها على وجهها الذي يتعالى لهيبُه من جَديد، وتتدفق الحرارة من وجهها لتنسكب فيه، ثم تقف هنا وحدها، وتدع ذراعها تهبط مسترخِية، وقد رقد رأسها، كأنما من تلقاء ذاته على الكتف اليسرى، وتبعث بأنفاسها إلى فرانتس، الذي يمسك بها من وِرِكها وقد انتابه الفزع. «لا تفعل، يا فرانتس، دعني يا رجل»

ويسيران على السد الترابيّ سيراً مائلاً ، حيث يقومون بهدم البيت التجاريّ ، وما بعدَه ، وقد عادت ميتسه إلى السير مشدودة القوام . «لماذ تقفين ، يا ميتسه؟» وتضغط على ذراع فرانتس ، قائلة: «لقد طالما تولاّني الخوف من قبلُ ، إلى حد بعيد» وتدير رأسها جانباً وقد انبجست الدموع في عينَيْها ، ولكن الفتاة تستطيع أن تضحك بسرعة بالغة ، قبل أن يلاحِظ شيئاً ما ، لقد كانت ساعاتٍ حافلةً بالفزع .

إنهما في الطابق العلوي ، في حجرته . والفتاة تقعد في ثوبها الأبيض قبالته على الكرسيّ ذي المسند ، أما النوافذ فكانا قد فتحاها ، إذ بات الجوُّ حارّاً كأنه يتوهج من فرط الحرارة ، إنها حرارة مقرونة بالرطوبة الخانقة الكثيفة كل الكثافة . وهو يقعد ، في أكمام القميص ، على الأريكة ، يقعد ومازال يتأمّل الفتاة . لكم كان يحبها . إني ليسرُّني أيَّما سرور أن تكوني هنا . أية يدين جميلتين صغيرتين قد أوتيتِ ، يافتاتي ، وسأشتري لك بعض المرايا . وانتبهي ، ثم يفترض أن تحصلي على قميص نسائيّ ، وافعلي ماتشائين ، فإن من الجميل جدّاً أن تكوني هنا ، فأنا مسرور أيَّما سرور ، إذ تعودين إلى هنا من جديد ، أيتها الآدمية ، ويمرِّغ رأسه في حضنها ، ويجرُّها إليه ، فلا يستطيع أن يكتفي بالنظر إليها ، وبضغطها على صدره ، ها أنذا أعود الآن إنساناً من جديد . الآن أعود إنساناً من جديد ، كلاّ لن أَدَعَكِ ، لن أَدَعَكِ ، وليحدث هنا ما يحدث ، ويفتح فمه قائلاً: «يافتاتي ، يا ميتسه ، ياصغيرتي ، في وسعكِ أن تفعلي ماتشائين ، فانا لن أَدَعَكِ» .

ألا ما أسعدهما ، ها هما ينظر كل منهما إلى صاحبه ، ويطوِّق كل منهما كتفَيْ صاحبه ، وتبحث ميتسه عن حقيبتها ، وهما ينظران إلى طائر الكناريّ ، وتكشف لفرانتس عن رسالة ظهر اليوم: «وقد انتابك الغضب من اللغو والكلام الفارغ الذي يكتبه هذا؟» وتضغطه ضغطاً شديداً ، ثم تقذف به إلى الوراء ، على الأرض: «أيها الآدميّ ، أنا أستطيع أن أعطيك من أمثال هذا قدراً كبيراً للغاية .

حرب الدفاع في وجه المجتمع البورجوازي

وفي الأيام التالية يخرج فرانتس بيبر كوبف ، بهدوء كبير ، للنزهة ، وذلك أنه ما

عاد جامحاً إلى هذا المدى في عقد صفقاته الغامضة، وفي التحريك من مُدَفِّر[٦] إلى مُدَفِّر؟ أو إلى مُشْترٍ، وهو يبصق على هذا حين لا يصيب نجاحاً في شيء ما. وفرانتس يتوافر لديه الوقت، والصبر، والهدوء. ولو أنَّ الطقس كان أفضل لكان خليقاً أن يفعل ما تقوله له ميتسه وإيفا ١٢.

الانطلاق إلى سفينيمنْده، وأَنْ يتيح المرء لنفسه الحصول على شيء ما، ولكن الطقس لم يطرأ عليه شيء، فهو يمطر ويأتي الطَلّ والرذاذ في كل يوم، كما أنه يتسم بالبرودة، وفي هوبيغارتِن تمَّ اقتلاع أشجار بأكملها، فكيف يترتَّب أن يكون هذا في الخارج. أما فرانتس فله علاقات وثيقة مع ميتسه، وهو يدخل ويخرج معها، لدى هربرت وإيفا، كما أن ميتسه بات لديها زوج أفضل موقفاً أو وضعاً، وفرانتس يعرفه، وفرانتس له مكانة الزوج عندها، وهو يسرّه أن يتلاقى مع هذا السيد، ومع سيد آخر في بعض المناسبات، وهؤلاء يأكلون ويشربون كالأصدقاء، ثلاثةٌ معاً.

فعلى أي ارتفاع يوجد الآن صاحبنا فرانتس بيبركوبف، وإلى أي مدى تسير أموره على مايرام، وكيف تبدَّل كل شيء! لقد كان على قاب قوسين أو أدنى من الموت، فكيف ارتقى بوضعه! ويالهذا المخلوق الشبعان الذي يمثِّله الآن، والذي لا ينقصه شيء، لا ينقصه شيء من طعام، أو شراب، ولا شيء من الثياب، وإن لديه لفتاة سوف تسعده، وأما المال فيتوافر لديه منه أكثر مما يحتاج إليه، ولقد سدَّد كل دينه إلى هربرت. أما إميل وإيفا فهما صديقاه وإنهما لينطويان على نوايا حسنة تجاهه. وهو يظل أياماً بطولها قاعداً هنا وهناك، حوالَيْ هربرت وإيفا، في انتظار ميتسه، وينطلق خارجاً إلى بحيرة موغْل، حيث يمارس التجديف مع اثنين آخرين، لأن فرانتس يغدو أكثر براعة وقوة في ذراعه اليسرى، وكان يصغي من حين إلى آخر إلى الأصوات التي تُسمَع من شارع منتس، وحوالَيْ غرفة الرهون.

لقد أَقْسَمْتَ، يا فرانتس بيبركوبف على أنك تريد أن تظل مستقيماً مهذَّباً، وقد عشت حياة ملوَّثة بالقذارة، وكنت قد تعرضت للدهس تحت العجلات، وأخيراً

---

(٦) هو الذي يقوم بإخفاء الأشياء المسروقة أو بيعها متكتماً على أصلها ومصدرها. (المترجم)

قتلت المدعوَّة إيدا، وظلَلْت، في مقابل ذلك، تقبع في السجن، وكان هذا رهيباً. والآن؟ تقعد في البقعة ذاتها، أمّا إيدا فهي ميتّسه وقد بُترَت إحدى ذارعَيْك، فأنتبه، فإنك ستنتهي بعدُ إلى الإدمان والإفراط في الشراب، وكل شيء يبدأ عندئذ مرة أخرى، ولكن يزداد، عندئذ، شمولاً ويكون قد ازداد سوءً، وعندئذ تكون المسألة قد انتهت.

كلام فارغ، هل أستطيع، في مقابل ذلك أن أكون مسكيناً، إذا حملت نفسي على ذلك أو قَسَرْتُها عليه. أقول هذا كلام فارغ. لقد فعلت ما كان في وسعي أن أفعله، بل فعلت كل ما في وسعي أن أفعله في حدود ما هو ممكن بشرياً، لقد تركت ذرّاعي تذهب، ثم يُقال إن أحدهم جاء، وكان لديَّ ببساطة ما يجعل الأنف يمتلئ فأضيق بذلك ذرعاً، ألم أتصرَّف، ألم أَعْدُ هنا وهناك من الصباح حتى المساء؟ والآن نفد الصبر عندي، وضاق بذلك صدري. كلاّ، كلاّ جّراء هذا، ومن أنتَ يا تُرى، ومن أين يتهيّأ لك قوتُ يومك، ربما من شيء مختلف، سِوى الاعتماد على البشر الآخرين، أتُراني أَكْثِر من طرح الأسئلة على الناس، مثلاً؟

ـ سوف تنتهي في السجن، وسوف تحظى من أحدهم بسكين في بطنك.

ـ فليفعل، فقد بَلِيَ سكّيني قبل ذلك.

الدولة الألمانية جمهورية، ومَنْ لم يصدِّق ذلك خرج بصفعة على قفاه، وفي شارع كويينيكر القريب من شارع كنيسة ميخائيل. يوجد اجتماع لمؤتمر. والصالة طويلة، ضيِّقة، والعمال من الشباب ذوي ياقات القميص التي تعلو ياقة السُّترة «الجاكيت»، يقعدون على صفوف من الكراسي، بعضها وراء بعض، والفتيات والنساء، وباعة الكُتيِّبات يروحون ويغدون حواليها، وعلى أرض الصالة، وراء المنصّة، يقعد، بين رجل بدين ورجلين آخرين وقد ذهب الصلع بشطرٍ من شعر رأسه، يستَفِزُّ ويُغْري ويضحك، ويفتِن.

ونختم بالقول إننا لسنا هنا لنتحدث ونحن نُطِلُّ برأسنا من النافذة، فهذا شيء يستطيع أهل مجلس النواب أن يفعلوه. إذا ما طرح ذاتَ مرة أحدهم على واحد من

رفاقنا سؤال ألا يريد دخول مجلس النوّاب، مجلس النواب والقبة الذهبية من فوقه ومقاعد النادي فيه، وإذا قال: هل تعلم، يارفيق، أنني لو فعلت هذا، ودخلت مجلس النوّاب لما زاد عدد الموجودين هنا إلاّ مجرد وغدٍ من سَفَلة الأوْغاد. أما رَفْعُ العقيرة بالأصوات حتى تبلغ عِنان السماء فذلك ما لا يتوافر لنا الوقت من أجله، ههنا يتفجَّر كل شيء ويضيع سدىً. هنالك يقول الشيوعيون الذين لا قوائم لهم، إننا نريد أن نمارس سياسة كشف الأقنعة وفضح المتلثّمين بها، أمّا ما ينجم عن ذلك في هذه الأثناء، فقد رأيناه، وذلك أن الشيوعيين أنفسهم قد تطرَّق إليهم الفساد في هذه الأثناء. ولسنا في حاجة إلى أن نخسر كلمة واحدة تقال في سياسة كشف اللثام وفضح أهل الفضائح، وهذا نصب واحتيال، وما يترتب الكشف عنه هنا إنما يراه في ألمانيا الأعمى، ولا يحتاج المرء من أجل ذلك إلى الذهاب إلى مجلس النواب «الرايشستاغ» ومن كان لا يراه على هذه الصورة فما من سبيل إلى مساعدته، لا بمجلس النواب ولا بغيره، وأمّا أن المحل الذي يمارس فيه اللغو والهذر لا يصلح لشيء سوى إقناع عامة الناس، فهذا ما تعرفه كل الأحزاب باستثناء ممثلي الفئة العاملة.

الاشتراكيّون الطيبون، كلاّ فإنه لا يوجد إلاّ اشتراكيون متديّنون فحسب، وهذه هي الآن، الآن النقطة عند الرقم١، على أنه يترتَّب على هؤلاء جميعاً أن يصبحوا متديّنين، وينبغي لهم، يا رجل، أن يركضوا إلى القسيس. ذلك لأنه لا يهمّ أن يكون قِساً أو يكون تمثالاً من البرونز، فالمسألة الرئيسية هي: أنَّ هناك ردود ودفوع تُقَدَّم.

«الهتاف: والتصديق». ومنطق البدهية، أما الإشتراكيون فلا يريدون شيئاً، ولا يعرفون شيئاً، ولا يستطيعون شيئاً. كما أنهم يستحوذون في مجلس النواب على معظم الأصوات، غير أنهم لا يعرفون ما ينبغي لهم أن يصنعوا بها، أجل، بل يعرفون، أنه القعود في مقعد النادي، وتدخين اللفافات، وأن يصبحوا وزراء، ومن أجل ذلك كان العمال قد أَدْلَوْا بأصواتهم، وأخرجوا قروشهم في أمسية الدفع، من جيوبهم، كما أن ثمة خمسين أو مائة من الرجال سوف يصبحون من أهل البدانة على حساب العمال. ثم إن الإشتراكيين لا يغزون سلطان سياسة الدولة، ولكن

سلطان سياسة الدولة هو الذي غزا الإشتراكيين. وإن القوم ليتقدمون في السن إلى أن يغدو الواحد منهم كالبقرة، ويظل يتعلَّم بعدُ على الدوام شيئاً ما فوق ما تعلَّم، ولكن بقرة كالعامل الألماني مازال من المفروض أن تولَد بعد. ويظل العمال الألمان يتناولون بأيديهم أوراق التصويت، المرة بعد الأخرى، ويدخلون المقاصف والحانات ويسلِّمونها ويحسَبون أن المسألة قد تمَّ الفراغ منها بذلك، وهم يقولون: نحن نريد أن يدوّي صوتنا في مجلس النوّاب، كلاّ، فهنا يؤثّرون، وهذا هو الأحب إليهم، أن يؤسسوا على الفور اتحاداً للغناء.

أيها الرفاق والرفيقات، نحن لا نأخذ رِقاع تصويت بأيدينا، نحن لا ننتخب، فالبنسبة إلينا يعد الحزب الريفيّ، في يوم أحد كهذا، أقرب إلى الصحة والعافية، ولماذا؟ لأن الناخب يجري تحديده على نحوٍ محكمٍ بالاستناد إلى الجانب القانوني، أو الشرعية، غير أن الشرعية هي القوة الفظة الغليظة، قوة الحاكمين الجسدية، أما قساوسة الانتخاب فيريدون الإيقاع بنا في أحابيل الإغراء لندفع الثَمَن بعدها غالياً، وهم يريدون الحَجْب والمُداراة، بل يريدون أن يمنعونا أن نلاحظ ماهية المشروعيّة، وماهية الدولة. ونحن نستطيع، من دون الاستعانة بالثقوب والأبواب، أن ندخل الدولة، وذلك بصفة حمير الدولة، الناهضين بأعبائها، وإلى هذا كان يهدف قساوسة الانتخاب، وذلك أنهم يمنّوننا بالأماني ويُلقِّموننا الطُعم ويريدون تربيتنا على أن نكون حميراً للدولة، ولقد توصَّلوا إلى ذلك لدى معظم أفراد الطبقة العاملة منذ عهد بعيد. ونحن في ألمانيا قد رُبِّينا في إطار روح المشروعية. ولكن أيها الرفاق: لا يستطيع المرء أن يربط بين الماء والنار، وهذا ما ينبغي للعامل أن يعرفه.

وهؤلاء البورجوازيون والاشتراكيون والشيوعيون يصرخون في جوقة واحدة ويبتهجون، كل البركة تأتي من عَلٍ، من الدولة، ومن التشريع، ومن النظام الرفيع، ولكنها موجودة وَفْقاً لهذه الجهات. وبالنسبة لكل أولئك الذين يعيشون في الدولة، نجد الحريات محدَّدة في الدستور، فهنا يتم إثباتها، والحريات التي نحتاجها، والتي لا يعطينا إياها أحد، بل لا بد لنا أن نستحوذ عليها لأنفسنا. وهذا الدستور يريد أن يخرج بالبشر المتعقِّلين من إطار الدستور، ولكن ماذا تصنعون، أيها

الرفاق، بالحريّات الواردة على الورق، أي بالحريات المدوَّنة؟ إنكم كلما احْتَجْتم إلى حرية جاءكم واحد من الخضر فضربكم على رؤوسكم، وإذا صرخت أنتَ، فما الذي يفترض أن يعنيه هذا، ففي الدستور يوجد كذا وكذا، ويقول: لا تتكلم باللغو والهذر، ياكراوْزِه، وإنه لعلى حق، والرجل لا يعرف دستوراً بل يعرف اللوائح. وهنا يَتَرتَّبُ عليك أن تغلق شدقيك.

وسرعان ما سوف تنعدم إمكانية الإضراب في أهم الصناعات. لقد باتت لديكم مقصلة لجان تسوية النزاعات وهي التي كان في وسعكم أن تتمتعوا في ظلها بحرية الحركة.

أيها الرفاق والرفيقات. سوف تجري الانتخابات، ثم تجري مرة أخرى، وسيقال: هذه المرة ستكون أفضل، فانتبهوا، وكلِّفوا أنفسكم بعض الجهد فحسب، ومارسوا الدعاية في البيت، وفي المؤسسة، فهنا تحصلون على خمسة أصوات أخرى، وهناك على عشرة أصوات، ثم اثنا عشر صوتاً آخر، وانتظروا، ثم إنك سوف تشهدون شيئاً ما، أجل، ما من شك في أنكم ستشهدون شيئاً ما وما من شك في أنه مجرد دورة دموية خالدة للعَمى، ولا يبقى، بلا ريب سوى كل شيء على الأجمال، وكله من القديم، والنزعة البرلمانية تطيل عمر البؤس وبؤس الطبقة العاملة، ثم إنهم يتحدثون عن أزمة في العدلية. ولا بُدَّ للقوم من إصلاح العدلية، الإصلاح في الرأس والأطراف، وينبغي تجديد القضاة وأن يصبح القضاة جمهوريين، يحافظون على الدولة، ويتسمون بالعدل، إننا لا نريد قضاة جدداً، بل لا نريد، بدلاً من هذه العدلية على الإطلاق، عدليّة أخرى، ونحن نُسْقِط كل منشآت الدولة عن طريق العمل المباشر، ولدينا الوسائل التي تكفل ذلك: رفض الطبقة العاملة. كل العجلات ساكنة، ولكن هذه ليست أغنية تُغَنّى، ونحن أيها الرفاق والرفيقات، علينا أن لا ندع أنفسنا تستنيم عن طريق النزعة البرلمانية وعن طريق الرعاية وكل المغالطة والخداع في مضمار السياسة الاجتماعية، فنحن لا نعرف سوى العداء في مواجهة الدولة، انعدام الشرعية والقانون، ومساعدة المرء نفسه بنفسه».

ويسير فرانتس مع فيللي ذي الحنكة والدهاء والمكر، في الحجرة، جيئة وذهاباً، ويصغي، ويشتري الكتيّبات فيدسُّها في جيبه، وهو لا ينزع إلى السياسة، بل يلقّنه الدروس فيللي، وفرانتس يصغي بفضول، وهو يلامس ذلك بأصابعه، فالمسألة تمسُّه، ثم إنها لا تمسُّهن من جديد غير أنه لا يَدَعُ المدعو فيللي.

النظام الاجتماعي القائم مبنيٌّ على الاستعباد الاقتصادي والاجتماعي للشعب العامل، وهو يجد التعبير عنه في قانون الملكية، واحتكار الملكية، وفي الدولة، في احتكار السلطة، ولا يتمثل أساس الإنتاج الحالي في إشباع الحاجات البشرية الطبيعية، بل في الأمل المعقود على الربح. وذلك أنَّ كل تقدُّم في التقنية يزيد في غنى الطبقة الحاكمة لينتهي به إلى ما يتجاوز كل النِسَب، في تناقض يتنافى مع الحياء، مع البؤس السائد بين أجزاء واسعة النطاق من المجتمع. وذلك أن الدولة تعمل في خدمة القضاة بحماية امتيازات طبقة المُلاّك ولقمع الجماهير العريضة. إنّه يعمل بكل وسائل الحيلة والمكر، والعنف، من أجل الحفاظ على احتكار الفروق الطبقية، ومع نشوء الدولة يبدأ عصر التنظيم المصطنع من أعلى إلى أسفل، الآن يتحوّل الفرد إلى دمية مثل دُمى مسرح العرائس، عربة ميتة داخل آلية هائلة. فانتبهوا، نحن لا نطمح، مثل كل الآخرين، إلى غزو ما يسمى بالهيئات التشريعية. ولا ينبغي أن يُحَرَّض العبدُ هنا إلا على أن يطبع عبوديته الخاصة بطابع القانون والشرعية، ونحن ننبذ ونرفض كل وحدة وطنية، إذ تكمن وراءها سيطرة المُلاّك. فانتبهوا!

ويتجرع فرانتس بيبركوبف من ذلك كل ما يعطيه إياه فيللي لكي يتجرَّعه، وتوجد مناقشة بعد الاجتماع، حيث يظلون قاعدين في المحل ويدخلون في نزاع مع عامل أكثر تقدُّماً في السن، وفيللي يعرف هذا من قبل، والعامل يعتقد أن فيللي زميل من المؤسسة ذاتها، مثله، وهو يعتزم أن يستحثه على ممارسة المزيد من إثارة الخواطر. وفيللي الوقح يضحك من هذا على الدوام، ويضحك، قائلاً: «أيها الآدميّ، منذ متى كنتُ زميلك، وما من شك في أنني لا أعمل من أجل أصحاب المصانع» «لا بأس عليك، إذاً فلتفعل ما تفعل حيث أنت، وحيث تعمل». «هناك لا أحتاج إلى أن أعمل.

فحيثما أعلم يعلمون جميعاً، ومنذ عهد بعيد، مايترتَّب عليهم عمله، وينحني فيللي مُكِبّاً على وجهه من فرط الضحك، فوق المنضدة، كلام فارغ، ويقرص فرانتس في ساقه، وفي الخطوة التالية سيعدو أحدهم بوعاء الغراء، حول المكان، ويطلي الأماكن به من أجل ملصقاتهم، وهو يضحك إلى العامل الذي غدا شعره، منذ عهد بعيد، أشهب كالحديد، ويدع صدره مكشوفاً. أتُراك تعلم؟ ما من شك في أنك تبيع الصحف.

تبيع «دير بفايِفنشبيغل» و «شفارتسه فانه» و«الملحد»، وهل أَطْلت، ذات مرة، ببصرك، لترى مايوجد في الداخل؟» «كلاَّ، فاستمع إليَّ، يارفيق، أنتَ تستطيع، ذات مرة، أن ترفع سِدادة فمك نصفَ هذا الرفع. أمّا أنا فسوف أكشف لك ذات مرة، عما كتبته بنفسي» «دَعْ عنك هذا يا رجل، هنا يترتب على القوم أن يظهروا بين يدَيْك التقدير والاحترام، ولكن في البداية ربَّما تقرأ أنت، ، ماسبق أن كتبت، وتتمسَّك به، أيْ أنه يوجد هنا: الحضارة والتقنية. فانتبه: «أوَ ظلَّ العبيد المصريون يعملون، على مدى العقود من السنين، في بناء ضريح ملك من ملوك مصر. وظل العمال الأوربيون ينشئون بالآلات، وعلى مدى العقود من السنين، خصوصية، وتقدُّماً؟ ربَّما، ولكن من أجل مَنْ؟ كلاَّ، في البداية سوف أعمل أنا، لكي يكسب كروب في إسّن، أو بورسيغ، ألف مارك إضافيّ في الشهر، وملكه في برلين، أيها الآدمي، أيها الرفيق، عندما أتأمَّل حالتك حقَّ التأمل، كيف تبدو لي على وجه الإطلاق، أنت تريد أن تكون رجلاً من رجال العمل المباشر، فأينَ هذا العمل لديك؟ أنا لا أرى، أتُراك ترى شيئاً ما، يا فرانتس؟» «دع عنك هذا، بربك، يافيللي» «مالنا ولهذا، وقلْ بربك، أيها الآدمي، أتُراك ترى أين يكمن الفرق بين الرفيق هنا وبين الرفيق في حزب ألمانيا الاشتراكي».

ويستقر العامل استقراراً مُحْكَماً في كرسيه، ويقول فيللي: أمّا أنا فليس عندي فرق، أيها الرفيق، وهذا ما أستطيع أن أقوله لك، أمّا ماتصنعونه بذلك فهذا ما أسأل عنه، كما ترى، وعندما تسألني الآن ماذا تعمل، أقول لك مباشرة: أفعل الشيء ذاته الذي يفعله واحد من حزب ألمانيا الإشتراكي، الشيء ذاته، تماماً وعلى وجه الدقة،

فقِفْ عند المخرطة، واحملْ أجرك المكوَّن من ستة قطع من فئة الثلاثة قروش، إلى البيت، ثم تقوم شركتك المساهمة بتوزيع الأرباح، أرباح السهم الواحد عن عملك. لقد لبث العمال يكدحون، بالآلات، على مدى العقود من السنين، في سبيل تكوين ثروة خصوصية، ربما كان هذا وحده هو الذي كتبته».

ويدع العامل الأشيب عينيه تنتقلان جيئة وذهاباً بين فرانتس وفيللي، وينظر حواليْه من جديد، ثم ينظر إلى ما وراءه، وكان يقف لدى منصة صب الخمور، كذلك، بعض العمال، ويتقدم العامل ليكون أكثر التصاقاً بالمنصة، ويهمس قائلاً: «إذاً فما أنتم صانعون؟» وينظر فيللي إلى فرانتس نظرة خاطِفة: «فقُلْ أنت» ولكن فرانتس لا يريد ذلك أول الأمر، فيقول إنه لا يولي الأحاديث السياسية اهتمامه، غير أن الفوضويَّ الأشيب يغريه بالحديث قائلاً: «هذا الذي نخوض فيه هنا ليس بالحديث السياسيّ، فنحن لا نتحدث إلاّ عن أنفسنا، فما هو العمل الذي تمارسه يا تُرى؟»

وينهض فرانتس عن كرسيّه، ويتناول نصف ليتر من بيرته، أما الفوضويُّ فينظر إليه نظرة ثابتة، إنه حصّاد، يقال له الموت. ولا بُدَّ لي أبكي على الجبال وأنتحب، وأبُث شكواي مع القطعان في الصحراء ذلك لأنها يبلغ مما أصابها من التهلُكة أنه ما عاد ثمة أحد يروح ويغدو هناك. على أنَّ ما فارقها وغادرها يشتمل على الجانبين: طير السماء والماشية، فقد ولّى كل شيء.

أما عملي ففي وسعي أن أصَّرح لك به أيها الزميل، لأنني لست رفيقاً، بل أروح وأغدو هنا وهناك، وأنا لا أؤدّي من ذلك إلاّ القليل، غير أني لا أعمل، بل أدع الآخرين يعملون لي.

وكان هؤلاء يريدون أن يعبثوا بي فيما يتعلّق بما يقوله هذا من اللَّغو والكلام الفارغ. «عند ذلك تكون إذاً رجل أعمال، فلك موظفون، كم لديك منهم يا تُرى؟ وماذا تبتغي منا إذا كنت رأسمالياً؟». أنا أريد أن أجعل من القدس كومة من الأحجار ومسكناً لأبناء آوى وأريد أن أجعل من مدن جنوبيّ فلسطين صحراءً بلقعاً لا يُقَدَّر لأحد أن يسكنها.

«أيها الآدميّ، ألا ترى، أنا ليس لي إلاّ ذراع واحدة، أما الأخرى فقد بُتِرَت. وهذا ما دفعته مقابل كوني عَمِلت، ومن اجل ذلك أرفض الاعتراف بعمل شريف لائق، أتفهم؟» أتفهم هذا، أتفهم هذا، أتفهم هذا، ألديك عينان تبصران، هل ينبغي لي أن أشتري لك نظارة، هلاّ نظرت في وجهي يا رجل «كلاّ، هذا شيء مازلت لا أفهمه، أيها الزميل، ماالذي تمارسه الآن من عمل. إذا لم يكن هذا الآن عملاً شريفاً لائقاً، فهو عمل غير لائق». ويضرب فرانتس على المنضدة، ويصدمه برأسه، فِعلَ الناطح: «ألا ترى، لقد أدرك المسألة، وهذه هي المسألة على وجه الخصوص. عمل غير لائق، ولا شريف. وذلك أن عملك غير الشريف يعدُّ استعباداً، وهذا ماقُلتَه أنت بنفسك، وهذا هو العمل الشريف اللائق، وهذا ما لاحظته بنفسي» لاحظت ذلك من دونك، فانا لست في حاجة إليك على الإطلاق من أجل ذلك، أنت الرَّخْو الخَرِع، الليِّن العود، الذي يملأ الصحف بشَخْبَطَته، والآلة التي لا تمسك عن التحدُّث باللّغو والهذر.

وللفوضويّ يدان بيضاوان مدَّبتان، إنه ميكانيكيّ الآلات الدقيقة، وهو ينظر إلى رؤوس أصابعه ويقول في نفسه: «من الخير أن يكشف القوم عن حقيقة هؤلاء الأوغاد، ويسوِّد وجه الواحد منهم. ولسوف آتي بواحد منهم، لكي يستمع. وينهض قائماً، فيردُّه فيللي إلى الوراء: «إلى أين تريد أيها الزميل؟ هل انتهينا؟ فاتّفق على هذا أوّلاً مع الزميل هنا. وما من شك في أنك لن تَقْرُص» «أنا ذاهب لمجرد أن آتي بواحد فحسب، ولا أريد أن يكون لديَّ واحد على الإطلاق، ألا فقل لي أنت، ما الذي قلتَه هنا للزميل فرانتس؟» ويقعد الفوضوي من جديد، ثم ندبِّر المسألة وحدنا: «وعلى هذا فليس هذا بالرفيق، كما أنه ليس بالزميل كذلك، ذلك لأنه لا يعمل بالطبع، ويبدو أنه لا يذهب للخَتْم».

وإذ بوجه فرانتس ترتسم عليه ملامح القسوة، وتنظر عيناه نظرة من استطار عقله: «لاّ، إنه لا يفعل هذا» «وعندئذ لا يكون رفيقي، ولا زميلي، كما لا يكون متعطِلاً لا كَسْب له، ثم أسأل فحسب وكل شيء آخر لا يعنيني في شيء: «ماذا تلتمس هنا؟» هل يتميَّز فرانتس بوجهه الذي يَنِمُّ عن القدر الأقصى من العزم والتصميم:

«هذا ما كنت أترصَّده وأترقَّبه فحسب، أن تقول وتسأل: ماذا تبتغي هنا. هنا تبيع رُقاع الورق، والصحف والكتيِّبات، وعندما أسألك عن هذا، وعن سَيْر الأمور، هنالك تقول: كيف تهيَّأ لكَ أن تسأل، وماذا تلتمس هنا؟ أَلَمْ يكتب وتصرِّح، أنت نفسُك عن الاستعباد الملعون المرتبط بالأجر، وعن أننا منبوذون، لا نستطيع أن نتحرَّك؟» فانتبهوا، ياملعوني هذه الأرض التي مازالت ترغم الناس دائماً أن يتضوَّروا من الجوع، وهكذا «وسَرْعان ما بِتَّ لا تستأنف الاستماع، وتقول أني تحدثتُ عن رفض العمل، ولا بُدَّ للمرء من أجل ذلك، أن يعمل أوَّلاً» «هذا ما أرفُضَهُ» «هذا لا يُجذْينا شيئاً، هناكَ تستطيع أن ترقد في سريرك، ببساطة، أما الإضراب فقد سبق الحديث عنه الإضراب الجماعي، الإضراب العام».

ويرفع فرانتس ذراعه ويضحك، «لقد استشاط غضباً» وما تفعله فأنت تسميه تصرُّفاً مباشراً: الذهاب إلى هنا وهناك، ولَصْق الملصقات، وإلقاء الخُطَب؟ وفي هذه الأثناء تمضي أنت لوجهك وتزيد في قوة الرأسماليين؟ أنت، أيها الرفيق المغفَّل، الحمار، هنا تنعطف أنت مستديراً نحو الرمّانات التي يُرْدونَك بها قتيلاً، أَوَ هذا ما تريد أن تَعِظَني به؟ يافيللي، ماقولك الآن! وأضرب ضربتي في ذلك الاتجاه، إلى مدى بعيد» «وأنا أسألك، مرة أخرى، ماذا تتخذ من صنعة؟» «هنالك أقول لك، مرة أخرى: لا صنعة! بل هي القذارة! لا شيء على الإطلاق وسوف أكون شيئاً ما بالنسبة إليكم! وما من شك في أن ذلك لا يجوز لي، وبموجب نظريتك الخاصة، لا أزيد في قوة واحد من أصحاب رؤوس الأموال، وإني لأزدري، على وجه الإطلاق، هذا التشنيع بأسره، أزدري إضرابك، ورجالك الصغار الذين يفترَض أن يأتوا، وما حَكَّ جلدك مثل ظَفْرِك، وأنا اصطنع وحدي ما أحتاج إليه، فأنا أرعى شؤون بيتي بنفسي! فيا للعجب!». ويتجرَّع العامل جرعة من عصير ليمونه، ويومئ موافقاً: «لا بأس، فليُجرِّبَ الواحد منا ذلك بمفرده» ويضحك فرانتس، ثم يضحك، ويقول العامل: «وهذا ماقلته لك أكثر من ثلاثين مرة حتى الآن، لا تستطيع أن تفعل شيئاً حين تكون وحدك، ونحن نحتاج إلى تنظيم للنضال، ولا بُدَّ لنا أن ننطوي على فهم لهذه المسألة، وبحكم الدولة الفرديّ والاحتكار الاقتصاديّ». وفرانتس يضحك

ويضحك، ولن ينقذنا كائن أعلى، لا إلهٌ، ولا قيصر، ولا مفوَّض يتحدث باسم الشعب، من البؤس، ولا يستطيع هذا إلاّ نحن أنفسنا.

ويقعدان، كلٌّ منهما قبالة الآخر، العالم الشيخ في الياقة الخضراء، ينظر إلى فرانتس نظرة جامدة، وهذا ينظر في عينيه نظرة قاسية، ما الذي تنظر إليه، ياغلام، فإنك لن تفهمني ولن تعرفني، أليس كذلك. ويفتح العامل فمه: «أنا أقول لك، وقد بتُّ أرى ذلك: إن كل كلمة تقال لك، أيها الرفيق، لهي كلمة ضائعة، فأنت امرؤٌ منغلِق الفهم والعقل. وهنا ستظل تناطح الجدار حتى يتهشَّم رأسُك، فأنت لا تعرف المسألة الرئيسية عند الطبقة الكادحة: ألا وهي التضامن، هذا شيء لا تعرفه» «لابأس، أتُراك تعرف، أيها الزميل. الآن نخلع على الفور قبعتَيْنا وننطلق، أليس كذلك، يافيللي.

لقد بات هذا كافياً، فأنت تقول على الدوام، بلا ريب، الشيء الواحد ذاته» «أجل، إني لأفعل هذا، وفي وسعك أن تنزل إلى القبو وتدفن نفسك، ولكن لا يجوز لك أن تذهب إلى المؤتمرات والاجتماعات» «أستميح عفوَك، يا رجل، ياسيدي، فلدينا، على نحوٍ صريح، نصف سويعة من الوقت، والآن يشكر كلٌّ منّا صاحبه شكراً جزيلاً، وسندفع ثمن المشروب، انتبه، الآن أدفع أنا، عمل مباشر».

منْ أنت، في الحقيقة، أيها الزميل؟» على أن هذا لا يُرْخي قبضته، وفرانتس يمسح يده على المبلغ الباقي: «أنا، رجل مسكين، أتُراك لا تراني؟» «كلاّ، فأنت لا تبعُد كثيراً عن هذا الموضع» «أنا، المسكين، أتفهم، أوَ-قلْتُ لك أم لم أقُلْ؟ وعلى هذا فَقُلْ أنت، يافيللي، من تُراك تكون» «هذا لا يعني هذا الرجل». ياللهول، هؤلاء متشرّدون صعاليك، حقّاً، وهذا شيء يمكن أن يصحّ، وعلى هذا النحو قدَّرتهم. لقد سَخِر مني هؤلاء الصعاليك، اللئام، الذين أرادوا أن يتصَّدوْا لي. «إنما أنتم حثالة مستنقع الرأسمالية. هلاّ أغْربتم عن وجهي، فأنتم لمّا تبلغوا حتى منزلة العامل الكادح، وأمثال هؤلاء يُدْعَوْن الأشقياء أو الأوغاد» وكان فرانتس قد نهض قائماً: «سوف نذهب، ولكن ليس إلى المنفى، طاب نهارك، ياسيدي، صاحب العمل المباشر، إنكم لا تزيدون على أن تجعلوا أصحاب رؤوس الأموال بُدَناءَ حقاً.

فاصطفّوا رتلاً في الساعة السابعة صباحاً. وفي طاحونة العظام خمسة قروش في المظروف الأحمر الخاص بالأمهات» «لكيلا تتيحوا الفرصة ليرى كلٌّ منكم صاحبه مرة أخرى» «كلاّ، أنتَ أيها العمل المبنيّ على الكلام الفارغ، فنحن لا نتردَّد على أَجَراء الرأسماليين».

ويخرجان، بهدوء، للنزهة، ويسيران في الطريق المُغبّر، وذراع كلٍّ منهما في ذراع الآخر، ويتنفَّس فيللي تنفّساً عميقاً: «لقد فارقت هذا فراقاً جميلاً، يا فرانتس» ويتعجَّب من قلة كلام فرانتس، وفرانتس متجهِّم الوجه، وقد خرج من القاعة مفعماً بالكراهية والغضب، وكان فيه شيء يختمِر، ولم يكن يعرف لماذا؟

ويلتقيان بمتسهِ في محل موكّا- فيكس، في شارع مِنتس، حيث يوجد زحام وصخب كبيران ويضطر فرانتس إلى أن يذهب مع ميتسه إلى البيت، وإلى أن يتحدَّث إليها ويجالسها ويحدثها عن الحديث مع العامل الذي وَخَطه المشيب، وميتسه بالغة الرفق والرقة حياله، غير أنه يريد أن يعرف منها فحسب، أتراه تحدث بما هو حق وصحيح، وتبتسم غير فاهمة وتمسح بيدها على يده، لقد استيقظ الطائر، ويتنهَّد، إنها لا تستطيع أن تبعث الهدوء في نفسه.

مؤامرة نسائية، سيداتنا العزيزات لَهُنَّ القولُ الفصل

قلب أوروبا لا يشيخ

والجانب السياسيّ لا يتوقّف عند فرانتس «لماذا؟ وما الذي يعذّبك؟ وفي مواجهة مَنْ تدافع عن نفسك؟» فهو يرى هنا شيئاً ما، يرى شيئاً، يريد أن يضرب هؤلاء في وجوههم، فهم يظلون يثيرونه أبداً، وهو يقرأ في «الراية الحمراء»، وفي «العاطلين عن العمل». أما عند هربرت وإيفا فهو يظهر بتواتُر أكبر، مع فيللي، غير أن هؤلاء لا يحبون هذا الفتى، كما أن فرانتس لا يحبه كل المحبّة. ولكن القوم يستطيعون أن يتحدثوا مع الفتى، وما من شك في أنه يتفوَّق عليهم جميعاً في السياسة، وعندما تستجدي إيفا من فرانتس يترتَّب عليه أن يدع الفتى وشأنه، أن يدع الفتى المدعو فيللي

الذي لا يتناقص عنده سوى المال، ولا ينقصه فيما عدا ذلك سوى لص جيوب، ثم يتماثل فرانتس معها في الرأي كل التماثل، وفرانتس لا يمت إلى السياسة بصلة حقاً، إذ كانت السياسة بعيدة عنه طوال حياته، غير أنه يَعِد اليوم أن يدع فيللي ينطلق، وفي الغد يعود إلى النزهة مع الفتى الوقح ويأخذه معه للتجذيف.

وتقول إيفا لهربرت: لو لم يكن فرانتس، ولم يكن لفرانتس مثل هذه الورطة في ذراعه لعرفت كيف أعالج هذا» «وبعد؟» «هذا شيء أستطيع أن أعِدَك به، إنه ذلك الذي ماعاد يسير أسبوعين أكثر من ذلك، مع الفتى الغِرّ الذي يفصله عمّا هو رديء، وإلاّ فَمَن يسير مع مَنْ، يا تُرى، أوّلاً: لو كنت مكان ميتسه لكنت على استعداد، ولتركت هذا يمضي مُغَطّىً عليه منطَمِراً» «ومن يكون ذاك، أَهو فيللي» «إنه فيللي أو ذلك المدعو فرانتس. وهما سِيَّيْنِ عندي، ولكن ينبغي لهما أن يلاحظا، فعندما يقعد أحدهم في معجن صغير، عندَ ذلك سيكون مما لا بُدَّ منه أن يفكر في مسألة من كان على حق. غير أنك تُعَدُّ بأسلوب صحيح منتظم، مِمَّن أخرجه الغضب عن طوره، الغضب على فرانتس، وإيفا» «وبعد، أَمن أجل ذلك ساعدت في الدفع إليه بميتسه، وهي تنهك نفسها مع كلا الفَتَيَيْن اللذين كانا عندها لكي يُسَوِّيَا أمورهما. كلاّ، لا بُدَّ لذلك المدعو فرانتس أن يسمع قليلاً، الآن، ما عاد له سوى ذراع واحدة، فإلامَ يهدِف هذا؟ هنا يريد هو أن يتخذ سياسة وهو يبعث استياء الفتاة وغيظها» «أجل، فهذه تستاء استياءً شديداً، ولقد صدمتني بالأمس، فهي تقعد هنا، تنتظر، فمن المفترض أن يأتي. وأخيراً فما الذي تجنيه مثل هذه الفتاة من حياتها» وتقبّله إيفا: «الأمور تسير هكذا سيراً بالغ الدقة بالنسبة إليّ. كلاّ، ينبغي لك أن تظل بعيداً وألاّ تصطنع مثل هذا الهذر واللغو. الجَرْي في المؤتمرات! هربرت!» «وبعد؟ أي شيء سيكون خليقاً أن يحدث، أيتها الفأرة الصغيرة؟».

«أوَّلاً. عليك بفَرْك عينَيْك، ثم تستطيع أن تزورني في ضوء القمر». «هذا شيء يسرني أن أقوم به، أيتها الفأرة الصغيرة» وتضربه ضرباً خفيفاً على فمه، وتضحك، ثم تُهُزُّ المدعو هربرت: «أقول لك، إني لا أسمح بأن تُخَرَّب عليَّ الفتاة، المدعوّة سونيا، بهذه الطريقة، وهي تعد بالغة الصلاحية من أجل ذلك. وكأن الإنسان لم

يُحْرِق أصابعه بما يكفي، وهذا لا يعود عليه بخمسة قروش». أجل فافعل شيئاً ما، يتصل بصاحبنا فرانتس– وعلى قدر ما أعرف هذا الفتى، فقد كان رجلاً طيّباً، عزيزاً، ولكنك تستطيع أن تلح على هذا بالقول، مثلما تُلِحُّ به على جدار، فإنه لا يسمع». وتفكر إيفا كيف التي خطبت وُدَّه حين أقبلت إيدا، وبعد ذلك، كيف أنذرته، وفيما عانَتْ من الرجل، على أنها ليست بالسعيدة، الآن كذلك.

وتقول، وهي واقفة في وسط الحجرة: «أنا لا يتضح الأمر لي فحسب، وهنا كانت لدى الرجل هذه الحكاية مع بومز، وكان هؤلاء مجرمين، وهو الآن في أحوال حسنة، ولكن الذراع هي في النهاية ذراع» «وهذا ما أعنيه، أنا» «إنه لا يريد أن يتحدَّث عن ذلك، وهذا يعد في حكم الأمر المؤكّد. الآن سأقول لك شيئاً ما، ياهربرت. وبالطبع فميتسه تعرف المسألة الخاصة بالذراع، أمّا ما باتت لا تعرفه هو أين كان هذا، ومن هو، ولقد سألتها، مُدَّعية أني لا أعرف، ولا أودُّ أن أُحَرِّك شيئاً من ذلك، فهل تتسم مثل هذه المدعوَّة ميتسه بالضعف والعجز. أجل، ربما كانت تساورها الآن الهواجس، عندما تقعد هنا وحيدة تنتظر، وكان صاحبنا فرانتس حيثما كان، يستطيع، بالطبع، في حالة كهذه، أن يقوم بغارته. أما المدعوَّة ميتسه، فكانت تبكي بما فيه الكفاية، لا منه بالطبع، وكان الرجل يَعْد وعَدْواً إلى حيث مأساته وشقاؤه. ولقد كان حريّاً بهذا أن يهتم بأموره، وكان على ميتسه أن تحرّض الأخير ضد قضية بومز» «فيا للهَوْل». هذا أحسن. وهذا ما أقوله، وهذا ما يليق بفرانتس، وحين يتناول هو سكيناً أو مسدَّساً، أفلا يكون هنا على حق؟» «أمّا بالانطلاق مني أنا فقد حدث ذلك منذ عهد بعيد. لقد كنت أروح وأغدو، بنفسي، وبما فيه الكفاية لأطرح الأسئلة، وهؤلاء أصحاب بومز، قريبون قُرْباً مطلقاً: فههنا لا يعرف أحد شيئاً»، وسيكون هناك من يعرف شيئاً ما» «لا بأس، ماذا تريد إذاً»، وهذا ما يفترض أن يهتمَّ به فرانتس، لا فيللي ولا الفوضويون ولا الشيوعيون، وكل وسائل التغطية التي لا تعود بمال»، فلا تُحْرِقي أصابعك أيتها المخلوقة، إيفا».

وكانت علاقة إيفا ببروكسل، وهنا تستطيع أن تدعُوَ المدعوّة ميتسه إليها، وتكشف لها عن كل شيء، كما هو الحال عند البشر الذين يتّسمون بالاستقامة

الكاملة، ذلك لأن لمّا تطّلعْ على شيء كهذا، والرجل مجنون للغاية بإيفا إلى حَدّ بلغ منه أنه أعدَّ لها حتى حجرة صغيرة من حجرات الأطفال، يقيم فيها اثنان من صِغار القِرَدة. «أوَ تحسَبين، حقاً، ياسونيا، أن هذه الحجرة لصغار القِرَدة؟ أجل، بلا ريب، إنه الجاتوه، على أني لم أُدْخِلها هناك، لأن هذه حجرة جميلة للغاية، وأمّا صغار القردة، فهي مايتحمَّس له المدعو هربرت، وهذا ما يشكل، بالنسبة إليه، على الدوام، مثل هذه النكتة، عندما يُقْبِل على هذا النحو؟» «ما الذي تأتي به إلى هنا، أيها الآدمي؟» «وما الذي يضيرنا من هذا؟» والشيخ يعرف هذا، فهو يشعر بغَيْرَة شديدة البأس، كلاّ، فهذا جميل على وجه الخصوص. هل تعتقد، أنه لو لم يكن هذا غيوراً، لكان خليقاً أن يَدَعَني أعدو منذ عهد بعيد. فهذا الإنسان يريد مني، بالطبع، طفلاً، فتصوَّر، أن الحجرة الصغيرة موجودة من أجل هذا!» أنت تضحك، إنها حجرة صغيرة مريحة، قد طُلِيَت بطلاء ملوَّن، وزُيِّنت بالأشرطة، وفيها سرير أطفال منخفض، وتتسلَّق القردة على القضبان المعدنية الحاملة للسرير، صعوداً ونزولاً، وتتناول إيفا واحداً منها تضمُّه إلى صدرها، وتنظر أمامها وقد أسدلت على وجهها حجاباً. لقد كنت خليقة أن أسدي المعروف إلى الطفل، غير لا أحب طفلاً يأتي منه، كلاّ، أمّا منه فلا» «كلاّ، وهربرت لا يريد طفلاً»: «كلاّ، أنا أودُّ أن يكون لي ولد من هربرت. أو من فرانتس، هل أنتِ غاضبة، ياسونيا؟»

غير أن سونيا تُقْدِم على شيء مختلفٍ كل الاختلاف عما تعتقد إيفا، وتزعق سونيا، وقد فَغَرت فاها، وتدفع القرد الصغير عن صدر إيفا وتعانق إيفا بعنف، وقد لاحت على وجهها السعادة والغبطة والبهجة، وهي التي لا تفهم وتُعْرِض بوجهها، لأن سونيا تريد أن تظل تقبّلها على الدوام. «لا بأس عليك فتعالَي بربك، يا إيفا، تعالَيْ، فأنا لسْتُ غاضبة، وإني ليسرُّني أن تحبّيه، ألا فقولي كم تحبينه؟ وأنت تودين لو ظفرت منه بطفل، لا بأس، فقولي له بربك» وإيفا مستعدة لأن تبعد الفتاة عنها. «أأنت مجنونة، أيتها الآدميّة، فقولي فحسب، ياسونيا، ماذا دهاكِ؟ قولي، بالنص الصريح، هل تريدين أن تسوقيه إليّ؟» «كلاّ، ولماذا أفعل ذلك، يا تُرى، وما من شك في أنني أودُّ الاحتفاظ به، فهو صاحبي فرانتس، ولكن أنتِ صاحبتي إيفا، مافي ذلك شك» «وأنا، مَنْ أكون» «أنت صاحبتي إيفا، أنت حوّائي».

ولا تستطيع إيفا أن تقاوم، إذ تقبلها سونيا في فمها وفي أنفها، ومن أذنيها، ومن قفاها. ثم تلزَم إيفا السكون، ثم، حين تدس سونيا وجهها في صدر إيفا، ترفع إيفا، بقوة، رأس سونيا إلى أعلى: «أيتها الآدمية، أنت امرأة شهوانية» «كلاّ، أبداً» وقالت ذلك متلعثمة وهي تسحب رأسها من جديد، وتسحبه من يدَيْ إيفا وتضعه على وجه إيفا، «أنا أحبك، ولم أكن أعرف ذلك على الإطلاق، وقبل ذلك، أنْتِ تقولين، تريدين ولداً منه-» «ماعلينا، وماذا إذاً، أيتها الآدمية؟ ها أنْتِ أصبحت ماكرة» «كلا، يا إيفا» وكان لسونيا وجه أحمر متوهِّج، وهي تنظر إلى إيفا من أسفل: «أنتِ تودّين ولداً منه حقّاً» «ماذا دهاك يا تُرى، أتريدين ولداً منه؟» «كلاّ، لم أزِدْ على أن قلت» «أجل، أنت تريدين ولداً بلا ريب، ولكنك تتحدثين هكذا فحسب؟ أنتِ تريدين، أنتِ تريدين، وإذ بسونيا تعود من جديد إلى دسّ رأسها في صدر إيفا، وتشد إيفا إليها وتدندن قائلة، في سعادة: «إنه لشيء بالغ الجمال أنِ تريدي ولداً منه، ياللعجب، إن هذا لجميل، وإني لفي غاية السعادة، ياللعجب، إني لسعيدة».

هنالك تقود إيفا سونيا إلى الحجرة المجاورة، فتُرْقدها على الكرسي الطويل: «ما من شك في أنك امرأة شهوانية، أيتها الآدمية» «كلاّ، أنا لست بالشهوانية، ولم يسبق لي قط أن لامست واحدة بهذه الطريقة» ولكنك تحبين ملامستي بلا ريب»» أجل، لأنني أحبك كل الحب، ولأنك تريدين ولداً منه، ويجب أن تظفري بهذا منه». «أنت مجنونة يافتاة» هذه فتاة ساقطة كل السقوط، وهي تمسك بيدَيْ إيفا إمساكاً محكماً، إذ هَمَّت هذه أن تنهض قائمة: : «واعجباً لك، لا تقولي لا، بربِّك، فما من شك في أنك تريدين ولداً منه، ويجب عليكِ أن تَعديني بهذا، ستَعدينني بذلك، ستنجبين ولداً منه» وتضطر إيفا إلى أن تُخَلّص نفسها بالقَوّة من سونيا التي ترقد هنا في استرخاء وميوعة، وتظلّ مغمضة العينين، تتمطّق بشفتيها.

ثم تنتصب سونيا قائمة، وتقعد إلى جانب إيفا، إلى المائدة، حيث قدَّمت لهما خادمة المنزل طعام الإفطار مع الخمر. أما سونيا فتأتيها بالقهوة والسجاير، ومازالت سونيا تحلم وهي تنظر أمامها، في حالة من أحوال التجلّي والبلبلة، وكانت ترتدي،

كشأنها دائماً، ثوباً بسيطاً أبيض، بينما ترتدي إيفا ثوب الكيمونو الحريريّ الأسود. كلاّ، يافتاة، ياسونيا، هل يستطيع المرء أن يتحدَّث إليك بحديث متعقّل؟» «هذا شيء يستطيع المرء أن يفعله دائماً» «وكيف يروق لك الحال عندي؟» «لا بأس فيه» «ألا ترَيْن، إنك تحبين الفتى المدعو فرانتس، إذاً فانتبهي إلى هذا الفتى كلّ الانتباه، فإن من شأنه أن يذهب إلى هنا وهناك، حيث لا تكون الأمور على مايرام، أن يذهب وعلى الدوام مع فيللي، الفتى العفريت» «أجل، هذا يعجبه» «وأنتِ»: «أنا، إنه يعجبني أنا، فحين يعجب فرانتس يعجبني أنا» «وهذا شانك الآن يافتاة، فأنت غير ذات عينين على أية حال، ومازلت أصغر مما ينبغي. المجتمع ليس مع فرانتس هذا ما أقوله لك، وهذا ما يقوله هربرت كذلك. فهذا فتى عفريت، وهو يغوي المدعو فرانتس ألم يكتفِ هذا بما أصابه في ذراعه؟».

أمّا سونيا التي توقف هجومها في هذه اللحظة، فتدع اللفافة تندسّ في زاوية فمها، ثم تطرحها، وتسأل بنبرة هادئة: ما الذي حدث يا تُرى؟ إرادة الله» ومَنْ يدري ما حدث، أنا لا أجري وراء فرانس، ولا أنت. كلاّ، فأنا أعلم أَنْ ليس لديكِ وقت، ولكن دعيني أروي لكِ، يالمرأة، إلى أَن يذهب، وما الذي يرويه يا تُرى؟». «آه، إنها السياسة المجرَّدة، وهذا ما لا أفهمه». ثم ألا تَرَيْن، هذا هو ما تصنعه «السياسة»، وليس «في صورة السياسة» عند الشيوعيين والفوضويين، وأمثال هؤلاء الصعاليك المتشرّدين الذين لا يملكون بنطالاً سليماً يجعلونه على مؤخراتهم. ويشيء كهذا يجري فرانتس، وهذا يروق لك، أيها الآدميّ، أَوَمن أجل ذلك تعمل؟» «ما من شك في أنني لا أستطيع أن أقول لفرانتس هذا بلا ريب: لو لم تكن بالغ الضآلة، ولمّا تبلغ العشرين لكان من الواجب على المرء أن يصفعك صفعة وراء أذنك. ولا يتوافر لكِ، دفعة واحدة، شيء تقولينه له، فهل يُفْتَرَض في هذا أن تدهسه العجلات مرةً أخرى؟» «إنه لن ينزل إلى ماتحت العجلات؟» لن ينزل تحت العجلات يا إيفا، أنا أنتبه» على أن من الغريب أن سونيا القصيرة تغرَوْرِق عيناها بالدموع، وتنصب رأسها على ذراعَيْها، وتنظر إيفا إلى الفتاة ولا تفهم حقيقة أمرها، أتُراها تحبه كل هذا الحب؟» ههنا يوجد عندك خمر حمراء، ياسونيا وصاحبي الشيخ يحبُّ الخمر الحمراء على الدوام، تعالَيْ.

وتصب للمرأة القصيرة نصف قدح. وفي هذه الأثناء تنساب دمعة من القصيرة منحدرة على وجنتها، ويظل وجهها على الدوام حزيناً غاية الحزن «جرعة أخرى، صغيرة، ياسونيا» وتقدم إيفا قدح الخمر إليها، وتظل إيفا تزيح قدم الخمر عَنْها، وتداعب وجنتَيْ سونيا، غير أن هذه تظل على الدوام تحملق فيما هو أمامها، وتنتصب قائمة، وتفكر في نفسها، وتقف أمام النافذة، وتنظر إلى الخارج، وتقف إيفا إلى جانب سونيا، هنالك لا يدرك خنزير من الخنازير حقيقة الفتاة. ينبغي لكم أن لا تتأثَّروا بهذا كل التأثر، مع فرانتس، وياسونيا الصغيرة، إن ما قلته لا يُقْصَد به إلى هذا، بلا ريب، وليس عليك، بلا ريب، سوى أَنْ لا تدعيه يسير مع فيللي، السِكّير، وفرانتس حَمَلٌ طيّب القلب للغاية، وأنتِ ترَين أنه قد كان من الأفضل، بلا ريب، أن يُغْنى فرانتس، بأمر بومْز وبمَن دهس ذراعه، وأن يفعل هنا شيئاً ما» وتقول سونيا القصيرة بصوت خفيض: «أريد أن أنتبه، وتضع ذراعاً حول إيفا من دون أن ترفع رأسها، وهنا تقفان خمس دقائق، وتقول إيفا في نفسها: ماكنت، لأجود على فرانتس، في الحالة العادية بامرأة أخرى غير هذه.

وبعد ذلك تثور ثائرتهما في الحجرة، مع القِرَدة، وتكشف إيفا عن كل شيء، وتستحوذ على سونيا الدهشة مما يوجد، من أدوات زينة إيفا وهندامها، ومن الأثاث، والأَسِرّة والبسط والسجاجيد، وتحلمان بالساعة الجميلة التي يتوّجه فيها القوم بصفة ملكة بيكسافون فهل يستطيع المرء هنا أن يدخِن؟ كلاّ، أبداً، وإنّه ليدهشني كيف تقدران على توريد أمثال هذه اللفافات المتميِّزة، بمثل هذا المستوى من الأسعار، إلى السوق، على مدى السنين، ولا بُدَّ لي أن أعترف بذلك، اعترافاً يبعث على سروري أنا، أنتِ، إنها لرائحة تفوح! العبير الرائع للوردة البيضاء العبير المحترم، كما تطلبه سيدة ألَمانية متحضِّرة، ومع ذلك فهو قويّ بما يكفي لكي يطوِّر الفيض والامتلاء بأكمله، فيا للعجب، إن حياة المغنية الأولى في الأفلام الأمريكية لهي في الحقيقة شيء مختلف اختلافاً جوهرياً عما يمكن للأساطير التي تحيط بها، أن تحملنا على التكهُّن بذلك. وتقول إحدى الأغاني: وجاءت القهوة، فغنَّت سونيا أغنية:

في أبرودبانتا، كانت تعيث فساداً

زمرة اللصوص المتوحشين .

ولكن نقيبها ، غويتو ، الطيب ، ذو التفكير النبيل

لقيه أحدهم في الغابة المظلمة ،

وكانت هذه ابنة مارشان الصغيرة

وسرعان ماتردَّدت ، خلال الأشجار ، أصوات تقول:

أنا لك ، إلى الأبد ، إلى الأبد!

ومع ذلك فسرعان ما تم اكتشافهما ، رهط كبير من أهل الصيد والقنص يقترب ، وقد استيقظ منبعثاً من السعادة ، فما عدت تعرف نصيحة ، ولا فعلاً ، أمّا الوالد فيلعن المساكين ، وحتى النقيب يتعرَّض للتهديد ، وأما الأب فيتوسَّل إليها أن ترحم ، وإذا رحل فسأرحل معه إلى الموت .

وسرعان مايتهافت غويتو في البرج المظلم ، آه ، ياللوجود المفزع! وفيما بعد تنزع إيزابيللاّ إلى تحرير الحبيب ، وكان مقدَّراً لها أن تصيب نجاحاً ، فسرعان ما أصبح في مكان آمِن ، ولمّا يكد يفلت من حبل المشنقة ، إنه يستطيع أن يحول دون جريمة القتل .

ويهرع عائداً إلى القصر من جديد بالمرأة التي يحررها ، ولكن إيزابيللا تركع ، وقد باتت لدى الهيكل ، مستعدة ، مرغَمةً بقسوة ، على أن تنطق بكلمة «نعم»للرابطة المكروهة عندها ، وهنا يعلن نبأ الجريمة ، غويتو ذو الوجه الشاحب .

ويتمدَّد عجز وغيبوبة يدلاّن على الموت ، وإيزابيلا قد ذهبت ، شاحبة ، وما عادت تبعث في النفوس رغبة في قبلة! وبدلالة نبيلة ، مزهوَّة بنفسها ، تحدث إلى أبيه فقال: لست مسؤولاً عن وفاتها ، لقد حطّمتَ قلبها ، وحوَّلت حمرة الوجنتين إلى شحوب .

وحين يراها النقيب من جديد على محفة الموتى الساكنة الهادئة ، ينحني على محيّاها ، وما زالت تُلاحَظ الحياةُ ويُحَسّ بها ، ويحملها بسرعة ، مفعماً بكل المخاوف ، ويذهب معه بالحبيبة حيث يترتَّب عليه أن يبعث فيها الحياة من جديد . لقد بات الآن حاميها وكنزها الدفين .

وما من شك في أَنْ قد كان عليهما أن يهربا الآن ، إذ ماعاد يقرّ لهما الآن قرار ، وباتا يُطارَدان قبل المحاكم ، ويُقْسِم كل منهما لصاحبه: لنتقدّمنّ حتى الآن معلنين عن أنفسنا وحين يكون كأس السم قد أفرغ سوف يصدر الرب حكمنا ، وفي السماء نحظى بالمرضاة والتجلّي .

وسونيا وإيفا تعلمان أنها أغنية مألوفة من السوق الأسبوعية ، يتسامحون حيالها أمام لوحة للصور ، ولكن لابُدَّ لكلتَيْهما أن تبكيا حين انتهت هذه المسألة ، وما عاد في وسعهما أن تشعلا السيجارتين من جديد .

لقد فرغنا من السياسة
ولكن التعطُّل الأبدي مازال أخطر كثيراً

ومازال فرانتس بيبر كوبف يتابع الخوض ، إلى حدٍّ ما ، في مستنقع السياسة ، وفيللي الجريء ليس لديه الكثير من المال ، وهو ذو دماغ مُشرِق ، حادّ ، غير أنه يُعَدُّ ، بين لصوص الجيوب ، من المبتدئين ومن أجل ذلك يُميِّز فرانتس من الآخرين ، وقد كان ذات مرة ربيب الرعاية . هنالك حدّثَه أحدهم عن شيوعياً ، وأن هذا ليس شيوعيّاً ، وكان الإنسان المتعقِّل لايؤمن إلاّ بنيتشه وشتيرنر ، ويفعل مايروق له ، وما عدا هذا فهو كلام فارغ . هنالك وجد الفتى الداهية المحنَّك متعة هزلية كبيرة في حضور المؤتمرات السياسية ، وأن يشكِّل بالانطلاق من القاعة ، معارضة ، فكان يقتنص لنفسه منها أناساً يريد أن يعقد معهم صفقات ، أو لمجرد أن يستغفلهم ويضحك منهم .

ولا يجاري فرانتس هذا إلاّ بقَدْر يسير ، ثم تنتهي المسألة ، من السياسة ، على وجه الإطلاق ، وحتى من دون ميتسه وإيفا .

وهو يقعد هنا ذات ساعة متأخرة من المساء –إلى المائدة ، مع نجّار متقدِّم في السن كانوا قد تعرَّفوا عليه في أحد المؤتمرات ، ويقف فيللي في هذه الأثناء عند البار ، وفي

ذهنه مشروع آخر وكان فرانتس قد نصب ذراعه على المائدة، ورأسه في يُسْراه، ويسمع مايقوله النجار، الذي يقول: «هل تعلم، أيها الزميل، أنا لم أذهب إلى المؤتمر إلاّ لأن زوجتي مريضة، ولا يمكن أن تحتاج إليّ في المساء، وهي التي تحتاج إلى هدوئها. وفي الساعة الثامنة، أي عندما تدق الساعة الثامنة تماماً، تتناول أقراصها المنوِّمة والشاي، ثم يترتَّب عليّ أن أجعل البيت مظلماً، وماذا ينبغي لي أن أفعل في الطابق العلويّ. هنا يمكن للمرء أن ينتهي إلى حياة المقاصف والملاهي، حين تكون عنده زوجة مريضة».

«فأرسلها إلى المستشفى، أيها الآدميّ، فليس مُقامُها في البيت بشيء».

«لقد سبق أن دخلت المستشفى، ثم أخرجتها منه من جديد، أما الطعام فلم تكن تتذوقه فيه. على أنه لم يتحول إلى ما هو أفضل».

«أتُراها مصابة بداء عُضال، زوجتك؟»

«لقد وصل نمو الرحم إلى المستقيم، ونحو ذلك، ثم أجرَوْا لها عملية، ولكن ذلك لا يجدي، في البطن. والآن يقول الطبيب إنها مسألة عصبية فحسب، وهنا ما عادت قادرة على الصمود فهي تولول وتنوح طوال النهار».

«مثل هذا شيء غريب».

«وعما قريب يكتب هذا أنها باتت سليمة معافاة، فأنتبهْ يا رجل، لقد ترتَّب عليها أن تذهب مرتين إلى الطبيب الذي تمحضه ثقتها، وأنت تعلم، غير أنها لا حيلة لها في الأمر ولا مندوحة لها عنه، وهذا مايزال يكتب أنها سليمة معافاة، فحين يكون للمرء أعصاب مريضة يكون سليماً معافى»..

وفرانتس يصغي إلى هذا، فقد كان، هو، مريضاً، لقد فارقته ذراعه، ورقد في ماغديبورغ في المستشفى، وهو لا يحتاج إلى هذا كله، فهذا عالم آخر. «أتريد قدحاً آخر من البيرة؟ «هنا» قدح من البيرة»، وينظر النجار إلى فرانتس. «أأنت لست من الحزب، أيها الزميل؟»

«كنت منه سابقاً، أمّا الآن فلا. فإنه لا يجدي».

ويقعد المضيف إلى مائدتهما، فيحيي النجار بقوله: «مساء الخير» ويسأل عن الأولاد، ثم يقول هامساً: «أيها الآدمي، قد لا تكون سياسياً من جديد»

«نحن نتحدث في هذا على وجه الخصوص، فلا تفكر فيه على الإطلاق» «لا بأس، هذا جميل منك. أنا أقول، يا إيدي، وصغيري يقول الشيء الذي أقوله، ذاته: فنحن لا نكسب من وراء السياسة قرشاً، وهذا لا يرتقي بنا، بل يرفع من شأن الآخرين فحسب».

وهنا ينظر إليه النجار بعينين توشكان أن تُغْمَضا: «هكذا، هذا ما يقوله أوغست الصغير إذاً».

هذا الصغير طيب، أقول هذا لك، وأنت لا تستطيع، بلا ريب، أن تضلله أو تخدعه، هنا يفترَض، أن يأتي، أوّلاً، رجل ما، ونحن نريد الكسب، وتستقيم الأمور كل الاستقامة، وكل ما عليك هو أن لا تضيق ذرعاً أو تتذمّر.

«عسى أن يجدِيَ ذلك، يافريتس، أنا لا أضِنُّ عليكَ بشيء».

«أنا أزدري الماركسية بأسرها، أزدري لينين وستالين وكل الإخوة هؤلاء. أمّا أنَّ أحداً من الناس يعطيني قرضاً، أو يعطيني الكثير من المال، ومدى المهلة ومقدار المبلغ- كما ترى، فذلك هو المحور الذي يدور حوله العالم».

«كلا، لقد ذهبت بهذا إلى شيء ما» وعلى أثر ذلك يقعد فرانتس والنجار صامتَيْن. أما المضيف فما زال يلغو ويُثَرْثِر، ولكن النجار يصدر أصواتا كصوت الديك الهنديّ:

«أنا لا أفهم الماركسية شيئاً، ولكن انتبه، يافريتس، المسألة ليست بمثل هذه البساطة التي ترسمها لنفسك في صندوق مخّك، فإن ما أحتاج إليه من الماركسية، أو مايقوله الآخرون، أي الروس، أو ذلك المدعو فيللي مع شتيرنر، يمكن أن يكون خاطئاً، وما أحتاج إليه حاجة ماسّة، أستطيع أن أحصيه لنفسي في كل يوم على أصابع

يديّ ، وما من شك في أنني سأفهم عندما يقول امرؤٌ لي عن حَدَبة كاملة البَشرة ، ماذا يعني هذا . أو عندما أكون اليوم مستكيناً في دكاني ، وفي الغد أطير هارباً ، فليس هناك من تكليفات ، والمعلم يبقى ، والسيد معلم المهنة يبقى ، بالطبع ، وأنا فحسب أُضطَر إلى الخروج ، والتسكع في الشارع ، واضطر إلى الخَتْم والوَصْم و– عندما يكون لديّ ثلاثة من التابعات لي من صنف أقنان الأرض ، وتذهب هاته التابعات إلى المدرسة المحلية ، وتكون لأكبرهن سنّاً سيقان مُعْوَجّة ، من جراء الداء الإنجليزي لا أستطيع أن أبعث بها ، وربما تقبل ذات مرة على المدرسة ، وربما استطاعت زوجتي أن تجري نحو مكتب الشبيبة أو أعرف أن المرأة يترتّب عليها أن تعمل . وهي الآن مريضة بالطبع ، على أنها تكون في العادة بارعة ، تقف مع الأحدب والحدباء ، والتعلّم شيء يُقْدِم عليه الأتباع المرتبطون إقداماً لا يقل عن إقدامنا ، كما تستطيع أن تكوّن لنفسك صورة عن هذا ، وكما ترى ، وهذا شيء أستطيع كذلك أن أفهمه ، بلا ريب ، عندما يُعَلّم الآخرون من الناس أطفالهم اللغات الأجنبيّة ويرتحلون في الصيف إلى حمامات البحر ، ونحن مازلنا لا نملك بعدُ القروش التي يستطيعون أن يخرجوها إلى حد ما ، بعد الذي أودعوه في حصّالات الادخار ، ثم إن السيقان المعوجّة لا تكون للأطفال المرفهّين بمثل هذه السرعة على الإطلاق ، وعندما أُضطرُ إلى الذهاب إلى الطبيب وأنا أعاني من الروماتيزم ، عند ذلك نقعد في غرفة الانتظار ثلاثين رجلاً ، وبعد ذلك يسألني : لابُدّ أنك ستكون قد عانيت من الروماتيزم من قبلُ ، وكم سلخت من العمر هنا ، يا تُرى ، وأنت تعمل ، وهل حصلت على أوراقك ، على أنه مازال بعيداً عن أن يصدقني ، ثم ينتهي بي المطاف إلى الطبيب الذي أمحضه ثقتي ، وعندما أريد ، مثلاً ، أن أُحالَ إلى جهة ما ، من قبل إدارة التأمين الإقليمية ، وهو مايعملون من أجله خصماً ، من الحساب ، على الدوام ، هنالك لا يكون لك بُدٌّ أن تحمل رأسك تحت إبطك ، إلى أن يحيلوك . يافريتس ، هذا شيء أفهمه بأكمله من دون نظارات . وهنالك سيضطر المرء ، بلا ريب ، إلى أن يعدَّ الجَمَل حديقة حيوان ، إذا لم يفهم هذا . ومن أجل ذلك لا يحتاج إنسان في هذه الأيام إلى كارل ماركس ، ولكن يافريتس ، هذا حق ، وإنه لحق ، بلاريب .

ويرفع النجار رأسه الأشيب وينظر إلى المضيف وهو يفتح عينيه إلى مداهما الأقصى. ثم يدس غليونه من جديد في فمه، ويدخن وينتظر ما عسى أن يجيب به أحدهم، وإذ بالمضيف يدمدم، ويمط شفتيه إلى الأمام ليجعلهما مدبَّبتين ويبدو غير راض، ويقول: «أيها الآدمي، إنك لعلى حق، بالطبع، فإن أصغر بناتي لها ساقان معوجَّتان، وليس لديّ مال من أجل الإقليم، ولكن في النهاية، لقد كان يوجد، على الدوام فقراء وأغنياء، وما كنا لنغيِّر هذا كلانا، ».

ويعود النجار إلى تدخينه غير مبالٍ: «إلاّ أنه يفترض أن يكون فقيراً مَنْ كان يجد في الفقر متعة. أجل، ينبغي للآخرين قبلي أن يكونوا فقراء، فأنا لا أجد الآن متعة في ذلك، وسيفرغ المرء من ذلك على مر الزمن».

ويتحدثون بهدوء تام ويتجرّعون ببطء بيرتهم، وفرانتس يظل يصغي على الدوام، ويمرّ فيللي قادماً من منصة صب الخمور، ويضطر فرانتس إلى أن ينهض واقفاً وأن يخلع قبعته، وأن يسير: «كلاّ، يافيللي، أنا أريد الذهاب إلى السرير اليوم في ساعة مبكرة، وأنت تعلم ذلك بلا ريب، مِنْ أمس».

ويسير فرانتس وحده على مدى الشارع الطويل المُتْرِب، والصدى بعيد المدى، والأمير غبيٌّ بليد. انتظر، انتظر، فما هي إلاّ هنيهة، وسرعان ما يأتي مصفف الشعر إليك، إنه يصنع منك قديد الكبد بالبلطة القَاْسِيّة الصغيرة، مهلاً، مهلاً، فما هي إلا هنيهة، وسرعان ما يأتي مصفف الشعر إليك، عليه اللعنة، إلى أين أمضي على هذا المدى، ويتوقّف ولا يستطيع اجتياز الجسر، ثم يرتد على أعقابه، ويسير، يجتاز الشارع الساخن، عائداً أدراجه، مارّاً بالحانة، حيث مازال هؤلاء قاعدين، وحيث يقعد النجار عند البيرة. لن أدخل المحلّ. لقد قال النجار الحقيقبة. وهكذا تكون الحقيقة، وماذا أصنع بالسياسة، وبكل القَذَر، إنه لا يجديني شيئاً، لا يجديني شيئاً.

ويعود فرانتس إلى السير في الشوارع الساخنة المُغْبَرة، المضطربة، بطولها. أوغست، وفي ميدان روزنتال يزداد الزحام، وهذا أحدهم يحمل الصحف، هنا،

صحيفة العمال البرلينيّة، محكمة الطوارئ الماركسية، يهودي تشيكيّ يغتصب الغلمان، أغوى عشرين غلاماً، ومع ذلك لا يُلْقى القبض عليه، لقد كنت أبيعها، اليومَ حرارة رهيبة، وفرانتس واقف يشتري من الرجل الجريدة، وفي مقدمتها الصليب المعقوف الأخضر. معتلٌ مزمِن، أعور، من «العالم الجديد»، إشرب، إشرب، ياأُخَيَّ، إشرب، وخَلِّف همومك في البيت، واجتنب الهمّ واجتنب الألم، ثم تكون الحياة نكتة أو مُزاحاً.

ويتابع مسيرته وهو يطوف بالميدان، داخلاً شارع الألزاس، يارِباط الحذاء، يامسكين، تجنَّب الهمَّ وتجنَّب الألم، عند ذلك تكون الحياة فكاهة ومُزاحاً، لقد مضى زمن طويل، منذ عيد رأس السنة الماضية، أيها الآدمي، مضى كل هذا الوقت، هنا وقفت عند فابِش، وصِحت، أية أحشاء كانت هذه، أشياء لربطة العنق، حاملة ربطة العنق، ولينا، لينا، البولونية، البدنية، التي جاءت بي.

وفرانتس يسير، وهو لا يعرف مايريد، عائداً إلى ميدان روزنتال، ويقف أمام فابِش عند الموقف، في مواجهة آشنغر. وينتظر، أجل، هذا مايريده، فهو يقف هنا، وينتظر، ويشعر كأنه إبرة مغناطيسية – باتجاه الشمال! إلى تيغِل، إلى السجن، سور السجن، هنا يريد الانطلاق، هنا لا بُدَّ له من الانطلاق.

ثم يحدث هذا الحدث، أن الرقم ٤١ ياتي، ويتوقف، ويركب فرانتس ويشعر أن هذا صحيح. إنه انطلاق، وينطلق، وتنطلق الحافلة الكهربائية إلى تيغِل. ويدفع عشرين قرشاً وتغدو تذكرة الركوب في يده، وينطلق إلى تيغل، وتسير الأمور على أحسن ما يرام، إنه شيء من الأشياء، وإنه ليشعر بأنه في حالة حسنة! ومن الحق أنه ينطلق في الحافلة، وهذا يفضي إلى ذلك كله، وهنا ينطلق داخلاً، ويكون الوقف هنا، وهنا يكون ذلك صحيحاً، وحين يقعد، يغدو ذلك أكثر صحة على نحوِ مُطّرد، كما يغدو أكثر صرامة على نحوِ مطَّرد، ويظل يزداد صحة، كما يزداد صرامة، ويزداد عنفواناً. لقد بلغ من عمق الارتياح والاغتباط اللذين يحسُّ بهما، ومن قوّتهما، ومن غُلبة الصنيع الحسن، واليد البيضاء، أن فرانتس يقعد ويغمض عينيه وقد استحوذ عليه نوم ذو سلطان وجبروت.

وكانت الحافلة الكهربائية قد مرت بدار البلدية في غمرة الظلام، إنه شارع برلين، لاينيكِندورف- غرب، تيغل، محطة الموقف الأخير، ويوقظه الجابي، ويساعده على النهوض: «لن تذهب الحافلة إلى أبعد من هذا، إلى أين كنت تريد يا تُرى؟» ويخرج فرانتس مترنِّحاً من سكره قائلاً: «إلى تيغِل» «إذاً فها أنت ذا فيها» «ألا لقد شَحَنَ هذا فأثقل في الشحن وأفرط، وهكذا يبدِّد المصابون بالعجز والمرض المزمن معاشهم في الشراب.

وكانت الحاجة الهائلة إلى النوم قد أدركت فرانتس إلى حد بلغ منه أنه انزلق، في الميدان الذي كان يحوم فيه هائماً على وجهه، واقعاً على المقعد الطويل الأول وراء مصباح، وتوقظه دورية شرطة، في الساعة الثالثة، ولا تصنع معه شيئاً، إذ يبدو الرجل حسن السلوك، مستقيماً، غير أنه أفرط في الشراب حتى بلغ منه الثَّمَل ما بلغ، غير أنَّ هؤلاء يستطيعون أن ينهبوه. «لا يجوز لك أن تنام هنا، أين تسكن يا تُرى؟».

ثم اكتفى فرانتس، وهو يتثاءب، إنه يريد الذهاب إلى فراشه، أجل هذه تيغِل، أمّا ما أردته هنا بعد، فقد أردت شيئاً ما هنا. ثم إن أفكاره يتداخل بعضها في بعض، وأنا مضطر إلى الذهاب إلى الفراش، ولا شيء بعد ذلك.

ويشرُد ذهنه وهو محزون، أجل، أجل، هذه تيغِل، وهو لا يعلم مايرتبط بذلك، أجل هنا كان قد قعد ذات مرة من قبل. إنها سيارة. مااللذي كانه بعدُ، وما الذي كنتُ أريده، في تيغِل. وأنتَ، أنتَ، توقظني عندما أموت.

والنوم القسري يأتي من جديد، ويفتح عينيه بقوة، وفرانتس يعرف كل شيء.

وههنا جبال، ولاشيخ يقف قائماً ويقول لولده: تعالَ معي، تعالَ معي، تعال معي، ويذهب الولد معه، ويذهب بعد ذلك إلى الجبال داخلاً، صاعداً، فنازلاً، جبالاً ووِدياناً، وإلى أي مدى سوف تتواصل المسألة بعد، يا أبي، هذا شيء لا أعرفه، ونحن نتسلّق الجبال، وننحدر نازلين منها، تعال معي فحسب، أأنت متعَب، ياولدي، ألا تحب الذهاب معي، ياللعجب، أنا لست متعَباً، إذا كنتَ

تريد أن آتي معك ، فسأذهب معك . أجل ، تعالَ فحسب ، صعوداً ، ونزولاً ، ثم ترى وِدْياناً ، إنه طريق طويل ، ونحن في منتصف النهار ، ونحن ههنا ، ألا فانظر حواليك ، ياولدي ، هنا يقوم هيكل ، أنا خائف يا أبي ، ولماذا تخاف ، ياولدي؟ لقد أيقظتني مبكراً وخرجنا إلى الخلاء ، ونسينا الخروف الذي أردنا أن نذبحه ، أجل ، لقد نسينا هذا . ونحن نتسلّق جبلاً وننزل عن جبل ، ثم تأتي الوديان الطويلة ، لقد نسينا هذا ، ولم يأت الخروف معنا ، وأنا خائف ياولدي ، فماذا يجب أن نصنع؟ نتسلق جبلاً وننزِل عن جبل ، وتأتي الوديان الطويلة ، لقد نهضت من الفراش في ساعة مبكرة للغاية . لا تخف ياولدي ، وأفعل ذلك طائعاً مختاراً ، هيّا أُدْنُ مني ، لقد خلعت المعطف ، وما عاد في وسعي أن أُخَضِّب أكمامي بالدم ، وما من شك في أنني أخاف لأنك تستحوذ على السكين ، أجل ، السكين معي ، ولا بُدَّ لي من ذبحك ، ولا بُدَّ لي من تقديمك قرباناً فالرب يأمر بذلك ، فأفعل ذلك طائعاً مختاراً ، ياولدي .

كلاّ ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك ، وسأصرخ ، لا تلمسني ، فانا لا أريد أن أُذْبَح ، الآن تجثو على ركبتَيْك ، فلا تصرخ ياولدي ، بل سأصرخ ، لا تصرخ ، فإنك إذا لم تُرِد لم يكن في وسعي أن أفعل ذلك ، وأنا أريده بلا ريب ، صعود الجبل ثم النزول منه ، لماذا ماعاد ينبغي لي أن أذهب إلى البيت؟ ماذا تريد أن تصنع في البيت ، فالرب حاضر فيما هو أكثر من البيت . لا أستطيع ، ما من شك في أنني أستطيع كلاّ ، أنا لا أستطيع . هيّا ، أُدْنُ منيّ ، أنظر ، السكين معي ، أنظر إليها ، إنها حادّة للغاية ، ويفترض أن تأتي فوق عنقك . أيفترض أن تنفذ في حنجرتي؟ أجل ، عند ذلك يتدفّق الدم؟ أجل ، الرب يأمر بذلك ، فهل تريده؟ مازلت لا أستطيع ، ياأبي تعال بربك بسرعة ، فإني لا يجوز لي قتلك ، وحين أفعل ذلك فلا بُدَّ أن يكون هذا كما لو كنتَ أنت نفسك الذي تُقْدِم عليه ، أنا ، نفسي أقْدِم عليه ، آه ، أجل ، ولا تخف ، آه ، ولا تعيشَنَّ الحياة ، حياتك ، لأنك تضحّي بها من أجل الرب . أُدْنُ مني ، الربُّ إلهنا يريد ذلك؟ صعود الجبل والنزول منه ، لقد نهضت من فراشي في ساعة حدِّ مبكرة ، أنتَ لا تريد أن تكون جباناً؟ أنا أعرف ، أنا أعرف ، أنا أعرف! ماذا تعرف . ياولدي ، ضع السكين على عنقي ، وانتظر ، فإني أريد أن أردَّ ياقتي إلى

الوراء، إذ ينبغي أن تكون الرقبة حرة تماماً، يبدو أنك تعرف شيئاً ما، وليس عليك إلاّ أن تريد، وأنا مضطر إلى أن أريد، وسوف نفعل ذلك معاً، عند ذلك سينادي الرب، وسوف نسمعه ينادي: أَمْسِك، أجل، وأَقْبِل، وقَدِّم رقبتك. هنا. أنا لست خائفاً، وسوف أفعل ذلك عن طيب خاطر، صعود الجبل والنزول منه، والوديان الطويلة. هنا فَضع السكين ولتقطع، ولن أصرخ.

ويميل الولد برقبته إلى الوراء، ويتقدم الوالد من ورائه، ويضغط بيده على جبينه، وبيمناه يدفع بسكين الذبح إلى الأمام. والولد يريد ذلك، وينادي الرب، ويسقطان كلاهما على وجهَيْهما.

كيف ينادي صوت الرب، هَلّلويا. خلال الجبال، وخلال الوديان، قائلاً: «لقد استجبتما لي وأطعتماني، هلّلويا، فلكما أن تعيشا، هلّلويا، فأَمْسِكا، ولْتُلْقيا بالسكين في قاع الهاوية. هلّلويا. أنا الرب الذي أطعتُماه، وعليكما أن تطيعاه دائماً، وأن تطيعاه وحده. هلّلويا. هلّلويا، هلّلويا، هلّلويا، هلّويا، هلّلويا، هلّويا، هلّلويا، لويا، لويا، لويا، هلّلويا، لويا، هلّلويا.

«أَيْ ميتسه، ومولليكه الصغيرة، لا تؤنِّباني ولا تقرِّعاني بربكما ولا تُفْرِطا في ذلك» أما فرانتس فيريد أن يجُّر المدعوّة ميتسه إلى أحضانه، «ولكن فقولا، بربكما ما المسألة. ما الذي فعلته يا تُرى، ألأنني تأخرت مساء الأمس؟» «أيها الآدمي، يا فرانتس، أنتَ مازلْتَ تبعث في نفسك الشعور بالشقاء، كلما استرسلت في علاقتك بامرئٍ ما» «ولماذا، يا تُرى؟ يترتَّب على السائق أن ينتهي بك إلى أعلى السُلَّم، ومازلت أقول لك شيئاً ما، غير أني لا أقول كلمة، وها أنت ذا راقد هنا، غارق في النوم» «أقول لك أجل، لقد كنت في تيغل، أجل، بلا ريب، وحدي، وحدي تماماً» «والآن فَقُلْ لي، يا فرانتس، أهذا صحيح»» وحده تماماً، لقد كان لديَّ هنا بضع سنوات يترتَّب علي تسوية أمورها» «لا بأس، أهناك بعدُ شيء آخر؟» «كلاّ، لقد تمت تسوية كل شيء، حتى اليوم الأخير. لقد أردت أن أنظر في هذا ذات مرة، ولذلك فأنتِ لستِ بمضطرةٍ إلى أن تستائي مني، يامولّيكه».

ثم تقعد لديه، تنظر إليه نظرة رقيقة، كالعهد بها، دائماً: «أنتَ، ياهذا، هلاّ ابتعدت عن السياسة» «أنا لا أمارس سياسة»، وأنت لا تحضر الاجتماعات» «أنا أفكر في عدم الذهاب إليها» «ثم قلتَ لي» «نعم».

ثم تضع ميتسه ذراعها على كتف فرانتس، وتسند رأسها إلى رأسه، ولا يقولان شيئاً.

ومرة أخرى لا يوجد شيء أكثر رضىً من صاحبنا فرانتس بيبركوبف الذي يبعث بالسياسة إلى الشيطان، ولسوف يذكّر نفسه بذلك، وهنا يقعد في الحانات، فيغنّي ويلعب الورق. وميتسه قد تعرفت على رجلٍ يعد في مثل غنى صاحب إيفا غير أنه متزوِّج، وهو مايعد أفضل، وهو يُعِدُّ لها كوخاً جميلاً من حجرتين غير مجهزتَيْن بالأثاث.

أمّا ما تريد ميتسه فإن فرانتس لا يتهرَّب منه أو يتحاشاه حتى في هذه الحالة. على أن إيفا تغير عليه ذات يوم في دكانه، ولِمَ لا تفعل، مادامت ميتسه ذاتها تريد ذلك، ولكن إيفا خليقة أن تفعل هذا إذا حصلَت الآن، بالفعل على شيء صغير، أيها الآدميّ، عندما أحصل على شيء ما، ويبني لي زوجي الشيخ عشرة قصور.

الذبابة تزحف نحو الأعالي والرمل يتساقط منها وسرعان ما تدمدم من جديد

ليس من الممكن على الإطلاق، أن يتحدث المرء بالكثير عن فرانتس بيبركوبف، فقد بات الفتى معروفاً. أمّا ما يمكن لخنزيرة أن تفعله عند ماتدخل حظيرتها، فذلكم ما يستطيع المرء أن يتصوره، إلاّ أن مثل هذه الخنزيرة هي في وضع أفضل من وضع إنسان، وذلك لأنها مكوَّنة من قطعة من اللحم والدهن، وما يمكن أن يحدث لهذه بعد ذلك، ليس بالكثير حين تحصل على مايكفيها من العلف: فهي تستطيع، في أقصى الحالات، أن تلد مرة أخرى، وفي نهاية حياتها توجد السكين، وهو الأمر الذي لا يعد في النهاية، سيِّئاً وباعثاً للغيظ على وجه الخصوص: فقبل أن تلاحظ شيئاً

ما– وماذا تلاحظ بهيمة كهذه– تكون قد رحلت عن هذا العالم. غير أن الإنسان الذي له مثل عينيك، والذي يستكين فيه الكثير، وكل شيء، متداخل بعضه في بعض، يستطيع أن يتصوّر الشيطان، ولا بُدَّ أن يفكر «إذ أوتِيَ رأساً مفزعاً»، فيما سيحدث له.

وهكذا يعيش صاحبنا البدين للغاية، والعزيز للغاية، وذو الذراع الواحدة، فرانتس بيبر كوبف، أو بيبر كوْبفشِن، داخلاً بخطوته البطيئة المتثاقلة، شهر آب الذي مازال يُعَدُّ لطيفاً معتدلاً يمكن احتماله، ثم إن المدعو فرانتس يستطيع التجذيف على نحو مستحسن تماماً، بالذراع اليسرى، أمّا الشرطة فلا يسمع عنها شيئاً، على الرغم من أنه ما عاد يبلِّغ عن قدومه أبداً، وهؤلاء يقضون هناك، إجازتهم الصيفيّة في منطقة الاصطياف. ياإلهي، أخيراً بات لمثل هذا الموظف مجرد ساقين، ومن أجل هذه الماركات القليلة التي يكسبونها لا يُجْهِد هؤلاء ساقاً، ، ولماذا ينبغي للمرء أن يجري هنا وهناك ويبحث: وما الذي جرى لفرانتس بيبر كوبف، ولماذا كان هذا بيبر كوبف على وجه الخصوص، ولم يكن امرأ آخر، ولماذا يكون لهذا مجرَّد ذراع واحدة فحسب، فقد كان له من قبل ذراعان، بلا ريب: فأوعِز، يا رجل بقَوْلبته في الأضابير، فالإنسان له، بلا ريب، هموم أخرى.

ولا يوجد ههنا إلاّ الشوارع، وهنا يسمع المرء ويرى، أموراً كثيرة، شتى، ويخطر ببال المرء من الأيام السوالف شيء ما لا يريده المرء على الإطلاق، ثم تسير الحياة مسيرتها هكذا، يوماً بعد يوم، واليومَ يأتي شيء ما، ثم يضيُّعه من يضيّعه، وغداً يأتي، مرة أخرى، شيء ما ينساه من ينساه من جديد، ويحدث للمرء، على الدوام، شيء ما، مع هذا أو ذاك، ولا تلبث الحياة أن تُقوِّم اعوجاج مسيرتها، ويحلم هو، وتأخذه سِنةٌ من النوم. وهنا يستطيع المرء أن يقتنص لنفسه ذبابة ويضعها في مزهرية، وينفخ على الرمل ليرتَدَّ عليها، فإذا كانت ذبابة صحيحة معافاة، زحفت ودبَّت لتخرج من جديد، ولم يَضِرْها كل النفخ عليها في شيء، وهذا ما يفكر فيه فرانتس في بعض الأحيان، يفكر في كيف يرى بها هذا ويرى شيئاً آخر، إن أموري تسير على ما يرام، فما الذي يعنيني من هذا، وما الذي لا يعنيني، والسياسة لا

تعنيني في شيء. وعندما يكون الناس من السذاجة بحيث يَدَعون الآخرين يستغلّونهم لا يكون لديّ حيلة في ذلك. ومَنْ يفترَض أن يحطم رأسه من أجل الناس جميعاً.

ولم يكن يترتَّب على ميتسه إلاّ أن تردَّه بقوة عن الشراب، فهذه هي نقطة الضعف عند فرانتس، إذ يحس هذا بحاجة فطرية إلى الشراب، وهذا شيء يستكينُ فيه، وما يفتأ أن يخرج على الملأ، المرة بعد الأخرى، وهو يقول: عندئذ يُرَسِّب المرء الدُّهن، ولا يكثر من التفكير، غير أن هربرت يقول لفرانتس: «أيها الآدمي، لا تكثر هكذا، من الشراب، فأنت الابن الأثير للحظ السعيد، ألا فانظر، كيف كنت؟ بائع صحف، والآن، فقَدْتَ ذراعاً بالطبع، والآن لديك صاحبتك ميتسه، ورزقك ومعاشك، فهلا ابتعدت، بربك عن الشروع من جديد، في الشراب، مثلما كانت حالك في تلك الأيام، مع إيدا». «هذا غير وارد على الإطلاق، ياهربرت. فعندما أشرب يكون هذا مجرد وقت الفراغ. وها أنت ذا تقعد، وماذا تصنع: تشرب قدحاً، ثم تشرب آخر، وآخر، وفضلاً عن ذلك، أنظر إليّ، أنا أحتمل ذلك» «أيها الآدمي، أنت تقول إنك تحتمل، لا بأس، لقد عدت إلى البدانة من جديد عَوْداً لا يُسْتَحْسَن البتّة، ولكن أنظر إلى نفسك ذات مرة في المرآة، أية عينين هاتان اللتان في وجهك» «أية عينين تعدُّ هاتان؟» «لا بأس، فألمس بيدك، أكياس دمعية كتلك التي تكون عند رجل طاعن في السن، وكم تبلغ سنك، يا تُرى، فأنت تجعل من نفسك رجلاً طاعناً في السن بالشراب، والشراب يجعل صاحبه متقدِّماً في السن».

«فَدَعْ هذا، ماذا لديكم من جديد؟ وماذا تفعل، ياهربرت؟» «سينطلق العمل عما قريب، من جديد، ولدينا فتيان جديدان، يتأنَّقان ويتبهرجان أتعرف كنوبْ، الذي يستطيع أن يبتلع النار، في مكانٍ ما؟ وأنتَ ترى، فقد جمع هذا الصغار حوله. فإذا قال لهذه ماذا، أتريدين أن تتحمَّلي هذا معي؟ إذا فسوف يترتَّب عليَّ أوَّلاً أن أبيِّن ماتستطيعينه. أنا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وعلى هذا يقف كنوبْ في الجهة المقابلة عند ناصية دانتسيغ، ينظر ماذا يستطيع هذان إذا كان لديهما عجوز طاعنة في السن يرقبانها، فقد رَمَقاها لِيَرَيا كيف تأتي بالمال المنشور على المقعد الطويل. وهذه تظل على الدوام وراء ذلك، ويفكِر كنوب، قائلاً في نفسه إن هؤلاء يعطونها، في

مكان ما دفعةً يسيرة، ثم قَبْضةً، ومن بعدها الوداع. كلاّ، إن هؤلاء ليترصَّدون ويتربصون بها، ثم يشاركون في العَدْوِ، إلى حيث تسكن، وهاهم أولاء واقفون حيث تقوم بالملامَسة، هذه العجوز، وينظرون في وجهها، لبئس ماتفعلين، أيتها السيدة مولر، وذلك أنها تُسَمّى بهذا الاسم بالفعل، ثم يتحدثان بالهذر واللغو بعض الحديث مع هذه، إلى أن تصل الحافلة الكهربائية في الجهة المقابلة، ثم يهب الفلفل على الوجه، وتطير الحقيبة، ويكون الباب قد أغلق بضربة كأنما يُقْصَد بها إلى قذفه بعيداً، ليطير فوق السد الترابيّ، وتصدر عن كنوبْ بعض الشتائم ويقول: «لقد كان من الفائض عن الحاجة تماماً هذا الذي يترتب على القوم في الحافلة الكهربائية أن يفعلوه، قبل أن تظفر بباب المنزل مفتوحاً، وقبل أن يعلم هنا أحدهم مَنْ كان هذا، كان في وسعهم أن يقعدوا في الجهة المقابلة، في المقصف، دونما حرج، وذلك أنهم يعرِّضون أنفسهم للشبهات عن طريق العَدْو» «وعلى الأقل فسَرْعان مايقفزون؟» «أجل وعندئذ يكون كلاهما قد صنع شيئاً ما، أيضاً، مثلما يقول المدعو كنوب ذلك بلهجة العيّاب المتذمِّر المتبرِّم حيثما ولّى وجهه، ويكونان قد أخذا كنوب معهما، ثم أخذا، ببساطة لَبِنَة من لَبِنات الجدار في الساعة التاسعة مساءً ودسّا، في شارع رومينتين، في محل لبيع الساعات، لوحاً زجاجياً، كانوا يدخلونه باليد ويخرجونه ولا يحصلون عليه، والأولاد وَقحون مثل أوسكار[٧]؟، وقد لبثوا، بعد ذلك، واقفين في وسط الزحام. أجل، فقد نحتاج إلى هؤلاء». ويُنكِّس فرانتس رأسه: «غلمان وقحون» دَعْ عنك هذا فلن تحتاج إليه بالطبع» «كلاّ، أنا لا أحتاجه، وبالنسبة لما يلي من الوقت لن أحكم رأسي مفكّراً فيه» «ولِمَ لا تشرب، يا هربرت، وماذا تريدون مني، جميعاً، أنا لا أستطيع، حقاً، لا أَستطيع، فأنا ذو مرض مزمن بنسبة مائة بالمائة» وينظر في عيني هربرت، وقد تدلّت زاوية فمه: «أتعلم، أنتم جميعاً تمارسون السمسرة في حقي، رائحين، غادين، إذ يقول واحد منكم: إنه ينبغي لي أن لا أشرب، ويقول

(٧) أوسكار بلومنتال «١٨٥٢–١٩١٧» كتب دراسات نقديّة بالغة الحدّة تصل إلى حدّ الوقاحة. (المترجم)

الآخر، لاتذهب مع فيللي، ويقول غيره: أيها الآدمي، دَعْ عنك السياسة بربك» وفي مقابل ذلك ليس عندي الان سياسة، من جديد، وهذا شيء تستطيعه».

وهنا يرتدُّ فرانتس، في كرسيه، راجعاً إلى المسند، ويظل ينظر إلى صديقه هربرت المرة بعد الأخرى، وهذا يفكر قائلاً في نفسه: «وهنا يتفرَّق بعض وجهه عن بعض، وهذا فتى خطير، على قدر ما يُعَدُّ صاحبنا فرانتس طيِّب القلب في العادة، ويهمس فرانتس قائلاً: «فأغمزوه بالذراع الممتدَّة البارزة: «لقد جعلوا مني ذا عاهة، ياهربرت، أتَراني، أنا لست بصالح» «والآن، فاتخذوا حلولاً وسطاً. والآن فقولي هذا يا إيفا، أو للسيدة ميتسه» «أمّا للرقاد في السرير، فنعَمَ، هذا شيء أعلمه، ولكن أنت، لا شك في أنك تمثل شيئاً ما، وهنا تصنع شيئاً ما، والصغار» «فليكن، وأنتَ، إذا كنت تريد، على وجه الإطلاق، ثم تستطيع أن تُبْرِم صفقاتٍ بذراعِك» «أجل، فأنتم لم تَدَعوني» كما أنّ تلك المدعوَّة ميتسه لم تُرِد ذلك، وكانت قد ضَرَبْتها لي» «وبدأت من جديد قائلة: فأفعل بربك» «أجل، الآن باتت المسألة تعني، مرة أخرى، إبدأ، وأَمْسِك، ثم إبدأ، وكأنني كلبه الصغير، أنادي من فوق المنضدة، ثم من تحت المنضدة، أنادي من فوق المنضدة».

ويصب هربرت قدحيْن من الكونياك، لا بُدَّ لي أن أغمز المدعوَّة ميتسه بشيء ما، وليس هذا الفتى بالمشكوك فيه، وينبغي لهذه أن تحترس، فذات مرة ينتاب هذا، من جديد، غضبُه، ثم تسير الأمور كما كانت تسير مع إيدا، ويُسْقِط فرانتس قدحَه، ماذا تعتقد، حين تُؤلمني كتفي في الليل. فانعدام النوم يمكن أن يعرُض للمرء» «ثم تذهب إلى الطبيب» «لا أريد ذلك، لا أريد ذلك، ولا أعترف بطبيب، ومازال لديَّ ما يكفي، من ماغديبورغ». «عندئذ أقول، أنا، للمدعوَّة ميتسه إنه ينبغي لها أن ترتحل معك ثم تخرجين من برلين، ويكون ثمة هواء آخر»: «فدَعني، يا رجل، أشرب، ياهربرت». ويهمس هربرت في أذنه، قائلاً: «كيف تفعل هذا مع ميتسه مثلما تفعله مع إيدا!» ويصغي فرانتس: «ماذا؟» أنت ترى، الآن تنظر إليّ، أنظر إليّ، يا رجل، هل حصلت بعدُ على مايكفي من سنواتك الأربع. ويكوّر فرانتس قبضته تلقاء أنف هربرت: «أيها الآدميّ، أأنت بخير وعافية؟» «كلاّ، أمّا أنا فلا، وأنت!».

وإيفا تصيخ السمع لدى الباب، وهي تريد أن تذهب، وتدخل، في حلة أنيقة موافقة لأحدث الأزياء، ذات لون بُنّي فاتح، وتلطم هربرت: «هلا تركته يشرب، بربك، أيها الفتى، فأنت مجنون» «أيتها الآدمية، إنك لا تعرفين، هل ينبغي أن يأتي من جديد كما كان يأتي فيما سلف؟» «أنت امرؤ مدهوس، فأغلق فمك».

وينظر فرانتس في اتجاه إيفا، مُحَمْلِقاً.

وبعد نصف ساعة يسأل ميتسه، وهو في حجرته: «ماذا قُلْتِ، أَوَ أستطيع أن أشرب؟» «أجل، ولكن لا تُفْرِط. لا تُفْرِط».

«أتُراك ربما تريدين أن تسكري؟» «أجل، معكَ» ويهتف فرانتس مهلّلاً، «أيتها الآدمية، يا ميتسه، تريدين أن تسكري، وأنت لم تسكري قطُّ حتى الآن؟» «بل فعلت ذلك حقاً، تعالَ، فنحن نريد أن نسكر، على الفور».

وكان محزوناً لِتَوِّه، والآن يرى فرانتس كيف ترتعش وتتراقص، وهذا هو الشيء ذاته الذي حدث مؤخّراً، حين بدأت، مع إيفا، ومع الطفل، وها هوذا هنا الآن فرانتس، يقف إلى جانبها، إلى جانب فتاته العزيزة، فتاته الطيبة، وإنها لجد ضئيلة إلى جانبه، وهي التي يستطيع أن يدسّها في سترته، وإذ بها تعانقه، ويمسك بها من وَرِكها، بذراعه اليسرى وهنا – وهنا– الورك مطوّقة وهي جامدة كل الجمود، ولكن كان على فرانتس أن يقوم، مستعيناً بذراعه، بحركة ما، ووجهه في هذه الأثناء قاس قسوة الحجر. وكان قد أمسك بيده، وهو مستغرق في أفكاره، بآلة موسيقية صغيرة من الخشب، ووجَّه، من الأعلى، ضربة إلى ميتسه، على قفصها الصدري، مرة ومرتين وحطَّم أضلاعها. المستشفى. المقبرة في بريسلاو.

ويرسل فرانتس المدعوَّة ميتسه من يده، وهي لا تعرف مايعتزم عمله، فهي ترقد إلى جانبه، على الأرض، أما هو فيدمدم ويغمغم، ويهذر بكلام فارغ ويُعْوِل، ويقبّلها ويبكي، وهي تبكي معه، ولا تدري لماذا. ثم تأتي بزجاجتين من العَرَق، وهو يقول دائماً «كلاّ، كلاّ» غير أن هذا يبعث البركة والغبطة، استمتاع المغتبط، لقد أزف الوقت منذ عهد بعيد، بالنسبة لميتسه، لكي تعود إلى فارسها، فماذا ينبغي

للفتاة أن تعمل . إنها تظل عند صاحبها فرانتس ، وهي لا تستطيع أن تقف ، فضلاً عن أن تعدو . وهي تتجرَّع الخمر من فم فرانتس ، وهو يريد أن يستردَّه من جديد ، غير أنه بات ينساب من أنفها ، ثم يقهقهان ، وهو يشخر شخيراً ثقيلاً في وَضَح النهار .

من أين تؤلمني كتفي كل هذا الإيلام ، فلقد بتروا لي الذراع .

إن ذراعي لتؤلمني من شيء ما . أين ذهبت ميتسه ، لقد خلَّفتني هنا وحدي .

لقد قطعوا لي ذراعي ، فتبًّا لها ، والكتف تؤلم . الكتف . أيتها الكلاب الملعونة ، لقد ولّت ذراعي لقد فعلها هؤلاء ، الكلاب ، هم الذين فعلوها ، الكلاب ، الذراع راحت ، وتركوني راقداً . الكتف ، الكتف تؤلمني ، وهي التي تركوها لي ، ولو قد استطاعوا لانتزعوا مني الكتف ، ولو أنهم استطاعوا أن ينتزعوا مني الكتف لما آلمني كل هذا الإيلام . اللعنة . على أنهم لم يقتلوني ، الكلاب ، هذا أمر وُفِّقوا إليه ومضى وانقضى ، وفي هذه الأثناء لم يُتَح لهم حظ لديّ ، أولئك الذين ينهشون الجثث ولكن الآن ، لا تسير الأمور على مايُرام ، الآن يمكن أن أرقد ، وما من أحد هنا ، ومن تُراه يفترض أن يستمع إلى الزئير ألا إن الألم في ذراعي لشديد ، لقد كان هؤلاء الكلاب أحرياء أن يدهسوني دَهْساً كاملاً ، الملعونين من نَهَاشي الجيف ، دمَّروني ، ماذا ينبغي لي أن أفعل ، أين ميتسه ، هنا يضعونني راقداً . أَوّاه ، واوجعاه ، أوّاه ، أوّاه .

الذبابة تَدِبُّ وتزحف ، وتقعد في المزهرية ، والرمل يتساقط منها ، فلا يضيرها في شيء ، فهي تنفضه وتبعده عنها ، وتُبْرِز الرأس الأسود ، وتزحف إلى الخارج .

ههنا تستقر على شاطئ الماء ، بابل الكبرى ، أم الدعارة و كل الأهوال على وجه الأرض وهُنا يرى كيف تستوي على متن حيوان قرمزيّ وسبع هامات وعشرة قرون وهذا مايُرى ، وهذا مايجب عليك أن تراه ، فكل خطوة من لَدُنْك تسرُّها ، فإنها سكرى من دماء القديسين الذين تمزِّق لحومهم ، وهذه هي القرون التي تَصْدِم بها ، إنها تأتي من الهاوية وتفضي إلى الهلاك الأبدي ، هنا فأنظر إليها ، اللآلئ ، والقرمز ، والأرجوان ، والأسنان ، كلّما كشَّرت عنهنَّ لهم ، والشفاه المكتنزة التي سال عليها

الدم ، والتي تجرَّعتهم بها ، إنها بابل العاهرة ، العيون السامة ، الصفر الذهبية ، ورقبة مصّاصة الدماء ، ومُغْوِية الرجال! كلّما تضحك إليك .

إلى الأمام، بخطوةِ رابطِ الجأش،

في ظل قرع الطبول، وتحت بنود الكتائب

فانتبه أيها الإنسان ، حين تأتي القنابل اليدوية ، إذ يوجد القَذَر ، وإلى الأمام ، مرفوع الساقين ، ماضِي العزيمة ، تشقُّ الطريق ، فلا بُدَّ لي من الخروج ، إلى الأمام ، فنحن لا نستطيع أن نحطّم أكثر من العظام ، دُمْ ، دُمْ ، دُمْ ، بخطوة رابط الجأشِ ، واحد ، إثنان ، يميناً ، يساراً ، يمين يسار ، يمين يسار .

هنا يسير فرانتس بيبركوبف ، جوّالاً في الشوارع ، ثابت الخَطْوِ ، يمينَ يسار ، فيَمينَ يسار ، متمّلاً ، من دون تعب ، فلا مقصف ، ولا شيء للشرب ، نريد أن نرى ، وجاءت رصاصة تطير ، وهذا مانريد أن نراه فلو أصابتني لرقدت ، يمينُ اليسار ، يمنُ اليسار ، وقرع الطبول ، وبنود الكتائب وأخيراً يتنفَّس الصعداء .

وتكون المسيرة في برلين ، عندما يسير الجند خلال المدينة ، واعجباً ، لماذا ، واعجباً ، لهذا واعجباً ، بسبب التشينغ دارادا[٨]؟ ، دادا .

والمنازل تنتصب ساكنة والريح تهبُّ حيث يشاء لها أن تهبّ ، واعجباً لماذا ، واعجباً لهذا ، واعجباً ، بسبب التشينغ دارادا ، دادا . وفي مبناه القَذِر ، الرطب العَفِن– مبنى قذر– واعجباً لماذا ، واعجباً ، لهذا ، مبنى رطب عَفِن ، واعجباً لماذا ، واعجباً ، بسبب مجرد التشينغ دارادا– يقعد راينهولد ، زبون طابور بومز ، حين يطوف الجند بالمدينة ، ينظرون إلى الفتيات من النوافذ والأبواب ، فيقرأ الجريدة ، يمين يسار ، يمين يسار ، أأنا المقصود بهذه أم أنت ، يقرأ عن الألعاب الأولمبية ، واحد ، إثنان ، وأنَّ بذر القرع العسلي دواء للدودة الشريطيّة ويقرأ هذا ببطء شديد ، وبصوتِ

---

(٨) كلمة تعبِّر عن لحن موسيقي أو إيقاع معيّن .

عال في مقابل تلعثمه، وحين يكون وحده تسير الأمور على ما يرام، وهو يقتطع هذا لنفسه مع القرع العسلي، عندما يطوف الجند بالمدينة، إذ كان في بطنه دودة شريطية، والأرجح أنه مازال يحمل، في بطنه، واحدة منها، ربما كانت هي الدودة ذاتها، وربما كانت دودة جديدة. لقد استعاد الشيخ شبابه، ولا بُدَّ للمرء أن يجرِّب هذا ذات مرة ببذر القرع العسلي، وعلى هذا فلا بدّ للمرء أن يأكل معه القشرة، ولا يُقَشّره والمنازل ساكنة، والريح تهب حيث يشاء، مؤتمر لعبة الورق الثلاثية في ألتِنبورغ، التي لا ألعبها. رحلة حول العالم، التكاليف الإجمالية لا تتجاوز ٣٠ قرشاً في الأسبوع، والآن يعود من جديد دُواره المزاجيّ، حين يطوف الجند بالمدينة، يتفرّجون على الفتيات، من النوافذ والأبواب. واعجباً، لماذا، واعجباً، لهذا، واعَجَباً، لمجرد التشينغ دارادا، بُمْ دارادا بُمْ. ويسمع قَرْع على الباب، أدخل.

قِفْ واقفاً، وسِرْ، وَسِر، راينهولد في اللحظة الحاضرة، في الحقيبة، مسدَّس، وأقبلت رصاصة تطير، أتُراني أنا المقصود بها أم تُراك أنت المقصود. لقد اجترفته. إنه يرتمي على قَدَمَيّ، وكأنه بضع مني، وكأنه قطعة مني. ها هو ذا يقف هنا: فرانتس بيبركوبف، أما ذراعه فمبتورة، إنه واحد من مشوَّهي الحرب، والفتى قد أَثْمَلَه السكر، أَوْ لا. يقوم بحركة، فهل أَبْطِش به.

«من سَمَح لك بالدخول إلى هنا؟» «إنها مدبِّرة بيتك». هجوم، هجوم «هذه، أتراها مجنونة؟» راينهولد على الباب «السيدة تيتش! السيدة تيتش! ماهذا؟ أتُراني في المنزل. أم تُراني لست في بيتي؟» «استميح عفوك، ياسيدي راينهولد، لم يقل لي أحد شيئاً ما» «عند ذلك لا أكون في بيتي. ياللمصيبة. عند ذلك تستطيع أن تقول لي أجل، أنا لا أعرف مَنْ أسمح له بدخول المنزل» «إذاً فأنت مَنْ قال لابنتي، بلا ريب، إنها تعدو إلى أسفل، ولا تقول شيئاً».

ويغلق الباب، ولامسدس ثابت. الجند «ماذا تبتغي مني؟» ماذا خسرنا، كل مع الآخر»: ويتلعثم. فأي فرانتس هذا؟ أتُراك ستعرف هذا عمّا قريب، فقد دهست ذراع الرجل قبل بعض الوقت، وكان هذا رجلاً فاضلاً مستقيماً يوجد ما يشهد له مما يوافق التوقُّعات إلى حد ما. أما الآن فهو رجل مسكين، ونريد أن نناقش بعدُ مسألة

على من تعود جريرة ذلك، قرع الطبول، وبنود الكتائب، والآن يقف هنا. أيها الإنسان، يا راينهولد، إن لديك مسدساً بلا ريب». «وماذا؟» «ماذا تريد أن تفعل به؟ ماذا تريد؟» «أنا، لا شيء!» لا بأس، فهل تُراك تستطيع أن تبعده أو تنحّيه» ويضع راينهولد المسدس أمامه على المنضدة «فيمَ جئت الآن إلي؟»، وهنا يقف قائماً، وها هو ذا الذي لاكمني في دهليز المنزل، والذي ألقى بي إلى الخارج، من السيارة، وقبل ذلك لم يكن شيئاً، وكان سيللي مايزال هنا، وأنزل على السُلّم، ويصعد هذا، والقمر على وجه الماء، صارخاً، باهراً بدرجة أكبر عند المساء، قرع أجراس، الآن يوجد في يده مسدس.

«هلاّ قعدت، بربك، يا فرانتس، وحَدِّثني، أتُراك أفرطت في الشراب كثيراً؟» ولأن هذا كان ينظر نظرة جامدة للغاية، فلا بُدَّ أنه كان ثملاً، وهو امرؤ لا يستطيع أن يدع الشراب. وسيكون هذا كذلك، فإنه ثمِل، ولكن المسدس في حوزتي، واعجباً، بسبب مجرد نغمة التشينغ دارادا بُمْ. هنالك يجلس فرانتس، ويقعد. القمر الساطع ومجمل الماء يسطع نوره. والآن يقعد إلى جانب راينهولد. هذا هو الرجل الذي أعانه مع الفتاة، وكان قد انتزع منه الفتاة بعد الأخرى، ثم أراد أن يحمله على تسلُّم مهمة الحرس، غير أنه لم يقل شيئاً، والآن بتُّ مسكيناً. ومن يدري كيف ستسير الأمور مع ميتسه، وهذا هو واقع الحال ولكن هذا كله من بنات الأفكار، ولا يحدث إلاّ شيء واحد: راينهولد، راينهولد الذي يقعد ههنا.

«لقد أردت أن أراك فحسب، يا راينهولد» هذا ما أردته، أن أرى هذا، أن أنظر إليه ويكفي أن نقعد ههنا. «هل تزمع أن تستثمر وقتك، ماذا، تبتزّ المال، بسبب تلك الأيام؟ ماذا؟» الإخلاد إلى السكون، ولم تختلج، أيها الفتى، وسِرْتَ في المسيرة على خط مستقيم، لا تلوي على شيء، ياللعجب، مثل هذا العدد من القنابل اليدوية. «ابتزاز، أليس كذلك؟ كم تريد إذاً، لقد اكتسبنا القدرة على المقاومة، أمّا أنك مسكين فذلك ما نعلمه نحن كذلك» «هذا أنا، ماذا ينبغي لي أن أصنع يا تُرى، بذراع واحدة؟» «وماذا تريد أنت؟» «لا أريد شيئاً على الإطلاق، مجرد القعود على الوجه الصحيح، والتشبُّث. وهذا هو راينهولد. وهكذا يزحف متسلِّلاً إلى هنا وهناك، ولكن لا تسمحوا بأن يتعرَّض للإحباط.

ولكن فرانتس تنتابه رِعْدة، كان هناك ثلاثة من الملوك، خرجوا من بلاد المشرق، وكان معهم البخور، وكانوا يلوِّحون به، يلوِّحون به على الدوام، فكانوا يغمرون المرء بدخان البخور، ويفكِّر راينهولد، قائلاً في نفسه، إمّا أن يكون الرجل سكرانَ، وعندها سيغادر عما قريب، ولا شيء بعد ذلك، وإما أنه يتبغي شيئاً ما، كلاّ، إنه يبتغي شيئاً ما، ولكن ما عسى أن يكون، هذا امرؤٌ لا يريد الابتزاز، ولكن ما الذي يبتغيه يا تُرى. ويأتي راينهولد بالخمر ويقول في نفسه، بهذه الطريقة سوف أغري صاحبي فرانتس بالخروج. لو أنَّ هذا لم يبعث به إلى هنا المدعو هربرت عن طريق البحث والتقصّي، ثم يدعنا نضيع. وفي اللحظة التي قدم فيها القدحَيْن الأزرقَيْن الصغيرين، يرى هذا أن فرانتس يرتعد. والقمر، القمر الأبيض، قد ارتفع، صارخَ اللون فوق الماء، محلِقاً في كبد السماء، وهنا لا يستطيع أحد أن يرفع طرفه للنظر. أنا أعمى، ماذا دهاني. أنظر، إنه ما عاد يستطيع، وهو يمسك بالقدح إمساكاً متصلّباً جامداً، غير أنه ما عاد يستطيع، وهنا شعر راينهولد بسرور، ويتناول ببطء، المسدَّس من المائدة ويدسه في جيبه، ويصب الشراب وينظر من جديد: هذا الرجل ترتعد فرائصه، إنه يعاني من الرجفة الرَّعْشِيّة، وهذه تمثل اصطفاقاً واهناً، يتسم بالرخاوة، والفم الكبير، الذي يخاف من المسدس أو مني، ولكن أنا لا أفعل له شيئاً، وراينهولد جدُّ هادئ، ودود، اجل، بلا ريب، إنها لسعادة، كما يرى هذا الرعشة، كلاّ، إنه ليس بالسكران، هذا المدعو فرانتس، فهو الذي يخاف، وهوالذي تخور قواه، ويتولاه رعب شديد والذي أراد أن يجازف، أمامي، بفم كبير.

ويشرع راينهولد، اعتباراً من سللي فصاعداً، في السرد، وكأنما رأى بعضنا بعضاً بالأمس، وهي التي كان يتم تمريرها عندي، مرة أخرى، بضعة أسابيع، أجل، هذا موجود، حين أمكث ذات مرة لا أرى امرأة معيَّنة، على مدى بضعة أشهر، ثم أستطيع أن أظفر بها ذات مرة من جديد، إنها رجعة، وهذه قضية باعثة للضحك، ثم ياتي بلفافات، وحزمة من الصور الخنزيرية ثم صور ضوئية، وسيللي حاضرة في هذا، بالاشتراك مع راينهولد.

ولا يستطيع فرانتس أن يقول شيئاً، وهوينظر دائماً إلى أيدي راينهولد فحسب، إذ إن له يدين وذراعين، أما هو فليس له سوى ذراعٍ واحدة، وبهاتَيْن اليدين قذف به راينهولد تحت السيارة، ياللعجب، لماذا، واعجباً لهذا، ألم يكن من الواجب أن أردي هذا الرجل قتيلاً، واعجباً، بسبب مجرد نغمة التشينغ دارادا. ويقول هربرت: ولكني لا أقصد إلى هذا كله. ما الذي أقصد إليه فحسب. أنا لا أستطيع شيئاً، أنا لا أستطيع شيئاً على الإطلاق، يجب عليَّ، حقاً، ما من شك في أنني أردت حقاً أن أفعل شيئاً ما، ولكن من أجل مجرَّد نغمة التْشينغ دارادا بُم دارادا– أنا لست رجلاً على الإطلاق، بل أنا كَوْمة من طين تشبه ديكاً، ويسترخي جسده شأنَ المنهار ثم يعود إلى الرَّجفان من جديد، ويتجرَّع الكونياك، ثم يتجرَّع قدحاً آخر، وكل شيء لا يجدي ثم يقول راينهولد بصوت خفيض، خفيض: «أمّا أنا، أنا، فأودُّ، يا فرانتس، لو أرى جرحك» واعجباً، بسبب مجرد نغمة التشينغ دارادا بُمْ دارادا. هنالك يفتح فرانتس بيبر كوبف – وهذا هو– السترة، ويكشف عن أصل الذراع مع كم القميص، ويُقَلّص راينهولد وجهه ليكشف عن صورة شائهة لهذا الوجه: إذ يبدو مثيراً للاشمئزاز، ثم يرد فرانتس جانبَيْ السترة أحدهما على الآخر: «لقد كان ذلك أسوأ فيما سلف» ثم يستأنف راينهولد النظر إلى صاحبه فرانتس، الذي لا يقول شيئاً ولا يستطيع شيئاً، وهو بدين بدانة الخنزير، ولا يستطيع أن يفتح شدقَيْه، ويضطر راينهولد إلى أن يواصل نظرته ذات الابتسامة الساخرة من دون أن يُمْسِكَ عنها.

«أوَ تظل، على الدوام، تحمل الكُمّ في جيبك؟ أتدسُّه دائماً، أم هو مَخيط؟» «كلاّ، فأنا أدسّهُ هنا في الداخل دائماً» «باليد الأخرى؟ كلا، بل تفعل ذلك حين لا تكون هذه قد أَلْبَسَتْكَ بعد؟» «إنما يكون ذلك مرة هكذا ومرة هكذا»، وحين أكون قد ارتديت السترة لا يستقيم ذلك على نحوٍ جيد». ويقف راينهولد بالقرب من فرانتس، يعبث بالكمّ. «ولكن، لم يكن بُدٌّ أنْ أنتبه على الدوام لكيلا تندسَّ في الجانب الأيمن. وفيما بعد يستطيع المرء هنا، بسهولة، أن يقتنص شيئاً ما».

«أمّا في حالتي، فلا» ومازال راينهولد يفكر في المسألة مَلِيّاً «ألا فحدثني كيف تفعل ذلك في الحقيقة، لابُدَّ أن يكون ذلك بعيداً كل البعد عن أن يكون مريحاً،

كمّان فارغان» «الوقت صيف بالطبع، وهذا لا يأتي إلاّ في الشتاء»: . «هذا ما سوف تلاحظه، ولن يكون جميلاً، أفلا تستطيع في الحقيقة أن تشتري ذراعاً صناعية، فحين يكون المرء قد فقد ساقَه يتخذ لنفسه، بلا ريب، ساقاً مصطنعة» «لأنه لو لم يفعل ذلك لما استطاع أن يجري». «هل يستطيع المرء أن يَشُدَّ إلى جسمه ذراعاً مصطنعة، فإن ذلك يبدو أفضل» «كلاّ، كلاّ، بل يضغطها فحسب» «لو حدث هذا لي لكنت خليقاً أن أشتري لنفسي ذراعاً، أو ربما حشَوْت الكُمَّ بحشوة، تعالَ بربك، فلنصنع ذلك ذات مرة» «وفيمَ ذاك، فإني لا أريد، أيها الآدميّ» «لا تروحَنَّ ولا تغدُوَنَّ، بربك بمثل هذا الكُمّ المسترخي، فإنك تبدو في مظهر غير لائق على الإطلاق، وما من أحد يحتاج إلى أن يلاحظه» «وماذا ينبغي لي أن أصنع به، يا تُرى. أنا لا أريد» «تعالَ بربك، أما الخشب فمن قبيل الخطأ، وانتبه، أَدْخِل فيه بعض الجوارب أو القمصان، وانتبه».

ورانيهولد حاضر في هذا، يخرج الكَمَّ الفارغ، نظيفاً تقريباً، وهو عند كومودينتِهِ، ويأخذ في حَشْوه بالجوارب والمناديل، ويقاوم فرانتس صامداً: «فيمَ ذاك أيها الآدميّ، فإنه ليس له تماسُك ولا قِوام، ولسوف يغدو كالقديد، دعني بربك» «كلاّ، فإن في وسعي أن أقول لك إن هذا كان لا بُدَّ أن يوعَز بإعداده إلى خياط، وأن يتولّى امرؤ شدَّه، فيبدو مرة أخرى، في حالة بالغة الجودة والإتقان، فلا تجرِيَنَّ، بربك جَرْيَ ذي العاهة المشوَّه، وليس عليك إلاّ أن تمدَّ يدك إلى جيبك، ها هي ذي الجوارب تسقط خارجةً من جديد: «أجل، هذا عمل خيّاط. أنا لا أستطيع أن أحتمل ذوي العاهات المشوَّهين لقد كان ذو العاهة المشوَّه قبلي إنساناً لايصلح لشيء، وعندما أرى ذا عاهة مشوَّهاً، أقول: إن من الأفضل أن ينأى بنفسه عني ويُغْرِب عن وجهي».

ويسمع فرانتس ويسمع، أشياء ليس بالكثيرة، وتسري فيه الرِّعدة من دون أن يريدها. إنه في مكان ما، من ميدان الإسكندر قبل الاقتحام، لقد ذهب كل شيء عنه، ولا بُدَّ أن تكون لهذا علاقة بالحادث، وهذه هي الأعصاب، وهنا نريد أن نرى

الرؤية الحقَّة، الآن ينساب ويَخِرُّ ويتساقط شيء ما، وتسري في الأوصال رجفة متواصلة، فلننهض، ولننطلق، ولننْزل، وداعاً يا راينهولد، ولا بُدَّ لي أن أُكَوِّم وأُراكم، ثابت القَدَم، يميناً، يساراً، يميناً، يساراً، تشينغ دارادا. وهنا ياتي الرجل البدين، فرانتس بيبركوبف، في المنزل، وقد كان مع راينهولد، ويده وذراعه مازالتا ترتعدان وتهتزّان أبداً، وتسقط اللفافة من فمه حين يعود إلى البيت. وهنا تقعد ميتسه في الطابق العلوي معه، مع فارسها، وقد كانت في انتظار فرانتس، لأنها تريد أن تكون بعيدة يومَيْن.

ويشدّها لينتحيَ بها جانباً. «ماالذي أصبتُه من لَدُنْكِ يا تُرى؟» «وما الذي ينبغي لي عمله، يا فرانتس؟ يا إلهي، يا فرانتس، ماذا دهاكَ يا تُرى» «لا شيء، إليكِ عني، ياامرأة» «سأكون حاضرةً مساء اليوم، من جديد» «إليكِ عني» ويكاد يزمجر. هنالك تنظر إلى الفارس، وتهدي قبلة إلى فرانتس على عجل، في قفاه، وتخرج، وفي الدور السفليّ تقرع الجرس على إيفا: «إذا كان لديكِ بعض الوقت فتعالَيْ إلى فرانتس. وماذا به؟ لست أدري، هَلُمّي بربك» ولكن لا تستطيع إيفا أن تأتي فيما بعد، وكان هربرت يلاحقها بالشتائم هنا وهناك، ولا تستطيع أن تنصرف.

وفي هذه الأثناء يقعد صاحبنا فرانتس بيبركوبف، حية الكوبرا، والمصارع الحديدي، وحده، وحده تماماً، في هذه الأثناء يقعد لدى نافذته، يُنْشِب أظفاره حول لوح النافذة، ويفكّر مليّاً، وهذا كلام فارغ، وعندما يطوف الجند بالمدينة، يكون هذا من قبيل اللغو، والتنطّع والعناد، وهنا لا يكون بُدّ من الخروج، إذ يجب عليَّ عملُ شيء مختلف، وفي هذه الأثناء يفكر قائلاً في نفسه، سأفعلها بلا ريب، ولا بُدَّ لي من الانصراف، فإن هذا لا يمكن أن يستقيم بعد ذلك، فقد أنحى عليَّ هذا باللائمة، لقد حشا لي السُّترة، ولا يمكنني أن أقول هذا لإنسان، إذ حدث مثل هذا.

ويضع فرانتس رأسه بإحكام على لوح النافذة، ويواري نفسه، شاعراً بالخجل، يشعر بخجل مرير: هذا ما أفعله، وهذا ما ارتضيته لنفسي، فقد بلغت بي الأمور أن أكون مثل هذا المجنون، ولا بُدَّ لي أن تتولاّني الرعدة بين يَدَيْ الرجل، وإن الخجل

لكبير كبير وإنه لشديد شديد. ويحدث فرانتس جَلَبة، فإن من الممكن أن يمزّق نفسه، هذا ما لم أُرِدْ أن أفعله، وما من شك في أنني لست بالجبان، وإن كان لي ذراع واحدة فحسب.

لا بُدَّ لي أن أنطلق إليه، ويبذل أقصى ما في وسعه، هذا هو المساء، حيث ينأى فرانتس كلَّ هذا النأي، إذ ينهض عن كرسيّه، وهو ينظر إلى نفسه في الحجرة، من كل جانب، وهنا توجد الخمر، وقد قدَّمه إلى ميتسه، أنا لا أشرب. أنالا أريد أن أشعر بالخجل والعار. هل ينبغي للمرء أن يرى عينَيْ فرانتس، وأنطلق إليه. رُمْ دي بُمْ، مدفع، بوق. إلى الأمام، إلى أسفل، ارتَدِي السترة، هي التي أراد أن يحشُوَها لي. وأقعد بين يديه فلا تختلج قسمة من قسمات وجهي.

برلين! برلين! برلين! مأساة في قاع البحر، غرق غوّاصة. الاحتلال يختنق، وحين يكون مختنقاً يكون قد مات، هنالك لا ينبغي لِديكِ أن تَنْعق حزناً عليه، هنالك تكون المسألة قد انتهت ورَقَد عليها الاسفنج، إلى الأمام سِرْ، إلى الأمام سِرْ. إسقاط طائرتين عسكريَّتَيْن، ثمَّ أصبحتا على الأرض، ثم ماتتا. هنا لا يترتب على أحد من الدِّيَكة أن ينعق جَزَعاً عليه، فما مات فهو ميت.

مسا الخير، يا راينهولد. أجل أنت ترى، ها أنا ذا أعود» وينظر هذا إلى فرانتس: «من سمح لك بالدخول؟» «أنا؟» لا أحد. ها أنا ذا أعود من جديد وكان الباب مفتوحاً، لقد دخلت ببساطة» «هكذا، وقرع الجرس لاتستطيعه». : «أمّا في حالتك فلن أقرع الجرس. فأنا لست بالسكران».

ثم يقعد كلٌّ منهما في مواجهة الآخر، يدخنان، وفرانتس بيبر كوبف لا يرتعد، بل يحافظ على تماسكه، ويقرُّ عيناً بأنه يعيش، وهذا أفضل الأيام، منذ أن سقط تحت السيارة، وكان أفضل ما يفعله منذ تلك الأيام: أن يقعد هنا، اللعنة، هذا جميل وهذا أفضل من الاجتماعات، ويكاد يكو أفضل من ميتسه. أجل، هذا أجمل الأشياء طُرّاً: إذ لا يقذف بي، ويَقْلِبُني.

وهنا حلت الساعة الثامنة مساءً، حيث ينظر راينهولد في وجه فرانتس «فرانتس،

لا ريب في أنك تعلم مايترتَّب على كلٍّ منا الاتفاق عليه مع الطرف الآخر. فحدِّثني عمّا تبتغيه مني أُفْصِحْ لك عمّا أريد، بصراحة كاملة» «وما الذي يترتَّب عليّ الاتفاق عليه معك؟» «مايتعلق بالسيارة» «هذا أمر غير مُجْدٍ، فإن ذراعي لن تنمو من جديد من جرائه، ثمّ –» ويضرب فرانتس بقبضته على المنضدة: «ثم كان هذا حسناً. لم تَسر الأمور على هذا النحو معي بعد ذلك، ولم يكن لهذا بُدٌّ من أن يأتي» آه، إلى هذا المدى وصلنا، وإلى هذا كنّا قد وصلنا منذ عهد بعيد. ورواينهولد يدرس قائلاً: «أن تقصد بالتجارة مايمارس البائع متجوِّلاً في الشوارع»، أجل، بلا ريب، وبذلك، على أن عقلي الآن ليس على مايرام. وَيْحي، الآن بات في الخارج «والذراع وَلَّت، ثم إنني مازالت لديّ ذراع واحدة، كما أنَّ لي، بعد ذلك رأساً وساقين» «وماذا تصنع؟ أتُدير أموراً وحدك أم مع هربرت؟» «بذراع واحدة؟ هنا لا أستطيع أن أصنع شيئاً» ولكن أتدري، أن يكون المرء مجرد مسكين، أمر مفرط في سآمته وإملاله».

ويفكر راينهولد وينظر إلى هذا، وهو يقعد هنا، بهذه البدانة والقوة: هذا الفتى أودُّ لو ألعب معه، إنه يقعد على فخذيه. لا بُدَّ للمرء أن يحطِّم عظام هذا. والذراع الواحدة ماعادت تكفي معه.

وبدآ من النساء ويتحدث فرانتس عن ميتسه التي كان اسمها فيما سلف سونيا، والتي تكسب كَسْباً جيداً، وهي فتاة طيبة. هنالك يقول راينهولد في نفسه: «هذا جميل، فسوف أنتزع هذه منه ثم أقذف به في القَذَر بقَضِّه وقضيضه.

ذلك لأنه حين تأكل الديدان التراب، وتَدَع الديدان الموجودة وراءها في الخارج المرة بعد الأخرى فإنها تفترسها المرة بعد الأخرى من جديد، وهنا لا تستطيع البهائم أن تَهَب الصفح، وإذا ما بادر المرء اليوم إلى حَشْوِ معدتهم وإتراعها، ولا يكون هناك بُدٌّ، في الغد، أن يُهْرَعوا من جديد وأن يتشمّموا ويتنسَّموا، وهذا في حالة البشر مماثل لما يكون في حالة النار: فحين تَشُبّ وتستعر لا بُدّ أن تأكل، وحين لا تستطيع أن تأكل تنطفئ، ولا بُدَّ لها أن تنطفئ.

ويَقَرُّ فرانتس بيبر كوبف عيناً فيما يتصل بذاته، حين استطاع أن يقعد هنا، من

دون رِعْدة، وبهدوء تام، وبسرور احتفاليّ، وكأنما وُلِدَ من جديد، ويجد ذلك من جديد وهو ينزل، إلى أسفل مع راينهولد: عندما يطوف الجُند بالمدينة، يميناً ويساراً، ألا إنه لمن الجميل أن يعيش المرء، فهؤلاء الذي يمشون هنا كلهم أصدقائي، وهنا لا يقذف بي أحد إلى الخارج، وإلاّ فليحاول أحد، كائناً مَنْ كان، أن يفعل ذلك. واعجباً، لماذا، واعجباً، لهذا، تنظر الفتيات من النوافذ والأبواب ويقول لراينهولد: «أنا ذاهب للرقص»، فيسأله هذا: «أتأتي صاحبتك ميتسه معك؟» «كلاّ، لقد رحلت هذه مع وليّ نعمتها، لتغيب يومين» «حين تعود ميتسه من جديد، أذهب معها» «فإن جميلتي الصغيرة ستقرُّ عيناً». «دَعْ عنك هذا». «عندما أقول لك إن هذه لن تعضَّك».

وفرانتس ذو دعابة ونكتة بدرجة هائلة، فإن له الليل، وهو المولود الجديد، السعيد الذي أنفق الوقت كله في الرقص، وكان ذلك أوَّلاً في دار الحفلات الراقصة، القديم، ثم في الحانة، مع هربرت، وهؤلاء يقرّون عيناً، كلهم به، غير أنه يكون مع نفسه أكثر ما يكون، وهو يعيش حياة الحب الأوفر حرارة واحتدام عاطفة، على الإطلاق، وبينما يرقص مع إيفا، يمارس ضربين من الحب، أوَّلهما صاحبته ميتسه، التي كان خليقاً أن يَقَرَّ عيناً بحبّها، والثاني– راينهولد، غير أنه لا يجرؤ على أن يقولها، الليلة الرائعة بأسرها، حيث يرقص مع هذه وتلك، يحبها كلاهما، وهما غير حاضرَيْن، وهو سعيد معهما.

القبضة ترقد على المنضدة

وهنا يرى كل امرئ قرأ فوصل بقراءته إلى هذا المدى، ماهية الانعطافة التي طرأت: الانعطافة إلى الخلف، وتُعَدُّ منتهية عند فرانتس، وقد ظهر فرانتس يبر كوبف، القويّ، وحيّة الكوبرا، بالفعل، من جديد، على مساحة الصورة. ولم تَسِر الأمور بسهولة، غير أنه بات حاضراً من جديد.

وبدا أنه حاضر هنا، حين بات مسكين ميتسه، وكان يتنزَّه، حرّاً، هنا وهناك، يحمل علبة سجائر ذهبية، وقبعة خاصة بنادي التجذيف، غير أنه يغدو الآن حاضراً

كل الحضور، حين تهتف متحمّسة، وماعاد لديها خوف، الآن ما عاد ثمة سقوف تترنّح لديه، أما ذراعه، بل لقد أصابه ما أصابه، من جرّاء ذلك. وأما الدعامة الخاصة بالسقف، المستوحاة من دماغه فقد تحقق نجاح عملية استخراجها. وهو الآن مسكين، وسيعود، من جديد، مجرماً، غير أن هذا كله لا يسبّب له ألماً، بل على النقيض من ذلك.

ثم إن كل شيء مماثل لما كان في البداية، ولكن القوم سيكونون على بيّنة، من أن هذا لا يمثل حية الكوبرا القديمة، هذا صاحبنا القديم، فرانتس بيبركوبف، وإن المرء ماعاد يرى ذلك بعدُ. أمّا في المرة الأولى فقد كان يخادع صديقه المسكين، وقد انقلَب هذا من القباقيب، أمّا في المرة الثانية، فقد كان عليه أن يقلب القباقيب. وأما في المرة الثانية فكان عليه أن يقف حارساً، غير أنه لم يُرِد ذلك. هنالك قذف به راينهولد من السيارة، ودهسه بكل سهولة وبساطة والآن بات هذا كافياً من أجل فرانتس، وقد كان هذا خليقاً أن يكون كافياً بالنسبة لكل إنسان بسيط. وهو لا يدخل الدير، ولا يحطّم نفسه، وهو يذهب على طريق الحرب، ولا يغدو مجرد لئيم ومجرم، بل باتت المسألة تعني الآن: الآن فلنَسِر على خط مستقيم. الآن ستَرَوْن فرانتس، لا حين يرقص وحده ويشبع نفسه، ويستمتع بحياته، بل في حالة الرقص، الرقص المصحوب بالصليل، مع شيءآخر يفترض أن يشير إلى مدى القوة التي يكون عليها، ومَنْ تُراه يكون الأقوى، فرانتس، أم الآخر.

وكان فرانتس بيبركوبف قد أدّى القَسَم بصوت عال، حين أقبل قادماً من تيغِل، واستطاع أن يضع ساقيه: أريد أن أكون فاضلاً مستقيماً. أمّا القَسَم فلم يَدَعْه القوم يؤدّيه. والآن يريد أن يرى مايترتّب عليه، أن يقوله بعدُ، على وجه الإطلاق. إنه يريد أن يسأل: أكان مما لا بد منه أن تُداس ذراعه، ولماذا، ومن يدري، كيف تبدو الصورة في رأس رجل كهذا، وربما كان فرانتس يريد أن يستَرِدَّ ذراعه من جديد، من راينهولد.

الكتاب السابع

هنا يدوّي صوت المطرقة،

المطرقة التي تضرب فرانتس بيبركوبف

بوسّي أول، وطوفان الأمريكيين

هل تُكْتَب «فيلما» بحرف «W» أم بحرف «V»؟

وفي ميدان الإسكندر يمارسون العمل التلفيقي في أمور ليسوا لها بأهل، ويواصلون هذه الممارسة وفي شارع الملك، عند ناصية شارع فريدريش الجديد، يريدون أن يهدموا المنزل فوق مبنى مدرسة سَلامندر. وإلى جانب ذلك أخذوا يهدمون هذا، وتتميَّز المسيرة تحت قوس الخط الحديدي في المدينة، في ميدان الإسكندر، بصعوبة هائلة، ويتم نصب أعمدة جديدة من أجل جسر الخط الحديدي، وفي وسع المرء أن يطل ببصره هنا على ماتحته، في هُوَّة أنشئت جدرانها على نحوٍ جميل مستحسَن، تضع فيه الأعمدة أقدامها.

أمّا من كان يريد دخول محطة الخط الحديدي في المدينة، فلا بُدَّ له أن يصعد وينزل على السُلَّم الخشبي الصغير، والطقس في برلين أكثر برودة، وكثيراً ما ينزل المطر، غزيراً كأفْواه القِرَب، ويترتَّب على السيارات والدراجات النارية أن تعاني من ذلك. ففي كل أمسية تنزلق بعضُ هذه السيارات والدراجات النارية، وفي هذه

الأثناء يرتطم بعضها ببعض، ويكون هناك دعاوى تطالب بالتعويض عن الأضرار ونحو ذلك، وفي كثير من الأحيان يتعرَّض للحوادث والإصابات أناس من أنواع شتى، وهذا يأتي من الطقس، وهل تعرف مأساة القدر التي ألَمَّت بالطيار بيز- أرنيم، فقد استُجوِب هذا اليوم من قبل الشرطة الجنائية، وهو الجاني الرئيسيّ في حادثة تبادل إطلاق النار في مسكن المومس العجوز المستهلكة، بوسّي أوْل، ويقال إنها انتقلت إلى رحمة الله، وقد أقدم بيز، إدغار، في مسكن أوْل، على إطلاق النار بوحشية بالغة، وكان له، كما يقول الباحثون في علم الإجرام، سلوك يلفت الأنظار إلى حد بعيد، على الدوام، وذات مرة، في الحرب قذفوا به من ارتفاع ألف وسبعمائة متر إلى الأسفل، ومن هنا جاءت المأساة القدرية للطيار بيز- أرنيم الذي قُذِف به من ارتفاع ١٧٠٠م، وقد غُرِّ عن ميراثه. ودخل السجن باسم مستعار، ثم تأتي المسألة الأخيرة، وهي أنه حين أطلِقت النار عليه، وذهب إلى البيت يقتنص منه مدير من مدراء التأمين المال العائد إليه، بالحيلة. غير أنه كان محتالاً نصّاباً، وهكذا انتقل المال من الطيار إلى النصّاب بأبسط الطرق، وما عاد الطيار يملك شروى نقير. ومنذ هذه اللحظة فصاعداً يتسمّى باسم بيز أوكلير، ويتولاّه الخجل من أسرته، لأنه غارق في الأوحال والأقذار. وهذا كل ما نقله صباح اليوم المسؤولون الجنائيّون إلى مجلس الرئاسة، وقرّروه خطّياً، إذ مازال يَرِدُ فيه أنه بات الآن يسلك مسار الإجرام، وذات مرة حكم عليه بالسجن عامَيْن ونصف العام، لأنه كان يسمّي نفسه في تلك الأيام كراختوفيل، ثم أُبْعِد بعد ذلك إلى بولونيا.

ويبدو أن حكاية بوسّي أوْل التي تفتقر إلى الشفافية تتَّسم بالفُحش على وجه الخصوص نشأت وتطوَّرت بعد ذلك، وكانت المدعوَّة بوسّي أوْل قد عمدّته هنا، في ظل إجراءات خاصة نُؤْثِر أن لا نتحدث عنها، باسم «فون أرنيم»، وما كان أتى عليه فقد أتى عليه، بصفته فون أرنيم في جسد المدعوّه بوسّي أول، رصاصة، أمّا لماذا وكيف، فذلك مايتكتَّم عليه الصعاليك والسَّفلة، الذين لا يتحدثون بحديث المدرسة حين يقفون بين يديْ الجلاّد، ولماذا ينبغي لهم أن يُظْهروا هذا للمسؤولين الجنائيين الذين هم أعداء لهم؟ ولا يعرف القوم سوى أن الملاكم هاين يلعب دوراً،

ومَنْ ذلك الذي يريد أن يكون ذا خبرة ومعرفة بالبشر يتكهَّن بطريقة خاطئة: لقد كانت هذه مسرحية حول الغيرة، وأنا، بصفتي الشخصية أثق كل الثقة بأنه ما من غيرة كانت تمازجها، أو إذا كان ثمة غيرة، فهي غيرة مبطَّنة بالمال، غير أن المال هو المسألة الرئيسية. وتقول الشرطة الجنائية إن بيز قد انهار كل الانهيار، ومن كان يصدِّق ذلك فسيكون سعيداً. أن تصدّقني حين أقول إن الغلام إذا كان قد انهار، على وجه الإطلاق فقد كان ذلك انهياراً كاملاً، ومن يصدق ذلك فسيغدو سعيدا. وفي وسعك أن تصدقني في أن الغلام إذا كان قد انهار على وجه الإطلاق، فقد انهار إلى أقصى الحدود، لأن المسؤولين الجنائيين سوف يتعقّبونه بالبحث الآن، وذلك، على وجه الخصوص، لأنه يستاء من أنَّ السيدة أوْل، العجوز أطلقت الرصاص، ومن أين يفترض الآن أن يعيش، ويقول في نفسه: إذا لم يرحل هذا اللئيم عني بالموت فحسب، وبذلك نعرف ما يكفينا عن تراجيديا القدر التي نُسِبَت إلى الطيار بيز– أرنيم، وأنه أُلْقِي به من ارتفاع ١٧٠٠م، وأنه قد غُرَّ عن ميراثه، ودخل السجن باسم مستعار.

على أن الطوفان الكبير من الأمريكيين الذي يزورون برلين يتوقّف، وكان يوجد بين الألوف الكثيرة الذين يزورون الحاضرة الألمانية، ، عدد جمٌّ من الشخصيات البارزة التي كانت تزور برلين لأسباب تتعلق بالخدمة الرسمية، أو لأسباب خاصّة، وهكذا يقيم الأمين الأول للوفد الأمريكي للاتحاد البرلماني الدولي، وهو الدكتور كول من واشنطن هنا «فندق إسبلاندا» الذي سوف يلحق به خلال أسبوع بعدُ عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيين، ثم إنه يصل في الأيام التالية رئيس جهاز الإطفاء النيويوركيّ، جون كيلون، إلى برلين، حيث سيتخذ لنفسه، مثلما فعل وكيل وزارة العمل ورئيس مكتب العلم، دافيس، مسكناً له في فندق أدلون.

أمّا من لندن فقد وصل رئيس الاتحاد العالمي لليهودية الليبرالية المتدينة، الذي يحدث اجتماعه في برلين، فيما بين ١٨و ٢١ آب، وهو كلود ج. مونتيفيوري، وهو يسكن مع مساعدته المرافقة له، الليدي ليلي هـ. مونتاغ في فندق إسبلاندا.

ولما كان الطقس رديئاً إلى حد فائق، فإن من المستحسن أن نَأْوِيَ إلى بيت، هو

صالة السوق المركزية، ولكن هنا تسود جَلَبةٌ عظيمة، وإن عربات اليد لتكاد تحيط بالمرء إحاطة السوار بالمِعْصَم، والفتيان لا يُجَشّمون أنفسهم حتى مشقة النداء، وهنا نُؤْثِر الارتحال إلى محكمة العمل في شارع تسيمَّر وأن نتناول طعام إفطارنا هنا، فمن يشغل نفسه كثيراً بسِيَر البسطاء من الناس– وفي النهاية فإن فرانتس بيبركوبف ليس بالرجل المشهور–، يسره أن يرتحل إلى الغرب، ويرى ما يوجد هناك.

الحجرة رقم: ٦٠ محكمة العمل، حجرة للإنعاش صغيرة للغاية، فيها بار وموقد للغلي السريع للقهوة. ويُرى على السبورة «مائدة منتصف النهار حساء رز ممزوج بخليط من البيض والقشدة والدقيق ولفائف من شرائح لحم البقر «بضعة من حروف I» «مارك» وثمة سيد شاب بدين له نظارة من المادة القرنية يقعد على كرسيّ ويلتهم الطعام على مائدة الغداء، والناس ينظرون إليه ويقرِّرون: إن له طبقاً يتصاعد منه البخار، فيه لفائف اللحم، والمرق والبطاطس، ينتصب أمامه وهو في صدد التهام كل الأصناف، الواحد بعد الآخر، وعيناه تنتقلان جيئة وذهاباً فوق الطبق، وفي هذه الأثناء لا يأخذ منه أحد شيئاً، ولا يقعد أحد بالقرب منه، بل يقعد وحده تماماً، إلى مائدته، ولكن ما من شك في أنه يقطِّع اللحم وهو مهموم، ويضغطه على طعامه ويدسه في فمه، لقمة على عجل، فلقمة على عجل، لقمة فلقمة، فلقمة، وبينما يعمل، في دسٍّ وإخراج، وإخراج ودَسّ وبينما يعمل في الدَسِّ والإخراج مرة بعد أخرى، ويقطع، ويضغط، ويلتهم، ويتشمَّم، ويتذوَّق ويبتلع، تتأمل عيناه، وتراقب عيناه، البقية التي تزداد ضآلة على نحو مطّرد، في الطبق، وتحرسه من حوله مثل كلبَيْن عقورَيْن، وتتأمل محيط جسمه تأمُّل الخبير الناقد، ثم يكون هناك دسٌّ مرة أخرى وإخراج ثم يكون الختام. والآن يفرغ من عمله، وينتصب قائماً، مسترخياً وانياً، بديناً، لقد أتى الرجل على كل شيء على نحو واضح جليّ. والآن بات في وسعه أن يدفع الثمن، ويدسّ يده في جيب صدره وهو يتمطّق: أيتها الآنسة، كم يبلغ الحساب؟ ثم يخرج الرجل البدين إلى الخارج، ويلهث ويشخر، ويُرْخي حزام بنطاله، لكي يفسح مكاناً كافياً للبطن، فقد رقدت ثلاثة أرطال في معدته، جملة من المأكولات. والآن ينطلق في بطنه العمل، وبات يترتب على البطن الآن الاشتغال

بتدبير ماقذف الفتى فيه ، وإذا الأمعاء تترَجْرَج وتتأرجح ويتلوّى هذا ويتثنّى مثل ديدان الخرطون ، وتقوم الغدد بما تستطيع أن تقوم به ، فتنثرُ عصارتها كالحقنات في هذه المادة ، تنثرها مثلما يفعل جهاز الإطفاء ، فمن الأعلى يسيل في أثرها اللعاب ، الذي يبتلعه الرجل ، يسيل في الأمعاء ، ويتم فوق الكليتين الهجوم والتدفّق ، مثلما يحدث في المتجر الكبير ، أثناء الأسبوع الخصوصي لبيع البياضات ، وبقليل من الجهد ، بقليل من الجهد ، ألا فأنظر ، فقد أخذت تتساقط القطرات الصغيرة في المثانة ، قطْرة صغيرة في إثر قطرة صغيرة . أنتظر ياصغيري ، فعمّا قريب تسلك المسار ذاته عائداً إلى هنا ، عند الباب ، الذي كُتِبَ عليه: للسادة ، وهذا هو شأن الدنيا .

وهي تتفاوض وراء الأبواب . فالموظفة في البيت ، فيلما ، كيف تكتبين اسمك ، لقد كنت أحسب أنك تكتبينه بحرف «V» ، وهنا يوجد هذا ، ويلاه ، هنا نريد أن نكتب حرف W . لقد أصبحت شديدة الوقاحة ، ولقد تصرفت التصرُّف غير اللائق ، فأحزمي أمتعتك ، واعملي على أن تخرجي من هنا ، وهناك شهود على هذا . ولا تفعلُ هذا ، إذ يحول بينها وبينه شعور مفرط بالشرف . حتى الشهر السادس ، بما في ذلك فرق ثلاثة أيام ، وعشر ماركات ، أنا مستعد للدفع ، فزوجتي ترقد في المستشفى ، تستطيعين أن تطالبي ، ياآنسة ، والكمية التي هي موضوع الجدل تبلغ ٢٢ ماركاً و ٧٥ ، غير أني أقرر أنني لا أستطيع في النهاية أن أرتضي كل شيء «أيها الجيفة الوضيعة ، أيها البهيمة الوضيعة» هنا يمكن أن تُشْحَنَ امرأتي حين تكون قد عادت إليها صحتها من جديد ، على أن المدَّعية الشاكية ذاتها أصبحت وقحة ، والأحزاب تستنتج القياس التالي:

هناك السائق بابكه ومؤجّر الأفلام فيلهلم توتسكه ، فأي نوع من القضايا هذا ، لقد وضع لتوّه على المائدة ، إذاً فأكْتُبْ: يظهر شخصياً مؤجر الأفلام فيلهلم توتسكه ، كلاّ ، أنا لا أملك سوى تفويض منه ، جميل ، وقد كنت تعمل سائقاً ، أي وقتاً قصيراً نسبياً ، وقد صُدِمت بالعربة ، فاتني بالمفاتيح ، وعلى هذا فقد نُكِبْتَ بالسيارة ، فما قولك في ذلك؟

في الثامن والعشرين صادف يوم الجمعة ، وكان يفترض فيه أن يأتي بالرئيسة من

حمام الأميرال وكان ذلك عند شارع فيكتوريا، وهؤلاء يستطيعون أن يشهدوا أنه كان سكران كل السكر، وهو معروف في الناحية كلها بأنه سكير. على أنني لا أشرب البيرة الرديئة بحال من الأحوال، لقد كانت سيارة ألمانية، والتصليح يكلِّف ٢٠، ٣٨٧ ماركاً، فأيّ نوع من صِدام كان هذا؟ وفي اللحظة الراهنة أنزلق، إذ ليس لها كابح للعجلات الأربعة، وكانت عجلتي الأمامية عند عجلته الخلفية. كم شَرِبْت في هذا اليوم؟، لابُدَّ إنك ستكون قد شربت عند الإفطار، كنتُ قد ذهبت إلى الرئيس تناوَلْت طعاماً، والرئيس يُعنى بالعاملين عناية شديدة لأنه إنسان لطيف رقيق، ثم إننا لا نُحمِّل الرجل المسؤولية عن الضرر، بل نحمّله مسؤولية الإعلان عن إلغاء الاتفاقية من دون مهلة: لقد ارتكب، نتيجة للسكر أمثال هذه الأخطاء، فتعال بهَلاهيلِك، فإنها ترقد في شارع فيكتوريا، في الوحل والأقذار، وهنا قال الرئيس بالهاتف: هذا قرد كبير، حطّم السيارة، ولم يكن في وسعك أن تسمع هذا، أجل، فإن جهازك يتحدث بصوت بالغ الارتفاع، إذا لم تكن لدى الرجل ثقافة أخرى. وفضلاً عن ذلك فقد هتف إليّ قائلاً: لقد سرقت العجلة الاحتياطية وأرجو أن يُسْتَجْوَب الشهود، وأنا لا أفكر على الإطلاق في ذلك، وأنتما متشابهان كلا كما في تحمل المسؤولية، لقد قال الرئيس: ثور، أو قرد، مع الاسم الأول، فهل تريد أن تعادل نفسك بخمسة وثلاثين ماركاً وثلاثة أرباع المارك واثني عشر قرشاً، الآن مايزال ثمة وقت، وفي وسعك أن تتَصَّل به، وفي النهاية يفترض أن يأتي إلينا في الساعة الثانية إلاّ ربعاً.

وفي المسافة التي تمتد من الباب في الأسفل في شارعِ تسيمَّر، تقف فتاة مرَّت من هنا مجرَّد مرور، وهي ترفع المظلة الواقية من المطر عالياً، وتدسُّ رسالة في صندوق البريد. وجاء في الرسالة: عزيزي فرديناند، تلقيت رسالتَيْك مع الشكر، ومع ذلك فقد خاب أملي فيك إلى حد بعيد، ولم أكن أحسب أنَّ المسألة ستنعطف معك مثل هذه الانعطافة. والآن يترتَّب عليك، بلا ريب، أن تقرِّر ارتباطنا برباط محكَم وثيق، ونحن مازلنا، بلا ريب، في رَيْعان الصبا. وأعتقد أنه لابُدَّ لك أن تنجلِيَ لك حقيقة المسألة، فربما كنتَ تحسَب أنني أُعَدُّ فتاة مثل كل الأخريات، ولكنك

أخطأت هنا وجانَبْتَ الصواب، يابنيّ، أم تُراكَ ربما تحسَب أنني طرف غني؟ ولكن ستكون هنا قد سلكت الطريق الخاطئ، غير أني مجرد فتاة من بنات العمال، وأقول هذا لك لكي تستطيع أن تتوجَّه تَبَعاً لذلك، ولو كنت أعرف ما يمكن أن ينجم عن هذا لما شرعت في عمليات الكتابة على الإطلاق، أوّلاً، وعلى هذا فأنت تعرف الآن رأيي، فتوجَّه وفقاً له، ويجب عليك، بالطبع، أن تعرف كيف تبدو الحالة في داخلك، مع أطيب التحية، آنّا.

وثمة فتاة تقعد في المنزل ذاته، مبنى مستعرِض، في المطبخ، أما الأم فذهبت تتسوَّق بعض حاجاتها. والفتاة تكتب في يومياتها في الخفاء، وهي في السادسة والعشرين، عاطلة عن العمل. وقد سجل التدوين الأخير المؤرَّخ في ١٠ تموز، ما يلي: أحوالي وأمور تسير على نحوٍ أفضل من جيد، ولكن الأيام الطيبة تعدُّ الآن وأنا لا أستطيع أن أفضِي بمكنون نفسي إلى أحد كما أودُّ وأتمنى، ومن أجل ذلك صحَّ عزمي على تدوين كل شيء، وعندما تنجلي أحوالي وأوضاعي سأكون عندها غير مؤهَّلة لعمل شيء، وإن أقلَّ الصغائر شأناً لخليقة أن تسبب لي مصاعب كبرى. وكل ما أراه بعدئذ يظل يبعث في نفسي أفكاراً تتجدَّد على الدوام، ولا أتخلَّص من هذه فيتملّكني عندئذ قلق شديد ولا أستطيع إلاّ بشق النفس، أن أَقْسُرَ نفسي على فعل أي شيء كان، وإذا اضطراب داخلي كبير يدفع بي ويردُّني، جيئة وذهاباً، فلا أفرغ من شيء، حقاً ومثال ذلك أنني حين استيقظ، في الصباح الباكر، عند ذلك لا أودَّ على الإطلاق أن أنهض قائمة، غير أني أَقْسُر نفسي على ذلك وأبثّ في نفسي، بنفسي الجرأة. غير أن مجرّد ارتداء الثياب يكلفني عندئذ جهداً ويستغرق وقتاً بالغ الطول، إذ تروح وتجيء في رأسي، من جديد تصوُّرات بالغة الكثرة، وتظل تعذبني على الدوام فكرة عمل أي شيء على نحوٍ معكوس، وأن أتسبَّب، من جرّاء ذلك، بعض الأضرار، وفي كثير من المرات، عندما أضع قطعة من الفحم في الموقد وتنبثق شرارة عالية في هذه الأثناء، ينتابني الفزع، فأضطر عندئذ فحسب إلى البحث في كل شيء لدّيَ، لأرى ألم تَشُبَّ نار في شيء ما، وبذلك أُدَمِّر نفسي بذلك حيثما كان ذلك ممكناً، ثم أليس من الممكن أن تنشأ لي، من دون أن ألاحِظ، نار كهذه،

وهكذا تسير الأمورِ بعدها طوال النهار بأسره، وكل ما أضطر إلى فعله يبدو لي بالغ الصعوبة، وعندما أقْسُر نفسي عندئذ على فعل هذا تستغرق المسألة وقتاً بالغ الطول على الرغم من الجهد الذي أبذله من أجل أداء ذلك بسرعة، وهكذا ينقضي النهار عندئذ، ولا أكون قد أنجزتُ شيئاً، لأنني أضطر، مع كل تصرُّف أو إنجاز، إلى أن أظل مستغرقة في الأفكار وقتاً بالغ الطول، وحين لا أعود بعد ذلك، حقاً، وفي الوقت المناسب، إلى خضمّ الحياة، عند ذلك ينتابني نوع من اليأس، وأبكي بعدها البكاء المُرَّ الكثير، وكانت أحوالي من هذا النوع على الدوام، وقد ظهرت، أوَّل ما ظهرت، في السنة الثانية عشرة من حياتي، وكان كل شيء يُنْظَر إليه من قِبَل والديّ على أنه تصنُّع وحين بلغت عامي الرابع والعشرين حاولت إنهاء حياتي، من جراء هذه الأحوال، غير أني أُنْقِذْت. وفي تلك الأيام لم أكن مارستُ بعد لقاءً جنسياً، وعلَّقت الآن أملي على مثل هذا اللقاء، ولكن عبثاً، مع الأسف، ولم أكن أعاشر الناس إلاّ على نحو معتدل، على أني ماعدت أريد أن أعرف شيئاً عن ذلك في الآونة الأخيرة على الإطلاق، لأنني أشعر بضعف شديد من الناحية الجسدية كذلك.

١٤ آب تسير أحوالي، منذ أسبوع، سيراً بالغ السوء، ولست أدري ما أنا صائرة إليه لو ظل هذا على هذه الحالة وإني لأعتقد أنني لو لم يكن لي أحد في هذه الدنيا، لفتحت على نفسي صنبور الغاز، غير أني لا أستطيع أن أسيء إلى أمي بهذا، ولكني أتمنى لنفسي بالفعل، كثيراً، أن يصيبني داء عضال أموت به عندئذ، لقد دوَّنت كل شيء مثلما يبدو في داخلي، بالفعل.

المبارزة تبدأ! إنه طقس ماطر

ومع ذلك فلأي سبب «وأنا أقبّل يدك، ياسيدتي، أقبّلها» لأي سبب، يكون التفكير الطويل وإمعان النظر، هربرت في خُفّ من اللباد، يفكر في حجرته، ولا سماء تمطر، ويُسْمَع وقع خطوات سريعة ثم يسمع وقت خطوات سريعة، ولا يستطيع المرء على الإطلاق أن ينزل إلى أسفل، وقطع السيجار كلها في البيت، ولا توجد في البيت شخصيات رجاليّة تتميَّز، بوجه عامّ للغاية. بالسيجار، فلأي سبب لا تمطر السماء إلاّ في آب. ويظل الشهر بأكمله يغمر الطرق بالمياه التي تنهمر كأفواه

القُرَب، مبتعداً، كأنه اللاشيء، ولأي شيء كان يذهب المدعو فرانتس الآن إلى راينهولد ويلغو بالكلام الفارغ، عن هذا؟ «أقبّل يدك ياسيدتي، وما من امرأة أقل شأناً من سيغريد أو نيغن أدخل السرور بغنائها، ولم تكن، تخلى عن المسألة كل التخلّي، وراهن على حياته، وبذلك كَسِبَ حياته» وسوف يعلم عمّا قريب لماذا، ولأي سبب، هذا ما سيعلمه عما قريب، ثم تواصل السماء المطر، على الدوام، فإنه يستطيع القدوم إلى هنا.

: «أيها الآدميّ، فلتَقرَّ عيناً بأنك تمعن النظر من أجل ذلك، ياهربرت، بأنه ترك السياسة القديمة– حين يكون هذا صديقه، ربما». ياللعجب، يا إيفا، صديقته، سجّلي نقطة، أيتها الآنسة. ما من شك في أنني أعرف معرفة أفضل، وهذا يريد شيئاً ما، من هذا، الذي يريد شيئاً ما–» «لأي سبب مع ذلك، يتم التسليم بالبيع من قبل الإدارة العامة، بحيث يترتَّب النظر إلى الثمن على أنه مناسب» «إنه يريد شيئاً ما، وشيئاً يريده، ولماذا يروح ويجيء هنا، ويلغو على الدوام بهذا الحديث: — إنه يريد أن يأتي، لنفسه، بواحد من هنا! هذا يريد هنا أن يتخذ ولداً عزيزاً، فانتبهي يا إيفا، وحين يكون هو في الداخل، يُصْدِر صوتاً يقول: «بينغ، بينغ» وما من أحد يعرف كيف كان ذلك». «أتُراك تصدّق؟» «أم تُراك لا تصدق، أيها الآدميّ، والمسألة واضحة جليّة. أنا أُقَبِّل يديكِ ياسيدتي، مثل هذا المطر. «كلير الصغيرة، أيها الآدميّ، كلير الصغيرة، الذهبية». أتصدّق، ياهربرت؟ لقد كان هذا بالنسبة لي رهيباً إلى حدٍّ ما، بحيث يَدَع المرءُ ذراعه تسافر، وبعد ذلك، وبعد ذلك يصعد إلى أعلى » كلير الصغيرةّ! لدينا» أنا أقبّل. «هربرت، أتعُدُّ هذا فعلياً وحقيقياً، وهل ينبغي للمرء أن لا يدع، على الإطلاق، شيئاً يتسرَّب إليه من ذلك، وأن يتظاهر ذات مرة وكأننا لا نلاحظ شيئاً على الإطلاق، وأننا عُمْيان كلَّ العمى؟» «إنما نحن جِمال، يستطيع المرء أن يفعل بنا ما يفعل» «أجل، ياهربرت، وهذا هو الصحيح عنده، أن نفعل، وأنه لا بُدَّ لنا من ذلك. أما إن هذا لفتى مضحك للغاية». البيع مُسَلَّمٌ به من قبل الإدارة العامة، بحيث تكون المكافأة التي تمَّ الوصول إليها، لأي سبب، مع ذلك، بإمعان النظر، والتفكير مليّاً، المطر.

فانتبهي ذات مرة، يا إيفا، الحفاظ على الكثافة شيء نستطيعه، ولكن ما من شك في أنه يترتَّب علينا الانتباه، ماذا يكون قولك حين يَشْتمُّ هؤلاء عند بومز رائحة الموقف المتفجِّر، ماذا؟ «أنا أقول حقاً إنني فكرت في ذلك لنفسي على الفور، يا إلهي، لماذا يروح ويغدو، يا تُرى بذراع واحدة» «لأنه امرؤٌ طيب. وما من شك في أنَّ مايترتب على المرء هو مجرد الانتباه الحادّ، والصبيّة ميتسه أيضاً» «هي مَنْ أقول لها ماذا نستطيع أن نفعل عندها؟» «أمّا هذا فلا تَدَعيه يغيب عن ناظرَيْك، المدعو فرانتس». «عندما يتيح صاحبك الشيخ مجرَّد الوقت». «يُفْتَرَض أن يصرفه» «وهو الذي يتحدث بالطبع عن الزواج» هاهاها. هنا يترتَّب عليَّ أن أنفخ ذات مرة. ماذا يريد هذا؟ وفرانتس؟» «إنه كلام فارغ، وتدع الشيخ يهذر بالكلام الفارغ، ولمَ لا». «إنه يُؤْثِر الانتباه إلى فرانتس يحاول إخراج رَجُله من العصابة، وانتَبِهْ ذاتَ مرة، فذات يوم يأتي إلى هنا واحد مَيْتاً قد دُهِس». «إنها إرادة الله، ياهربرت، هلاَّ أمسكت». «أيها الآدمي، إن إيفا ليست في حاجة إلى أن تكون فرانتس. وعلى هذا فلا بُدَّ للمدعوَّة ميتسه أن تنتبه». «أنا مَنْ يُعنى بي أيضاً. أتعلم، ولكن هذا مازال أسوأ كثيراً من السياسة». هذا شيء لا تفهمه القارحة بنت القارحة، يا إيفا، أقول لك، إن العمل ينطلق مع فرانتس. الآن يعدو عَدْوَ الخَبَب».

أُقَبِّل يدك، ياسيدتي، لقد فَرَضَت نفسها الحياة، فظفر بحياته، إذ راهن عليها كلَّ المراهنة، فإن لدينا هذا العام شهر آب، هذا العام، ألا فانظر، فإن هذا يتدفق تدفُّق أفواه القِرَب، ويواصل التَّدفُّق.

«ماذا يبتغي هذا منّا؟ لقد قلت إنه مجنون، وما من شك في أنه مغفَّل أحمق، لقد قلت له: أجل، بلا ريب، حي يكون للمرء ذراع واحدة فحسب، ويأتي، ويريد أن يشاركنا في اللعب، وهو» بومْز: «وَيْحَك، ماذا يقول يا تُرى؟» «مايقوله: هذا يضحك ويبتسم ابتسامة ساخرة، وهو الذي يجمع بين السذاجة والخَرَق، والذي لا بُدَّ أنه قد أصابه من تلك الأيام صدمة، وأنا أفكر أوَّل ما أفكر، في أنني لا أسمع على الوجه الصحيح، وأقول: ماذا دها الذراع؟ ياللعجب، ولم لا، كذلك يقول هذا وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، فهو ينطوي من القوّة على مايكفي، في الأخرى، وينبغي

لي أن أرى ذلك ذات مرة، فمن الممكن أن يرفع الأثقال، ويرمي، بل من الممكن أن يتسلَّق حين لا يكون هناك بُدٌّ من ذلك» «وهل يعد ذلك حقيقياً». إنه لا يعنيني. وهذا الرجل لا يعجبني، وهل نزمع الحصول على فتىً كهذا، يا ترى؟ أنت، مثلاً، يابومز، يمكن أن نحتاج إليك في العمل. وعلى وجه الإطلاق، فأنا حين أرى هذا بوجهه الذي يحاكي وجه الثور، كلاّ، أَمْسِك». «مالنا ولهذا، عندما ترى ذلك، بالانطلاق مني، يجب أن يذهب الآن، ويا راينهولد، فَدَبِّر سُلَّما» «ولكن فليكن سُلَّما مُحْكم الصنعة، من الصلب أو نحوه، من أجل الدفع أو الصَّدْم، وليس في برلين». «أعرف» «والزجاجة. هامبورغ، أو لايبتسيغ». «أنا أقوم الآن بالاستعلام والاستفسار». «وكيف نحصل عليه؟» «دعني أنجز ذلك، يا رجل». «أَوَ يعني هذا، فيما أعتقد، ذلك الذي هو مجرد عبء علينا، ولكن هنا لا نحفِل به، فتفاهم معه على هذا وحدك». هلاّ انتظرت، بربك، أيها الآدمي، أو يعجبكَ، يا تُرى، وجه هذا. فتصوَّر أنني أقذف به من السيارة، وهو يصل، هنا، إلى الطابق العلويّ، فيما أظن، وعقلي في حالة ليست على مايرام، وإذا هذا الآدمي واقف هنا، فتصوَّر، أنَّ هذا ليس بالجَمَل، وأنه يرتعد فَرَقا، وفيم يأتي الجَمَل يا تُرى، أوَّل ما يأتي، إلى الطابق العلوي، وفيما بعد يبتسم ابتسامة ساخرة، ويريد أن يكون معنا في كل مكان» «والآن فسَوِّ هذه المسألة معه كما تشاء، دعني أذهب». «ربما كان هذا يريد أن يبلغ عنا ويخوننا، أليس كذلك؟»» هذا ممكن، هذا ممكنٌ، أوَ تعلم، ذلك لأن أفضل ماتفعله هو أن تنأى بنفسك عنه، وتتجنَّبه، فهذا هو الأفضل. إنه يفشي سرَّنا، أو، عندما يكون، ذات مرة، متجهِّماً مقطِّباً، عندها يرمي الواحد منا فيرديه»: «نابيند، راينهولد، أنا مضطر إلى الانطلاق، السُلَّم».

إنه ثور أَقْرَن، هذا المدعو بيبركوبف، غير أنه يريد شيئاً مني، وهو يمثل دور المنافق، يريد أن يساومني أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنك تخطئ خطأً فاحشاً، حين تعتقد أنني لا ألاحظ وأنا خليق أن أدعك تتعثر قدمُك بعقب حذائي فتسقط. الخمر، الخمر الخمر، إن الخمر لتبعث الحرارة في الأيدي، وإنها المستحسنة. العمة باوْلا ترقد في سريرها وتأكل البندورة «الطماطم»، ولقد نصحت لي بها صديقة فألَحَّت

في النصح. وإذا كان هذا يعتقد أنني مضطر إلى أن أُغْنى به فنحن لسنا مؤسسة للتأمين ضد أشكال العجز والمرض. ينبغي له أن ينصرف حين لا يكون له سوى ذراع واحدة، وليلصق الطوابع. «يُنقّل خطاه في الحجرة، متثاقلاً، جيئة وذهاباً، ويتفرَّج على الأزهار». هنا تتوافر للمرء أصص الأزهار وتحصل المرأة على ماركَيْن إضافيَّيْن زيادة على كل أوَّل، وتستطيع أن تسكب مافي الأصص، مثلما يبدو هذا من جديد، كمية من الرمل، مثل هذه الفتاة الحمقاء الغبيّة، الكسلى كالجيفة المنتنة، ولا تستطيع أن تبتلع إلاّ النقود، ولكن لا بُدَّ أن أنتزع من هذه أسرارها بكل الجَهد الممكن.

ويأتي قدح آخر من الخمر. هذا ماتعلمته من ذلك الرجل. وربما أخذت الرجل المسكين معي. فأنتظر، فإن هذا شيء يمكن أن يحدث لك، إذا ما أردتَ ذلك على وجه الإطلاق، ربما كنت تحسَب أنني خائف منه. هكذا تبدو، يا كارل الصغير، ومن الممكن أن يأتيَ هذا، والمال لا يحتاجه هذا، المدعو كارل، على أنه ليس بمضطر إلى أن يحتال عليَّ بهذا، فههنا المدعوَّة ميتسه، ومن بعدها الوقح الشريد بعدُ، والمدعو هربرت، الخانق المهتاج والتيس الكبير، وها هو ذا يقف في وسط الجمع في حظيرة الخنازير، فأين الحجرات، إني لخليق أن أحطم عظام هذا، هَلُمَّ يا رجل إلي، إلى صدري، إلى قلبي، هَلُمَّ على الدوام، هَلُمَّ فالتصقْ بي، بصدري، بقلبي، هَلُمَّ إليَّ على الدوام، التَصقْ بي، أيها لفتى، إلى بنك الغرامات، فعندي بنك للغرامات، وفي وسعك أن تكفِّر بالغرامة.

ويظل يُنقّل الخُطا المتثاقلة في حجرته، في اتجاه، وينقر بإصبعه على أصص الأزهار، ويربِّت عليها بقطعة من فئة الماركَيْن، ولا يروي هذه. إلى بنك الغرامات يافتاي، فمن الجميل أن تأتي وبعد جيش الخلاص أعيد النظام إلى هذا، وينبغي للمرء أن يفعل هذا بعد شارع درسدِن، وهنا يجب عليه الذهاب إلى بنك الغرامات، الخنزير بعينيه الجاحظتين الكبيرتين، وذلك المدعو لودفيغ، والماشية، وهذه ماشية وهنا يقف في المقدمة، الرجل البهيمة، ويصلي، وأنا أرمقه، وإنه ليبعث على الضحك القاتل.

ولماذا لا ينبغي له أن يذهب إلى بنك الغرامات، هذا المدعو فرانتس بيبر كوبف. أوَ ليس بنك الغرامات بالمكان الذي ينتمي إليه؟ ومَنْ يقول هذا؟

وماذا يمكن أن يقال ضد جيش الخلاص، وكيف ينتهي راينهولد، وعلى وجه الخصوص هذا الرجل المَدْعو راينهولد، دون غيره، إلى أن يتطاول على جيش الخلاص، وقد كان الفتى نفسه، وبلا ريب، ذات مرة، قد جرى إلى شارع درسدن، ولماذا أقول ذات مرة، فقد فعل ذلك في كثير من الأحيان، وعلى الأقل فعل ذلك خمس مرات، وفي أي نوع من الظروف، ولقد أعانوه وعلى هذا فقد شعر بالارتياح، وأصلح هؤلاء وضعه وذلك، بالطبع، لا لكي يكون مثل هذا الفتى المخادع.

الشكر لله، الشكر لله، لقد شهد فرانتس ذلك، النشيد، والنداء، ووصلت السكين إلى حنجرته، حنجرة فرانتس، الشكر لله، إنه يقدم عنقه، وهو يريد أن يلتمس حياته، ودمه، دمي، سريرة نفسي، وهكذا تتبّن المسألة في النهاية، لقد كانت هذه رحلة طويلة، إلى أن وصلت المسألة إلى هذا، يا إلهي، لقد كان هذا أمراً صعباً، وها هوذا، وها أنذا أحوزك، فلماذا لم أشأ الذهاب إلى بنك الغرامات، فياليتني أتيت قبل ذلك، ياللعجب، ها أنذا، بالطبع، لقد وصلت.

ولماذا لا ينبغي لفرانتس أن يذهب إلى بنك الغرامات، ومتى ستأتي اللحظة المباركة، السعيدة، حيث يقذف بنفسه هناك، قبل موته المفزع، ويفتح فمه، ويُباح له أن يغني مع الكثير من الآخرين من ورائه.

هَلُمَّ، أيها الخاطئ، إلى يسوع، ألا لا تتردَّدَنَّ، واستيقظ، أيُّهذا المقيَّد المغلول، وأَقْبِلْ إلى النور، فإن في وسعك أن تحظى بنور كامل، حتى اليوم، ألا فآمِن، وعندئذ سيدخل قلبَك النور والسرور، الجوقة: لأن المسيح المظفَّر، الذي يحطِّم كل قيد، المسيح المظفر، الذي يحطِّم كل قيد ويؤدّي إلى النصر بيد شديدة البأس، الموسيقى! وجموع الناس، تنشِد بصوت عال مُزَمْجِر، ولحن الدشينغ دارادادا: وهذا يكسِف كل حفلة رقص عامة، ويفضي إلى النصر بيد شديدة البأس، ترارا، تراري، ترارا! حفلة الرقص العامة! لحن الدشينغ دارا دادا!

أما فرانتس فلا يني، ولا يتوانى، إذ لا تتيح له المسألة قدراً من الراحة، فهو لا

يسأل عن الرب، ولا عن العالم، وكأن هذا الإنسان سكران، وفي حجرة راينهولد يظهر مع الآخرين من إخوان بومز الذين لا يريدون أن يكون عندهم، ولكن فرانتس يضرب بذراعه حواليه، ويكشف لهم عن القبضة الواحدة التي تبقّت له، ويصرخ: «إذا كنتم لا تصدقون وترون فيَّ امرأً مخادعاً، وأنا أزمع أن أشهّر بكم واستنكر أمركم، فليكن الأمر كما تريدون، وهل تُراني أحتاج إليكم حين أَريد الإقدام على أمر من الأمور؟ وهل؟ تستطيع أن أذهب إلى هربرت، وإلى حيث أشاء». «وَيْحَك، فافعل بربك» «فلتفعل، بربك، وهل ترى أن من الضروري، أيها القرد، أن تقول لي: فأفعل بربك ألا فانظر إلى ذراعي، أنت، هنا نقلني، هذا المدعو راينهولد، من السيارة، ولكن بعنفوان. وهذا ما احتملته، وها أنذا هنا الآن، ثم لا يكون من حقك أن تقول: «فافعل، بربك» حين آتيك وأقول: سأشارك، عند ذلك سيكون من الواجب عليك أن تعلم من يكون فرانتس بيبركوبف إنه امرؤٌ لم يخادع بعدُ إنساناً، وهنا تستطيع أن تسأل الناس من حولك، حيثما شئت وإني لأستنكر وأستهجن ما كان، لقد ذهبت الذراع، وإني لأعرفك وهنا أتقدم، وهذا هو السبب، والآن ربما تعلم». ومازال السمكري الصغير لا يفهم. «ذلك لأنني وَدِدْتُ لو أعرف فحسب، لماذا تريد، الآن، دفعة واحدة، وفي تلك الأيام كنت تجري بصحفك، في ميدان الإسكندر، وكان يفترض أن يأتيك ذات مرة أحدهم، ليقول: المشاركة معنا».

ويسوّي فرانتس جلسته في كرسيّه، ويلبث طويلاً لا يقول شيئاً، ولا هذه لقد أقسم، وهو يريد أن يكون مستقيماً، غير أن هذا لم يكن سوى مهلة للرحمة، فسوف يُزَجّ به في حمأة الجريمة، وهو يأبى، ويقاوم، ولكنه يُغْلَب على أمره، ولا بُدَّ أن يضطر، ويظلاّن قاعدين زمناً طويلاً، لا يقولان شيئاً.

ثم يقول فرانتس: «إذا شئت أن تستعلم عمَّن تُراه يكون فرانتس بيبركوبف فاذهب ذات مرة إلى شارع لاندسبِرْغ المشجَّر، بعد فِناء الكنيسة، وهنا يوجد شارع، ومن أجله سلختُ أربعة أعوام، وكانت هذه ماتزال ذراعي الطيّبة التي أنجزت هذا، ثم جعلت أخرج بالصحف، وحسبت أنني أريد أن أكون مستقيماً فاضلاً.

ويتأوَّه فرانتس بصوت خفيض، ويبتلع ريقه، قائلاً: «إليك بطاقة شكري،

هذه التي تراها ، وحين تظفر بالطريق ، فسوف تتوقف عن بيع الصحف وعن أمور أكثر من ذلك بعد ، من أجل أن آتي إلى هنا» «ينبغي لنا أن نرد عليك ذراعك سليمة ، بتمامها من جديد ، لأننا حطّمناها» . «ماكنتم لتستطيعوا هذا . ياماكس ، بالنسبة لي يكفي أنني أقعد هنا ، ولا أحوم هنا وهناك ، في ميدان الإسكندر ، أنالا ألوم راينهولد في شيء ، وَاسأله ذات مرة . هل قلت له مرة واحدة شيئاً ما ، وحين أقعد في السيارة ، ويكون ثمة امرىءٍ مشتبه به ، أعلم ما أصنع ، والآن ما عدنا نريد أن نتحدث أكثر من ذلك بعدُ عن حماقتي ، وعندما تُقْدِم أنت ، ذات مرة ، على حماقة ، ياماكس ، عند ذلك أتمنى لك أن تتعلم ، أنت ، في هذه الأثناء ، شيئاً ما ، ومع هذه الكلمة يتناول فرانتس قبعته ويخرج من الحجرة ، ويكون هذا واقع الحال .

وفي الداخل ، يقول راينهولد ، وهو يصبُّ لنفسه من إبريق حقيبته ، قدحاً صغيراً من الخمر : «بالنسبة لي ، هذا مجرد شيء متَّفَق عليه اتفاقاً نهائياً ، ولو أنني فَرَغت من هذا في المرة الأولى لفَرَغت مما بعد ذلك . وفي وسعك أن تقول بالطبع ، اجل فإن في المسألة مجازفة ، أن نبدأ بهذا ، ولكن هذا يستكين في ذلك بقوة وبأس شديد: أما إنه لمسكين ، وهذا مايسلِّم به هو ذاته ، أمّا مسألة تحلّيه بالاستقامة ، فقد تمَّ الفراغ منها عنده ، وماعاد ثمة إلاّ مسألة لماذا يذهب إلينا ، ولا يذهب إلى هربرت ، وهو صديقه ، هذا ما لا أعلمه ، فتصوَّر الكثير من أمور شتى ، وعلى كل حال فقد كنا خليقَيْن أن نكون أغبياء لو أننا لم نتمكّن من رجل مثل فرانتس بيبركوبف ، ونتغلَّب عليه ، وبات من الواجب عليه أن يشارك في العلم معنا دونما حرج ، فإذا كان ماكراً غادراً ، فسوف تأتيه صفعة على رأسه .

اللّصّ فرانتس، فرانتس لا يرقد تحت السيارة، وهو يقعد الآن فيها، في الطابق العلويّ، فقد حقق ذلك

في مستهل آب مازال يتمتع مَنْ يُسَمَّوْن بالسادة المجرمين ، بالراحة وبالوضع الاحتياطيّ ، وكانوا مشغولين بالاستجمام وبصغائر الأمور . ومع الطقس الجميل

إلى حدِّ ما، ماكان أهل السَّطْوِ ليسطون على وجه الخصوص، وعلى كل حال من حيث كونهم عارفين وخبراء، أو ماكانوا يجهدوا أنفسهم على وجه الإطلاق. ويأخذ القوم بهذا في الشتاء، هنالك يضطر المرء إلى الخروج من المبنى، ومثال ذلك فرانتس كيرش، البخيل المعروف، قبل ثمانية أسابيع، وفي مستهل تموز، فرَّ، مع واحد آخر، من سجن سونِنْبورغ، على أن سونِنْبورغ، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم بالغ الجمال، يعد، على أية حال، قليل الملاءمة لأغراض الاستجمام، وقد استجمَّ الآن في برلين الاستجمام الجميل كل الجمال، وخَلَّف وراءه ثمانية أسابيع هادئة متوسطة، وربما يفكر في أي عمل كان. فهنا يوجد تعقيد ما، والمسألة على هذا النحو في الحياة. أليس هناك بُدٌّ من أن يرتحل الرجل بالحافلة الكهربائية. ثم يأتي المسؤولون الجنائيون.

والآن، في نهاية آب، وفي قرية راينيكه - غارب، يأتون به من الحافلة الكهربائية، وقد انتهى أمر الاستجمام، وما عاد في وسعه أن يصنع شيئاً، ولكن مازال هناك الكثيرون في الخارج، وعلى هذا فسوف ينشطون إلى العمل روَيْداً رُوَيْداً.

وأظل من بعدُ أُقَدِّم، قبل ذلك، وعلى جناح السرعة، حالة الطقس وفقاً لبلاغات مركز التنبُّؤ بأحوال الطقس، العمومي، لبرلين، حالة الطقس العامة: منطقة الضغط الجوي المرتفع، الغربية لها تأثيرٌ توسَّع إلى ألمانيا، وأدّى، بوجه عام إلى تحسُّن في حالة الطقس. أمّا الجزء الجنوبيّ من منطقة الضغط الجوي المرتفع فيجري تفككها من جديد، وعلى هذا فلا بُدَّ لنا أن نحسب حسابنا على أساس أن التحسُّن الذي اعترى حالة الطقس لن يتميَّز بالبقاء والديمومة. وفي يوم السبت سوف تتحكَّم منطقة الضغط المرتفع بعدُ في طقسنا، وسوف يسود طقس حسن للغاية، وثمة منخفض جوي يظهر الآن فوق إسبانيا، ومع ذلك فسوف يتدخل في طقسنا يوم الأحد.

برلين ومحيطها: غائم جزئياً، ومشمس في جزء آخر منه، حركة الهواء ضعيفة، ودرجات حرارة تتصاعد ببطء. في ألمانيا: في الغرب وفي الجنوب: غائم، وفي سائر

ألمانيا غائم مشمس، وفي الشمال الشرقيّ مازال يتميَّز بهبوب الرياح، مع عودة تدريجية إلى الدفء.

ومع هذا الطقس البالغ الاعتدال يتحرَّك طابور بومز، ومعه صاحبنا بومز، بطيء الحركة، كما أن طابور السيدات المغلق، يؤيِّد قيام الفرسان بتمرين سيقانهم، لأنهم يستطيعون بعد ذلك أن يخرجوا إلى الشارع، ولا يسر واحدةً منهن فعلُ ذلك، إذا لم تكن مضطرة إليه على وجه الخصوص. كلاّ، بل إن ذلك يعني أن يدرس المرء السوق أوَّلاً، المشترين أو المستهلكين، إذا لم تستقم أمور صناعة الملابس الجاهزة كان من الواجب على المرء أن يركِّز على منتجات الفراء والنساء يحسَبْن أن هذا قد تمَّ إنجازه بسرعة البرق، وأنهم يصنعون، على الدوام، الشيء الواحد ذاته ومثل هذا العمل سَرْعان ما يتمُّ تعلُّمه، غير أنهم يتكيَّفون مع الظروف المستجدّه عندما تسوء الحالة الاقتصادية إذ لا يتوافر لديهم، من أجل ذلك، ما أنت تفهمه، وهنا لا يستطيع هؤلاء أن يشاركوا في الحديث.

وكان بومز قد تعرف على سَمْكَري له معرفة بالمنفاخ الآليّ الخاص بالأوكسجين، وعلى هذا فقد حظينا بهذا، ثم جاءنا رجل مقاطِع منازع، يقال له كاوْفميش، يبدو أنيقاً، غير أنَّ هذا اللئيم لا يعمل، ومن أجل ذلك كانت أمه قد طردته، غير أنه يستطيع المخاتلة والنَّصْب ويتقنهما وإنه ليعرف أعمالاً وصفقات، وفي وسع المرء أن يبعث به إلى أي بقعة من الأرض، كائنةً ماكانت، وهو يستطيع أن يقلب بصره فيما يوجد حوالَيْه، مستطلِعاً ويُعِدُّ عدَّته لرحلة، ويقول بومز للمحاربين القدماء في طابوره: «في الأساس نحن لا نرى أن ثمة ضرورة لأن ندخل المنافسة في حُسباننا، وهذا موجود بالطبع، لدينا كما هو موجود في كل مكان، ونحن لا نتأثر بالإزعاج على الإطلاق، ولكن حين لا نتطلَّع إلى أناس صالحين، لهم معرفة ودراية بصنعتهم وبما يوجد من الأجهزة، عند ذلك يدخل المرء بالطبع، بقوة وعنف، في مؤخرة الجيش، ثم يستطيع المرء أن يتخصص، ببساطة، في السلب والنهب ولا نحتاج، من أجل ذلك، إلى أن تبلغ قوتنا ستة رجال أو ثمانية، بل يستطيع ذلك كل امرئ بمفرده».

ولما كانوا الآن يتمنَّوْن غاية التمنيّ ، الحصول على الملابس الجاهزة والفراء ، فقد كان لابُدَّ لكل ذي ساقَيْن أن يعدُوَ عَدْوَ الخبب ، وأن يجد بذلك أعمالاً وصفقات ، حيث يستطيع المرء أن يروِّج بسهولة شيئاً ما ، من دون أ ، ن يُطْرَح عليه الكثيرُ من الأسئلة ، وحيث لا تقوم الشرطة بزيارة المكان على الفور ، وبالطبع فمن الممكن قلب كل شيء وتغييره بالاشتغال به من جديد ، بل يستطيع المرء الخياطة بطريقة مختلفة ، كما يستطيع في النهاية أن يكتفي أَوَّلاً بتكديسه وتخزينه ، ليجد طريقة العمل أولاً .

وذلك أنّ بومز لم يفرغ قطُّ من المُتَسَتِّر عليه في فايسّنزيه . وحين يعمل امرؤٌ مثلما يعمل هذا الذي لا يستطيع المرء أن يعقد معه صفقات . أمّا أن تعيش ، وأن تدع غيرك يعيش . فهذا مبدأ لا بأسٍ به ولكن لأنه يزعم أنه خسر في الشتاء الأخير– كما يقول!– ولأنه يزعم أنه فَقَد أموالاً ، وأن عليه ديوناً ، وقد استمتعنا في الصيف ، ولذلك يقتضي الحال بعدها أن نطلب ممن نتعامل معهم المال وأن نتفجَّع بين يديهم . ألحق الضرر بنفسه عن طريق المضاربات! ثم عاد فألحق بنفسه الضرر عن طريق المضاربات ، ثم يكون مثل بهيمة من البقر ، كاوْفميش السيء ، ليس له دِراية بالأعمال والصفقات ، هذا الفتى ، ثم يكون غير ملائم لنا ، هل يترتَّب علينا عندئذ أن نلتمس امرأ آخر . وبالطبع فهذا شيء قوله أسهل من فعله ، ولكن لا بُدَّ أن يكون ، ومثل هذا لا يحفِل به ، من العصابة كلها سوى صاحبنا الشيخ بومز . وما من شك في أن من الغريب الذي يلفت النظر ، أن الناس ، في كل مكان ، لهم أذنان تسمع ، يهتمُّ الصغار الآخرون منهم بما سيصير إليه العالم ، ذلك لأن مجرد السلب والنهب شيءٍ لم يشبع منه بعدُ أحد ، إذ لا بُدَّ أن يتحوَّل ذلك إلى مال ، ولكن ، مثلما قلنا: لا يركِزون جهدهم ، جميعاً ، على جلد الدب إلاّ عند بومز ، ويقولون: «إن بومز حاضر هنا ، ولسوف ينجز ذلك» . وإذا حضر فَعَلَ ، ولكن ماذا يحدث إذا لم يستطع؟ هاّ! ما من شك في أن بومز لا يستطيع ذلك على الدوام ، فهل يمكن أن يحدث ذلك لبومز ذات مرة ، فهو مجرَّد إنسان ، وعندها يمكنكم أن تَرَوْا ، ولكن ما علينا ، إلى أين نريد بذلك ، من الممكن أن ترْوا ، فإن كل عملية الاقتحام والسطو لن تجديَكم ، ففيٍ هذه الأيام لا تستقيم الأمور بمجرد الإزميل والمنفاخ الآليّ . اليوم لا بُدَّ أَن يكون كلٌّ منا رجل أعمال .

من أجل ذلك لا يهتمّ بومز بمجرد المنفاخ الخاص بتوليد الأوكسجين ، على قدر

ما وصلت الأمور إليه في مستهل أيلول، بل يهتم بمسألة من يشتري مني بضاعتي. وقد كان بدأ بذلك منذ آب، وإذا كنت تريد أن تعرف من يكون بومز: فهو شريك فيما يعادل خمسة من المتاجر الصغيرة لبيع منتجات الفراء، ودكاكين الفرّائين– أمّا أين فلا يهُم–، ثم إنه سَلَّم بإضافة ماليّة من أجل حجرات الكيّ المتعدِّدة، وهي حجرات أمريكية فيها لوح لِلكيّ في نافذة العرض، وثمة خياط يرتدي أكمام قميص يقف عنده، وهو يَطْبُق الألواح على الدوام نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهذا يصدر عنه بخار، ولكن الحلل تتدلّى من الخلف، أجل فعلى هذا يكون المعوَّل أمّا من أين جاء بها القوم فذلك مايصرِّحون به: من زبائن جاؤوا بها أمسِ لتُكْوى وتُعَدَّل، وهنا العناوين، وحين يدخل مسؤول جنائيّ لتفقُّد الوضع يكون كل شيء على مايرام، وهكذا دَبَّر صاحبنا البدين الطيب أموره بصورة مسبقة، من أجل الشتاء، وهنا لابُدَّ أن نقول، بلا ريب، الآن يمكن أن تنطلق عجلة العمل، وإذا حدث شيء ما فما من إنسان يستطيع أن يتدبر أمر كل شيء: ولا تستقيم الأمور من دون قليل من لحم الخنزير ولا نريد أن نحطم في سبيل ذلك رؤوسنا.

والآن فلنمضِ في نصّنا. إذاً فالوقت منتصف أيلول، وصاحبنا المخادع الحنّك الأنيق مقلِّد لأصوات الحيوانات– غير أننا لن نشهد هذا– واللئيم بن اللئيم يقال له فالديمار هيللر، وإنه لكذلك حقاً؟، وهو الذي استطلع واستكشف في شارع كرونن، وفي شارع فال الجديد، عند المحالّ الكبرى للملابس الجاهزة، أين يمكن تحصيل شيء ما. وهو يعرف المداخل والمخارج، والباب الأمامي والباب الخلفي، ومَنْ يسكن في الطابق العلوي ومن يسكن في الطابق السفلي، ومَنْ يُقْفِل الباب، وأين تكون الساعة التي تُدَسُّ في الجيب. أما المصاريف فيعوِّضها بومز، ويضطر هيللر تارة إلى أن يأتي بصفة متسوِّق لصالح مؤسسة من بوزنان تم تأسيسها للتوّ، بل يريد الناس أوَّلاً أن يستفسِروا عن هذه المؤسسة، جميل، في وسعهم أن يفعلوا، لقد أردتُ مجرد أن أرى مدى عُلُوِّ السقف لديكم عندما ينزل المرء في المرة القادمة.

وفي هذه الحفلة، في ليل يوم السبت السابق على يوم الأحد، يحضر فرانتس بيبركوبف أول مرة. لقد حقق ذلك فرانتس بيبركوبف، وهو يقعد في السيارة،

وهم يعرفون جميعاً ما يجب عمله، أما هو فله دوره مثلهم، وتسير المسألة موافقة تماماً لروح التجارة والعمل. أما الحراسة فلا بُدَّ أن يتولاها رجل آخر، وهذا يعني أَنْ ليس هناك حراسة بالمعنى الصحيح للكلمة، وثمة ثلاثة من الصغار تسلَّلوا ببساطة عند المساء قبل ذلك، إلى المطبعة، تسلُّلاً أكبر بمقدار طابق، وكانوا قد رفعوا السُلَّم والمنفاخ في صندوقين في الخلف، مكدَّسَيْن وراء بالات الورق، أما السيارة فقد ذهب بها أحدهم، وفي الساعة الحادية عشرة يفتحون مغاليق الآخر، وما من جيفة تلاحظ في المنزل شيئاً ما، فهذه، بالطبع، جملة من الحجرات المكتبيّة والمحالّ التجارية، ثم يقعدون بسلام، أثناء العمل، وواحد منهم لدى النافذة دائماً، ينظر إلى الخارج، وثمة واحد ينظر إلى الفناء، ثم تنطلق عجلة العمل في المنفاخ عند الأرضية فوق متر ونصف في التربيع، وهذا شيء يتدبَّره السمكريّ بالنظارة الواقية، وحين يمرون من خلال الخشب نازلين من السقف، يسمع صوت أَطيط، وفي الأسفل يُسْمَع صوت جَعْجَعة، ولكن هذا ليس بشيء، وإنما هذه أصوات حجارة تتساقط من قطع زخرفة من الجصّ غليظة، والسقف يكاد ينفجر من الحرارة، ويدسّون في الفتحة الأولى مظلة حريرية ناعمة، هنالك تسقط الكتل فيها، وهذا يعني: معظمها، وذلك أنه ليس من الممكن اقتناصها جميعاً، ولكن لا يحدث شيء، وفي الأسفل كل شيء، وفي الأسفل كل شيء أسود، ساكن، لا يسمع معه صوت نَأمة.

وفي الساعة العاشرة يركبون، فيكون أولهم فالديمار الأنيق، لأنه يعرف المحل، وينزل من سُلَّم مصنوع من الحبال، كالقطط، ويقوم الفتى بهذا أوَّل مرة، وليس في نفسه أثر من خوف، وهذا هو شأن الكلاب السلوقية التي تتمتع بالحظ الأَوْفى، وذلك، بالطبع إلى أن تسير الأمور سيراً مُعْوَجّاً، ثم يضطر آخر إلى النزول، والسلم المصنوع من الصلب لا يزيد ارتفاعه عن مترين ونصف المتر ولا يصل إلى السقف. وفي الأسفل يجرّون الموائد، ثم يُنْزِلون السلم رويداً رويداً إلى أسفل، وقد وضع على أعلى الموائد، وهنا كُنّا خليقين أَن نكون، أما فرانتس فيظل في الطابق العلوي، راقداً على بطنه، فوق الثقب، يُلَمْلِم بذراعه، مثل صياد السمك، بالآت الأقمشة التي يوصلونها إلى الطابق العلوي، فيضعها وراءه، حيث يقف رجل آخر. وفرانتس

قوي، أما راينهولد الذي هو مع السمكري في الطابق العلويّ، فتنتابه الدهشة، هو ذاته، مما يستطيعه فرانتس. إنها لمسألة مضحكة، أن يُديرَ المرء شيئاً عن طريق رجل ذي ذراع واحدة. وذلك أن ذراعه تمسك بالأشياء مثلما تفعل ذلك آلة رافعة، وهذه قنبلة هائلة، كتلة خشب غليظة. وفيما بعد يجرّون السِلال إلى الطابق السفليّ. وعلى الرغم من أن ثمة واحداً ينتبه في الأسفل، لدى مخرَج الفناء، يقوم راينهولد بأعمال الدورية، ساعتين، ثم يعود كل شيء على مايرام، ويتجوَّل الحارس في أنحاء البيت، وماهو إلاّ أن لايُفْعَل شيء يمسّ الرجل الذي لن يلاحظ شيئاً، بلا ريب، ولقد كان خليقاً أن يكون غبيّاً لو أنه ترك الآخرين يُرْدونه قتيلاً مقابل ماركاته القليلة التي يحصل عليها، ويحك، إنك لترى فها هو ذا يتراجع، وهو رجل مراع للأصول، ونَدَع بريقاً أزرقَ يكمن عند ساعة جيبه عند ذلك تكون الساعة الثانية وفي الساعة الثانية والنصف تأتي السيارة، وفي هذه الأثناء يتناول الذين في الطابق العلوي إفطارهم بعدُ بأسلوب جميل، إلاّ أنه يحسن بهم ألاّ يكثروا من الخمر، وبعد ذلك يُحْدِث أحدهم جَلَبة، ثم تكون الساعة الثانية والنصف. وثمة رجلان كانا قد أحدثا اليوم، مع الطابور، حدثهما الأول، فرانتس وفالديمار الأنيق، ويلقي الرجلان، على عجل، بعدُ، بقطعة نقدية، فيربح فالديمار، ويترتَّب عليه أن يضغط بالخاتَم على رحلة اليوم، كما يجب عليه أن ينزل السلم إلى الأسفل مرة أخرى، إلى المخيَّم، ويذهب إلى هناك فيقعد القرفصاء، ويخلع بنطاله، ويضغط على الأرضية بما في بطنه.

وحين يكونون قد أفرغوا الشحنة في الساعة الثالثة والنصف، يحدثون على عجل حدثاً آخر. ذلك لأننا لا يلتئم شملنا في مثل حداثة السن هذه، مرة أخرى، ومَنْ يدري، متى عسانا نلتقي على ضفة نهر الشبريه الخضراء، ويسير كل شيء على مايرام، إلاّ أنهم يدهسون، في رحلة الإياب، كلباً، ولا بُدّ أن يحدث لهم هذا على وجه الخصوص، مما يثير حنق المدعو بومز ويثيره إثارة فوق المستوى الطبيعيّ لأن هذا يحب الكلاب، وهو يوجّه سبابه وشتائمه إلى السمكري الذي يقوم مقام السائق، إذ يستطيع أن يطلق صوت الزمّور، لقد طاردوا مثل هذا الكلب الماركي

في الطريق[9]؟ ، لأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا الضريبة ، ثم تأتي أنت وتدهسه حتى الموت ، ويضحك راينهولد وفرانتس ضحكاً رهيباً حين يستثار الشيخ استثارة مصطنعة من جرّاء الكلب ، هذا الرجل مصاب حقاً ، إلى حد ما ، بضعف العقل . لقد كان هذا كلباً ثقيل السمع ، ولقد أطلقت صوت الزمور ، أجل ، وبلا ريب ، مرة ، ومنذ متى توجد كلاب ثقيلة السمع . لا بأس ، فلنَعُد أدراجنا ولننطلق به إلى المستشفى ، دَعْ عنك هذا اللغو ، بربك ، فالخير في أن تنتبه . أنالا أستطيع أن أحتمل هذا ، فمثل هذا يعود بالنَّحْس والشؤم ، وعلى أثر ذلك يغمز فرانتس السمكريَّ في جنبه: إنه يقصد القطط ، ويضحك الحاضرون جميعاً ضحكة مجلجلة .

ويظل فرانتس بيبر كوبف ، طوال يومين ، يقول إنّ ما كان لم يكن في بيته . وحين يبعث إليه بومز بمائتي مارك ، وإن لم يكن يحتاجها ، عند ذلك فحسب يستطيع أن يردَّها إليه ، هنالك يضحك فرانتس ، قائلاً إن من الممكن أن يحتاج إلى هذه على الدوام ، ولو كان من الواجب عليَّ أن أعطيها لهربرت من أجل ماغديبورغ . وإلى مَنْ سيذهب ، وإلى منْ سينظر في بيته ، تحت عينيه ، إلى مَنْ يا تُرى ، إلى أي امرئ ضئيل الشأن ، يا ترى ، كلاّ ، إلى مَنْ فحسب؟ ومن أجل مَنْ . من أجل مَنْ حافظتُ على نقاء قلبي؟ من أجل مَنْ ، من أجل مَنْ ، وحده ، في مساء اليوم تُقْبِل عليَّ السعادة ، ومن أجل ذلك أدعوكِ دعوة الحازِم المصمِّم ، وفي مساء اليوم أريد أن أقسم لكِ القسم الصادق الحارّ ، على أن كلاًّ منا لصاحبه وحده ، يا ميتسه الصغيرة ، حبيبتي ميتسه الصغيرة الذهبية تبدو مثل عروس من المرصبان ، والحذاء الذهبي الصغير ، وها أنت تقفين وتنظرين لتَرَيْ أيَّ نوع من الاعتبارات يقيمها صاحبك فرانتس لحقيبة الرسائل . أمّا هذه فيحشرها بين ركبتيه ، ثم يخرج النقود ، بضعة قطع من الخِرق ، يرفعها أمامها ، ثم يضعها على المائدة ، وينظر إليها نظرة تتميز بابتسامة مشرقة ، ويكون رقيقاً معها ، لطيفاً دَمِثاً ، على قدر مايستطيع ، الصغير العظيم ، ويمسك بإصبعها إمساكاً محكماً ، يالَهذه الأصابع الصغيرة الحلوة الدقيقة ، التي تمتاز بها!

«ماذا ، يا ميتسه ، يا ميتسه الصغيرة؟» ماذا وراءك ، يا فرانتس؟» «كلا ، لا

---

(٩) نسبة إلى مقاطعة مارك برانديبورغ . (المترجم)

شيء، وإنما أنا مسرور بك» «فرانتس» هل تستطيع هذه أن تنظر، وهل تستطيع أن تنطق باسم. «لن أَقَرَّ عيناً بعدها بشيء، أنظري، يا ميتسه، هذامضحك للغاية، في الحياة. أمّا ما عندي فيختلف كل الاختلاف عمّا عند الآخرين، وأما هؤلاء فقد استقامت لهم الأمور، فهم يَجْرون هنا وهناك، ويركضون ويكسبون ويتجمّلون، وأنا– أنا لا أستطيع أن أصنع صنيعَ هؤلاء بالطبع. ولابُدَّ لي أن أَنتبه إلى جلدي، وإلى سترتي، ثم إني أفتقر إلى الكمّ والذراع». «يا فرانتس الحبيب، أنت صاحبي فرانتس الطيب» «والآن لا بأس، فانَظري ذات مرة يا ميتسه الصغيرة، المسألة الآن هكذا، وهذا شيء لن أغيّره، ولا يستطيع أحد أن يغيّره، ولكن حين تحملين هذا الآن وتطوفين به، وهو معك، وهو في حكم الموضع المكشوف». ، والآن لا بأس، يا فرانتس الحبيب، ما الذي دهاك فحسب، فأنا مازلت هنا، وما من شك في أن كل شيء جيد منذ عهد بعيد، ولا تبدأنَّ، بربك، بذلك من جديد» «لن أفعل، من أجل ذلك على وجه الخصوص». ويبتسم إليها من أسفلَ، في وجهها، وللفتاة ذلك الوجه الصَبيح البضّ ذو البشرة المشدودة، والعينان الفائقتَيْ الجمال والحركة الطَّلْقة، : «ألا فانظري إلى ماهو منشور على المائدة، الأوراق النقدية، لقد كسبتها، يا ميتسه، وها أنذا أهديها إليك» مالَكِ، ماهذا، أي وجه هذا الذي تصطنعينه، ولماذا، يا تُرى، تنظرين إلى المال هذه النظرة، لا تكوني لاذعة، بربّك، فإنه مال جميل. «أو كَسِبتَه؟» «أجل، أنت ترين، يافتاة، لقد دبَّرته، ولا بُدَّ لي من العمل، وإلاّ فلن تستقيم أموري، وإلاّ هَلَكْت، لا تواصلي هذا الحديث، لقد تمَّ هذا مع بومز ورواينهولد في ليل السبت.

لا تقولي هذا لهربرت، ولا لإيفا. أيتها الآدميّة، حين يسمع هؤلاء شيئاً ما، فأنا لهؤلاء عرّاب» «ومن أين أوتيتهَم؟» «لقد أحدثوا حدثاً، يافأرتي، ألا فقولي، مع بومز، وَيْحَك، ماذا يا تُرى، ميتسه؟ وهذا أهديه إليك. فهل أحصل على قُبلة، هيّا، ما قولك؟»

وتمسك برأسها فوق صدرها، ثم تضع وجنتها على وجنته، وتُقَبّله، وتظل متمسِّكةً به، ولا تقول شيئاً، ولا تنظر إليه: «أهذا تهديه إليّ؟» «أجل، أَيتها الآدمية

وإلى مَنْ عصايَ أهديه سواكِ؟» ولما كانت هذه فتاة فهي تقيم مشهداً مسرحياً. «لماذا – تريد يا تُرى، أن تهديَ إليَّ مالاً؟» والآن يرى فرانتس؟» «وَيْحَكِ، ألا تريدين مالاً». وتحرِّك شفتيها، وتتخلص منه، والآن يرى فرانتس: هذه تبدو مثلما كانت تبدو في تلك الأيام، في ميدان الإسكندر، حين جاءا من آشِنغَر، لسوف تغدو هذه وقحة، تجرِّد المرء من دافعه الداخليّ. وها هي ذي قاعدة على الكرسي، تنظر إلى خِوان المائدة الأزرق، ما هذا الآن، وهل يُقدَّر لإنسان أن يفهم النساء. «أيتها الفتاة، ألا تريدين، يا تُرى، لقد سُرِرْتُ بذلك وطِبْتُ به نفساً، ألا فانظري ذات مرة، هنا نستطيع أن نقوم برحلة، أيتها الآدمية، إلى أين» «هذا حق، يا فرانتس».

ويضع الرأس على حافة المائدة، وهذه تبكي، الفتاة تبكي، ماالذي حدث لهذه؟ ويمرّ فرانتس بيده على قفاها، وهو بالغ المودة والطيب حيالها، طيّب القلب إلى حد بالغ، من أجل مَنْ، من أجل مَنْ، من أجل مَنْ حافظتُ على طُهْر قلبي، من أجل مَنْ، من أجل مَنْ وحده، : «أيتها الفتاة، حبيبتي ميتسه، عندما نستطيع أن نقوم برحلة، ولكن هل تريدين أن ترتحلي معي؟» «أجل أريد» ثم ترفع رأسها، الوجه الصغير، البضّ الحلو، وكل المسحوق، يختلط بالدموع، وتضع ذراعاً حول عنق فرانتس وتضغط وجهها على وجهه، ثم تُرْسِله بعد ذلك، على عجل، وكأنها تعض على شيء ما، ثم تُغوِل باكية من جديد فوق حافة المائدة، ولكنَ الناظر لايرى من ذلك شيئاً، فالفتاة ساكنة لاتبدي حراكاً، ولا يَصدُر عنها شيء. ما الذي ارتكبته يا تُرى، الآن، من خطأ، مرة أخرى، هذه لا نريد أن أعمل. «تعالَيْ، ارفعي، بربّك، هذا الرأس الصغير عالياً، تعالَيْ بربِّك، وارفعي الرأس الصغير، لماذا تبكين يا تُرى؟»: «هلِ تريدين، هل تريدين، وتعتدل هذه في جلستها على جناح السرعة: «هل تريد التخلُّص مني، يا فرانتس؟» «أيتها الفتاة، إرادة الله» «فلماذا تجري إذاً، أفلا أكسب مايكفي بالنسبة إليك، فإني أكسب مايكفي، حقاً» «ميتسه، أنا لا أزيد على أنني أريد أن أهدي إليك شيئاً ما» «كلاّ، أنا لا أريد» وتعود من جديد فتضع رأسها على حافة المائدة القاسية: «وَيْحَك، يا ميتسه، أو لا ينبغي لي، يا تُرى، أن أفعل شيئاً على الإطلاق؟ أنا لا أستطيع أن أعيش بهذه الطريقة». «أنا لا أقول هذا، بل أنت لا تحتاج إلى ذلك من أجل المال فحسب. وأنا لا أريد حيازته».

وتقعد ميتسه قعدةَ منتصبِ الجذع، وتحيط بفرانتس، وتنظر إليه نظرة مفعمة بالافتتان والجذل، نظرة في وجهه، وتثرثر ببعض الهذر الحُلْوِ، مُعْجَلةً، وتتوسل، ثم تتوسَّل: «لا أريد حيازة هذا، لا أريد حيازته» ولماذا لا يقول، إذاً، شيئاً، حين يريد شيئاً ما، ولكن يافتاتي، لديّ المال بلا ريب، ولا أحتاج إليه حقاً. «وهل ينبغي لي أن لا أفعل شيئاً على الإطلاق؟» «أنا أفعل بلا ريب، وإلاّ ففيم كان وجودي هنا، يا فرانتس». : «ولكن أنا، أنا. .». وتعانقه. : «واعجباً لك، لا تهرب مني بعيداً» وتثرثر بكلمات عَجلى وتقبله وتغريه: «تنصَّب ثم تهرب، أعطيها لهربرت، يا فرانتس» وفرانتس سعيد أيّما سعادة مع الفتاة، ، وهنا لا يستطيع أن يصرِّح، فقد كان من قبيل الكلام الفارغ أنه قال لها شيئاً عن بومز، كلا، بالطبع، فإنها لا تفهم من ذلك شيئاً» «أتعدني يا فرانتس بأنك لا تفعل ذلك بعدُ». «أنا أفعل، لا بسبب المال، يا ميتسه» وهنا خطر ببالها ماقالته إيفا لها، وأنَّ عليها أن تنتبه إلى فرانتس.

وهنا يتجلى لها شيء ما في صوت أكثر إشراقاً وسطوعاً، إذاً فهو يفعل ذلك حقاً، لا من أجل المال، وقبل ذلك، هذا المال مع الذراع، إذ لا بُدَّ له أن يفكر في ذراعه دائماً، وتصح المسألة، فما يقوله بالمال لا يُعَوَّل عليه في شيء، فإنه يحصل عليه منها بالطبع، وعلى قدر مايريد، وتفكر ثم تفكر، وتمسك به بين ذراعيها.

أغنية الحب ومتعة الحب

وقد خرجت، حين قبَّلها فرانتس مراراً وبعنف، إلى الشارع، منطلقة إلى إيفا: «لقد جاءني فرانتس بمائتي مارك، أتعرفين من أين؟ مِن هناك، وأنتِ تعرفين بلا ريب». «بومز؟»: «أجل، لقد قال لي، هو ذاته: ماذا ينبغي لي أن أفعل»

وتنادي إيفا هربرت ليدخل، وكان فرانتس في الطريق، يوم السبت، مع بومز. «هل قال: مَنْ أين؟» «كلاّ، ولكن ماذا ينبغي لي الآن أن أفعل؟» ويقول هربرت مندهشاً: «أنظري إلى أحدهم، إنه يشارك هذه مشاركة مباشرة». إيفا: «أَوَ تفهم هذا، ياهربرت؟» «كلاّ، هذا لا يُصدَّق» «وماذا نصنع الآن» «التَّرْك دائماً، أتعتقد،

أن هذا يهمه المال؟ ها أنت ذا تحوز ما أقول، ويُقْدِم هذا بحدَّة، وسرعان مانعرف من هذا شيئاً ما» وتقف إيفا قبالة ميتسه، العاهرة الصغيرة الشاحبة التي التقطتها من شارع الأنفاليد، وتذكِّر كل منهما الأخرى للتو بالمكان الذي التقتا فيه أوَّل مرة، وهو المقصف الواقع إلى جانب فندق بحر البلطيق، وإيفا تقعد فيه مع رجل من أبناء الريف، ولم تكن في حاجة إلى ذلك، غير أنها تحب، على أية حال، الرحلات المتميِّزة، ثم الكثير من الفتيات وثلاثة وأربعة فتيان من الأحداث، وفي الساعة العاشرة تتسكَّع دورية للشرطة الجنائية في المنتصف، ويصعد الحاضرون جميعاً لحراسة خط شتيتِن الحديدي، ولدى الزحف بخطوة الإوز، واللفافات في أشداقهم، منتعشين مثل أوسكار، والمسؤولين الجنائيون يسيرون في المقدمة وفي المؤخرة. وكان في الطليعة، بالطبع، السِكيرة فاندا هو بريش، المتقدمة في السن، بالطبع، في المقدمة، ثم يأتي، في الجهة المقابلة، ذلك المدعو كراكيل وميتسه سونيا التي تُمْسِك عن البكاء عند إيفا، لأن كل الحضور خرجوا في برناوْ، ثم يضرب واحد من رجال الشرطة على يد فاندا السُّكرى ليُسْقِط اللفافة من يدها، ثم ينسحب وحده إلى زنزانة الاعتقال ويغلق بابها بضربة عنيفة، ويطلق شتائمه. ثم إن إيفا وميتسه تنظر كلٌّ منهما إلى الأخرى، أمّا إيفا فتقول بلهجة واخزة: «سوف يترتَّب عليك الآن أن تنتبهي، يا ميتسه» وتقول ميتسه لها بلهجة المتوسِّلة، ماذا ينبغي لي أن أصنع فحسب؟» «هذا صاحبك، وهنا يترتَّب على الإنسان أن يعلم وحده مايترتَّب عليه عمله» «لست أدري بالطبع» «وَيْحَكِ، لاتُعْوِلي فحسب، أيتها الآدمية». ، ويقول هربرت وقد أشرق وجهه: : «أقول لكم، هذا الغلام طيِّب، ويسرني أنه يُقْبل الآن، فإن لديه خطة، وهذا امرؤ ذو مكر وحيلة قد تمرسّ فيهما : «ياألهي، إيفا» «لاتُعْوِلي بربك، لاتُعْوِلي، أيتها الآدمية، فأنا أنتبه» أنت لا تستحقين السيد فرانتس حقاً، كلاّ، أما هذه فلا سبيل إلى كسبها بهذه الطريقة. لماذا تُعْوِل الآن هذه المخلوقة الغبيّة، المغرورة، مع غبائها، سأصفعها صفعة وراء أذنيها.

إنها الأبواق! المعركة على قدم وساق، والكتائب تزحف، ترارا، تراري، ترارا، والمدفعية وسلاح الفرسان، وسلاح الفرسان والمشاة، والمشاة والطائرات،

تراري، ترارا، نحن ندخل بلداً معادياً، قال عنه نابوليون على أثر ذلك: إلى الأمام، إلى الأمام، من دون توقُّف، ففي الأعلى اليابس وفي الأسفل البَلَل، ولكن إذا كان الأسفل قد جف فسنغزو ميلانو وتحصلون على وسام تراري، ترارا، تراري، نحن نسير قُدْماً، وعمّا قريب نكون هناك، آه، يالها من متعة، أن يكون المرء جندياً.

وميتسه لا تحتاج إلى تُعْوِل وقتاً طويلاً، وأن تفكر فيما يترتَّب عليها عمله، فالمسألة تنتهي بنفسها إليها هاهو ذا المدعو راينهولد يقعد في دكانه، يقعد مع صديقته الجميلة، يتجوَّل في المحالّ التجارية التي أعدها بومز للترويج، ومازال يتوافر لديه الوقت لكي يفكر لنفسه في بعض أمره. وذلك أن هذا الرجل لا يكف عن الشعور بالملل، وهذا شيء لايلائمه، ولو أتيح المال لهذا لما لاءَمَه، كما أن السكر لا يصلح له، أمّا ماهو خير له فهو أَنْ يتنقَّل بين المقاصف والحانات، فيصغي ويعمل ويشرب القهوة، والآن يقعد، وحين يأتي إلى بومز أو إلى الجهة التي يقصد إليها، فلديه على الدوام هذا المدعو فرانتس، ماثلاً تلقاء أنفه، هذا الغبّي النؤوم الوقح، ذو الذراع الواحدة، ويخرج فيلهلم البدين بالوخز، ومازال لا يكتفي، وهو يمثل دور المنافق وكأَنَّ الثور ماكان ليستطيع أن يقرب ذبابة. ويُعَدُّ من المستيقَن، مثلما أن مربع الاثنين أربعة، أن هذا يبتغي مني شيئاً ما، وهذا اللئيم يظل مسروراً على الدوام، كما أنه يوجد حيثما أكون أنا وحيثما أعمل، لا بأس، الآن نريد أن نتيح لأنفسنا هنا، ذات مرة، هواءً نتنفّسه، نريد أن نؤمِّن لأنفسنا بعض الهواء.

ولكن ماذا يصنع هذا الرجل، فرانتس؟ الرجل؟ وَيْحَه، وماذا يصنع هذا؟ فاضرب في الأرض، هنا وهناك، فقد أتيحت لك الراحة الأتم والأكمل والهدوء من بين ما يمكن تصوُّره فحسب، وفي وسعك أن تفعل مع الفتى ماتشاء، فإن هذا يقع دائماً على ساقيه، وأمثال هؤلاء الناس لا يوجد منهم الكثير، غير أنهم موجودون.

وفي بوتسدام، هنا، عند بوتسدام، كان يوجد امرؤٌ أطلقوا عليه بعد ذلك اسم الجثة الحيّة، وكان من هذا الطراز الخصوصي الغريب، وكان الفتى الذي كان يقال له بورنيمَن، قد مكن من إنجاز ذلك عندما كانت قد تخاذلت قواه كل التخاذل، وكان قد احتمل عذاب خمسة عشر عاماً في السجن، فكان يتكدَّس، أي أنَّ الرجل

كان يتكدَّس، وماعاد، بالمناسبة، في بوتْسْدام أبداً، بل كان عند أنكْلام، وكان اسم وكْره غوركه. وهنا يصادف صاحبنا بورنيمَن، أثناء نزهته، من نويغارد، مَيْتاً، فيسبح في الماء، في نهر الشبريه، ونويغارد، وهو المولود باسم بورنيمَن، من نويغارد، ويقول: أنا قد مِتُّ في الحقيقة»، فانطلقوا، ودُسّوا لهذا أوراقه، وهو الآن ميِّت، وتقول السيدة بورنمَن: «وماذا ينبغي لي أن أعمل، إذا ماعاد هناك شيء آخر يمكن عمله، فقد مات الرجل، أمّا أنه زوجي، فالحمد لله على أنه هو، فإن رجلاً كهذا ليس بالفقيد. وبماذا يخرج المرء يا تُرى من هذا. ومثل هذا يستقر على شطر من الحياة، وليُغْرِب عن وُجوهِنا الضُّرّر». غير أن زوجي أوتّو الحبيب، أُخغوتّو الحبيب، ليس بالميت على الإطلاق فهو يأتي إلى أنكْلام، ولأنه لاحظ ذلك على وجه الخصوص، والماء شيء جميل، وهو يتمتّع الآن بإيثار للماء، فهنا يغدو تاجر أسماك، ويتاجر بالأسماك في أنكلام، ويقال له فينكه. أمّا بورنيمَن فما عاد له وجود بعد. غير أنهم تلقَّفوه بلا ريب، ولماذا، وكيف، هنا يتمسَّكون بالقعود على كرسيّهم.

أَلَم يكن بُدٌّ لابنة زوجته أن تأتي إلى الجهة المقابلة، إلى أنكلام لتتخذ موقعها، وليتصوَّر المرء فحين يكون العالم بالغ الاتساع تنسحب هذه إلى أنكلام، وتصادف السمكة التي نشأت من جديد والموجودة هنا بعد أن سلخت الآن مائة عام وقد خرجت من نويغعارد، وفي هذه الأثناء ترعرعت مثل هذه الفتاة، وطارت من بينها وديارها، وبالطبع فهو لا يميِّزها على الإطلاق، غير أنها تعرفه، وتقول له: هلاّ قلتَ لي، أنك أبانا بلا ريب؟» فيقول: «ولا بحال من الأحوال، ما من شك في أن طاقتك العقلية ليست على مايرام؟» وحين لا تصدّق ذلك ينادي زوجته، وأولاده الخمسة لفظاً وخَطّاً، فإن في وسع هؤلاء أن يشهدوا: «إنه فينكه، تاجر سمك». أوتّو فينكه، وهذا مايعرفه كل امرئ في القرية ويعرفه الآن كل إنسان، اسمُه الرجل هِرْ فينكه، أما الآخر، الذي مات فاسمه بورنيمَن.

أما هي فلم يفعل من أجلها شيئاً، ولم يثْبُتْ لها بذلك شيء. لقد وَلَّت الفتاة بعيداً، فما الذي يعتمل في نفس أنثوية، إذ لا تكون طاقتها العقلية على مايرام وتكتب

رسالة إلى برلين، موجهة إلى الشرطة الجنائية، القسم ٤ آ: «لقد اشتريت من السيد فينكه مراراً، ولكن لما كنت ابنة زوجته، فإنه لا ينظر إلى نفسه على أنه أبي ويخدع أمي، لأن له خمسة أولاد من امرأة أخرى». أما الأسماء الأولى فيجوز للأولاد أن يحتفظوا بها في النهاية، غير أنهم مخدوعون، ملوَّثون من الخلف، أما أسمهم العائلي فهو هُنْدْت بالدال والتاء، تبعاً لاسم أمهم، وقد أصبحوا، دفعة واحدة، بأسرهم، أولاداً غير شرعيين، تتوافر في صددهم فقرة من القانون المدني: الولد غير الشرعيّ وأبوه لا يُعَدّان متمتعَيْن بصلة القُرْبى.

وعلى شاكلة هذا المدعو فينكه يعد فرانتس بيبركوبف بالنسبة إليهم، مصدر السكينة والوداعة المُثْلَيَيْن. أمّا الزوج فقد داهمه وحش مفترس ذات مرة وقضم له ذراعاً، غير أنه لوى قائمته وضربه ضربة فادحة حتى بات يزفُر البخار وينفث الهواء ويزحف وراءه، وما من أحد ذهب مع فرانتس، باستثناء واحد، يرى كيف ضرب الوحش الضربة الفادحة، حتى بات يزفُر البخار وينفث الهواء ويزحف وراءه، ويسير فرانتس على ساقين مشدودتين للغاية، ويحمل جمجمته الغليظة مستقيمة كل الاستقامة، وعلى الرغم من أنه لم يفعل شيئاً مثلما فعل الآخرون فقد كانت له عينان مشرقتان، غير أن الأول الذي لم يفعل له شيئاً على الإطلاق، يسأل: «ماالذي يريده هذا؟ إنه يريد شيئاً مني». إنه يرى كل ما لا يراه الآخرون ويفهم كل شيء، وكان من المفروض في القفا الحافل بالعضلات عند فرانتس أن لا يفعل من أجله شيئاً في الحقيقة، والساقان المشدودتان، ونو م فرانتس الجيد. غير أن هذه تفعل من أجله، بلا ريب، شيئاً ما، وهو لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي حيال هذا، ولا بُدَّ له أن ينتبه إلى ذلك، كيف؟

مثلما ينفتح باب على أثر هبَّة ريح، ويخرج من القطيع جمع من الماشية، ومثلما تستثير ذبابة أسداً يوجه ضربات مخالبه نحوها وهو يزمجر الزمجرة المروِّعة والزمجرة فوق المروِّعة.

ومثلما يتناول حارس مفتاحاً صغيراً ويحدث هزَّة يسيرة في المزلاج وتستطيع مجموعة من المجرمين أن تندفع خارجة، وإلى هنا يرتحل القتل والضربة القاضية والسطو والسرقة، والسرقة المقترنة بالقتل.

كان راينهولد يروح ويجيء في دكانه، وفي المقصف، عند بوابة بريينتسلاوْ يفكر مليّاً، ويراوح بتفكيره جيئة وذهاباً، وذات يوم يعلم فيه أن فرانتس في صحبة السمكريّ، وهما يدليان بآرائهما في فكرة جديدة يصعد السُلَّم إلى ميتسه.

وهذه تظفر أوَّل مرة برؤية الإنسان، وهنا لا يمكن أن يُرى شيء في الفتى، لقد كانت ميتسه على حق، وهي لا تبدو في حالة سيئة، أما الفتى الحديث السن فمحزون إلى حدٍّ ما، واهِنٌ متخاذل، كما أنه مريض إلى حد ما، يضرب وجهه إلى الصفرة، غير أنه ليس في حالة سيئة.

ولكن فانظري إليه، بربكِ، نظرة دقيقة، وصافحيه بيدك الصغيرة، وتعمَّقي، وافعلي ذلك ذات مرة، في وجهه، هذا وجه، يا ميتسه الصغيرة، هو أهم عندك من كل الوجوه التي توجد فيما عداه، أهم عندك من وجه إيفا، بل أهم حتى من وجه حبيبك فرانتس، وهذا يأتي الآن صاعداً السُلَّم. الخميس، في الثالث من أيلول، أنظري، أنت لا تشعرين بشيء على الإطلاق، ولا تعرفين شيئاً على الإطلاق، ولا تحسين الإحساس الداخليّ بمصيرك.

ماهذا يا تُرى، ميتسه الصغيرة من بِرْناوْ، مصيرك؟ أنت تتمتعين بالصحة والعافية، وتكسبين المال، وتحبين فرانتس، ومن أجل ذلك يصعد السلم قادماً إليك، وأنت تحبين فرانتس، ومن أجل ذلك يأتي صاعداً السلم ويَمْثُل أمامك ويربت على يدك قَدَر فرانتس و– الآن أزف الوقت – قدرُك. أما وجهه فأنت لا تحتاجين إلى أن تنظري فيه نظر المُدَقِّق، بل اليد فحسب، كلتا يديه، اليدان الوديعتان، في الجلد الأشهب.

وكان راينهولد في هوّته الجميلة، وميتسه لا تعرف أوَّلاً كيف ينبغي أن يكون موقفها منه، وهل يمكن أن يكون فرانتس أرسله إليها، أو ربما كان هذا شَرَكاً نصبه فرانتس. ولكن هذا لا يمكن أن يصح. هنالك يقول إن فرانس لا يجوز له على الإطلاق أن يعرف أنه كان في الطابق العلويّ، وهو الذي يتميَّز بإرهاف حسه، وذلك أن المسألة تتعلق بكونه أراد ذات مرة أن يتحدث إليها. وما من شك في أن الأمور لا تستقيم مع فرانتس إلاّ بصعوبة، حيث يعاني هذا، بلا ريب، من الضرر

الذي لحق بالذراع الواحدة، وهل كان يرى في العمل ضرورة ماسّة، وذلك أنهم يهتمّون بذلك جميعاً، وهنا تتسم ميتسه الآن بأنها ماكرة واسعة الحيلة إلى حد مفرط، وهي تعلم ماقال هربرت وماذا يريد فرانتس هنا، ويقول: كلاّ، الكسب حين يكون المُعَوَّل عليه، ولم يكن يرى أنَّ هناك ضرورة ماسَّة، وهنا يوجد أناس يكونون ذوي عَوْنٍ له. ولكن ربما كان هذا لا يكفيه، ومن شأن الرجل أن تنازعه نفسه إلى العمل. ويقول راينهولد: هذا صحيح جداً، وأن يُقْدِم عليه ينبغي له أن يكون قويّاً، إلاّ أن ماتفعله صعب، وذلك أنه ليس بالعمل المألوف، وهذا شيء لا يقدر على أدائه الناس جميعاً وهم الذين يتمتعون بذراعَيْن. ومهما يكن من أمر فالحديث يدور جيئة وذهاباً، وميتسه لا تعرف حق المعرفة ما الذي يقصد إليه، هنالك يفصح راينهولد، ويلتمس أن يُصَبَّ له قدح من الكونياك: ولم يكن يريد سوى أن يستفسر عن الأحوال المالية، وإذا كان الحال كذلك فسوف يحسَبون، جميعاً، حساباً للزملاء، وهذا أمر مفهوم، ثم يشرب قدحاً آخر من الكونياك. هنالك يسأل: «أتُراكِ تعرفينني في الحقيقة، ياآنسة؟ ألم يحدثك بشيء عني بعد؟» وتقول هذه: «كلاّ»، وماذا يريد حضرة السيد الآن، فحسب ألا ليت المدعوَّة إيفا كانت حاضرة، فإنها أفضل فهماً في مضمار هذه الأحاديث، مني. «إننا يعرف كلٌّ منا صاحبه منذ عهد بعيد، أنا وفرانتس، ولم يكن قد نالها بعدُ، وكان مايزال هناك أُخْرَيات، منهن سيللي».

وربما كان يزمع الخروج بعد ذلك، وهو يريد أن يفسِدَه عليّ، فهذا رجل ذو كُمّ: «ويحك، ولماذا يُفْتَرَض أن لا يكون هذا نال أُخْريات. لقد نلت أنا رجلاً آخر، ومن أجل ذلك يظل رجلي أبداً».

ويقعدان بكل هدوء، وجهاً لوجه، ميتسه على الكرسيّ، وراينهولد على الأريكة، ويتخذان لنفسَيْهما جلسة مريحة: «كلاّ، ما من شك في أنه لَكِ، ولكن يا آنسة، ما من شك في أنك لا تعتقدين أنني أريد أن أغلق الباب دون ذلك الذي يريد أن يتحكَّم فيَّ. لقد كانت هذه مجرد أمور مضحكة، عَرَضَت له كما عَرَضت لي، أَلَم يحدثكِ عن ذلك؟» «مضحكة، وما هي إذاً؟» «لقد كانت هذه أموراً مضحكة للغاية، أيتها الآنسة، ويجب عليّ أن أفصح لك عن شيء ما. بصريح العبارة:

هذا الرجل، المدعو فرانتس، حين يكون معنا في الطابور، يكون ذلك، لحسابي، ولأسباب تتصل بي، وبسبب الأقاصيص. ذلك لأننا كنا، نحن الاثنين، يمتّ كلّ منا إلى صاحبه بصلة وثيقة، حيثما استقام ذلك وكان ملائماً. وهنا سيكون في وسعي أن أرويَ لكم أكثر الأمور إثارة للضحك». «إذاً، لا بأس، ولكن أليس لديك عمل، بحيث تستطيع أن تقعد هنا وتروي الحكايات؟». «ياآنستي، حتى الرب العليّ يتخذ لنفسه في بعض الأحيان يوم عطلة، وهنا يترتَّب علينا، معشر البشر أن نتخذ لأنفسنا، بلا ريب، يومَيْ عطلة»، «لا بأس، أنا أصدِّق، وما من شك في أنك تتخذ لنفسك ثلاثة أيام» ويضحكان، كلاهما. «هنا لن تجانبي الصواب، أمّا أنا فأوفِّر طاقتي وأدَّخرها، فالكسل يطيل أمد الحياة، وفي أي مكان آخر ينفق المرء بعد ذلك، من جديد، قَدْراً من الطاقة مفرطاً في ضخامته». هنالك تبتسم إليه، قائلة: : «عند ذلك يترتَّب على المرء أن يكون مقتصداً» «أنتِ تعلمين، أيتها الآنسة. فالواحد من هؤلاء البشر يتخذ هذه الصورة بطاقته، والآخر يتخذ سواها، وإذاً فأنتِ تعرفين يا آنستي وأنا أعرف، أننا كنا نتبادل النساء على الدوام. فما قولك الآن؟» ويضع رأسه على جانبه وأصابعه تعبث بقدحه، وهو ينتظر ماستقوله المرأة الصغيرة. أما إن المرأة التي سنراها عمّا قريب لهي امرأة جميلة، فأنّى لي أن أقرص هذه في ساقها.

«هذا مايترتَّب عليك أن تَقُصَّه على جدتك، فيما يتعلَّق بالنساء، وهذا ما حدثني به أحدهم ذات مرة، وهذا مايفعلونه في روسيا، وما من شك في أنهم ينتمون إلى هناك، أما عندنا فلا وجود لهذا» «ولكن حين أصرح له بذلك» «عند ذلك يظل ذلك على الدوام لغواً من القول». «عند ذلك يستطيع فرانتس أن يقول لك ذلك» «لا بُدَّ أن هاته النسوة كن نساءً جميلات، لقاء خمسين قرشاً، شيئاً من الملاذ أو المأوى، أليس كذلك؟» «والآن فضعي نهاية لهذا، أيتها الآنسة، فنحن لا نبدو بهذه الصورة» «ألا فَقُلْ لي، فيمَ هذرُك بهذا الكلام الفارغ معي في الحقيقة؟» وأية مقاصد ونوايا تتابعها بذلك لديّ؟»: «فلينظر المرء إلى المرأة المشاكسة، ولكنها لطيفة تلك التي تتعلق بالرجل، وإنها لجميلة. «كلاّ، ياآنستي، أية مقاصد، الآن، أنا أريد أن أستعلم بعض الأمور «المرأة المشاكسة الحلوة، بانكوف، بانكوف، كيلّه، كيلّه، هوبْساسّا» لقد

كلفني بومز بذلك تكليفاً مباشراً، لا بأس، الآن سأودّعك، ألا تدخلين ذات مرة في اتحادنا؟» «إذا كنت تقص هناك على الدوام أمثال هذه الحكايات» «هذا شيء ليس بالسيء، ياآنسة، لقد حُسِبْتُ أنك تعرفين من قبلُ كل شيء.

فليكن إذاً بعدُ شيء يتصل بالتجارة والأعمال. لقد قال السيد بومز إنني حين أصعد إليكم، وأنت تسألين عن المال ونحوه، حيث يكون فرانتس بالغ الحساسية بسبب ذراعه، إنك لن تتابعي التصريح عندئذ. والسيد فرانتس ليس في حاجة إلى أن يعرف ذلك. أمّا أنا فسأكون خليقاً أن أتمكّن من الاستفسار عن ذلك في البيت، فيما بعد، إلاّ أنني كنتُ أقول في نفسي، لماذا تكون هذه السرّية وهذا التكتُّم. إنهم يقعدون في الطابق العلوي، لأنني كنت أوثر أن أذهب بطريقة مكشوفة ومباشرة، صاعداً إليهم وأسأل» «أيُفْتَرَض فيَّ أن لا أقول له؟» «كلاّ، الأفضل أن لا أفعل. ثم إنك إذا كنتَ تريد ذلك على وجه الإطلاق فليس في وسعنا أن نفعل شيئاً ضد هذا، كما تريد، لا بأس، إلى اللقاء». «كلاّ، المخرج عن اليمين» امرأة جميلة، والمسألة مآلها إلى التسوية، أنتَ، أنتَ، أنت.

هنالك لم تَرَ ميتسه الصغيرة في الحجرة، على المائدة شيئاً ولم تلاحظ شيئاً، ولا تفكر إلاّ في كيف ترى بها قدح الخمر منتصباً هنا — اجل، في ماذا تفكر، لقد فكّرت لتوّها في شيء ما، والآن تُبْعِد القدح، ولا تعلم شيئاً. وإني لمغيظة محنقة غايةَ الغيظ والحَنَق، إذ أثار هذا الرجل سخطي وحنقي أيّما إثارة، وبعث رِعْدة الخوف في كل أوْصالي وأعضائي، ويروي أحدهم حكاية. إذا أراد المرء، مجردَ إرادة، فماذا أراد هذا، وإذا نظر إلى القدح الذي يوجد في الخزانة، فذلك هو الأخير عن اليمين، كل شيء فيَّ يرتعد رِعدة الخوف، فَلأرقد ذات مرة، كلاّ، لا على الأريكة، حيث تمدَّد هذا، بل على الكرسيّ، ويقعد على الكرسيّ، ويَنْظرُ إلى الأريكة حيث كان هذا قد قعد، لقد كان مغيظاً مُحْنقاً، أيّما غيظ وحنق، فما هو هذا فحسب. كلا الذراعين، وفي الصدر، وكل شيء في جسد المرء يرتعد، وما من شك في أن فرانتس ليس مثل هذا الكلب الخنزيري بحيث يتبادلون النساء. أما الفتى، المَدْعو

راينهولد فأصدّقه في هذا، ولكن لا أصدق على الإطلاق فرانتس، الذي حملوه في كل مكان على لَعِب دور الغبي، إذا كان مايقال حقاً على وجه الإطلاق.

وكانت تلوك أظفارها، إذا كان هذا حقاً، ولكن فرانتس، هذا غبيٌّ إلى حدّ ما، فهو يدع الآخرين يستخدمونه لكل شيء، ومن أجل ذلك قذفوا به من السيارة، وهؤلاء هم إخوانه، وفي مثل هذا الاتحاد يدخل.

وتلوك وتلوك أظفارها، أتقول ذلك لإيفا؟ لست أدري، أتقوله لفرانتس؟ لست أدري، لن أقوله لأحد على الإطلاق، لم يكن ثمة أحد على الإطلاق هنا.

وينتابها الخجل، وتضع يديها على المائدة وتعض على سبّابتها، ولا يجدي ذلك، وتشعر بالحرقة في العنق، وفيما بعد يفعلون هذا معي على النحو ذاته، وهذه تبيعني كذلك.

وثمة أُرْغُن صغير متنقِّل، ينطلق مرسلاً إيقاعاته في الفِناء. لقد فقدت قلبي في هايدِلْبِرغ. وأنا فقدته، فقدت قلبي وبات الآن ضائعاً إلى غير رجعة، وتجهش بالبكاء فوق حِضنها، لقد أدبر هذا وولّى، وماعاد لي بعدُ قلب، وفي وسعي أنَ أرى ماذا أصنع، وحين يجتذبونني عن طريق كالكاو، لا أستطيع أن أفعل ذلك، ولكن هنا شيء لا يفعله صاحبي فرانتس، فهو ليس بالروسيّ فيتبادل النساء، إنما هذا كله لَغْوٌ وهراء.

وتقف عند النافذة المفتوحة، في ثوب نوم مخطط بالمربعات الزُّرْق، تغني مع حامل الأرغن.

لقد فقدت قلبي في هايدلبرغ «وهذه صحبة زائفة، وهو على حق إذ يطردهم بالتدخين»

وفي ليلة صيف فاترة ثقيلة على الصدور «متى يأتي إلى البيت، يا ترى. ها أنذا ذاهبة ألاقيه على السُلَّم». وكنت مغرمة متيَّمة، غارقة في الحب حتى أذنيّ: «ولا أقول له كلمة، فإني لن أخرج بسلام مع أمثال هذه الألوان من اللؤم وسوء الطوية. لا كلام، لا كلام. إني لأحبُّه أيّما حب. وَيْحي، هذا قميصي الخارجي، سأُسْدِله

على جسدي»، وضحك فمها فكان كالوردة، وحين وَدّع كل منّا صاحبه أمام الباب الخارجيّ، مع القبلة الأخيرة تبيَّن لي بوضوح «وإنما يَصح مايقول هربرت وإيفا: هذان يلاحظان الآن شيئاً ما، أما عندي فلا يريدان سوى أن يسمعا ليَرَيا أتستقيم الأمور، وهنا يستطيعان أن يصيخا السمع زمناً طويلاً، ويضطران إلى البحث عن شخصية غبيّة»، وأني فقدت قلبي في هايدلبِرْغ، قلبي، إنه ينبض على شاطئ نهر النيكَر.

توقعات المحصول المتألقة
ولكن من الممكن وقوع الخطأ

يضرب في الأرض هنا وهناك، يضرب في الأرض، في كل مسالكها، في الأرض دائماً، وهو بالنسبة إليهم الهدوءُ الأكمل والوَداعة المثلى. أما الفتى الحديث السن فتستطيع أن تصنع به ما تشاء، فإنه يسقط دائماً على قدميه، ويعطي أمثال هؤلاء البشر. وقد كان هناك واحد، وفي غروكه عند أنكلام، وكان يدعى بورنيمَنْ، يؤتى به من السجن، ويأتي إلى نهر الشبريه، وهنا يسبح أمروٌ ما في الماء.

فَلْنَتَزَلق ذات مرة معا، يا فرانتس، وكيف تسير الأمور بالنسبة إلى هذا، وما اسمُ هذه في الحقيقة، عرسك؟» «إنها ميتسه، وأنت تعرف ذلك بلا ريب، يا راينهولد، وكان اسمها فيما مضى سونيا». «هكذا، وأنت لا تُبْرزها، بلا ريب، والموضوع بالنسبة إلينا مفرط في الدقة» «ياللعجب، ليس عندي من يتولى تدبير المنزل، فأضطرّ إلى الكشف عن هذه. ما من شك في أن هذه تعدو في الشارع، ولها وَليٌ نعمتها، وتكسب مالاً لايستهان به» «ليس من شأنها أن تكشف مجرد كشف» «ماذا يعني الكشف هنا، يا راينهولد» «يترتَّب على الفتاة أن تفعل». «في وسعك أن تأتيَ بها معك، بلا ريب، ويفترَض أن تكون جميلة» «ينبغي أن تكون جميلة» «وَدِدْتُ لو تراها ذات مرة، أَوَ لا تودّ ذلك؟» «وَيْحك، أنت تعرف يا راينهولد. لقد مارسنا من قبل أعمالاً تجارية، وهذه معروفة لديك، عن طريق الأحذية ذوات الساق والياقات المصنوعة من الفراء». «وهذا شيء يفترض أنه ماعاد خطيئة» «كلاّ، ماعاد كذلك،

وماعاد من الممكن الظفر بي لصالح مثل هذه الخَنْزَرة» «هذا شيء مستحسن، أيها الآدمي، وأنا لم أَزِدْ على أن سألتُكَ سؤالاً». «الكلب، مازالت هذه خَنْزَرة، ومازال يتحدث أبداً عن الخنزرة. انتظر فحسب، أيها الغلام».

وإذاً فحين جاء المدعو بورنيمن إلى الماء، سبحت في الماء جثة حديثة العهد، وكان يكمن في هامة بورنيمن، هنا بصيص ضوء، وسحب من جيبه كل أوراقه وأعطاه إياها، وأعطاها إيّاها والحق أنَّ هذا قد سبق سرده، ومع ذلك فهو الآن كسب للذاكرة، ثم شَدّ وِثاق الجثة إلى شجرة، وقد كانت خليقة أن تعوم خارجة من هنا، ولو خرجت لما عثر عليها القوم. وعلى أثر ذلك انطلق بالخط الحديدي الضيق، ومن أقرب طريق وأسْرَعه، إلى شتيتين، وأخذ تذكرة سفر، وحين يصل إلى برلين، تهتف من داخل أحد المقاصف والدة بورنيمَنْ قائلة إنه ينبغي لها أن تأتي على عجل، وإن ثمة امروٌ هنا، وتأتيه ببعض المال والثياب، وهمس لها بشيء ما، ثم لم يكن له بُدٌّ أن يفارقها، ويا للأسف. ووعدت بأن تتبيّن هُويّة الجثة، وقال لها إنه سيبعث إليها ببعض المال حين يتوافر لديه شيء منه، غير أنه يعاني من مرض، ثم لم يكن له بُدٌّ أن يرتحل على عجل، وإلاّ عثر على الجثة امروٌ آخر.

«هذا ما أردت أن أعرفه فحسب، يا فرانتس، ما من شك في أنك تحبُّها حبّاً جماً» «والآن فلنُمْسك عن الفتاة وعن اللغو»، وكل مافي الأمر أنني استعلم، وما من شك في أن هذا لن يجعلك في حاجة إلى ماتأكله، على الأقل» «كلاّ، لن يجعلني في حاجة إلى مآكله، يا راينهولد، إلاّ عندك فحسب، فأنت، بلا ريب، ذلك الأفّاق الشريد» ويضحك فرانتس، والآخر كذلك. «وكيف تسير الأمور يا تُرى مع صغيرتك، يا فرانتس، أفلا تستطيع أن تكشف لي عن ذلك ذات مرة، حقاً؟» «ألا ترى أيَّ نوع من أقداح الخلط الصغيرة أنت، يا راينهولد، «لقد قذفت بي من السيارة، ولكن الآن تأتيني». ماذا تريد، يا راينهولد؟» لا أريد شيئاً على الإطلاق، بل أريد أن أراها» «هل تريد أن ترى اذا كانت تحبني؟ وأقول لك إن هذه هي قلب من رأسها إلى أخمص قدمَيْها، قلب لي، الفتاة. وهي التي لا تعرف إلاّ أن تحب وأن تهوى، ولا شيء بعد ذلك، أتُراك تعلم يا راينهولد إلى أي مدى يصل جنون

هذه. ولا تستطيع أن تكوّن لنفسك مفهوماً عن ذلك، على الإطلاق. أتُراك تعرف تلك المدعوَّة إيفا؟». لا بأس، أيها الآدميّ» «ألا ترى، ومن هذه تريد تلك المدعوّة ميتسه... وَيْحَك، ما أنا بقائلٍ لك شيئاً» «ما الذي حدث، لا بأس، ما الذي حدث، ألا فلتقُل لي، هذا شيء لا سبيل إلى تصوُّره، ولكن هذا شأنها، هذا ما لم تسمع به بعدُ أبداً، يا راينهولد، كما أنّ هذا لم يَرِد بعدُ في مجمل عملي وتجارتي» «ماعلينا، ما الذي يحدث، لإيفا؟»

«أجل، ولكنك تحافظ على الالتصاق الدائم، أيْ أنَّ هذه تريد، الفتاة، ميتسه والمدعوَّة إيفا يُفْتَرَض أن يكون لها طفل منه».

ثُمْ. ويقعد كلاهما، وينظران، كلٌّ منهما إلى الآخر، ويضرب فرانتس بيده على فخذه. وينفجر بالكلام أمّا راينهولد فيبتسم، يأخذ في الابتسام، ويظل ساكتاً.

ثم إن الفتى بات يُسمىّ، بناءً على ذلك، فينكه، ويذهب إلى غوركه، ويصبح تاجر أسماك. وهو الذي تأتي ذات نهار جميل، ابنة زوجته، ومكان إقامتها في أنكلام، وتريد شراء سمك، وتذهب والشبكة في يدها، إلى فينكه وتفصح عما تريد.

ويبتسم راينهولد، يأخذ في الابتسام، ويظل مختبئاً: «ربما كانت هذه سحاقيّة؟ ويصفِق فرانتس من جديد بساقيه ويقهقه: «كلاّ، فهذه تحبني». هذا شيء لا أستطيع تصوُّره» «ليس مما يمكن تصديقه وجود شيء كهذا، والغبيّ المغفل يحوز هذا. ثم ابتسم». «وماذا تقول في ذلك المدعوة إيفا؟» «إنهما متصادقتان، الاثنتان، وأنت تعرفهما فيما سلف، وأعرف بالطبع المدعوَّة ميتسه عن طريق إيفا. والآن قد جعلت هذه الحياة في نظري لذيذة مستساغة، يا فرانتس. والآن فَقُلْ لي، ألا أستطيع أن أرى ميتسه، على مسافة عشرين متراً، من ناحية من خلال سور، إذا كان يتولاّك الفزع» «أيها الآدمي، أنا لست بالخائف على الإطلاق! فإن هذه ذات معدِن طيّب كالذهب، وإنها لحلوة، وهذا شيء لا تستطيع أن تتصوّره على الإطلاق، فأنت تعلم بلا ريب أنني قلت لك في تلك الأيام إنّ عليك أن تكف عن اتخاذ الكثير من

الفتيات فهذا يُدَمِّر الصحة، إذ إن ذلك لا تطيقه أفضل الأعصاب، ويخرج المرء من ذلك بالسكتة الدماغيّة. وهنا يترتَّب عليك أن تستجمع قواك، ولو فعلت لكان ذلك خيراً لك، والآن ينبغي لك أن ترى فعلاً كيف أنني على حقّ، يا راينهولد، وسأريها لك ذات مرة» «ولكن أيُفْتَرض أن لا تراني؟» «ولِمَ لا؟».

«كلاّ، أنا لا أودُّ هذا، أنت تعرضها لي هكذا» «فلنفعل، أيها الآدميّ. فإني أشعر بالسرور، وسوف يُحَسِّن هذا حالتك».

ثم تكون الساعة الثالثة بعد الظهر، ويسير في الشوارع فرانتس وراء راينهولد، دروع ومَجَنّات من الميناء، من كل نوع، وسلع مصنوعة من الميناء، ألمانية، وسجاجيد فارسية أصلية، بأقساط على مدى اثني عشر شهراً، وأقمشة للعدّائين، وأغطية للموائد والأرائك وأَلْحِفة وستائر، من ستوريس لايسنر وشركائه، اقرأ الأزياء، لك، وإذا لم تفعل، فاطلب، عن طريق البريد، التوزيع المجاني. انتبه، خطر الموت، توتّر عالٍ. ويدخلان منزل فرانتس، الان تدخل منزلي، أحوالي على مايرام، ولا يمكن لشيء أن يقترب مني، وهذا شيء ينبغي لك أن تراه مثلما أنني أقف هنا، اسمي فرانتس بيبركوبف.

«والآن يسيران بصوت خفيض، وأفتح الباب المُقْفَل لأرى أهي موجودة كلاّ، هنا أسكن أنا، ولكن لابُدَّ أن تأتي على الفور، والآن، فانتبه لترى كيف ننجز ذلك، هذا هو المسرح البحت، ولكن على أن لا تثور ولا تحتجّ «أنا الذي أضبط نفسي وأُلْجِمها» «أفضل ما تفعله هو أن ترقد هنا في السرير، يا راينهولد، فإن هذا السرير لا يُستَعمَل في النهار، وأنا أنتبه لكيلا تقترب، ثم تنظر إلى أعلى من خلال حجاب الغاز، فارقد، يا رجل، هنا، هل تستطيع أن ترى؟» «أما الرؤية فنعم، ولكن لا بُدَّ لي من أن أخلع حذائي بساقيه الطويلتين» «هذا أفضل، وانتبه، سوف أضع لك هذه في الدهليز، وبعد ذلك، وإذا لم يحدث خلل في وجهة السير، فسوف تأخذك وحدك». «أيها الآدمي، يا فرانتس، وإذا سارت الأمور سيْراً غير مستقيم» «أأنتَ خائف؟»: «أوَ تعرف، أنا لا أعاني، حتى من الخوف، إذا لاحظت شيئاً، كلا، ينبغي لك أن تعرفها» «كلاّ، بل ينبغي أن لا تلاحظني، «هلاّ رقدتَ يا رجل فإن من الممكن أن تأتي في كل لحظة.

الدروع ذوات الميناء، والسلع ذوات الميناء، من كل نوع، والسجاجيد الفارسية الألمانية، والفارسية الأصلية حقاً، ، وسجاجيد الفرس، أطلب التوزيع اليومي المجاني.

هنالك قال، في شتيتين، المأمور الجنائي، بلوم: «من أين، إذاً، تعرف الرجل؟ ومن خلال أية سمة ظفرت به، ولماذا، لا بُدَّ أنك عرفته عن طريق علامة ما؟» «إنه زوج والدتي، بلا ريب» «إذاً فلنرتحل ذات مرة إلى غوركه، فإذا كان هذا صحيحاً، أخذناه معنا على الفور».

وكان أحدهم يتولى الإغلاق عند باب المسكن، وكان فرانتس في دهليز المسكن «ماذا، أتُراكِ تشعرين بالفزع، يا ميتسه؟ لا عليكِ من بأس، ياصغيرتي، فها أنَذا، هيّا أدخلي، ما من أحد يرقد على السرير. هنا أعمل مفاجأة لك، في الداخل» «هنا أنظري على الفور، متحرّية» «قفي، واقسِمي أوّلاً! يا ميتسه، ارفعي يدك، وأقْسِمي، وليقف كلُ مَنْ هنا، وعليكم بالترديد من بعدي: «أُقسم» «أقسم» «أنني لن أذهب إلى السرير» «أنني لن أذهب إلى السرير» «إلى أن أقول» «إلى أن أَعْدُوَ منطلقة» «هنا ستمكثين، وأقسمي مرة أخرى: أقْسِمِ» «أقْسِمِ. أنني لن أذهب إلى السرير» «إلى أن أرْقِدك أنتَ فيه».

وإذا هي تلوح عليها علائم الجد، فتتعلق بعنقه، وتظل كذلك زمناً طويلاً، وهو يلاحظ أنّه قد انتابها شيء ما ويهمّ أن يدفع بها نحو الباب ويخرجها إلى الدهليز، فالمسألة لا تستقيم اليوم، غير أنها تظل واقفة: «لن أذهب إلى السرير، فَدَعْني». «وماذا دها حبيبتي ميتسكه، قطتي.

وتندفع نحو الأريكة، وهنا يقعدان، أحدهما إلى جانب الآخر، متعانقَيْن، وهي لا تقول شيئاً، ثم تغمغم من أسفل، وتشدّ ربطة عنقه، ثم تنطلق عجلة المسألة: «يا فرانتس، ياحبيبي، هل أستطيع أن أقول لك شيئاً؟» «تستطيعين هذا بالطبع، عزيزتي ميتسه» «لقد ألَمّت بصاحبي الشيخ مُلِمّة» «ماذا، ياحبيبتي» «هنا» «والآن ماهذا، يا تُرى، ياحبيبتي؟» تعمل في ربطة العنق، مايتوافر لدى الفتاة يترتب أن يوجد بين يديها اليوم على وجه الخصوص.

ويقول المأمور الجنائي: «لماذا يسمونك إذاً فينكه؟ ألديك أوراق؟» «لا بأس عليك؟ فلن تحتاج هنا إلاّ إلى الانتقال إلى دائرة الأحوال المدنية، وهذا لا يعنينا» «والأوراق لديّ» «جميل، وهؤلاء ننظر إليهم نظرة الجد، وفي الخارج يوجد بعدُ موظف من نويغارد، يوجد في جناحه رجل يقال له بورنيمَنْ من نويغادر، فهل تريد أن نَدَع هذا يدخل».

«يا فرانتس، لقد كان الشيخ في المرات الأخيرة يحتفظ هنا، على الدوام بابن أخيه، أيْ بذلك الذي لم يَدْعُه على الإطلاق، وإنما أتى من دون دعوة فحسب» ويغمغم قائلاً وقد انتابته برودة: «قد فهمت هذا» ولا تفصل وجهها عن وجهه: «أتعرفه، يا فرانتس؟» «وأنّى لي أن أعرفه، يا تُرى؟» «لقد كنت أحسَب ذلك. وعلى كل حال فقد كان هذا حاضراً على الدوام، ثم جاء ذات مرة مُرافقاً». ويرتعد فرانتس وتسودّ الدنيا أمام عينيه. «لماذا لم تقل لي أذاً، أيها الآدميّ؟»: «لقد كنت أحسَب أنني سأتخلّص منه، ولماذا يا تُرى، حين لا يزيد المرء على أن يعدُوَ هكذا، إلى جانبه» «لا بأس، والآن . . ». وتزداد قوة اختلاج الفم عند رقبته ثم يغدو الموضع هنا على جانب من البلل. لقد تشبّثت كل التشبُّث بفرانتس، والفتاة تتمسَّك بي تمسُّكاً مُحْكَماً، وذلك شأن أسلوبها العنيد، الذي لا يُفصِح عن شيء، والذي لا تفهمه أية جيفة، ولماذا تُعوِل هذه فحسب، والآن يرقد هذا هنا. ألا إن أحبَّ الأمور إليّ أن أتناول عصا وأهوي بها على السرير بحيث لا يعود هذا قادراً على الوقوف، هذه المِعزى اللعينة، التي تلومني بهذا الأسلوب. غير أنه يرتعد. «ماذا جرى الآن، يا تُرى؟» «لا شيء، يا فرانتس، لا تُحَمِّل نفسك همّاً بربّك، ولا تفعل من أجلي شيئاً فحسب، إذ لم يكن ذلك شيئاً على الإطلاق، وها هو ذا قد أقبل مع سواه من جديد، ولبث يتربَّص وينتظر طوال فترة الصباح، إلى أن أنحدر من لَدُنِ الشيخ، ثم ينتصب قائماً هنا، وأضطر أنا إلى الرحيل معه، وأضْطَرُّ وأُضْطَرّ» «وأنتَ بالطبع، مضطرٌّ بالطبع» أنا، أنا مضطر، فماذا ينبغي لي أن أصنع؟ يا فرانتس، عندما يضيق امروٌّ الخناق على سواه بهذه الطريقة. ويكون على هذا النحو إنساناً حديث السن، ثم .» . أين كنتَ إذاً؟» قبل ذلك كنت أتجوَّل في برلين على الدوام، غرونيفالد، وأنا

وحدي لا أعرف، ثم ذهبت، وأنا أرجوه على الدوام أن يذهب، بحق السماء، وهو يبكي ويتوسَّل، مثل طفل، ويسقط بين يديّ وهو إنسان حديث السن إلى حد بعيد، وصانع أقفال». «لا بأس، عند ذلك ينبغي له أن يعمل حقاً، هذا الفتى الكسول، بدلاً من أن يروح ويغدو، هنا وهناك» لست أدري، ليس فرانتس بالمستاء».

أنا مازلت لا أعرف أبداً ما الذي حدث، ولماذا تبكين يا تُرى، أيتها الآدمية؟» هنالك لا تقول شيئاً، من جديد، بل لا تزيد على أن تضغط بجسدها عليه، وتعبث بربطة عنقه. «لا تكن مستاءً، يا فرانتس» «أأنتِ مغرمة بالفتى، يا ميتسه؟» ولا تقول شيئاً. ما أكثر ما كان يتولاّه من الخوف، وما أشد البرد الذي يعاني منه حتى في قدميه، ويهمس إليها في شعرها، قائلاً إنه ماعاد يعرف عن راينهولد شيئاً، «أأنتِ مغرمة بالرجل، وهي تتعرَّض لعناقه، جسداً إلى جسد، معه، ويحس بها كاملة، ويتناهي إليه من فمها: «أجل» آه، آه، لقد سمعها، أجل، إنه يريد أن يرسلها أمّا أنا فينبغي لي أن أضرب، إيدا، البريسلاويّة، والآن يتفق هذا، إذ تغدو ذراعه مشلولة، فهو مشلول، غير أنها تمسك به إمساكاً محكماً، مثل حيوان، ماذا تبتغي هذه، إنها لا تقول شيئاً، ولكنها تمسك به إمساكاً مُحْكَماً، وتجعل وجهها على عنقه، فلينظر وهو متحجّر، من ورائها، إلى النافذة.

وفرانتس يهزُّها، ويزمجر قائلاً: «ماذا تعرفين؟ دعيني الآن، أخيراً، وأطلقي سَراحي. ماذا ينبغي لي أن أصنع بهذه القصة المنفوشة. «ها أنذا، يا فرانتس، أنا مازلت هنا: «هلاّ هربتِ، بربك، فإني لا أريدكِ على الإطلاق»: «ألا لا تزمجرَنَّ، يا إلهي، ماذا صنعت» «فاهرُعي، بربك، إلى هذا إذا كنتِ تحبينه» «أنا لست جيفة، فكن منصفاً بربك، يا فرانتس، لقد سبق أن قلت له، إن هذا لا يستقيم، وأنا أنتمي إليك» «أنا لا أريدك على الإطلاق، وعلى هذا فأنا لا أريد واحدة كهذه» لقد قلت له إنني أنتمي إليك، ثم إنني ابتعدت، نائيةً بنفسي، وينبغي لك أن تواسيني» «أيتها الآدمية، ما من شك في أنك مجنونة، هلاّ أرسلتِني! أنتِ مجنونة لأنك مغرمة بهذا، وهل ينبغي لي بعدُ أن أواسيكِ» «أجل، هذا ماينبغي لكَ يا فرانتس، فما من شك في أنني صاحبتك ميتسه، وأنتَ تحبني، وعندئذ تستطيع أن تواسيني، ياللعجب،

الآن يروح هذا ويغدو، هذا الحديث السن و. . ». «كلاّ، والآن فسجّلي نقطة، يا ميتسه! يجب عليكِ أن تذهبي إلى هذا، وجيئي به» هنالك تزعق ميتسه، ولا يستطيع أن يخلّص نفسه من إسارها: «أجل ستذهبين إلى هناك، وتَدَعيني» «كلاّ، ما كنت لأفعل هذا، أفلا تحبني، أفلا تهواني، فما الذي صنعتُ». .

هنالك يصيب فرانتس نجاحاً في تخليص ذراعه، وتخليص نفسه، فتركض وراءه، وفي هذه اللحظة ينفَتِل فرانتس نحوها فيضربها على وجهها، بحيث ترجع إلى الوراء وهي تترنَّح، ثم يصدم نفسه بكتفها فتسقط، ويَنقَضُّ عليها، فيضربها بيده الواحدة حيثما تصل يده، فتبكي مستعطفة، وتتلوّى، آه، آه، إنه يضرب، إنه يضرب، وكانت قد ألقت بنفسها على بطنها ووجهها، وحين يُمْسك عن هذا، ويستريح وهو يلهث، يشعر بان الغرفة تدور به، فتلتفت نحوه وتستفيق، قائلة، لا تضرب ياحبيبي فرانتس، فهذا يكفي، لا تضرب بالعصا».

هنالك تقعد بقميص خارجيّ ممزَّق، وإحدى عينيها مغمضة، والدم ينزف من أنفها، وقد تلطّخت بالأوساخ وجنتها وذقنها.

ولكن فرانتس بيبركوبف– بيبركوبف، ليبركوبف، تسيبركوبف، إذ ليس لهذا من اسم– تدور به الغرفة، والأَسِرّة قائمة هنا، فهو يستند إلى أحد الأَسِرّة متشبثاً به، وكان يرقد تحت هذا، راينهولد، الفتى الذي يرقد هنا بحذائه ذي الساقين، ويلطِّخ سرِيراً بالأوساخ. ماذا يبتغي هذا السيد هنا؟ فما من شك في أن له حجرته، ولسوف أُخرج هذا ونضعه في العراء، ولنجعل من الحرفين m . w مع حرف m حرف حرفَ w رخيماً رقيقاً. وإذا فرانس بيبركوبف، وتسيبركوبف ونيبركوبف وفيديهوبف يقفز إلى السرير ويلامس ذلك الرجل من خلال اللحاف عند رأسه فيتحرَّك، ويرتفع اللحاف، ويجلس راينهولد من رقدته.

فَاخرجْ من هنا يا راينهولد، اخرج، أنت إلى هذه، ثم فلتخرج، ولْتُغرِب عن وجهي» وإذا فم ميتسه المفتوح يمزقه العنف، والزلزال، والبرق، والرعد وقضبان الخطوط الحديدية كل هذه يمزقها العنف ويحنيها، وإذا محطة الخطوط الحديدية

ومنازل عمال المزلقان الصغيرة، قد انقلبت رأساً على عقب، ومع ذلك الهدير، والتَّدَحْرُج، والدخان، ما من شيء يمكن رؤيته، لقد ولّى كل شيء، ولّى وأدبر، وكانت تسفيه الرياح، عمودياً وأفقياً.

ما الذي حدث، ما الذي تحطَّم؟»

الصراخ، الصراخ، من دون توقُّف، من فمها، الصُراخ المفعم بالألم، باتجاه من يرقد على السرير وراء الدخان، جدار من الصُراخ، وحِراب من الزعيق باتجاه ذلك الموجود هنا، وما هو أعلى، وأحجار من الصراخ.

«أغلقي شدقَيْك، ما الذي تحطَّم، أمسكي، فالمنزل يلتئم شمله»

إنه صراخ يتفجر كالينبوع، بل هو كتل من الصراخ لا يوجد في مقابله هنا، لا زمن، ولا ساعة ولا سنة.

وهاقد أمسك فرانتس بزمام موجة الصراخ. إنه ثائر مجنون، مجنون مجنون، وهو يلوِّح، عند السرير، بكرسيّ يسقط مُفَرْقِعاً، من اليد، ثم ينطلق مائلاً فوق ميتسه، التي تظل تقعد منتصبة، تتردَّد أصداء صراخها على نحو ثابت، ويكون لها صوت نافذ، وتزعق وتزعق، وهو يسدُّ فمها من الوراء، ويطرحها على ظهرها، ويجثو فوقها، ويرقد على صدره، فوق وجهها. هذه سوف أقتلها.

ويتوقَّف الزعيق، وتتقلَّب متخبِّطة، بساقيها، نحو الأعلى، ويتولى راينهولد إزاحة فرانتس جانباً، بشقِّ النفس: «أيها الآدميّ، أنت تخنقها بلا ريب» «هلا مضيت في طريقك أيها الرجل» «هيّا فانهضي، انهضي، ويتمكن من إزاحة فرانتس، أمّا هي فترقد في الأسفل على بطنها، وتقلب رأسها، وتُنَهْنِه وتتنفس فتصدر عنها حشرجة، وتضرب بيدها ذات اليمين وذات اليسار ويقول فرانتس متلعثماً: «هلاّ ألقيتَ نظرة على المسكينة، هذه المسكينة مَنْ تُراك تريد أن تضرب، أنت أيها اللئيم؟» «سوف تنصرف، يا فرانتس، وترتدي سترتك، وعند ذلك فحسب تصعد إلى الأعلى، عندما تكون قد استردَدْت أنفاسك وأخلدت إلى شيء من الراحة». أمّا ميتسه فتبكي بكاء المستعطفة، وتفتح عينيها بقوة. أمّا الجفن الأيمن فأحمر، قد أغلقه التورُّم. «فلتنسَحب، أيها الآدميّ، فأنت تضربها حتى تموت، ولْتَرْتَدِ سترتك. هنا».

أما فرانتس فيلهث مبهور الأنفاس ، ويدع صاحبه يساعده على ارتداء سترته .

هنالك تنهض ميتسه قائمة ، فتبصق القشع ، وتهم بأن تتحدث ، وتتوجه نحو الأعلى ، وتقعد ، وتقول بصوت كالصليل: «يا فرانتس» وكان هذا قد ارتدى سترته ، «وها هي ذي قبعتك» «فرانتس . . » . ولا تعود تصرخ بعدها ، إذ إن لها صوتاً ، وهي تبصق ، قائلة: «أنا– أنا– سأذهب معك» «كلاّ ، فَلْتبقَيْ معي ، أيتها المرأة ، أيتها الآنسة ، وسوف أساعدك فيما بعد»: «فرانتس ، تعال– فسأذهب معك» .

وكان هذا يقف ، يدير قبعته فوق رأسه ، ويترنَّح ، ويلهث ، ويبصق ، ويذهب نحو الباب ، ويُسمع صوت فرقعة ، وإغلاق .

وكانت ميتسه تئن وتتوجَّع ، ثم تقفز على قدميها ، ثم تصدِم راينهولد فتزيحه جانباً ، ثمَّ تتلمّس طريقها من خلال الباب غير أنها لا تستطيع أن تواصل السير عند باب الدهليز ، وقد بات فرانتس في الخارج ، وهو في أسف السلَّم . ويحملها راينهولد إلى الحجرة ، وحين يُرْقِدها على السرير تلهث ، وتنهض قائمةً وحدها ، وتتنزل نزول المتسلّق ، ثم تبصق الدم وتندفع نحو الباب «اخرج ، أخرج ، وتظل مواظبة على هذه الكلمة ، وإحدى عينيها جامدة أبداً عليه ، وتدع ساقيها تتدليّان ، مثل هذا اللعاب واللعاب يثير اشمئزازه . وأنا لا أتوقف هنا ، وبعد ذلك يأتي الناس ، ولقد أعددتها بهذه الطريقة ، وماذا يعنيني من الأقذار . غداً ، أيتها الآنسة وتكون القبعة فوق الجمجمة ، ويكون الفراق من طريق الوسط .

وفي الأسفل يمسح الدم عن يده اليسرى ، وكان لعاب الشيخ يضحك بصوتٍ عال ، ويضاف إلى ذلك أنه أخذني إلى الدور العلويّ ، إلى مسرحه ، اليوم تثور ثائرة حنق الغباء وقد كان هذا قد أبعد عن نفسه الضربة على الذقن بقبضة اليد ، فأين يجري هذا اليوم ، جيئة ، وذهاباً؟ .

ويمضي في طريقه ، الهُوَيْنى ، وثمة دروع من الميناء وسِلَع من الميناء ، من كل نوع ، وكان هذا جميلاً هنا في الدور العلوي ، بل كان جميلاً للغاية ، مثل هذا الغباء ، لقد أحسنت الصنيع ، ياولدي ، فالشكر لكم ، فثابرْ وامض على نهجك هذا

على الدوام. وأنا أضحك من نفسي ضحكة ما عدت أتمالك نفسي معها من إفلات زمام البول.

وعلى أثر ذلك استقر بورنيمَن من جديد في شتيتين، في قبضة الشرطة، وجاؤوا بزوجته، السيدة الحقيقية، ياسيدي المأمور، هلاّ تركت السيدة في سلام ودَعَة، يا رجل، فلقد أقسَمَتْ، وقَسَمُها الحق، أنها ستمكث مِنْ بعدُ عامين، وهذا شيء لا يكدِّرها ولا يزعجها.

وهذه أمسية في حجرة فرانتس، يضحك فيها القوم ويرقد بعضهم بين أذرع بعض، ويتبادلون القبلات، وقد أُفْعِمَت نفوسهم بطيب القلب. «هنالك كنت خليقاً أن أقتلك تقريباً، يا ميتسه، فكيف تهيَّأ لي ذلك، أيتها الآدمية». «ليس مما يلحق الضرر أَن تكوني عائدة فحسب» «وهل رحل هذا كذلك، هذا المدعو راينهولد؟»: «أجل» لا تسأليني على الإطلاق، يا ميتسه، لماذا كان هنا». «كلّا» «ماكنت لأعرف شيئاً على الإطلاق؟» «كلّا» «ولكن يا ميتسه» «كلّا، ليس هذا بالصحيح، طبعاً». «وماذا إذاً؟» «أنت تريد أن تبيعني لهذا» «ماذا» «ما من شك في أن هذا ليس بالصحيح» «ولكن ياحبيبتي ميتسه» «أنا أعرف ذلك ولأن هذا حسن بالطبع» «إنه صديقي، يا ميتسه، ولكنه فتى خنزيريّ ذو افتراءات وأشكال من الاصطناع. لقد أردت أن أكشف لهذا، ذات مرة، عن ماهية الفتاة المستقيمة الفاضلة وقد كان ينبغي له أن يرى». «أما زلتَ تحبني، أم تُراك لا تحب إلاّ الفتى الماثل هنا؟» «أنا فتاتك، يا فرانتس». .

الأربعاء، في التاسع والعشرين من آب

ثم إنها تدع وَليَّ نعمتها ينتظرها يومين تستخدمهما لمجرد أن تكون مع صاحبها الحبيب فرانتس ولترَتحل معه إلى إرْكْنَر وبوتسدام، ولتكون طيِّبة معه. إن لديها الآن سِرّها لدى هذا، وهي الآن أكثر من ذي قبل، المخلوق الدنيء والمكار الداهية، الصغير، ولا تخاف على الإطلاق مما أحدث صاحبها الحبيب، فرانتس، من أحداث

عند رهط بومز، كما أنها ستقوم، بشيء ما، بل ستقوم، ذات مرة، وحدها، بالنظر فيما حولها، لترى من يكون هنا في الحقيقة، فوق الكرة أو ثابتاً كالمخروط، ويضاف إلى ذلك أنها لا تأخذ فرانتس معها. أمّا هربرت فيأخذ صاحبته إيفا معه ولكن فرانتس يقول: هذا ليس من أجلك، فأنا لا أريد أن أجمع بينك وبين مثل تلك الذروة من ذرى الخنزيرات.

ولكن حبيبتي سونيا الصغيرة، أو ميتسه الصغيرة، تريد أن تفعل شيئاً من أجل فرانتس، قطتنا الصغيرة تريد أن تنجز شيئاً من أجله، وهذا شيء أجمل من كسب المال، سوف تستخرج كل شيء وتحميه.

ومثلما تكون الكرة التالية، حيث يتوجه طابور بومز مع أصدقائه، نحو رانزدورف، في صورة جماعة منغلقة، ويكون ثمة طابور حضر لا يعرفه أحد، وكان السمكري هو الذي أدخله، فهو عائد إليه، وهو يرتدي قناعاً، وذات مرة ترقص حتى مع فرانتس، ولكن مرة واحدة فحسب، وبعد هذا يشمُّ هذا رائحة العطر، وهو في موغِلهورت، وفي المساء تدخل الحديقة فوانيسُ من الورق، وتقلع الباخرة شتيرن وهي ملأى، ما فيها مُتَّسَع لمزيد، وتعزف الفرقة الموسيقية سلام المربع الوداعي، حين تقلع الباخرة، غير أنهم يظلون يرقصون ويشربون فيها إلى أن تتجاوز الساعة الثالثة.

وهنا كانت ميتسه تروح وتغدو هنا وهناك مع السمكري الذي يمارس الفشر ليجعل من نفسه امرأً عظيماًن متحدثاً عن جمال العروس التي لديه، وتنظر فترى بومز وزوجته الجليلة، وراينهولد، قاعداً وهو متكدِّر– وهو الذي تتعاقب عليه الأمزجة على الدوام – والفتى الأنيق كاوْفميش. وفي الساعة الثانية تنطلق في مسيرة الهوينى، في السيارة مع السمكري ويتمكن من أن يظفر منها بقبلات جامحة، ولِمَ لا، فقد باتت الآن تعرف المزيد، لن يقذف بها ولن يطيح بها، وما الذي تعرفه ميتسه؟ ومثلما يبدو كل رهط بومز جميعاً، ومن أجل ذلك يستطيع أن يعانقها أو يقبلها بشدة وحرارة، وما من شك في أنها تظل لفرانتس صاحبة وأهلاً ويوغلان في أعماق الليل،

وفي مثل هذه الليلة قذف الفتيان بصاحبهم فرانتس من السيارة ، والآن يسترجع هذا ، وسوف يعلم هذا مَنْ كان الفاعل وإنهم ليخافون منه جميعاً ، وإلاّ فلماذا كان المدعو راينهولد ، فيما عدا هذه الحال ، خليقاً أن يصعد إلى الطابق العلوي ، وهذا فتى وقح ، وصاحبي فرانتس شاب من الذهب ، لقد كان في وسعي أن أقتل السمكريّ تقبيلاً ، وهكذا أحب فرانتس ، ألا فلتعتصرني فحسب فسوف أعضُّ لسانك وأحتزُّ قطعة منه ، أيها الآدمي ، فليمش هذا الهُوَينى بعربته ، وهو الذي يمضي بنا بعد إلى القبر . وكان التهليل مساء اليوم سماوياً عندكم ، وإذا قُدِّر لي الآن أن أنطلق يميناً أو يساراً ، فانطلق كما تشاء ، فإنما أنتِ عُكّاز حلو ، يا ميتسه ، لا بأس ، إذا كنت أروق لك ، يا كارل فخذني معك مراتٍ أكثر أيضاً ، أنتَ ، ياهذا ، الغبيّ ، المغفَّل ، السكران ، الذي ينطلق بنا بعدُ إلى أن يبلغ نهر الشبْريه .

هذا غير ممكن ، عندئذ سيترتَّب عليَّ أن أغرق ، ومازال أمامي الكثير مما يترتَّب عليَّ عمله ، إذ يترتَّب عليّ أن أتبَع صاحبي العزيز ، فرانتس ، ولست أدري ما الذي يريد عمله ، كما أنه لا يعرف ما أريد عمله ، ويفترض أن يظل هذا أمراً لا يلفت النظر ولا يلاحظه الملاحظون ، بين كِلَيْنا ، مادام يريد ومادمت أريد ، فنحن نريد الشيء ذاته ، كلانا ، الشيء ذاته نريده كلانا ، آه ، أهذا ساخن؟ هَبْ لي مزيداً من القبلات ، هنا ، أمسِك بي إمساكاً محكماً ، يا كارل ، فأنا أوشك أن أنصهر ، أذوب ، أيها الآدميّ .

ياحبيبي كارل الصغير ، كارل الصغير ، أنت الذي قُدِّر له أن يكون أجمل من أُحِبُّ ، وفي الشارع المشجَّر تَمْرُق أشجار البلوط السود كما يمرُق السهم ، وهي تمرُّ بالمجتازين له مُوَلِّية مُدْبِرة ، أهدي إليك مائة وثمانية وعشرين يوماً من السنة ، وكلٌّ منها له صباحُه وظهره ومساؤه .

ولكن أقبل إلى المقبرة هنا اثنان من رجال الشرطة بالملابس الزرق ، ذاهبين فقعدا على شاهدة قبر معينة ، جميلة ، وسألا إلى أين كانا يمرّان إلى رجل معيَّن يُقال له كاسيمير برودوفيتش وهل سبق أن رأوْه . وكان قد ارتكب جريمة قبل ثلاثين عاماً ،

غير أن القوم لا يعرفون على وجه الدقة، ماهية الجريمة وهنا سوف يحدث، بلا ريب، بعد ذلك، شيء ما، إذ لا يكون المرء قطُّ واثقاً من إخوته، والآن نريد منه بصمة إصبع وأن نحدد طوله، وأفضل مانفعله أن نمسك به قبل ذلك وأن يُقاد، لِيَمْثُل بين يديْنا، تراري، ترارا إمّا السراويل فيرفعها راينهولد إلى أعلى، فيدوس على بنيانه جيئة وذهاباً، ولا يليق بهذا، لا الهدوء والراحة، ولا المال الكثير، إذ أرسل عروسه الأخيرة بعيداً، وأمّا الرقيقة، المرهفة الحِس فلا يحبها الآن.

ولا بُدَّ للمرء أن يصنع ذات مرة شيئاً آخر، إنه يودُّ أن يبدأ بشيء ما مع فرانتس، والآن يروح الحمار ويغدو، هنا وهناك، من جديد، قد أشرق وجهه، مُباهياً بعروسه، وكأنَّ ثمة شيئاً يقترن بذلك. ربما انتزع منه هذه حقاً، فقد كان. في الآوِنة الأخيرة يثير الاشمئزاز بلعابه الذي يسيل.

وأما السمكري، المعروف لدى الشرطة، بالطبع، باسم أوسكار فيشر، فترتسم على وجهه علائم الدهشة حين يسأله راينهولد عن سونيا[١٠]؟، ويسأل هذا عن سونيا من دون تردُّد، ومن دون تكلُّف تعترف ماتَر، لا بأس، إذا كنت تعرف ذلك فأنت تعلمه على كل حال. هنالك يضع راينهولد ذراعه حول خصر ماتر ويسأل: تُرى هل تزمع ماتَر أن تتنازِل له ذات مرة عن سونيا من أجل حفلة محدودة. هنالك يتبيَّن أن سونيا سمعت فرانتس ولم تسمع ماتر. لا بأس، إذاً ففي وسع ماتر أن تهيئ له الفتاة من أجل رحلة بالسيارة، إلى غابة فراين.

وثم لم يكن بُدٌّ لفرانتس أن يسأل، ولم يكن السؤال موجهاً إليّ» «أما فرانتس فأنا لا أستطيع أن أسأله، إذ يوجد ما يربطني بهذا فيما سلف، وأما أنا فلا تحبني، فيما أعتقد. هذا ما لاحظته» غير أني لا أسلّم بذلك ولا أتخلّى عنه؟ «ربما لو أردتها وحدي» «وماذا في ذلك، فأنت تستطيعه من أجل رحلة واحدة» أما بالنسبة لي، وبالانطلاق من وجهة نظري، فأنت تستطيع أن تنال النساء جميعاً، يا راينهولد، وهذه كذلك، ولكن من أين تأخذ ولا تسرق». «لا بأس عليك فإنها تجري معك بلا

(١٠) هذا هو الاسم السالف لميتسه. (المترجم)

ريب، أنتَ، يا كارل، عندما تحصل على رجل أسمر من بلاد اللاب، من قِبَلي» «فابذله لي على الدوام».

وقعد اثنان من رجال الشرطة الزرق على حجر وسألوا الناس الذين كانوا يمرّون بهما، جميعاً، واستوقفوا كل السيارات، ليسألوا هؤلاء هل رأوْا أحداً له وجه أصفر وشعر أسود إذ إن هذا يجري البحث عنه؟ أمّا ما اقترفه أو ماسيفعله فذلك مالا يعرفونه، بل يَرِد ذلك في تقرير رجال الشرطة، ولكن أحداً لم يَرَه، أولم يزعم أحد أنه رآه، هنالك لم يكن بُدٌّ لكلا الشرطيَّيْن أن يتابعا مسيرتهما على طول الطريق المشجر، ثم انضم إليهما اثنان من المسؤولين الجنائيين.

وفي يوم الأربعاء، الذي صادف التاسع والعشرين من آب، عام ١٩٢٨، بعد أن كان هذا العام قد سلخ من عمره مائتين واثنين وأربعين يوماً، وما عاد هناك الكثير من الأيام التي سيفقدِها– وقد انقضت هذه وولّت بحيث تستحيل استعادتها، .

قام راينهولد وميتسه برحلة إلى ماغديبورغ بعد استعادة الصحة، والإبلال من المرض، مع تكيُّف لراينهولد مع الخمر، بعد ظهور ميتسه، باختراقهما الأول في هذا العام، ويعود فرانتس من جديد، يمثل السلام المشرق والوداعة المُثلى–، هنالك يختتم السمكري الرحلة بالانطلاق مع ميتسه الصغيرة إلى المناظر الطبيعية. وقد كانت قالت له إن فرانتس ينطلق بها بسيارته مع وليّ نعمتها. أما لماذا ترتحل فذلك ما لا تعرفه، وكل ما في الأمر أنها تريد أن تساعد فرانتس، ولكن كيف: إنها لا تدري، وكانت قد رأت في المنام أن سريرها وسرير فرانتس قائمان في حجرة المعيشة العائدة إلى مضيفَيْهما تحت المصباح. ثم يتحرك الستار وراء الباب، وإذ بشيء رماديّ نوع من الشبح يلتفُّ ببطء خارجاً منه ويدخل الحجرة، وقالت وهي تتنهَّد: «ياللعجب، ثم استقرَّت في سريرها، ونام فرانتس نوماً ثابتاً عميقاً إلى جانبها. وأساعده، ولا يحدث له شيء، ثم ترقد من جديد، مضحكة، مثلما تدرُج أَسِرَّتُنا نحو الأمام، في حجرة المعيشة.

وما هي إلا دفعة، ويكونون في غابة فراين ذات الجمال، وهي موقع للاستحمام،

فيه حديقة استشفاء جميلة ذات حصباء صفراء، يسير فيها كثير من الناس، فمَنْ تُراهم سيصادفون هنا بلا ريب، حين يقعدون عند الظهر على وجه الخصوص، إلى جانب حديقة الاستشفاء فوق المصطبة؟

الزلزال، والبرق والرعد، وقضبان الخط الحديدي المتصدِّعة، ومحطة الخطوط الحديدية قد انتهت. والتدحرُج والدخان، والبخار، كل شيء ولّى ومضى، والأبخرة، وما من شيء يُرى، الأبخرة، والصراخ المتدفِّق... أنا لك، ما من شك في أنني لك.

فدَعْه يأتي، بربك، دَعْه يقعد، فانا لا أخاف من هذا، لا أخاف من هذا على وجه الخصوص، بل أنظر إلى هذا في وجهه. «هذه هي الآنسة ميتسه، أتُراك تعرفها من قبل، يا راينهولد؟» «معرفةً عابرة، هذا يسرني كثيراً، ياآنسة».

وهكذا يقعدون في غابة فراين، في حديقة الأطفال، وواحد منهم يُحْسِن العزف في المحلّ، وهنا أقعد في غابة فراين، وهذا يقعد قُبالتي.

الزلزال، والبرق، وموجات الحُجُب والأبخرة والضباب، كل شيء مضى وولّى، ولكن من الجميل أننا لقينا هذا وسوف أُخْرج هذا فوق كل ما كان عند بومز، وما يصنعه برامز، ففي حاله هذا يستطيع المرء إنجاز تلك المسألة ببث الحُميّا في شهوته، وأن يدعه يتململ ويتقلَّب ويتخبّط، ثم يأتي هذا، وميتسه تحلم كيف تنطوي بها السعادة على المودة حيالها، والعازف على البِيان يغني: فقُل لي، Oui، يابنيّ، فهذا كلام فرنسي، ولتقل لي: يا– ja، ونا– na، بالألمانية، وأيضاً بالصينية، كما تشاء، فهذا لا يهمني البتّة، فالحب شيء عالميّ بلا ريب، فقل لي ذلك عن طريق الزهر، عن طريق الأنف، فَقُلْ لي ذلك بصوت خفيض، أو في الوَجْد، لتقل لي oui– «نعم»، ولتقل، yes «بالإنجليزية» أو لتقل نعم– ja «بالألمانية». وكل شيء آخر تبتغيه فهو حاضِر.

على أن بضعة من أقداح الخمر الصغيرة تُعَدُّ ذات جاذبية، وكل امرئ يُقِرُّ الجرعة الصغيرة منه. أما ميتسه فتكشف عن أنها كانت في الحفلة الراقصة، وعلى أثر ذلك

يكون حديث رائع ، ثم إن رئيس الفرقة الموسيقية ، يعزف على البيان عزفاً يتجاوب مع الرغبة العامة: في سويسرة وفي التيرول ، أجل ، فههنا يشرع المرء بالارتياح واستعادة الصحة ، وفي سويسرة ، وفي التيرول ، أجل ، هنا ، يشعر المرء بالارتياح البالغ ، إذ يتوافر في التيرول اللبن الدافئ ، من البقرة ، وفي سويسرة توجد عذراء فأنعِم بهذا وأكرمْ ، فعندما يوجد ، ولنكن صادقين ، شيء يجنح إلى التّقل ، ولذلك أجد أن هذا من الرائع للغاية شأن سويسرا والتيرول كذلك: هولو رويْ دي! ويمكن طلب هذا عن طريق أية مكتبة للأعمال الموسيقية. هولوروي دي ، كذلك تضحك ميتسه ، الآن يفكِر حبيبي الحلو ، فرانتس ، وأنا عند صاحبي الشيخ– غير أني لديه ، هو ذاته ، وهو لا يلاحظ ذلك.

عند ذلك نريد ، بعد ذلك ، أن نروح ونجيء ، متجولين في المنطقة ، بالسيارة ، وهذا مايريده كارل ، راينهولد وميتسه ، أن يرجعا أدراجهما ، وذلك أن ميتسه وراينهولد وكارل وراينهولد ، وكارل وميتسه ، كل هؤلاء جميعاً ، بعضهم مع بعض ، يريدون ذلك. فهل يترتَّب هنا أن يأتي الهاتف ، وأن ينادي نادل: سيدجي المعلم ، على الهاتف ، ألم تلتمع قبل ذلك ، عيناك في الظلام ، يا راينهولد ، الفتى الحبيب ، دعْ عنك هذا ، فإن علينا أن لا نقول شيئاً ، وميتسه تبتسم بالطبع ، وكلا كما ليس لديه مايعترض به على هذا ، ويبدو أن هذا خليق أن يفضي بنا إلى أصيل يوم حافل بالمُتَع والمسرّات ، وها هو ذا كارل الصغير عائد من جديد وكذلك كاريلاين ، أنت ، ينبغي أن تكون أجمل مَنْ أحب ، هل تعاني من متاعب أو وَعْكات ، كلاّ ، بل يترتَّب عليّ أن أنطلق على وجه السرعة إلى برلين ، أمّا أنتِ فستمكثين ، بلا ريب ، يا ميتسه ، وأما أنا فمضطر ، ولا يستطيع المرء أن يعرف ، ويمنح ميتسه قبلة أخرى ، وأمّا أنت ، يا كارل فعليك أن لا تفشيَ هذا الحديث وتذيعه في الناس ، وهل ترينني ، أيتها الفأرة الصغيرة ، أكون مثل كل امرئ ، حين يستطيع أن يقوم برحلة استثنائية ، إلى اللقاء ، يا راينهولد ، ونتمنى لك عيد فصح بهيجاً ، وعيد عنصرة باعثاً للسرور ، وعليك بإنزال القبعة عن الحمّالة ، فالقبعة مرفوعة.

ها نحن أولاء ، قاعدون ها. «فما قولك في هذا الآن». «كلاّ ، ياآنسة ، ومن

أجل ذلك ماكنتِ في حاجة إلى أن تصرخي هكذا في الآونة الأخيرة» «كان هذا مجرَّد الفزع» «ولكن الفزع مني» «من شأن الإنسان أن يعتاد الإنسان ويَأْلَفه» «إن في هذا لكثيراً من الإطراء والتملُّق». وحين تحوّل المسكينة الصغيرة ناظرَيْها، يراهنون على لحم جيد، مستطاب، يكون علفاً للكِلاب، أحصل عليه اليوم بعدُ، وهنا تستطيع أن تنتظر، ياصغيري، فلن أزيد على أن أَدَعَك تتقلَّب وتتخبّط، ثم سيكون من الواجب عليك أن تسرد عليَّ كل ماتعرف، فافتح عينيك. لقد افترس شجرة بأسرها، بلا ريب.

ثم كان عازف البيانو قد فرغ من غنائه، وتعب البيانو، وهو يريد أن يذهب إلى النوم، وهنا يتجوَّل راينهولد وميتسه صاعدَيْن إلى ذروة الرابية، وداخلَيْن في الغابة قليلاً، يتحدثان بهذا الحديث وذاك، ويسيران وذراع كلٍّ منهما في ذراع صاحبه، ولم يكن الغلام بالخبيث المستكرَه، على الإطلاق، وحين كانا في السادسة في حديقة الأطفال من جديد، يكون المدعو كارل في انتظارها، وقد عاد من جديد بالسيارة، هل نزمع الذهاب إلى البيت، ففي المساء يكون القمر بَدْراً، وسنذهب إلى الغابة معاً، فإنها بالغة الجمال، فَلْنفعل، وفي الثامنة يتجوَّل ثلاثتهم، صعوداً في الغابة، ويضطر كارل إلى طلب حجرة على جناح السرعة بعد، في الفندق، وإلى تفقُّد السيارة، سوف نلقاك فيما بعد، في حديقة الاستشفاء.

وفي هذه الغابة كثير من الأشجار، وكثير من الناس يدخلونها، ذراعاً في ذراع، وهناك، أيضاً، طرق منعزلة، والناس يسيرون عليها حالمين، بعضهم إلى جانب بعض، وميتسه تريد، على الدوام، أن تسأل عن شيء ما، غير أنها لا تدري ماهيته، والناس يسيرون هكذا سيراً جميلاً للغاية، ذراعاً في ذراع، فواعجباً، أنا أسأله مرة أخرى، إنها لأمسية جميلة للغاية، ربّاه، ماالذي لا بُدَّ لفرانتس أن يظنَّ بي من الظنون، أمّا أنا فأريد الخروج من الغابة عمّا قريب، فالأمور تسير هنا سيراً بالغ الجمال. ولكن راينهولد يتأبّط ذراعها، وهو الذي يتمتع بذراع يُمْنى، والرجل يسير يساراً وفرانتس يسير باتجاه اليمين، ومن الأمور المميّزة أن يسير المرء بهذه الطريقة، ذراع قوية شديدة البأس كهذه، فأي نوع من الفتيان هذا. ويسيرانِ بين الأشجار، والأرض ليِّنة، وفرانتس يتميّز بذوق حسن، سوف استميلها إليّ، وسوف تكون

ليَ شهراً، ثم يستطيع أن يفعل مايشاء، وإذا أراد شيئاً ظفر به في الرحلة التالية بحيث ينسى الوقوف على قدميه، امرأة جميلة، امرأة صبيّة حسناء، خَليّة البال، وهي مخلصة له.

ويسران ويتحدثان عن هذا وذاك، ويزداد الظلام حلكة، ومن الأفضل أن يتحدث المرء، وتتنهّد ميتسه، إنَ مما ينطوي على الخطورة البالغة أن يسير المرء من دون أن يتحدث، وأن يُحِس بالآخر مجرد إحساس، وكانت تنظر على الدوام إلى الطريق وإلى أين يُفْضي، لَست أدري ما الذي أبتغيه منه: العرّابة بلا ريب، وما الذي أبتغيه من هذا في الحقيقة، ويسيران في حلقة، وتقوده ميتسه في الخفاء، راجعة به إلى الطريق. افتح عينيك، فأنتَ هنا.

الساعة الآن الثامنة، ويسحب مصباح جيبه، وينتهي به المسير إلى الفندق، والغابة قد خلّفناها وراءنا، وصغار الطير، ياللعجب، صغار الطير التي كانت تشدو شدواً جميلاً جمالاً عجائبياً، جمالاً عجائبيّاً، وتسري فيه الرعدة، لقد كان هذا طريقاً هادئاً يلفت الأنظار، وكانت له عينان مشرقتان، ويسير إلى جانبها مُسالماً مُوادِعاً، والسمكري ينتظر، وحيداً فوق المصطبة «هل حصلت على الحجرات؟» وينظر راينهولد، باحثاً بعينيه، فيما حوله، عن ميتسه، لقد وَلَّت ونَأَتْ، «أين السيدة؟» «حجرتها في الدور العلوي» ويقرع الباب. «لقد طلبت السيدة ماطلبت، وذهبت إلى فراشها».

وتسري فيه رعدة: لقد كان هذا جميلاً، الغابة المظلمة، والطير، ومالذي أبتغيه في الحقيقة من الفتاة، وأيُّ فتاة هذه التي ظفر بها فرانتس. أنا أودُّ أن أنالها. ويقعد راينهولد مع كارل على المصطبة، ويدخنان سجاير غليظة، ويبتسم كلٌّ منهما لصاحبه: ما الذي يفترض أن نفعله هنا، في الحقيقة؟ فنحن نستطيع في الحقيقة، ، أن ننام في منازلنا. — ومازال راينهولد يتنفس تنفُّساً عميقاً بطيئاً، يسحب الهواء ببطء من سيجارته، الغابة ذات الظلام، ونسير في حلقة، وتقودني عائدة بي أدراجها من جديد: «إذا شئت، يا كارل، فسأبقى الليلة هنا».

ثم يسيران كلاهما بعدُ ، عند حافة الغابة ، ويقعدان هناك ، يتابعان السيارات بصرَيْهما ، وفي هذه الغابة كثير من الأشجار ، ويسير المرء على أرض هشة ليّنة ، وكثير من الناس يسيرون هنا وقد عقد كلٌّ ذراعه بذراع صاحبه ، فَيالِيَ من كلب خنزيريّ .

السبت، في الأول من أيلول

هذا يوم الأربعاء المصادف ٢٩ آب ١٩٢٨.

وبعد ثلاثة أيام يتكرَّر كل شيء ، فيصل السمكري بسيارة ، أما ميتسه– فكانت قد أجابت على الفور بالإيجاب ، حين سأل هل تُراها تزمع أن تعود إلى غابة الإجازات ، وقالت إن راينهولد يزمع المجيء معها ، وتقول في نفسها وهي تقعد في السيارة: أريد أن أكون أقوى ، لن أذهب معه إلى الغابة ، وكانت قد أجابت بالإيجاب على الفور ، لأن فرانتس كان متكدِّراً كل التكدُّر في اليوم الأخير ، وهو لا يبيِّن لماذا ، ولا بُدَّ لي أن أعرف ذلك ، وأن آتِيَ من وراء ذلك ، وإن لديه لمالاً أخذه مني ، ولديه كل شيء ، ولا ينقصه شيء يسبب الهمّ للإنسان .

ويقعد راينهولد في السيارة إلى جانبها ، وكان قد أحاط بذراعه بخاصرتها . وكل شيء مدبَّر بصورة مسبقة: اليوم ترتحلين آخر مرة عن صاحبك العزيز فرانتس ، مبتعدة عنه . اليوم تظلين عندي على قدر ما أشاء ، فأنت امرأتي ذات الرقم خمسمائة أو الألف ، التي أنالها . وإذا كان كل شيء قد سار سيْراً حسناً ، وعلى مايرام ، حتى الآن ، فسيسير الآن على مايرام . أمّا هي فتقعد هنا ولا تعرف كيف فسيتواصل سير الأمور بعد ذلك ، وأما أنا فأعرف ذلك ، وهذا حسن .

أمّا في الغابة فميتسه سعيدة ، وذلك أن كارل يبلغ من لطفه ورقته ، وما يستطيع أن يسرده من كل ضرب ونوع ، أن له براءة اختراع ، وكانت هذه هي التي اكتسبتها منه بالحيلة المؤسسة التي كان يعمل فيها وبهذه الطريقة لم يكن الغش والخداع يسريان

إلاّ على الموظفين، وكان عليهم أن يقدموا، سلفاً، تقريراً خطيّاً، وقد خرجت المؤسسة من ذلك بالملايين، على أثر ذلك، أما هو فلا يزيد على المشاركة في العمل عند بومز، هكذا، لأنه يبني الآن نمطاً جديداً، وهو نمط يجعل من كل ماجمعته المؤسسة بالسرقة آيِلاً للتداعي والسقوط، ويُحَوِّله إلى عدم، ومثل هذا الأنموذج يكلّف الكثير من المال، وهو لا يستطيع أن يبوح بسرِ ذلك لميتسه، إذ إنه سِرٌ كبير للغاية، وسيغدو كل شيء في العالم على غير هذه الصورة، عندما يتحقق هذا، وذلك أن كل خطوط الحافلات والإطفاء وتصريف النفايات، وكل شيء يتلاءم مع كل شيء، مع كل شيء، على وجه الإطلاق، وإن بعضهم ليحدث بعضاً عن رحلتهم بالسيارة، إلى حفلة تنكرية، ففي الشارع المشجر تمرق أشجار البلوط كما يمرق السهم، وأنا أهدي إليك مائة وثمانية وعشرين يوماً من العام، لكلٍ منها صباحه وظهره ومساؤه.

ويصيح راينهولد في الغابة: «ياللبشرى، ياللبشرى» ويختفي كارل في مكان آخر، غير معيَّن، ولكن ميتسه تتسم بمزيد من الجدّية حين يصل راينهولد.

هنالك وقف رجلا الشرطة الجنائية الأزرقان، ناهضَيْن عن الحجر، وقالا إن المراقبة سارت على نحو لم يُسْفِر عن نتيجة، وتبدَّدت مضمحلّة، وإننا لا نستطيع عمل شيء. فههنا لم تحدث بلا ريب، سوى أمور لا طائل تحتها، ونحن لا نستطيع إلاّ أن نصوغ بلاغاً خطيّاً موجَّهاً إلى السلطة، وحين يفترض أن يحدث شيء ما، وسوف يرى المرء هذا عما قريب، كان هذا سَيَرِد عند عمود ليتفاس.

و كان يسير في الغابة هنا، وحدهما، ميتسه وراينهولد، وكان بعض الطيور يَصِرُّ ويُصَفِّر بصوت خفيض، وفي الأعلى أخذت الأشجار في الشَّدْوِ.

وكانت شجرة تغنّي، ثم غَنَّت شجرة أخرى، ثم غَنَت معاً، ثم أَمْسِكت عن الغناء من جديد، ثم غنَّت فوق رأسَيْ كليهما.

إنه حاصِد، يقال له الموت، قد أوتِيَ القوة والبأس الشديد من لَدُنِ الرب العظيم. الآن بات يحصد حصاداً أفضل.

«واعجباً، كم أَقَرُّ عيناً، حقّاً، بأنني الآن، من جديد، في غابة الإجازات، أنا راينهولد. وأنتم تعلمون بعدُ، قبل أمسِ، وما من شك في أنه كان جميلاً، ألم تكن هذه جميلة»، إلاّ أنها كانت قصيرة إلى حَدّ ما، أيتها الآنسة، وما من شك في أنكم كنتنم مُتْعَبين، ، لقد قرعت معكم الأبواب، فلم تقفوا على أقدامكم» «إن الهواء ليحترق في داخل المرء، وكذلك الرحلة بالسيارة، وكل شيء» «لا بأس، ألم يكن هذا جميلاً إلى حَدّ ما؟» «بالطبع، ماذا تقولون؟» «كل ما أقوله، عندما يسير المرء بهذه الطريقة، ومع آنسة لها مثل هذا الجمال» أيتها الآنسة الجميلة، فأصطنعي أيتها الخارقة طرق التهليل الاحتفالية، وأنا لست بالذي يقول، بالطبع: «أيُّهذا السيد الجميل أَنْ تسير معي–» «ماالذي يحدث؟» «كلاّ، أنا أتصوَّر أنه ما عاد فيَّ الكثير، بعدُ، مما يمكن تحديد مداه. أمّا أنت التي تسيرين معي، أيتها الآنسة، فإن في وسعك أن تصدقيني إذ أقول إن هذا يسرُّني حقاً». إنه لفتىً ذهبيّ، «أليس لك في الحقيقة، صديقة؟» «أيتها الصديقة، ماذا يمكن تسمية كل مايتصل بالصديقة اليوم» «ياللعجب» «وَيْحَكِ، هناك أسماء من كل ضرب ولون، وهذا ما لا تعرفينه، ياآنسة. وإنك له هنا لصديقاً، يتميز بالأصالة والثبات، لا تزعزعه تقلبات الزمن، ينجز أموراً من أجلك، غير أنّ من شأن الفتاة ألاّ ترمي إلاّ إلى الاستمتاع، ومثل هذه الفتاة لا قلب لها، مثل هذه الفتاة لا يتوافر لديها هذا»، «ولكن هنا لم يحالفك حسن الحظ» «أنظري، ياآنسة، ولذلك يأتي هذا مع ذاك– بل مع تبادل النساء غير أنك لا تودّين سماع هذا، بالطبع» «ثم إن عليكِ أن تتحدثي، أيتها المخلوقة، كيف كان هذا يا تُرى» «هذا ما أستطيع أن أقوله لك على وجه الدقة، وأقوله لمن يفهم عنكِ الآن. هل تستطيع أن تُمسِك امرأة مدة أطول من بضعة أشهر أو بضعةَ أسابيع ما لم يكن ذلك راجعاً إليها؟ ماذا؟ ويحك، ربما تقلَّبت هنا وهناك، أو كانت لا شيء فيها، ولا تفهم، أو تتدَّخل في كل شيء، أَوْ ربّما كانت تعاقِر الخمر؟» «أجل، إنها باعثة للاشمئزاز»، ألا ترين، يا ميتسه، وعلى هذا النحو كانت الأمور تسير معي، وهكذا تسير مع الواحد من الناس. إنها بضعة من ألوان الخيانة، والمروق والارتداد والشعور بالشفقة أو التعاطف. وهذا شيء قد جيء به من حاوية القمامة، أتودين، أن تكوني

متزوِّجة بهذه الطريقة؟ ويحَك، أنا؟، ولا ساعةً واحدة» لا بأس، إذاً ففي وسع المرء أن يحتمل شيئاً كهذا إلى حدّ ما، ربما بضعة أسابيع، وربما هنيهة من الزمن، وعلى كل حال فلن تستقيم الأمور بعد ذلك، عندئذ تضطر إلى الانصراف، أمّا أنا فأعود إلى القعود هنا من جديد. وليس هذا بالجميل، ولكن المُقام هنا جميل» «وما من شك في أنَّ قدراً يسيراً من التغيير وارد هنا؟». ويضحك راينهولد: «ماذا تقصدين بهذا، يا ميتسه؟» «ماعلينا، والآن، هل تودُّ نساء أخريات أن تكُنَّ معك ذات مرة» «ولِمَ لا، وَيْحَكِ، فجميع هاته النسوة لا شك في أنهن من البشر».

ويضحكان، ويسيران ذراعاً في ذراع، في اليوم الأول من أيلول، والأشجار لا تمسِك عن الشَّدْو. إنه وعظ مستفيض.

ومِثْل ذاك، مثلُ ذاك، له وقته، ولكل النبلاء تحت الشمس ساعاتهم، ولكل واحد من أولئك سنته، إذ يولد ويموت، ويزرع ويستأصل المغروس ولكلِّ، لكلٍّ، وقته وإبّانه، إذ يخنق ويشفي ويحطِّم ويبني، ويلتمس المفقود ويضيِّع، ويحتفظ بوقته، ويطرح وقته، ضارباً به عُرْضَ الحائط.

ويمزّقه، ويَرْفوه، ويصمت ويتكلم، وكل امرئ كهذا له وقته. ومن أجل ذلك لاحظت أنه ما من شيء أفضل من أن يكون المرء مسروراً قرير العين، فسرور المرء يجعلنا مسرورين، وما من شيء تحت الشمس أفضل من أن نضحك ونَقَرَّ عيْناً.

وكان راينهولد يمسك بيد ميتسه، ويسير عن يمينها، فيالها من ذراع قوية كان يمتاز بها. «أتعلمين، يا ميتسه. أنني لم أكن، في الحقيقة، أتمتع بأية جرأة على الإطلاق تحملني على أن أدعوك ذات مرة، في تلك الأيام، فاعلمي». ثم نسير نصف ساعة ونتحدث قليلاً، ولعل مما ينطوي على الخطر أن يظل المرء يسير وقتاً طويلاً ولا يتحدث خلاله، غير أن المرء يشعر بذراعه اليمنى.

أين يمكنني أن أضع العُكّاز الحلو فحسب، هذه علامة تجارية خصوصية تماماً، وربما ادَّخرتُ الفتاةَ لنفسي من أجل وقت لاحق، ولا بُدَّ للمرء أن يستمتع، وربما جَرَرْتُها إلى الفندق، وفي الليل، في الليل، حين يَبْزُغ شعاع القمر. «إنَّ لك في يدك

لبعض الندوب ، كما أنك مَوْشوم ، في الصدر كذلك؟» «أجل ، بلا ريب ، أتريدين أن تَرَيْ ذلك؟» «ولماذا تَسْتَوْشِم يا تُرى؟» «هذا أمر يتوقَّف على موضِع الوشم ، ياآنسة» وتُقَهْقِه ميتسه ، وتتأرجح في ذراعه: «هذا شيء أستطيع أن أتصوَّره ، فقد كان لي مثل هذا الوشم ، قبل فرانتس ، أمّا أيُّ ضرب من الوَشْم كان هذا وَشَم نفسه به ، في أفضل الأحوال ، فذلك ما لا يمكن الإفصاح عنه» . «إنه مؤلم ولكنه جميل ، هل تريدين أن تَرَيْ ذلك ياآنسة» هنالك يُرْسِل ذراعها ، ويُفَتِّق أزرار صدره على عَجَل ويكشف عن صدره . هنا يوجد سَنَدان وإكليل من الغار حوله . «والآن فلتُغَطِّ هذا بربك ، يا راينهولد» «ها هو ذا ، فانظري إليه دونما حرج» وكان اللهيب فيه والرغبة العمياء ، ويمسك برأسها فيشدُّه إلى صدره ضاغِطاً ، فقَبِّلي ، أنتِ ، فقَبِّلي» ، ولا تُقَبِّل ، بل يظل رأسها مضغوطاً ، راقداً تحت يديه: «هلاّ أرسلتني ، بربك» ويرسلها: «هلاّ خففت عن نفسك ، بربك ، شيئاً من وطأة الحرج ، أيتها الآدمية» . «سأنصرف» مثل هذه الجيفة ، سأمسك بها من عنقكها ، أية لغة هذه التي تتحدث بها هذه المخلوقة معي ، ويشدُّ قميصه إلى الأمام ، سوف أنال أيضاً هذه التي تمارس النشاط والحركة ، بالهدوء دائماً ، ومن دون عنف ، يافتى . «أنا لم أسئ إليكِ بشيء بعدُ ، حقاً ، فزرِّري قميصي لا بأس ، ستكونين قد رأيتِ رجلاً من قبل» .

ماذا أبتغي في الحقيقة لدى هذا الفتى هنا ، لقد شَعَّث شعري ، وهو ، بالطبع ، فظ غليظ مشاكس ، سوف أنصرف ، فإن لكل شيء وقته وإبّانه ، لكل وقت ، ولكل امرئ .

«لا تكوني هكذا ، أيتها الآدمية ، ياآنسة ، فهذه المسألة لم تكن سوى لحظة ، أو لُحَيْظة ، هل تعلمين ، قد تَعْرُض للبشر في حياتهم ، في بعض الأحيان لحظات» «ما من شك في أنك لا تحتاج ، من أجل ذلك إلى أن تمسكَ بي من رأسي» «لا تشتميني ولا تعيِّريني ، يا ميتسه» سوف أمسك بك في مكان ما ، آخر لقد عادت الحرارة المضطرمة من جديد ، ولو أنني أمسكت بهذه مجرد إمساك ، يا ميتسه ، هل نعقِد العزم ، يا ميتسه ، على إجراء مصالحة؟» «لا بأس إذاً ، ولكن فلتُحْسِن التصرف» «اتفقنا» ويسيران ذراعاً في ذراع ، ويبتسم لها ، وتبتسم «لم تكن المسألة بالغة السوء ،

يا ميتسه ، أليس كذلك؟ إننا نَنْبَحُ مجردَ نُباح فحسب ، ولا نَعَضّ» «أنا أفكر ، وأقول في نفسي لماذا رسمت هنا سَندَاناً؟ «بعض النّاس يرسمون هنا امرأة ، أوْ قلباً ، أو شيئاً من هذا القبيل ، ولكن السندان» . «وَيْحَك ، ماذا يخطر ببالك يا ميتسه» «لا شيء ، فأنا لا أعلم شيئاً حقاً» «إنه شعاري» «أجل ، هنا يترتَّب على المرء أن يَهُبَّ طائراً» وينظر إليها بابتسامة ساخرة . «غير أنك خنزير . وهنا كان ينبغي لك ، من باب أولى ، أن تنصب سريراً» . «كلاّ ، السندان أفضل ، السندان أفضل» «وهل أنتَ حدّاد؟» «إلى حَدِّ ما ، ، فالواحد منّا يقوم مقام كل ذي مهنة غير أنك مازلتِ لا تفهمين هذا حق الفهم ، وبهذا القدر من الصحة ، يا ميتسه ، فيما يتعلق بالسندان . فإنه لا يجوز لأحد أن يدنُوَ مني أكثر مما ينبغي ، يا آنسة ، وإلاّ احترق على الفوْر ، ولكن لا يترتَّب عليكِ أن تعتقدي أنني أَعَضُّ على الفور ، على أن هذا بعيد عن أن ينالك أنتِ ، فما من شك في أننا نسير هنا سيراً بالغ الجمال ، وإني لأودُّ من كل قلبي أن أَقعدَ في حفرة» . «ما من شك في أنكم ، جميعاً أمثال أولئك الغلمان عند بومز؟» «هذا يتوقف ، يا ميتسه ، على هذا ، وأنا امرؤ صعب المراس والتعامل معي ليس بالأمر السهل» «لا بأس ، وماذا تصنعون هنا ، أنتم جميعاً؟» كيف يُتاح لي أوّلاً ، أن أوقِع بكَ في حفرة ، وما من إنسان يسير هنا . «ياللعجب ، يا ميتسه ، إن أفضل مَنْ تسألينه عن هذا ، صاحبك فرانتس الذي يعرف كل شيء على وجه الدقة ، مثلما أعرفه أنا» . غير أن هذا لا يقول ولا يُفْصِح» «هذا حسن . إنه امروٌ من الشُطّار أهل المكر ، والآن لا يقول ولا يفصح» «ولكن لي» «ومااللذي تريدين أن تعرفيه يا تُرى؟» «وما تصنعه أنت» «وهل أحصل على قبلة ؟» عندما تقول ذلك لي» .

هنالك طوَّقها بذراعيه ، ولهذا الفتى الحديث السن ذراعان ، وهو يستطيع أن يضغط مثل هذا ، ولكلٍّ وقتُه وإبّانُه . أن يزرع ويستأصل ، وأن يبحث فيجد ثم يفقد ، أنا لا أحصل على الهواء . وهذا لا يرسل فتاته أما إن هذا الحارّ ، دعني بربّك ، إذا أقدم هذا على ذلك بضع مرات أخرى فسوف أنصرف . أُفٍّ لك ، لا بُدَّ لهذا أن يقول لي أوّلاً مااللذي دها فرانتس ، وما الذي يبتغيه فرانتس في الحقيقة ، ومااللذي كان من أمر كل شيء ، وما الذي يدور في خَلَد هؤلاء «الآن ترسلني ، يا راينهولد»

«إذاً فليكن ذلك» ويرسلها، فتقف ويَخِرّ على الأرض عند قدميها، ويقبّل نعليها، ما من شك في أنَّ هذا مجنون، ويقبِّل جوربَيْها، ويواصل ذلك صعوداً إلى ثوبها، فيدَيْها، لكلِّ وقته وإبّانه، ويواصل الصعود حتى يبلغ العنق. وتضحك، وتضرب بيديها حوالَيْها: «انصرف، أغْرِب عني، أيها الآدمي، فما أنت إلاّ مجنون» وحين يتوهج هذا يترتَّب على المرء أن يضعه تحت الدوش، ويتنفَّس لاهِثاً، وهو يريد أن يُمَرِّغ وجهه على رقبتها، ويتلَجْلَج، ولكن هذا غير ممكن الفهم، وينصرف وحده، تاركاً رقبتها، وهو الذي يحاكي الثور، ويسيران وذراعه على ذراعها، والأشجار تشدو، «أنظري، يا ميتسه، هذه حفرة جميلة، قد أنشئت من أجلنا— أنظري ذات مرة، حفرة من أجل نهاية الأسبوع. هنا طبخ أحدهم فيها، فهل نزمع الخروج من هنا. فإن المرء يلوّث سراويله بالأقذار»، ولكن إذا تهيّأ لي الاستقرار فربما تحدَّث عندئذ بحديث أفضل. «لا بأس، من ناحيتي. وقد كان المعطف الذي ينسدل على ماتحته خليقاً أن يكون أجمل». انتظري، يا ميتسه، اخلعي عني سترتي» «هذا جميل منكِ».

هنالك يرقدان منحرفين، باتجاه الأسفل، في وَهْدَةٍ من الأرض حافلة بالعشب، وتُصدِم بقدمها علبة محفوظات الأغذية فتدفعها عنها، وتنفتل على جسدها، وتضع بهدوء، ودونما حرج، ذراعاً فوق صدره. هنا كنا خليقين أن نكون، وتبتسم إليه حين يدفع عن صدره الصُدَيْريّ، ويطل السندان من فرجة القميص، ولا تنأى برأسها «الآن تسرد عليَّ شيئاً ما، يا راينهولد، ويشدُّها إلى صدره، ههنا كنا خليقين أن نكون، جميل، هذه هي الفتاة، وكل شيء على مايرام، فتاة جميلة، هي من الجمال في ذروته، أحتفظ بها زمناً طويلاً، هنالك يستطيع فرانتس أن يصيح ويصرخ قَدْرَ مايشاء، ففيما سلف لم يظفر بها، وراينهولد تنزلق قدمه باتجاه المنحدَر، ويجر ميتسه فوقه، ويطوِّقها بذراعيه المتشابكتين ويقبِّل فمها فيمصُّه إلى أن يَلِج في فمه، ما من رحمة لديه، وما هي إلاّ المتعة، والرغبة، والتوحُّش، وهنا تعدُّ كل ضربة باليد كالمكتوبة، ولا يمكن أن يأتي أحد، ليحول هنا دون شيء ما، ثم يكون التفجُّر، والتدفق، وتطايُرُ الشظايا، وما من إعصار، أو ضربة حجر يستطيعان أن يفعلا شيئاً

يحول دون ذلك، فهذا قذيفة مدفع، بل لغم، يطير، وإذا طارت قذيفة لمواجهته اخترقها نافذاً منها، وأزاحها جانباً، بضغطه، وما هو إلاّ المُضِيُّ قُدُماً والاستمرار، وتتواصل المسيرة إلى مدى أبعد فأبعد.

«ياللعجب، لا تكن شديداً إلى هذا المدى، يا راينهولد» إنه يجعلني ضعيفة، واهنة، وإذا لم أتماسك أو أتجلَّد فسوف ينالني، «ميتسه» ويغمز بعينيه في نظرة، وتتطلَّع نحوها، ولا يرسلها: «وَيْحَك، يا ميتسه» «وَيْحَك يا راينهولد» «ماذا تدرسين فيَّ؟» «أنتَ، ما من شك في أنَّ هذا الذي تفعله بي عمل من أعمال السوء، منذ متى تَعرف فرانتس؟» «صاحبكِ فرانتس؟» «أجل» «صاحبك فرانتس، أمازال صاحبك؟» «إذاً فصاحب مَنْ يمكن أن يكون؟» «وَيْحَكِ، إذاً فمن عساايَ أكون؟» «ولماذا؟» وتهمُّ بأن تخفي رأسها في صدره، غير أنه يضغط وجهها نحو الأعلى: «وَيْحَك، مَنْ أنا؟» وترتمي عليه وتضغط على فمه، فيتوقَّد من جديد، أنا في نظره طيبة حين يتمدَّد، ويتوقَّ، على أنه لا يُصْدِر كُتَلاً من الماء، ولا يُقَدِّم خراطيم عملاقة كخراطيم جهاز إطفاء الحرائق التي تستطيع أن تطفئ هذا، وذلك أن لسان اللهيب يندفع خارجاً من المنزل، متنامياً من الداخل. «والآن تطلق سُراحي من جديد»: «ماذا تبتغين أيتها الفتاة؟» «لا شيء، أن أكون معك» «إذاً ويحك، فأنا صاحبك، كلا، هل كان بينك وبين فرانتس شجار؟» «كلاّ» «هل تشاجرت معه، يا ميتسه؟» «كلاّ، أنا أوثِر أن تحدّثني بشيء عنه، «لا أستطيع أن أحدثك بشيء عنه» «ياللعجب» «لن أسرد شيئاً، يا ميتسه» ويمسك بها بذراعيه فيَحْزِمها حزماً ويلقي بها جانباً، وتتصارع معه: «كلاّ، أنا لا أريد» «لا تكوني، بربك، شامسة جامحة، مشاكسة، أيتها الفتاة» «أنا أريد الصعود والخروج من هنا، فالقاعد هنا تنتابه القذارة التامة» «وإذا سردت عليك الآن شيئاً ما؟» «أجل، هذا جميل» «وإذا فعلتُ فما الذي أحصل عليه، يا ميتسه؟» «ماتشاء» «من كل شيء». «وَيْحَك، فسوف نرى» «كل شيء؟»

وكان الوجهان معاً، يتوقدان، وهي لا تقول شيئاً، أنا نفسي لا أدري ما سأفعله، فعن طريقه تنطلق المسألة انطلاق السهم، أغربي عني أيتها الأفكار، لا أفكار، بل هو فقدان الوعي والغيبوبة.

وينهض قائماً، يغسل وجهه، بُعْداً لكِ، أيّتها الغابة، إن المرء ليتّسخ هنا. «سوف أروي لك شيئاً ما عن صاحبك فرانتس، أنا أعرفه منذ عهد بعيد، أتدرين، أيتها الآدمية أن هذا مغفَّل غريب الأطوار، وأنا أعرفه من الملهى، في شارع برنتسلاو، في الشتاء الماضي، وكان يبيع الصحف، ولأنه كان قد عرف رجلاً يقال له مِلْك، على الوجه الصحيح. وهنا تعرَّفتُ عليه، ثم قعدنا معاً. أما الفتاة فقد سبق أن حدثتك عنها» «أهذا حقيقي؟» «أفي هذه شك، إنه الحقّ كل الحق، غير أنه امرؤٌ غبيّ، هذا المدعو بيبركوبف، أو دوسّيلكوبف، وهذا شيء لا يستطيع أن يفخر به، شيء يرجع أصله إليّ، ففكّري حقاً في أنه كان يسوق إليَّ النساء؟ ياللعجب، نساؤه، كلاّ، لو كانت الأمور تسير وفقاً لهذا لكان هذا خليقاً أن يتحوَّل إلى جيش خلاص، لكي أتولّى أنا إصلاحه». ولكن إذا لم تتحسن، يا راينهولد» «كلاّ، فأنت ترَيْن، بالطبع، المسألة لا يمكن، إنجازها معي. لا بُدَّ للمرء أن يستهلكني كما أنا. وهذا أمر يقينيّ لا شك فيه، مثل كلمة آمين في الكنيسة، ولا سبيل إلى تغيير شيء فيه، ولكن في هذا، يا ميتسه، في هذا لا تستطيعين أن تغيّري شيئاً ما. يا ميتسه، إن صاحبك المسكين، وأنت فتاة حسناء بلا ريب، كيف تستطيعين أن تنقّبي عن مثل هذا الرجل ليكون فَتاكِ، وهو ذو الذراع الواحدة تفعل هذا مثل هذه الفتاة الحسناء، وأنت خليقة أن تحصلي على عشرة من الرجال مقابل كل إصبع من أصابعك؟ «والآن هلاّ تركت هذا اللغو والهذر، أيها الآدميّ» «مالنا ولهذا، الحب أعمى، في كلتا عينيه، ولكن مثل هذا! أتعلمين، ماذا يبتغي هذا مِنّا الآن، صاحبك المسكين؟ الآن يريد أن يمثل دور فيلهلم البدين، لدينا، لدينا دون سوانا من سائر البشر لقد أراد أوَّلاً أن يبعث بي إلى مصرف الكفارّات، إلى جيش الخلاص، وقد أصاب في هذا نجاحاً بصورة عابرة. والآن» «كلاّ، يجب عليك أن لا تَسُبَّ وتشتم هذا الرجل.

لا أستطيع أن أسمع هذا» هيا اضحك، هيّا اضحك، أعرف بالطبع، إنه صاحبك فرانتس، صاحبك فرانتس الحبيب، مازال هكذا، على الدوام؟ ماذا؟» «ما من شك في أن هذا لن يضيرك، يا راينهولد».

لكلِّ وقته وإبّانه، لكل امرئ ولكل شيء. أما الفتى المفزِع فينبغي له أن يطلق

سراحي، وهو امرؤٌ لا أعترف به، وليس في حاجة إلى أن يروي لي الحكايات «كلاّ، لن يضيرنا هذا، ويفترض أن يقع من نفسه موقعاً ثقيلاً، يا ميتسه، غير أنك اقتنصت هنا رقماً حَسَناً على هذا، يا ميتسه، وقد حدَّثك ذات مرة عن ذراعه؟ أليس كذلك؟ وما من شك في أنك عروسه، أو كنتِ كذلك! تعالَيْ، يا ميتسه الصغيرة، فأنتِ حبيبتي الحلوة، ولتحاذري أن تتصرفي بهذه الطريقة؟» وما الذي أصنعه فحسب، أنا لا أريد هذا، للزرع وقتُه وإبّانه، ولاستئصال الزرع وقته وإبّانه، وكذلك الخياطة والتمزيق، والبكاء والرقص، والنّدْب والضحك. تعالَيْ، بربك، يا ميتسه، ماذا تريدين أن تصنعي مع هذا، مع مثل هذا المدعو فاتسكه. أنت حبيبتي الحلوة. لا تتخذي هذا الموقف، بربك، لأنك عند هذا، ولستِ بالكونتيسة، ولْتَقَرّي عيناً بأنك تمثلين الحظّ والنصيب الأَوْفى». أَلا فقرّي عيناً بربّكَ، ولماذا ينبغي لي أن أَقَرَّ عينا. «والآن يستطيع أن يُعْوِل، الآن ماعادت له امرأة اسمها ميتسه». والآن فتوّقف، ولا تضغط عليَّ بهذه الطريقة، أنا لست من حديد». «كلاّ، بل من لحم، ومن لحم جميل، يا ميتسه، أعطني فمك». «وما هذا يا تُرى، أيها الآدمي، ينبغي لك أن لا تضغط عليَّ، ولا تتوهم، بربّك، وجود نقاط ضعف، وأين أكون أنا، صاحبتك ميتسه؟»

فاخرج من الحفرة، ودعِ القبعة في الأسفل. هذا سيَنْهال عليَّ بالضرب، وأنا أركض، وإذ بها تصرخ– ولما ينهض من الحفرة، تصرخ منادية فرانتس، وتجري، وإذ به قد نهض قائماً، ويركض، ويستبقها بوَثْبة واحدة، هو في أكمام القميص، ويمضيان كلاهما إلى شجرة، فيرقدان، أمّا هي، فتتقلّب وتتخبّط ضاربة بأطرافها في كل اتجاه، وهو فوقها، يمسك بفمها، ها أنت تصرخين، أيتها الجيفة، ها أنت قد عُدْتِ إلى الصراخ، فلماذا تصرخين يا تُرى، هل أفعلُ بك فعلاً ما، وهل أنتِ هادئة ساكنة، وَيْحَك، لقد ترك لك عظامك، مؤخَّراً، كاملة فانتبهي، فالأمور لديّ تتخذ وجهة أخرى، ويسحب يده عن فمها «أنا لا أصرخ» «هكذا، لأن هذا أحسن، والآن تنهضين قائمة، وتعودين أدراجك، جيئة وذهاباً، وتأتين بقبعتك، أنا لا أتسلَّط على امرأة ولا أعتدي عليها، ولم أفعل ذلك طوال حياتي، ولكن أنتِ

لست بمضطرة إلى أن تُدْخليني في إطار انتقامك. فهذا طريق طويل، لا يكاد ينتهي» ويسير وراءها.

«ألم يكن عليك أن تتصرفي التصرُّف الفجَّ الوقح مع فرانتس، أنتِ، حتى حين تكونين العاهرة الخاصة به». «سوف أنصرف الآن» «وماذا يعني الانصراف هنا، فقد نقلك مَنْ نقلك من إحدى الضفتَيْن إلى الضفة الأخرى، وما من شك في أنك لا تعرفين مع مَنْ تتحدثين، إنما تستطيعين أن تتحدثي هذا الحديث مع صاحبك فاتسكه». «أنا– لا أدري، ماذا ينبغي لي أن أصنع». «أن تذهبي إلى الحفرة، وأن تكوني طيبّة».

عندما يريد امروٌ أن يذبح عجلاً صغيراً، يربط حبلاً حول عنقه، ويذهب معه إلى المنصة، ثم يرفع المرء العجل الصغير إلى الأعلى، ويُرْقِده على المنصة، ويَشُدُّ وِثاقه.

ويسيران نحو الحفرة، ويقول: «ارقدي فيها»: «أنا؟» «عندما تصرخين! أيتها الفتاةّ! أنا أحبك، وإلاّ لما أتيت إلى هنا، وأقول لكِ، وحتى وإن كنت عاهرتَه، فأنتِ لست بالكونتيسة. فلا تُحْدثي معي جَلَبة، وأنتَ تعلمين أن هذا لم يَعُدْ بعدُ على أحدَ بنتيجة حسنة، وهنا يمكن أن يكون المرء رجلاً أو امرأة أو طفلاً، وهنا أكون مفرط الحساسية. وهنا يمكن أن تقرعي على صاحبك المسكين بابه ذات مرة. وهذا يستطيع أن يروي لكِ شيئاً ما، حين لا يكون فيه مايلوث سمعته، ولكنك تستطيعين أن تسمعي مني بالطبع كذلك، فأنا أستطيع أن أقول لكِ، بالطبع، لكي تعلمي من يكون هذا. ولكي تقفي على حقيقة الأمر، عندما تبدئين بي، لقد أراد أن يعرف هنا، في الأعلى ماذا يجول في خاطره، وربما كان يريد أن يكشفنا ويخوننا، بلا ريب، لقد وقف هذا حراساً، حيث كنا نعمل. ويقول، إنه لا يشارك، وهو إنسان مستقيم ليس في سلوكه ما يَشين، هذا الرجل. وهنا أقول: يجب عليك أن تشاركي، وهنا يترتَّب عليه أن يدخل معنا السيارة، وأنا مازلت لا أعرف ماذا أصنع مع الرجل، وهو الذي يتميَّز على الدوام، بشَذْقٍ كبير. وانتظري قليلاً، فها هي ذي سيارة قادمة وراءنا وأنا أقول في نفسي: الآنَ فاحْتَط لنفسك يابنيّ. وعليك أن تكون، مع تبجُّحك وتعاظمك مستقيماً حيالنا، واخرج من السيارة، فأنت تعرف الآن بالطبع أين أوْدَع ذراعه».

يدان جليديَّتان وقدمان جليديتان، هذا ما كان عليه. «الآن ترقد هنا، وتكون عزيزاً محبَّباً إلينا، كما يحسُن أن يكون ذلك». هذا قاتل. «أنت أيها الكلب الوضيع، أيها الوغد». ويشرق وجهه «ألا ترى، الآن فاصرخ من أعماق قلبك يا رجل» الآن سوف تطيع وتمتثل. وتزمجر، وتبكي: «أنتَ أيها الكلب، لقد أردتَ أن تقتل هذا، وقد جعلت منه امرأً من أهل التعاسة، والآن تريد أن تنالني، أنتَ أيها الكلب الخنزيريّ». «أجل، هذا ما أريده». «أنت أيها الكلب الخنزيريّ. أنت الذي أبصق في وجهك». ويسد فمها: «هل تريد الآن؟» إنها سكرى، تشدُّ على يده، قاتل، النجدة، فرانتس، فرانتس حبيبي، تعال».

وقتُه وإبّانه، وقته وإبّانه، لكلّ وقته وإبّانه، الخنق والشفاء، التحطيم والبناء، التمزيق والخياطة والرَّتْق، وقتُه وإبّانه، وتلقي بنفسها لتتحاشاه، ويتصارعان في الوَهْدة، النجدة، يا فرانتس.

هذا الشيء سوف نديره، وسوف نُعدَّ لصاحبك فرانتس بعض النكات والمزاح، وهنا يتاح له زادٌ منه يتزوَّد به على مدى الأسبوع بأسره. أريد أن أنصرف، ولقد سبق أن نازعتني نفسي إلى الانصراف».

ويركع من أعلى، فوق الظهر، ويداه تحيطان بعنقها، والإبهامان، في قفاها، ويتقلَّص جسدها. لكل شيء وقتُه وإبّانه، وُلِدَ ويموت، وُلِدَ ويموت، كل امرئٍ من الناس.

تقولين قاتل، وتستدرجينني إلى هنا، وربما كنتِ تزمعين أن تجرّيني من أنفي، قطعاً، هنا تعرفين راينهولد معرفة حسنة.

العنف، العنف، حاصد قد أوتيَ من الرب الأعلى، القوة والقدرة، دَعْني. وماتزال تلقي بنفسها وتتقلَّب وتتخبّط، وتضرب بساقيها من الخلف. هذه الطفلة سوف نُؤَرْجِحها، وهنا يمكن للكلاب أن تأتي وتفترس مايتبقىّ منك.

ويتشنّج جسدها، ويتقلَّص جسد ميتسه، إنها تقول: قاتل، وهذا شيء ينبغي أن تجرِّبه وتشهده، لقد جَشَّمك هذا، بلا شك، صاحبك الحلو، فرانتس.

وعلى أثر ذلك يُضرب الحيوان بالهراوة الخشبية، في قفاه، وتُفْتَح، بالسكين، في كلا جانبَيْ العنق، شرايين العنق، ويتم استيعاب الدم في الحوض المعدني.

الساعة تشير إلى الثامنة، والغابة معتدلة الظلمة، والأحجار تتأرجح وتميس. لقد كان عملاً صعباً، أما تزال هذه تقول شيئاً ما؟ إنها ماعادت تلهث، هذه المسكينة، هذا مايخرج به المرء حين لا يقوم بنزهة مع مثل هذه الجيفة.

لقد أُلْقِيَ بها إلى ناحية الدغل، وأُلْقِيَ بمنديل الجيب على أقرب شجرة لكي لا يعثر الناس عليها من جديد. أنا لهذه مستعد، أين كارل، لا بُدَّ أن أظفر به. ويعود أدراجه بعد نصف ساعة كامل، مع كارل. أيُّ متخاذل هذا، ويرتعد كارل، وتصاب ركبته بالوَهْن. ينبغي للمرء أن يعمل مع أمثال هؤلاء المبتدئين، الظلمة دامسة، ويبحثون مستعينين بمصابيح الجيب، وها هو ذا منديل الجيب، ومعهم المجاريف مأخوذة من السيارة، ويجري دفن الجثمان ويُهال عليه الرمل، والدغل من فوقه، إلاّ أنّه ليس هناك آثار أقدام. أيها الآدميّ، عليك أن تزيل الآثار بالمسح على الدوام، وَيْحَك، لِتكُنْ منتصب القامة، يا كارل، فأنت تتصرف كأنما كنت ممن شهدوا الجريمة.

إذاً فها أنت ذا تحوز جواز سفري، وهو جواز سفر جيد يا كارل، ودونك المال، ثم إنك تهيئ لنفسك جوّاً تخف فيه حِدّة التوتُّر مادامت زيادة التوتر تشيع فيه. أما المال فتحصل عليه، فلا تحملَنَّ من أجله همّاً، أما العنوان فسيكون، على الدوام، عنوان بومز، وسأَقْفِلُ عائداً، ولم يرني أحد أمّا أنت فلا يستطيع أحد أن يضيرك، إذ إن لك ذريعتك وحجَّتك. اتفقنا، فلننطلق».

الأشجار تتأرجح وتنوس، وتَميس، لكل امرئ، ولكل شيء.

الظلام دامس، وثمة مايميس وينوس، لكل امرئ، ولكل شيء.

الظلام دامِس، لقد أُرْدِيَ الوجه قتيلاً، وقُتِلَت أسنانها، وقُتِلت عيناها، وكذلك فمها، وشفتاها، ولسانها، وعنقها، وجسدها، وساقاها وحضنها، أنا

لك ، وينبغي لك أن تواسيني . قسم الشرطة ، محطة قطار شتيتين ، آشِنْفَر ، أحوالي تسوء ، تعالَ بربك ، نحن سواسية في البيت . أنا لك .

الأشجار تتأرجح ، وهي تأخذ في نَفْثِ الهواء ، يا للهول ، يا للهَوْل أوو أوه . الليل يتواصل . جسدها أُرْدِيَ قتيلاً ، وكذلك عيناها ، ولسانها ، وفمها ، تعال بربك ، نحن في البيت سواسية ، وأنا لك ، وثمة شجرة تَشِطُّ إذ تتكسَّر ، وهو يقف عند الحافّة ، ياللهَوْل ، هو وا ، هوو ، أوو ، أوو ، أوه ، هذه هي العاصمة ، أقبلت بطبولها ونایاتها . الآن يرقد في الطابق العلوي ، فوق الغابة ، والآن يوعز بإنزاله ، وحين تُسْمع أصوات الأنين والشكوى ، الطويلة ا لمطوطة ، يكون هو في الدور السفليّ . وصوت النَّهْنَهة يأتي من قِبَل الدَّغل . وهذا كما لو أن شيئاً ما يتعرَّض للخَدْش ، وهو يُعْوِل مثل كلب حبيس ، كما يُصَرْصِر ، ويبكي بكاء المستعطِف ، ولا بُدَّ أن أحداً دهسه ، ولكن بعقب الحذاء . والآن يتوقَّف من جديد .

الليل يُرخي سُدوله ، والغابة تنتصب هادئة ، شجرة إلى جانب شجرة . لقد ترعرعن في جوٍ من الهدوء ، وهن واقفات معاً كأنهن قطيع ، وحين ينتصبن بهذا القدر من التقارب والكثافة ، لا يكون من السهل أن تَدْهَمَهُن العاصفة . ولا تُضْطَرَّ إلى الاعتقاد بذلك إلى الأشجار الواقعات في الخارج والأشجار الواهِنات ، ولكن فلتتماسك ، ونحن الآن واقفات في سكون ، ونحن في الليل ، وقد غابت الشمس ، ياللهَوْل ، ها هو ذا قد بدأ من جديد ، إنه حاضر وهو الآن في الأسفل ، وفي الأعلى وفي كل نقاط المحيط ، وثمة ضوء أحمر ضارب إلى الصفرة ، وليل ، والنَّهْنَهة ، والصفير يزدادان قوة ، أمّا تلكم اللواتي ينتصبن على الحافة فيعرفن ماينتظرهن ، وهن اللواتي يُنَهْنِهْن ، والأعشاب ، غير أن هاتيك الأعشاب يمكنها الانحناء ، والرفرفة ، ولكن ماالذي تستطيعه الأشجار الغليظة ، وفجأة لا تعود الرياح تهبُّ من بعدُ ، وكان قد تخلّى عن هذا ، وماعاد يفعله ، فماذا يريد أن يفعل الآن .

بينما يريد امرؤٌ أن يقلب منزلاً رأساً على عقب ، لا يستطيع أن يفعل ذلك بيده ،

بل لا بُدَّ له أن يتناول مِدَكّاً. أو يدفن في الأسفل دينا ميتاً. أمّا الرياح فلا تفعل أكثر من أن تزيد في عرض صدرها قليلاً. وانتبهوا ذات مرة، إنها تمتصّ النَّفَس، ثم تنفُثُه، ياللهول، هووا، اوه- أوو- هوه، ثم تمتصُّه، ثم تنفثه، ياللهَوْل، هو وا، أوو، أو، ياللهَوْل، الجبل يتم استحضاره، ثم تنفُثُه، هوه، هوا- أوو- هوه- ذهاباً وإياباً. والنَّفَس يمثِّل وزناً، رصاصة تنطلق وتسير في اتجاه معاكس للغابة، وعندما تقوم الغابة فوق التلال والروابي، مثل قطيع، ثم إن الريح تجري من حول القطيع، وتتخلَّله بَعريفِها وهديرها.

الآن يستقيم أمرُ هذا، بُمْ، بُمْ، من دون طبول ومن دون نايات، غير أنهم لا يستطيعون الحِفاظ على انضباط الإيقاع. وعندما تكون الأشجار باتجاه اليسار على وجه الخصوص، ينتقل هذا، فوق ذلك بشكل «بُمْ»، باتجاه اليسار وتنثني منقلباً رأساً على عقب، وتتذمَّر، وتُقَرْقِر، وتتفجَّر وتنقلب فيكون لها صوت مكتوم، ويكون صوت العاصفة «بُمْ»، يجب عليك أن تنعطف نحو اليسار، ياللهول، هووا، أوو، هوه، في اتجاه الإياب، لقد مضى هذا وولّى، ورحل عنا مفارقاً. ولا يجب على المرء إلاّ أن يحيِّن اللحظة المناسبة، بُمْ. هاهو ذا يعود من جديد، انتباه، بُمْ، بُمْ، بُمْ، هذه قنابل طيارين، إنه يريد أن يقتلع الغابة من جذورها، يريد أن يسوِّي بالأرض كل الغابة.

والأشجار تُعْوِل وتتأرجح، وتتهاوى فيكون لها أطيط، وتتكسَّر، وتقرقر، بُمْ، إنها تتجه نحو الحياة، بُمْ، بُمْ. لقد غابت الشمس، وثمة أشياء لها وزنها تهوي هُوِيّاً، إنه الليل، بُمْ، بُمْ.

أنا لك، تعالَ بربك، فسنكون هنا عمّا قريب، أنا لك، بُمْ، بُمْ.

الكتاب الثامن

على أن هذا لم يُجْدِ نفعاً، ومازال لا يجدي نفعاً. لقد تلقى فرانتس بيبر كوبف ضربة المطرقة، وهو يعلم أنه مضيَّع، ولكنه ما زال لا يعلم لماذا.

فرانتس لا يلاحظ شيئاً وعجلة العالم تواصل دورانها

الثاني من أيلول، وفرانتس يروح ويغدو هنا وهناك كشأنه دائماً، ويرتحل مع كاوفميش الجريء القَدّ اللامبالي إلى حمام السباحة في الهواء الطلق في فانزيه، وفي الثالث من أيلول، المصادف يوم الإثنين يتولاّه العجب من أن ميتسه غير موجودة، كما أنها لم تكن قالت شيئاً. أما المضيفة فلا تستطيع أن تتذكّر شيئاً، ولم تتصل بالهاتف، بل ربما قامت بنزهة مع صديقها الرفيع المقام، ووليّ نعمتها، وما من شك في أنه سيضع عنها وِزْر العبء عمّا قريب، فلننتظر بعدُ حتى المساء.

وفي المساء قعد فرانتس في بيته، ويُقْرَع الجرس إيذاناً بوصول البريد بالهواء المضغوط، من وليّ نعمتها، إلى ميتسه، ياللعجب، ماهذا، أنا أحسَب أنها هنا، أو ما الذي حدث، يا تُرى، وأفتح الرسالة: «وأنا أَعْجَبُ، ياسونيا، من أنك لا تتصلين بي حتى بالهاتف، وبالأمس وأوّل أمس، كنت في انتظارك، كما اتفقنا، في المكتب، فما هذا، أين تستكين هذه.

وينهض فرانتس، فيبحث عن قبعته، أنا لا أفهم، فلأنزل ذات مرة إلى أسفل، إلى السيد تاكسه. «ألم تكن هذه عندك؟ ومتى كانت هذه آخر مرة هنا عندك، يا ترى؟ يوم الجمعة؟ هكذا». وينظر كلٌّ منهما إلى الآخر. «ما من شك أنَّ لك ابن أخٍ أو ابن أخت، فهل يُعَدُّ من الجائز أن يكون معها؟» وينتاب السيدَ الشموسُ والجموح، ماذا، أيفترض أن يكون هذا مماثلاً لي في أصله ونشوئه، فابق ذات مرة هنا، وستشرب، متمِهلاً، خمراً حمراء، ويأتي ابن الأخ». «هذا هو عريس

سونيا ، كما قد تعلم ، فأين هي؟» «أنا ، ماالذي حدث» . «ومتى رأيتها آخر مرة؟» «ولكن هذا ما عاد حقيقيّاً على الإطلاق ، قبل أسبوعين هكذا» . صحيح ، هذا ما روته لي . ولم تَرْوِه لك بعد ذلك» .

«كلاّ» «ولم تسمَع شيئاً؟» «لم أسمع شيئاً على الإطلاق ، ولماذا أسمع يا ترى؟ وماالذي حدث؟» «السيد الموجود هنا سيقول لك ذلك بنفسه»: «لقد رحلت ، منذ يوم السبت ، ولم تنبس ببنت شفة . كل شيء راقد ساكن ، ولم تنبس ببنت شفة ، ولكن ، في أي اتجاه» ويقول وليّ نعمتها: «وهل أقامت علاقات معرفة»: : «لا تصدِّق» ويشربون ، ثلاثتهم ، الخمر الحمراء ، ويقعد فرانتس هادئاً ساكناً: «أنا أعتقد أنه لا بد للمرء أن ينتظر قليلاً» .

أما وجهها فقد أُرْدِيَ قتيلاً ، كما أُردِيَت قِتلى أسنانها ، وعيناها ، وشفتاها ولسانها ، ورقبتها ، وجسدها ، وساقاها ، وكما أُرْدِيَ قتيلاً حضنها .

وفي اليوم التالي ما عادت حاضرة ، إنها ليست حاضرة ، وإذ كل شيء كما خلَّفته وراءها . إنها ليست هنا . أجل ، إن إيفا تعلم شيئاً ما . «هل كان ثمة شجار بينك وبينها ، يا فرانتس؟» «كلاّ ، قبل أسبوعين ، ولكن كل شيء على مايرام» «أهو أحد المعارف؟» «كلاّ ، لقد حدثتني عن ابن أخ لسيدها ، غير أن هذا حاضر هنا ، ولقد رأيته» «ربما ، لقد كان لا بُدَّ للمرء أن يلاحظ هذا ويراقبه ، وربما كانت هذه ، مع ذلك عنده» . «هل تصدِّق؟» «كان من الواجب على المرء أن ينتبه . ففي حالة ميتسه لا يعرف القوم عنها شيئاً ، إذ إن لهذه ألواناً من الأمزجة» .

إنها ليست هنا ، وفرانتس يظل يومين لا يفعل شيئاً ما ، ويحسَب أنني لن أتعقَّب هذا . ثم لا يسمع شيئاً ولا يسمع شيئاً ، ثم يظل يوماً كاملاً يجري وراء ابن الأخ ، وفي ظهر اليوم التالي ، يسمع شيئاً ولا يسمع شيئاً ، ثم يظل يوماً كاملاً يجري وراء ابن الأخ ، وفي ظهر اليوم التالين حين تكون مضيفة ابن الأخ قد خرجت من المنزل ، يندفع فرانتس والأنيق كاوفميش ، على عجل ، إلى المسكن ، وينفتح الباب بسهولة ، بالكلاّب ، وما من أحد في المسكن ، وفي حجرته بعض الكتب ، وما من

شيء يعود إلى امرأة، وثمة صورة جميلة على الجدار، وكتب، ليست هنا، وأنا، وأنا أعرف مسحوقها الذي تتجمَّل به، وإنه لتفوح منه رائحة ليست كهذه، هَلُمَّ، ودَعْ عنك هذا، لا تأخذ معك شيئاً. ودَعْ المرأة الفقيرة تعيش من تأجير حجراتها.

وماالذي حدث، فرانتس قابع في حجرته. طوال ساعات. أين ميتسه، لقد غادرت، وهي لا تَدَعُ شيئاً يُسْمَع عنها. ماذا يقولون، كل شيء قد تداخل بعضه في بعض، في الحجرة، وتم تفكيك أجزاء السرير بعضها عن بعض، ثم تمَّ تجميعها. وهذه تدعني أقعد. وهذا ليس بالممكن، ليس بالممكن. إنها تَدَعني أقعد. أنا لم أقترف شيئاً، وأنتم لم تقترفوا شيئاً. وهذه، مع ابن الأخ لم تأخذ عليَّ شيئاً.

من يأتي؟ إيفا تقعد في الظلام، وما من شك في أن فرانتس يشعل الغاز؟»، : «وميتسه تدعني أقعد. أهذا ممكن؟». دَعْ عنك هذا يا رجل، أيها الآدميّ. إنها لا تلبث أن تعود من جديد، إنها تحبك، ولن تهرب منك، وما من شك في أنني أعرف أناساً» «أعرف كل شيء. وهل تحسَب أنني أدع أفكاراً باعثة للهمّ والغم تستحوذ على ذهني من أجل ذلك؟ إنها لا تلبث أن تأتي» «هل ترى أَنْ الفتاة صادفت شيئاً ما، أو لَقيَت أحداً من الناس، من الأيام السالفة، وأنها تقوم برحلة سريعة مرتجلة، قصيرة، أنا أعرف هذه من الأيام الخوالي، حيث لم تكن أنت عرفتها بعدُ على الإطلاق، وهذا شيء تفعله هذه، وإن لها لخواطرها ونزواتها». «ما من شك في أن هذا مضحك، لست أدري» «ما من شك في أنها تحبك، أيها الآدميّ. ألا فانظر بربك، إلْمَسْني من البطن، يا فرانتس» «ما هذا؟» «ويحك، هذا منك، فما من شك في أنك تعرف شيئاً يسيراً، لقد أرادت ذلك بلا ريب، هذه المدعوَّة ميتسه» «ماذا؟» «لا بأس».

ويضغط فرانتس برأسه في جسد إيفا: «عن ميتسه، دعينا نقعد فحسب، ليس هذا ممكناً» «ويحك، فانتبه يا فرانتس، فسوف تصطنع، حين تعود من جديد، وجهاً، وأي وجه». هنالك تُغْول إيفا ذاتها». ويحك، يا إيفا. أنت ترين، مَنْ المَغيظ المُخْنَق هنا؟ إنما هو أنت، بلا ريب» «ياللعجب إن هذا ليجعلني محطَّماً، وأي تحطم. أنا لا أفهم هذه الفتاة» «الآن لا بُدَّ لي أن أواسيك، أيها الآدمي». كلاّ، إنما هي مجرد الأعصاب، وربما نجم ذلك، عن هذا القدر اليسير» «فانتبه عندما تعود

هذه أدراجها، فسوف تقيم لك مشهداً دراميا وأيّ مشهد، من أجل ذلك». إنها لا تمسك عن العويل: فما الذي نعتزم عمله فحسب، يا فرانتس، فهذا ليس، على الإطلاق، منهجها في السلوك» «لقد قلتَ أوَّلاً: إنها تصنع هذا بهذه الطريقة، تقوم برحلة مرتجلة سريعة مع رجل، وتقول فيما بعد إن هذا ليس منهجها في السلوك». لست أدري، يا فرانتس».

وتمسك إيفا برأس فرانتس في ذراعها، وتنظر، من عَلٍ إلى رأس فرانتس: المستشفى في ماغديبورغ، والذراع التي قطعوها له بالدَّهْس. أما تلك المدعوَّة إيدا فقد أرداها قتيلة. وأما ميتسه فستكون ميّتة. أما إن وراء هذا لأمراً ما! لقد حدث شيء ما لميتسه. وتسقط على كرسيّ، وترفع يديها وقد تولاّها الفزع، وينتاب فرانتس فزع، أمّا تلك فتنشج وتنشج. فهي تعلم أنَّ وراء هذا شيئاً ما، وأنْ قد حدث لميتسه شيء ما.

ويلح عليها، في السؤال فلا تنبس ببنت شفة. ثم تتماسك، قائلة: «هذا الطفل لا أدع أحداً ينتزعه مني، وهنا يمكن أن تنتاب المفاجأة هربرت ويعتريه الارتباك والذهول» «وهل يقول شيئاً ما يا تُرى؟» لقد قطع بالوَثْب ستة أميال من الأفكار. «كلاّ، إنه يحسب أن هذا يأتي منه. غير أني أحتفظ به». «بالوَثْب ستة أميال من الأفكار.

«كلاّ، إنه يحسب أن هذا يأتي منه. غير أني أحتفظ به». «إنه حَسَن، يا إيفا، سأقوم بدور العرّاب». : «إنه لعجيب أن يكون لك مثل هذا المزاج الحسن، يا فرانتس». «لأنه ما من أحد يدنو مني بهذه السرعة. والآن فطيبي نفسا! وقرّي عيناً، يا إيفا وأنا سوف أعرف صاحبتي ميتسه. لن تذهب هذه تحت سيارة ركاب عمومية كبيرة، وهذا شيء يثبت ويتقرر بالبحث». «ينبغي أن تكون على حق. إلى اللقاء، يا فرانتس» «ويحك، هاتِ قبلة» «العجيب أنك مسرور، قرير العين إلى هذا المدى، يا فرانتس».

إنّ لنا لسيقاناً، وإنَّ لنا لأسناناً، وإنَّ لنا لعيوناً، وإنَّ لنا لأذْرُعاً، وهنا فليأت أحدهم. واحد له ذراعان، وساقان، وله عضلات، ولديه كل شيء في كُتَل

كبيرة ، وإذا قُدِّر لأحد أن يعرف فرانتس فإنه ليس بعصيدة الديك الغليظة . أمّا ما نخلّفه وراءنا . وما يكون بين أيدينا ، فهنا ينبغي أن يأتي امرؤٌ ما ، وهنا نشرب على هذا قدحاً ، بل نشرب عليه قدحَيْن ، بل تسعة أقداح .

أما نحن فلا سيقان لنا ، ويلاه ، ونحن قوم لا أسنان لنا ، ولا عيون ، ولا أذرع ، وهنا يستطيع كل امرئ له مقدرة أن يوجِّه قارص الكلام إلى فرانتس وأن يأتي إليه وهو الذي يحاكي عصيدة الديك الغليظة ، ويلاه ، إنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، بل لا يستطيع سوى أن يشرب .

«أنا أقترف شيئاً ما ، ياهربرت ، أنا لا أستطيع أن أنظر إلى هذا ، والرجل لا يلاحظ شيئاً ، فهو يقعد هنا ويقول ، هذه ستأتي ، ولا تأتي ، وأنا أنظر في كل يوم ، في الصحيفة ، فإذا هي لا يوجد فيها شيء ، هل سمعت شيئاً ما؟» «كلاّ؟» «كلاّ» . أفلا تستطيع أن تتسقَّط الأخبار وتسترق السمع هنا وهناك ، لعل أحداً من الناس سمع شيئاً ما ، سمعه من امرئ ما؟» . «أجل ، كل ما تقولينه يعد من قبيل خيانة الثقة ، يا إيفا ، وما يبدو لك في القصة غامضاً فهو عندي ليس بالغامض أبداً في الحقيقة . فما هو فحسب؟ لقد غادرته الفتاة ، وهنا لا يجهد المرء نفسه إجهاداً كبيراً ، إذ لا يلبث أن يظفر بأخرى» . وأنتَ خليق أن تقول مثل هذا في حالة مغادرتي أنا كذلك؟» «الآن فأُمسِكي ، يا إيفا . ولكن حين تكون الواحدة على هذه الصورة» «ليست على هذه الصورة . أمّا هذه فقد كنت أنا من جاءه بها ، وقد كنت نظرت في قاعة الجثث ، انتبه ، ياهربرت ، لقد حدث لهذه شيء ما ، وهذا الشيء إنما هو مصيبة لفرانتس ، أيها الآدميّ؟» : «أنا لا أدري ما هذه» .

«وَيْحَكِ ، في بعض الأحيان يقول أحدهم ، بلا ريب ، شيئاً ما ، أتُراكِ لم تسمعي على الإطلاق ، أيتها الآدميّة؟» : : «أنا لا أعرف ، بالطبع ، ما هو» «لا بأس ، في بعض الأحيان يقول أحدهم ، بلا ريب ، شيئاً ما ، النادي ، فهل رآها أحدهم؟ ما من شك في أن هذه لا يمكن أن تكون من هذا العالم . أنا – حين لا تكون هذه هنا عما قريب ، سأنطلق ، وأذهب إلى مجلس الرئاسة» «أهذا شيء تفعله أنت! هنا تنطلق!» «لا تضحكي فهذا شيء أفعله ، ولا بُدَّ لي أن آتي بها ، ياهربرت ، لقد حدث شيء ما

هنا، إنها لتنصرف بمفردها، وبالنسبة لي فإن هذه لا تنصرف هكذا، وتذهب بعيداً، وبالنسبة لفرانتس يُعَدُّ هذا كله خيانة للثقة، والآن فلنذهب إلى السينما، يا إيفا».

وفي السينما يشاهدان مسرحية.

وحين يُطاح، في الفصل الثالث، بالفارس النبيل، في الظاهر، من قِبَل قاطع طريق، تتنهّد إيفا وحين ينظر هربرت إلى المسرح نظرة جانبية، تنزلق هابطة من المقعد، وتغدو بالنسبة إليهم عاجزة، وينصرفان بعد ذلك صامتَيْن، وذراع أحدهما في ذراع الآخر، يجوبان الشوارع. ويقول هربرت مندهشاً «سوف يجد صاحبك الشيخ ما يسرُّه فيك، حين تكونين على هذه الصورة». «هذا هو الذي قتل ذاك بإطلاق النار عليه، ولقد رأيتَ هذا، ياهربرت؟» «لم يكن هذا إلاّ في الظاهر، بل كان اصطناعاً وافتراءً، على أنكِ لم تنتبهي، ثم ارتعدتِ» «لابُدّ لك أن تصنع شيئاً ما، ياهربرت، فإن الأمور لا يمكن أن تستقيم من بعدُ على هذه الصورة». «لا بُدَّ لك أن تضربي في الأرض، وقولي هذا لصاحبك الشيخ، فأنت مريضة» «كلاّ، ما العمل، ياهربرت، وما من شك في أنك ساعدت فرانتس، ومثلما كان هذا في حالة الذراع، بهذا الآن، بربك! أنا أرجوك ملتمساً، بربك!» «لا أستطيع، يا إيفا، وماالذي ينبغي لي عمله يا ترى، وتبكي، ويضطر إلى أن يضعَها في السيارة.

وفرانتس لا يحتاج إلى أن يخرج للتسوُّل، إذ تدسُّ إليه إيفا شيئاً ما، ويتلقَّى أشياء من بومز، حتى نهاية أيلول يأتي السمكريّ، ماتُر، من جديد، وقد كان في الخارج، إلى مونتاج أو نحوها وحين يرى فرانتس من جديد، يقول إنه كان يقضي فترة استجمام، والرئتان بحالة رديئة، وهو يبدو بائساً، كما أنه لا يستجمُّ على الإطلاق. ويقول فرانتس إن ميتسه قد غادرت ورحلت. وما من شك في أنه عرفها، غير أنه لا ينبغي له أن يقصَّ على أحد شيئاً ما، حين تهرب فتاة من واحدٍ منهم، وعلى هذا فلم تكن واحدة منهن تتوجه نحو راينهولد الذي كانت بيني وبينه قضايا نسائية فيما سلف ولقد كان خليقاً أن أن يضحك ضحكاً بالغ الشدة حين يسمع بشيء ما ويتبسم فرانتس قائلاً: ليس لديَّ امرأة أخرى، كما أنني لا أريد امرأة أخرى». إنه يبدو من فوق الجبين، محزوناً فيما يرتسم من السِمات حول فمه، غير

أنه يحني هامته بقوة، إذ يردّها إلى قفاه. أمّا الفم فكان يشدُّ أحد فكّيه على الفك الآخر.

وفي المدينة الكثير من أسباب الحركة والنشاط في الأعمال والتجارة، وقد ظل توني بطل العالم، غير أن الأمريكيّين ليسوا مسرورين ولا قريري العين بذلك في الحقيقة في هذه الأثناء، فالرجل لا يروق لهم، فقد ظلّ بين الجولتين، السابعة والتاسعة، طريح الأرض، ثم يغدو ديمبسي مصاباً بضربات فادحة تفقده المقدرة على الدفاع. وهذه هي ضربة ديمبسي الكبيرة الأخيرة، وكانت القضية قد انتهت في الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والخمسين من يوم ٢٣ أيلول العام ١٩٢٨، وفي وسع المرء أن يسمع من الحكاية ومن سجل الأرقام القياسية في الطيران لمسافة كولونيا، لايبتسيغ، ثم يُفْتَرَض أن توجد حرب اقتصادية بين البرتقال والموز، ولكن المرء يستمع إلى هذا وهو يغضُّ بصره، عَبْرَ الكوّة الصغيرة.

وكيف يحمي النبات نفسه من البرودة؟ إن كثيراً من النباتات لا يستطيع أن يقاوِم حتى الصقيع اليسير على أن نباتات أخرى على استعداد لأن تكوِّن، في خلاياها، وسائل حماية تُعَدُّ ذات طبيعة كيميائية، وتتمثل الحماية الأهم في تحويل النشاء المتضمَّن في هذه الخلايا، إلى سكر، وبالطبع فإن إمكانية استعمال بعض النباتات الطبيعيّة لا يرتفع مستواها كثيراً، بالطبع، عن طريق هذا التكوين للسكر، وهو الأمر الذي تقدِّم من أجله البطاطا التي تكتسب الحلاوة عن طريق التجمُّد، أفضل البراهين ولكن هناك أيضاً حالات تجعل محتوى السكر الذي ينبعث من خلال مفعول الصقيع في نبات أو في ثمرة، أوّلاً مؤهّلاً للاستعمال، ومثال ذلك الثمار البرية. فإذا ترك المرء هذه الثمار عالقة بالشجيرات إلى أوان الصقيع الخفيف على الشجيرات، فسوف تُكَوِّن عما قريب قَدْراً من السُكر يبلغ منه أن طعمه يتغيَّر ويطرأ عليه إصلاح جوهري. والشيء ذاته ينطبق على ثمر الزعرور البري.

وما الذي يُسْفِر عنه غرقُ اثنين من العاملين الألمان في التجذيف، في نهر الدانوب أو ذلك المَدْعوّ نسّاء الآن، حين يتمّ إسقاطه مع «طائره الأبيض» بالقرب من إيرلندة. فما الذي ينادي به هؤلاء في الشارع إن المرء ليشتري هذا بعشرة قروش، ثم يطرحه

بعيداً، ويدعه مطروحاً في مكان ما. لقد أرادوا القضاء على رئيس وزراء المجر، لأنه دهس بسيارته ابن فلاّح:

«القضاء على رئيس الوزراء المجري بالقرب من مدينة كابوسفار»، لقد كان هذا خليقاً أن يزيد في حدة الحدث، وقيل إن المثقفين قرأوا بدلاً من كلمة Lynchung «بمعنى القضاء على» كلمة Lunching «بمعنى تناول الغداء» وضحكوا من هذا. أما الآخرون، وبنسبة تبلغ ثمانين بالمائة، ومن المؤسف قلة هؤلاء، أو إذا كانوا كذلك، فإن ذلك لا يعنيني في شيء، وقد كان من الواجب على المرء، في الحقيقة، أن يفعل ذلك هنا.

وينطلق ضحك كثير في برلين، بالقرب من دوبرين، عند ناصية شارع الإمبراطور فيلهلم، ويقعد ثلاثتهم، وثمة كتلة غليظة، رجل ذو نكتة وفكاهة وصغيرته، شيء غليظ مترهِّل، إذ كانوا لا يزعقون على الدوام بهذه الطريقة فحسب، عندما تضحك، ثم يأتي بعدُ واحد آخر، وهذا هو صديقه الذي لم يحدث له شيء، ومن أجل هذا يدفع البدين الحساب، ولا يزيد على أن يصغي فحسب، ويضطر إلى المشاركة في الضحك، إنهم أناس أفضل، والمومس البدينة تدسُّ علكتها المفرقعة كل خمس دقائق إذ تدسُّها في فمها وتصرخ «الأفكار تكون لدى الرجل!» ثم إنه يمتص عنقها، ويستغرق ذلك دقيقتين كاملتين إمّا ما يقوله الآخر في نفسه، في هذه الأثناء، وهو يوجِّه بصره وجهة معينة، فذلك أمر لا يهمُّها ويروى المدعو كنالّ بروتس، قائلاً: «هنالك تقول هذه له: ماذا فعلت معي الآن؟ تقول هذه: ماذا فعلتَ الآن؟ وقد أستطيع أن أرويَ، في صورة قضية ثالثة، أيضاً: «يايينغ» ويبتسم المرافق ابتسامة ساخرة: «ما من شك في أنك جيفة محّنكة داهية» ويقول المدعو كنال بروتس مغتبطاً مسروراً: «لستُ محنّكاً إلى هذا الحد على النحو الذي تتصف به أنتَ، أيها الغبيّ المغفَّل،» ويشربون البوِيّون، ويُضطَرُّ البدين إلى السرد من جديد.

فإذا جاء إلى بركة صياد سمك يصطاد بالصنارة، كانت تقعد هنا فتاة، ويقول لها: لا عليكِ من بأس، أيتها الآنسة فيبشر، متى نذهب معاً، نصطاد السمك؟» فتقول: «أنا لاَ أُسمّى فيشر على الإطلاق، بل أُسَمّى فوغِل». «وَيْحَك، هذا أفضل».

ويزمجر الحاضرون الثلاثة جميعاً. ويصرح البدين قائلاً: «أمّا عندنا فيوجد اليوم حساء مختلط أو مزيج، وتقول المومس: «الأفكار إنما تكون لدى الرجال!»

«فلتسمع، أَوَ تعرف هذا. إذا قالت آنسة: «قل لي، ما اسمك في الحقيقة، بالمناسبة؟ منذ البداية وإلى هنا «أَوَ بالمناسبة؟» من البداية إلى الآن!» «أنظر» كذلك تقولُ هذه، «ما من شك في أنني كنت أقول في نفسي كلاماً مماثلاً، وهو أن هذا يُعَدُّ شيئاً غير لائق ولا يستقيم مع الأخلاق، ألا بُعْداً لهذا!» إنه لأمر بالغ الهدوء واللطافة والمزاج الحسن، ولا بُدَّ للآنسة أن تطفئ النار بأن تدوس عليها ست مرات. «هنالك قالت الدجاجة للديك الذي كان يصيح ضاحكاً، واعجباً لك، هلاّ تركتَني ذات مرة، أضحك، أنا، يارئيس النادلين، سوف أدفع حساب ثلاثة أقداح من الكونياك ورغيفين بالجبن وثلاثة قطع من عصيدة اللحم بالخضار مع ثلاثة من النعال المطاطة القديمة، وكان هذا بُقْسُماطاً». «ويحَك، فقُل بقسماط، أَقُل أنا: نعال مطاطية قديمة. أليس عندك شيء أصغر؟ وذلك أنه يوحد، في البيت، صغير في المهد، أَدُسُّ في فمه، على الدوام، قرشاً، ليَمُصَّه، وعلى هذا، ويحك أيتها الفأرة، تعالَيْ، لقد تم إنهاء ساعة الضحك، بهدف الوصول إلى الخزينة، فانهضوا، إلى مدينة كاسِّل».

وإذا عبرت بعض النساء والفتيات شارع الإسكندر وميدانه، وهن اللواتي يحملن جنيناً في بطونهن يتمتع بحماية القانون، وادعاً في رُكْنه، وبينما تتصبَّب النساء والفتيات عرقاً من الحرارة، يستقر الجنين وادِعاً في ركنه. وفي حالته يُعَدُّ كل شيء معتدلاً اعتدالاً صحيحاً، وهو يتنزَّه عابراً ميدان الإسكندر، ولكن الأمور ستسير فيما بعدُ سيراً سيِّئاً، بالنسبة لبعض الأجنة، وينبغي لها، أن لا تضحك، فيما بعدُ قبل الأوان.

ثم يجري أناس آخرون، هنا وهناك، إذ يُنْشبون مخالبهم حيثما يوجد شيء ما. أمّا بعضهم فالأمعاء عنده مترعة، وثمة آخرون يفكرون كيف يتم تحصيل الغذاء كاملاً، وأمّا متجر هان ففي الأسفل تماماً، وإلاّ لكانت كل المنازل ملأى بالمحالّ التجارية، غير أنها تبدو كما لو كانت محالاً تجارية مع أنها لا تعد، بالفعل، سوى جملة من المطاليب والرغائب المعروضة بإلحاح، وجملة من النداءات المغرية، وألوان من تغريد الطير، والانكسارات والانحناءات، وتغريد من دون غاية.

وانعطفت، ونظرت في كل المظالم والأباطيل التي حدثت تحت الشمس، ونظرت فإذا هي هنا دموع أولئك القوم الذين عانوا الكثير وعانوا من الباطل والظلم، ولم يتهيّأ لهم من يُواسيهم، وأولئك الذي أساءوا إليهم. وكانوا أكثر قوة وأشدَّ بأساً من أن يُقْتَصَّ منهم، هنالك أثنيت على الأموات الذين كانوا قد قضوْا نحبهم.

الأموات هم الذين أثنيت عليهم، لكلِّ زمانه وعصره الرتقِ بالخياطة والتمزيق، والاحتفاظ بالشيء، وطرحه بعيداً. الأموات هم الذين أثنيت عليهم. وهنا في الأسفل، الراقدون تحت الأشجار، أثنيت على الأموات الذين يرقدون تحت الأشجار، يرقد أولئك الذين ينامون.

ومرة أخرى تخرج حواء منزلقة، تنادي: «يا فرانتس، ألا تعتزم أن تفعل شيئاً ما آخر الأمر؟ لقد انقضت حتى الآن ثلاثة الأسابيع، أوَ تعلم، أنك لو كنتَ لي، وكنت قليل الاهتمام بي إلى هذا الحد» «لا أستطيع أن أقول ذلك لأحد يا إيفا، فأنت تعرفينه، وهربرت يعلمه، ثم يضاف إليهم السمكريّ، وفيما عدا هؤلاء لا يوجد أحد. لا أستطيع أن أقول ذلك لأحد فلا تسخري مني بربك، وأما الكشف والفضح فلا يستقيمان، بلا ريب، وإذا كنت لا تزمعين أن تعطيني، يا إيفا، فاسمحي بذلك، ويستقيم أمري، ثم استقيل من جديد»، لكي تكوني متكدرة وتحاذري الدموع- ياامرأة، لقد كان في وسعي أن أهتزَّ بجذعك، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، بلا ريب» «وأنا لا أستطيع هذا».

حصول مُتَنَفَّس في المسألة، المجرمون يتنازعون

وفي مستهل تشرين الأول يكون الجدل الذي كان بومز يخشى مغبته، في الطابور، وكان الجدل يدور حول المال. وكان بومز ينظر إلى معالجة المنتجات وتحضيرها وتصريفها على أنَّهاَ تشكلِّ القضية الرئيسيّة في طابور ما، أمّا راينهولد والآخرون ومعهم فرانتس، فكانوا يرون القضية الرئيسية في الكَسْب، وكانوا يرون أنّه من الواجب ضبط مسألة التوزيع «أي أن توزيع المكاسب» يجب أن يتم تبعاً لذلك وليس تبعاً للتصريف، وكان القوم يفرِّقون بين بومز ومن عداه، على الدوام بعوائد

مالية مفرطة في الارتفاع، وكان الرجل يسيء استعمال احتكاره في إطار علاقاته مع أولئك الذي يقومون بدور المُدَفِّرين، وكان المدفِّرون الذين يمكن الاعتماد عليهم والركون إليهم يأبَوْن أن تكون لهم علاقة بأي امرئ آخر سوى بومز: أمّا الطابور فيرى أنه على الرغم من أن بومز يتطرَّق إليه الوهن شيئاً فشيئاً، وإلى حد بعيد، وهو يُسَلِّم لكل الضوابط الممكنة بمشروعيتها: فإنه لا بُدَّ أن ينجم عن ذلك شيء ما، إنهم أكثر مَيْلاً إلى مؤسسة الجمعية التعاونية: إذا لابُدَّ أن يتحقق شيء ما. إنهم أكثر تأييداً للمؤسسة التعاونية. وهو يقول: هذا مايتوافر لديكم. غير أنهم لا يصدِّقون هذا بالطبع.

ثم يأتي الاقتحام في شارعِ شترالاوْ، وعلى الرغم من أن بومز ماعاد يستطيع، على الإطلاق أن يعمل عملاً إيجابياً فاعلاً، يشارك الإنسان هنا. إنه مصنع للضِمادات، وفي شارع شترالاوْ، المبنى القائم في وسط الفِناء، وقد مارس القوم الاستطلاع، وهناك أموال في الخزينة الفولاذية، في المكتب التجاري الخصوصي وإنما يفترض أن يكون هذا ضربة موجَّهة إلى بومز: فلا سلعة، بل مال ولدى توزيع المال لن يوجد بالطبع غُشٌّ أو خداع، ولذلك يتعلق بومز بهذا كذلك، إنهم يصعدون مثنى، مثنى، سُلَّم الإطفاء، ويثبتون، بهدوء ودونما حرج، القفل على الباب الأماميّ للمكتب التجاري، ثم إن السمكريّ يباشر التعيين والتحديد. وكل قيود المكاتب التجارية تتعرَّض للمساس بها أو انتهاكها، ولا يتوافر هنا وهناك سوى بضع ماركات، وطوابع بريدية وصهريجان للبنزين، في الدهليز، وهي أمور يمكن أن يحتاج المرء إليها. ثم ينتظرون عمال كارلشن وعمال السمكريّ أو ليس هناك بُدٌّ من أن يحدث لهذا أن يُحْرِق يده بالمنفاخ الآليّ عند الخزينة، ولا يعود في وسعه أن يعمل بعدُ، ويحاول راينهولد، غير أنه ليس له مِران ولا تمرُّس، فيأخذ بومز المنفاخ الآلي من يده، وتصبح المسألة كأنما تفوح منها رائحة الاحتراق، ولا يكون لهم بُدٌّ من التوقف، ويُضْطَرُّ الحارس إلى المجيء سريعاً.

ويأخذان، وقد استحوذ عليهما الغضب، صهاريج البنزين، فيصبون البنزين على كل قطع الأثاث بما في ذلك الخزينة الفولاذية الملعونة، ويقذفان إلى داخلها

بأعواد الثقاب، بومز سوف ينتصر، أليس كذلك؟ غير أنهم لا يجودون بهذا عليه، لقد قذفوا بأعواد الثقاب قبل موعدها إلى حَدّ ما، وقد لَسَعوا بالنار الفتى بومز حتى بان ذلك في لون بشرته، إنهم ليحققون هذا بلا ريب! فالفتى ليس لديه ما يبحث عنه هنا على الإطلاق. لقد أحرقوا كل ظهره، وهم يركضون على السلالم، ويلوِّحون بأيديهم قائلين:

«أيها الحارس»، وكان بومز قد دخل السيارة، وكان الغلام قد تعلَّم درساً من الحكاية، ماذا تقول، ولكن من أين نحصل على المال.

أمّا بومز فيستطيع أن يضحك، وذلك أن السلع كانت أفضل وتظل أفضل، ولا بُدَّ للمرء أن يكون اختصاصياً، فما العمل: ويتم التشهير ببومز، عن طريق الصراخ، بأنه مالك للمشروع مستغِلّ ونصّاب ولكن القوم لا يستطيعون أن يعرفوا، إذا ما ذهب القوم في تجربته إلى مدى مفرط في الابتعاد، إذ يسيء هذا استعمال روابطه، ويشكّل طابوراً جديداً. وفي النادي الرياضيّ، يومَ الخميس سوف يصرِّح قائلاً، أنا أعمل ما في وسعي عمله وأنا أستطيع إذا شئتم، تقديم الحسابات الخطّية وبالطبع فإن المرء لا يستطيع أن يبرهِن شيئاً، وإذا لم نكن مشاركين في الإدارة فسوف يقولون في النادي: هنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال هذا وهذا الرجل يفعل ما يستطيع، ولئن كان يعود عليه من الربح قَدْر أكبر قليلاً، فلا تسيئوا التصرف يامعشر البشر، ففي مقابل ذلك تظفرون بما لديكم من الفتيات اللواتي هُنَّ أهليّة أَهْلِيَّة واستحقاق، وهذا له عجوزه ولديه قَذَر ووَحْل، وعلى هذا فسوف يواصل المرء النهوض بالعبء، مع هذا الذي هو الملعون الذي يستغله، والذي هو صاحب المشروع الذي يعمل فيه.

وكان يَنْصَبُّ على السمكري الذي كان قد أدركه العجز في شارع شترالاوْ، وقد كانوا جميعاً يخرجون من المسألة صُفْر اليدين، الغضب بأسْرِه. ليس من الممكن أن نحتاج إلى مُنَقِّب كهذا. فقد أحرق هذا يده، وهو يبذل قصارى جهده ليعيد العمل إلى سابق عهده ويقيمه على قدم وساق، ولقد كان على الدوام يُحْسِن العمل، وهو لا يسمع الآن، على الدوام، سوى الشتائم.

أمّا معي فتستطيع المشاركة، كذلك يفكر هو بينما يتوجّع من مَغَص أو نحوه، ويروح ويجيء، لقد زجّوا بِي في هذا المأزِق في عملي وتجارتي، مثلما كنت أفعل في سالف الأيام، وإني لأسْكر قليلاً فإذ بزوجتي تزمجر صائحة بي، وهي مثل اليوم الأخير من السنة، وأنا لآتي إلى المنزل، من تراه يغيب عنه؟ إنه المسكين، فهو لا يصل إلاّ في السابعة، وكان قد نام مع امرئ آخر، ثم إن هذه غشتني وخدعتني، ثم إنني بِتُّ لا أملك المحل التجاري ، وليس لديّ امرأة، ومع ميتسه الصغيرة، ومثل هذا الكلب، راينهولد، لقد كانت هذه لي، ولم تشأ أن تذهب إلى هذا، وقد كانت ارتحلت معي بمناسبة العيد، وسارت على طول الطريق المشجّر، وكانت تقبّلني، ثم إنه انتزعها مني بعد ذلك لأنني مسكين ذو فقر مُدْقِع، ومثل هذا الكلب، ثم إنه لبث يعالجها ويزجي معها الوقت، هذا القاتل، لأنها لم تُرِدْه، والآن يعض فيلهلم البدين ليخرجه، وأنا أحرق يدي، وقد كان عليّ أن أساعدهُ في حمله، فهذا امرؤٌ ثقيل، قاتل حقيقيّ، وقد كان أحبَّ الأمور إليّ أن آخذ المسألة كلها، على عاتقي، بسبب مثل هذا الوغد، مثل هذا الثور الذي هو أنا.

انتبهوا إلى كارل السمكريّ، ففي هذا الرجل يعتمل شيء ما.

وينظر كارل السمكريّ حوالَيْه، ليرى، مع مَنْ يستطيع أن يتكلم. ففي نبع الإسكندر، قبالة تيتس، يقعد، وإلى جانبه اثنان من ربائب الرعاية، ثم واحد لا يعرف المرء عنه شيئاً، إذ يقول إنه يمارس أعمالاً شتى حين يكون لها وجود على وجه الخصوص، وإلاّ فهو صانع عربات أو مُصْلِح لها متمرّس في صناعته. وهذا الرجل يُحْسِن الرسم، ويقعدان معاً إلى المائدة، ويأكلان قديد لحم التَّيْس، ويعمَد مُصَلِّح العربات الشاب إلى رسم بعض الصور الجديدة في كراسة ملاحظاته، وهي صور نساءٍ ورجال، وأشياءُ من هذا القبيل، ثم إن الربائب يُسَرُّون أيّما سرور، وكارل السمكريّ يرمق الجهة المقابلة، يقول في نفسه إن هذا يستطيع أن يرسم رسماً جميلاً. أما الأولاد الثلاثة فيضحكون في رحله، وأمّا الربيبان فيتّسمان بالصلف والغرور، وذلك أنهما كانا في شارع روكر، وهناك كان ثمة مداهمة، وتعرّضا، حقّاً،

للإخراج والطرد، حتى من الخلف، وها هو ذا كارل السمكريّ يذهب إلى منصة صبّ الخمور.

وكان يسير هنا، على وجه الخصوص، رجلان، سيراً بطيئاً، أمام المقصف، ينظران حواليْهما يميناً ويساراً، ويتحدثان مع آخر يُخْرِج الأوراق، وينظران فيها، ويتفوّهان ببعض الكلمات، ولا يلبث الرجلان أن يقفا، كلاهما، لدى المائدة، عند الثلاثة الذين ينتابهم الفزع، غير أنهما لا تنتابهما نزْوة من النزوات، ولا ينبُسان ببنت شفة، إنه، على الدوام، مواصلة الحديث، دونما حرج، وبالطبع فهؤلاء ثوْران، قد جاءا من صالات شارع روكَّر، ولقد رأَوْنا، وهنا يتابع مُصْلِح العربات تصوير أشكال الخَنْزَرة التي يصوِّرها، كأَن لم يكن شيء، وإذا واحد من هذين الثورَيْن يهمس إليه قائلاً: «شرطة جنائية» وينزل بسُترته على جسمه، وعلى صُدَيْرية علامة تجارية قد صنعت من الصفيح، وإلى جانب ذلك يفعل هذا بكلا الرجلين. فهؤلاء ليس لديهم أوراق أما مُصْلِح العربات فلديه قسيمة خاصة بالمرضى، ثم إنه لديه رسالة من فتاة، ولا بُدَّ لهم، هم الثلاثة، أن يذهبوا إلى قسم شارع الإمبراطور فيلهلم، أما الصغار فَيُفصِحون، من الدور الأعلى، على الفور، عمّا لديهم، غير أنهم تتولاّهم الدهشة من كتل أحجار البناء الضخمة، كما يقول عنها الثَّوران، وهو أنهما لم يَرَياها على الإطلاق في شارع روكَّر، بل كان من قبيل المصادفة أنهما لَقِياها هنا، في نبع الإسكندر. وَيْحَك، لقد كُنّا أَحْرِياء، عندئذ أن لا نقول على الإطلاق إننا خرجنا هاربين، فهؤلاء يضحكون كلهم، معاً. على أن الثور يَخْبُط بيده على كتف كلّ منهم: «ألا إن ربَّ البيت لخليق أن يَقَرَّ عيناً حين تعودون من جديد» «ويلاه، فهذا الرجل في إجازة؟» أما مصلح العربات فموجود في حجرة الحراسة، مع رجال الشرطة، وإنه ليستطيع حقاً أن يفضي بمكنون نفسه، وعنوانه صحيح إلاّ أن له يدان هما أكثر طراوة من أن تصلُحا لمُصْلِح عربات، أو صانعها، على أن هذا لا يُقْنِع أحد الثورين الذي يُدير يَدَيْه على الدوام جيئة وذهاباً، غير أنني مكثْتُ، بالطبع، عاماً كاملاً من دون عمل، كما ينبغي لي أن أقول لك، وهو ما أعُدك من أجله من ذوي الاستعداد للجنسية المثليّة، أو أخاً من ذوي الحرارة، فأنا لا أعرف على الإطلاق ما عسى أن يكونه هذا.

«ومَّ تعيش؟ فهذه اثنتا عشرة ساعة، كما يستعلم عنها كارل، : «ممَّ تعيش. وماذا تفعَل إذاً؟» «ينبغي للمرء أن يمارس من العمل ما يحصل عليه» «ما منَ شك في أنك امرؤٌ لا يتوافر لديكَ من الحزم والعزم ما يؤهّلك لأن تفصح لي عن شيء؟» «وَيْحَك، أنت لست بمُصْلّح العربات أيضاً» «مثلما تُعَدُّ سمكرياً، أعَدُّ أنا مُصْلّحَ عربات». «هذا كلام لا يقوله الناس، بل أقوم بأعمال صانع الأقفال». : «هنا ربما أحرقت إصبعك في أثناء ذلك، في إطار العمل، أليس كذلك؟» «العمل، والظفر بالتنقيب، ليسا واردين في هذا المضمار». «ومع مَنْ تعمل يا تُرى؟» «أيها المهرّج الصغير، هل تريد أن تستدرَّ مني المعلومات»، ويسأل كارل مصلِح العربات: «هل تنتمي إلى نادٍ من النوادي؟» «في حيّ شونهاوزَر» «هكذا، في نادي الكيفل» «وأنت تعرفه كذلك». «وهل يفترَض أن لا أعرف نادي الكيفِل. ألا فَاسْأل بربك، أتُراهم لا يعرفونني، ومازال البنّاء باولي هنا» «وَيْحَك، ماذا تقول، هذا رجل أنتَ تعرفه، فهو، بالطبع، صديقي». «لقد كانا ذات مرة معاً في براندينبورغ».

«صحيح، هكذا، هكذا. فَاَسْمع، أم هل تُراك تعرف أنني خليق أن أهب خمس ماركات، وأنا ليس لديّ، ولا خمسة قروش، وإلاّ قذفت بي مؤجّرتي خارج الحجرة، وفي ملجأ أوغسطس، هنا لا أذهب، إنه الجوّ المتوتّر دائماً». «خمس ماركات، شيء تستطيع حيازته، إذا لم يتوافر بعد ذلك شيء» «شكراً جزيلاً. آه، أفلا نريد أن نتحدَّث ذات مرة عن صفقة تجارية» «شكراً جزيلاً. وَيْحَك، هلاّ تحدَّثنا ذات مرة عن صفقة تجارية؟»

ومُصْلّح العربات إنسان سطحي، ينزع إلى الحياة السهلة، ولا يمكن الاعتماد عليه، وقد عَرَض له ذلك ذات مرة مع النساء، وذات مرة مع الصغار، وحين يرزح المرء تحت أعباء الديون والمصاعب لا يبقى أمامه سوى الضخّ أو إنشاب المخالب. ثم إنه يبادر، هو السمكريّ ومعه آخر من نادي شونهاوْزَر، إلى الاستقلال بنفسيهما ويجريان إلى البنادق ويثبّتان ذات مرة، بضعة أمور قد لُفَّت وأديرَتْ، وحيثما وُجِد شيء يجب الإتيان به، يقذف به امرؤٌ ما من النادي، نادي مُصْلّح العربات، ففي البداية ينشبون مخالبهم في أصحاب الدراجات النارية، وبذلك يتاح لهم التمتع بحرية

الحركة، ويستطيعون أن ينظروا في البيئة التي تحيط بهم. ثم لا يكون المرء بعدها محدوداً بحدود برلين، حين يزمع المرء أن يُقْدِم على شيء ما، ويجد نفسه في الخارج.

والشيء الذي يَفْتِله الآخرون، يكون بالغ اللطافة، وفي شارع الألزاس يوجد محل لبيع الملابس الجاهزة، وفي النادي يوجد بضعة خياطين يستطيعون أن يعثروا على المكان الملائم والمطلوب، للأشياء، وحين يقف الناس هناك، في مجموعات ثلاثية قبالة المحل، يقف في الساعة الثالثة من الليل، هناك، الحارس، يتفقَّد منزله. وإذا سأل مُصلِّح العربات عمّا يحدث في المنزل، دخل الآخرون في الحديث، عن سرقات الكراسيّ، وهذا يعدّ الآن وقتاً خطيراً كل الخطورة، إذ يحمل الكثير من الزبائن مسدساتٍ في جيوبهم، وحين يُضبَطون يُرْدون مَنْ يضبطهم قتيلاً. كلاّ، فإن الثلاثة الآخرين ما كانوا ليُقْدِموا على شيء كهذا أبداً، وهل يوجد، يا تُرى، على وجه الإطلاق، هناك، في الدَّوْر العلوي، في محل الملابس الجاهزة، شيء يستحق أن يُحاز؟ ياللعجب، هنا يوجد، بلا ريب، كل شيء مترعاً بالأشياء والأمتعة، وخزائن ملابس رجالية، ومعاطف، وما يشاؤون، لا بأس، هنا كان لابُدّ للمرء، بلا ريب، في الحقيقة، أن يصعد إلى الدَّور العلوي، ويرتدي مجموعة كاملة من الملابس الجديدة. «ما من شك في أنكم قد أشرعتم أسنانكم واستَلَلْتم مخالبكم، فوق ما ينبغي، وما من شك في أنكم لن تثيروا في وجه الرجل الصعوبات». «صعوبات، مَنْ يتحدث هنا عن الصعوبات. فالسيد الجار هو آخر الأمر إنسان، ثم إنه لم يتطرق إليه السَّأم من هذا، وماذا يدفع هؤلاء لك يا تُرى مقابل الانتباه هنا، أيها الزميل؟» «هؤلاء، كما تعلم، لا يترتَّب عليهم على الإطلاق أن يسألوا عن شيء. فحين يكون المرء في الستين، تتوافر له القروش الواردة من دخله، ولا يعود في وسعه أن يفعل شيئاً ما، هنالك تستطيع أن تفعل مع الواحد من هؤلاء، ما تشاء» وأقول مع ذلك إنه لو كان الشيخ واقفاً هنا في الليل، لحرَّر نفسه، وقد كانوا كذلك في الحرب؟» الدفاع المدنيّ في بولونيا، غير أنه لم يكن يُجْتَرَف اجترافاً. أكنتَ كذلك؟» لقد كنا نضطر إلى النزول إلى الخنادق، ومن كان لا يزال يحمل رأسه تحت إبطه.

ومن أجل ذلك توجد أنت هنا» أيها الزميل، وانتبه لئلا يبادر أحد إلى إنشاب مخالبه في السيد المرهف الحسّ، هنا في الدور العلوي، ماذا تقول أيها الجار، هل نعتزم أن نفعل شيئاً ما هنا؟ وأين قَعَد هذا، أيها الجار؟» «كلاّ، كلاّ، أتدري، هذا بالنسبة إليّ مَخوفٌ أكثر مما ينبغي، وإلى جانب هذا فإن مسكن السيد، حين يسمع هذا شيئاً ما، وهو الذي تتسم نومته بخفَّتها البالغة». : «نحن هادئون ساكنون لا تصدر عنّا نأمة» هذا ما يقال لك، ألديك، بربك، موقد للطبخ، هلاّ قصصت علينا شيئاً ما، هل كنت تحتاج إلى أن تُعنى بهذا، بخنزير بدين كهذا».

وفيما بعد يقعدون القعدة الصحيحة في الدور العلويّ، وهم أربعة، لدى الحارس، في المكتب التجاري، يشربون القهوة، ومصلّح العربات أكثرهم شطارة ومكراً، وهو يتحدث عن بعض الأمور بصوت خافت، مع الحارس، وفي هذه الأثناء يتسلل الرجلان كلاهما إلى هناك، ويأتيان معهما بشيء ما، معاً، والحارس يهمُّ على الدوام بالوقوف، إذ يترتَّب عليه أن يقوم برحلته، وهو الذي لا يريد أن يسمع شيئاً عن المحل بأسْرِه، وأخيراً يقول مُصْلِّح العربات: «هلاّ تركت، بربك، كلا الرجلين يفعلان ما يفعلان، إذا كنت لا تلاحظَ شيئاً فما من أحد يمكن أن يأتي». «وماذا يعني قولك: لا تلاحظ شيئاً». أَوَ تعلم ماذا نفعل أنا أَشُدُّ وَثاقَك، وأنت؟ امرؤ قد أُغيرَ عليك، وهوجمت، فأنتَ، بالطبع شيخ كبير، فَبِمَ تستطيع أن تدافع عن نفسك. وعندما أقذف عليك حقاً، الآن، بمنديل، قبل أن تلاحظ ذلك، يكون لديك خرقة مفتولة كالحبل قد دُسَّت بين أسنانك، وقُيِّد ساقاك» «ياللعجب» «لا بأس عليك، لا تتكلَّف شيئاً بربك، هل تُراكَ تدع رَجُلاً كهذا المُفاخِر المتباهي، أو كهذا الخنزير البدين، يحدث ثقباً في رأسك؟ تعال، وسوف نشرب نخب هذه النكتة الفريدة حتى الثمالة، ثم لقد أخطأنا في حساب بعد غدٍ، أين تسكن أنت، فُدَوِّن ذلك، مقسَّماً بصدق وإخلاص» «وكم سيبلغ ما نخرج به في هذه الأثناء؟»: «هذا يتوقف على ما يأتي به هؤلاء. ومما لا ريب فيه أنك ستحصل على مائة مارك» «بل مائتين» «اتفقنا»، ثم يدخنان، ويشربان نخب النكتة الفريدة ثم يكون في حوزتهم

كل شيء مجتمعاً، والآن علينا أوّلاً بسيارة مضمونة، ويهتف السمكري قائلاً إنهم أصابوا حظاً عظيماً، وخلال نصف ساعة تكون سيارة سورين أمام الباب.

ثم تأتي النكتة: الحارس الشيخ يقعد على كرسيه ذي المسند، ويتناول مصلّح العربات سلكاً من النحاس ويَشُدُّ به وثاق الساقين معاً، ولكن ليس بإحكام مفرط، والرجل لديه شرايين قابلة للتشنُّج، وهنا في الأسفل يعاني من فرط الحسّاسية، ويقيّد ذراعه، بسلك الهاتف، والآن بدأوا، وهم ثلاثة مع الشيخ الكبير، في المُزاح، كم يريد هذا، ربما ثلاثمائة مارك أو ثلاثمائة وخمسين، ثم يأتون بسروالَي صبيْ وبمعطف صيفيّ خشن، أما سروالا الصبيّ فيشدون بهما الحارس إلى الكرسي، فيقول إن هذا قد كفى، غير أنهم يضحكون عليه بدرجة أكبر، فيقاوم، هنالك يحصل على بضعة من الضربات على أذنيه، نازلة إلى أسفل، وقبل أن يتمكن من الصراخ، يكون معطفه فوق رأسه، ومعه، على سبيل الحذر والاحتياط منديل يَد مربوط قبالةَ الصدر، وهم يجرّون البضاعة ليدخلوها السيارة، أمّا السمكري فيملأ بالكتابة لوحتين من الورق المقوّى: «حاذِرْ فهذا التعليق حديث العهد!» ويعلّق هذه على الحارس من الأمام ويعلّق تلك من الخلف، ثم يمضون لوجههم. لم نصل منذ عهد بعيد إلى المال بمثل هذه الطريقة المريحة.

غير أن الحارس يستحوذ عليه الخوف، ويغلي من الغضب وهو في شبكة قيوده وأغلاله. كيف أتخلَّص هنا من المأزِق، ثم أبقَوْا الباب مفتوحاً، ومن الممكن أن يأتي بعدُ آخرون ويخطفون ما يخطفون، على أنه لا يستطيع تحرير يديه، ولكن السلك المشدود على الساقين تنحلُّ عُراه ويتفكك إذا ما استطاع المرء أن يرى شيئاً، هنالك ينحني الرجل الطاعن في السن ويسير بخطىً قصيرة، والمقعد وراءه، عند ظهره، مثلما يكون حال الحلزون وبيته، يسير أعمى عَبْر المكتب التجاري واليدان مشدودتان شدّاً محكَماً إلى الجسد، ولا يصيب نجاحاً في تخليصهما، وكذلك لا يصيب نجاحاً في التحرر من المعطف السميك فوق رأسه. وهنا كان قد قطع المسافة متلمّساً طريقه على الدوام بصدمات الرأس حتى الباب، ماضياً نحو الدهليز، غير أنه لا يستطيع أن ينفذ من خلال الباب، ثم إنه يستحوذ عليه غضب رهيب، فيعود

القهقري ، ثم يشق طريقه إلى الأمام ونحو الجانب ، في الدار الساكنة الهادئة ، ويظل الحارس الأعمى ، يروح ويجيء ، المرة بعد الأخرى ، إلى الأمام ثم يعود القهقري ، ويحدث جَلَبة عظيمة ويسير نحو الباب فيرتطم به محدثاً صوتاً كصوت إطلاق النار ، لا بُدَّ أن يأتي أحد ، أريد أن أرى شيئاً ما ، ولَيَشْهَدَنَّ ذلك الكلاب ، لا بُدَّ لي من خلع المعطف ، ويصرخ في طلب النجدة ، ولكن المعطف يتقدمه ، ولا يستغرق هذا دقيقتين ، وإذا السيد الملاك يقظان ، ويأتي من الطابق الثاني أناس ، هنالك يقعد الشيخ باتجاه الخلف على خط مستقيم ، على كرسيّه ، ويعلّق جسده على نحوِ منحرف ، وقد راح في غيبوبة ، وتأتي بعد ذلك الجَلَبة الصارخة ، وكانوا قد اقتحموا المكان ، وقيَّدوا الرجل . وما الذي يأخذه ، يا رجل ، كذلك ، مثل هذا الشيخ ، إنهم يريدون أن يوفِّروا ، أن يوفِّروا ، دائماً ، في النهاية الخاطئة .

أيها الآدمي ، نحن نحتاج إلى بومز وراينهولد ، والطغمة القذرة بأسرها .

غير أن المسألة تنتهي بسلام ، وعلى نحو مخالف كل المخالفة لما كانوا يحسِبونه .

المسألة تنتهي إلى السلام

السمكريّ كارل يضيع، ولا يخلِّف أثراً، ويفتح رُزَم متاعه

ويدخل راينهولد المقصف في شارع برينتسلاوْ ، متوجّهاً نحو السمكريّ ويطلب إليه أن يأتي إليهم ، إذ كانوا يلتمسون صانع أقفال ، غير أنهم لم يعثروا عليه ، وقالوا إنه يفترض أن يأتي كارل إليهم ، يدخلان الحجرة الخلفيّة ، ويقول راينهولد: : «لماذا لا تريد أن تأتي ، وماذا تفعل يا تُرى ، على وجه الإطلاق؟ لقد سبق أن سمعنا» . «لأنني لا أسمح لنفسي بأن تتعرَّض للأذى والمضايقة من قبلكم» . : «إن لديك لَشيئاً آخر على كل حال» «ولا يعنيكم ما يتوافر لديّ» . «هذا ما أراه ، وهو أنَّ لديك نقوداً ، ولكن فلتكن أوَّلاً المشاركة من قبلنا ، وكسب المال ، وبعد ذلك الوداع لك ، هذا شيء لا وجود له» . «وهذا يعني هنا ، أن هذا لا وجود له! ففي البداية أنتم تزمجرون ، وأنا لا أستطيع . ثم إن المسألة تعني ، دفعة واحدة: أن المدعو كارل لا بُدَّ أن يأتي» . «لا بُدَّ أن

يأتي، ونحن ليس لدينا أحد، ثم فأخْرِج المال، حيث سبق لك أن شاركت، ونحن لا نحتاج إلى عمال المناسبات» «ولا بُدَّ لك أن تستخرج المال مني، يا راينهولد، هذا شيء ما عاد يتوافر لديّ» «عندئذ يترتَّب عليك أن تشارك على أية حال» «هذا شيء لا أُقْدِم عليه، ولقد قلت لك هذا من قبل». «يا كارل، ما من شك في أنك تعرف أننا نضرب لك كل عَظْم على حدة حتى نكسره، ونحن نَدَعُكَ أنت، بلحمك ودمك، تموت جوعاً»: «لَقد كان ثمة ضحك، وما من شك في أَنْ قَد كان لديك واحد قاعداً. أتُراكَ تعدُّني، حقّاً مثل هذه الخنزيرة الصغيرة، المعيَّنة، التي تستطيع أن تفعل بها ما تشاء»: «هكذا إذاً، أيها الآدميّ، الآن فانسَحِبْ، وسواء أكانت خنزيرة أم لم تَكُنْها، فالأمر عندي سيان، ولكن فلقَلْبِ المسألة على وجوهها. هل نزمع أن نعود، من جديد، إلى النطق بالكلام الذي يُقْصَد به أن يكون قُدْوَة: «الطقس المشرق الجميل»، إنه الموت الذي يحصد الأرواح.

ويمعن راينهولد النظر في الآخرين، فيما يترتَّب عمله، لقد تجمَّدوا وتعطّلت إمكاناتهم من دون صانع الأقفال، وفي هذه الأثناء يُعَدُّ الموسم مواتياً، ولدى راينهولد تكليفات من قِبَل اثنين من المُدَفّرين، وقد وُفّق إلى صَرْفِها عن نفسه وتحويلها إلى بومز، وهم يرَوْن رأياً مفاده أنه لابُدَّ من أن يوضَع كارل، السمكريّ في صندوق للتعرُّق، فهذا مخادع غشاش يطير في النهاية خارجاً من النادي.

على أن السمكريّ يلاحظ أن ثمة شَيئاً يُحاك ضده يجري على قدم وساق، فيزور فرانتس الذي يكثر من القعود في دكانه، ويقول إنه يفترض في فرانتس أن يبوح له ببعض الأمور أو يقف إلى جانبه. ويقول فرانتس: «في البداية وَضَعْتَنا في الداخل، هناك، في الطابق العلويّ في شارع شترالاوْ، ثم طلبت أن نقعد، ولكن هلاّ أمسكت عن ذلك» «ذلك لأنني لا أَمُتّ بصلةً إلى راينهولد، فهذا كلب أنتَ لا تعرفه» «إنه امروٌ صالح» «إنما أنتَ ثور، وأنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق عن هذا العالم، فأنت امروٌ ليس له عينان» «ألا لا تَلْغُوَنَّ بهذا الكلام الفارغ في أذني حتى تملأ بذلك رأسي، يا كارل، لقد بات لديّ من ذلك ما يكفيني فنحن نريد أن نعمل، وأنتَ تَدَعْنا قاعدين، وَلْتُحمِّل نفسك بعض الهمّ، أقول لك، إن أمورك لتسير معك

سَيْراً فيه اعوِجاج» اعوجاج راجع إلى راينهولد؟ أنظر ذات مرة كيف أضحك هنا، بهذا الاتساع أفتح شَدْقَيّ، وهنالك تتزعزع بطني، وإني لأبلغ من القوة ما يعدل ما يتمتع به هذا، وما من شك في أن هذا يعدُّني خنزيراً صغيراً، وَيْحَهم، أنا لا أقول شيئاً على الإطلاق. أمّا هذا فليأتِ» «فَلْتَحُلَّ ضفيرتك، غير أني أقول لك، فاَحْمِل الهمَّ».

وهنا تشاء المصادفة أن يسير السمكريّ، مع كلا زميلَيْه، بعد يومين في شارع فريدِن، ومع ذلك يضيع، أما مُصْلّح العربات فيتم الإمساك به، ولا يتمتَّع بالأمان سوى الثالث الذي يقف حارساً وسرعان ما قرّروا المسألة عن طريق التحرّيات والتحقيقات في مجلس الرئاسة، أما أنَّ كارل كان حاضراً لدى السطو في شارع الألزاس، فإنَّ بصمات الأصابع على فناجين القهوة تكفي. ولكن كارل يقول في نفسه لماذا تعرَّضتُ للضياع، وكيف استطاع الثيران، يا تُرى أن يستخرجوا ذلك؟ وكان هذا مجرد الكلب، المدعو راينهولد، الذي طعنهم بذلك! بدافع الغضب! لأنني لم أشارك في ذلك معه، وهذا الكلب يريد أن يجمّدني، مثل هذا المحتال النصاب، الذي استدرجَنا إلى الشَّرَك، مثل هذا النصّاب الذي تصل ضخامته إلى مستوى العملاق، وهذا شيء لمّا يسبق وجوده بعدُ. أما مصْلّح العربات فقد أرسل إليه رسالة سرية كتلك التي تُتَداوَل بين السجناء، قائلاً إن الذنب يقع على راينهولد، وإنه تشاجر، وأقول إنه كان هناك شاهداً ويومئ إليه مُصْلّح العربات أثناء المسير إيماءة الموافقة، ويوعز كارل بالإبلاغ عن قدومه لدى قاضي التحقيق، ويقول، وهو بعدُ في مقر رئاسة الشرطة الدائمة: «لقد كان راينهولد حاضراً، وقد سبق هربُه قبل ذلك».

أمّا راينهولد فقد ظفروا به على الفور بعد الظهيرة. وإذ به ينكر كل شيء، قائلاً إنه يستطيع أن يثبت غيابه عن موقع الفعلة وقتَ حدوثها، وكان شاحب الوجه من فرط الغضب حين رأى كلا الآخرَيْن لدى قاضي التحقيق، ويقف في مواجهتهما، ويفيد الكلاب أنه كان حاضراً لدى عملية اقتحام محل بيع الألبسة الجاهزة، ويستمع القاضي إلى هذا، وينظر في الوجوه، على أن المسألة ليست بالنظيفة، وهؤلاء يتراكم

لديهم الغضب بعضه فوق بعض. هذا صحيح، وبعد يومين يتبيَّن أن إثبات راينهولد غيابه عن موقع الفعلة وقت حدوثها إثبات صحيح، إنه لئيم، غير أنه لا يمت بسبب إلى هذه المسألة.

وكان الوقت مستهل تشرين الأول.

هنالك يُطْلَق سراح راينهولد من جديد، على أن كبار المسؤولين في الشرطة الجنائية يعرفون أنه ليس بالطاهر الذيل أو النظيف، ولسوف يراقبونه ضعفَ ماكانوا يفعلون، على أن قاضي التحقيق يؤنِّب كلا الرجلين، مُصْلِح العربات وكارل، قائلاً إنه لا ينبغي لهما أن يوردا هنا خواطر غبية مضحكة، أو حججاً ملفَّقة، فقد أثبت المدعو راينهولد وجوده في غير مكان الفعلة، أثناء الفعلة، وعلى أثر ذلك أخلد كلاهما إلى الصمت.

ويقعد كارل في صومعته، يطبخ. ويزوره شقيق زوجته المطلَّقة الذي يحافظ على علاقة طيِّبة معه. وعن طريق هذا يتوصَّل إلى محام ويُصِرُّ على الوصول إلى محام بارع في أمور العقوبات، ويعمد إلى هذا فيسأله، حين أصغى إليه بعض الوقت، أتُراه يفهم شيئاً ما، ويسأله كيف سيكون الحال حين يساعد المرء في دفن ميت. «ولماذا، ولأيّ سبب؟» «حين يعثر المرء على ميت، ويدفنه؟» «ربما كان ميِّتاً تزمعون إخفاءه، قد أرداه رجال الشرطة قتيلاً، أو كيف كان ذلك؟» «مالَنا ولهذا، وعلى كل حال، فحين لا يكون المرء ذاته هو الذي تم قتله، وهو لا يودُّ أن يُعْثَر عليه. هل يمكن أن يحدث للمرء عندها شيء ما؟»: «وَيْحَك، إذا كنتَ عرفتَ الميِّت فأنتَ خليق أن تنجم لك من معرفته مزيّةٌ حين تدفنه؟»: «أما المزية فلا وجود لها على الإطلاق، بل يساعد المرء بدافع الصداقة فحسب، إنه يرقد هنا وهو ميت، ولا يودُّ المرء أن يُعْثَر عليه».

«أوَ عثرت عليه الشرطة؟ الحقيقة أن هذا مجرَّد اختلاس لاكتشاف، ولكن كيف أدركته المنيّة؟» «هذا شيء لا علم لي به، إذ لم أشهد ذلك، فهلاّ قصَرْتَ إيراد قضاياك على الآخرين، ثم إنني لم أساعِد في ذلك، ولم يكن لدَيَّ علم بها، على الإطلاق. وإذ به يرقد هنا وهو ميت. والآن يقال: شارك في الإمساك به، فإنّا

نريد أن ندفنه» «ومن يقول لك هذا يا تُرى؟» «أتعني الدفن؟ لا بأس، واحد منهم، كائناً مَنْ كان، وكل ما أريد أن أعرفه هو: ما الذي يعنيني من هذا كله، يا تُرى، هل اقترفت ههنا شيئاً ما، إذا كنتُ ساعدتُ في الدفن؟» أتدري، أتدري، المسألة ليست، في الحقيقة، على الصورة التي تصوِّرها بها، أو لا تماثل هذه الصورة كثيراً، إذا كنت لم تشارك في ذلك على الإطلاق، ولم تكن تنطوي حتى على اهتمام بذلك، فلماذا ساعدت فيه يا تُرى؟» «شاركت في الإمساك، وأنا أقول بالطبع إنَّ ذلك كان بدافع الصداقة، ولكن الأمر سيان بالطبع، فأنا لم أشارك على كل حال، في ذلك على الإطلاق، كما أنني لم أكن أنطوي حتى على اهتمام بأن يُعْثَر عليه، أو لا يُعْثَر عليه» «وهل كان هناك، بينكم، أنتم العائدون إلى العصابة، هذا النوع من القتل السياسي للخصم والخَوَنة؟» «كلا، بالطبع» «أيها الآدميّ، أيها الآدمي، هلاّ رفعت يديك عن هذا، فأنا مازلت لا أعرف ما الذي تقصد إليه» «هذا في حد ذاته حسن، ياسيدي المحامي، أما ما أردتُ أن أعرفه فأنا أعرفه على أية حال» «ألا تزمع أن تحدثني عن المسألة بمزيد من الدقة؟» «أريد أن أُمْعِن النظر في المسألة حتى الغد».

ثم يرقد كارل السمكريّ ليلته على سريره، ويهمُّ بالنوم المدة بعد الأخرى، ولا يستطيع، ويحتدم الغيظ في داخله: لقد أصبحت الآن أكبر مغفَّل في العالم، الآن أردت أن أهتِك سِرَّ راينهولد، والآن لا ريب في أنه لاحظ شيئاً ما، وهذا ما عاد هنا على الإطلاق، ولقد قام هذا بمطاردته. ألا إنني لمغفل غبيّ. وكذلك يكون شأن المُخادِع. مثل هذا الوغد يجعلني أسير بالوَثْب، غير أني أقول هذا، أقوله عمَّن أصل إليه.

ثم تأبى الليلة أن تنقضي على الإطلاق بالنسبة لكارل، ومتى ينطلق لأول مرة صوت القذائف: بُمْ، أمّا أنا فالأمر سيان بالنسبة إليّ، فمجرد المساعدة والدفن، ليس له وجود على الإطلاق، وإذا كانت بضعة شهور تُحَصِّل ذلك، وحدها على مدى الحياة، ما عادت تتجلّى في صورة حَلّ، عندما يقطعون له ثمرة اللفت أو الشمندر على وجه الإطلاق. فمتى يأتي قاضي التحقيق، وكم يمكن أن يتأخر. وفي هذه

الأثناء يقعد راينهولد في القطار وينطلق، وصاحبه المخادِع المحتال لمّا يحضر، وفي هذه الأثناء يكون بيبركوبف صديقه، ومن أين يفترض أن يكسب هذا معيشته، بذراعٍ واحدة، أما مشوَّهو الحرب فيعكسون الموقف منهم بهذه الطريقة.

ثم يصبح هذا حافلاً بالحيوية في بنيانه الذي يُحاط به بنظرة شاملة واحدة وعلى الفور يدع كارل عمود إنذاره يتدلّى إلى الخارج، وفي الساعة الحادية عشرة يكون لدى القاضي، وَيْحَه، إنه يصطنع وجهاً، وأيَّ وجه. «غير أنك حادٌّ حيال هذا، وها أنت ذا تكشف عنه الآن وأنت سعيد موفَّق للمرة الثانية، وحين تهيء لنفسك ألواناً من المنغّصات والمزعجات فحسب، يا رجل» ولكن كارل يورد بعد ذلك معلومات يبلغ من دقتها أن سيارة تؤخذ عند الظهر فيركبها قاضي التحقيق ذاته، ومعه اثنان من رجال الشرطة الجنائية الأقوياء، وكارل، بينهم وقد قُيِّدَت يداه. ويكون المسير إلى غابة فراين.

هنالك يسلكون الطرق القديمة، والانطلاق بالسيارة جميل، ولَتَحُلَنَّ اللعنة حين يعرف المرء فحسب كيف يخرج المرء من السيارة، وكان الكلاب قد قيَّدوا يَدَي واحد، ولم يكن ثمة ما يمكن عمله، ولديهم المسدسات، لم يكن ثمة ما يمكن عمله، لم يكن ثمة ما يمكن عمله. الانطلاق بالسيارة، ثم الانطلاق، والشارع المشجر يمُرق مروق السهم بينما يمرّون به. هذه مائة وثمانون يوماً أهديها إليكِ، يا ميتسه، في حضني، فتاة مستعذَبة، إنها محتَّكة مخادعة، والمدعو راينهولد، الذي يمشي على الجثث، ويحك فانظر، أيها الفتى، فلنفكر مرة أخرى في ميتسه، سأعضُّكِ في لسانك، الذي يستطيع أن يعانق ويقبّل، فإلى أين نزمع الانطلاق، على طول هذا الطريق، أهو العبور إلى الجهة اليمنى أم إلى اليسار، الأمر سيّان بالنسبة إليّ، مثل هذه الفتاة المستعذَبة.

وينطلقان فوق الروابي والتلال، ويدخلان الغابة.

المنظر جميل في غابة فرايِنْ، وهي مربع للاستحمام، مكان صغير للاستشفاء. أما حديقة الاستشفاء فقد فرشوا أرضها من جديد فرشاً نظيفاً، بالحصى الأصفر،

وهنا، من الوراء، يوجد المقصف مع المصطبة، وهنا قعدنا، نحن الثلاثة. في سويسرة وفي التيرول، أجل هنا يشعر المرء بالارتياح البالغ، ففي التيرول يوجد لبن دافئ من ضَرْع البقرة، وفي سويسرة توجد عذراء، فوافرحتاه! ثم ينطلق هذا ليشمُخ معها بطوله. ولقاء بضع قطع من الأقمشة مضيت قُدُماً إلى الأمام، وبعت إلى مثل هذا المخادع الفتاة المسكينة، التي من أجلها أقعد الآن هنا.

وهذه هي الغابة التي تعد خريفيّة، وهي غابة تتخلّلها الشمس، على أن ذوائب الأشجار لا تتحرك، «يجب علينا أن ننطلق هنا على طول الطريق، إن لديه مصباح جيب، وليس من السهل العثور عليه، ولكن حين أرى الموضع أتبيَّنه من جديد، لقد كان خالياً تماماً، وكان ثمة شجرة تنتصب بانحراف شديد، تليها وَهْدة» «الوهاد كثيرة هنا» وَيْحَك، انتظر يا رجل، ياسيدي المأمور، لقد عَدَوْنا حتى أفرطنا في العَدْو، المسافة من الفندق لا تكاد تتجاوز العشرين دقيقة أو الخمس والعشرين ولم يكن الموضع بعيداً إلى هذا الحد» «ولكنك تقول، بلا ريب، إنك عدَوْت» «ولكن في البداية كان ذلك في الغابة، ولم يكن ذلك في الطريق، بالطبع، ولو كان كذلك لكان خليقاً أن يلفت أنظارنا».

ثم يكون هنا الموضع الخالي حيث تنتصب شجرة التنوب هنا، ومازال كل شيء كما كان في ذلك اليوم. أنا لك، لقد أُرْدِيَ قلبها قتيلاً، وأُرْدِيَت عيناها قتيلتَيْن، وأُرْدِيَ فمها قتيلاً، أَوَلاً نزمع أن نمضيَ مسافة أخرى، لا تضغط بهذا الإحكام، هذه شجرة التنوب السوداء، صحيح».

لقد ورد البلاد رجال راكبون، وكانوا يمتطون صهوات خيل بُنّية، لقد أقبلوا من جهة بعيدة، وكانوا يسألون دائماً أين يوجد الطريق، إلى أن وصلوا إلى الماء، إلى البحيرة الكبرى. هنالك ترجّلوا نازلين عن صهوات الخيل. وشَدّوا وثاق الخيل إلى شجرة بلوط، وكانوا يتلون صلوات عند الماء، ويخرّون على الأرض، ثم أخذوا قارباً ومخروا عباب الماء، وكانوا يُغَنّون للبحيرة، وكانوا يتحدثون إلى البحيرة. ولم يكونوا يبحثون عن كنز في البحيرة، بل كانوا لا يريدون سوى تمجيد البحيرة

الكبرى وكان زعيم من زعمائهم يرقد في الطابق السفليّ، ومن أجل ذلك، من أجل ذلك كان هؤلاء الرجال.

وكان رجال الشرطة يحملون المجاريف، وكان كارل السمكري يروح ويجيء هنا وهناك ويكشف عن الموضع، وكانوا يصدمون السفن، وبمجرد أن طعنوها باتت الأرض أقل تماسكاً، ثم تابعوا الحفر إلى مستوى أعمق، وكانوا يقذفون بالتراب إلى أعلى، وكانت الأرضية منفوشة وكانت أكواز الصنوبر ترقد في العمق، بينما كان كارل، السمكريّ واقفاً ينظر وينظر ويتربَّص. كان هذا هنا، هنا كان هذا بلا ريب، وهنا دفنوا الفتاة. «ولكن كم كان مقدار العمق يا تُرى» «ربع متر، أو أكثر» «ذلك ما لم يكن بُدٌّ من أن يتوافر لنا» ولكن هنا كان هذا، فتابع الحفر، يا رجل». فاحفر يا رجل، فاحفر يا رجل، ولكن إذا لم يكن ذلك هنا!» لقد نبشوا الأرض ونَفَشوها، وإنهم ليجرفون عشباً أخضر قد استخرجوه من العمق، هنا كان بعضهم لم يحفر إلاّ بالأمس أو اليوم، والآن لا بُدَّ أن تأتي، لقد بات يمسك على الدوام بأطراف خيشوميْه، وبالكمّ الذي لابُدَّ أن يكون تعرَّض للإهمال أو الغفلة عنه بصورة كاملة. كم شهراً بلغ هذا الوقت، على أن السماء أمطرت، وتوقَّف الحفّار الذي يحفر في الأسفل، يسأل وقد رفع طرفه إلى أعلى: «أيّ ثوب كانت ترتدي يا تُرى؟» «كانت ترتدي ثوباً داكن اللون، وقميصاً نسائياً خارجياً ورديَّ اللون» «من الحرير؟» «ربما كان من الحرير، غير أنه وردي فاتح». «أتعني، مثلاً، لوناً كهذا؟» وهنا كان في يد واحد من الرجال حافّة مدبَّبة. إنه التراب الذي عَلِق بها، والقطعة. إنها رطبة لزجة، ولكن لونهاورديّ، ويعرضها على القاضي: «ربما كانت من الكُمّ» ويتابع القوم الحفر. ومن الواضح الجليّ أنه كان يرقد هنا شيء ما. ربما حفر أحدهم بالأمس، أو ربما اليوم، هنا. وكارل يقف هنا، إذاً فهذا صحيح. لقد اشتَمَّ هذا رائحة فتيل، فنقَّب عنه، وربما قذف به في مكان ما، داخل الماء، وهذا واضح. والقاضي يتحدث مع المأمور، وقد انتحى به جانباً، ويطول أَمَد الحديث، ويقوم المأمور بتدوين الملاحظات لنفسه، ثم يعودون، ثلاثةً، إلى السيارة. ويظل أحد الرجال في الموضع.

ويسأل القاضي كارل وهم ذاهبون: وإذاً فحين أقبلت كانت الفتاة ميّتة؟» «أجل»

«وكيف تزمع أن تثبت هذا؟» «ولماذا؟» «ويحك، أهذا حين يقول صاحبك راينهولد الآن إنك قتلتها، أو ساعدتَ في ذلك؟» «لقد ساعدت في الحمل، ولماذا يُفتَرَض فيَّ أن أقتل الفتاة؟» «للسبب ذاته الذي قتلها هو من أجله. أوْ يفتَرَض أنه قتلها» «مامن شك في أنني لم أكن معها أبداً عند المساء» «ولكنك كنت معها بعد الظهر، بلا ريب» «ولكن لم أكن معها بعد ذلك بلا ريب. هنا كانت ماتزال حيّة» «سيكون هذا امتحاناً صعباً، وهو أن يثبت المرء وجوده، وقت الفعلة في غير مكان هذه الفعلة».

وفي السيارة يسأل القاضي كارل: «أين كنتَ إذاً في المساء، أو في الليل بعد القضية التي تورَّط فيها راينهولد» قاتل الله الشيطان، سأقول هنا. «لقد كنت في سفر، وكان قد أعطاني جواز سفره، ولقد تمَّ إبعادي، لكي أستطيع، حين تنجلي الأمور، أن أثبت وجودي، وقت الفعلة، في غير مكان الفعلة» «ولماذا تفعل هذا، فهذا أمر سيّء تماماً، بالطبع، أوَ كنتما متصادقَيْن إلى هذه الدرجة؟» «أنا فتى مسكين، وقد أعطاني هذا مالاً» «والآن ما عاد صديقك، أم أنه ما عاد لديه مال؟» «أتعني صديقي؟» كلاّ، ياسيدي القاضي، فأنت تعلم لماذا أقعد، بسبب قضية الحارس ونحوِها، فقد خانني هذا».

ويتبادل القاضي والمأمور النظرات بينما تمْرُق السيارة بسرعة بالغة، وتغوص مختفية في الحفر الموجودة في بلاط الشارع، ثم تَثِب، ويمرق الشارع المشجَّر مروق السهم. هنا انطلقت معه، وأنا أهَبُ لك مائة وثمانين يوماً. «لقد حدث هنا، بلا ريب، شيء بينكما، وتصدَّعت الصداقة؟» «أجل، مثلما يكون الحال على هذه الصورة «هذا الرجل يريد أن يخضعني لامتحان بالغ الدقة والإحراج، كلاّ، فنحن لا نعرّض أنفسنا للضحك والاستهزاء ونحن فوق نبات الكالاموس. كفى، ولْتَقف، فأنا أعرف». وذلك أنَّ المسألة على هذه الصورة، ياسيدي القاضي: فالمدعو راينهولد يتسم بغضبة الوحوش الكاملة، ولقد هَمَّ بأن يتخلَّص مني، أنا كذلك» «ياللعجب، هل أقْدَم على شيء ما ضدَّك؟» «كلاّ، غير أنه أدلى ببعض الملاحظات»: «ولا شيء بعد ذلك؟» «كلاّ» «وَيحَك، فنحن نريد أن نرى».

ويعثر على جثمان ميتسه بعد يومين على بعد نحو كيلو متر واحد من الحفرة، في

الغابة ذاتها. وعلى نحوٍ مماثل لما رَوَتْه الصحف عن الحالة، يبلغ عن قدومهما مساعدان يعملان في البستنة، ويقولان إنهما رأيا رجلاً منفرداً يسير في الغابة، في تلك الناحية، ويحمل حقيبة ثقيلة للغاية، وتحدث كلاهما عما يجرُّ هذا وراءه، بلا ريب، وقالا إن هذا الرجل لجأ فيما بعد إلى التقاط أنفاسه والاستراحة، ورقد في الوُهْدة، وحين عادا بعد نصف ساعة، كان مازال يقعد في المكان، في أكمام قميصه، وهنا ما عادا يريان الحقيبة التي ما من شك في أنها كانت في قاع الوهدة، ووصفا الرجل وصفاً جيداً إلى حَدٍّ ما، الطول نحو ٧٥، ١م. عريض الكتفين للغاية، له قبعة سوداء مُقوّاة، يرتدي حلة صيفيّة رمادية فاتحة، والسترة من طراز الفلفل والملح، وهو يجر ساقيه، كأنَّ صحته ليست على ما يرام تماماً، وله جبهة بالغة الارتفاع فيها تجاعيد مستعرضة، وفي الناحية التي أدلى المساعدان بالمعلومات عنها، يوجد الكثير من الوِهاد، ثم إن الكلاب البوليسية لا تفضي إلى ما هو أبعد، وإن يجري جَرْف كل الوِهاد التي تَرِد في الاعتبار، وفي إحداها يصطدم المرء بعد بضع طعنات بالأميال المعدنية بعلبة ضخمة من الورق المقوّى الأسمر، قد شُدَّ وَثاقها بالحبال، وحين يفتحها المأمور، يجد فيها قطع ملابس نسائية، وقميصاً ممزَّقاً وجوارب طويلة فاتحة اللون، وثوباً من الصوف قديماً، وكتب جيب قد اتَّسخ، وفرشاتَيْ أسنان، والحق أن علبة الورق المقوى مبلَّلة، ولكن لم تتسرَّب الرطوبة والليونة إليها من كل جانب، وكان المجموع يبدو، كما لو أنه لم يمضِ عليه بعدُ وقت طويل وهو راقد هنا. أمر غير مفهوم. فقد كانت الميتة ترتدي قميصاً نسائياً خارجياً ورديّاً.

وبُعَيْد ذلك يجد القوم الحقيبة في وَهْدَةٍ أخرى، والجثة قاعدة فيها قعدة القرفصاء، وقد شُدَّ وَثاقها بأحزمة العفة، وعند المساء تسير الأنباء في كل الأنحاء وفي كل أقسام الشرطة الخارجية، بأوصاف الفاعل الذي تتناوله التكهُّنات، وهكذا دواليك.

وفي تلك الأيام يعرف راينهولد على الفور، كيف كان يجري استجوابه في اللجنة التنفيذية الدائمة، وهو ما جعل الجرس يدقُّ دقّة تنطوي على نُذر الخطر، والآن يمسك بفرانتس ويدفع به إلى الحجرة بعنف. لماذا لا يمكن أن يكون هذا هو المعنيّ. وما الذي يستطيع أن يثبته كارل السمكري. أمّا أن يكون أحد رآني في غابة فراين، فذلك أمر مشكوك فيه، بل ربما رآني أحدهم، في الفندق، أو في الطريق، فهذا لا

يضير، فالقوم يحاولون، أمّا فرانتس فلا بد أن يرحل، فإنه يبدو كأنه مشارك في المسألة وداخِلٌ فيها.

ويكون راينهولد بعد الظهر مباشرة، حين يكون قد خرج من اللجنة التنفيذية الدائمة، لدى فرانتس في الدور العلوي، وكارل السمكري يخوننا. هلاّ انصرفت من دون أن يشعر الحاضرون بانصرافك، وإذ بفرانتس قد حزم أمتعته في ربع ساعة، وراينهولد يساعده، ويشتركان معاً في توجيه السباب والشتائم إلى كارل. ثم تؤوي إيفا فرانتس عند توني، وهي صديقة قديمة لها في فيلمَرزْدورف، وينطلق راينهولد معه بالسيارة إلى فيلمرزدورف، فيشتريان، معاً، الحقيبة، ويهمُّ راينهولد بالانطلاق إلى خارج البلاد، فيحتاج إلى حقيبة عملاقة، وفي البداية تنازعه نفسه إلى حقيبة على شكل خزانة، ثم يفضِّل حقيبة من الخشب، هي أكبر الحقائب التي يستطيع أن يحملها، أنا لا أعتمِد على حملة المتاع فإنهم يراقبون الواحد من المسافرين. أما عنواني فسوف تحصل عليه، يا فرانتس، سَلِّم لي على إيفا.

المأساة الرهيبة في براغ، واحد وعشرون قتيلاً اختفوا ومائة وخمسون طمرتهم الأتربة. هذه الكومة من الأنقاض كانت حتى قبل دقائق قلائل، مبنى جديداً مؤلفاً من سبعة أدوار، والآن يرقد تحته بعدُ كثير من القتلى وذوي الإصابات الفادحة. لقد انهار المبنى الحديدي بأكمله، بوزن ٨٠٠،٠٠٠ كيلو غرام في الدَّوْرين، تحت الأرض، وكان الحارس الذي يؤدي الخدمة في الشارع، يُنْذِر المشاة حين سمع صوت انهيار المبنى، فوثب، بحضور ذهن على عربة تنطلق مُقْبِلَةً عليه، من عربات الحافلة الكهربائية وكان يشدّ الكابح بنفسه، وكانت تنقضّ على الأطلسيّ عواصف جبّارة، وعلى المحيط يتشكّل الموقف في اللحظة الراهنة تشكلاً يجتذب إليه عمقاً من أعماق العاصفة، بعد العمق الآخر الموجود في أمريكا الشمالية في اتجاه شرقيّ، بينما يتم الإمساك المُحْكَم بكلتا منطقتَيْ الإعصار المضاد، اللتَيْن تستقران في أمريكا الوسطى، وبين غرونلاندة وإيرلندة، على أن الصحف تورد، منذ الآن مقالات تستغرق صفحات بأكملها، عن منطاد الكونت، وطيرانه الوشيك، وذلك أنَّ كلَّ تفصيل من تفاصيل تركيب المنطاد وشخصية القائد وآماله المستقبليّة التي تتوافر من أجل نجاح المشروع، يُناقَش بأكبر قدر من التفصيل ويجري إهداء ذلك إلى مؤسسة البراعة

الألمانية ، مثلما تمَّ إهداء المقالة الافتتاحية المتحمسة إلى منجزات السفن المنطادية . ومن الممكن أن نفترض ، على الرغم من كل ألوان الدعاية التي أقيمت من أجل الطائرات ، أن المنطاد المسيَّر «أو سفينة الجو» تمثّل وسيلة النقل الجوية في المستقبل ، ولكن المنطاد لا يطير طيراناً حرّاً ، «أو منفلتاً» وإيكينر لا يريد أن يعرّض للخطر هذه السفينة من دون فائدة .

ويُصار إلى فتح الحقيبة التي ترقد فيها ميتسه . كانت ابنة جابٍ في حافلة كهربائية من برناوْ . وكانوا ثلاثة أطفال في المنزل . أما الأم فأفلت عنانها وخرجت من المنزل ، أمّا لماذا فذلك ما لا يُعْرَف . وكانت ميتسه تقعد هنا وحدها ، وكان عليها أن تنجز كل شيء . وفي المساء كانت تنطلق في مركبة إلى برلين ، وتدخل المَراقِص ، في ليستمن والجهة المقابلة . وفي بعض المرات كان أحدهم يصطحبها إلى الفندق ، ثم بات الوقت متأخراً ، ثم ما عادت تَثِق لنفسها بالقدرة على العودة إلى البيت ، ثم ظلت مقيمة في برلين ، ثم لقيت إيفان ، واتصلت سيرتها به . كانا في ناحية شتيتين ، وبدأت حياة حافلة بالصداقة بالنسبة لميتسه ، التي أطلقت على نفسها أول الأمر اسم سونيا ، وكان لها كثير من المعارف ، وبعض الأصدقاء ، غير أنها ظلت فيما بعد متحدة على الدوام مع واحد وكان هذا رجلاً قوياً ، وحيد الذراع ظفرت ميتسه بحبه من النظرة الأولى ، وظلت حسنة السلوك معه حتى نهايتها وكانت نهاية وخيمة ، بل نهاية تبعث الأسى والحزن ، تلك النهاية التي لقيتها ميتسه . لماذا ، وما الذي اقترفته . لقد جاءت من برناوْ إلى خضمّ الحياة في برلين ، ولم تكن بريئة ، لم تكن كذلك ، بلا ريب ، غير أنها كانت تنطوي على حب في صميم القلب ، لا تخمد جذوته ، لهذا ، الذي كان زوجها والذي كانت ترعاه مثلما ترعى طفلاً . وهذه هي الحياة ، يصعب تصوُّرها أو التفكير فيها ، ورحلة إلى غابة فراين ، لحماية صديقها ، وفي هذه الأثناء تعرَّضت للخنق ، وتمَّ خنقها ، وولَّت ، وانتهى أمرها وهذه هي الحياة .

ثم يأخذ القوم بصمةً من عنقها ووجهها ، وما عادت بعدُ إلاّ حالة جنائية ، حدثاً تقنيّاً ، مثلما يمدِّد المرء سلكاً هاتفيّاً ، وعلى قدر ما نعلم فقد ذهبت وولَّت ، ويتخذ القوم لها قالباً ، ويصوِّرون كل شيء بالألوان الطبيعية ، وهذا مماثل للغش والخديعة ،

نوع من السيلولويْد[١١]. وها هي ذي ميتسه تنتصب قائمة، ووجهها وعنقها في خزانة للملفّات والأضابير، تعالَيْ، تعالَيْ بربك. فعمّا قريب تكون في البيت، آشنغر، ينبغي لك أن تواسيني، أنا لك، إنها تقف من وراء الزجاج، وقد أُردِيَ وجهها قتيلاً، ينبغي لك أن تواسيني، تعالَيْ بربك.

والْتَفَتُّ، ونظرتُ إلى كل باطل يحدث تحت الشمس

فراتنس، لماذا تتنهَّد، يافراننتس الحبيب، ولماذا تُضْطَر إيفا إلى الانزلاق نحوك على الدوام لتسألك، بمَ تفكِّر، ولا تحصل على جواب، وتُضطرُّ دائماً إلى الابتعاد، من دون جواب، ولماذا يضيق صدرك وينقبض قلبك، إنما هو ركن صغير، وستار صغير، وأنت لا تخطو سوى خطوات قصيرة، ضئيلة؟ أنت تعرف الحياة، وأنت لم تسقط من بطن أمك على الأرض بالأمس، بل إنك لتميِّز رائحة الأشياء وتلاحظ شيئاً ما. وأنت لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً، غير أنك تحسّ بالشيء إحساساً داخلياً، ولا تجرؤ على أن توجه عينيك صوبَه، بل تنظر إليه بطرف من عينك نظرة مُسْتَرَقة، غير أنك لا تهرب، إذ تُعَدُّ، بالنسبة إلى ذلك أكثر حَزْماً وعزماً لقد شَدَدْتَ أسنانك بعضها على بعض، شأنَ من يَعَضُّ على شيء ما، وما أنتَ بالجبان، غير أنك لا تدري ما يمكن أن يحدث، وهل تستطيع أن تأخذه على عاتقك، وهل تُعَدُّ كتفاك قويتين بما يكفي لتأخذه على عاتقك.

كم كان أيوب، الرجل الذي ينتمي إلى بلاد أُزْ، يعاني، إلى أن عرف كل شيء، وإلى أَنْ ما عاد لا يمكن أن يسقط عليه شيء. ولقد أغار عليه الأعداء من سبأ، وقتلوا رعيته، وسقطت عليه نار الرب من السماء، فأحقت الخراف والرعاة، وقتل الكلدانيوّن أباعيره[١٢]، وحُداتَه، وكان أبناؤه وبناته يقيمون في منزل أكبر

(١١) هي الدمى التي تُصنع من مادة صلبة شفافة قوامها السلولوز والكافور. «المترجم»
(١٢) جمع البعير، وهو ما يُتَّخذ للركوب من الجمال. «المترجم»

إخوتهنّ ، وانبعثت ريح من الصحراء فقلبت أركان منزله الأربعة رأساً على عقب ، وقُتِل الصبيان .

وكان هذا وحده كثيراً ، على أنه لمّا يزل غيرَ كافٍ ، وكان أيوب قد مزّق ثوبه ، وعضّ على يديه حتى أتلفهما ، وأخذ يشد شعر رأسه حتى اقتلعه ، وكَوَّم التراب على نفسه ، غير أن هذا مازال غير كافٍ ، فابتُلِيَ أيوب بالقُروح والدمامل ، وكان يقعد في الرمل ، وكان القَيْح يسيل منه ، فتناول كِسْرةً من زجاج ، وكشط بها نفسه .

وأقبل إليه الأصدقاء ورأوْه ، فكان منهم إيليفاس التيماني وبيلداد السُّواهي وزوبفار النامائي ، وأقبلوا من جهات بعيدة ، ليواسوه ، وكانوا يصرخون ويبكون بكاء رهيباً ، ذلك الذي كان له سبعة من الأولاد وثلاث من البنات ، وسبعة آلاف خروف ، وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة بقرة من أبقار الجرّ وخمسمائة أتان ، والكثير جداً من الخدم والحشم .

إنك لم تفقِد الكثير الذي يَعْدِل ما فقد أيوب الذي ينتمي إلى أُزْ ، يا فرانتس بيركوبف ، كما أن هذا يَحِلُّ بكَ رويداً رويداً وخطوة وخطوة تجرُّ نفسُك الذي جرى لك ، وأنت تَهَب لنفسك ألف كلمة طيبة ، وتشعر بما يتملَّقك ويزدَهيك ، لأنك تعتزم أن تتجرّأ ، وقد عقدت العزم على أن تتقرَّب ، بل لقد عقدت العزم إلى أقصى الحدود على الإطلاق؟ وليس هذا ، آه ، ليس هذا ، فأنت تناجي نفسك ، أنت تحب نفسك: ألا فَلْتَأْتِ ، فلن يحدث شيء ، فما يكون لنا أن نتفادى أو نتحاشى ، ولكني أريد ذلك فيكَ ، ولا أريده ، أنت تتنهَّد: من أين أحصل على الحماية ، المأساة تداهمني . بأيِّ شيء يمكنني أن أتشبَّث إنها تقترب! وأنت تقترب ، مثل قوقعة حلزون ، وما أنت بالجبان ، فأنت لا تتمتع بعضلات قوية فحسب ، بل أنت فرانتس بيركوبف ، أنت أفعى الكوبرا ، أنظر كيف تتلوّى ، متحركة سنتيمتراً فسنتيمتراً نحو الوحش ، الذي يقف هنا ويريد أن يهاجم .

لن تفقد أموالاً ، يا فرانتس ، أنت ، ذاتك سوف تحترق حتى أعمق أعماق نفسك! ألا فانظر كيف تطرَب المومس وتبتهج! عاهرة بابل! وجاء ملك من الملائكة السبعة الذين يمسكون بالأطباق السبعة وقال: تعالَيْ فإني أريد أن أستعرض أمامك

بابل الكبرى التي تستقر عند مياه كثيرة. وهنا تقعد المرأة، على صهوة حيوان أحمر قرمزيّ، وفي يدها كأس ذهبية، وقد كُتِبَ على جبينها اسم، سِرّ. المرأة سكرى من دم القديسين.

الآن تحسُّ بها إحساساً داخلياً، بل تشعر بها، وتعرف أتُراك ستكون قوتك كافية أم سيؤول أمرك إلى الضياع.

وفي الحجرة الجميلة المشرقة، في منزل فيلمرزدورْنَر الذي يقوم في وسط حديقة، يقعد فرانتس بيبر كوبف وينتظر.

وحيّة الكوبْرا تتجمع في صورة حلقات تشكل قرصاً، وترقد في الشمس تستدفئ، وكل شيء مملّ، وهو قوي، ويودُّ أن يعمل شيئاً، والمرء يرقد هنا وهناك. أنهم لمّا يتّفقوا على المكان الذي يريدون أن يلتقوا فيه، لقد أمَّنت له توني البدينة نظارة داكنة اللون مصنوعة من قرونِ الماشية، ولا بُدَّ أن أؤمِّن لنفسي زِيّاً رسميّاً جديداً كل الجدّة. وربما صنعت لنفسي، ندبة فوق وَجْنَتي. هنا يجري أحدهم في الأسفل فوق الفِناء. ولكن هل يستعجل هذا. أمّا عندي فلا يأتي شيء مفرطاً في التأخُّر. ولو أن الناس لا يستعجلون هذا الاستعجال لعاشوا مرة أخرى، حياة طويلة، وأيّ طول، ولبلغوا من الوفرة ثلاثةَ أمثالها. وفي حالة الجَرْي مدة ستة أيام يكون هذا هو ذاته، فهؤلاء يدخلون المرة بعد الأخرى، وبالهدوء، أبداً. والناس يصبرون، واللبن لن يفور أو يستفيض وفي وسع الجمهور أن يقوم بدور اللامبالي، فماذا يفهم هؤلاء من ذلك.

ويُسمَع قرع على باب الدهليز، ياللعجب، لماذا لا يقرع هؤلاء الجرس، اللعنة عليهم، سأخرج من الدكان، الذي ليس له سوى مخرج واحد، فلنُصْغِ ذات مرة.

وأنتَ تجرُّ أقدامَك خطوة خطوة، وتَهِب لنفسك ألف كلمة طيِّبة، وأنت ترضي غرورك، وتغري نفسك، وأنت على أهْبة الاستعداد لأقصى الاحتمالات، لا لأقصى الاحتمالات مطلقاً ياللعجب، ليس لأقصى الاحتمالات.

فلنصغ ذات مرة. ما هذا. ما من شك في أنّني أعرف هذا. أما الصوت فأعرفه

بلا ريب. زعيق، بكاء، ثم بكاء، ثم النظر ذات مرة، والفزع، أَيْ فزعي بمَ تفكِّر؟ وماالذي يتناوله تفكير الناس في كل شيء. ما من شك في أنّني أعرف هذه. إنها إيفا.

وينفتح الباب. وفي الخارج تقف إيفا، وقد وضعت توني البدينة ذراعَيْها حولها. إنه البكاء المستعطِف وهو التفجُّع. ماذا دها الفتاة وفيمَ يفكر القوم في هذا كله، وما الذي حدث، وميتسه تصرخ، وراينهولد يرقد في السرير. «طاب يومُكِ يا إيفا، ويحك يا إيفا، أيتها الفتاة، وَيْحَك ما هذا، والآن فتصرَّفي وَيْحَك، ما هذا، الآن فتصرَّفي، فقد حدث شيء ما، وما من شك في أنه لن يكون سيئاً إلى هذا الحد» «دعيني» وحين تنعَر هذه فما من شك في أنها قد أصابتها أسافين، وقد ضيَّعها أحدهم. فانتظري، لقد قالت هذه للسيِّد هربرت شيئاً ما، والسيِّد هربرت له معرفة بالبُنَيَّة، أَوَ قَدْ، ضربَك، المدعو هربرت؟» «دَعْني، لا تَلْمَسْني، أيها الآدميّ» أية عينَيْن تصطنعهما هذه، الآن تأبى أن تعترف بي، وما من شك في أنها هي التي أرادت ذلك بنفسها. فما الذي حدث فحسب، يا تُرى، وما الذي تنطوي عليه هذه يا تُرى، إذا جاء أناس آخرون فأَوْصِد الباب. هذه المدعوَّة توني تقف هنا، تفعل ما تفعلِ مع إيفا: «فكوني طيِّبة، يا إيفا، فتلكوني طيبة، ولتتصرَّفي، ولتقولي، ما هذا، تعالَيْ، وادخلي، وأين هربرت إذاً؟» «لن أدخل، لن أدخل» «وَيْحَك، فادخلي ذات مرة، فسوف نقعد، وسوف أَغْلي القهوة، انصرِفْ، يا فرانتس» «ولماذا ينبغي لي أن أنصرف، فما من شك في أنني لم أفعل شيئاً».

هنالك تنفتح عينا إيفا، وتغدوان باعثتَيْن للفزع، وكأنها تريد أن تفترس الواقف أمامها هنالك تزعق هذه، وتمسك بفرانتس من صديريّه: «ينبغي لهذا أن يأتي معنا، ينبغي لهذا أن يدخل معنا، سيدخل هذا معنا، ستدخل معي!» ما الذي دها هذه، هذه المرأة مجنونة، لقد روى لها أحدهم شيئاً ما. ثم ترتعد إيفا، وهي على الأريكة إلى جانب توني البدينة، وتبدو الفتاة مترهِّلة كالمتورِّمة وترتعد. وهذا ينجم عن الظرف، وفي هذه الأثناء وانتقل إليها هذا مني، وما من شك في أنني لن أضيرَها في شيء. هنالك تضع إيفا ذراعيها حول توني البدينة، وتهمس في أذنها بشيء ما، ولا

تستطيع، أوَّل الأمر، أن تتكلَّم، ثم تنطق بالكلام. والآن ينبعث شيء ما في توني، فتصفِّق بيديها، وترتعد إيفا. تسحب ورقة قد قُدَّت من عبث الأيدي بها، من حقيبتها، لا ريب في أن هذه قد دُهِسَت دَهْساً، أيقيم هؤلاء معي مشهداً مسرحياً، أم لا، ماذا ورد في الصحيفة، ربما كان ذلك عن قضيتنا في شارع شترالاوْ، وينهض فرانتس قائماً، ويزمجر، هاته النسوة نسوة غبيّات مغفَّلات «أنتن، أيتها القِرَدة، لا تصنعن معي مشهداً مسرحياً، أنتن ترَيْن فيَّ قِرْدِكُنَّ» «بحق الإله، بحق الإله» وتقعد البدينة هنا، وما زالت إيفا ترتعد وهي تنظر أمامها ولا تقول شيئاً، وتبكي بكاء المستعطفة وترتعد. هنالك ينتزع فرانتس عن وجه المائدة، من يد البدينة الصحيفة، ويطرحها جانباً.

ههنا صورتان، إحداهما إلى جانب الأخرى، ماذا، ماذا، إنه فزع رهيب، رهيب، شنيع، هذا أنا– أنا بلا ريب، ولماذا إذاً، بسبب شارع شترالاوْ، ولماذا إذاً، إنه فزع شنيع، هذا أنا، بلا ريب، وذلك لأن راينهولد. العنوان: جريمة قتل، جريمة قتل راحت ضحية لها مومس في غابة فراين، إميلي بارسونكه من برناوْ، ميتسه، ومن يكون هذا يا تُرى. أنا، ووراء المدفأة تقعد فأرة لا بُدَّ لها أن تخرج؟

وتشدُّ يده على الورقة كأنها تشنَّجت، ويدع جسمه يهبط رُوَيداً رُوَيْداً، على المقعد، ويقعد منكمشاً على نفسه كل الانكماش. فما الذي يَرِد في الورقة. وراء المدفأة تقعد فأرة.

هنالك تحملق المرأتان اللتان تبكيان، وتحدّقان في الجهة المقابلة، الاثنتان، ما الذي حدث، جريمة قتل، كيف يكون هذا، ميتسه، كيف يكون هذا، ماذا يعني هذا وترتفع يده من جديد فوق الطاولة، وإذا الجريدة يَرِدُ فيها هذا، فلأتابع القراءة: صورتي، أنا، وراينهولد. جريمة قتل، إميلي بارسونكه، من بِرْناوْ، في غابة فراين، كيف تنتهي هذه إلى غابة فراين، وأيّ نوع من الصحف الذي تعود إليه هذه الصحيفة، صحيفة مورغِن بوست، وتنفتح اليد وفيها الصحيفة. إيفا، ماذا تصنع إيفا. لقد بدَّلت هذه نظرتها، التي تنتقل إليه، في الجهة المقابلة، وماعادت تُعْوِل: «ماذا، يا فرانتس؟» إنه صوت، فواحد يتكلَّم، ولا بُدَّ لي أن أقول شيئاً ما،

امرأتان، جريمة قتل، وما جريمة القتل، في غابة فراين، لقد قتلتُها في غابة فرايِن، وأنا لم يسبق لي بعدُ أبداً أن ذهبتُ إلى غابة قرايِن، فأَين هذه، على وجه الإطلاق. «والآن فلتقل لي بربك، يا فرانتس، ماذا تقول».

وينظر فرانتس إليها، عيناه الكبيرتان تنظران إليها، وهو يمسك بالورقة مطروحة على الكف المنبسطة. ورأسه يرتعد، إنه يقرأ ويتكلّم، على دفعات، وينطلق بكلامه كأنه فرقعة. جريمة قتل في غابة فرايِن، إميلي بارسونكه من برِناوْ، المولودة في ١٢ حزيران ١٩٠٨. فهل هذه ميتسه يا إيفا. ويحُكُّ وجنته، وينظر إلى إيفا، نظرته الواسعة، الفارغة، غير المملوءة، ولا يستطيع المرء أن ينظر فيها. أهذه ميتسه، يا إيفا، أجل، ماذا تقول. يا إيفا. إنها ميتة. ومن أجل ذلك لم نعثر عليها «وأنت تقف عليها، يا فرانتس».

«أنا؟»

ويرفع الصحيفة من جديد، وينظر فيها. إنها صورتي

ويتأرجح الجزء العلويّ من جسده، بحق الإله يا إيفا، بحق الإله، ويتابع تأرجحه على نحو مطّرد وهو يمضي قُدُماً. والآن يأخذ في نَفْثِ الهواء ونفخه. والآن بات له وجه كأنما يبعث على ضحكه.

بحق الإله. ماذا نريد أن نعمل، يا إيفا، ماذا نريد ان نعمل» ولماذا صوروك إذاً هنا؟» «أين».

«ويحك، أنا لا أعرف» بحق الإله، ما هذا إذاً، وكيف يأتي هذا إذاً، هاها، إنه مضحك» والآن ينظر إليها عاجزاً مُحْرجاً، أمّا هي فتَقَرُّ عيناً، هذه نظرة إنسانية، وتترقرق الدموع في عينيها، وحتى البدينة تأخذ في بكاء مستعطف، ثم يستقر ذراعها على ظهرها بينما تستقر يده على كتفها، ووجهه مضغوط على عنقها، ويبكي فرانتس بكاء المستعطف، «ما هذا، يا إيفا، ما الذي جرى لصاحبتنا ميتسه، وما الذي حدث يا تُرى، إنها ميتسه، لقد حدث لهذه شيء ما. الآن تمَّ حسم المسألة، وهذه ليست بالبعيدة عني، وقد قتلها قاتلٌ ما، يا إيفا، لقد قتل قاتل ما صاحبتنا ميتسه قاتلٌ ما.

حبيبتي ميتسه، ما الذي حدث يا تُرى، أهذا صحيح يا ترى، قولي لي، هذا غير صحيح».

وبينما كان يفكر في ميتسه الحبيبة، إذ بشيء ما يتجلّى، وإذ بفزع يلوح من الجهة المقابلة، إنه هنا، إنه حصّاد، اسمه الموت، إنه يأتي وقد أفلت من عقاله بعد أن أُطْلِق سراحه، مسلَّحاً بالبلطات والقضبان وهو ينفخ في الناي الصغير، ثم يفتح فكَّيْه مباعِداً بينهما، ثم يتناول البوق، وسوف يضرب ضربته على الطبل الكبير، وسوف تأتي آلة دَكّ الأسوار، السوداء الرهيبة، بُمْ، دائماً، على نحو لا يكاد يلاحَظ، بُمْ.

وتنظر إيفا إلى صرير الأسنان البطيء، وإلى طحن فكيَّه، وتمسك إيفا بفرانتس، ورأسه يرتعد، وصوته يأتي. أما النغمة الأولى فتأتي كالطقطقة، ثم تغدو أكثر خفوتاً، ولم تنشأ كلمة.

تحت السيارة كان يرقد، وكان هذا كشأنه الآن، هنا طاحونة، ومَقْلَع للأحجار، يتكدَّس على الدوام فوقي، وأنا أتماسك، وأستطيع أن أتماسك كما أشاء، ولا يُجدي ذلك شيئاً، إنه يريد أن يُحَطِّمني، وحتى لو كنت كتلة من الحديد فهو يريد أن يهشِّمَني.

ويَصِرُّ فرانتس على أسنانه ويغمغم. «سوف يأتي شيء ما» «ماالذي سيأتي؟» وأي طاحونة هذه، فالعجلات تدور. إنها طاحونة هواء، بل طاحونة مائية: «فتدبَّر أمر نفسك، وحاذر، يا فرانتس، فإنهم يبحثون عنك» ويفترضون أنني أنا الذي قتلتها، أنا، ويرتعد من جديد ويعود وجهه من جديد إلى صورة الوجه المثير للضحك. لقد ضربتها ذات مرة، وهي المرة التي أريد أن أذكرها، لأنني أبعدت المدعوَّة إيدا، فأمكث قاعداً، يا فرانتس، ولا تنزل، وإلاّ فإلى أين تريد، أنهم يبحثون عنك، وهم يعرفونك من ذراعك» لن يظفروا بي، يا إيفا إذا لم أشأ أنا ذلك، وفي وسعك الاعتماد على ذلك، لا بُدَّ لي من النزول إلى عمود الإعلانات، يجب أن أرى هذا، يجب أن أقرأ هذا، في الحانة، وفي الصحف، أن أقرأ ما تكتب هذه الصحف، وكيف كان هذا» ثم يقف بين يدَيْ إيفا ويحملق فيها، ولا ينبس ببنت شفة، لو أنه لم يكن يوشك أن يضحك فحسب: «أنظري إليّ، يا إيفا، هل فيَّ شيء، أنظري

إليّ» «كلاّ، كلاّ» وتصرخ وهي تمسك به متشبثة: «وَيْحَكَ أنظري إليّ، أَوَ فيَّ عيبٌ أو ضَيْر، لا بُدَّ أن يكون فيَّ شيء ما».

كلاّ، كلاّ، وتصرخ وتُعْوِل، ويذهب إلى الباب، ويبتسم، ويتناول قبعته من الكومودينة، ويخرج.

وإذا هي دموع أولئك الذين يعانون من الظلم ولم يكن لهم مَنْ يواسيهم

وكانت لفرانتس يد مصطنعة، كان من النادر أن يحملها، والآن بات يذهب بها في الشارع، اليد الزائفة في جيب المعطف، وعن الشمال السيجار، لقد خرج من المسكن ثقيلاً، وكانت إيفا قد زمجرت وألقت بنفسها عند قدميه، لدى باب الدهليز، وقد كان وعدها أن لا يذهب بعيداً، وأن يحرص على نفسه ويحاذر، وقال: سأصعد إلى المقهى من جديد، ثم نزل.

ولم يكن القوم يضبطون فرانتس بيبركوبف ما دام لا يريد أن يُضْبَط، ، وكان يسير معه على الدوام عن اليمين وعن اليسار، مَلَكان يَصْرِفان الأنظار عنه.

وبعد الظهيرة ذهب في الساعة الرابعة إلى المقهى في الطابق العلويّ، وهربرت حاضر هناك هنالك يسمعون، أوَّل مرة، فرانتس يتكلم وقتاً طويلاً، وقال إنه قرأ في الصحيفة في الدور السفليّ، عن صديقه، كارل السمكريّ، وإنه كشف سرّه واستنكر فعله، وهو لا يعرف لماذا فعل هو هذا، وإن كارل، السمكريّ كان مشاركاً في غابة فراين التي سحبوا ميتسه إليها. وإن راينهولد فعل هذا بالقوة والعنف، إذ أخذ سيارة، وربما انطلق بالسيارة مسافة ما، مع ميتسه، ثم ركب كارل، وأَمْسَكا بها معاً، وجرّاها إلى غابة فراين، ربما في الليل، وربما كانا قد قتلاها في الطريق. «ولماذا فعل راينهولد هذا؟»: ، لقد قذف هذا بي تحت السيارة، والآن بات في وسعكم أن تعرفوا، أَنْ قد كان هذا هو، ولكن هذا لا يضير في شيء، وأنا لست مستاءً

منه، فالإنسان لابُدَّ له أن يتعلَّم شيئاً ما، وإذا لم يتعلَّم فلن يعرف شيئاً. ثم يجري الرجلان كما يجري الثور ذو القرنين، هنا وهناك، ولا يعرف المرء عن العالم شيئاً. وأنا لست مستاءً منه، كلاّ، كلاّ، والآن بات يريد تثبيط همتي وأن يثني عزمي. وكان يحسَب أنني قد بِتُّ في جيبه، وهذا ما لم يكن. هذا ما لاحظه، ومن أجل ذلك أخذ مني ميتسه، ومارس معها الجنس، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل حياله» ومن أجل ذلك، آيْ، لماذا، آيْ لهذا، وهدير الطبول، وزحف الكتيبة، الزحف. وحين يسير الجند في طرقات المدينة، آيْ لماذا، آيْ هنا، آيْ بسبب مجرد التشينغ، ديرادا، البوم ديرادا.

وهكذا زحفت معه في نسَق الجند، وهكذا أجاب، وكان هذا ملعوناً، وكان من الخطأ أن أزحف.

لقد كان من الخطأ أن أزحف، كان هذا خطأً، كان خطأً.

ولكن هذا لم يشكِّل شيئاً، هذا ما عاد الآن يشكِّل شيئاً.

ويفتح هربرت عينيه بقوّة، ولا تصدر عن إيفا أية نبرة. ويقول هربرت: «لماذا لم تحدثي ميتسه بشيء من هذا» «لا تقع عليَّ جريرة ذلك، إذ لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً حياله، فقد كان يتمتع بمقدرة مماثلة على أن يُرْدِيني قتيلة، حين كنت في حجرته. هذا ما أقوله لكم، ولا توجد حيلة ضدّه».

سبعة رؤوس وعشرة قرون، وفي اليد كأس مترعة بالعنف والهَوْل، هؤلاء سوف يظفرون بي ظفراً كاملاً، ولا سبيل إلى القيام بعمل ضدَّ هذا!

لو أن نبرةً ما صدرت عنكِ، أيتها الآدمية، أقول لك إن ميتسه كانت ما زالت حيّةً تُرْزَق حتى اليوم، مجرَّد امرئ آخر كان خليقاً أن يكون له رأس تحت ذراعه». «أنا لم أرتكب إثماً في هذا الصدد. فما يفعله الواحد من هؤلاء لا تستطيع أن تعرفه أبداً، وأنت لا تستطيع أن تعرف ما يفعله الآن، هذا شيء لا تتبيّنه». سوف أتبيَّنه» وتقول إيفا بلهجة المتوسِّل: «لا تبتدرَنَّ هذا، ياهربرت، فأنا خائفة «نحن نحاذر على أية حال، فتبيَّنه أوَّلاً، لترى أين يكمن، وبعد ذلك بنصف ساعة، ثم يظفر

به كبار المسؤولين الجنائيين» ويقول فرانتس بأسلوب التلميح: «فانفض يدك من هذا، ياهربرت، فإنه لا يعود إليك. أتعاهدني على ذلك؟» وتقول إيفا: أعطِها إياه، ياهربرت، وماذا تريد أن تفعل إذاً يا فرانتس؟» «وما الذي يرجع من هذا إليّ، فبالنسبة إليّ في وسعكم أن تقذفوا به على كومة الرَّوْث».

ثم يذهب مسرعاً إلى الركن ويسند ظهره إليها.

ويسمعون نشيجاً بعد نشيج، كما يسمعون نَهْنَهةً، ويبكي على نفسه وعلى ميتسه، ويسمعون هذا، فتبكي إيفا وتصرخ فوق المائدة، والصحيفة التي تحمل عنوان: «جريمة قتل» ما زالت راقدة فوق المائدة. لقد قُتِلت ميتسه، ولم يفعل أحد شيئاً، بل حلَّ هذا بها.

هنالك أثنيتُ على الأموات الذين قَضَوْا واستراحوا

وحوالَيْ المساء يكون فرانتس بيبركوبف من جديد في الطريق، وثمة خمسة من ذوي الوقاحة كانوا ينطلقون في الميدان البافاريّ. إنهم خمسة من السَّفلة الأوغاد الذين طالما لَقِيَهم فرانتس بيبركوبف، يفكرون فيما ينبغي لهم أن يقرِّروه في صَدَدِه، وفي كيف ينبغي لهم أن يحملوه بها على الخوف والشعور بعدم الأمان، وفي ماهية الكتلة الضخمة التي يريدون أن يجعلوا قدمه تتعثَّر بها.

ويصرخ واحد منهم قائلاً: «ها هو ذا يسير. أنظروا، فإن له ذراعاً زائفة، ومازال لا يسلِّم بالخسارة في اللعبة، وهو يودُّ أن لا يُعرَف أو يُميَّز.

ويقول الثاني: ماذا التهم هذا السيد اللطيف من كل ضرب ولون، هذا مجرم من كبار المجرمين، وهو الذي كان يترتَّب علينا أن نوقعه في شَرَك، وهو الذي يليق به السجن مدى الحياة. قلت امرأة، خيانة زوجية سريّة، سَطْوٌ واقتحام، وامرأة أخرى، وهو يُعَدُّ المذنب من هذه الوجهة، وماعساه يريد أن يفعل الآن؟

ويقول الثالث: إنه يَنْتفش انتفاش المتعاظم، ويُبْرِز ما يدل على براءته، ويمثل

دور الرجل الفاضل المستقيم، ألا فانظروا إلى هذا اللئيم، وحين يأتي واحد من كبار المسؤولين الجنائيين، فإننا نزمع أن نطرح قبعته أرضاً.

الأول، مرة أخرى: ولما يُفْتَرَض أن يعيش مثل هذا الرجل وقتاً أطول. لقد فَطِسْتُ أنا في السجن بعد تسع سنوات وكنتُ ما أزال أحدثَ سِنّاً بعدُ من هذا، هنالك كنتُ قد طواني الموت، وهنالك ما عاد في وسعي أن أنبس ببنت شفة، ارفع قبعتك، أيها القرد واخفض نظارتك التي تجعل وجهك مثل وجوه الأغبياء، فما من شك في أنك لست محرِّر جريدة، أيها الثور، بل أنت لا تعرف حتى حاصل ضرب الواحد بواحد، ثم تضع على عينيك نظارة من القرون، شأن العلماء، انتبه كيف يظفرون، بك.

ويقول الرابع: والآن لا تخطُوُنَّ بهذه الطريقة، بربكم. فما أنتم فاعِلون مع هذا. ألا فانظروا بربكم نظرة إلى هذا، فإن له رأساً يسير على الساقين، ونحن الوَقحِون الصغار نستطيع أن نجعله يسلك جانب الحذر.

ويقول الخامس: فارفعوا أصواتكم بشتمه، بربكم، إنّ حالته ليست على ما يرام، ولا بد أن ثمة خللاً في دماغه، وهو يذهب للنزهة مع اثنين من الملائكة، أما صاحبته فقالب مصبوب من الشمع فوق مقر رئيس الشرطة، فافعلوا، بربكم، شيئاً ما، مع هذا.

هنالك يسود بينهم الهَرْج والمرج ويصرخون، ويثرثرون بأحاديث تافهة شتى، فوق رأسه أما فرانتس فيرفع رأسه وقد تشتَّتتْ أفكاره وتقطَّعت أوصالها، وأما أولئك القوم الغريبو الأطوار الذي ذهب المرح بلبِّهم، فكانوا يتنازعون ويواصلون شتائمهم.

وكان الجوّ خريفيّاً، وفي قصر تاونيتْسيا كان يجري تمثيل مسرحية «الأيام الأخيرة لفرانسيسكو» وفي ملهى الصيادين للرقص خمسون من الراقصات الجميلات، في مقابل باقة من أزهار اللَّيْلك يجوز لك أن تقبِّلني، هنا لك يجد فرانتس أنّ: حياتي قد انتهت، لقد انتهى العمر بالنسبة إليّ، وحسبي هذا.

الحافلات الكهربائية تنطلق في طول الشوارع، إنها تنطلق جميعاً، أمّا إلى أين

فلا أدري، لا أدري إلى أين ينبغي لي أن أنطلق. الحافلة رقم ٥١، نورديند، شارع شيللر، يانكوف، شارع برايته محطة قطار شارع شونهاوزر المشجَّر، محطة قطار شتيتِن، محطة قطار بوتسدام، ميدان نوليندورف، ميدان بافاريا، شارع أولاند، محطة قطار شمارغيندورف، غرونيفالد، ثم الدخول، طاب يومك. هنا أقعد، وفي وسع هؤلاء أن ينطلقوا بي إلى حيث يشاؤون، ويأخذ فرانتس في تأمُّل المدينة، مثل كلب فَقَد أثراً من آثار الأقدام. أية مدينة هذه، يالها من مدينة عملاقة، وأية حياة، وأية حياة سبق أن عاشها فيها. وينزل من الحافلة في محطة قطار شتيتين، ثم يجتاز شارع الأنفاليد بطوله. وهنا توجد بوابة روزنتال، الملابس الجاهزة الفابيّة، هنا كنت أقف، وكان ينادي عليّ، حاملة ربطات العنق في عيد الميلاد السابق. وإلى تيغِل ينطلق المرء بالحافلة رقم ٤١. وحين تظهر الأسوار الحُمْر، والأبواب الخارجية الحديدية الثقيلة، يكون فرانتس أَهْدَأ، هذا من حياتي، ولا بُدَّ أن أتأمله، وأتأمَّله.

والأسوار تنتصب حُمْراً، والشارع المشجر يمتدّ قبالته، بطوله، والحافلة رقم ٤١ تنطلق مارَّة به، شارع الجنرال بابه، قرية راينيكه الغربية، تيغل وبورسيغ، تقومان بالتطريق. وفرانتس بيبركوبف يقف أمام الأسوار الحُمْر، ويذهب إلى الجانب الآخر حيث يكون المقصف، والمنازل الحمر وراء الأسوار تأخذ في الارتعاد والتحرُّك، كما تأخذ الوجنات في الانتفاخ، وعند كل النوافذ يقف أُسرى يصدِمون رؤوسهم بالقضبان، أما الشعر فقد تمَّ تقصيره إلى نصف ميليمتر، وإنهم ليبدون بائسين، مع نقص في الوزن، وكل الوجوه متجهِّمة، ذوات شعر مشعَّث، وهم يمدّون أبصارهم، ويشكون، وهنا يقف قتلة ويوجد اقتحام وسطو وسرقة وتزوير، واغتصاب، والفقرات بأسرها، ويشكون متجهِّمي الوجوه، وهنا يقعدون، يقعد المتجهِّمون، الآن كسروا، بالضغط رقبة ميتسه.

أما فرانتس بيبركوبف فيضل طريقه حوالَيْ السجن الكبير الضخم الذي يظل يرتجف على الدوام ويمور وينادي عليه، من فوق الأراضي ولا حقول، والغابة، مبتعداً من جديد نحو الشارع بأشجاره.

ثم يكون في الشارع، بأشجاره، أنا لم أقتل ميتسه، لم أفعل ذلك، وليس لي

ما أبحث عنه هنا، وهذا الأمر قد انتهى، وليس لي علاقة بتيغِل، ولا أعرف كيف جاء هذا كله.

لقد حلَّ المساء، والساعة تدق السادسة، هنالك يقول فرانس لنفسه: أريد أن أذهب إلى ميتسه، ولا بُدَّ لي من الذهاب إلى المقبرة، فهناك دفنوها.

أما المجرمون الخمسة، أولو الوقاحة، فقد عادوا إليه من جديد، وهم يقعدون في الدور العلويّ، فوق قضيب من قضبان البرق ويصرخون متجهين إلى أسفل. فلتذهب إليها، أيها الصعلوك المخادِع، وهل تتوافر لديك الشجاعة أو تُواتيك الجرأة، ألا تستحيي من الذهاب إليها؟ لقد نادت باسمك حين كانت ترقد في الوَهْدة، ألا فانظر إليها في المقبرة.

من أجل راحة نفس مَوْتانا، تُوفّي، في العام ١٩٢٧، من دون من وُلِدوا أمواتاً، «٤٨٧٤٢» نسمة فمنهم: ٤٥٧٠ ماتوا بالسل، و٦٤٤٣ ماتوا بالسرطان، و٥٦٥٦ بأمراض القلب و٤٨١٨ بأمراض الأوعية، و٥١٤٠ بالسكتة الدماغية و٢٤١٩ بالتهاب الرئة و٩٦١ بالسعال الديكي و٥٦٢ طفلاً ماتوا بالخنَّاق «الدفتيريا»، ومات بالحمى القرمزية ١٢٣، وبالحصبة ٩٣، ومات ٣٦٤٠ رضيعاً، كما ولد ٤٢٦٩٦ نسمة.

والموتى يرقدون في المقبرة، في قبورهم، والحارس يروح ويجيء وفي يده عصا، يفتح بها مِزَق الأوراق.

والساعة تدق السادسة والنصف، ومازال الضوء مشرقاً تماماً، هنالك تقعد على قبرها، قبالة شجرة زان، امرأة في ريعان الصبا، ترتدي معطفاً من الفراء، ومن دون قبعة، تنكِّس رأسها ولا تتكلم، وقد ارتدت نظارة سوداء، وفي يدها رقعة من الورق، ومظروفاً صغيراً، ويقرأ فرانتس: «ماعاد في وسعي أن أعيش. حَيّوا عني، مرة أخرى، والدَيّ وولدي الحلو. لقد تحوَّلت الحياة عندي إلى عذاب. ولا أُؤَرِّق ضميراً سوى ضمير بيريغَر، وينبغي له أن يمتّع نفسه حقَّ الإمتاع، ولم يكن يستخدمني إلاّ في صورة كرة لَعِب، كان يمتصُّني بها إنه لوغد كبير وضيع، وبسببه

فحسب جئت إلى برلين، على أنه هو وحده الذي جعل مني إنسانةً مدمرةً من ذوات التعاسة والشقاء»

ويردُّ فرانتس إليها المظروف من جديد: «ويلاه، ويلاه، هل توجد ميتسه هنا؟» لا تستسلم للحزن لا تستسلم للحزن، ويبكي: «ويلاه، ويلاه، أي صاحبتي الصغيرة، ميتسه؟»

هنا يوجد قبر مثل ديوان وثير كبير، يرقد عليه أستاذ من أساتذة العلم، يبتسم إليه متنزلاً عليه من عليائه: «ماالذي يملأ قلبك بالهمّ والغم، ياولدي؟» «لقد أردت أن أرى ميتسه، أهذا هو الطريق الصحيح» «أنظر. أمّا أنا فقد مِتُّ وقُضِيَ الأمر، وليس من الضروري أن ينظر المرء إلى الحياة على أنها أمر صعب وعبء ثقيل فوق ما ينبغي، كما أنه ليس من الضروريّ أن ينظر المرء مثل هذه النظرة. ففي وسع المرء أن يُسَهِّل على نفسه كل شيء. فحين كان لديَّ ما يكفيني، وأصابني مرض ماذا صنعت؟ أتظن أنني سأنتظر إلى أن يتعطّن ظهري من طول الرقاد على السرير، ومن أجل ماذا؟ لقد اوعزت بأن توضع زجاجة المورفين إلى جانبي، ثم قلت إنه ينبغي للمرء أن يمارس الموسيقى وأن يعزف على البيانو، وأن يستمع إلى موسيقى الجاز، وإلى أحدث الأغانيّ الشائعة. لقد أوعزت بان تُتْلى عليّ نصوص من أفلاطون، المأدبة الكبرى، وهذه محاورة جميلة، ولقد تعاطيت في الخفاء من تحت اللحاف، حقنة بعد حقنة، وكنت أَعُدُّها وأحصيها، ثلاثة أضعاف الجرعة القاتلة، وكنت على الدوام أسمع العزف الرديء على البيانو، مستمتعاً، وكان المكلَّف بالتلاوة عليّ يتحدث عن الشيخ سقراط. أجل هناك أناس أذكياء، وأناس أقل ذكاءً»

«التلاوة، المورفين، أين ميتسه فحسب»

وعلى نحو مفزع، يتدلى، تحت شجرة رجل، وزوجته تقف إلى جانبه، تتفجَّع، حين يأتي فرانتس: «تعال بربك على جناح السرعة، واقطع حبله، إنه يأبى أن يظل في قبره، فهم ينالون منه دائماً، وهو لا يفتأ يعود إلى الصعود إلى الشجرة، متدلّياً على نحو مائل» ياإلهي، ياإلهي، لماذا يا تُرى؟» لقد كان صاحبي إرنست مريضاً زمناً طويلاً، ولم يكن يأتيه أحد يسعفه، ثم إنهم أَبَوْا أن يبعثوا به إلى مكان

للاستشفاء، وكانوا يقولون، على الدوام إنه يمثّل ويتظاهر. هنالك نزل إلى القبو، وأخذ لنفسه مسماراً ومطرقة، ولقد سمعت كيف كان يضرب بالمطرقة في القبو، وأقول في نفسي: ماذا يصنع، فمن الأمور المستحسنة أنه يعمل عملاً ما، ولا يظل على الدوام يقعد هنا وهناك. وربما كان يبني حظيرة للأرانب الصغيرة، ثم إنه لم يصعد في المساء، هنالك استحوذ عليَّ الخوف، قلْتُ في نفسي، أين يمكث، فما من شك في أن مفاتيح القبو في الدور العلوي، ولم تكن هذه بعد في الدور العلوي، ثم نزل الجيران إلى أسفل، ثم جاؤوا بالشرطة وكان قد غرس مسماراً قوياً في السقف، وكان في هذه الأثناء بالغ النحول، غير أنه أراد الذهاب بلا ريب، ماذا تلتمس أيها الشاب؟ وماذا تقول وأنت تبكي بكاء المستعطف؟ هل تريد أن تقتل نفسك.

«كلاّ، لقد قتلت عروسي، غير أني لا أعرف هل ترقد هنا»

«واعجباً لك، فابحث، يا رجل، هنا، في الخلف، فهنا يرقد الجُدُد»

ثم يرقد فرانتس في الطريق إلى جانب قبر فارغ. إنه لا يستطيع أن يزأر أو يزمجر، بل يعضّ في الأرض: ميتسه، ماذا فعلنا يا تُرى، ولماذا فعلت هذا بنفسك، ما من شك في أنك لم تفعلي شيئاً، ياحبيبتي ميتسه. فماذا أستطيع أن أصنع. لماذا لايقذفون بي أنا كذلك في مثل هذا القبر. وكم يطول بي المسير بعد؟

ثم ينهض قائماً، ولا يُحْسن المسير ثم يستجمع قواه، ويسير وهو يتذبذب بين سلاسل القبور، خارجاً منها.

هنالك يصعد فرانتس بيبركوبف، الرجل ذو الذراع الصلبة، في الخارج إلى سيارة، وهذا يحمله إلى ميدان بافاريا، وكان لإيفا الكثير مما تمتُّ به، بصلة إليه، وكانت لإيفا علاقة به طوال أيام وليالٍ. على أنه لايعيش، ولا يموت. أما هربرت فكان قلّما يُرى.

ثم تأتي، بعدُ، بضعة أيام مطاردة لفرانتس وهربرت، اللذين كانا يجريان وراء راينهولد. وكان هربرت هو الذي كان قد جعل نفسه مدجَّجاً بالسلاح، وكان يسترق السمع في كل مكان، ويريد أن يمسك براينهولد. أما فرانتس فكان لا يريد ذلك أوّل الأمر، ثم يبتلع الطُعْم، إنه دواؤه الأخير في هذا العالم.

الحصن موصد تماماً، وقوع الخسائر الأخيرة
غير أنها ليست سوى مناورات

ويحدث هذا في تشرين الثاني، وكان الصيف قد انتهى منذ عهد بعيد، وكان المطر قد امتد أجله حتى دخل في الخريف، وكانت قد تراجعت إلى مدى جدِّ بعيد تلك الأسابيع التي يرقد فيها اللهيب المفعم بالفتنة والسعادة، في الشوارع، وكان الناس يسيرون في ثياب خفيفة، وكانت السيدات يخرجن كأنما في قمصانهن، وكانت فتاة فرانتس ترتدي ثوباً أبيض وقبعة قد اشتدَّ إحكامها على رأسها من ضيقها، إنها ميتسه التي ارتحلت ذات مرة إلى غابة فراين، ثم لم تعد من جديد، وكان هذا في الصيف، وتمّ في المحكمة النظر في القضية الواردة ضد بِرْغمَن الذي كان يمثل عنصراً طفولياً في الحياة الاقتصادية، وكان يتسم بالخطورة المقرونة بالفظاظة والسماجة، كما كان عديم الضمير خبيث الطوية، ويصل الكونت تسيبلين عن طريق برلين في طقس غير واضح المعالم ولا يتسم بالشفافية وكانت السماء صافية تسمح للنجوم بالظهور، حين يغادر في السابع عشر من شباط، فريدريشسهافِن. ولكي يتحاشى الطقس الرديء الذي تمّ الإبلاغ عن مَقْدَمِهِ من وسط ألمانيا، يسلك المنطاد طريقه ماراً بشتوتغارت ودارمشتات وفرانكفورت الماين وغيسّل وكاسّل وراتينوف. وفي الساعة ٣٠، ٨ يكون فوق ناوِن، وفي الساعة ٤٥، ٨ يكون فوق شتاكِن، وقبيل الساعة التاسعة يظهر المنطاد فوق المدينة، وعلى الرغم من الطقس الماطر كانت أسطح المنازل يشغلها المشغوفون بالمشاهدة العَينية، الذين كانوا يحيّون بالهتاف سفينة الجوّ التي استأنفت رحلتها الدائرية عن طريق شرقيّ المدينة وشماليّها، وفي الساعة ٤٥، ٩ سقط في شتاكِن أوّل حبل من حبال الإنزال.

ويطوف ببرلين فرانتس وهربرت وقد خرج هذان على الأغلب مباشرة من البيت. أما فرانتس ففي بيوت الشباب العائدة لجيش الخلاص، وفي بيوت الرجال ينتبه، ويطوف ببيوت أوغست، شارع أوغست ويقعد في شارع درسدن، عند جيش الخلاص، حيث كان مع راينهولد. إنهم ينشدون من كتاب الأغاني رقم ٦٦: فقل، لماذا يكون الانتظار بعدُ، يا أخي؟ فانهض قائماً، وتعال على عجل! فإن

مخلصك يناديك منذ زمن بعيد، وهو الذي يسرُّه أن يهدي إليك السلام والسكينة، الجوقة: لماذا؟ لماذا؟ لماذا لا تأتي إلى هنا؟ لماذا؟ لماذا لا تريد السلام والسكينة؟ ألا تشعر في قلبك، يا أخي، بتيّار الفكر الحيّ؟ أفلا تريد الخلاص من الخطيئة؟ ألا فاهْرَع إلى يسوع، طائراً! وقُلْ، لماذا يكون المزيد من الانتظار، يا أخي؟ البدارَ البدارَ إلى الموت والدَّيْنونة! ألا فتعالَ، لأن الباب مازال مفتوحاً، ولأن دم يسوع يتكلم من أجلك الآن!

وبعد شارع فروبل يذهب فرانتس إلى الملاذ الآمن، إلى حيث يستبدُّ به الغضب ليرى هل يعثر على راينهولد، ويرقد في موضع السرير، في حيّ الدراتفتنر، اليوم في هذا الموضع وغداً في ذاك، قصُّ الشعر بعشرة قروش، الحلاقة بخمسة، هنا يقعدون، ينظمون أوراقهم، التجارة بالأحذية والقمصان، أيها الآدميّ، ما من شك في أنَّك تُصادَف هنا أوَّل مرة، لا يوجد خلع للملابس، لأنك تستطيع في ساعة مبكرة من صباح الغد، أن تبحث عن أشياء مازالت تتوافر لديك، الأحذية ذوات الساقين، ألا فانظر، لم يكن هناك بُدٌّ أن يوضَع كل حذاء ذي ساقين على حدة في قدم السرير، وإلاّ سرقوا منك كل شيء، حتى مجموعة أسنانك هل تريد أن تطلب الوشم؟ والسكون، فالوقت ليل، هدوء أسود، والشخير كما يكون في مصنع لنشر الأخشاب، أنا لم أره. الهدوء بِمْ بِمْ بِمْ، ما السجن، لقد كنت أحسب أنني في تيغل، أما الايقاظ فإنهم يضربونك، الخروج من جديد إلى الشارع، الساعة السادسة، النساء يقفن ههنا، ينتظرن عُشّاقهن فيذهبنَ معهم إلى المحالّ السيئة السمعة فيبدِّدْن بالقمار مافي أيديهن من مالٍ كُنَّ يَستجدينه.

راينهولد ليس له وجود هنا. لعلّ من العبث بحثي عنه، وهو الذي عاد من جديد إلى مطاردة النساء، ألفريدا، إميلي، كارولينا، ليلي، شعر أسمر وشعر أشقر.

وإيفا ترى في المساء وجه فرانتس الجامد الذي لا يعرف ملاطفة، ولا كلمة طيبة، على أنه لا يأكل ولا يشرب إلاّ قليلاً، كما يصبُّ في جوفه الخمر والقهوة، وهو يرقد عندها، على الأريكة ويُغوِل ثم يُغْوِل. نحن لا نظفر به. «أيها الآدميّ، أتْركه بربك» «نحن لا نظفر به. ماذا نستطيع أن نفعل يا إيفا؟» «أيها الآدمي، لابُدَّ لك

أن تدع هذا ، فإنه أمر ليس له معنى ، وأنت بذلك تقضي على نفسك» «أنت لاتعرف ماذا نصنع . هذا – ألم تشهدي ، يا إيفا– أنتِ لا تفهمين هذا ، بينما يفهمه هربرت قليلاً .

ماذا ينبغي لنا أن نصنع . أنا أودُّ لو ظفرت به ، وأودُّ أن أذهب إلى الكنيسة وأصلّي على ركبتيّ ، حين أظفر به» .

غير أنَّ هذا كله ليس بالصحيح ، فمطاردة راينهولد ، بأسرها ، ليست صحيحة ، وهذا أنين وخوف رهيب «قُبَيْل ذلك يُلْقى بقطع النرد ، أو القوالب المكعَّبة ، من فوقه ، وهو يعلم كيف ستسقط ، وسوف يكتسب كل شيء معناه ، وهو معنى رهيب ، غير متوقع . وماعادت لعبة العسكر والحرامية تستغرق وقتاً طويلاً ، يا بنيَّ العزيز .

ثم إنه يراقب مسكن راينهولد مراقبة المُتَرَصِّد ، وعيناه هنا حاضرتان من أجل لا شيء . إنه يصرف النظر ، ولا يشعر بشيء ، ويمر الكثيرون بالمنزل ، فيدخل بعضهم ، ثم إنه دخل هو ذاته ، وانجذب إلى الداخل ، آيْ ، بسبب مجرد التشينغ ، ديرادا بومْ ريرادا بُمْ .

ويعلن المنزل عن انفجار ضَحِك وقهقهة ، بينما يراه المنزل واقفاً هنا ، يوَدُّ هذا المنزل لو يتحرَّك ليجمع جيرانه ، بأجنحتهم العرضية والجانبية ، معاً ، لإلقاء نظرة على هذا . وهنا يقف واحد منهم وعلى رأسه شعر مستعار وله ذراع مصطنعة ، رجل يلتهب وقد أُتْرِع بالخمر ، يقف ، مُغَمْغِما بشيء ما .

«طاب يومك ، ياسيد بيبركوبف ، سيكون أمامنا ، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ، طقس ماطر ، على الدوام ، هل تريد أن تأتي لنفسك ببعض النَّشوق ، أم تُراك تفضِّل أن تذهب إلى مقصفك المحبوب ، وتبيح لنفسك الاستمتاع بالكونياك؟»

«إئتني به ، إلى هنا!»

«فَلْتَمدُدْ يدك إلى الداخل!»

«إئتني براينهولد ، إلى هنا!»

«إذهب إلى حديقة فوهل ، فأنت تعاني من مرض عصبي» .

«إئتني به إلى هنا!»

ثم يعمل فرانتس بيبركوبف ذات مساء في المنزل ويخبِّيء إبريق صفيح من البترول، وزجاجة.

«أخرج إليّ، فأنت تخبئ، أيها اللئيم المفعمَ بالسمّ، والكلب الشَّبِق ذو الغُلْمة، أنت امروٌ لا تجرؤ على الخروج إليّ!»

المنزل: مَنْ تنادي، إذا كان مَنْ تنادي لا وجود له هنا؟ هلاّ دخلتَ بربك ففي وسعك أن تنظر هنا وهناك»

«أنا لا أستطيع أن أنظر في كل الثقوب».

«إنه ليس هنا، فما من شك في أنه لن يبلغ من الجنون مايحمله على أن يكون هنا.

«إئتني به، إلى هنا. وإلاّ فسوف تسوء عاقبتك».

«أنا ما زلت أسمع، ستسوء الأمور، أيها الفتى، اذهب إلى بيتك، ونَمْ حتى تشبع نوماً، ودَعْ الواحد منا يقرُّ قراره، فهذا ينجم عن كونك لا تأكل»

وفي الصباح التالي، وراء بائعة الصوف مباشرة، يكون حاضراً.

وتراه المصابيح يجري، فتتأرجح: «آيّا فايّا، هناك نار».

هناك دخان وألسنة نار تنبثق من صدوع وشقوق في الأرض، وفي الساعة السابعة تكون فرق الإطفاء حاضرة، وفرانتس قد استقر هنا من قبل عند هربرت، وهو يكوِّر قَبْضتَيْه: «أنا لا أعرف، وأنت لا تعرف، هذا شيء لستَ في حاجة إلى أن تقوله لي. الآن ماعاد له مأوى ولا ملاذ، الآن يستطيع أن يبحث. أجل، بلا ريب، لقد تمّ إشعاله الآن.

«أيها الآدميّ، إنه ماعاد يقطن هنا، بلا ريب، فإنه سيحاذر من ذلك» «كان هذا بنيانه، وهو الذي يعرف متى يشتعل، كان هذا أنا، لقد فرغنا من تطهير هذا بالتبخير، انتبه، لترى كيف سيصل الآن:.

«أنا لا أعرف، ياعزيزي فرانتس».

ولكن راينهولد لايخرج من ملاذه، أما برلين فما زالت يصطدم بعضها ببعض، وتتواصل مسيرتها في سَيْر كالكرة إذ تتدحرج، كما تتواصل جَلَبَتُها. وأنا في الصحف فلا يرد حديث عن أنهم ظفروا به، لقد أفلت هذا من أيديهم، وبات في الخارج، ولن يظفروا به أبداً.

وهنالك يقف فرانتس بين يدَيْ إيفا ويُعْوِل مُكبّاً على وجهه، «لا أستطيع أن أفعل شيئاً، ولا بُدَّ لي من الصمود لهذا واحتماله، فإن في وسعه أن يَحَطِّمني، لقد قتل الفتاة وأنا أقف هنا مثل عصيدة من لحم الديك، مثل هذا الظلم، مثل هذا الظلم».

«يا فرانتس، ما من شك في أن هذا ليس مختلفاً» «أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فأنا محطَّم» «ولماذا أنت محطَّم يا تُرى، ياعزيزي فرانتس؟» «لقد فعلت ما استطعت فعله، مثل هذا الظلم، مثل هذا الظلم».

هنالك يسير المَلاكان إلى جانبه، وهما ساروغ وتيراه، ويكلِّم كل منهما صاحبه. وفرانتس يقف وسط التدافع بالمناكب والزحام، ويسير وسط التدافع، وهو أخرس لا يتكلم، غير أنهم يسمعونه يُعْوِل إعوالاً وحشياً وكبار المسؤولين الجنائيين يمرّون به وهم يقومون بأعمال الدورية، فلا يميِّزون فرانتس، ويسير إلى جانبه مَلَكان.

لماذا يسير مَلَكان إلى جانب فرانتس، وأية لعبة من لُعَب الأطفال هذه، وأين يسير الملائكة إلى جانب إنسان، مَلَكان في ميدان الإسكندر في برلين العام ١٩٢٨، إلى جانب أولئك الذين يرتكبون جرائم القتل بالضرب بالهراوات، والقائمين بعمليات السطو الحالية والقوّادين، أجل، لقد خَطَت الآن هذه الحكاية الخاصة بفرانتس بيبر كوبف خطوات بعيدةالمدى إلى الأمام، ابتداءً من حياته الثقيلة الوطأة، والحقيقية، والمتجلِّية المتسمة بالإشراق، وكانت تزداد وضوحاً وجلاءً كلَّما ازدادت مقاومة فرانتس وصموده، وازداد تنفيسه عن غضبه، إذ تغدو كل شيء، وتقترب النقطة التي يشرق عندها كل شيء بالنور.

والملكان اللذان يسيران إلى جانبه يتحدثان، أما اسماهما فساروغ وتيراه، وأما حديثهما أثناء تأمل فرانتس لنوافذ العرض في تيتس، فهو كما يلي:

ماذا تقول، يا ساروغ، ماذا يمكن أن يحدث إذا ما أسلم المرء هذا الإنسان لنفسه، وتركه واقفاً وتمّ الإمساك به؟» ساروغ: «ماكان هذا ليشكّل الكثير في الأساس. فانا أعتقد أنه سيتم الإمساك به في هذه الحالة أو تلك، فهذا أمر لامَهرَب منه. لقد شاهد في الجهة المقابلة المبنى الأحمر، وهو على حق، فخلال بضعة أسابيع يقبع فيه» تيراه: وبعدئذ تقول: نحن في الحقيقة فائضون عن الحاجة؟»

ساروغ: «أنا أقصد هذا إلى حدّ ما– حين لا يكون من المسموح لنا به أن ننتزعه ونخطفه إلى هنا خطفاً كاملاً» تيراه: «أنت ماتزال طفلاً، ياساروغ، فأنت ترى هذا هنا أوَّلاً منذ بضعة آلاف من السنين، وعندما ننتزع الإنسان هنا ونجعله في أي مكان آخر، ندخله في حياة أخرى، فقد فعل ما استطاع فعله هنا؟ ففي مقابل ألفٍ من البشر والحَيَوات كما يترتَّب عليك أن تعلم أنه يأتي ٧٠٠، كلاّ، بل ٩٠٠ من العوائق» «وأي نوع من الأسباب يعدُّ، إذاً، تيراه، على وجه الخصوص، وارداً من أجل حماية هذا، إنه إنسان عاديٌّ مألوف، وأنا لا أرى لماذا نتولى نحن حمايته» «مألوف، غيرمألوف، ماهذا؟ هل يعدُّ المتسوِّل مألوفاً والغنيّ غير مألوف؟، والغني قد يكون غداً متسوِّلاً، والمتسوِّل قد يكون في الغد غنياً. وهذا الرجل هنا جِدُّ قريب من التحوُّل إلى صفة صاحب البصيرة، وإلى هذا المدى وصل الكثيرون، غير أنه قريب كل القُرْب، أتسمع، إنه قريب كلّ القرب من التحوُّل إلى صفه الإحساس أو الشعور. ألا فانظر، ياساروغ، إن من يشهد الكثير ومَنْ يطّلع على الكثير، فربما كان ينطوي على الميل إلى أن يعرف فحسب، ثم إلى التهرُّب والتملّص، وإلى الموت. على أنه لا يعود يحب عندئذ. فقد قاس مسار التجربة بأكمله، وفي هذه الأثناء أدركه التعب، واستُهلِكَت طاقة جسده وروحه على هذا المِحَكْ، أتفهم هذا؟» «أجل»: «ولكن بعد أن يكونَ المرء قد شهد وعانى الكثير وأدرك وجوب الاستمساك والتشبُّث، وعدم الصعود فوق ذلك، وعدم الموت، بل أدرك وجوب التمدُّد، ووجوب الشعور، وعدم التحاشي، بل وجوب تقديم المرء ذاتَه، بنفسه، مع الثبات والصمود، وهذا شيء ما، وأنت لاتعرف، يا ساروغ، كيف كانت من شأنك وصيرورتك، وماهيَّتك، وماكُنْتَه، وكيف كان في وسعك أن تأتي لتذهب معي

هنا، وتحمي مخلوقات أخرى» «هذا حق يا تيراه، وهذا ما لا أعلمه فقد انتزعت مني ذاكرتي بأسرها» «ستعود إليك رويداً رويداً، من جديد، والمرء لا يكون أبداً قوياً بالانطلاق من ذاته، من ذاته وحدها، بل يكون المرء قد خلف شيئاً وراءه، والقوة تستوجب أن تُكْتَسَب، وأنت لا تعرف كيف اكتسبتها، وهكذا تقف الآن هنا، وبالنسبة إليك ماعادت الأشياء تشكل أخطاراً تقتل الآخرين غير أنه لا يريدنا بالطبع، هذا المدعو بيبركوبف، وأنت تقول، بالطبع، بنفسك، إنه يريد أن ينفضنا عنه» «وهو يودُّ لو يموت، ياساروغ، لم يحدثْ بعدُ أن قام امروٌ بخطوة كبيرة جداً، أعني هذه الخطوة الرهيبة من دون أن يودَّ لو يموت، وأنت على حق إذ تقول إنه يهلَك هنا، معظم الناس» وفي صدد هذا هنا، يتوافر لديك الأمل؟» «أجل، لأنه قويّ وغير مستهلَك، ولأنه سبق أن صمد مرتين ولذلك نريد أن نظل إلى جانبه، تيراه، وأنا أودُّ، أن ألتمس ذلك منك، أنت» «أجل».

ويقعد طبيب حديث السن، يعد شخصية بارزة ممتازة، أمام فرانتس: «طاب يومك ياسيد كليمينس، فاضرب في الأرض، فبعد حالات الموت يرد هذا في كثير من الأحيان، ولا بُدَّ للمرء من ارتياد محيط آخر، فإن برلين بأسرها سوف تبعث في نفسك الكآبة، وأنت تحتاج إلى مناخ آخر. أفلا تريد أن تُرَوِّح عن نفسك قليلاً؟ وأنتِ، يا زوجة أخيه، هل يوجد لديه أحد يرافقه؟» «أستطيع أن أرتحل هكذا حين لا يكون هناك بُدٌّ من ذلك» ليس من ذلك بُدّ، أقول لك، ياسيد كليمينس، إن الشيء الوحيد الذي يترتَّب عمله هنا هو» الراحة والسكون والاستجمام، والقليل من الترويح عن النفس، الترويح عن النفس ولكن من دون إفراط، فإنّ من السهل أن يتحوَّل هذا إلى نقيضه، وعليك بالاعتدال على الدوام، والآن مازال يسود في كل مكان أفضل المواسم، فإلى أين تزمع الرحيل؟» وتقول إيفا: «وسائل التقوية، أليست هذه ملائمة، الليسيتين ثم النوم الأفضل؟» «سأُدَوِّن لكِ كل شيء خطياً، فانتظري الأدالين» «لقد أعطيت الأدالين من قبل» «وما من حاجة إلى السُمّ فخذي الفانودورم، حبةً عند المساء مع الشاي بالنعنع، والشاي ملائم، ثم تؤخذ مادة العلاج بسرعة أكبر، ثم تذهبين معه إلى حديقة الحيوان» «كلاّ، أنا لا أهوى الحيوانات» «وَيْحَك، إذاً فاذهبي

إلى الحديقة النباتية، شيء من التسلية والترويح، ولكن من دون إفراط» «هلاّ وصفت له بربك، ، دواء للأعصاب، لتقويتها» «ربما كان في وسع المرء أن يعطيه قليلاً من الأفيون من أجل المزاج» «أنا أشرب من قبل، ياسيدي الطبيب» «كلاّ، دعني، ما من شك في أن الأفيون شيء آخر، ولكني أعطيك هنا الليسيتين، وهو مستحضَر جديد. أما التعليمات الخاصة بالاستعمال فمدوَّنة عليه. ثم الحمّامات، الحمّامات المهدئة، ما من شك في أن لديك مرفقاً للاستحمام، ياسيدتي الموقَّرة؟» «كل شيء موجود لديّ، بالطبع، ياسيدي الطبيب» «إذاً فانظري، هذه مَزِيّة المساكن الجديدة، هنا يقول المرء: بالطبع. ففي حالتي لم يكن هذا على هذه الصورة بالطبع، لقد أوعزت بأن يُبْنى لي كل شيء، ولقد كلفني الأموال الطائلة، والحجرة بما فيها من فن التصوير، وأنتِ خليقة أن تتولاّك الدهشة حين ترين هذا، وهذا شيء لا يتوافر لك هنا، إذاً فعليكِ بالليسيتين والحمامات، عند الضحى، مرة كل يومين، ثم عليك بالتمسيد، العَرْك الأصولي لكل العضلات، بحيث يتحوَّل الإنسان تحوُّلاً أصولياً إلى الحركة» إيفا: «أجل، هذا صحيح» «العَرْك الأصولي، والانتباه ثم يكون الضرب في الأرض» «وهذا ليس بالأمر اليسير بالنسبة إليه، ياسيدي الطبيب» «هذا لا يضير، فسوف تستقيم الأمور. وإذاً فكيف ترى هذا، ياسيد كليمينس؟ «وماذا؟» «لا تدع رأسك منكَّساً، وتناول أدويتك على الدوام في أوقات منتظمة، بالإضافة إلى الوسيلة المنوِّمة والتمسيد والتدليك» «سوف نتدبَّر ذلك، ياسيدي الطبيب، إلى اللقاء، وأنا أشكر لك، سلفاً».

«الآن ارتدّت إليك إرادتك، يا إيفا» «سوف آتيك بأدوية الحمامات والأعصاب» «أجل، عليكِ بهؤلاء أيتها المرأة» ولتمكثْ في الدور العلوي وقتاً طويلاً» «هذا جميل، جميل تماماً، يا إيفا».

ثم ترتدي إيفا معطفها وتنزل إلى الدور السفلي، وبعد ربع ساعة يأتي فرانتس كذلك.

المعركة الآخذة في النشوب

نحن نرتحل إلى الجحيم بالطبول والأبواق

ميدان المعركة يغري ، إنه ميدان المعركة!

ونحن نرتحل إلى الجحيم بالطبول والأبواق ، إذ لم يتبقَّ لنا شيء من أجل هذا العالم ، ومن الممكن أن يظلّ هذا العالم مسروقاً منا ، مع كل ما يوجد من فوقه ومن تحته ، وبكل ناسه ، وبرجاله ونسائه ، وبكل أَوْباش الناس الذين ينتمون إلى الجحيم ، ولا يمكن بناء هذا على أحد . ولو أنني كنت طائراً صغيراً لأخذت كومة من الرَّوْث ، وقذفت به بكلتا قدميّ ، ورائي ولطرت بعيداً . ولو أنني كنت جواداً ، أو كلباً ، أو قطّاً لما استطاع أحد أن يصنع شيئاً أفضل من أن يدع رَوْثَه يسقط على الأرض ، ثم يغادر المكان بأقصى سرعة ممكنة .

وما من شيء حدث في هذا العالم . ولا رغبة لديّ في أن أشرب حتى السِّكْر ، وإني لخليق أن أستطيع ذلك ، أن أسكر ، أسكر ، وأسكر ، ثم يبدأ ، بلا ريب ، الروْث الجحيمي ، من الأمام . لقد صنع الله العليّ القدير الأرض ، ويفترض أن يقول لي القس ، لم كان ذلك ، ولكن ما من شك في أنه صنعها على نحو أفضل ممّا يعرفه القساوسة ، لقد أباح لنا أن نتبوَّل على السحر كله ، ووهب لنا يدين ، كما وهب لنا ، فوق ذلك ، حبلاً ، وهنا نقول: ألا بُعْداً للرَّوْث ، وهذا شيء نستطيعه ، وعند ذلك ينتهي أمر الرَّوْث الجحيمي ، أتمنى لكم الكثير من السرور اوالحبور ، وأباركك ، نحن نرتحل إلى الجحيم بالطبول والأبواق .

ولو أنني تمكنت من الإمساك برابنهولد لأنفث غضبي ووَلّي ، ولو فعلتُ لكان في وسعي أن أمسك به من قفاه ، فأحطم قفاه ولا أدعه يعيش من بعدُ ، ولسارت أموري بعد ذلك على نحوِ أفضل ، ولشفيتُ غَليلي ، ولكان ذلك هو الفعل الصحيح ، ولظفرت بالسكينة والراحة ، ولكن الكلب الذي أساء إليّ كل هذه الإساءة ، جعل مني ، مرة أخرى ، مجرماً من جديد ، وهَشَّم ذراعي ، هو يضحك مني في مكان ما من سويسرا ، وأنا أعدو ، مثيراً للرثاء والشفقة ، مثل كلب شقيّ منكود ، هنا وهناك

وهو يستطيع أن يفعل بي مايشاء، وما من أحد يساندني، حتى ولا الشرطة الجنائية، التي تزمع الإمساك بي، مرة أخرى، وكأنني أنا الذي قتلت ميتسه، وهذا ما فعله ذلك الوغد، الذي أرقدني هناك، فيمن أُرْقَد. ومن شأن الإبريق أن يظل يذهب إلى الماء إلى أن ينكسر، لقد احتملت ما يكفي، وفعلت ما يكفي، ولا أستطيع أكثر من ذلك، وما من أحد يستطيع أن ينكِر عليَّ أنني لم أقاوم ولم أدافع، غير أنّ ماهو كثير وفوق مايحتمل، إنما هو أكثر من أن يُحْتَمَل، ولكن لأنني لا أستطيع أن أقتل راينهولد فعليَّ أن أقتل نفسي بنفسي. ولسوف أرتحل إلى الجحيم بالطبول والأبواق.

مَنْ، يا تُرى، ذلك الذي يقف في ميدان الإسكندر ويحرك ساقاً بعد الأخرى، ببطء بالغ؟ أمّا اسمه ففرانتس بيبر كوبف، وأمّا ماكان يمارسه فقد أصبحتم تعرفونه. . إنه مقاتل مجيد، ومجرم ذو جرائم فاحشة، ورجل بائس، مهيض الجناح، وقد جاء دوره الآن، قبضات ملعونة تلك التي ضربته! وإنها لقبضة رهيبة تلك التي أمسكت به! وكانت القبضات الأخرى تضربه ثم ترسله، وإذ به جرح، وإذ به متجرّد من الثياب، أعزل، أما الجرح فكان في وسعه شفاؤه، وظل فرانتس، كما كان، واستطاع ان يتابع إسراعه، أمّا الآن فالقبضة لا ترسله، والقبضة كبيرة ذات حجم هائل تَرْجَحُ بوزن جسده وروحه، ويسير فرانتس بخطىً قصيرة وهو يعرف: حياتي ماعادت مُلكي، ولست أدري مايترتَّب عليّ أن أفعله الآن، ولكن فرانتس بيبر كوبف انتهى أمره ووصل إلى خاتمته.

نحن في تشرين الثاني، في ساعة متأخرة من المساء، حوالي التاسعة، والإخوة يرتعون هنا وهناك في شارع منتس، وهنا جَلَبَةٌ عظيمة تنشأ من الحافلة الكهربائية وحافلة سيارة الركاب الكبيرة والصيّاحين من باعة الصحف، ورجال الشرطة يخرجون من الثكنة والهراوات المطاطية غير معقودة على حللهم.

وفي شارع لاندز بِرْغر يزحف موكب يحمل الرايات الحمر، استيقظوا، يا ملاعين هذه الأرض. : «موكّافيكس» شارع ألِكْسَنْدِر، سيجار طيب يتعذّر الوصول إليه، وألوان من البيرة مُحَسَّنة معتنى بها، في الأباريق، وكل لعب بالورق محظور خطراً صارماً، ونحن نرجو من الضيوف الموقّرين أن ينتبهوا بأنفسهم إلى ثيابهم

المعلَّقة، لأنني لا أكفل شيئاً، المضيف. الإفطار، من الساعة السادسة في الصباح الباكر إلى الساعة الواحدة ظهراً، ٧٥ قرشاً، مع فنجان القهوة، وبيضتين مسلوقتين وخبز مطليّ بالزبدة.

وفي سرير القهوة، في شارع برينتسلاوْ، يقعد فرانتس، فيهتفون له مهلّلين: «أيها السيد البارون!» ويخلعون عن رأسه الشعر المستعار ويفكّك الذراع المصطنعة، ويطلب لنفسه البيرة، أما معطفه فيضعه فوق ركبته.

وهناك ثلاثة رجال، ذوو وجوه متجهّمة، ومن الصحيح أنهم نزلاء سجون، وما من شك في أنهم منقولون من مكان آخر، يُثرْثِرون بلغوْ من القول، بغير انقطاع، ويخوضون في أمور لا رابط بينها ولا نظام.

فأنا إذاً أعاني من العطش، وأقول لنفسي، لماذا أذهب بعيداً إلى هذا المدى، وهنا قبو يقطن فيه بولونيّون، أعرض عليهم ما لديّ من القديد والسجاير، على أنهم لا يسألون، على الإطلاق من أين أتيت بهذه الأشياء، فيشترون ويعطونني الخمر، وأَدَع كل شيء هنا. وفي الصباح أنتبه لأرى كيف ينصرفون، وأجري إلى داخل القبو، ولديّ خطاطيف ومشابك، ومازال كل شيء هنا، قديدي وسجائري، وبعدها أنا أنطلق بهذه. تجارة رابحة، أليس كذلك؟

الكلاب البوليسية، ما الذي تستطيعه هذه، لقد خرج عندنا خمسة رجال يجوسون خلال الأسوار. كيف؟ هذا شيء أستطيع أن أقوله لك على وجه الدقة. الجدران مصفحة من كلا الجانبين بالصفيح، الصفيح الحديدي، الذي يبلغ سمكه ما لا يقل عن ثمانية ميلليمترات، غير أنهم يجتازون الأرضية، ياللعجب، أرضية من الإسمنت، ويحفرون ثقباً، في المساء دائماً، ومن هنا إلى ما تحت الأسوار، ثم تأتي الكلاب البوليسية وتقول:

لقد كان مما يترتَّب علينا أن نسمع هذا، فليكن مايكون، لقد أخلدنا إلى النوم وسنكون قد سمعنا شيئاً كهذا، ولماذا نحن على وجه الخصوص؟

الضحك ، والمرح والبِشْر ، أيُّهذا المرح البهيج ، أيُّهذا البِشْر المبارك ، هناك نشيد دائري يحوم حول مائدتنا ، فيدي بُمْ .

ثم يأتي ، بالطبع ، بعد ذلك ، فلان من الناس ، السيد جاويش الشرطة والجاويش أوَّل شفاب يريد أن يضفي الأهمية على نفسه ، ويقول: لقد سمع هذا بأسره أوَّل أمس ، غير أنه كان في رحلة عمل رسمي ، وحين كان يحدث شيء ما ، يكونون دائماً في رحلة عمل رسميّ . قدحاً من البيرة ، وأنا ، ثلاث لفافات .

وثمة صبية تمشِّط لرجل طويل أشقر ، شعرَه ، على المائدة ، بينما يغني: : «يابرج الشمس ، يابرج الشمس» وحين تأتي فترة وَقْفٍ يطلق العنان للسانه لينطلق كالعاصفة ، قائلاً إنه لا بُدّ له أن يترنَّم بأغنية عن الشمس:

يا زونِنبورغ ، يا زونِنبورغ ، ما أشدَّ خضرة أوراقك . وكنتُ في صيف العام ١٩٢٨ ، ولم أكن أستقر في برلين ودانتسيغ ، ولم أكن أستقر ، في كونِغْزبرغ ، فأين كنت مستقراً إذاً؟ أيها الآدمي ، أنتَ لا تعرف: في زونِنبورغ ، في زونِنبورغ ، إنما أنتِ سجن على نحوٍ كامل ، هناك يسود ، ولا سيما في وقت البكور وفي الساعة المتأخرة ، الروح الإنساني . وهناك يلجأ المرء إلى الضرب ، ولا يعامل سواه معاملة الوغد ، ولا يسيء معاملة الآخرين ، ولا ينازع ولا يماحك ، هنالك يتوافر للمرء ما يحتاجه الإنسان حين يشرب ، وحين يأكل ، وحين يدخِّن .

الريش الجميل في الأسرّة ، والبراندي ، والبيرة ، واللفافات ، أيها الآدمي ، عندنا يمكن للمرء أن يعيش كما أن رقابتنا استكانت لنا ، قلباً ويداً ، فنحن نريد أن نهب للموظف الحذاء العسكري الطويل الساق ، أمّا أنتم فينبغي لكم أن تجودوا باللفافات ، من القلب واليد ، ينبغي لكم أن تدعونا نسكر ، بقلوبكم وأيديكم ، ونحن نريد أن نوعِز بأن تباع لكم الأحذية العسكرية ذوات السيقان الطويلة ، والحلل العسكرية ، من الحرب ، وهذه لن نغيّرها أو نُصلِحها ، ففي وسعكم أن تبيعوها ، أما المال الذي يمكن تحصيله من هذا فمن الممكن أن نحتاج إليه ، لأننا مساجين ، مساكين .

وهناك بضعة زملاء مزهُوّين بأنفسهم ، يريدون أن يتهمونا ويشجبوا مواقفنا ، وهؤلاء نريد أن نكسِّر عظامهم ، وهؤلاء ينبغي لهم أن يفكروا لأنفسهم ، فإمّا أن

يستمتعوا معنا، وإمّا أن يكون علينا أن نصقلهم ونهذبهم. وينبغي لهم أن يجرّبوا، أو يختبروا أشياء من لَدُنّا، أشياء متماسكة قوية لا يمكن أن تُقدَّر دون قدرها.

ولا يتكوَّن من الورق المقوّى إلا السيد المدير وحده، فلماذا، لأن هذا مازال بعيداً عن أن يلاحظ، وفي الآونة الأخيرة وصل رجل كان يريد مراجعة وضع السجن الحر في زونبورغ، ولم يَرُق له الوضع. أمّا كيف راق له ذلك من بعدُ، أقول كيف راق له هذا، فذلك ماينبغي لكم أن تطّلعوا عليه. نحن في المقصف معاً، وقد جلس بالقرب منا موظفان، وحين كنا في وسط محفل الشراب، ومَنْ يأتي، أجل، من يأتي إلى هنا يا تُرى.

هذا، بُمْ بُمْ، هذا بُمْ بُمْ، هذا السيد المراجع، فما أنتم قائلون الآن، هنا، يا تُرى، نقول:

بارك الله فيك، وأعلى مقامك مادمت حَيّاً، ويحق لك أن تظفر بقدح من الكونياك، اجلس هنا، إلى جانبي.

ماذا يقول المراجع يا تُرى؟ أنا السيد المراجع، بُمْ بُمْ، هذا ما يَرِد هنا، أنا السيد المراجع، بم بم، هذا مايَرِدُ هنا، سأوصي باحتجازكم جميعاً، سجناءَ وموظفين، الآن ليس لديكم مايبعث على الضحك، لقد عقدتم العزم على شيء ما، بُمْ، إنه يقف هنا، بم بم، إنه يقف هنا، بُمْ بُمْ.

يازونبورغ، يازونِبورغ، ما أشد خضرة أوراقك، لقد أثرنا غيظه، أخضرَ وأزرق، هنا ذهب إلى زوجته ووصل بغضبته إلى نهايتها، بُمّ، بُمْ، إنه واقف هنا، بُمْ بُمْ، إنه واقف هنا، بُمْ بُمْ، إنه السيد المُراجِع، واعجباً لك أيها الآدميّ، الآن تخرج من المسألة صُفْرَ اليدين، والمطلوب منك أن لا تكون، يا رجلُ، مستاءً مِنّا فحسب».

سروال بنّي وسترة سوداء من القماش! وثمة واحد يسحب من طردٍ سترة بنّية من سترات ملابس السجن، ومع توافر القدر الأكبر من العروض في إطار المزاد العلنيّ، لأسعار مخفَّضة بلا مبالاة، يماثل الحصول على أسبوع ناريّ، وعلى سترة،

بثمن رخيص، قَدَحاً من الكونياك. فمن يحتاج إلى هذا على وجه الخصوص؟ البِشْر والمرح والسرور، أيُّهذا الأخ الذي قَرَّ عيناً وطاب نفساً، وفاز بالغبطة، إنما تقول مَنْ هي أحبُّ الناس إليك، فاشرب قدحاً آخر، ثم جئنا بزوج من الأحذية المتَّخذة من قماش الأشرعة، أنت الذي اطَّلع أحسن الاطلاع على الظروف المحلية في السجون، مع وجود خَصْفة النعل المتَّخذة من القش، في هذا الصدد، وقد باتت هذه ملائمة للتكديس، ثمَّ بعد ذلك غطاء آخر، أيها الآدميّ، ولكن كان عليك أن تُسلِمَها لرب البيت.

وتتسلّل المضيفة، وتغلق الباب بهدوء، وهي تقول: «لا ترفعوا أصواتكم هكذا، فثمة نزلاء في القسم الأمامي، وينظر أحدهم صوب النافذة. ويضحك جاره وهو يقول: فلتكن النوافذ مغلقة عندما يكون الجو متوتِّراً، أنظر، قبو، ثمَّ أفضل مايكون ذلك فوق فِناء الجار مباشرة، وأنت لا تحتاج إلى التسلُّق، فكل شيء طرقه سالكة مُواتية، وعليك بالاحتفاظ بالقبَّعة، وإلاّ لَفَتَّ الأنظار.

ويقول رجل متقدِّم في السن مُدَمْدِماً: «لقد كانت جميلة تلك الأغنية التي غَنَّيْتها، ولكن هناك أغانيُّ أخرى كذلك، على أنها لا تجانب الصواب، هل تعرف هذا هنا؟» ويخرج ورقة، ورقة للكتابة، ممزَّقة مهترئة، مكتوبة بيد غير واثقة. «السجين الميِّت» «ولكن لا تُفرِط في الحزن!» «ماذا يعني الحزن، إنه شيء حقيقيٌّ ويَصُحُّ بمقدار مايصح حزنك» «والآن لاتبكِيَنَّ يا رجل، الآن لا تبكِيَنَّ يا رجل، فهناك مايثير الهواجس ويبعث على الخوف، ولذلك فلا تبكِيَنَّ يا رجل.

أما «السجين الميت، فكان في الحقيقة من أهل الفاقة والبؤس، غير أنّ نفسه تهتز طرباً للصبا والشباب وكان يسلك في سالف الأيام طريق الحق، وكان مقدَّساً عنده كل ماهو نبيل، وكان غريباً عنه كل ماهو وضيع، فاسد، ولكن مأساة النفوس الخبيثة كانت تلوح عند منعطف الحياة، وحين حامت الشبهة حوله في صدد فِعْلة منكرة، سقط في أيدي أعوان زعماء العصابات المطاردة، المطاردة، المطاردة اللعينة، لقد أطلقوا في أثري الكلاب، حين اصطادوني، وكادوا يقتلونني، وهذا أمر يجري ويتمُّ، ولا يعرف المرء كيف يستنقذ نفسه، وكانت المسافات تزداد بعداً على نحو

مطَّرِد، ثم تزداد بعداً ولا يعرف المرء، فإنه لا يستطيع أن يجري بمثل هذه السرعة، فهو يجري على قدر مايستطيع، وفي النهاية، يتم وصول الواحد من هؤلاء مع ذلك. فاليوم يكون لديهم فرانتس، والآن أقذف بنفسي في المعمعة. الآن بلغتُ ما بلغت من المدى، وَيْحي، فلَعلَّ هذا يجدي في وجبة طعام».

ولم يكن في وسع كل صراخه وكل توكيده وإلحاحه، وكلِّ غضبه، أن ينقذه، إذ كان يتوافر ضده المظهر والشهادة، وكانت الأغلال والسلاسل بالنسبة إليه مؤكَّدة والحق أن القضاة الحكماء أخطأوا «المطاردة، المطاردة، المطاردة اللعينة» حين نطقوا بالحكم عليه. «حين طاردتني الكلاب اللعينة»، ومع ذلك فماذا أَجْدَتْ عليه براءته حين تم انتهاك لوحة شرفه. ياللبشر!، ياللبشر؟، كذلك ينادي ببكاء مخنوق، لماذا تزمعون أن تدوسوني بأقدامكم، فأنا لم أرتكب ظلماً قط بحق أحد «هذا يجري ويستقيم، فالمرء لا يعرف كيف ينقذ نفسه، ويتصل المسير ويتواصل، إلى مدى أبعد فأبعد، ويجري المرء، ولا يستطيع المرء أن يجري بمثل هذه السرعة، ويفعل ما يستطيع فعله».

وحين جاء من وراء أسوار السجن من جديد، في صورةِ سائح جَوّال، غريب، كان العالم ماعاد كما كان، على أنه بات هو ذاته، امرأً آخر، وكان قد تاه عند ضفة النهر الكبير، وما من شك في أن الجسر كان قد تحطّم، فساقته قدماه، وقد بات مريضاً في قلبه، مفعماً بالحقد والضغينة، إلى العودة إلى الليل. وما من أحد شاء أن يعطيه خبزاً «المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة» وهنا لم يبقَ في قوس الصبر مَنْزِع، فساعد نفسه بنفسه، وذهب إلى الحياة، وكان في هذه المرة آثماً بالفعل.

«ولا مناص للمرء من أن يصبح آثماً، آثماً، آثماً، لا مهرب له من الإثم، بل لم يكن له بُدٌّ أن يكون أكثر من ذلك مائة مرة!» ومثل هذه الفعلة يُعاقَب عليها بصرامة أشد، فبذلك تقضي الأخلاق والتقاليد. وبعد زنزانة السجن يوجه خطواته من جديد وهو يتفجَّع «يا فرانتس، هَلّلويا، أنتَ تسمع هذا، «أن يغدو المرء آثماً بدرجة أكبر ألف مرة»، أجل، خطوةً أخرى في الخلاء، النهب والسطو والقتل، ومطاردة السلع، والبشرية، هذا الوحش الذي بات، ببساطة، كسير النفس مهيض

الجناح ، وكان قد مضى لوجهه ، ومع ذلك سرعان ما عاد من جديد ، محمَّلاً بالأعباء الفادحة ، وكان السكر الأخير والخطيئة الأخيرة سريعَيْ الزوال ، على حين ، دامت العقوبة مدى الحياة : «المطاردة ، المطاردة ، المطاردة اللعينة ، لقد كان على حق ، وكان قد فعل هذا حقاً» .

وما من شك في أنه ماعاد يعرف الآن شكوى ، ويدع اللَّوْم يوجَّ إليه ، ويدع الناس يدوسون عليه ، ويحني ظهره ، صامتاً ، ليدخل بين طرفَيْ النِّير ، ويتعلم النفاق ، ويتعلم الصلاة ، ويؤدي عمله بشعور متبلِّد يوماً بعد يوم ، الشيء ذاته دائماً ، وكان فكره محطَّماً منذ عهد بعيد ، قبل أن يغدو ، هو ذاته ، جثّة المطاردة ، المطاردة ، المطاردة اللعينة ، لقد كان هؤلاء يطاردونني على الدوام: لقد ظللت على الدوام أؤدي أفضل ما استطيع أداءه . أمّا الآن فقد دخلت في محيط القَذَر ، وليس الذنب في ذلك ذنبي ، وما الذي ينبغي لي عمله ، يا تُرى ، اسمي فرانتس بيبركوبف ، وهذا ماكنته على الدوام بعدُ ، وكنت أنتبه» .

اليوم أنهى المسار ، ومع الإشراق الربيعيّ ينزِلُه القوم إلى القبر ، أفضل زنزانات السجين . ثم إن جرس السجن يقرع له آخر تحيات الفراق ، له وهو الذي يترتّب عليه أن يموت في السجن ، وهو مفقود بالنسبة للعالم . «انتبهوا ، أيها السادة الموقّرون ، فرانتس بيبركوبف مازال لا تعرفونه ، وهو لا يباع ولو لقاءَ خمسة قروش ، حين يضطر هذا إلى الرحيل إلى قبره ، ثم إنّ له في كل إصبع قرشاً لابُدَّ أن يُبْلِغَ عنه لدى الرب العليّ القدير ، ويقول في هذا الإبلاغ: في البداية نأتي ثم يأتي فرانتس ، ولا يمكن أن تتعجب ، ياربنا العليّ القدير من أنَّ هذا يأتي راكباً بمثل هذه المقدمة الكبيرة ، فقد طاردوا هذا ، نفسه ، بهذه الطريقة ، والآن يأتي في طاقِم كبير كان بالغ الضآلة على الأرض ، والآن يضطر إلى أن يعرض في المساء ، ماهيَّته» .

وهؤلاء يغنون ويثرثرون كما يشاؤون ، بعدُ ، على المائدة . لقد كان فرانتس بيبركوبف حتى الآن يُلِمُّ به الكرى . أمّا الآن فمَرِح منتعِش ، وهو يُعِد نفسه من جديد ، وأما ذراعه فيُلَفُّ حولها ضماداً ، لقد فقدنا هذه في الحرب ، وإنما تحدث الحوادث في الحرب دائماً . والحرب لا تتوقف عجلتها ، مادام الناس يعيشون . والمسألة الرئيسية هي أن يقف المرء على قدميه .

ثم يقف فرانتس على السلم الحديدي، عند سرير المقهى، وفي الشارع، وفي الخارج يخطو خطوات قصيرة، وتتساقط قطرات قليلة من المطر، ثم ينصب المطر كأفواه القُرَب، وقد خيمَّ الظلام، ومثل حركة المرور هذه تسود في شراع برينتسلاوْ، وهنا جَمْع غفير من الناس في شارع الإسكندر، في الجهة المقابلة، وفيهم رجال شرطة، وهنا ينفَتِل فرانتس ويتوجه متمِّهلاً نحوهم.

في ميدان الإسكندر توجد رئاسة الشرطة

الساعة الآن هي التاسعة والدقيقة العشرون، وفي صحن مبنى الرئاسة يقف عدد من الناس يتحادثون، فيروي بعضهم لبعض النكات، ويحرِّكون سيقانهم، ويأتي مفوَّض شاب، ويلقي التحيّة: «الساعة الآن التاسعة والدقيقة العاشرة، ياسيد بيلتس، هل تنقّصت أو انتقدت بالفعل، فنحن في حاجة إلى السيارة في الساعة التاسعة» «إنه، ، ومرة أخرى، زميل في الدور العلويّ وهو يهتف إلى ثكنة الإسكندر، وقد أبلغنا عن مجيء السيارة قبل ظهر البارحة، ويأتي قادم جديد: «أجل، إنهم يقولون إن السيارة قد أُرسِلَت في الساعة التاسعة إلاّ خمس دقائق، وإنها وقعت في مأزِق، وسيبعثون بسيارة أخرى» «مثل هذا الحدث، الوقوع في مأزِق، ونحن نستطيع الانتظار» «ويحك، أنا أسأل: «أين تبقي السيارة إذاً، ويقول هذا: ومَنْ يتحدَّث هنا، على وجه الإطلاق. أنا أقول: السكرتير بيلتس، فيما يقول، هنا الملازم فلان بن فلان، فأقول: إذاً فقد كان ينبغي لي أن أستفسر، ياسيدي الملازم، بتكليف من السيد المفوَّض، أبلغنا بالأمس، قسم السيارات من أجل عملية مداهمة، في الساعة التاسعة، وتمَّ الإبلاغ الخطيّ، وكان يفترض أن ألتمس تقريراً لتوافر الإبلاغ الخطّي. وهنا يترتب عليك أن تسمع كيف أصبح على الفور، دَمِثاً، محبَّباً إلى النفوس، أعني السيد الملازم، أيْ أن كل شيء كان في الطريق، بالطبع، إذا كان ثمة مصيبة، وهكذا دوالَيْك».

وتدخل السيارات المحطة، ويصعد إلى إحداها سادة وسيدات، وموظفون

جنائيّون ومفوَّضون وموظَّفات. هذه هي السيارة التي سيدخل بها المحطة فيما بعد فرانتس بيبركوبف بين خمسين رجلاً وامرأة، هنا، وسيكون الملائكة قد غادروه، وتغدو نظرته مختلفة عن هذه النظرة التي غادر بها سرير المقهى، ولكن الملائكة سيرقصون، وسوف يحدث لكم هذا أيها السادة والسيدات، سواءً أكنتم مؤمنين أم كنتم غير مؤمنين.

والسيارة التي تحمل المدنيين من الذكور والإناث، في الطريق، وهي ليست سيارات حربية، غير أنها مركبة للكفاح وللفصل في المنازعات، بل سيارة حمولة، فعلى المقاعد الطويلة يقعد البشر. وعبر ميدان الإسكندر ينطلق هو بين سيارات رجال المال والأعمال البريئة والمركبات الخفيفة الذاتية الحركة، والناس الموجودون في السيارات الحربية يبدون جميعاً مرتاحين، إنها حرب غير معلنة، وهم يرتحلون في إطار ممارستهم، لمهنتهم، وبعضهم يدخن بهدوء الغلايين، وبعضهم يدخن السيجار. أما السيدات فيسألن، وهذا السيد الواحد هنا، في المقدمة، لا شك في أنه من الصحافة، وهنا يَرِدُ غداً كل شيء في الجريدة، وهكذا ينطلقون راضين، يجتازون طريق لاندزبيرغ، ثم ينحرفون يميناً، صاعدين، وينطلقون دائرين من الخلف إلى أهدافهم. وفيما عدا هذا تعرف أماكن اللهو من قبلُ ما يوشك أن يصادفهم، غير أن الناس الذين ينحدرون، يرون السيارة رؤية حسنة، على أنهم لا يطيلون النظر، فهذا شيء غير مستحسَن، بل هو باعث للفزع، وسرعان مايمرُّ مرور الكرام، إنهم يريدون أن يمسكوا بالمجرمين، ولعل مما يبعث على الفزع وجود شيء كهذا، ونحن نزمع الذهاب إلى السينما.

وعند شارع روكَّر يترجّلون من السيارة، وتظل السيارة واقفة، فيصعدون الطريق على أقدامهم والشارع الصغير خالٍ، والثُلّة تروح وتجيء فوق الرصيف، وهنا توجد صالة روكَّر.

ثم تمّ احتلال باب المنزل، ووَضْعُ حارس أمام المدخل، وحارس في مواجهة كل الآخرين الموجودين في الحانة. مساء الخير، ويبتسم النادل، تعرف هذا من قبل، هل يشرب السادة شيئاً ما؟ شكراً، لا وقت لدينا، أخرجوا الأموال من الخزانة،

مداهمة، الحاضرون جميعاً معي إلى مقرّ رئاسة الشرطة. الضحك والاحتجاج، ونحو ذلك. لا تتصرّفوا بهذه الطريقة، توجيه الشتائم، والضحك، وحافظوا دائماً على الهدوء والتأنيّ، فلديَّ أوراق، ثم فقرّوا عَيْناً، حقاً، فقد حضرتم إلى هنا مدة نصف ساعة، من جديد، فماذا يجدينا هذا بربكم. نصف ساعة قضيتموها وأنتم هنا من جديد، فماذا ينفعنا هذا، يترتَّب عليَّ عمل شيء ما، لا تنفعل ولا تغضب، يا أوتّو، إنه تفقُّد حرٌّ من قِبَل الرئاسة، مع إضاءة ليلية، أدخلوا، على الدوام، الحجرة الحسنة، السيارة ملأى مثلما يمتلئ بطن فيل متخَم، وثمة واحد يغنّي: مَنْ ذلك الذي انتهى بالأمور إلى هذا المدى فحسب، هذه وقاحة، هذه وقاحة. كيف يستطيع امرؤٌ أن يُقْدِم على شيء كهذا، ذلك لأنّ المادة لم تكن قد سُدِّدت جماركها بعدُ، وكانت الشرطة قد استفرغت جهدَها في هذه المسألة، وباتت الآن مستاءة إلى حد بعيد، وقد انكفأت، لأنّ القوم انتهوا بالمسألة إلى هذا المدى.

وتنطلق السيارة، ويلوِّح الحاضرون جميعاً، قائلين: من ذا الذي انتهى بالأمور إلى هذا المدى.

وَيْحَكُم، لقد سارت هذه الأمور على خير مايُرام. سنمشي على الأقدام، ويلقي التحية سيد أنيق فوق السد الترابيّ، هو نقيب القسم، أأنت السيد المفوَّض؟ ستذهب في دهليز منزل، أمّا الآخرون فينقسمون أقساماً. وتكون نقطة الالتقاء في شارع برينسلاوْ، ناصية منتس.

وعين الإسكندر مُتْرَعة، واليوم يوم الجمعة، ومن كان يحصل على أجر فليذهب ليشرب الخمر، مارّاً بالموسيقى والراديو وعندما يمرُّ كبار المسؤولين الجنائيين بمنصة صب الخمور يتزحزحون، ويتحدث المفوَّض الشاب وتتوقف الفرقة الموسيقيّة: مداهمة، شرطة جنائية، ويذهب الحاضرون جميعاً معهم إلى رئاسة الشرطة، ويقعدون إلى الموائد، ويضحكون ولا يدعون شيئاً يفسد عليهم أمره، ويتابعون لَغطهم، أمّا النادل فيتابع أعمال الخدمة، وثمة فتاة تصرخ وتبكي بين أُخْرَيَيْن وهُنَّ يمشين، ما من شك في أنه قد تم الإبلاغ عن خروجي، وأن هذه لم تكن قد أبلغت عن قدومي، لا بأس، إذاً فابقَيْ ليلة هنا، وماذا في ذلك، لن أذهب معكِ، وأنا لا

أدع أحداً ممن لم يبلغوا مبلغ الرجال يلامسني ، دَعي عنكِ ، بربك ، أصحاب ربطات العنق الزُّرق ، أنتِ ، ياهذه ، فإن أحداً لم يخرج بعدُ بصحته من هذا . هلاّ أفسَحتِ المجال لي بربك ، ماذا يعني هنا إفساح المجال ، عندما تقفين على حقيقة الأمر ، وعلى كل حال فقد انطلقت السيارة لتوّها فحسب ، وعندئذ قد يكون في وسعك أن توقفي عدداً أكبر من السيارات ، وتُحَطِّميها ، ولكن لا تحطّمي رأسنا فحسب ، أيها النادل عليَّ بزجاجة من الشمبانيا لغسل الساقين ، أنتَ ، لا بُدَّ لي أن أذهب إلى العمل ، فلديّ أعمال لابُدَّ من إنجازها في البناء . مَنْ يدفع لي ثمن الساعة ، وَيْحَك ، الآن لا بُدَّ لك من مشاركتنا على كل حال ، ولا بُدّ لي من الذهاب إلى موقع بنائي ، هذا سرقة للحرية ، هنا لا بد للحاضرين جميعاً من أن يشاركوا ، وأنت ستذهب معنا ، أيها الآدميّ ، لا تنفعل بربّك ، فالناس يترتَّب عليهم ، على أية حال ، أن يقوموا بمداهمة ، وإلاّ لما عرفوا ، بلا ريب ، لماذا يوجدون هنا .

وتنحل المسألة في دفعات ، والسيارات تنطلق على الدوام إلى رئاسة الشرطة وتعود منها ، والمسؤولون الجنائيون يروحون ويجيئون ، وفي قسم مراحيض السيدات يُسْمَع صراخ ، وعذراء ترقد على الأرض وفارسها يقف بالقرب منها . فماذا يصنع الفارس فحسب ، في قسم مراحيض النساء ، أمّا الفتاة فتعاني من تشنُّجات ، ألا فانظر بربك ، المسؤولون الجنائيون يتبسمون ، ألديك أوراق ، لا بأس ، هذا صحيح . عند ذلك تظل ، يا رجل عندها . هنالك تظل هذه تواصل صراخها بعدُ ، انتبه ، فحين يغدو كل شيء خاوياً تقف على قدميها ، ويرقص كلاهما رقصة التانغو . أقول: من يلمسني فسيكون جزاؤه لكمة في ذقنه ، وسيكون الجزاء الثاني هو التمثيل بجثته . الحانة تكاد تخلو ، ويقف لدى الباب رجل أمسك به اثنان من رجال الشرطة ، ويزمجر قائلاً: كنت في مانشِستر ، وفي لندن ، وفي نيويورك ، فمثل هذا لا يحدث في مدينة كبرى ، ومثل هذا ليس له وجود في مانشِستر ، ولا في لندن . إنهم يحثّونه على العمل ، ويبعدونه ، دائماً لينتهي إلى السدّ الترابيّ . كيف تجد نفسك ، شكراً لك ، حَيِّ عني كلبَك الأثير المدلَّل ، الذي طواه الردى .

وفي الساعة الحادية عشرة والربع ، حين كانت عملية إخلاء البيت قد قطعت

شوطاً بعيداً، وماعاد هناك سوى بعض موائد مشغولة، حيث كانت السلالم تفضي إلى الدور العلوي، في جانب منه، وفي الزاوية، يدخل أحد منهم على الرغم من أنه ماعاد يفترَض أن يدخل أحد منذ وقت طويل، ورجال الشرطة يتسمون بالهمّة ومضاء العزيمة، ولا يسمحون لأحد بالدخول، ولكن مِنْ حين إلى آخر تُطل ببصرها فتاة من خلال نافذة العرض: لقد اتفقت بلا ريب، وأنا آنسة، إلى هنا يترتَّب عليكم أن تعودوا في الثانية عشرة من جديد، وخلال هذا الأجل سيكون كنزكم قد بات في رئاسة الشرطة، غير أن السيد الشيخ كان قد شارك، في الخارج، في رؤية الزحزحة الأخيرة. وأخيراً كان رجال الشرطة قد انقضّوا بالهراوة على من في الداخل بعدُ، في دهليز الباب، لأن عدد أولئك الذين أرادوا أن يخرجوا كان أكبر من عدد أولئك الذين دخلوا السيارة، والآن انطلقت العربة، إذ خفّ تزاحم الأثقال فيها، ويسير الرجل، من دون حرج، داخلاً من الباب، مارّا بكلا المسؤولين الجنائيَّيْن اللذين كان كل منهما ينظر إلى الجهة الأخرى، لأن أفراداً يريدون، من جديد، أن يعودوا إلى الحانة، ويَدَّعون لأنفسهم صفة رجال الشرطة، وكان يأتي من الثكنة، على وجه الخصوص، في ظل ترحيب كبير من الجانب الآخر من الشارع، رتل من رجال الشرطة، والناس يشدّون، في مسيرتهم، الأحزمة شدّاً أكثر إحكاماً. هنالك يسير الرجل الأشيب في الحانة، ويطلب بيرة عند منصة صب الخمور، وينطلق بها صعوداً على السُلَّم، حيث مازالت المرأة الموجودة في قسم مراحيض السيدات، بينما يكون الآخرون، أولئك النَّفَر الذين يضحكون ويتحدثون بالهَذْر واللَّغْوِ، يتصرَّفون كما لو كانت الحكاية بأسرها لا تعنيهم في شيء.

ويقعد الرجل على كرسيّ، وحده إلى مائدة، ويتجرّع قدحه من البيرة، وينظر إلى ماتحته في الحانة، هنالك تصطدم قدمه بشيء قد استقر على أرض الحجرة إلى جانب الجدار، وينظر الواحد إلى هذا فينحني ليلتقطه، فإذا هو مسدس، قد طرحه أحد الحاضرين جانباً، وما هو بالرديء. الآن بات عندي اثنان، واحد عند كل إصبع، وحين يسأل الرب العليّ القدير، لماذا، عند ذلك تقول: أنا آتي ومعي حاشية وعتاد كبيران، فما لم يظفر به المرء في الأسفل يمكنه أن يحرزه في الأعلى، وهؤلاء

يداهمون، وما يفعلونه حق وعدل، وقال: ولأن الواحد منّا أفطر إفطاراً دَسِماً في مقر رئاسة الشرطة يترتَّب علينا أن نقوم بمداهمة كبرى، ولا بُدَّ أن يحدث شيء ما من جديد، يرد فيما بعد في الجريدة. على أن أولئك الذين كانوا في الطابق العلوي يترتَّب عليهم آخر الأمر أن يلاحظوا أننا نعمل، وربما أراد أحدهم الوصول إلى مرحلة أعلى من مراحل الراتب. ثم إن زوجته تحتاج إلى فراء، ومن أجل ذلك يَبْتَدِرون الناس وعلى وجه الخصوص يوم الجمعة، حيث ظفروا بالمظروف الذي يحتوي على أجرهم.

وكان الرجل قد احتفظ بقبعته على رأسه، وهو يُدسُّ اليد اليمنى في جيبه، أمّا اليسرى فكانت خليقة أن تكون في جيبه كذلك لولا أنه كان حينئذ، على وجه الخصوص، يمد يده ليتناول قدح البيرة. إنه مسؤول جنائي يحمل شعر الفرشاة الخشن فوق قبعة الصياد الصغيرة، يجوس في الحانة باعثاً للمدح والبِشْر في أنحائها، وفي كل مكان موائد خالية، وعلب سجائر على الأرض وورق صحف وورق شوكولاته، إنه توجيه التوبيخ بأقسى العبارات إلى كل من هبَّ ودبّ. أما الأخير فسيأتي حالاً، ويسأل السيد الشيخ: «هل دفعت الحساب؟»، فيزمجر هذا وينظر في اتجاه مستقيم، لا يلوي على شيء «أنا لم أدخل إلاّ منذ هنيهة» «وَيْحَك، ما كنتَ في حاجة إلى هذا، غير أنك مضطر إلى المشاركة» «هلاّ تركت أمر هذا إليّ، فأحمل همّي بنفسي، يا رجل»، وينظر إليه المسؤول الجنائيّ، وهو رجل مُحْكَم البنيان عريض المَنْكِبَيْن، من الأعلى إلى الأسفل. كيف يلقي هذا الرجل نظرته إلى العالم، إنه يريد أن يقاوم ويثير المصاعب. ولا يقول شيئاً، وينزل رويداً رويداً، على السلم عَبْر الحانة. هنالك تلقاه النظرة المتوهّجة للشيخ، أيها الآدميّ، أما إنّ لهذا لَعينَيْن فيهما شيء ما لا يستقيم أمره. ويذهب إلى الباب، حيث يقف الآخرون، يتهامسون فيما بينهم، ثم يخرجون معاً وينفتح الباب بضع دقائق، من جديد، ويعود المسؤولون الجنائيّون، والآن تأتي البقية، فهيّا، وليشارك الحاضرون جميعاً. ويضحك النادل: «في المرة القادمة تأخذونني معكم، فأنا أودُّ أن أرى الدُّوار الذي يعتريكم في الطابق العلوي» «آه، سيتوافر لك، خلال ساعة، من جديد، ما تعمله، فانتبه، ففي الخارج يقف بعض هؤلاء منذ الآن، من النَّقلة الأولى، يريدون الدخول».

«هيّا، ياسيدي، فإنه مازال يترتّب عليك أن تذهب مع الذاهبين». إنّه يقصدني. حين تكون لك عروس ذات مرة، عروس أَوْلَيْتَها ثقتك من القلب، لا تسأل عن أين ومتى، حين يكون في وسعها أن تُقبِل على الوجه الصحيح.

على أن الرجل لا تصدر عنه حركة. «ما من شك في أنك ثقيل السمع، ينبغي لك أن تنهض قائماً، هذا ما أقوله لك» «لقد أرسلك إليَّ الربيع، لأنني قبل أن أعرفك كنت قد بدَّدْت فنّي. ينبغي أن يأتي مزيد من الناس أوَّلاً، فإن الواحد منهم لم يُسعِفني، وحاجاتي وأمتعتي تشغل عربة يقودها خمسة من الجياد.

هنا مازال يقف ثلاثة على السُلَّم. فالأول صاعد، والمسؤولون الجنائيون يجوسون في الحانة، والمفوَّض الشاب الطويل في الذروة، وكان هؤلاء في عجلة بالغة من أمرهم، لقد طاردوني بما يكفي، ولقد أدَّيْت ما استطعت أن أؤديه أأنا إنسان أم لست إنساناً.

وها هوذا يسحب اليد اليسرى من جيبه، ولا يقف قائماً ويحتضن، وهو قاعد، الشرطي الأوَّل، الذي ينقض عليه غاضباً. وتكون هناك منازعة وجَلَبة، هكذا فَرَغْنا من كل شيء على الأرض، وهكذا نرتحل إلى الجحيم بالأبواق والطبول الكبيرة.

ويتنحّى الرجل جانباً وهو يترنَّح، وينهض فرانتس قائماً، ويهم بالانطلاق نحو الجدار، ويجْرون في جموع وكُتَل، من الباب، داخلين في الحانة. وهذا جميل بالطبع، وباتوا جميعاً في الداخل، ويرفع ذراعه، وإذْ بواحد وراءه، ويقذف به فرانتس، بكتفه، جانباً، وإذ به تحطِّمه ضربة على يده وضربة على وجهه وضربة على قبعته وضربة على ذراعه، ذراعي، ذراعي، ليس لي إلاّ ذراع واحدة، إنهم يحطِّمون ذراعي، ماذا أصنع، إنهم يضربونني حتى الموت، يقتلون ميتسه أوَّلاً، ثم يقتلونني أنا، وكل هذا ليس له معنى ولا جدوى، كل شيء ليس له معنى ولا جدوى، كل شيء، كل شيء لا معنى له ولا فائدة.

وينصرف وهو يترنَّح إلى جانب السور.

وقبل أن يتمكّن من مواصلة إطلاق النار، ترنَّح فرانتس بيبركوبف، وهو يسير

إلى جانب السور، وقد لحق به أذىً فادح. وكان قد تخلّى عن خوض المعركة، ولعن الحياة والوجود، وألقى السلاح، وهو يرقد هنا.

ويقوم المسؤولون الجنائيون ورجال الشرطة بزحزحة المنضدة والكراسيّ جانباً، ويركعون متقدمين إلى الأمام إلى جانب هذا، ويحوّلون وضعه بحيث يستقرُّ على ظهره، وللرجل ذراع مصطنعة، ولديه مسدَّسان، فأين الأوراق. انتظر قليلاً، هذا يحمل، على رأسه، شعراً مستعاراً، وفرانتس بيبركوبف يفتح عينيه حين يسحبونه من شعره. هنالك يهزّونه ويشدّونه إلى أعلى، شدّاً من الكتفَيْن ويقيمونه على ساقَيْه. وهو يستطيع أن يقف، ويجب عليه أن يقف. أما القبعة فتُنْصَب على رأسه، وفي الخارج يستقرُّ كل شيء في السيارة. هنالك يقودون فرانتس بيبركوبف خارجين من خلال الباب مقيَّدين بغُلٍ من الأغلال على الذراع اليُسرى، وثَمّة جَلَبَةٌ في شارع مُنْتِس، كتلة بشرية تُسْمَع فيها فرقة. انتبه، الآن يأتي، وهو الذي كان. أمّا الشرطي الجريح فقد رَحَّلوه بالسيارة.

وإذاً فهذه هي السيارة التي انطلق فيها، وبها، قبل ذلك، في الساعة التاسعة والنصف، المفوَّضون، والموظفون الجنائيون والموظفات في رئاسة الشرطة، إنّهم ينطلقون وفرانتس بيبركوبف يقعد فوق هذا. لقد غادره الملائكة وتخلَّوْا عنه، مثلما تحدثت عن ذلك من قبل، وفي صحن من رئاسة الشرطة تم تفريغ كل الدَّفعات. وعلى سُلَّم صغير يتعالى احتدام الأحداث في الخَلف على دهليز طويل كبير. أما النساء فيدخلن في حجرة لَهُن، ومن سُمِح له بالانصراف، وسَلِمت أوراقه من الخلل، فلا بُدَّ له أن يخرج من خلال الحاجز القائم بين المسؤولَيْن الجنائيَّيْن اللذين مازالا يفتّشان كل واحد عند صدره، وفي سرواله، إلى أن يصلا إلى الحذاء ذي الساق الطويلة. أما الرجال فيضحكون قائلين إن هذا تعيير وشتم، ويكون توغُّل وتدافُعٌ في الدهليز، أما المفوض الشاب والموظفون فيروحون ويجيئون، يهدِّئون ثائرة النفوس، وهم الذين يفترَض أن يعتصموا بالصبر. وأمّا المفوَّضون فيحافظون على انشغال الأبواب بمَنْ يحتلُّها، ولا يذهب أحد إلى دورة المياه من دون مُرافَقة.

وفي داخل هذا، على الموائد، يقعد موظَّفون بالملابس المدنية، يستجوِبون الناس، ويتصفَّحون الأوراق حين يتوافر لواحد منهم مثل هذه الأوراق، ويكتبون،

على صحائف كبيرة: مكان الفعلة، منطقة اختصاص المحكمة الرسمية، المكان الذي تمّ فيه الإمساك بالفاعل، قسم الشرطة «الفصل الرابع، p.w، وهكذا كان النموذج الأول». إذاً فما اسمك، والإبلاغ عن مكان التسليم، وأخيراً متى تمّ إلقاء القبض على الفاعل، خُذْ مني بربك، أوّلاً، فلا بُدَّ لي من الذهاب إلى العمل، رئيس الشرطة، القسم ٤، التسليم قبل الظهر، بعد الظهر، في المساء، الاسم الشخصي، اسم العائلة، الوضع أو المهنة، يوم الميلاد، الشهر، السنة، مكان الولادة، لا مسكن له، لم يكن في وضع يمكنه من الإشارة إلى مسكنه، وقد أثبتت الإشارة إلى المسكن، عن طريق البحث في المحلّ أنها غير صحيحة، ولا بُدَّ لك من الانتظار إلى أن يكون قسم الشرطة الذي تتبعه قد أجاب. على أن المسألة لا تستقيم بهذه السرعة، ثم إن هؤلاء ليس لهم سوى يَدَيْن، وفضلاً عن ذلك فقد صادف هؤلاء أناساً دوَّنوا عنواناً ثبتت صحته، وهناك يسكن مَنْ له اسم مماثل لاسمهم– إلاّ أنَّ مَنْ يذهب إلى ذلك العنوان يتبيّن له أن هذا امرؤ آخر، وأن هذا قد ظفر بأوراقه فحسب، واقتنصها منه، أو كان صديقه أو كان، فيما عدا ذلك، مدبِّراً لعلمية خداع، الاستعلام عن طريق سجل لوحات البحث عن المجرمين، واستقاء المعلومات من البطاقة الرمادية، والبطاقة الرمادية غير متوافرة، والمستندات والبراهين التي تظل مع الملفات والأضابير، والأشياء التي تُمت بصلة إلى الفعلة التي يعاقب عليها القانون، أو إلى الأشياء التي يمكن أن تسبب الأذى والمعاناة للمعتَقَل، أو للآخرين، أو إلى الأشياء العائدة إلى الشخصية المعيَّنة، كالعصا، أو المظلة، أو السكين، أو المسدس، أو الخاتم الحديدي للضَّرب.

ويجيئون بفرانتس بيبركوبف، لقد انتهى أمر فرانتس بيبركوبف، فقد أمسكوا به، ويقتادونه من أغلاله، وقد ترك رأسه يتدلّى على صدره. إنهم يزمعون أن يستجوبوه في الدور السفلي، في ساحة المسرح، في الحجرة الخاصة بالمفوَّض أثناء أدائه لعمله، غير أن الرجل لا يتكلّم، فهو جامد، وكثيراً مايمدُّ يده إلى وجهه، وقد انطبق جفنا عينه اليمنى من الورم الذي نجم عن ضربة بالهراوة المطاطية، ويدع ذراعه تسقط على عجل، وهنا كان قد أَبْعَدَ بعض اللكمات.

أمّا أن يُجاءَ بالمسرَّحين من السجن، من الأسفل، ومن فوق صحن المبنى المظلمَ،

إلى الشارع ، فذلك مايتمُ الإبحار به بأذرع متشابكة ، مع الفتيات ، وإذا أتيحت لك ذات مرة عروس تثق بها من أعماق قلبك ، وهكذا ننتقل ، ننتقل ، مع الغناء من هذا المطعم إلى سواه ، أما أنا فتتبيَّن لي صحة الجداول المذكورة آنفاً ، أما التوقيع فهو توقيع المعتقل مع الاسم والرقم الوظيفي للموظف الذي حزم المتاع ، إلى المحكمة الابتدائية في برلين الوسطى ، القسم ١٥١ ، إلى السيد قاضي التحقيق ي . أ .

وأخيراً يُقَدَّم فرانتس بيبركوبف ويُعْتَقَل ، وكان هذا الرجل قد أطلق النار أثناء المداهمة في نبع الإسكندر غير أنه انتهك ، فيما عدا ذلك ، قانون العقوبات . وتبيَّن لمن يعنيه الأمر أن الرجل استلقى على الأرض عند نبع الإسكندر متمدِّداً ، وكشف ، خلال نصف ساعة ، عن أن الشرطة قد أتيح لها النجاح في صَيْدٍ جيد على وجه الخصوص ، إذ تمكنت هذه الشرطة من اصطياده إلى جانب ثمانية آخرين ، مطلوبين بموجب بطاقة بحث ، ومع ربائب الرعاية الذين يمكن تجنُّبهم . ذلك لأن الرجل الذي انحدر إلى هنا ، بعد إطلاق النار ، كانت له ذراع يمنى مصطنعة ، وكان يضع على رأسه شعراً مستعاراً أشيب ، وبالاستناد إلى ذلك ، وإلى صورته الضوئية التي لدى القوم ، اكتشف القوم على وجه السرعة ، أن ثمة رجلاً يستكينُ وراء هذا ، وكان قد تورَّط في قضية جريمة القتل الخاصة بالمومس إميلي باراسونكه في غابة فراين ، وكان وارداً بالاعتبار بصفة مشارك في الفِعْلة ، وهو الذي سبق توقيع العقوبة عليه بسبب الضربة القاتلة والاتِّجار بالأعراض ، وهو فرانتس بيبركوبف .

وكان قد لبث وقتاً طويلاً يتهرب من أداء واجب الإبلاغ عن نفسه . الآن ظفرنا بأحدهما ، أمّا الآخر فسوف نظفر به من بعدُ خلال أجل قريب .

الكتاب التاسع

والآن وصل طريق فرانتس بيبركوبف في هذه الدنيا إلى غايته. لقد آن الأوان الآن لتحطيمه. ويقع في أيدي القوة التي تغشاها الظلمة ويَلُفُّها الغموض، والتي يُطْلَق عليها اسم «الموت»، والتي تتجلّى له في صورة مكان الإقامة الملائم. غير أنه يَطَّلِع على مايقولون عنه، بطريقة لم يكن يتوقعها وكانت تُصَعِّد كلَّ ماكان لقيه حتى الآن.

إنهاء تتحدث معه بلغة واضحة صريحة لا يمكن أن يُساءَ فهمها، معبِّرةً عن رأيها فيه، وتجلو له أخطاءه، وتكشف عن كبريائه، وجهله، وبذلك ينهار فرانتس بيبركوبف، الشيخ، لقد تمَّ إنهاء مسيرة حياته.

لقد تحطَّم الرجل، ويجري عرض بيبركوبف آخر بعدُ، لا يضاهيه بيبركوبف الشيخ ولا يقاربه، ويُتَوَقَّع منه أن يقضي وَطَره على نحوٍ أفضل.

أربعاء راينهولد الأسود
ولكن هذا الفصل يمكن حذفه

ومثلما تتكهّن الشرطة: «الآن يوجد لدينا واحد. أمّا الآخر فسِرْعان مانظفر به» يحدث ذلك وَفْقاً لتكهُنها، ولكن ليس على النحوِ الكامل، كما يتصوَّرون، وذلك أنهم يتصوّرون: أننا سَرْعان مانظفر. ولكن – لقد ظفروا به، وقد دخل من خلال الرئاسة الحمراء ذاتها، ومرَّ بحجرات أخرى، وتعرَّض للأيدي، وبات يقعد في القطاع الغربي من برلين الذي يوجد فيه السجن.

ذلك لأن كل شيء عند راينهولد يسير على عجل، وكان هذا قد اختتم المسألة بالمحبة الدامغة والدليل القاطع. والفتى لا يحب التقلُّب الطويل. ونحن مازلنا نعرف، ولا ريب، كيف فعل ذلك في تلك الأيام مع فرانتس. ولبث راينهولد بضعة أيام يعرف ماهية اللعبة التي يلعبها هذا معه، وإذ به يطرحه أرضاً.

وكان راينهولد قد ذهب ذات مساء إلى شارع موتس، ثم قال إن ملصقات الإعلان عن الوفاة مع الأجر معلَّقة على عمود الإعلانات، ولا بُدَّ لي أن أَتَلَمَّس الأشياء بأصابعي، وأُعَرِّض نفسي لأن أُضبَط بأوراق مزورة، وسرقة حقائب اليد، أو شيء من هذا القبيل. والسجن هو الأوفر أمناً في هذا الجو المتوتّر، ومهما تكن الأمور التي تصيب نجاحاً، فإن السيدة الرقيقة وحدها دون غيرها تُضرَب الضرب المُبَرِّح للغاية في وجهها. ولكن هذا لا يهم. فيما يتصوَّر راينهولد، وكل ماهو مطلوب هو الابتعاد عن مساحة الصورة. وفي رئاسة الشرطة يسحبون من يده الأوراق الزائفة، ولص

الجيوب البولونيّ، موروسكيفيتش، يذهب مع هذا إلى موآبيت «القسم الغربي من برلين حيث يوجد السجن»، وهم الذين لا يلاحظون في رئاسة الشرطة شيئاً يكون لهم، وكان الفتى لم يقعد بعدُ أبداً، ومَنْ كان في رأسه ما يشبه الأوصاف. وبكل الهدوء، والبعد عن الجَلَبة تجري مفاوضته كذلك، في الخفاء، في سكون وبصوت خفيض، مثلما تسلَّل خلال مبنى رئاسة الشرطة، ولكن لأنه كان لص حقائب يبحث عنه البولونيّون، ومثل هذا المخادع يخرج إلى الشارع في منطقة جميلة، ويطرح الناس أرضاً، من لحظة إلى أخرى، وينتزع من السيدة حقيبة يدها، فما من شك في أن هذا فظيع، ونحن لا نعيش في المجال الروسي– البولوني، ماالذي كان يخطر ببالك في الحقيقة، في هذا الصدد، هذا شيء يستلزم عقوبة أنموذجية، أما هو فيخرج بأربع سنوات سجن، وخمس سنوات لانتهاك الشرف، مع الوضع تحت إشراف الشرطة، وكل مايوجد عدا ذلك، إذ يتم إدخال خاتم الضرب، ويتحمل المتَّهم تكاليف المعاملة الرسمية، ونتيح فرصة تبلغ عشر دقائق، والجو مفرط في الحرارة، والرجاء فتح النوافذ أثناء ذلك، ألديكم بعدُ شيء تقولونه؟

أما راينهولد فلم يكن لديه، بالطبع، شيء يقوله. وهو يحتفظ لنفسه بالحق في المراجعة، على أنه يَقَر عيناً بأن القوم يتحدثون معه بهذه الطريقة، هنا لا يمكن أن يحدث للمرء شيء، وبعد يومين يكون كل شيء قد مضى وانقضى بسلام، كل شيء، كل شيء، ونكون قد عدنا إلى برّ الأمان، وَلْيَغْشَ القَذَر اللعين هذه المدعوَّة ميتسه، وهذا الثور، المدعو بيبركوبف، غير أننا دبَّرنا ذلك، بلا ريب، من أجل الأول، وهو ما أردناه، هَلِلويا، هِهلِلويا، هَلِلويا.

وحين تمَّ الفراغ الآن من كل ماحدث، وحين يمسكون بفرانتس وينطلقون به إلى رئاسة الشرطة، هنالك بات القاتل الحقيقيّ، راينهولد، في براندنبورغ وما من أحد يفكر فيه، كالمجذوب المستغرق في أفكاره، والمَنسِيّ، وقد كان من الممكن أن ينهار العالم ويندثر، ولا يكشف عن ذلك أحد لهذا بيسر وسهولة. وذلك أنَّ هذا لا تعذِّبهُ هواجس ضميره، ولو أنَّ الأمور سارت على النحو الذي كان يتصوَّره لكان مايزال يقعد هنا اليوم، أو أفلت من قبضة الملاحقة أثناء السفر.

غير أن الأمور يتمُّ تدبيرها في العالم بحيث تحتفظ الأمثال الأكثر غباءً وسذاجة على الإطلاق بصحتها، وحين يعتقد إنسان أن الأمور استقامت الآن، تظل بعيدة كل البعد عن أن تستقيم. وذلك أن الإنسان يفكر، ويظل الرب هو المسيّر والمدبّر، والإبريق يظل يجري ترحيله نحو الماء إلى أن ينكسر. وحين يضبطون راينهولد، ويكون عليه أن يسلك طريقه الصارم القاسي، أُزْمِع أن أسرد ما أسرد. أمّا مَنْ كان هذا لا يهمه ولا يعنيه فأحذف له الصفحات التالية، ببساطة. فالأشياء الواردة في هذا الكتاب «برلين – ميدان الإسكندر» عن مصير فرانتس بيبركوبف، صحيحة، وسوف يقرأها القارئ مرتين وثلاثاً، ويطبع في ذهنه حقيقة أنها أشياء لها حقيقتها التي يمكن أن تُلْمَس، غير أن راينهولد فَرَغ هنا من لَعِب دوره. ولا أريد أن أكشف عن هذا الدور في كفاحه الصعب الأخير إلاّ لأنه يمثّل القوّة الباردة التي يتغيَّر فيها شيء في هذه الحياة. ولسوف ترونه حتى اللحظة الأخيرة قاسياً متحجّراً، وهذه الحياة تمتدُّ، على جمودٍ فيها– حيث يحني فرانتس بيبركوبف هامته ويستسلم ويتحوَّل آخر الأمر، مثل عنصر صادفته إشعاعات معيَّنة، إلى عنصر آخر. وا أسفاه، إن من السهل أن نقول إننا، جميعاً، بشر. وإذا كان هناك إله، – فنحن لا نكون مختلفين عنه بسبب خبثنا ومكرنا، أو بسبب فضيلتنا، فنحن جميعاً نتميَّز بطبيعة مختلفة وحياة مختلفة، في النوع والأصل، والمستقبل، والآن فاسمعوا الفصل الأخير عن راينهولد.

هنا لا بُدَّ أن يكون راينهولد في براندينبورغ، في السجن، يعمل مع سجين آخر في حياكة الحُصُر، وكان بولونياً كذلك، ولكنه كان لص حقائب وجيوب بالفعل، وكان من أهل الحيلة والمكر المتمرّسين فيهما غاية التمرُّس، وكان يعرف ذلك المدعو مورو سكيفيتش. وحين يسمع هذا باسم: موروسكوفيتش وهذا رجل أعرفه بلا ريب، وأين يكون يا تُرى، يرى راينهولد ويقول: «ياللعجب، لقد تغيَّر هذا أيّما تغيُّر، وكيف يكون هذا ممكناً ثم يتظاهر بأنه لا يعلم، ولا يعرفه أبداً، ثم يتوجه إلى دورة المياه عند راينهولد، حيث يدخنان، ويعطي لهذا نصف لفافة، ويتحدَّث إليه، وهنا لا يستطيع هذا على الإطلاق أن يتحدَّث بالبولونية على الوجه الصحيح. غير أن راينهولد لم يَرُقْ له الحديث بالبولونية على الإطلاق، ويتملّص من حياكة

الحصر، فيأخذه سيد الورشة معه لأنه كان في بعض الأحيان يظهر علائم الضعف، بصفته منظفاً للموائد في جناح الزنزانات الانفرادية. هنالك كان الآخرون يقبلون عليه بأعداد أقل، غير أن دلوغا، البولوني، لا يَهِن، ويصرخ راينهولد: فاخرج بالعمل الناجز إلى الخارج! من زنزانة إلى زنزانة، وحين يكونان مع المعلم في زنزانة دلوغا، ويكون المعلم في صدد تعداد الحصر على وجه الخصوص، حين يهمس المَدْعو دلوغا إلى راينهولد قائلاً: إنه يعرف رجلاً يقال له موروسكيفيتش من وارسو، وهو لص جيوب وحقائب، أيكون هذا قريباً إليك؟ وينتاب راينهولد فزع، ويدفع إلى البولوني بعلبة صغيرة من التبغ، ويمضي قائلاً: أَخْرِج العمل الناجز.

ويَقَرُّ البولوني عنياً بتبغه، وفي المسألة شيء ما من هذه الناحية، ويأخذ في ابتزاز راينهولد، ذلك لأن هذا كان ينال على الدوام بعض المال من الجانب الخلفي.

وهذه القضية كان من الممكن أن تتحوَّل بالنسبة إلى راينهولد إلى قضية خطيرة، ولكن في هذه المرة كان مايزال لديه خنزير، ويتخذ أهبته لصدّ الضربة، ويُعْلِن: أن دلوغا، ابن بلده، يريد أن يضع المصابيح، وهو الذي يعرف شيئاً ما عنه. وفي وسط الساعة الخالية يوجد تضارب واقتتال رهيبان، وحتى راينهولد ينقضُّ انقضاضاً رهيباً على البولونيّ، وفي مقابلِ ذلك يخرج بأسبوع من الاعتقال، وزنزانة جرداء، ولا يرد فراش وطعام دافئ إلاّ في اليوم الثالث، ثم يخرج منها ويجد كل شيء متّسِماً بالهدوء وكبح الجِماح.

ثم يرقد صاحبنا راينهولد، وحده، في الداخل. لقد عادت عليه النساء، طوال حياته، بالشقاء والسعادة. والآن يحطم الحب قفاه. لقد وضعته قصته مع دلوغا في حالة من الانفعال والغضب الكبيرين، لم يكن له بُدٌّ معهما، من أن يقعد هنا بلا نهاية، ثم إنه يُضْطرُّ إلى أن يدع نفسه تتعرَّض للتعذيب وإثارة الغيظ من قِبَل فتى كهذا. ولم يكن القوم يجدون سروراً، وكانوا يشعرون بالوحدة شعوراً بلغ منه أنه يدفن نفسه فيه دفناً يزداد عمقاً من أسبوع إلى آخر. وحين يمتد به المقام مثل هذا الامتداد الأطول ويكون أحب الأمور إليه أن يردي دلوغا قتيلاً، هنالك يتعلَّق بإنسان حديث السن، لص، كان يوجد، ، أول مرة في براندينبورغ، ويفترض أن

ينتهي إلى إطلاق سراحه في آذار. وفي البداية يلتئم شمل كليهما في محلٍ لبيع التبغ ويتحدان في شتمهما لدلوغا. ثم يغدوان ذَوَيْ عاطفة حارة عميقة للغاية وصديقين كما ينبغي أن يكون الصديقان، وكما لم يسبق لراينهولد بعدُ أن كان له مثل هذا الصديق، ولئن لم يكن امرأة، بل كان مجرد صبيّ فقد كان، بلا ريب، جميلاً، وراينهولد يقرُّ عيناً في سجن براندينبورغ: وهكذا عادت عليّ مسألة دلوغا الملعونة بعدُ بشيء مستحسن وكل ما في الأمر هو أنني آسِف لأن الغلام سرعان ماسيضطرُّ إلى المغادرة.

سوف أضطر إلى أن أعتمر قبعتيّ القماشية السوداء زمناً طويلاً بعد، ومعها السترة البنّية، وحين أقعد هنا، أين تكون عندئذ، يا صاحبي الصغير، كونراد؟» وكونراد اسم الغلام أو هكذا يسمى نفسه، ويرجع أصله إلى مِكلِنْبورغ، ولديه الاستعداد لأن يغدو فتى ثقيلاً للغاية. ومن الاثنين اللذين أقدم معهما، في بوميرانيا، على عمليات سطو واقتحام، يقعد الآن واحد في سن العاشرة، وحين يكون كلاهما، في يوم أربعاء أسود، في المساء الذي سبق تسريح كونراد، مرة أخرى في حجرة النوم معاً ويُقْدِم راينهولد على قتل نفسه القتلَ الصريح، بحيث يكون الآن وحده تماماً، مرة أخرى، وليس لديه إنسان، ولكنه يجد واحداً، وينتبه، يا راينهولد، سوف تأتي أيضاً عمّا قريب إلى القيادة الخارجية، إلى فيردر أو أي مكان آخر، هنالك لا يستطيع راينهولد أن يهدئ ثائرة نفسه، فهذا شيء لا يسهل عليه فهمه، ويأبى عقله أن يستجيب له، وذلك أن هذا الأمر لم تستقم له قناته، بل كانت بالغة الانحراف، هذه المِعْزى التي فقدت عقلها وخرجت عن طَوْرِها، ميتسه، والثور ذو القرنين، فرانتس بيبر كوبف، وماذا يعنيني من أمثال هاته الغبيّات، أمثال هؤلاء الجِمال ولقد كنت خليقاً أن أتمكن الآن من أن أكون في الخارج، ذلك الرجل اللطيف المهذَّب، أجل ههنا تستقر، بالطبع بعض الهراوات التي لا تُحسِن غير ذلك. هنالك يخرج الفتى راينهولد، مباشرة، بطعنة ويبكي بكاءً يستعطف به الغلام كونراد، ويتفجَّع بين يديه ويتوسَّل إليه. هلاّ أخذتني معك، خذني معك بربك ويواسيه هذا قَدْرَ مايستطيع، ولكن الأمور لا تستقيم، وذلك أنه ليس في وسع المرء أن ينصح أحداً هنا بالقرار.

وكانا قد حصلا على زجاجة صغيرة من الغَوْل من ورشة النجارة، من لَدُنْ عامل فنيّ في مهنة البناء. ويقوم كونراد بإعطاء الزجاجة لراينهولد الذي يشرب، ويشرب كونراد كذلك وليس من الممكن عمل برج من هذا، إذ تمَّ، الآن فحسب، تكديس اثنين فحسب، أو أنهما أرادا تكديسهما فحسب، ولكن الأول فحسب هو الذي وصل إلى شارع نوييندورْفَر، وأراد أن يرتحل مع عربة حمولة تجرها الخيل، وهنالك أمسكت به الدورية. ولقد نزف هذا الإنسان أيَّما نزف من جراء شظايا الزجاج المهشَّم الملعون، التي كانوا قد جعلوها على الأسوار في الأعلى، أمّا هذا الرجل فلم يكن لهم بُدٌّ أن ينقلوه إلى المستشفى، ومن يدري لعل هذا تعود إليه يداه من جديد، كاملتين، أمّا الآخر، أجل، الآخر، فكان أكثر دهاءً وكمراً، إذ لم يلاحظ سوى الزجاج، وسرعان ماوثب من جديد، منحدراً إلى الفناء.

«كلاّ، فالمسألة ليست بالتكديس، يا راينهولد» وهنا يكون، راينهولد مَهيض الجناح، كسير الفؤاد، ليِّن العريكة. ويترتَّب عليه أن يقعد هنا بعدُ أربع سنين، وكل شيء بسبب مثل هذا الغباء والتغفيل في شراع موتس، وبسبب مثل هذه الخنزيرة، ميتسه، ومثل هذا الثور، الذي هو فرانتس ويتجرَّع شيئاً من غَوْل النجار. هنالك تكون حالته قد تحسَّنت، وكانوا قد أعدّوا الأمتعة، والسكين في الطابق العلوي، فوق الحُزْمة، لقد انتهى الاختتام، مرتين على خط دائريّ، والرتاج، وتمّ إنشاء الأسرَّة، هنالك يتهامسون معاً على سرير كونراد، أما راينهولد فيمرُّ بساعته الكئيبة ذات الوطأة الثقيلة: «أيها الآدمي، أقول لك، حيث تمضي في برلين، وحيثما توجَّهت، وحيثما تكون في الخارج، فأنت تذهب إلى عروسي، ومن يدري عروس مَنْ تكون هذه الآن. وها أنا ذا أصرِّح لك بعنوانها، وأنت تعترض على مسؤوليتك، فأنت تعرف هذا من قبل، ثم فاستفسر عمّا انتهت إليه قصتي. وما من شك في أنك تعلم أن المدعو «دلوغا» قد لاحظ شيئاً ما. وهنا عرفت في برلين مثل هذا الفتى، مثل هذا المغفَّل كل التغفيل، الذي يدعى فرانتس بيبر كوبف».

ثم إنه يهمس، ويروي، ويتمسك بكونراد، الذي يصيخ السمع.

ويظل على الدوام يقول: نعم، والآن سَرْعان مايعرف كل شيء. فهو يضطر

إلى أن يساعد راينهولد في الدخول في السرير، وهكذا يبكي هو من فرط الغضب والوحشة والغيظ من مصيرهم بحيث لا يستطيع أن يفعل شيئاً ويقعد في الشَّرَك. هنالك لا يوجد ثمة مايُجْدي، ويقول كونراد: ماالسنوات الأربع؟ أمّا راينهولد فلا يريد ولا يريد، ولا يستطيع أن يحتمل، ولا يستطيع أن يعيش بهذه الطريقة، إنها الفرقعة المناسبة في السجن.

وهذا هو الأربعاء الأسود. ففي يوم الجمعة يكون كونراد مع عروس راينهولد في برلين، وهو يلقى استقبالاً حارّاً، ويستطيع أن يظل طوال أيام لا يزيد على أن يسرد ويروي، ويحظى بالمال من لَدُنْها، وهذا هو يوم الجمعة. وفي يوم الاثنين يكون كل شيء قد انتهى بالنسبة لراينهولد، هنالك يلقى كونراد في شارع البحيرة، صديقه الذي كان فيما سلف يَشْرَكه في الرعاية والعناية، وهو الآن امرؤ عاطل لا عمل له، وفي مواجهة هذا يأخذ كونراد في التبجُّح في صدد سير أموره، ويدفع عنه ثمن شرابه في المقصف ثم يدخلان الفتاتين: إلى دار للسينما، ويروي كونراد حكايات فاحشة بذيئة عن براندينبورغ، وحين تتخلَّص الفتاتان منهما يقعدان بعدُ طوال منتصف الليل في دكان الصديق وهذه ليلة الثلاثاء، حيث يصرِّح كونراد بماهية راينهولد وحقيقته، إذ يسمى باسم موروسكيفيتش، وهذا غلام جميل رقيق، ومثل هذا لا يجده المرء خلال وقتٍ قريب في الخارج إذ يتمُّ التماس هذا والبحث عنه بسبب أشياء لها وزنها، ومَنْ يدري كم يوجد من المكافأة عن رأسه هو، وهذا ما لم يكد يقوله. وهنا بات يعرف أن هذا كان من قبيل الغباء، غير أن الصديق يعد بأغلظ الأيمان وأشدها وَقْعاً، بأن لا يقول شيئاً، ولكن أيها الآدميّ، نحن نحافظ على تلاصقنا وتَراصّ صفوفنا، كما أنه يحصل على عشر ماركات من كونراد.

ثم يأتي يوم الثلاثاء، هنالك يقف هذا الصديق في مبنى رئاسة الشرطة، في الدور الأرضي وينظر إلى الملصقات على الجدران، ليرى أَيَصُحُّ أمر من يجري التماسه والبحث عنه، وهل هو راينهولد، كما يسمّونه، وهل يَشْهَد هذا حقاً، وهل توجد مكافأة على هذا، أَوَ أَلَم يكن المدعو كونراد، ببساطة، يبالغ مبالغة المتبجِّحين، حين كان يتحدث عن تجاريبه ومشاهداته ويتبجَّح، ببساطة.

ثم إنه يفاجَأ أيّما مفاجأة، ولا يصدِّق، في البداية، على الإطلاق، يقرأ الاسم، إرادة الله، جريمة قتلُ لمومس تدعى بارسونكه في غابة فرايِن. وهنا يَرِد الاسم بالفعل مع الخبر. أهذه هي إرادة الله، ١٠٠٠ مارك مكافأة، أيها الإنسان، ألف مارك ويسري هذا في عظامه أيَّ سريان، ألف مارك، على أنه ينطلق على الفور، ويعود عند العصر مع صديقته التي تقول إنه قد سبق لها أن لقيت كونراد، وإن هذا قد سأل عنه، عن هذا الذي باتت تفوح رائحته عابقةً بشيء ما، فماذا ينبغي للمرء أن يصنع، هل ينبغي للمرء أن يُقْدِم على هذا، أيها الإنسان، كيف تستطيع أن تفكِّر وتتدبَّر، فهذا قاتل بالطبع، وماذا يعنيك من هذا، وياكونراد، ماذا تصنع لنفسك من كونراد، الذي لن تعود تلقاه عمّا قريب، ولماذا، وَمَنْ يريد هذا أن يعرف أنك كنتَ هذا، والمالَ فلتفكِّره فيه ذات مرة، ألف مارك، وأنت تسير وتمهُر الأشياء بخاتمك، وتفكيرك يحوم حول الماركات الألف. «هل يكون المارك هو المارك كذلك؟» أَقْبِلْ فليس عليك من بأس، وسوف ندخل».

وفي الداخل يقدِّم المفوَّض القائم على رأس عمله معلومات لا لَبْس فيها ولا غموض عمّا يعلم، عن موروسكيفيتش، ورواينهولد وبراندينبورغ– أمّا من أين يعلم ذلك فذلك ما لا يصرِّح به، ولمّا لم يكن معه أوراق فإنه يترتَّب عليه، وعلى صديقته أوّل الأمر أن يظل هنا. ثم – يكون كل شيء على مايرام.

وحين يسافر كونراد في يوم السبت، إلى براندينبورغ ليزور راينهولد، وكانت لديه أشياء شتى يترتَّب عليه أن يأتيَ بها معه، من عروس راينهولد ومن بومز، فهنا ترقد في الركن جريدة، وهذه جريدة قديمة، عائدة إلى مساء يوم الخميس، وهنا يوجد، على الصفحة الأولى: «إلقاء القبض على القاتل في غابة فرايِن، وإيداعه السجن، وهو يحمل اسماً زائفاً» وتصدر عن القطار، تحت جسم كونراد، بضع طَقْطَقات، وتتصادم الخطوط، ويطقطق القطار، إلى أي يوم ترجع الجريدة، وأي إعلان هذا، وأية صحيفة محلية، مساء الخميس.

لقد ظفروا به، وسيق إلى برلين، وهذا مافعلته، أنا.

لقد ظلت النساء، والحب، يعودان على هذا، المدعو راينهولد، طوال حياته، والشقاء والسعادة، وهكذا عُدْن عليه، آخر الأمر، بالطامّة. لقد نقلوه إلى برلين وكان يتصرَّف تصرف السائح الرحّالة، ولم يكن ينقصه الكثير لكي يأتوا به إلى مَصَح الأمراض العصبية ذاته الذي أدخلوا فيه صديقه السالف، بيبر كوبف، وكذلك ينتظر لكي يرى كيف قرَّ قراره في الجانب الغربي من برلين حيث يوجد السجن، وكيف تتخذ قضيته مجراها، وما سيأتي من الجهة المقابلة، من فرانتس بيبر كوبف الذي يعد مساعد مساعده، أو صاحبه، ولكن مازال من غير المعروف ماسيؤول إليه ذلك على وجه الإطلاق.

كتاب مستشفى المجانين، منزل مُوطَّد الأركان

وفي سجن الشرطة، في المبنى الذي يسمح بالنظر إلى كل أجزائه أو عناصره، أيْ مبنى رئاسة الشرطة، يظنّون أول الأمر في الحقيقة، أن فرانتس بيبر كوبف يدفع بكرة، ويلعب دور المجنون، لأنه يعلم أن المسألة تتعلّق برأس من الرؤوس، ثم يتفقّد الطبيب السجين، ويتم إدخاله المستشفى العسكري، وراء القطاع الغربي من برلين، وهنا يُصارُ إلى استخلاص كلمة منه، والراجح أن الرجل مجنون بالفعل، إنه يرقد جامداً كل الجمود، ولا ينظر بعينيه إلاّ قليلاً، وحين يظل يومَيْن يرفض الغذاء، يُرَحِّله القوم بإخراجه إلى بوخ، إلى مستشفى المجانين، في المنزل الموطّد الأركان، وهذا صحيح على كل حال، ذلك لأن مراقبة الإنسان أمر لا بُدَّ منه على أية حال.

وكانوا قد دَسّوا فرانتس، أوّلاً، في صالة الإيقاظ، لأنه كان يرقد، دائماً، هنا، عارياً، كما ولدته أمّه، ولم يكن يلتحف بشيء، بل كان يمزّق القميص عنه، وكانت هذه هي العلامة الوحيدة على أنه مازال حيّاً، وهي العلامة التي كان يُظهرُها خلال بضعة أسابيع، وكان يغمض عينيه على الدوام إغماضاً محكماً، وكان يرقد وقد تصلَّب جسده كل التصلُّب، غير أنه كان يرفض كل تغذية، إلى أن اضطرَّ القوم إلى تغذيته من مِسبارٍ دخل من فتحة البلعوم، ولبث أسابيع يتناول مع هذا، مجرد اللبن والبيض، وشيئاً من الكونياك. وفي هذه الأثناء كان الرجل القوي يذوب

ويضمحلّ، إلى حد بعيد، وكان الحارس الواحد يستطيع أن يحمله بسهولة إلى ماء الاستحمام، وكان فرانتس يتقبّل هذا ويرتضيه، مسروراً، بل كان مِنْ شأنه أن ينطق حتى ببعض الكلمات وأن يفتح عينيه، وأن يتنهَّد ويتأوَّه، غير أن كل الأنغام لم يكن من الممكن أن يُسْتقى منها شيء.

ويقع مستشفى بوخ على مسافة يسيرة وراء القرية، ويقع المنزل الموطّد الأركان خارج نطاق منازل الآخرين الذين هم مرضى فحسب ولم يقترفوا شيئاً، ويقع المنزل الموطّد الأركان في الأرض الخالية، في الأرض المكشوفة المنبسطة كل الانبساط. وتستطيع الرياح، والمطر والثلج والبَرْد والنهار والليل، تستطيع هاتيك الظواهر أن تكتسح المنزل بكل قوتها وبكل بأسها الشديد، وما من طرق تمسك العناصر حيث هي، في مكانها، وإنما هي مجرد أشجار قلائل وشجَيْرات، ثم تنتصب بعدُ بضعةٌ من قضبان التلغراف هنا، ولكن ليس هناك، فيما عدا ذلك، إلاّ المطر والثلج والريح والبَرْد، والنهار والليل.

فُمْ، فُمْ، هذه الرياح تنفخ صدرها فتزيد عَرْضه، وتسحب نَفَسَها إليه، ثم ترسل زفيرها، نفحة، مثل برميل، وكل نَفَس يبلغ من الثقل مايَعْدِل وزن جبل، ويَصِل الجبل، فيفرقع، ويدرُجُ، متدحرِجاً نحو المنزل، وتدرج نغمة «الباصّ» الجهيرة العميقة الخفيضة، فُمْ، فُمْ، وتنوس الأشجار بأغصانها وتتأرجح، ولا تستطيع أن تحافظ على ذوقها وإحساسها الرهيف، وينعطف التوجُّه نحو اليمين، وما زالت تنتصب في اليسار، والآن تعصف بهن الريح فتطَقْطق بصوت كأنه صوت فَلْق قشرتي اللوز بالمطرقة، وتوجّهها نحو الجهة المقابلة. إنها أوزان تنقضّ، وهواء يضرب كالمطارِق، وفرقعة، وحفيف وأزيز، وفَرْقعات، فُمْ، فُمْ، أنا لكِ، تعالَيْ بربِّك، عمّا قريب، فسنكون هنا عمّا قريب، فُمْ، الليل، الليل.

ويسمع فرانتس النداء، فُم، فُم، نداء لا يتوقف، بل يمكن أن يتوقف. أما الحارس فيقعد إلى منضدته ويقرأ، وأستطيع أن أراه، إنه لا يدع عواء الرياح ينغِّص قراءته، وأنا أرقد منذ زمن طويل، أما الصيد، الصيد الملعون، لقد طاردني هؤلاء، في اندفاع طائش، ولقد تحطمت في ذراعي وساقَيّ، وهذا قفايَ قد ولّى إلى غير

رجعة، وتهشّم. فُمْ، فُمْ، وهذا يمكنه أن يُنَهْنِه، لقد ظللت راقداً وقتاً طويلاً، وأنا لا أنهض قائماً. فرانتس بيبر كوبف ماعاد يقف على قدميه. هنالك يستطيعون أن يصرخوا أوْ يبكوا، وعندما ينفخ في الصور في يوم القيامة، فلن يقف فرانتس بيبر كوبف على قدميه، هنالك يستطيعون أن يصرخوا أو يُعْوِلوا بما يشاؤون ويستطيعون أن يأتوا ومعه المِسبار. الآن يثقبون المسبار من خلال الأنف، لأنني لا أريد أن أفتح فمي، ولكنني مِتُّ من الجوع ذات مرة، حقاً، ومهما يكن ما يستطيع هؤلاء أن يفعلوه بطِبِّهم، فليفعلوا ما يشاؤون، أمّا أُحبولة الشيطان، الملعونة، فقد خلَّفتها الآن ورائي. والآن يشرب الحارس قدحه من البيرة، وهذا ماخلَّفتُه ورائي الآن، ضربة ذات فرقعة مكبوتة، ثم ضربة ذات فرقعة مكبوتة، وضربة على الباب الخارجيّ ذات فرقعة مكبوتة، وفي التصادم ذي العنفوان والعَدْوِ، والفرقعة، والتذبذب والترنُّح، يأتي جبابرة العاصفة معاً ويتشاورون، إنها كما يصوغها القوم، بحيث يستقيظ فرانتس، ولا يريدون أن يحطموا أعضاءه، ولكن المنزل بالغ الضخامة، وهو لا يسمع مايرفعون عقيرتهم به، ولو كان أقرب إليهم، في الخارج، لأحسَّ بهم ولسمع ميتسه وهي تصرخ، وإذا لانفتح قلبه، واستيقظ ضميره، وَلَنَهض قائماً، ولَكان ذلك من المستحسَن. الآن لا يعرف المرء ماذا يصنع، فعندما تكون لدى المرء بلطة، يضرب بها في قلب الخشب القاسي، هنالك تأخذ أقدم الأشجار في الصراخ غير أن هذا الرقاد الجامد، والتكتُّم والتصلُّب في إطار المأساة، يعدُّ هنا الأسوأ في العالم، ولا يجوز لنا أن نتهاون أو نتخاذل، فإمّا أن نقطع صلتنا بكبش الفداء في المنزل الموطَّد الأركان، فنحن نحطم النوافذ، أو نرفع إلى الأعلى ثغرات السقف حينما يحسّ هو، بنا، ويسمع الصراخ، أما الصراخ فمِن ميتسه، وهذا ما نأتي به معنا، ثم يعيش وقد عرف على نحوٍ أفضل، ماهية العيش. ونحن يترتَّب علينا أن ننظر إليه نظرة الخائف المتوجِسّ الذي تولاّه الفزع، فمن المفترضِ أن لا يعرف راحة في سريره، كيف أرفع عنه الغطاء وكيف أطرحه أرضاً حين أَهُبُّ عليه، وكيف أنفخ عن الحارس الكتاب والبيرة، فأزيلهما عن المنضدة. فُمْ، فُمْ، كيف أقلب له المصباح رأساً على عقب، هذا المصباح الكهربائي أقذف به بعيداً. وربما حدث

عندئذ تماسٌّ كهربائيّ في ا لمنزل. وربما نشبت عندئذ نار، فُم! فم! النار في مستشفى المجانين، النار في المحطة الموطَّدة الأركان.

ويعمد فرانتس إلى سَدّ أذنيه، ويتصلَّب جسده، وحول المنزل الموطّد الأركان يتعاقب الليل والنهار، والطَقس المصحوب بشمس مشرقة، والمطر.

وعند السور تقف آنسة حديثة السن، من القرية، وتتبادل الحديث مع حارس: : «هل يُلاحَظ أني بَكَيْت؟»: «كلاّ، بل كل ما في الأمر أن إحدى الوجنتين تورَّمت» «الرأس كله، ومؤخرة الجمجمة، كل شيء، أجل» وتبكي، وستخرج منديل جيب من الحقيبة الصغيرة، ويتقبَّض الوجه في شيء من الكآبة. «وفي هذه الحالة لم أصنع شيئاً بعد ذلك على الإطلاق، وكان من المفروض أن أذهب إلى الخباز، وآتيّ بشيء ما، وأنا أعرف الآنسة وأسألها ماذا تصنع، فتقول لي إنها تذهب اليوم إلى حفلة الخباز الراقصة. وهل يستطيع المرء يا تُرى أن يقعد في البيت على الدوام، في حالة الطقس الرديء، ومازالت معها تذكرة، وتريد أن تأخذني معها. هذا لا يكلف قرشاً، وما من شك في أن هذا تلطف من الآنسة، أليس كذلك؟» «مافي ذلك شك» «ولكن هنا يترتّب عليك أن تسمع كلام والديَّ، وكلام أمي»، ينبغي لي أن لا أذهب، ولِمَ لا، فما من شك في أن هذه حفلة راقصة مهذبّة. كما أن المرء يريد، بلا شك أيضاً، أن يمتِّع نفسه، وإلاّ فماذا يجني المرء من الحياة، كلاّ، أنتِ لن تنصرفي، إذ يسود الآن طقس رديء للغاية وأبوك مريض، وأنا سأنصرف بلا ريب، هنا حصلت على أمثال هذه الأسافين، أهذا جميل؟» وتبكي وتُعْوِل. «المرء يشعر بالألم في كل مؤخرة جمجمته.

وعلى هذا فسوف تسدي إلينا معروفاً، كما تقول أمي، وتظل هنا، فما من شك في أن هذا شيء لم يُسْمَع بمثله، ولماذا ينبغي لي، يا ترى، أن لا أذهب، فما من شك في أنني في سن العشرين، وأنا أخرج من البيت مساء يوم الأحد ويوم الأحد، كما تقول أمي، وعلى كل حال فلا بأس، إذا كان ذلك الآن في يوم الخميس ذات مرة، والآنسة تحمل البطاقة»: «إذا شئتِ ففي وسعي أن أعطيك منديل جيب، مادمتِ معي». «آه، لقد بكيت حتى الآن حتى ملأت دموعي ستة مناديل، ثم إنني يمكن أن

أتعرَّض للإصابة بالرشح والزكام كذلك، إذ أبكي طوال اليوم، وماذا ينبغي لي أن أقول للآنسة يا تُرى، فأنا لا أستطيع، بلا ريب، أن أدخل الدكان بمثل هذه الوَجْنة. لقد أردت الانصراف فحسب، وأنا أودُّ لو تكون لي أفكار أخرى، مع هذا المدعو يوسف، الآن، مع صديقك، الآن كتبت إليه أقول إن المسألة قد انتهت الآن بيننا، ولا يجيبني، والآن انتهت المسألة» «هلا تركتِ هذا بربك، ففي وسعك أن ترى هذا في المدينة، كل أربعاء مع فتاة أخرى»: «أنا أحبه أيَّما حب. من أجل ذلك أردت أن أمضي لوجهي».

وعلى سرير فرانتس يقعد شيخ قد بان أثر الخمر في أنفه. «أيها الآدميّ، هلاّ فتحت عينيك بربِّك، فما من شكٍّ في أنك تستطيع أن تسمعني، فأنا أدفع مثل هذه الكرة، منزل، منزل جميل، كما تعلم، ديار جميلة، لقد غدا هذا بالنسبة إليّ مدفوناً تحت الأرض. وحين لا أكون في البيت، تنازعني نفسي إلى أن أكون تحت التراب. وهؤلاء أصحاب العقول الصغيرة يريدون أن يجعلوا منيّ واحداً من ناس الكهوف أو مخلوقاتها، ففي هذا الكهف يُفْتَرَض أن أسكن، وأنت تعلم وربِّك مَنْ يكون إنسان الكهوف، إنما هو نحن، فاستيقظوا، أيْ ملعوني هذه الأرض الذين يظل القوم يرغمونهم على أن يجوعوا، لقد سقطتم ضحايا في الكفاح، في محبة مقدّسة للشعب، ولقد أعطيتم كلَّ مالديكم للشعب وللحياة، والسعادة والحرية، هذا ما نحن عليه، أيها الآدميّ. وفي القاعات الحافلة بالأُبَّهة يستمتع الطاغية بتناول الأطعمة، إذ يُغْرِق الاضطراب الداخليّ بشرب الخمر. وما من شك في أن ثمة نُذُراً تنطوي على التهديد تكتبها يَدٌ، منذ عهد بعيد على السبورة، وأنا امرؤٌ حَصَّلت العلم بنفسي، وماتعلمته فقد أخذته من ذاتي، كل شيء من السجن، من الحصن، والآن يحتجزونني هنا، إنهم يحجرون على الشعب ويجرِّدونه من حق التصرف الذي يتمتع به من بلغ السن القانونية وأنا في نظرهم أُمَثِّل خطراً على الناس كافة. أجل، هذا ما أكونه أنا، فأنا من المفكرين الأحرار الذي لا يحفلون بالدين على وجه الخصوص، وهذا ما أستطيع أن أقوله لك، فأنت تراني قاعداً هنا، وأنا أكثر الناس هدوءاً في العالم، ولكن حين يستثيرني امرؤٌ فسوف يأتي وقت يستيقظ فيه الشعب،

الشعب القوي الشديد البأس ، والحر ، فاهدأوا بالاً ، وقَرّوا عيناً ، أيها الإخوة ، فلقد ضحَّيتم ، وأنتم النبلاء والعظماء ، بأنفسكم ، من أجلنا .

أَوَ تعرف ، أنت ، أيها الزميل ، فأفتح عينيك ذات مرة لكي ألاحظ أنك تصغي إليّ هكذا يكون الحال مستحسَناً ، ولستُ في حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك ، أنا لا أبوح لك بشيء– وماذا صنعت يا تُرى ، أقتلت واحداً من الطغاة ، الموت لكم ، أيها الجلاّدون ، والمستبدون فأشرعوا في الإنشاد ، هل تعلم ، أنت ترقد ، وترقد ، وأنا لا أستطيع النوم على مدى الليل بأسره ، وهذا يصدر عنه ، على الدوام ، صوت مكبوت ، فُمْ ، فُمْ أتُراك تسمع هذا ، إنهم مازالوا يقذفون ، أولى الأمر ، بالكشك كله ، ويطرحونه رأساً على عقب ، وإن هؤلاء لعلى حق ، لقد حَسَبْتُ اليوم ، في الليل ، طوال الليل بأسره ، مقدار الدورات التي تدورها الأرض في ثانية ، حول الشمس ، وأنا أحسُب وأحسُب وأَحْسَبُ أنهن ثمان وعشرون دورة ، ثم يخطر ببالي أن زوجي تنام بجانبي ، هنالك أوقظها ، فتقول: يازوجي العزيز ، لا تنفعل ولا تغضب ، غير أنّ هذا لم يكن إلاّ حلماً .

لقد احتجزوني لأنني أشرب ، وإني لغاضب ، غاضب ، ولكن من نفسي فحسب ، ثم سيترتَّب عليّ أن أحطِّم ، بالضرب ، مايقف في طريقي ، وسأذهب ذات مرة ، من أجل تعويضي ، إلى الديوان ، حيث يقعد سجناء الأشغال الشاقة في الحجرة ، يمصّون مسّاكة ريشَتِهم ، ويبدون في نظر أنفسهم وكأنهم أسياد كبار . أمّا أنا فقد فتحت الباب بعنف ، وقلت: «هاهم أولئك يقولون: ماذا تبتغي إذاً ، ومَنْ تكون هنا ، على الإطلاق؟ هنالك أضرب بيدي على المنضدة: أمّا أنت فلست أرغب على الإطلاق في الحديث معك ، ومع مَنْ أتيح لي شرف الحديث ، يا تُرى! أنا شوغِل ، وأرجو أن تعطوني كتاب الهاتف ، فأنا أرغب في الحديث إلى رئيس الحكومة ، وهنا حطَّمت الدكّان تحطيماً كاملاً وحَوَّلتُه إلى أنقاض ، وكان ثمّة اثنان مازالا يؤمنان بذلك فيما يتصل بهذا ، في صدد الباشولك» .

ضربة صوت ، فُم ، بضربة سوط «فُمْ ، فُمْ ، آلة لدَكّ الأسوار ، فُمْ ، ضربة على الباب الخارجيّ ، احتدام قوة وعُنْفُوان ودَكٍّ وصدام ، وتنازع ، وتأرْجح واهتزاز ،

ومن عساه يكون هذا الفتى المزعوم الذي تتحدث به الأكذوبة، فرانتس بيبر كوبف، هُذْهُداً، أو مُحَمَّقاً خلقيّاً، يودّ أن ينتظر إلى أن يتساقط الثلج ذات مرة، ويقول: ثم نكون بعيدين، ولا نعود من جديد، وما يفكر فيه هذا، قائلاً إن مثل هذا الفتى لا يستطيع أن يفكر بالطبع، إذ ليس لديه عقل داخل جمجمته، فهو يريد هنا أن يرقد، ويريد أن يفعل فعل الشامس المعاند، غير أننا سنُفْسد على هذا طعامه وشرابه، فإن لنا عظاماً قُدَّت من حديد، فلتنتبه أيها الباب الخارجيّ المفرقِع وطَأْطِئ، ويا أيها الثقب في الباب الخارجي، بل أيها الصَّدْع في الباب الخارجيّ، فأنتبه، فما من باب خارجيّ، وما من ثقب خالٍ، ولا كهف، فُمْ، فُمْ، وأنتبه، فُمْ، فُمْ.

وثمة اصطفاق بين المصاريع، إذ يحدث اصطفاق وجَلَبة في جُنْح العاصفة، وفي هَبَّة الرياح ونَفْثِها، إذ يتعالى الاصطفاق والجَلَبة، وتعطِف امرأة رَقَبَتها نحو حيوان قرمزي اللون.

ولهذه المرأة سبعة رؤوس وعشرة قرون، وهي تصدِر نقنقات كنقنقة البَطّ، وفي يدها كأس، وهي تسخر من فرانتس، وتتربَّص به الدوائر. أمّا جبابرة العاصفة فتقدم لهم، فوق ذلك الشراب، نخب صحتهم، مع ما يواكبه من هتاف، وتكون طقطقة، وطقطقة، فيهدأ بالكم، ياسادتي، على أنّ هذا لا يعود بجدوى ذات شأن كبير فيما يتعلق بالرجل، ولم يحدث الكثير لهذا الرجل، فإنه ما عاد له بعدُ سوى ذراع واحدة، وبات وليس عليه من لحم وشحم، ولا يلبث هذا أن يعتريه البرد، وها هم أولئكِ يضعون له، في سريره، قارورة من الفخار للتدفئة، وقد بات لديّ دمه، على أنه ما عاد له، هو ذاته، بعدُ، إلاّ القليل منه، وما عاد يستطيع أن يضفي به على نفسه الأهمية، كلاّ، ما كان ليفعل ذلك بحال من الأحوال، فاهدأوا بالاً، ياسادتي.

ويحدث هذا أمام عيني فرانتس. والمومس تحرِّك رؤوسها السبعة، وتُنَقْنِق نقنقة البط، وتومئ إيماءة الموافقة. والحيوان يشحذ أسنانه تحت قدمَيْها، وينوس برأسه.

سكر العنب والنَّضحات بالكافور

ولكن في النهاية يتدخَّل امرؤ آخر

ويخوض فرانتس بيبر كوبف نضالاً مع الأطباء، فهو لا يستطيع أن ينتزع الأنبوبة منهم، ولا يستطيع أن يسحبها من أنفه، وهم يصبّون الزيت على المطاط، وينزلق المسبار في البلعوم والمَريء وينساب اللبن والبيض في معدته، ولكن حين تكون عملية التغذية قد تمَّ الفراغ منها يأخذ فرانتس في تجرُّع ما ابتلع وتجنح نفسه إلى الغثيان والإقياء. وهذا مجهد ومؤلم، غير أن المسألة تستقيم أيضاً عندما يقيدون يدَيْ الواحد من الناس ولا يستطيع امرؤٌ أن يدسَّ يده في حلق المريض، ومن الممكن أن يتقيّأ المر، كل شيء خلال أجل قريب، وسوف نرى أن من يحتفظ بإرادته سواء أكان ذلك هي، أم أنا، وحتى لو كان بين الحاضرين مَنْ يفرض عليَّ هذا العالم الملعون. فأنا لستُ، بالنسبة للأطباء، ميداناً لتجاريبهم، ومايحدث لي لا يعرفونه، بلا ريب.

هنالك يفرض فرانتس ذلك ويزداد وَهْناً على وَهْن، ويجرّبون هذا معه بكل طريقة، ويهدؤون ثائرته، ويجسون نبضه، ويُنْزلونه مكاناً عالياً، ثم ينزلون به، ويعملون له حقنات من الكوفيئين وحقنات من الكافور، ويحقنون شرايينه بسكّر العنب وملح الطعام، وتجري مناقشة احتمالات المستقبل فيما يتعلق بالحقنات المعوية الشرجية عند سريره، وربما كان من الواجب أن يُتاح له، بلا ريب، استنشاق المزيد من الأوكسجين، فإنه لا ينتهي إلى رفع القناع عن وجهه. إنه يقول في نفسه: «ما الذي يهمّ السادة الأطباء أولي المقام الرفيع من أمري، فهنا يموت في كل يوم، في برلين، مائة من البشر، وحين ينتاب المرض أحدَهم لا يريد أي طبيب أن يأتيَ إليه، حين لا يتوافر لديه، على وجه الخصوص، المال الكثير، والآن يأتون جميعاً، عَدْواً، غير أنهم لا يصلون على الإطلاق، لأنهم يريدون أن يساعدوني، وأنا لا أشغل مجال اهتمامهم اليوم أبداً، مثلما كنت أشغله بالأمس» وهم الذين ربما كنت أشغل مجال اهتمامهم، ومن أجل ذلك يتملكهم الغيظ مني، إذ يعجزون عن التخلُّص مني، وهذا ما يأبَوْن أن يرتضوه ويتقبَّلوه، ولكنهم لا يقدرون على ذلك في كل مكان، والموت مسألة تتعارض مع النظام المنزلي هنا ومع نظام المؤسسة، فعندما

أموت يظفرون بامرئ مقيَّد مغلول اليد محدَّد النشاط ، وفضلاً عن ذلك فهم يريدون أن يرفعوا ضدي فيما بعدُ قضية بسبب ميتسه ، وما هو أكثر منها ، ومن أجل ذلك لا بُدَّ لي أوَّلاً أن أقف على قدمَيّ ، فهؤلاء بالنسبة إليّ هم أجراء الجلاّد الحقيقيّون ، وليسوا حتى جلادين ، بل هم عبيد الجلادين ، الذين يسوقون إليهم ضحاياهم ، ثم يروحون ويجيئون حواليهم في عباءة الدكتور ، ولا يخجلون .

وهذا تهامس ساخر بين المعتقلين عند المحطة ، حين باتت هناك زيارات من جديد ، وفرانتس يرقد هنا ، كما كان من قبل . وكان هؤلاء قد أضنوْا أنفسهم مع هذا الرجل ، إذ كانت هناك حُقَن جديدة على الدوام ، وكانوا يجعلون الرجل قائماً على رأسه تماماً أوَّل الأمر . أمّا الآن فيريدون إجراء عملية نقل دم إلى هذا ، ولكن من أين يأتون بالدم ، فما من أحد يبلغ من الغباء هنا ، مايحمله على أن يسمح بفَصْده ، وما من شك في أنَّ عليهم أن يَدَعوا الرجل المسكين راضياً ، فإرادة الإنسان هي مملكة السماء عنده ، وما يريده الواحد من الناس ، فهو يريده على أية حال . والمنزل كله يتساءل بعدُ عن مجرَّد ما يحصل عليه اليوم صاحبنا فرانتس ، من أجل الحقنة ، وهم يضحكون فيوارون ضحكتهم وراء قبضات ، أيديهم ، من وراء ظهور الأطباء ، ففي حالة هذا لا يجدي ذلك شيئاً ، هنالك لا يشقّون الطريق ليصلوا إلى مقاصدهم ، وهذا فتى قاسٍ صعب المراس ، وإنه لمن أقسى القُساة ، ذلك الذي يكشف عن هذا لهم جميعاً ، وهو الذي يعرف مايريد .

ويرتدي السادة الأطباء في حجرة الوصفة الطبية معاطف بيضاء ، وهؤلاء هم السيد كبير الأطباء والطبيب المساعد والطبيب المتطوّع ، والطبيب الممارس ، ويقولون جميعاً إنها حالة سُبات وانْشداه . على أنَّ الأطباء الأحدث سناً لديهم نظرة خصوصية إلى هذه الحالة ، إذ يجنحون إلى إحالة معاناة فرانتس بيبركوبف إلى علماء النفس ، أيْ أنَّ جموده يستمد منطلقه من النفس ، إنها حالة مرضية ناجمة عن الإعاقة والتقييد كان من الممكن أن يَجْلُوَها تحليلٌ ما ، ربما بالاستناد إلى تناقص المراحل والأطوار النفسية الأكثر قِدَماً على الإطلاق ، لو أَنّ ، وأريد هنا أن أؤكد على عبارة «لَوْ أن» هذه ، الباعثة للأسى الشديد ، وأسفاه ، فهذه العبارة ذاتها «لو أَنَّ» تفسد الجو إلى

حد بعيد، أقول لو أنَّ فرانتس بيبر كوبف تكلَّم، واستقرّ في مجلسه معهم لدى منصة الاجتماع، ليصفّي معهم النزاع. لقد كان السادة الأحدث سنّاً يضعون، مع فرانتس بيبر كوبف، مدينة مثل لوكارنو نصب أعينهم. ومِنْ هؤلاء السادة الحديثي السن، ومن كلا المتطوّعين والطبيب الممارس، يأتي، بعد الزيارة، قبل الظهيرة وبعد الظهر، كلٌ واحدٌ في قاعة الإيقاظ الصغيرة المسوَّرة، إلى فرانتس، ويحاول، بأقصى قدر من طاقاته، أن يفتح الباب لحديث يتواصل. ومِنْ ذلك أنهما يسلكان طريقة التظاهر بالجهل، ويحثّانه كما لو كان يسمع كل شيء، وهذا صحيح، وكأنَّ أحداً يمكن أن يستدرجه ويوقع به في شَرَك، ليخرج بذلك من عزلته، وينفذ من سور الاحتجاز.

وحين لا تسير الأمور على الوجه الصحيح، يفرض ذلك أحد المتطوِّعين، بحيث يأتي المرء من المؤسسة إلى الجهة المقابلة بجهاز كهربائيّ للتنبيه والإثارة، ويتولّى القوم معالجة فرانتس بيبر كوبف بالتيّار الكهربائي المُسْتَحَثّ، وذلك، في الحقيقة، في الجانب العلويّ من جسمه، وأخيراً يضعون التيار الكهربائي المستحثّ «أو تيار فاراداي»، على وجه الخصوص، على منطقة الفكين، وعلى العنق، وعلى أرضية الفم، ولم يكن بُدٌّ لهذا الجزء أن تتمَّ إثارته وتحريضه الآن على وجه الخصوص.

أما الأطباء الأكبر سِنّاً فهم أناس جُدُد متمرِّسون بالدنيا، يسرهم أن يحركوا سيقانهم بالتريُّض ليتنزَّهوا بعد المقام في المنزل الثابت الراسخ، وهم يسمحون بكل شيء. أما السيد كبير الأطباء فيقعد في حجرة الوصفات الطبية إلى المنضدة، قبالة الأضابير، ويتولى كبير القائمين بالرعاية الصحية مناولته إياها من اليسار إلى الجهة المقابلة، وأمّا كلا السيدين الحديثَيْ السن فهما الحرس الفتيّ، وأمّا الطبيب المساعد والطبيب الممارس، فيقفان لدى النافذة المسوَّرة، ويتجاذب القوم أطراف الأحاديث، وقد تم تصفُّح لائحة الوسائل المنوِّمة، والقائم الجديد بالرعاية الصحية قدَّم نفسه وقد خرج مع كبير الرعاة للصحة، والسادة فيما بينهم، كعادتهم، يقلّبون الأوراق في المحاضر العائدة إلى المؤتمر الأخير في بادن بادن. ويقول كبير الأطباء: «والأمر الأوّل هو أن تعتقدوا أيضاً أن الشلل له ارتباطٌ بالجانب النفسي وأن المُلْتَوِيات(١٣) قمل ناجم

(١٣) بكتيريا تسبّب السفلس والحمّى الراجعة. "المترجم"

عن مصادفة، في الدماغ. أمّا النفس، أمّا النفس، أيُّهذا الصندوق الحديث للشعور والإحساس! أيُّهذا الطب القائم على أجنحة الأغانيّ والأناشيد».

ويخلد كلا السيدَيْن إلى الصمت ويتسمان في قرارة نفسَيْهما. ألا إن الجيل القديم ليتكلم فيفرط في الكلام، ومنذ سِنٍّ معينة فصاعداً يترسَّب في الدماغ الكلس ولا يعود المرء يتعلَّم شيئاً فوق ماكان تعلَّم، ويدخِّن كبير الأطباء، ويواصل تدوين توقيعاته، ويمضي قائلاً:

«ألا ترى، الكهرباء شيء حسن في ذاته، وهي أفضل من الثرثرة باللغو والكلام الفارغ، ولكن إذا أخذنا تيّاراً ضعيفاً لم يُجْدِنا ذلك شيئاً، وإذا أخذت تيّاراً قوياً استطعت أن تشهد شيئاً ما، وإذا عرف المرء، من الحرب، معالجة التيار القوي، أيها الرجل، مخلوق الله، هذا غير مسموح به، إنه التعذيب الحديث». هنالك تتماسك قلوب السادة الحديثي السن، ويتساءلون: «ماذا ينبغي للمرء أن يصنع في حالة بيبر كوبف؟ «إنه يقرّر، أوَّلاً، تشخيصاً ما، ويقرر التشخيص الصحيح حين يكون ذلك ممكناً، وباستثناء النفس التي لا سبيل إلى المجادلة فيها— وما من شك في أننا نعرف صاحبنا غوته وشاميس، وإن كان ذلك منذ وقت أطول قليلاً، أيضا— أقول إنه يوجد، فضلاً عن هذا بعدُ، نزيف من الأنف أو مسامير القدم والسيقان المكسَّرة، أو يقتضي ذلك مسمار القدم من أحد الأطباء.

وأنت تستطيع أن تفعل ماتشاء بساق مكسورة، وهذا لا يعني: بناءً على الإقناع، وهنا تستطيع أن تعزف على البيانو، وهذا لا يشفي، وهذا يريد، بل ينبغي للمرء أن يؤسِّس خطّاً حديدياً، وأن يَرُدَّ ما طرأ من حالات خلع العظام إلى وضعها الصحيح، وهذا يقتضي أن يترتَّب على المرء أن يرسم أو يشتري لنفسه أحذية أفضل ذوات ساقين، والحل الأخير هو الأكثر تكلفةً، غير أنه يفي بالغرض بدرجة أعلى» أما حكمة تصحيحات الفندق العائلي والمرحلة التي وصل إليها الدخل، فتستحقان في التقدير درجة الصفر، وعلى هذا فما الذي ينبغي للمرء أن يفعله في هذه الحالة، أي حالة بيبر كوبف، وما رأي السيد كبير الأطباء؟» «وضع التشخيص الصحيح»، وهو يعني هنا، ووفقاً لعلم التشخيص عندي الذي ولّى عهده منذ عهد بعيد، بالطبع، ووَفْقاً

لما يسمى «الذهول الجامودي». وبهذه المناسبة، إذا لم يكن يستكينّ وراء ذلك حالة عضوية فظّة للغاية، شيء في الدماغ، أو وَرَم، أو شيء في المخ الأوسَط، وأنت تعرف ماتعلمناه فيما يسمى Kopfgrippe «أو أنفلونزا الرأس»، نحن الأكبر سناً على الأقل. وربما شهدنا، بعدُ، حدثاً غير متوقَّع يلفت الأنظار في صالة القسم، إن لم يكن ذلك أوَّل مرة» «الذهول المرتبط بالإغماء التخشبي؟» فهل كان يجب شراء حذاء جديد ذي ساق عالية، ذات مرة، «أجل، فإن مايستقر هنا مقروناً بالجمود. هذه الاندفاعات من العرق، ثم يغمز هذا بعينيه من حين إلى آخر، ويلاحظنا ملاحظة ممتازة، غير أنه لا يفصح بلسانه عن شيء، كما أنه لا يقدم على طعام، ويبدو لنا في صورة الإغماء التخشُّبي، وأخيراً فما من شك في أن السيد المُتمارِض، أو المصاب ببعض الأعراض النفسية المرضية نتيجة أسباب انفعالية «Psychogener»، يغدو عاجزاً، أما الموت جوعاً فإنّ هذا لن يدع المسألة تصل إلى هذا الحد» «ثم إنّ مايتحسَّن لصالح الرجل في هذا التشخيص، يا سيّدي كبير الأطباء، لا يساعده أيضاً في شيء، بلا ريب» أما هذا فهو لدينا، في حالة حسنة، في صندوق كالحمام التركيّ.
وينفجر كبير الأطباء بالضحك، وينهض قائماً: ويتقدم كبير الأطباء من النافذة، ويربّت على كتف الطبيب المساعد: «لا بأس، أوَّلاً سوف تتمُّ حمايته منكما، أنتما معاً، أيها الزميل العزيز. عند ذلك يستطيع، على الأقل، أن ينام دونما حرج. وهذا يعدُّ، بالنسبة لهذا، مزيّة، أفَلا تصدقُ أنّه لَنْ يبعث الملل عنده أيضاً في النهاية، ماتتلو أنت عليه أنتَ والزميل الآخر؟ وهل تعلم، بالمناسبة، إلى أي شيء سوف أسْنِد الآن تشخيصي كما يستند المرء إلى دعامة من حديد؟ ألا ترى، الآن ظفرت به. لقد كان هذا خليقاً أن يتم الظَّفَر به منذ عهد بعيد، يا ابن آدم، لو أنّ ما كان عند هذا هو مايسمونه النفس. وحين ينظر مثل هذا السجين الذي حنّكَتْهُ التجاريب، عند ذلك يصل أمثال هؤلاء السادة الحديثو السن للغاية، الذين يعرفون بالطبع قَدْراً عائداً إليّ – وأستميح عفوك، فنحن نتحدث بالطبع فيما بيننا–، وهم الذين يريدونني على أن ألتمس من الرب الصحة والعافية، وذلك أنهم يمثلون، بالنسبة إلى فتى كهذا، فريسة وقع عليها، وهذا شيء يمكن أن يحتاج إليه، وما يفعله عندئذ فقد كان خليقاً

أن يفعله منذ عهد بعيد؟ ألا ترى ، أيها الزميل ، لو أن الفتى كان ينطوي على عقل وحساب وتفكير موضوعي–» والآن تعتقد هذه الدجاجة العمياء ، أخيراً ، أنها عثرت على حبة ذرة ، حين تشرع في نقنقات قصيرة متتابعة ، صادرة عن الحنجرة ، يتخلَّلها صوت ممطوط ، وتُوالي ذلك وتكرِّره «إنه معوَّق بالطبع ، يا سيِّدي كبير الأطباء ، ثم إنه يعدُّ ، أيضاً ، تبعاً لوجهة نظرنا ، وَقْفاً أو حرمانا ، غير أنه يتوقَّف ، شَرطيّاً ، على لحظات نفسية معيَّنة ، –فقدان الاحتكاك مع الحقيقة الواقعة ، وبعد حالات خيبة الأمل ، وأشكال العجز ، ثم المطالب الغريزية ، الطفولية ، الموجهة إلى الحقيقة الواقعة ، بإعادة التمكين من الاحتكاك بالمحاولات العقيمة» . «كلام فارغ ، لحظات نفسية ، ثم إنه خليق أن يتعرَّض للحظات نفسية أخرى على أية حال . ثم يتوقف عن الحجز والإعاقة ، وهو يهدي هذين إلى كِلَيْهما في صورة هدية عيد الميلاد . وخلال أسبوع ينهض على قدميه بمعونتهما ، ربّاه ، ياللك من ملتمس عظيم من الرب ، للصحة والعافية ، وَلْيَتَبارك العلاج الجديد ، ويبعثون ببرقية ولاء إلى فرويد ، في فيينا . وفي الأسبوع الذي تلا ذلك يذهب الفتى بمساندتهما ، ليتنزَّه في الدهليز ، أعجوبة ، أعجوبة ، هَلّلويا ، أسبوع آخر كذلك ، ثم يطّلع اطلاعاً حسناً على طبيعة الوضع في الفناء ، ويمضي أسبوع آخر ، ويكون بمعونتهما التي اكتملت حقاً ، وراء ظهرهما ، هلّلويا ، ولننطلق سريعاً ونخرج من هنا» «لا أفهم ، هل كان من الواجب على المرء أن يحاول ، لا أعتقد ، يا سيِّدي كبير الأطباء» «أنا أعرف كل شيء ، وأنت لا تعرف شيئاً ، قَقْ ، قَقْ ، نحن نعرف كل شيء» «ولكن أنا . هل تتعلَّم بعدُ أيضاً ، كان لا بُدَّ لك أن تكون شَهِدْتَ هذا . وَيْحَك ، الآن لا تعذِّبَنَّ هذا ، وصَدِّقْني ، فإن هذا لا يجدي ، حقاً» «سوف انتقل ذات مرة إلى المنزل رقم ٩ في الجهة المقابلة ، هذه المناقير الخُضْر ، منْ لا يُسَلِّم إلاّ للرب العلي القدير بأن يحكم ويهيمن ، كم تبلغ الساعة الآن في الحقيقة» .

كان فرانتس بيبركوبف فاقد الوعي ، مستغرقاً في أفكاره ، شديد البياض ،

ضارباً إلى الصفرة، تبدو الأورام المائية عند براجمه[١٤] تصدر عنه أنفاس عابقة برائحة الجوع، بل تفوح منه هذه الرائحة، ورائحة الازيتون المستعذَبة. ومَنْ يدخل الحجرة يلاحظْ على الفور أنه يجري هنا شيء خصوصي، استثنائي.

وكانت نَفْسُ فرانتس قد بلغت دَرْكاً عميقاً، ولم يكن وعيه يُعَدُّ حاضراً إلاّ في بعض الأحيان، هنالك تفهمه الفئران الرمادية التي تقطن المخزن في الدور العلوي، والسناجب وأرانب الحقل التي تتواثب هنا وهناك، في الخارج. وكانت الفئران تقعد في مبناها، بين المنزل الموطَّد الأركان والمركز الكبير، في بوخ، هنالك ينتشر شيء من روح فرانتس ويتيه ويبحث ويلتمس، ويهمس ويَفُحّ ويسأل، ويكون أعمى ويعود أدراجه إلى مأواه الذي مازال يقع وراء الجدار، في السرير، ويتنفَّس.

وتدعو الفئران فرانتس إلى تناول الطعام معهن، وإلى أن لا يكون كئيباً محزوناً، وذلك مايكدِّره. هنالك يتبيّن أَنَّ ليس من السهل بالنسبة إليه، أن يتكلم، وتلحّ عليه عسى أن يضع نهاية لهذا كله، والإنسان حيوان قبيح، إنه عدو كل الأعداء، وهو المخلوق الأكثر معاكسة لظروفه، على وجه الأرض، بل هو أسوأ من القطط.

ويقول: إنه ليس من المستحسن أن يعيش المرء في جسد إنسان، وأنا أوثر أن أكون تحت الأرض أو أعدوَ فوق الحقول وأفترس ما أجد، وتهب الرياح، ويتساقط المطر، ويأتي البرد، ويتبدَّد، فهذا خير من أن أعيش في جسد بشري.

وتعدو الفئران، وفرانتس فأرة حقل، تشارك في الحفرة.

وفي المنزل الموطَّد الأركان يرقد في السرير، والأطباء يأتون ويمسكون بجسده، بالقوّة، بينما يزداد في هذه الأثناء، على الدوام، عمق شحوبه، ويقولون، هم أنفسهم إنه ما عاد يمكن إمساكه، وماكان فيه حيواناً فهو يعدو فوق الحقل.

والآن يَنْسَلُّ شيء منه، مغادراً، ويتلمَّس ويبحث، ويحرِّر نفسه، وهو ما لم يكن يشعر به في نفسه، فيما عدا ذلك إلاّ فيما ندر وفي جوٍّ من الغَسَق، وهذا

---

(١٤) البراجم، رؤوس عظام الأصابع كما تبدو في ظاهر اليد.

شيء يعوم سابحاً من فوق ثقوب الفئران إلى ما بعدها، يلتمس الأعشاب ويتلّمس الأرض، حيث تحافظ النباتات على جذورها وأرومتها، مخبوءة. هنالك يتحدث شيء ما إليهم، وهم يستطيعون أن يفهموا حديثه، إنها هبّة رياح تروح وتغدو، وقرع على باب ما، إنها كما لو أن ثمة أصولاً أو بذوراً تسقط على الأرض، ونفس فرانتس ترُدُّ بذور نباتاتها، ولكنه زمان رديء، بارد ومتجمد، ومن يدري كم يبلغ عدد النباتات التي سوف تضرب بجذورها في الأرض، غير أنّ المكان متوافر في الحقول، وفرانتس ينطوي في ذاته على الكثير من البذور والأصول وفي كل يوم تهبُّ هذه من المنزل وتصبُّ بذوراً جديدة.

الموت يغني أغنيته البطيئة، البطيئة

لقد سكن الآن جبابرة العاصفة، وبدأت أغنية جديدة، وهذه الأغنية يعرفونها جميعاً ويعرفون من يغنيها، وحين يرفع هذا صوته يُخْلدون جميعاً إلى السكون، وحتى أولئك الذين هم الأكثر عنفواناً واندفاعاً على وجه الأرض.

وكان الموت قد شرع في الترنُّم بأغنيته البطيئة، البطيئة، إنه يغني مثل مَنْ يتلَعْثم، فهو يكرر كل كلمة، وحين يكون قد غنّى بيتاً من الشعر، يكرِّر البيت الأول ويبدأ به مرة أخرى، إنه يغني مثلما يشق طريقه منشار ينطلق ببطء شديد للغاية، ثم ينطلق غائصاً في عمق اللحم، ويزعق بصوت أعلى، وأكثر وضوحاً وجلاءً، ثم ينتهي إلى غايته بلحَنٍ ما، ويخلد إلى السكون، ثم ينطلق رُوَيْداً رُوَيْداً، عائداً أدراجه من جديد، وهو يَعَضُّ على نواجذه، ويغدو لحنه أعلى، وأكثر إحكاماً ويزعق، ويغوص داخلاً في اللحم.

ويغنّي الموت أغنية رويداً رويداً.

لقد آن الأوان بالنسبة إليّ لكي أظهر عندك، لأن البذور باتت تطير من النوافذ، وأنتَ تنشر عباءتك، وكأنك ماعدت تستلقي على الأرض مسترخِياً. أنا لست مجرَّد حصّاد، ولا مجرّد رجل يبذر البذور، وإنما يترتّب عليّ أن أكونَ هنا، لأن واجبي أن أصونَ وأحمي! أجل! أجل أجل».

أجل، هذه هي الكلمة التي يترنّم بها الموت عند نهاية كل شطرة، وحين يقوم بحركة شديدة، يتغنى بعبارة: «أجل» لأنها تسرُّه، غير أن أولئك الذين يسمعونها يغمضون أعينهم فهي كلمة لا تُحْتَمل.

ورُوَيْداً رُوَيْداً يغني الموت، وتصغي إليه بابل الخبيثة، كما يصغي إليه جبابرة العاصفة.

«أنا أقف هنا وسيكون لزاماً عليَّ أن أسجِّل: إنّ الذي يرقد هنا ويضحِّي بحياته وجسده، هو فرانتس بيبركوبف، أمّا أين يوجد أيضاً، فذلك مايعرفه هو، بل يعرف إلى أين يريد وماذا يريد».

ما من شك في أن هذه أغنية جميلة، ولكن هل يسمع هذه الأغنية فرانتس وماذا يفترض أن تسمى هذه: أهذا مايتغنى به الموت؟ مثل هذا المطبوع في الكتاب أو ما يُتلى بصوت عالٍ، أهو شيء من قبيل الشعر، لقد أَلَّف شوبرت أغانيٌ مماثلة، الموت والفتاة، ولكن ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟

أنا لا أريد أن أقول إلاّ الحقيقة الخالصة، الحقيقة الصِّرفة، وهذه الحقيقة هي: فرانتس بيبركوبف يصغي إلى الموت، إلى هذا الموت، ويسمعه يغني بطيئاً، وهو الذي يغني غناء امرئ متلعثم متلجلج، مع اقتران ذلك بعمليات التكرار، دائماً، ومثل منشار يشق طريقه في الخشب.

«يترتَّب عليَّ هنا أن أسجل، فرانتس بيبركوبف، أنت ترقد، وتريد أن تأتي إليّ، أجل، لقد كنتَ على حق، يا فرانتس، إذ جئت إليّ، وكيف يستطيع إنسان أن ينمو ويصلُح حاله حين لا يزور الموت؟ الموت الحقيقيّ، الموت الفعليّ. لقد حافظت، طوال حياتك بأسرها، على ذاتك، المحافظة، المحافظة وهكذا تكون الرغبة الرهيبة عند البشر، وهكذا تقف في بقعة واحدة، وهكذا تثبت فلا تتقدم إلى ما هو أبعد.

وحين خدعك لودَرْز، تحدثت إليك أوَّل مرة، وكنتَ قد شربت و– حافظت على نفسك! وتحطمت ذراعك، وباتت حياتك في خطر، فيا فرانتس، اعترِفْ

بذلك، أنت لم تفكر في الموت في أية لحظة، لقد بعثت إليك بكل شيء، غير أنك لم تُدْرِك مَنْ أكون، وحين حَزِرْت مَنْ أنا، كنتَ تظل على الدوام أكثر جموحاً وأكثر فَزَعاً، وكنتَ تعدو هرباً مني، ولم يخطر ببالك قط أن تُنْحِيَ باللائمة على نفسك وعلى ماكنتَ شرعت فيه، وكنت قد زَجَجْتَ بنفسك في مضمار القوة، مُتشَنّجاً، ولمّا يتبخّر التشنُّج حتى الآن، ولا ريب في أنه ما من شيء يجدي، ولقد شعرتَ بذلك بنفسك. لاريب في أنه ما من شيء يجدي. والموت لا يُغَنّيك أغنيةً رفيقة رقيقة، ولا يضع ربطة عنق لائقة حول عنقك. وأنا الحياة والقوة الحقّة، فأنت ماعدتَ تريد، آخر الأمر، أجل، آخر الأمر، الحِفاظ على نفسك».

ماذا؟ ماذا تقول عني، وماذا تزمع أن تفعل بي؟»

«أنا الحياة، والقوة الحقة، وقوتي أشدُّ بأساً من أضخم المدافع، وأنت لا تريد أن يقرَّ قرارك، بهدوء بين يَدَيّ، في أي مكان كان. أنت تريد أن تطّلع على ذاتك، وتريد أن تختبر نفسك، والحياة لا يمكن أن تستحق أن تعاش من دوني. هَلُمَّ فَلْتَدْنُ مني، لكي تراني، يا فرانتس، ألا فانظر كيف تستلقي في الأسفل، في هاوية، وأريد أن أكشف لك عن سُلَّم، هنا لتتاح لك نظرة جديدة، ولسوف تصعد إليّ الآن من الجهة المقابلة، ولسوف أَمْسك به من أجلك. أجل أنت ليس لك إلاّ ذراع واحدة، ولكن فلتُمْسِك إمساكاً مُحْكَماً، ولتَخْطُ نحو الأعلى، وَلْتُقْبِل عليّ».

لا أستطيع أن أرى سُلَّماً في الظلام، فأين تركتُه يا تُرى، كما أنني لا أستطيع أن أتسلّق بذراعي الواحدة»

«لن تتسلّق بالذراع، بل ستتسلّق بالساقَيْن»

«لا أستطيع أن أستمسك بشيء. أو أعتمد على شيء، وليس لما تطلبه منّي معنى».

وأنتَ لا تريد أن تدنُوَ مني فحسب. عند ذلك أنا أريد أن أوقد لك النور، ثم تجد الطريق إلى نقطة معينة».

هنالك يتناول الموت ذراعه اليمنى ليبرزها من وراء ظهره، ويتبيّن لماذا خبّأها وراء ظهره.

إذا لم تكن لديك الجرأة على الدخول في الظلام، فسوف أوقد لك النور، فلتزحف لتدنُوَ مني»

هنالك يلتمع بريق بلطة يخترق الهواء، ولوح برق، ثم ينطفئ.

«تقدَّم زحفاً، تقدَّم زحفاً!»

وحين يُلَوِّح بالبلطة، من الأعلى، يُلَوِّح بها من أعلى وراء رأسه، إلى الأمام ومع المزيد من التقدم إلى الأمام، راسِماً بها قوساً، في دائرة تصفها الذراع، تبدو البلطة كأنها تفلت من يديه منطلقة بصوت يدوّي، ولكن ها هي ذي يده ترتفع وراءه متقدِّمة، وهي تلوِّح من جديد ببلطة، ويلتمع البرق، وتسقط سقوط سكين المقصلة، في نصف قوس، متقدمةً إلى الأمام وهي تخترق الهواء بصوت فرقعة، بلطة جديدة تُدَوِّي، بلطة جديدة تدوّي، بلطة جديدة تدوّي.

فلتتحرك في قوسٍ كالنوّاس، ثم فلتسقط، ولْتَنْقَضّ مهاجماً، ولتنقضّ مهاجماً، ولتتحرّك في قوس كالنوّاس، ثم فلتعاوِد حركتك هذه.

وفي وميض النور، بينما كان يتحرك في قوس كالنوّاس، لينقضّ مهاجماً، ويزحَف فرانتس ويتلمَّس السلَّم، ويصرخ، ويصرخ فرانتس، ولا يعود، زاحفاً. يصرخ فرانتس. الموت ههنا، وفرانتس يصرخ.

فرانتس يصرخ، يتقدم زاحفاً، وهو يصرخ.

إنه يصرخ، الليل بطوله، لقد جاء فرانتس يسير زحفاً، كزحف الكتائب.

إنه يصرخ حتى يبلغ صوته أعماق الضحى

فلتتحرك في قوس كالنوّاس، في ساعة الظهيرة، ولتنقضّ مهاجماً.

ولتتحرك في قوس كالنواس، إلى أن تبلغ أعماق مابعد الظهيرة.

ولتتحرك في قوس كالنواس، ولتنقضّ مهاجماً.

ولتتحرك في قوس كالنواس، ولتهاجم، ولتهاجم، ولتتحرَّك، ولتتحرَّك، مهاجماً، مهاجماً، مهاجماً.

ولتتحرك في قوس كالنواس، ولتنقضّ مهاجماً.

وهو يصرخ إلى أن يبلغ عمق المساء، والليل يُقْبِل

ويصرخ إلى أن يبلغ أعماق الليل، فرانتس في الليل.

ويتابع جسدُه التحرك زحفاً إلى الأمام. وتتوالى الضربات على الوَضَم[١٥]، قطعة فقطعة، ويتقدم جسده زاحفاً على نحوٍ آلي، إذ لابُدَّ له أن يتقدَّم زحفاً، فهو لا يستطيع غير ذلك، وتدور البلطة دورانها الحلزوني في الهواء، وتومِض ببريقها ثم تسقط، ويتم التقطيع بالبلطة سنتيمتراً، فسنتيمتراً. وفي الجانب الآخر، في الجانب الآخر من السنتيمرات، هنا لا يكون الجسد ميتاً، هنا يجرُّ نفسه متقدِّماً، رويداً رويداً، إلى الأمام، ولا يسقط إلى أسفلَ، بل يواصل كل شيء حياته.

أمّا أولئك الذين يمرون بسريره في الخارج ويقفون عند سريره ويرفعون أجفانه ليرَوْا أما زالت المنعكسات باقية، والذين يجسّون نبضه الذي بات مثل خيط واهٍ، فلا يسمعون شيئاً من الصراخ، بل ينظرون فحسب: لقد فتح فرانتس فمه، ويعتقدون إنه ظمآن، ويُسَرِّبون إلى فمه بضع قطرات من الماء محاذرين، ألا ليته لا يتقيَّأها فحسب، على أنه يكفيه من التحسُّن أنْ لا يعود يشدُّ فكَّيْه أحدهما على الآخر، فكيف يكون من الممكن فحسب أن يتمكَّن إنسان من البقاء حيّاً طوال هذا الوقت.

«أنا أتألَّم، أنا أتألم»

«لعلَّ من الخير أنك تتألم، فما من شيء أفضل من كونك تتألم».

«آه، لا تدعني أتألَّم، ولْتضع لهذا نهاية، بربِّك».

«لا يجدي وضع النهاية، فالمسألة تنتهي إلى غايتها الآن».

«هلاّ وضعتَ لذلك نهاية، بربك. فإنّ ذلك في يدك».

---

(١٥) اللوح الخشبي الذي يقطع الجزّار عليه لحم الحيوان وعظمه. «المترجم»

«ليس في يدي سوى بلطة واحدة، وكل ماعدا ذلك فهو في يدك».

«وماذا في يدي؟ فلتضع لذلك نهاية، بربك».

والآن يزمجر الصوت، وقد تغيَّر كل التغيُّر.

السُّخط الذي لا حدَّ له، والذي لا يُكْبَح جماحه، السخط الجنوني، الذي لا يُكْبَح جماحه الذي يتخطّى كل الحدود ويكون له هديرٌ ودَوِيّ.

«لقد انتهى بي الأمر إلى أن أقف هنا وأتحدث إليك هذا الحديث، وأن أقف وقْفة مُعَذب وجلاّد، وأضطر إلى ممارسة الخَنْق بحقك مثلما يمارَس مع حيوان سامّ لاهثٍ مسعور، لقد كنت أناديك المرة بعد الأخرى، وكنت تعدُّني مثل جهاز تشغيل الأسطوانات، أو الحاكي، الذي يدير المرء زُرّه حين يحلو ذلك له، ثم بات لزاماً عليَّ أن أناديك، وحين كنت تكتفي، كنت تلغي الطلب، وأن تَعُدَّني كذلك، أو تعدَّني كذلك من قبل، والآن أنت ترى، فهذا الشيء مختلف».

وما الذي صنعتُه يا تُرى، ألم أتعذَّب بما فيه الكفاية، فأنا لا أعرف إنساناً سارت الأمور معه مثلما سارت معي، على النحو الباعث للتفجُّع والباعث للرثاء».

أنتَ لم يسبق لك وجود هنا قطّ، أيها الفتى القذر، أنت، فأنا لم أرَ، طوال حياتي امرأً يقال له فرانتس بيبركوبف، وحين بعثت إليك بلودرز، لم تفتح عينيك، بل أطبقتهما، مثلما يفعل المرء بسكين جيب إذ يطويه. ثم شربت الخمر، الخمر، والخمر، وليس في صورة معاقرة للخمر».

«لقد كنت أريد أن أكون امرأً مستقيماً كريم الأخلاق، على أن هذا خدعني».

«أقول إنك لم تفتح عينيك، أنت، أيها الكلب المُحْدَوْدِب! أنت تطلق السباب والشتائم على المخادعين والخداع، ولا تنظر إلى البشر، ولا تسأل، لماذا وكيف. فأي قاضٍ أنتَ على البشر، وليس لك عينان، لقد كنت مكفوف البصر، وكنتَ، فوق ذلك، وقحاً، مغروراً، السيد بيبركوبف من الحي الراقي، وينبغي للعالم أن يكون كما يريد. إنه مختلف، يا بنيَّ، الآن تلاحظ هذا. فهذه لا تحفِل بأمرك وحين أمسك بك راينهولد، وقذف بك تحت السيارة، ودُهِسَت ذراعُك، ولم تَخُرْ

حتى قُوى صاحبنا فرانتس بيبر كوبف. وحين يرقد هذا بعد تحت العجلات، يقسم قائلاً: «أريد أن أكون قوياً، لا تقولوا: فلنفكر الآن، ذات مرة، فلنستجمع طاقاتنا الفكرية– كلاّ، فهذا يقول: أنا أريد أن أكون قوياً، وأنت لا تريد أن تلاحظ أنني أتحدث إليك، غير أنك تسمعني الآن».

«لا ألاحظ شيئاً، لماذا؟ ماذ يا تُرى؟»

«وأخيراً ميتسه– فرانتس، العار، العار، فلتقل: العار، فلتصرخ: العار!»

«لا أستطيع، فأنا لا أعرف لماذا؟

فلتصرخ: العار. لقد جاءت إليك، وكانت ساحرة، ولقد اسبَغْتَ عليك حمايتها، وكانت تجد سرورها لديك، وأنتَ؟ ما الذي كانه إنسانٌ بالنسبة إليك، مثل هذا الإنسان الذي يحاكي زهرة، وأن تنطلق إلى هناك، وتتحدث متبجحاً، معها، بين يدَيْ راينهولد، وبين يديك ذروة كل المشاعر، فأنت لا تريد إلاّ أن تكون قوياً، ويسعدك أنك تستطيع المبارزة مع راينهولد، وأنك أعلى منه شأناً، وأنك تنطلق إلى هناك وتستثيره بها، فلتفكر في هذا، لترى ألست، أنت نفسك، تتحمل وِزْرها حين لا تكون على قيد الحياة، ولم تذرف دمعة واحدة عليها، وهي التي ماتت من أجلك، وإلاّ فمن أجل مَنْ.

ومع الاستطراد فحسب: «أنا» و«أنا» و«الباطل» الذي أحتمله وأعاني منه فيا لي من نبيل، ويا لي من راقٍ، والناس لا يسمحون لي أن أكشف عن الفتى الذي أكونهُ، فلتقل: العار، ولتصرخ: العار!

«لست أدري، بالطبع».

«أما الحرب فقد خسرتها الآن، يا بنيّ. يا ولدي، لقد انتهت المسألة بالنسبة إليك، وفي وسعك أن تحزم حقائبك، ولتحافظ على نفسك من العُثّ باقتناء سُمّه، لقد تمَّ إبلاغي بخروجك، وهنا تستطيع أن تُعْوِل أو تضحك قَدْرَ ما تشاء، مثل هذا اللئيم، له قلب، ورأس، وعينان، وأذُنان، وهو يفكر، ويعدّ امرأً طيّباً؟، أمّا متى يكون عَفّاً مستقيما، وما الذي يسمّيه عفّة واستقامة، ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً،

ويعيش، فوق ذلك، حياة مطلقة العنان، ولا يلاحظ شيئاً، ففي وسع المرء أن يفعل ما يشاء.

«وما عساه يفعل. ما الذي يفترض أن يفعله للمرء؟».

زمجرة الموت: «لا أقول لك ذلك، فلا تخاطبني بهَذْرٍ أو لغو، فأنت، بالطبع، امرؤٌ غير ذي عقل، وليس لك أذنان، وأنت لم تولَد، أيّها الآدمي، ولم تأتِ إلى هذا العالم على الإطلاق، أنت أيها الوليد المشوَّه، ذو الأفكار الجنونية، مع الأفكار الوقحة، البابا بيير كوبف، الذي لم يكن له بُدٌّ أن يولد، لكي نلاحظ ذلك، مثلما هو شأن كل شيء، والعالم يحتاج إلى رجال آخرين، سواك، أناسٍ أكثر إشراقاً وإلى أناس أقل وقاحة، يرَوْن كيف يكون كلِ شيء، ليس من السكر فحسب، بل هو من السكر والقَذَر، وكل شيء، متداخِلاً بعضه في بعض. أنتَ، أيها الرجل، هَلُمَّ قلبك، لكي تكون المسألة قد انتهت بالنسبة لك. لكي أقذف به في القَذَر، حيث ينبغي له أن يكون، أمّا الخَطْم ففي وسعك أن تحتفظ به بين يديك»

«هلا تركتني بعدُ، بربك. دعني أتدبَّر أمري، قدراً يسيراً أيضاً».

«وقلبَك فلتخرج به، أيها الرجل»

قدراً يسيراً».

«سآتي به، أنت»

«قَدْراً يسيراً».

التماع البرق، التماع البرق، التماع البرق، التماع البرق، أيُّهذا البرق فلتُمسِك.

وَلْتُسْقط الفأس، الفأس، إسقاط الفأس، أيها الفأس فلتُمْسِك. إنه ما عاد يصرخ، ويا أيها البرق فلتمسك، عيناه تغمزان، وهو يرقد متجمّدا، وهذه غرفة، بل قاعة، وثمة أناس يذهبون. لا يترتَّب عليك أن توصد فمك، إنه يصبّون شيئاً دافئاً في فمه، وليس هناك التماع برق، وليس هناك إسقاط فأس. إنما هي جدران، قدر يسير، ماذ إذاً. ويوصِد عينيه.

وحين يغمض فرانتس عينيه يأخذ في عمل شيء، وأنتم لا ترَوْن ما يصنع، بل تحسَبون فحسب، أن هذا يرقد، وربما يرحل عمّا قريب، فهو لا يحرك أنملة من أنامله إنه ينادي، ويجرُّ أطرافه ويتنقَّل، ينادي الناس جميعاً، في وقت واحد، ينادي كل من ينتمون إليه. وهو يذهب، من خلال النوافذ، إلى الحقول، يَهُزُّ جذور الأعشاب، ويزحف متسلّلاً إلى أوكار الفئران: إلى الخارج، إلى الخارج، يجب الخروج من سلطة البطاطا، فما الذي يفترض أن يعنيه الكلام الفارغ، وكل شيء لا معنى له. أنا في حاجة إليكم، أنا لا أستطيع أن أمنح الإجازة لأحد، إذ يترتَّب عليَّ الإقدام، بمَرَح ذات مرة، فأنا في حاجة إلى كل رجل.

إنهم يصبون في فمه الحِساء، وهو يتجرّعه، ولا يتقيّأ. إنه لا يريد، فهو لا يودُّ أن يتقيّأ.

وكانت كلمة الموت تتردَّد في فمه، وهذه الكلمة لن ينتزعها أحد منه، وهو يديرها في فمه، وإنه لحجر، حجر حجريّ، وما من غذاء ينبثق خارجاً. وفي هذا مات أناس لا يحصَوْن عدداً، ولم يكن ثمة مدى أبعد لهم، ولم يكونوا عرفوا أنهم لن يزيدوا على أن يسّبِبوا ألماً آخر وحيداً، ليتقدّموا إلى مدى أبعد، وأنْ لم يكن هنالك من حاجة إلاّ إلى خطوة قصيرة، إحراز مزيد من التقدم، غير أنهم لم يتمكنوا من الإقدام عليها، ولم يكونوا يعرفون ذلك، ولم يأتِ ذلك بما يكفي من السرعة. وكان هذا ضعفاً وتشنُّجاً في الدقائق والثواني، وباتوا في الجهة المقابلة، حيث ما عادوا يُسَمَّوْن كارل وفيلهلم ومنيا وفرانسيسكا، وكانوا قد شبعوا، مرة بعد مرة، واكفهرَّت وجوههم، واحمرَّت متوهِّجة من الغضب والجمود الناجم عن اليأس فأخلدوا إلى النوم في الجهة المقابلة ولم يعرفوا أنهم ماكانوا يحتاجون بعدُ إلاّ إلى أن يتوهَّجوا التوهُّج الأبيض، ولو فعلوا لَلانت عريكتهم ولَبات كل شيء جديداً.

دعهم فليتقدّموا- في الليل، ومن الممكن أن يكون بالغ الحلكة، وأن يكون كاللاشيء، دعوا الليل الحالك يُقْبِل، الأراضي والحقول اللواتي يرقد عليهن الصقيع الجامد، والحواجز والسدود الترابية التي تجمدت تجمُّداً شديداً. على أن المنازل المبنية

من الآجر، والمفردة، وهي التي يأتي منها الضوء الضارب إلى الحمرة، تسمح بتقدم الجوّالين الذين يكادون يتجمدون من البرد، وأصحاب العربات التي تباع عليها الخضار، والتي تتجه إلى المدينة، وأمامها الخيول الصغيرة، والسهول الكبيرة، المنبسطة الصامتة التي تنطلق فوقها قطارات الضواحي وقطارات المسافات الطويلة، والسريعة، ونشر الضوء الأبيض في الظلام، على كلا الجانبين، ثم إن الناس يسمحون بالتقدم في محطة القطار، ويأتي وداع الفتاة الصغيرة لأبوَيْها، وهي تسافر مع اثنين من المعارف متقدمَيْن في السن، عبر المحيط. لقد حصلنا على التذاكر، ولكن يا إلهي، مثل هذه الفتاة الصغيرة، ليس عليك من بأس، فإنها لا تلبث أن تتكيَّف مع الحياة في الجهة المقابلة من المحيط، وينبغي أن تظل طيبة، عند ذلك سوف تسير الأمور على ما يرام، دعوا الناس يتقدّمون، وأَدْخِلوا في لوائحكم المدن التي تقع جميعاً على مسافة واحدة، بريسلاوْ، ليغنيتْس، زومَرفيلد، غوبِن، فرانكفورت على الأودَر، برلين، وينطلق القطار عبر هذه ا لمدن، من محطة إلى محطة، وتظهر المدن في المحطات، المدن بشوارعها الكبيرة والصغيرة، بريسلاوْ مع شارع شفايدْنيتس، ومع الحلقة الكبرى في شارع كايْزر فيلهلم، وشارع كورفورسْتِن، وفي كل مكان مساكن يلتمس الناس فيها الدفء، وينظرون إلى أنفسهم نظرة مستحبة، ويقعد بعضهم إلى جانب بعض، ببرود، وأكشاك خشبية حافلة بالأقذار ومقاصف يعزف فيها أحدهم على البيانو، ودُميً، ومِنْ ذلك أغنية شائعة، كَأَنْ لم يكن هناك، في العام ١٩٢٨، شيء جديد، ومثال ذلك: «مادونّا، أنت أجمل» أو «رامونا».

دعوا الناس يتقدَّمون - السيارات، وعربات الأجرة، أو الحنطور، أنتَ تعلم مقدار كثرة العربات التي تناولت طعامك فيها، وكانت تُطَقْطِق، وكنت وحدك، أو كان يقعد واحد إلى جانبك أو اثنان، السيارة رقم ٢٠١٤٧.

ويُدْفَع برغيف في الفرن.

ويقوم الفرن في الهواء الطلق، عند بيت من بيوت الفلاحين، ووراءه أرض زراعية، ويبدو الشيء مثل كتلة صغيرة من الآجر. وقد نشرت السيدات كمية كبيرة

من الخشب كُنَّ يَجْرُرْنَها، مجموعاً بعضها إلى بعض، في صورة أغصان مبتورة ساقطة، جافَّة، وهذا يرقد الآن إلى جانب الفرن، وهو يرتعد. ما الذي قاله الموت. لا بُدَّ له أن يعرف ماقاله الموت. وينفتح الباب. الآن سيأتي هذا، المسرح. وتنطلق المسألة. هذا ما أعمله، لودرز الذي كنت أنتظره.

ويدخلون، ينتظرهم الارتعاد. وما الذي يمكن أن يكون مع لودرز، لقد أعطى فرانتس الإشارات. لقد حَسِب القوم أنه أوشك أن يرقد على صدره انتقالاً من الرقاد الأفقي، غير أنه لا يريد سوى أن يرتفع إلى مستوى أعلى، وأن يكون أكثر انتصاباً. ذلك لأن هؤلاء يأتون الآن، الآن يرقد على مستوى عالٍ، فلتنطلقوا.

ثم إنهم يأتون فرادى، لودرز، فتىً بائساً، مثل هذا القزم الصغير، وهو يريد أن يرى ذات مرة ماجرى لهذا، وهو يصعد السُلَّم برباطَيْ حذائه. أجل، لقد فعلنا هذا. والمرء ينحطّ وينحلّ في أسماله. إنها مازالت الهُوَّة القديمة، من أيام الحرب. أربطة الحذاء ماكوس، ياسيدتي. كل ما أردته هو أن أسأل ألا تستطيع أن تعطيني فنجاناً من القهوة، وكيف حال زوجك، يا سيدتي. كلّ ما أردته هو أن أسأل ألا تستطيع أن تعطيني فنجاناً من القهوة، وكيف حال زوجك، ما من شك في أنه سقط في الميدان ويضع قبعته على رأسه: إذاً فلتخرج بما معك من قطع نقدية صغيرة. هذا لودرز، الذي كان معي. والسيدة لها ذات وجه متوهِّج، وإحدى وجنتَيْها في مثل بياض الثلج، وهي تُنَقِّب في كيس نقودها، وتصدر عنها أصوات خشنة، كصوت بعض أنواع الطير، وتسقط رأساً على عقب، وهو يُنَقِّب في الصناديق: وسيلة العجوز المتَّخذة من الصفيح، لا بُدَّ لي أن أعدو، وإلاّ صرخت هذه أيضاً. عبر الدهليز، والباب مغلق بالضغط عليه، والسلم يفضي إلى أسفل، أجل، لقد فعلها، لقد أفرط في الإساءة وأنا الذي يعطونه الرسالة، إنها منها، فما الذي جرى لها الآن، لقد بُترتْ ساقاي الآن، فلماذا يا تُرى، أنا لا أستطيع أن أقف على قدمَيّ. هل تريد قدحاً من الكونياك، ياييبر كوبف، ما من شك في أنها حالة وفاة، أجل، لماذا، لهذا، لماذا بترت ساقاي، لست أدري، ولا بُدَّ لي أن أسأله ذات مرة، لا بُدَّ لي أن أخاطبه. فلتَسْمع، يالودرز، صباح الخير، يالودرز، كيف حالك، ليس على مايرام، وأنا

كذلك، أيضاً، هَلُمَّ إليّ بربك، ولتقعد على الكرسي، والآن لا تنصرف، بربك، ما الذي تبّجحت به في حقك، يا تُرى، والآن لا تنصرف بربك.

فلتَدَعوا الناس يتقدّمون، فلتَدَعوا الناس يتقدَّمون، الليلة الحالكة السواد، والسيارات، والسدود الترابية التي تجمدت تجمُّداً قاسياً، ووداع الفتاة الصغيرة لأبوَيْها، إنها تسافر مع رجل وامرأة ولا تلبث أن تتكيف مع ظروف الحياة في الجانب الآخر من المحيط، وينبغي لها أن تظل طيبة، ثم يسير كل شيء على مايرام، دعوا الناس يتقدمون.

راينهولد! آه، يا راينهولد، قاتل الله الشيطان! اللئيم الماكر، ها أنت ذا، ماذا تبتغي هنا، أتريد أن تتظاهر أمامي بأنك امرؤٌ ذو أهمية وشأن خطير. ما من مطر يمكن أن يغسل عنك أوساخك، أيها الولد الشقي الشامِس، بل أيها القاتل، أنت أيها المجرم الفاحش الجريمة، فلتأخذ الغليون من خَطْمك[16]، عندما تتحدث إليّ، من الخير أنك تأتي، لقد كنت تنقصني، تعال، أنتَ، أيها الفتى القَذِر، ألم يمسكوا بك بعد، ألديك معطف أزرق؟ فلتنتبه، ففي هذا تضيع، ومَنْ تكون أنتَ يا تُرى، يا فرانتس؟ أنا، وأنت، أيها الماكر المخادع؟ ألست قاتلاً، وأنت تعرف من قتلت، يا فرانتس، ومَنْ عَرَض عليَّ الفتاة، ومَنْ ذا الذي لم يصنع نفسه من الفتاة؟ من أجل ذلك مازلتَ لا تحتاج، بلا ريب، إلى أن تقتلها. «ماذا يوجد في هذه الأثناء. أَلَمْ تضربها، مثلاً، وأيضاً، على وجه التقريب، إلى أن جعلتَ ظهرها ينحني أو يَحْدَوْدِب، أنتَ؟ ثم كان من الواجب بعدُ، أن يكون هناك يقين معيَّن يكمن في شارع لاندزبِرغ المشجَّر، وهو يقين لم يأتِ من ذاته، وحده، إلى هنا، في فِناء الكنيسة، ويحَك، ماهذا الآن؟ الآن لا تقول شيئاً! وماذا يقول الآن السيد فرانتس بيبركوبف، عن مهنة ذي الخطم الكبير؟» لقد قذفت بي تحت السيارة، وتركت ذراعي تتعرَّض للدهس. «هاها، ها، فأنتَ تستطيع، بالطبع، أن تربط ذراعاً من الورق المقوّى. وإذا كنت مثل هذا الثور، وتسترسل معي في التعامل والتصرُّف».

(١٦) الخطم: مقدم وجه الكلب، وما شبهه من الحيوان. وفيه الأنف والفم. «المترجم»

أَثْوْر؟ «وَيْحَك ، ألا تلاحظ أنك ثور . الآن أنت في بوخ ، وتقوم بدور الرجل الجامح الشامس .

وأموري تسير على مايُرام ، ومَنْ يكون الآن ثَوْراً؟» .

وها هو ذا يسير الآن ، والنار الجهنَّمية تبرُق لهذا ، من العيون ، وتنبت له ، من رأسه ، قرون ، وهذا يزعق: فلتلاكمني ، بربك ، هَلُمَّ فلتكشف عن ماهيَّتك ، يا فرانتس الحبيب ، يا فرانتس بيبر كوبف ، بيبر كوبف العزيز ، ها! ويضغط فرانتس أحد جفنَيْه على الآخر . ما كان ينبغي لي أن أصنع معه شيئاً ، وما كان ينبغي لي أن أكافح مع هذا ، فلماذا فَتَكْتُ بهذا عَضّاً بأضراسي .

«تعالَ بربك ، يا فرانتس العزيز ، ولتكشف عمَّن تكونه ، ألديك قوة؟»

ماكان ينبغي لي أن أكافح . إنه مازال يعذبني ، ويثير غيظي . آه ، هذا امرؤٌ ملعون ، ماكان هذا مما يجب الإقدام عليه ، فانا لست بأهلٍ لأن أتصدّى لهذا وأكون له ندّاً ، ماكان ينبغي لي الإقدام على هذا .

«يجب أن تتوافر لديك الطاقة ، يافراتنس العزيز»

ماكنت لأضْطرَّ إلى حيازة الطاقة ، أمّا ضدَّ هذا ، فلا ، أنا أرى هذا ، لقد كان هذا من الخطأ ، بالطبع ، ما الذي صنعته بهذا كله . ألا بُعْداً له ، بعداً له .

ولا ينصرف
بُعْداً له ، بُعداً .

ويزمجر فرانتس ، ويفرِك يديه يائساً: يترتَّب عليَّ أن أرى امرأً آخر ، ولا يأتي امروٌ آخر ، فلماذا يظل هذا واقفاً .

«أنا أعلم ذلك ، أنت لا تحبني ، فطعمي غير مستساغ . وسيأتي على الفور امرؤٌ آخر!»

دعوا الناس يتقدَّمون ، دعوهم يتقدَّمون ، السهول الكبرى ، المنبسطة ، الخُرْس ، والمنازل المنعزلة من الآجر ، التي ينبعث منها ضوء ضارب إلى الحمرة . والمدن التي

تقع على مسافة معيَّنة، فرانكفورت على الأودر، وغوبن، وزومرفيلد وليغنيتس، وبريسلاو، وتظهر المدن في محطات القطار، والمدن بشوارعها الكبيرة والصغيرة. فلتدعوا عربات الحنطور المنطلقة تتقدَّم، والسيارات التي تمرق كما يمرُق السهم، تنساب انسياب الماء إذ ينحطّ من الأعالي.

وينصرف راينهولد، ثم يقف من جديد، وينظر إلى فرانتس بعَيْن تومض وميض البرق: «وَيْحَك، من تُراه يستطيع الآن شيئاً ما، ومَنْ تُراه انتصر، يا فرانتس العزيز؟

ويرتعد فرانتس: أنا لم أنتصر، أنا أعلم ذلك.

دعهم فليتقدَّموا.

ويأتي، على الفور امرؤٌ آخر.

ويقعد فرانتس على مستوى أعلى، وكان قد كوَّر قبضته.

ويُدَسُّ رغيف في الفرن، وهو فرن عملاق، وحرارته هائلة، وتصدر عن الفرن فرقعة.

إيدا! لقد انصرف الآن. الحمد لله، يا إيدا، على أنك تأتين، غير أنّ هذا كان أكبر وَغْدٍ وجد على وجه الأرض، إيدا، لقد أحسنتِ إذ تأتين، لقد استفزَّني هذا وأغاظني، فما قولك في هذا. لقد سلكت أموري مساراً سيئاً، وأنا أقعد الآن هنا، أَوَ تعرف أين توجد هذه، بوخ، مستشفى المجانين، للمراقبة، أم أنني بتُّ مجنوناً. إيدا، تعالَيْ، بربك، ولا تديري ظهرك لي. ماذا تفعل هذه فحسب؟ وهي تقف في المطبخ. أجل، في المطبخ تقف الفتاة. وهذه تشتغل هنا بتوافه الأمور، فهي تغسل الأطباق، ولكن ماذا تكسر هذه، على الدوام، هكذا، تكسر هكذا، على الدوام، في جَنْبها وكأنها تعاني من القُطان[17]، وكأن أحداً يضربها في جَنْبيها، ألا لا تضربَنَّ، بربك، أيها الآدمي فهذا مجانب للإنسانية بالطبع، لا تفعلَنَّ، بربك،

---

(١٧) مرض ينجم عنه ألم في المنطقة القطنية، ويُسمّى في اللغات الأوروبية «اللمباجو». «المترجم»

أيها الآدمي، دَعْ عنك هذا، وَلْتَدَع الفتاة، ياللعجب! ياللعجب. من يضرب، يا تُرى، هذه التي لا تستطيع أن تقف على قدميها، فلتقفي، بربك، وقفة مستقيمة، أيتها الفتاة، ولْتَلْتَفتي إلى الوراء. هلاّ نظرتِ إليّ بربك، مَنْ ذا الذي يضربك هذا الضرب الرهيب يا تُرى.

«أنتَ يا فرانتس، لقد ضربتني حتى الموت».

كلاّ، كلاّ، أنا لم أفعل هذا، وهذا ثابت بحكم المحكمة، ليس لديّ سوى إصابة في الجسد، ولم يكن ذلك لذنب اقترفته، لا تقولي هذا، يا إيدا.

«أجل، لقد ضربتني حتى الموت، انتبه يا فرانتس».

ويصرخ قائلاً: كلاّ، كلاّ، ويغمض عينيه إغماضاً محكماً، ويضرب بذراعه ضربة تلقاء عينيه، وما من شك في أنه يرى ذلك.

دعوا الناس يتقدمون، دَعو الناس يتقدمون، السوّاح الأجانب، إنهم يحملون أكياس البطاطا على ظهورهم، وثمة غلام يسوق عربة يدٍ وراءهم، وَقد تجمَّدَت أذناه، وبلغت درجة الحرارة عشراً تحت الصفر.

بريسلاوْ بشارع شفايدنيتس، وبشارع كايزر فيلهلم، وشارع الأمراء الناخبين.

ويتنهَّد فرانتس قائلاً: هنا سيكون من الأفضل أن تكون مائدة، ومَنْ تُراه يستطيع أن يطيق هذا. هنا يُفْتَرَض أن يأتي امرؤٌ ويضربني ضرباً قاتلاً. أنا لم أفعل هذا، ولم أكن أعرف هذا بالطبع. ويُنَهْنه، ويُتَأتِئ، أما الحديث فلا يستطيعه، وأما الحارس فيفهم أنه يريد شيئاً ما، وهو يسأل، ويقدّم إليه جرعة من الخمر الحمراء الدافئة. وأمّا كلا المريضين اللذين هما في القاعة، فيصرّون على أنه لا بُدَّ للخمر الحمراء أن تبعث الدفء.

وتُواصِل إيدا التكسير. لا تُواصلي التكسير، بربك، فلقد كنتُ، بلا ريب، في تيغل، من أجل ذلك، لقد نأَيْتُ عن عقوبتي، وهنا تُمسِك هذه عن التكسير. هنا تتخذ لنفسها مقعداً، وتُطْرِق برأسها إلى أسفل، وتزداد ضآلةً واسوِداداً على نحوٍ مطَّرد. هنا ترقد— في التابوت— لا تبدي حراكاً.

إنه التأوُّه، تأوُّه فرانتس، وعيناه، ويقعد إليه الحارس، ممسكاً بيده، ينبغي لامرئ ما أن يذهب بهذا بعيداً، وينبغي لامرئ ما أن يُبعِد التابوت، وما من شك في أنني لا أستطيع أن أُبْعِد التابوت، فانا لا أستطيع الوقوف على قدميَّ حقاً، لا أستطيع ذلك بلا ريب.

ويحرك يده، غير أن التابوت لا يتحرك، إذ لا تصل يده إليه. هنالك يبكي فرانتس في يأسه. ويحملق، ويظل يحملق، يائساً، في ذلك الاتجاه، وفي غمرة دموعه، وفي غمرة اليأس، يتوارى التابوت، غير أن فرانتس مازال يبكي.

ولكن علامَ يبكي، سيداتي، سادتي، أنتم الذين تقرأون هذا، تبكون فرانتس بيبركوبف؟ إنه يبكي من أنه يتألم ويعاني، ويبكي مِمّا يعاني، كما يبكي على نفسه أيضاً.

إنه يبكي من أنه فعل هذا، وكان يتخذ هذه الصورة، من هذا يبكي فرانتس بيبركوبف، والآن يبكي فرانتس بيبركوبف على نفسه.

إنها رابعة النهار وَوَضَحُه، أمّا المنزل فيُحْمَل إليه الطعام، ثم تنصرف سيارة الطعام في الأسفل، عائدة إلى المستشفى، يدفعها حراس المطبخ واثنان من ذوي المرض اليسير خارجين بها من المنزل الريفي.

وهنا، في منتصف النهار، تكون ميتسه عند فرانتس. أمّا وجهها فهادئ. والهدوء، مستعذَب، وهي تسير في ثياب الخروج، وقد وضعت على رأسها قبعة قد أحكمت وضعها عليه، إذ تغطي الأذنين، وتغطي الجبين، وهي ترى فرانتس ممتلئاً كل الامتلاء، هادئاً، عميق الإحساس، مثلما يعرفها هو حين يلقاها ذات مرة في الشارع أو في الحانة، وحين يرجو منها أن تدنُوَ منه، تدنو منه، وهو يريد أن تعطيه يديها، وتعطيه يديها، هلاّ دَنَوْت، يا ميتسه، لا تكوني، بربك، غريبة إلى هذا الحد، ولْتَهَبي لي قُبلة. هنالك تتقدَّم منه حتى توشك أن تلتصق به، وتنظر إليه نظرة عميقة، حميمة، وتقبّله، ويقول لها: فلتبقَيْ هنا، فأنا في حاجة إليك، ولا بُدَّ لك أن تساعديني. «أنا لا أستطيع، ياعزيزي فرانتس، فأنا ميتة، وما من شك في أنك

تعلم هذا» فلتبقَيْ هنا، بربك «لقد وَددْتُ لو فعلت، إذاً يسرّني ذلك أيّما سرور، غير أني لا أستطيع» وتقبِّله مرة أخرى. «أنت تعلم، بلا ريب، بما جرى في غابة فراين، وأنت لست بالساخط عليَّ، أليس كذلك.

ولقد انصرفت، ويَنْفَتِل فرانتس، ثم يفتح عينيه فتحاً شديداً، على مِصراعَيْهما، فلا يستطيع أن يراها، ماذا فعلت، لماذا ما عادت لديَّ بعد. ألم أعرضها لراينهولد. ألم أسترسِل مع هذا أكثر مما ينبغي. ما الذي فعلته. والآن.

ويصدر عنه شيء من التلعثم واللجلجة ينجم عن وجهه الذي تعرَّض لتشويه رهيب: ينبغي لها أن تعود من جديد، على أن الحارس لا يفهم سوى كلمة «من جديد»، ويصب له قدحاً آخر من الخمر في فمه المفتوح، الجاف. ولا بُدَّ لفرانتس أن يشرب، وماذا يتبقّى لديه.

العجين يرقد في وسط الحرارة، ويفور العجين فيعلو، إذ تدفع به الخميرة، وتتشكل فقاعات ويرتفع الرغيف، ويَسْمَرّ.

إنه صوت الموت، صوت الموت، صوت الموت:

وماذا يجدي كل القوّة، وما الذي يجديه كل التزام بالفضيلة والاستقامة، ياللهَوْل، ياللهول، فلتنظر إليها. فلتتعرَّف، وَلْتندَم ولتأسف.

أمّا ما هو في حوزة فرانتس، فيمكن طرحه في مكان ما. ولا يمسك شيئاً.

هنا يترتب وصف ماهيّة الألم

هنا يجب أن توصف ماهية الألم والمعاناة. وكيف يستَعِر الألم فيُحْرِق ويمزّق، ذلك لأن الألم هو الذي حَلَّ في مجال الحِسّ، لقد وصف الكثيرون الألم في قصائد. وفي كل يوم تشهد أفنية الكنائس الألم.

وهنا يترتب أن نصف مايفعله الألم بفرانتس بيبر كوبف. ولا يصمد فرانتس ولا يُقاوِم، بل يُقَدِّم نفسه على مذبح الفناء، ويرمي بنفسه ليكون ضحية للألم وقرباناً، فهو يضطجع في وسط اللهيب المستَعِر، لكي يُقْتَل، ويُعْدَم، ويتحوَّل إلى حُطام ورماد، ولا بد من أن نحتفل بما فعل الألم بفرانتس بيبر كوبف. وهنا يترتب الحديث عن الإعدام الذي ينجزه الألم، وضع نهاية لوجود المرء، والبتر، والقطع والتمزيق، والتفتيت والحلّ، هذا ما يفعله.

ولكل شيء وقته وإبّانه: الخنق والإبراء من المرض، والتحطيم والبناء، والبكاء، والضحك، والنَّوْح والرقص، والبحث، والفقدان، والتمزيق والإغلاق. وهذا وقت الخنق، والنَّوْح، والبحث، والتمزيق وفرانتس يصارع الموت وينتظره، ينتظر الموت الرحيم.

ويقول في نفسه: «الموت، الرحيم، الذي يُنْهي، يقترب الآن، ويرتعد حين ينهض قائماً من جديد عند المساء، ليستقبله.

ويأتون إلى هنا في المرة الثانية، وهم الذين طرحوه أرضاً عند منتصف النهار. ويقول فرانتس: ينبغي أن يحدث كل شيء، فها أنذا، فرانتس بيبر كوبف، راحلاً معكم، فتأخذوني في صحبتكم.

ويستقبل لودرز، الباعث للتفجُّع وقد هزَّته زلزلة عميقة، ويُجَرِّر راينهولد، الماكر قدميه نحوه، وبزلزلة عميقة يستقبل، هو، كلمات إيدا، وجه ميتسه. إنها هي، الآن تمَّ إشباع كل الأمانيّ. ويبكي فرانتس، ثم يبكي، أنا الآثم، أنا لست إنساناً، أنا بهيمة، أنا غول.

لقد مات في هذه الساعة من المساء فرانتس بيبر كوبف، الذي كان، فيما سلف عاملاً من عمال النقل، وكان لصّاً يقتحم المباني ويسطو، يقال له لودفيغ، وكان قاتلاً بالضرب، وكان يرقد في السرير امرؤٌ آخر، وكان الآخر يحوز وثائق إثبات الشخصية ذاتها التي كان يحوزها فرانتس، ويبدو مثل فرانتس، غير أنه يحمل، في عالم مختلف، اسماً جديداً.

وإذاً فهذا ماكانه مَهْلِكُ فرانتس بيبر كوبف، الذي أردت أن أصفه، منذ خروج فرانتس من السجن في تيغل، إلى نهايته في مستشفى بوخ للمجانين، في شتاء العام ١٩٢٨-٢٩.

والآن أُلْحِق بذلك رواية عن الساعات والأيام الأولى لإنسان جديد كان يحمل أوراقاً لإثبات شخصيته المماثلة لهذا.

خروج المومس الخبيثة وانتصار المَضحّي الكبير وقارع الطبل والمُلَوِّح بالبلطة

كان ينبسط في المنظر الطبيعي، الأجرد، قبالة أسوار المستشفى الحمر، فوق الحقول، ثلج قَذِر، وهنا كان يُسْمَع صوت قرع طبول، مرةً بعد أخرى. لقد خسرت عاهرُ بابل، فالموت منتصر، وهو يخرجها من المكان يواكبها قرع الطبول.

وكانت العاهر تزعق وتشتم، وتقيم مشهداً مسرحيّاً، ويسيل اللعاب من فمها، وتصرخ قائلة: ما بال هذا، وأيّ شيء بينك وبين الرجل، فرانتس بيبر كوبف، هلاّ كدرت عليه معيشته، معيشة صاحبك غوتليب شولتسه.

ويدق الموت دقاته السريعة، المتوالية، القصيرة، على طبله: «أنا لا أستطيع

أن أرى ما أُعدَّ لكِ في كأسك ، أنتِ أيها الضبع . أما الرجل ، فرانتس بيبر كوبف فحاضر هنا ، لقد حطّمته أيَّما تحطيم ، ولكن لمّا كان قويّاً ، طيباً ، فقد كان مقدَّراً له أن يحتمل حياة جديدة ، تنحَّ عن الطريق فكلانا ماعاد لديه شيء يقوله هنا» .

وحين تَجْمَح ، وتواصل إطلاق لسانها بعبارات بذيئة تعبر عن غضبها ، يتحرّك الموت ، وتأخذ عجلاته في الإقلاع ، ويرفرف نحو الأعلى معطفه العملاق الأشهب . هنالك تنجلي صور ومناظر طبيعية تحوم حوله ، وتلتف حواليْه ، من الأقدام حتى الصدر ، ويكون ثمة صرخات ، وطلقات ، وجَلَبة ، وانتصار وتهليل . والحيوان الكامن وراء المرأة يتهيَّب ، ويتخبَّط .

النهر ، البيريسينا ، والكتائب الزاحفة .

زحف الكتائب إلى البيريسينا ، البرودة الجليدية ، الرياح الجليدية ، لقد أقبلت من الجهة المقابلة ، من فرنسا ، يقولها نابليون العظيم ، وتهبّ الرياح ، ويتطاير الثلج في اتجاه حلزوني ، والرصاصات تدوّي ، وترتطم بالجليد ، وتعصف ، وتسقط ، وتظل ، على الدوام ، تسمع نداءات تقول: عاش الإمبراطور! الضحية ، الضحية ، هذا هو الموت!

ثم جريان القطارات على الخطوات الحديدية ، وفرقعة المدافع ، وانفجار الرمّانات اليدوية ، والستار الناريّ ، وطريق السيدات ولا نغيمارك . ياوطني العزيز ، فليهدأ بالك ، ياوطني العزيز ، ليهدأ بالك وليقرَّ قرارك ، المخابئ منطمرة ، وقد جثا الجند على رُكَبِهم ، والموت يجرُّ عباءته ، فلتغنوا: يا للهول! يا للهول .

الزحف ، الزحف . سنخرج إلى الحرب بخُطىً ثابت، وسيخرج معنا مائة موسيقار عسكري ، بينما تضيئين لنا أنت ياحمرة شفق الصباح ، وياحمرة شفق المساء الطريق إلى الموت المبكِر ، وهؤلاء مائة موسيقار عسكري يدقّون الطبول ، فيده بُمْ ، هذا أمر لا يعنينا على وجه الخصوص ، لقد التوت بنا الطرق واعوَجَّت: فيدهِ بُمْ ، فيده . بُمْ .

ويسحب الموت عباءته ، وهو يغني: يا للهَوْل ، يا للهَوْل .

وثمة فُرْن تستعر ناره ، تستعر ناره ، وتقف قبالة فرن أمٌّ لها سبعة أبناء ، ومن

ورائهم تأوُّهات الشعب وزفراته من الأعماق، إذ يترتب عليهم أن يجحدوا بإله شعبهم، أمّا هم، فقد أشرقت وجوههم، ووقفوا مُسالمين وادِعين. هل تجحدون، بإلهكم وتخضعون؟ أمّا الأول فيقول كلاّ، ويُسام سوء العذاب، وأما الثاني فيقول كلاّ، ويسام ألوان العذاب، ويقول الثالث كلاّ ويُسام ألوان العذاب، ويقول الرابع كلاّ ويسام ألوان العذاب. ويقول الخامس كلاّ، ويُسام ألوان العذاب، ويقول السادس كلاّ، ويسام ألوان العذاب، وتقف الأم هنا وتشجّع أبناءها، وأخيراً تقول هي كلاّ وتُسام ألوان العذاب، ويسحب الموت عباءته، ويغني: يا للهول، يا للهول.

وتعمد المرأة ذات الرؤوس السبعة إلى شد الحيوان شدّاً يكاد يمزِّق أوصاله، ولا يرتفع الحيوان.

الزحف ثم الزحف. نحن خارجون إلى الحرب، يخرج معنا مائة موسيقار عسكري، يدقون الطبول ويُصَفِّرون: فيدهِ. بُمْ، فيدِ بُمْ. أمّا الأول فيعنيه هذا على وجه الخصوص، وأما الآخر فتلتوي عليه المسألة وتعوَجُّ معه الطرق. ويظل الأول واقفاً على حين يسقط الآخر. ويتابع الأول العَدْوَ على حين يرقد الآخر صامتاً: فيدهِ بُمْ، فيدِه بُمْ.

ويكون الهتاف والصراخ، والزحف بالرتل الذي يبلغ عرضه ستة عشر نفراً، وبالرتل الثنائي أو الثلاثيّ، وتزحف الثورة الفرنسية، كما تزحف الثورة الروسية، وتزحف حروب الفلاحين، وأصحاب مذهب إعادة التعميد. يخرجون جميعاً وراء الموت، ويسمع هتاف قادم من ورائه، الطريق يفضي إلى الحرية، والحرية تفضي إلى ذلك، ولا بُدَّ أن ينهار العالم، فلتستيقظ، يا هواء الصباح، فيده بُمْ، فيدهِ بُمْ، بالرتل البالغ ستة عشر نفراً، وبالرتل الثنائي، وبالرتل الثلاثيّ، يا أخي، إلى الشمس، إلى الحرية، يا أخي، فلترتَقَ صعوداً إلى النور، إذ ينبعث لنا، مشرقاً من الماضي المظلم، ليضيء لنا المستقبل، واثق الخُطى، يميناً ويساراً، ويساراً ويميناً: فيدهِ بُمْ، فيده بُمْ، فيده بُمْ.

ويسحب الموت عباءته ويضحك، ويشرق وجهه، ويُغَنّي: يا للهول، يا للهول.

وأخيراً بات في وسع بابل الكبرى أن تشدَّ عَضُد حيوانها وتعلِيَ شأنه، ويأتي هذا بخطوات ذات إيقاع ثابت، ويجري بسرعة جنونية عبر الحقول، ويغوص في الثلج، وتدور على عَقِبَيْها، وتُعْوِل وهي تتقدم صوب الموت المشرق، وفي ظل الحركة الجامحة ذات العنفوان، تنكسر رُكبة الحيوان، وتتأرجح المرأة فوق رقبة الحيوان، ويلملم الموت عباءته، ويغني، ويقول وقد أشرق وجهه يا للهول، يا للهول!! الحقل يُسْمَع له حفيف وهدير: يا للهول، يا للهول.

وفي بوخ كان المسؤولون الجنائيون، والأطباء قد استعلموا من الرجل الشاحب شحوب الموت، طريح الفراش، والذي كان ذات مرة، فرانتس بيبركوبف، حين يأخذ في الحديث والنظر، عن الكثير من الأمور ليستنبطوا كل ما اقترف من الأخطاء وماظهر له من العيوب، بسبب التشخيص، وكان هذا الرجل قد سمع من المسؤولين الجنائيين أن لديهم رجلاً يقال له راينهولد، سبق أن لعب دوراً ما، فيما سلف من حياته. ويتحدثون عن براندِنبورغ، وهل يعرف أيضاً رجلاً يقال له موروسْكيفيتش، وأين يقيم هذا، وكان قد ترك كل شيء يُروى له مِراراً، ولزم الهدوء والسكون الكاملين في هذه الأثناء، وكان القوم قد تركوه يوماً في هدوء كامل. إنه حاصد يقال له الموت. والآن يشحذ السكين، الآن باتت تقطع على نحوٍ أفضل. فلتحاذري، أيتها الزهرة الصغيرة الزرقاء.

وكان قد أدلى، في اليوم التالي، أمام المفوَّض الجنائي، بإفادته، قائلاً إنه لايمت بصلة إلى المسألة القديمة في غابة فراين، وإذا كان هذا المدعو راينهولد يقول شيئاً آخر فهو مخطئ. على أن الرجل الأبيض الذي ظل يتضاءل حتى أوشك أن يذوب، يفترض أنه أثبت براءته في تلك الأيام وتستغرق المسألة أياماً، إلى أن يغدو هذا ممكناً، وكان كل شيء في الرجل يقاوم العودة إلى سلوك هذا الطريق مرة أخرى، فهذا الطريق مغلق، وتتبيَّن له بعض المعطيات بينما يزفر ويتأوَّه، وهو يتأوَّه، إذ يرى أن من الواجب على القوم أن يدعوه، وينظر أمامه متوجِّساً، هيَّاباً، مثل كلب، لقد ولّى بيبركوبف القديم. والجديد نائم، ومازال يغطّ في نومه. إنه لا يثقل على هذا المدعو راينهولد بكلمة. فنحن جميعاً معرّضون لضربة بلطة. نحن جميعاً واقعون تحت وطأة بلطة.

ثم إن البيانات تؤيد هذا، فهي تتوافق مع إفادات وليّ نعمة ميتسه وابن أخيه. ويزداد الأطباء إيغالاً في جهة الوضوح وانجلاء الغموض، ويتراجع إلى الخلفية تشخيص الحالة بأنها إغماء تخشبيّ «أو جامود»[١٨]، لقد كان هذا رَضْحاً نفسيّاً، تلاه نوع من شبه الوعي، ولم يكن الرجل نظيفاً من الوجهة العائلية. أمّا أنه كان يألف الخمر كثيراً، فذلك ماكان الناس يرونه فيه وأخيراً فقد كان كل مايثور من النزاع في صدد التشخيص غير ذي أهمية، وما من شك في أن الرجل لم يكن يتظاهر بالمرض، وكان يعاني من قَدْرٍ يسير من اختلال العقل لم يكن ورثه عن أبوين فاسدَيْن. وهذه هي المسألة الرئيسية، وعلى هذا فلنضع الآن نقطة تكون بعدها الخاتمة، ويسقط الرجل في تبادل لإطلاق النار في نبع الإسكندر، مما يُخْضِعه لحكم الفقرة ٥١. على أن الفضول يستبد بنا إذ نتوق إلى أن نعرف هل نظفر به مرة أخرى.

ثم إن الرجل المزعزع الأركان الذي يطلقون عليه، اسم بيبر كوبف وفقاً لاسم الرجل المتوفىّ لا يعرف كيف يروح ويغدو في المنزل، إذ يمارس وظيفة حامل أطعمة إلى حَدٍّ ما، وما عاد يُسْتَفْسَر منه عن شيء على الإطلاق، لا يعرف أن ثمة أموراً شتىّ تتناقلها الألسن من حوله، هنالك يقضم المسؤولون الجنائيوّن منهنَّ ما كانه هذا بذراعه، في الموضع الذي فقده فيه، حيث كان في طور التعامل معه وهم يسألون، في مستشفى ماغديبورغ، قائلين إن هذه إنما كانت، بالطبع، حكايات قديمة، غير أن المسؤولين الجنائيين يهتمون بالحكايات القديمة، حتى عندما يبلغ عمرها عشرين عاماً، غير أنهم لا يخرجون منها بطائل، فنحن، بالطبع، عند النهاية الباعثة للبهجة والسرور، وذلك أن المدعو هربرت هو أيضاً من القوّادين ومن الذين كانت لهم علاقات جنسية مع نساء خارج إطار الزواج، إذ يكون لدى الغلمان فتيات جميلات يدفعون إليهنَّ بكل من هبَّ ودبَّ، ومن هنا يريدون أن يظفروا بكل عائد ماليّ، وفي هذه الحالة لا يصدّق بذلك أحد من المسؤولين الجنائيين، بل ربما كان يأتيهم مال من

---

(١٨) هذا هو تعريب كلمة «catatonia» بالإنكليزية، كما ورد في المعجم الطبي الموحّد الصادر عن منظمة الصحة العالمية. «المترجم»

الفتيات، من حين إلى آخر، ولكن كانوا يعملون، في فترات زمنية متباعدة، أيضاً، وبلا ريب، عملاً مستقلاً، وكان الإخوة يلتزمون الصمت حيال ذلك.

على أن العاصفة، حتى العاصفة أيضاً، كانت تمرُّ بالرجل مرور الكرام، ويفترض أن يُغْتَفَر له كل شيء هذه المرة، لقد حصلتَ، ياولدي، هذه المرة، على تذكرة إياب.

هذا هو اليوم الذي يُسَرَّح فيه. على أن الشرطة لا تسرِّحه في إطار الشك، كما أنها سوف تضعه في الخارج في ظلّها، لتراقبه، ويُؤْتى من الحجرة بما كان يعود إلى فرانتس الشيخ، ويتسلَّم كل شيء بيديه، من جديد. وهو يجتذب إليه الأمتعة من جديد، ومازال على سترته دَمٌ، هنا كان رجل من رجال الشرطة قد ضربه بالهراوة على رأسه، أما الذراع الزائفة فلا أريدها، كما أن الشعر المستعار يعود إليهم أيضاً، في وسعك أن تحتفظ به حين تمثل هنا ذات مرة في المسرح، إذ يوجد لدينا مسرح في كل يوم، ولكن هنا لا نضع على رؤوسنا شعراً مستعاراً، أما قسيمة التسريح فموجودة معك، الوداع. ياسيدي كبير الرُّعاة، وَيْحَك، فَلْتَزُرنا ذات مرة حين يكون الطقس جميلاً في بوخ، سوف أفعل، وشكراً جزيلاً، سوف أفتح لك القفل.

إذاً فقد فَرَغنا من هذا وخلّفناه وراءنا.

وطني العزيز، فلتهدأ بالاً، وَلْيَقِرَّ قرارُك

لقد فتحت عينيّ، ولن أسقط

والآن يغادر بيبركوبف، مرة ثانية، منزلاً كان فيه سجيناً. لقد بِتْنا عند نهاية طريقنا البعيد، وسوف نقوم بعدُ، بالاشتراك مع فرانتس بخطوة وحيدة قصيرة.

أما المنزل الأول، الذي غادره، فكان السجن الموجود في تيغِل. وكان يقف، مروَّعاً، لدى السور الأحمر، وحين تحرَّر، وجاءت الحافلة الكهربائية رقم ٤١، وانطلقت به إلى برلين، هنالك كانت تقوم المنازل غيرَ ساكنة ولا هادئة، وكانت

الأَسْقُف توشك أن تنقض على فرانتس. ولم يكن له بُدَّ أن يظل زمناً طويلاً يمشي ويقعد، إلى أن هدأ من حوله كل شيء، وبات يتمتع، من القوة بما يكفي لكي يبقى هنا، وليبدأ من جديد.

أمّا الآن فهو امرؤٌ لا حولَ له ولا طَوْل. وماعاد في وسعه أن يرى المنزل الموطَّد الأركان، ولكنه لم يكد ينزل من القطار في محطة شتيتين، عند محطة الضواحي التي يقع قبلها فندق البلطيق الكبير حتى ماعاد ثمة شيء يتحرك، لقد هدأت المنازل، وقرّ قرارها، وأَسْقُفُها راقدة بإحكام، وهو يستطيع أن يتحرك بينها، لا يحتاج إلى أن يزحف متسللاً إلى أَفْنِية مظلمة. أجل، هذا الرجل- ونريد أن نسميه فرانتس كارل بيبركوبف، تمييزاً له عن بيبركوبف الأول، وكان فرانتس قد حصل، أثناء تعميده على الاسم الثاني، تبعاً لجده، والد أمه-، هذا الرجل يسير الآن ببطء، صاعداً في شارع الإنفاليد، ماراً بشارع أكَّر، قاصداً شارع النبعات، ومارّاً بقاعة السوق الصفراء، ويتفرَّج، دونما حرج، على المحالّ والمنازل، ويرى كيف يتراكض البشر حوالَيْه، ولبثت زمناً طويلاً لا أرى هذا كله، والآن عدتُ إلى هنا من جديد، لقد لبث بيبركوبف زمناً طويلاً، بعيداً، والآن عاد من جديد إلى هنا. لقد عاد صاحبكم، بيبركوبف إلى هنا، من جديد.

دعوا الناس تتقدم، دعوا السهول الفسيحة، العريضة، ومنازل الآجر الأحمر التي يتَّقِد فيها النور، تتقدَّم، دعوها تتقدَّم. دعوا الرحّالين الذي يتجمدَّون من البرد، الذي يحملون أكياساً على ظهورهم. إنه لقاء بعد الفراق، بل هو أكثر من لقاء.

ويقعد، في شارع النبعات في مقصف، ويتناول جريدة، أين يوجد اسمه أو اسم ميتسه أو هربرت أو راينهولد؟ لا شيء. فإلى أين ينبغي أن أذهب، إلى أين سأذهب؟ إيفا، أريد أن أرى إيفا.

إنها ماعادت تسكن مع هربرت. وتفتح المضيفة الباب: لقد ضاع هربرت، فقد نَقَّب المسؤولون الجنائيون في كل أمتعته، ولم يعد من جديد. والأمتعة موجودة في الطابق العلوي، على الأرض، هل يفترض أن تُعْرَض للمزاد؟ هذا ما سوف أسأل

عنه ذات مرة. ويلتقي فرانتس كارل بيبر كوبف بإيفان في الغرفة في مسكن وليّ نعمتهما، وتتقبّله، تتقبَّل فرانتس كارل بيبر كوبف، بسرور.

«أجل، لقد ضاع هربرت، وقد كان خرج بعامين من السجن، وأنا أفعل من أجله ما أستطيع، ولقد سألوا عنك كثيراً أيضاً، وكان ذلك أوَّلاً في تيغِل، وماذا تفعل، يا فرانتس؟» «أموري تسير على مايرام، لقد خرجت من بوخ، ولقد أعطوني رخصة تبيح لي الصيد». «لقد قرأت ذلك مؤخَّراً في الجريدة» «ما أكثر ما يترتَّب على هؤلاء بعدُ أن يكتبوه، من أمور شتّى، غير أني أمرؤٌ ضعيف، يا إيفا. وطعام المستشفى هو طعام المستشفى».

وتنظر إيفا إلى نظرته، فإذا هي نظرة هادئة، غامضة، مَنَقَّبة، لم يسبق لها بعدُ أن رأتها في فرانتس أبداً، ولا تقول عن نفسها شيئاً. لقد حدث لها أيضاً شيء ما يهمّه، غير أنه جِدُّ مشلول، وتلتمس له حجرة، وتساعده، قائلة إنه لا ينبغي عليه أن يفعل شيئاً. ويقول هو ذاته، حين يقعد في الحجرة، وتهمُّ هي بالانصراف: الآن لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

وماذا يفعل بعد ذلك؟ إنه يبدأ، رويداً رويداً، بالخروج إلى الشارع، فيروح ويغدو، هنا وهناك في برلين.

برلين، ٥٢ غراد عرضاً، ٣١ خط العرض شمالاً، ٣١ غراد عرضاً، ٢٥ خط الطول شمالاً، عشرون من محطات القطار الخاصة بالمسافات البعيدة، ١٢١ خطاً من خطوط الضواحي، ٢٧ خطاً دائرياً، ١٤ خطاً داخل المدينة، سبعة قضبان للمناورة، حافلة، خط حديدي عالٍ باص، ولا يوجد سوى مدينة امبراطورية «أ»، وليس هناك سوى فيينا «أ». شوق النساء في ثلاث كلمات. ثلاث كلمات يَتَضَمَّنَّ في ذاتهن، كل الأشواق عند النساء. فلتتصوَّر أن مؤسسة في نيويورك تعلن عن وسيلة جديدة من وسائل التجميل تضفي على شبكية العين الضاربة إلى الصفرة ذلك اللون الضارب إلى الزرقة الذي يعبّر عن النضارة والشباب، والذي لا يكون له وجود إلاّ عند الشباب. ويستطيع المرء أن يحصل على أجمل بؤبؤ يتراوح بين الزرقة العميقة واللون البنّي المخمليّ، من النفير الأنبوبيّ، فلماذا ينفقون الأموال الطائلة من أجل تنظيف الفراء.

ويسير متجوّلاً في المدينة. وهنا يوجد الكثير من الأشياء التي يمكنها أن تهب للمرء الصحة والعافية حين يكون القلب سليماً فحسب.

ويبدأ، أوّلاً، بميدان الإسكندر، إذا مازال هذا موجوداً، وما من شيء يمكن رؤيته في هذا الميدان إذ كان ثمة برودة رهيبة طوال الشتاء بأسره، وهنا لم يكونوا يمارسون شيئاً من الأعمال، بل تركوا كل شيء كما كان. والمدَكّ الكبير ينتصب الآن في ميدان كنيسة جورج، وهنا ينقبون في أنقاض مقهى هان وأطلاله وكانوا قد دفنوا هناك الكثير من قضبان الخط الحديدي.

وربما أصبحت هذه محطة، وحتى فيما عدا هذه الحالة، حدث الكثير في ميدان الإسكندر، غير أنَّ المسألة الرئيسيّة هي أنه هنا، وهنا يركضون على الدوام إلى الجهة المقابلة. وإنه لقَذَرٌ رهيب، لأن إدارة بلدية برلين تتسم بالدماثة وحسن المعشر والنزعة الإنسانية إلى حد بعيد، وهي تدع كل الثلج يذيب نفسه بنفسه ببطء، شيئاً فشيئاً في غمرة الأقذار، بحيث لا يلامسني أحد. وحين تنطلق السيارات تستطيع أن تقفز إلى أقرب دهليز، وإلاّ حصلت، مَجّاناً، على شحنة، من النفايات تنزل على قبعتك، وجازفت بالتعرُّض للشكوى لأنك أخذت معك شيئاً من الأملاك العامة. أما مقصفنا القديم «موكّا- فيكس» فمغلق، وهناك، على الناصية، حانة جديدة، يقال لها: مكسيكو، وهي شيء رائع يلفت الأنظار على النطاق العالمي، فهذا رئيس الطهاة في المطبخ، لدى المِشْواة، في النافذة وهذا منزل للهنود الحمر من القرميد، وقد أقاموا حول ثكنة ميدان الإسكندر سوراً مبنياً من الحجر، ومن يدري ماذا حدث هنا. ينبثقون مندفعين من الحوانيت، ، وقد غُصَّت الحافلات الكهربائية بمن فيها من البشر حتى أوشكت أن تتداعى، وكان لديهم، جميعاً ما يفعلونه، وتذكرة الركوب مازالت عشرين قرشاً، مما يشكِّل خُمْسَ مارك الرايْش، نقداً، وإذا شاء المرء كان في وسعه، أيضاً، أن يدفع ثلاثين قرشاً، أو يشتري لنفسه سيارة فورد، كما يعمل أيضاً خط حديدي عالٍ، وهنا لا توجد درجة أولى ودرجة ثانية، بل هناك درجة ثالثة فحسب، وهنا يقعد الناس جميعاً قعدةً جميلة على الوسائد المنجَّدة، إذا لم يقفوا، وهذا مايُعَدُّ وارداً أيضاً. أما النزول الكيفيّ، المزاجيّ، داخل هذه المسافة فمحظور،

ويتعرَّض المخالف لغرامة قدرها مائة وخمسون ماركاً، وإذا صعب على المرء أن يحاذِر من النزول من القطار فسوف يجازِف بالتعرُّض لصدمة كهربائية. ثم إن الإعجاب الذي يثيره حذاءٌ ما، تجري صيانته بطلاء معيَّن، ويُوَجَّه الرجاء بالركوب، والخروج السريعين، والدخول إلى الممر الأوسط في حالة الزحام والتدافُع.

وهذه كلها أمور جميلة، يمكنها أن تعين إنساناً على أن يقف على قدميه، حتى حين يكون ضعيفاً إلى حَدٍّ ما، إذا ماكان القلب سليماً فحسب. كما يُحْظر بقاء الراكب واقفاً لدى الباب. كلاّ، والرجل المعافى هو بالطبع فرانتس كارل بيبركوبف، إذا كان المعنيّون جميعاً مماثلين له فحسب في اللباقة وماكان الأمر ليكون مُجْدِياً على الإطلاق، حين يدع رجلاً يسرد عليه مثل هذه الحكاية الطويلة، لو لم يكن يقف على قدميه وقفة ثابتة مُحْكمَة، وحين وقف، ذات يوم، تاجر كتب جوّال، في وسط عاصفة من المطر باعثة للفزع، في الشارع، يطلق لسانه بالسباب والشتائم على موارده التافهة، تقدّم سيزر فلا يشلِنْ من عربة الكتب، وكان يصغي إلى أصوات العاصفة دونما حرج، ثم رَبَّت على كلتا كتفَيْ الرجل المبلَّلتين، وقال: «دَعْ عنك العاصفة، وليكن في قلبك شمس، هكذا كان يواسيه، ثم توارى. وكان هذا هو المناسبة التي حَفزَت إلى وضع قصيدة الشمس المشهورة. ومثل هذه الشمس، وهي شمس مختلفة بالطبع، كان بيبركوبف أيضاً، ينطوي عليها في نفسه، وينطوي، فوق ذلك، على قدح صغير من الخمر، وعلى الكثير من خلاصة المَلْت، أو بيرة الشعير، التي مُزِج بها الحساء، وهذا يردُّه، رويداً رويداً، إلى الصحة والعافية. وبهذا السور، أسمح لنفسي أيضاً أن أقدم إليك إسهاماً في قَدْرٍ كبير، ممتاز من حديقة العطور والتوابل الترابينية[١٩]، العائدة إلى العام ١٩٢٥، بسعر مُواتٍ، يبلغ تسعين ماركاً لخمسين زجاجة بما في ذلك تكلفة التعبئة والحَزْم، من هنا، أو

(١٩) نسبة إلى بلدة ترابين يَرارباخ، في مقاطعة راينْلاند بفالتس على نهر الموزل، وهي المقرّ الرئيسي لتجارة الخمور في حوض الموزل. «المترجم»

٦٠ ، ١ مارك للزجاجة ، من دون كأس وصندوق استردهما بسعر مقدُّر محسوب ، الديوديل في حالة تصلُّب الشرايين ، أمّا بيبر كوبف فلا يعاني من تصلُّب الشرايين ، وكل ما يعاني منه ماعاد إلاّ إحساسه بالضعف ، وذلك أنه كان قد صام صوماً مطلَق العنان ، في بوخ ، ومضى في صيامه هذا حتى أوشك أن يموت طوعاً . وهنا تحتاج المسألة إلى وقت يتمكّن المرء فيه من إعادة شحن ذاته . ومن أجل ذلك لا يحتاج ، أيضاً ، إلى منوِّمٍ مغناطيسيّ ، كانت إيفا تريد أن تبعث به إليه ، لأنه كان قد أعانها ذات مرة .

وحين تذهب إيفا ذات مرة معه إلى قبر ميتسه تحصل فوراً على مادة تثير دهشتها وتعجُّبها ، وتلاحظ كيف تتحسَّن حاله ، فلا شيء من البكاء ، بل مجرد حفنة من أزهار التوليب يضعها على القبر ، ويداعب بيده الصليب ثم يتأبط ذراع إيفا ، وينصرف معها .

وفي مواجهة ذلك يقعد معها في محل بيع الحلويات ، فيأكل نوعاً من الفطائر ، على شرف ميتسه ، لأن هذه لم تستطع أن تتناول منها ما يكفي ، وهي ذات مذاق طيب للغاية ، حقاً ، غير أنها ليست بالمشهورة كثيراً ، أيضاً والآن ، وبينما كنا عند صاحبتنا الصغيرة ، ميتسه ، ولا ينبغي للمرء أن يفرط في الذهاب إلى أفنية الكنائس ، هنالك تنتاب المرء حالة إصابة بالبرد ، وربما عاوده ذلك في السنة التالية ، مرة أخرى ، حين يحين أوان عيد ميلادها . ألا ترين ، يا إيفا ، أنا لا أشعر بضرورةٍ هذا ، وفي وسعك أن تصدقيني ، لا أشعر بضرورة الذهاب إلى ميتسه وبالنسبة إليَّ ، فإن هذه حاضرة من دون مقبرة أيضاً ، ورراينهولد أيضاً ، أجل ، راينهولد ، فإني لا أنسى هذا ، ولو أن الذراع نبتت لي أيضاً ، من جديد ، لما نسيت هذا ، فهناك أشياء لا بُدَّ أن يكون المرء معها كومة من قطع قرميد ، لا إنساناً ، إذا ما نَسِيَ هذه . هكذا كان بيبر كوبف يتحدث إلى إيفا بينما كان يتناول تلك الفطائر .

لقد أرادت إيفا . فيما سلف ، أن تكون صديقته ، ولكن الآن ، الآن ماعادت ، هي ذاتها ، تريد ذلك ، وذلك أن المسألة المتصلة بميتسه ، ثم بمستشفى المجانين ،

كانت ، بالنسبة إليها ، فوق مايحتمل ، على الرغم مما تتسم به من الطيب وحسن الخلق في التعامل معها ، ثم إن الصغير الذي كانت تنتظره منه ، لم يأتِ أيضاً ، وكانت قد انقلبت رأساً على عقب ، وكان هذا بالغ الجمال ، ولم يكن مقدَّراً له أن يكون ، غير أنه يُعَدّ ، آخر الأمر ، أيضاً ، الأفضل ، ولا سيما ، حيث لا يكون هناك وجود لهربرت ، ثم إن هذا يُعَدُّ ، بالنسبة لوليّ نعمتها ، أحبَّ إلى قلبه عشرة أضعاف أيضاً ، إذ ليس لها طفل صغير ، إذ تبيَّن للرجل الطيِّب أيضاً ، آخر الأمر ، أن هذا الصغير كان من الممكن أن يكون من رجل آخر أيضاً ، ولا يمكن للمرء أن يحمل هذا منه على محمل السوء .

وهكذا يقعدان ، هادئين ، أحدهما إلى جانب الآخر ، ويفكران ، ويفكران ، في اتجاه خلفيّ ، وفي اتجاه مستقبليّ ، ويأكلان الفطائر ، كما يأكلان فطائر رأس الحصان الأسود مع القشدة .

وواثق الخطوة، يُمْنة ويُسْرة ويسرة ويمنة

وسنرى الرجل أيضاً بمناسبة القضية المرفوعة ضد راينهولد والسمكريّ ماتَّر ، وبالتالي أوسكار فيشر ، بسبب جريمة قتل ، وبالتالي بسبب محاباة ، تتعلق بإميلي بارسونكه ، من برناوْ ، حدثت في الأول من أيلول العام ١٩٢٨ في غابة فراين ، بالقرب من برلين ، ولم يُوجَّه الاتهام إلى بيبركوبف . على أن هذا الرجل ، الأقطع الذراع يثير الاهتمام على النطاق العام ، وباتت تلفت الأنظار إلى حد بعيد ، جريمة القتل التي ارتكبت بحق صاحبته ، والحياة الغرامية في العالم السفليّ ، فقد أصيب ، بعد موتها بمرض عقليّ ، وباتت تحوم حوله شبهة المشاركة في هذه الفعلة ، والمصير المأساويّ . وفي أثناء النظر في القضية يفيد الرجل الأقطع الذراع الذي أعيد تأهيله تماماً ، من جديد ، وبات ، كما تفيد تقارير الخبراء ، مؤهَّلاً للاستجواب: أن الميتة ، التي يسميها ميتسه ، لم تكن لها علاقة براينهولد ، وكان يتجمّع بينه وبين راينهولد ، صداقة حسنة ، غير أن راينهولد كان ينطوي على وَلَع رهيب ، غير طبيعيّ ، بالنساء .

وعلى هذا النحو وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه. أمّا أنَّ راينهولد كان ينطوي على ميل إلى الساديّة. فذلك ما لم يكن يعرفه. على أنه يتكهَّن بأنّ ميتسه ستكون قد قاومت راينهولد في غابة فراين، وعند ذلك فعل فعلته خلال فورة غضبه. هل تعرف شيئاً عن صباه؟ كلاّ، إذ لم أكن أعرفه حينها ألم يحدّثك عن شيء من ذلك أيضاً؟ وهل كان يشرب؟ أجل، بذلك كان ماكان على هذا النحو: ففيما مضى لم يكن يشرب، غير أنه بدأ بذلك مؤخَّراً، أما إلى أي مدى وصل شربه، فذلك ما لم يكن يعرفه، وفيما سلف لم يكن يستطيع احتمال جرعة من البيرة، بل كان يقتصر، دائماً على الليموناذة الغازيّة والقهوة.

ولا يظفرون، بعد ذلك بكلمة عن راينهولد من بيبر كوبف. لا يعرفون شيئاً عن ذراعه، ولا شيئاً عن النزاع الذي نشب بينهما، وعن كفاحهما، لم يكن يُفْتَرَض فيَّ الإقدام على ذلك، ولم يكن ينبغي لي أن أُقْدِم على هذه المغامرة، وفي قاعة المتفرجين كانت تقعد إيفا وعدد من رجال بومز. وكان راينهولد وبيبر كوبف يركِّز كل منهما بصره على صاحبه. ولم يكن الأقطع الذراع يشعر بالرثاء لهذا، الواقف في قفص الاتهام بين كلا الرقيبَيْن الأوَّلَيْن، والمهدَّد بالهلاك، بل كان يشعر بمجرَّد تعلُّقٍ يبعث على الدهشة والعجب. لقد كان لي رفيق لا يوجد أفضل منه، ولم يكن لي بُدٌّ أن أنظر إليه وأُداوِم النظر إليه، والعالم مصنوع من السُكْر والقَذَر، فأنا أستطيع أن أنظر إليك دونما حرج، ومن دون أن يَرِفَّ لي جفن، وأنا أعلم من أنت، وأنا ألقاك هنا، يا بنيّ، في قفص الاتهام. أمّا في الخارج فسألقاك بعدُ ألف مرة، ولكن قلبي سيظل بعيداً عن أن يتحوَّل إلى حجر من جرّاء ذلك.

وكان راينهولد ينوي، إذا ما اعترض سبيله أي شيء كان، أثناء الاستجواب، أن يفضح صَنْعة بومز بأسرها، فهو يريد أن يمكُر بهم جميعاً حين يستفزّونه، وهذا يتوافر لديه من باب الاحتياط ولا سيّما إذا ما أراد بيبر كوبف أن يتبجَّح أمام القاضي، وهو هذا الكلب الذي جاء كل شيء بسببه. ولكن عندئذ يقعد، هنا، في قاعة المتفرجين، رجال بومز، القاعدون على المقاعد، هذه هي المدعوَّة إيفا، وهؤلاء

نفر من الموظفين الجنائيين، وهؤلاء المسؤولون نعرفهم، وهنا يغدو أكثر هدوءاً، ويتردد ويقلِّب الأمر على وجوهه. المرء يعتمد على أصدقائه. ففي بعض الأحيان يجد المرء مخرجاً، وهو يحتاج إلى ذلك في الداخل أيضاً، ونحن بعيدون كل البعد عن أن نبعث السرور في نفوس المسؤولين الجنائيين. ثم إن المدعو بيبر كوبف يتصرف التصرف المبنيّ على الاستقامة والتهذيب، على نحو يبعث على الدهشة، ويفترض أن يكون هذا أقام في بوخ. ومما يبعث على الضحك تلك الكيفية التي تغيَّر بها ذلك المغفَّل، وإنها لنظرة مضحكة، وكأنه لا يستطيع أن يحوِّل وجهة ناظريه، إذا رسخت عيناه في تلك الوجهة، وكأنما انتاب أصولهما الصدأ في بوخ، وهو يتكلم ببطء بالغ، إذ مازال يعاني من ضعف أو قصور في عقله. ويعرف بيبر كوبف، وكأن راينهولد لا يُدْلي، في إفادته، بشيء، أنه لم يكن يدين لهذا بالفضل في شيء.

السجن عشر سنوات لراينهولد، بتهمة الضرب القاتل في حالة الانفعال، والسِّكر والشخصية التي يغلب عليها الدافع الجنسيّ، والنشأةِ المخرَّبة. ويتقبَّل راينهولد العقوبة.

وفي قاعة المتفرجين يصرخ أحدهم عند النطق بالحكم، ثم ينشج بعدئذ بصوت مسموع، إنها إيفا، إذ استحوذت عليها ذكرى ميتسه، أمّا بيبر كوبف فيلتفت إلى الوراء وهو قاعد على مقعد من مقاعد الشهود، حين يسمع النطق بالحكم، ثم يتخاذل جسده أيضاً مُنيخاً بثقله، ويجعل يده تلقاء جبهته. إنه حاصد، يقال له الموت. أنا لَك، لقد أقبلَتْ عليكَ ظريفةً متودِّدة، وحَمَتْك، وأنتَ، ياللعار، فلتصرخ: ياللعار.

ثم تُعرَض على بيبر كوبف، على الفور، بعد الفراغ من القضية، وظيفة، هي مساعد بوّاب في مصنع متوسط الحجم، فيقبلها. ولا يمكن سرد شيء بعد ذلك من حياته.

لقد وصلنا إلى نهاية هذه القصة، وقد طالت، ولكن لم يكن بُدّ أن تتسع، وأن تزداد اتساعاً على نحوٍ مطّرد، إلى أن بلغت تلك الذروة، أي نقطة التحوُّل، التي يسقط منها، قبل كل ماعداها، ضوء على المجموع.

لقد سلكنا طريقاً مظلماً، ففي البداية لم يكن هناك مصباح يتّقد، بل لم يكن المرء يعرف إلاّ أن المسألة ستطول هنا، وكانت الأمور تزداد وضوحاً وانجلاءً، شيئاً فشيئاً، وفي النهاية يتدلّى هنا المصباح، ثم يقرأ المرء تحته آخر الأمر، اللوحة التي تحمل اسم الشارع. لقد كانت عملية كشف، أو إماطة لِثام، من نوع خصوصيّ، وكان فرانتس بيبركوبف لا يشكل الطريق الذي نسلكه، لقد كان يعدو في هذا الطريق المظلم، لا يلوي على شيء، وكان يصطدم بالأشجار، وكان كلما ازداد إيغالاً في العَدْوِ، ازداد اصطدامه بالأشجار، وكان قد خيَّم الظلام، وحين كان يصطدم بالأشجار، كان يغمض عينيه ضاغطاً كل جفن على الآخر بقوة. وما من شك في أنه يصل في النهاية برأس قد أفسدته كثرة ما انتابه من الثقوب والخدوش، وبات لا يكاد يثوب إلى رشده ووعيه. وحين سقط فتح عينيه. هنالك توقَّد المصباح مشرقاً بالنور من فوقه، وبات من الممكن قراءة اللوحة الدالَّة على الطريق.

وهو يَمْثُل في النهاية مساعدَ بوّاب في مصنع متوسط الحجم، فما عاد يقف وحيداً في ميدان الإسكندر فهناك أناس عن يمينه وأناس عن يساره، وأمامه يسير أناس، كما يسير وراءه أناس آخرون.

وينجم الكثير من الشقاء والمآسي عن مسير المرء وحده، وعندما يكون ثمة عدد من الناس تكون المسألة قد اختلفت. ولا بُدَّ للمرء أن يُعَوِّد نفسه الاستماع إلى الآخرين، لأن مايقوله الآخرون يعنيني أنا أيضاً. هنالك أدرك مَنْ أنا وما الذي أستطيع أن أعقد عزمي عليه، وتخاض معركتي في كل مكان من حولي، ولا بُدَّ لي أن أنتبه، وقبل أن أدرك ذلك، أكون قد قدمت حقيقة أنه مساعد بوّاب في مصنع. وما المصير، يا تُرى؟ ثمة واحد أقوى مني، وعندما نكون اثنين يكون قد بات من الأمور الأصعب أن يكون الواحد أقوى منّا، وعندما نكون عشرة، يكون ذلك أكثر صعوبة بعد، وعندما نكون ألفاً، ومليوناً، عند ذلك تكون المسألة صعبة للغاية.

ولكن من الأجمل والأفضل أن يكون المرء مع الآخرين، هنالك أشعر بكل شيء وأعرف كل شيء، مرة أخرى، معرفة حسنة للغاية. والسفينة لا تثبت من دون مرساة كبيرة، والإنسان الواحد لا يستطيع أن يكون من دون البشر الآخرين

الكثيرين، وذلك أنني سأعرف الآن ما هو صحيح وما هو خاطئ، معرفة أفضل. لقد وقعت الآن، ذات مرة، على كلمة، ولم يكن لي بُدٌّ أن أدفع ثمنها وأنا أشعر بالمرارة. ومرة أخرى لا يحدث هذا لبيبر كوبف. هنالك تدرُج الكلمات، منحدرة إلى امرئ معيَّن، ولا بُدّ للمرء أن يحتاط لنفسه لكي لا يُدْهَس، فإذا لم تنتبه إلى الحافلة انتهت بك إلى إشارة إنذار. وأنا لا أقسم، في اللحظة الراهنة، بشيء في العالم، وطني العزيز، في وسعك أن يهدأ بالُك ويقرَّ قرارك، لقد فتحت عيني، ولن أسقط في اللحظة الحاضرة.

إنهم يزحفون غالباً، مع الرايات والموسيقى والغناء، مارّين بنافذته، وينظر بيبر كوبف ببرود إلى خارج بابه. ويظل بعد، وقتاً طويلاً في منزله، دونما حرج. فلتُمْسك عليك لسانك ولتضبط خطوتك، ولتزحف معنا، نحن الآخرين، وحين يكونَ عليَّ أن أسير في رَكْبٍ ما، هل يترتَّب عليّ أن أدفع الثمن فيما بعد، برأسي، وهو ما ابتدعه الآخرون لأنفسهم. ومن أجل ذلك أعيد حساباتي أوَّلاً فيما يتعلق بكل شيء. وحين تصل الأمور إلى هذا المدى، وتلائمني، سوف أتخذ وطني تبعاً لها. لقد أوتي الإنسان العقل، أما الثيران فيكوِّنون، بدلاً من ذلك، نقابة.

ويقوم بيبر كوبف بعمله مساعداً للبواب، فيتسلَّم بطاقات الأرقام، ويراقب السيارات، ويرى مَنْ يدخل ويخرج.

فلتَكُنْ يقظاً، لتكن يقظاً، فثمة شيء ما يجري في هذا العالم. والعالم ليس بمصنوع من السكّر، وحين يقذفون بقنابل الغاز فلا بُدَّ أن أختنق، على أن المرء لا يعرف لماذا قذفوا بها، ولكن المسألة ليست متوقِّفة على هذا. لقد أوتي المرء الوقت ليهتم بهذه المسألة.

وحين يكون ثمة حرب قائمة ويستدعونني إليها وأنا لا أعرف لماذا، والحرب قائمة من دوني أيضاً، أكون آثماً، ويحدث مايحدث لي بحق. فلتكُنْ يقظاً، لتكُنْ يقظاً، فالواحد منا ليس وحده والهواء يمكنه أن ينزل بَرَداً ومَطَراً، ولا يستطيع المرء أن يقاوم. ولكن المرء لا يستطيع أن يقاوم الكثير من الأمور الأخرى. هذا شيء

لن أصرح به مثلما كان ذلك فيما سلف: المصير، المصير، وليس المرء بمضطر إلى أن يمجِّد هذا على أنه مصير، بل يترتَّب على المرء أن ينظر إليه، وأن يمسك به، وأن يفسده.

فلتكُنْ يقظاً، ولتفتح عينيك، ولتنتبه، الألف من الناس ينتمي بعضهم إلى بعض، ومَنْ لا يستيقظ، يُضْحَكْ منه، أو يساق إلى الموت.

الطبل يدق وراءه، فلنزحف، فلنزحف، فنحن خارجون إلى الحرب بخطىً ثابتة، يخرج معنا مائة من أرباب الموسيقى العسكرية، ويا حمرة شفق الصباح ويا حمرة شفق المساء، أنتما تضيئان لنا الطريق إلى الموت السابق لأوانه.

على أن بيبر كوبف عامل صغير، ونحن نعرف مانعرف، ولقد ترتَّب علينا أن ندفع ثمن ذلك غالياً. المسيرة تنطلق إلى الحرية، ولابُد للعالم القديم أن ينهار، فاستيقظ يا هواء الصباح.

ونحن نزحف، بخطى ثابتة، عن اليمين وعن اليسار، إلى الحرب، ويخرج معنا مائة من أرباب الموسيقى العسكرية، إنهم يدقّون الطبول ويصفِرون، فيدهِ بُمْ، فيدهِ بم. أمّا الأول فتستقيم أموره. وأما الآخر فتلتوي عليه الأمور، إذ تسير في طريق معوجّ. والأول يظل واقفاً، على حين يسقط الآخر، رأساً على عقب. والأوّل يتابع الجري، على حين يرقد الآخر في صمت. فيدهِ بُمْ. فيدهِ بُمْ.